

التفسير الميسر

مستخلص من خطب ومحاضرات
ودروس حضرة مرزا بشير الدين محمود
أحمد رحمته الله

المجلد الأول
الفاطحة - آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اسم الكتاب: التفسير الميسر - المجلد الأول
الطبعة الثانية: 1447 هـ الموافق لـ 2026م

An Arabic Rendering of
The Holy Quran with English Translation and Commentary
(The Five Volume Commentary)
By Ḥaḍrat Mirza Bashir-ud-Din Mahmud Ahmad, Khalifatul-Masīḥ II ﷺ
Sūrah al-Fātiḥah – Sūrah Āl Imrān

Revised and edited by:



Email: contact.translation-research@amjinternational.org

First Arabic translation published in the UK in 2025

Second edition published in the UK in 2026

© Islam International Publications Ltd.

Published by:
Islam International Publications Ltd
Unit 3, Bourne Mill Business Park,
Guildford Road, Farnham, Surrey, GU9 9PS
United Kingdom

Printed in Turkey at:

Book and cover design: Zafer Shobarji
Typesetting: Mamoun Sakkal

For further information please visit:
www.islamahmadiyya.net

ISBN:978-1-83596-403-3

فهرس المحتويات

أ.....	مقدمة
ه.....	كلمة الناشر
ز.....	تقدير
ك.....	أسماء المراجع واختصاراتها
١.....	سورة الفاتحة
٤١.....	سورة البقرة
٦٣٧.....	سورة آل عمران



نحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود

مقدمة

بحمد الله تعالى وفضله ورحمته، تشرفت الجماعة بالشروع في نشر «التفسير الميسر»، وهو الترجمة العربية للتفسير ذي المجلدات الخمسة للقرآن الكريم، الذي أُعدّ في الأصل باللغة الإنجليزية تحت إشرافٍ وتوجيهٍ مباشر من حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، خليفة المسيح الثاني ﷺ، ويدخل هذا العمل اليوم إلى العالم الناطق بالعربية كتفسيرٍ موجزٍ سهل الفهم، قائم على علمٍ غزيرٍ وبصيرةٍ موهوبةٍ من الله ﷻ.

ويستند تفسير المجلدات الخمسة نفسه إلى تفسير حضرة الخليفة الثاني البارز باللغة الأردية «التفسير الكبير». وما يُميّز هذا التفسير ليس فقط براعة المؤلف الفكرية، بل المصدر الروحي لفهمه، فطوال حياته، شهد حضرة المصلح الموعود ﷺ مراراً وتكراراً أن الله تعالى كشف له الحقائق العميقة للقرآن الكريم عن طريق الوحي الإلهي. قال حضرته:

«هناك مئات بل آلاف من مفاهيم القرآن الكريم التي قد كشفها الله عليّ بفضله الخاص بالإلهام... ومهما شكرته - سبحانه وتعالى - على هذه النعمة فلن أؤدي حق شكرها. كانت هناك آيات عديدة غير واضحة بالنسبة إليّ، فأنزل الله معانيها على قلبي بوحيه وإلقائه، وهكذا متّعني بعلمه الخاصة» (التفسير الكبير، المجلد ٨).

لقد شكّلت هذه الموهبةُ الإلهيةُ المنهجيةُ التي اتبعها في تفسير القرآن الكريم. فقد أوضح أن القرآن الكريم يحمل في طياته معاني عديدة، وأن آياته يجب ألا تُفهم من خلال السياق فحسب، بل من خلال الترابط والانسجام بين جميع سورته، بل وحتى القرآن الكريم ككل. وأعلن أن هذا المفتاح الشامل هو في حد ذاته نعمة من الله وحده.

ومن بين التجارب الروحية الفريدة التي أثرت في تفسيره، المنام الشهير الذي رآه في طفولته، حيث ظهر له ملك وعلمه تفسير سورة الفاتحة. ويقول عن ذلك:

«لقد رأيتُ في الرؤيا وأنا صغير أن أحداً ضرب كأساً معدنيّاً، فخرج منه صوت. ثم رأيت أن الصوت أخذ في الانتشار والاتّسع كاتّسع الماء الذي يلقي فيه حجر فتتحرك أمواجه على شكل دائرة صغيرة، ثم تتسع هذه الدائرة وتتسع. فلم يزل هذا الصوت ينتشر ويتسع في الجو حتى تكوّن في وسط الجو بالضبط إطار فارغ. ثم رأيت أن صورة أخذت تتشكل في الإطار، وتحولت بالتدريج إلى صورة إنسان. ثم تحركت الصورة فجأة، وقفز منها إنسان وجاء ووقف أمامي، وقال: إني ملاك وقد بعثني الله تعالى إليك لكي أعلمك تفسير سورة الفاتحة. فبدأ يعلمني تفسيرها. ولما بلغ قولَ الله تعالى {إياك نعبد وإياك نستعين} قال: إن كل التفاسير السابقة قد انتهت إلى هنا، ولو شئتَ علّمتُك تفسير ما بعده. فقلت: نعم، علّمني المزيد. فعلمّني تفسير سورة الفاتحة كلها» (التفسير الكبير، المجلد ٥).

وتشمل تفاسير حضرة المصلح الموعود أمثلة عديدة عن مواضع انكشفت له فيها ترتيبات موضوعية معقدة، وروابط دقيقة بين السور، ومسائل عقائدية متشعبة، وذلك في لحظات من الهداية الإلهية، وأحياناً حتى وهو ساجد في الصلاة. وقد شهد على ذلك بنفسه قائلاً:

«إنه ليكفي ملاحظاتي هذه شرفاً أن كشف الله علي فيها - برحمته وفضله - أموراً كثيرةً وفق متطلبات هذا العصر» (التفسير الكبير، المجلد ٣).

وبفضل هذه المعونة الإلهية الفريدة، لا يتناول تفسيره المسائل الدينية التقليدية فحسب، بل يتناول أيضاً التحديات الفكرية المعاصرة. وتُقدّم رؤاه اتساقاً حيث رأى العلماء السابقون صعوبة، وترابطاً حيث رأى المفسرون السابقون تشتتاً، ونوراً جديداً حيث بدت التفسيرات السابقة ناقصة. لقد شرح العديد من هذه الحقائق القرآنية، مثل ترابط سورة البقرة، وأهمية البسملة كمفتاح لكل سورة، والحكمة الكامنة وراء

ترتيب ذكر الأنبياء في بعض الآيات، والنبوءات التاريخية المضمنة في سورة الفاتحة، أو المعنى الأعمق لسور مثل الفجر والنجم، وذلك من خلال تفسيره لأُمُور أوحى الله إليه بها.

لذا فإن التفسير الكبير ليس مجرد تحفة علمية، بل هو تعبير عن البصيرة القرآنية التي أنعم الله بها على المصلح الموعود الذي كان من جملة مهامه إحياء الفهم القرآني في العالم المعاصر.

وعلى هذا الأساس الروحي والفكري جُمعت تفسيرات المجلدات الخمسة باللغة الإنجليزية، وعلى الأساس نفسه أعدّ هذا العمل، التفسير الميسر، للقارئ العربي.

تهدف هذه الطبعة إلى تقديم تلك الأفكار بأسلوب واضح وميسر وموجز، مع الحفاظ على العمق والترابط اللذين يميزان رؤية حضرة المصلح الموعود للقرآن الكريم.

إذ نقدم المجلد الأول من هذا المسعى المبارك، نتقدم بالشكر الجزيل لله عز وجل.

ومع أنه لا يمكن لأي تفسير أن يدّعي الكمال في شرح كلام الله الأزلي، فإن هذا العمل يعكس توليفة فريدة من نوعها بين العلم والإلهام الإلهي.

فآمل أن يكون التفسير الميسر وسيلةً للهداية والتأمل والإثراء الروحي للعلماء والطلاب والباحثين عن الحقيقة في جميع أنحاء العالم العربي.

وأسأل الله العليّ القدير أن يرزقنا القدرة على الاستفادة من بحار المعرفة القرآنية هذه، وأن يوفقنا لتطبيق هدايتها في حياتنا، آمين.

مرزا مسرور أحمد

خليفة المسيح الخامس

نحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود

كلمة الناشر

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، أنزله على نبيه محمد ﷺ على مدى ثلاثة وعشرين عاماً. وبنزوله، تجلّى إعجازه للناس ورقى أسلوبه وسموّ مضامينه وأثره على النفوس، فاعترف المنصفون من أولي الفطرة الطيبة بذلك، وأقرّ بتأثيره حتى بعض أعدائه، وعزوه إلى السحر، ووصفوا النبي ﷺ بالساحر، وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ مقرين بقوة تأثيره. ثم سرعان ما أسرهم بيانه وآمنوا به وصاروا من أشد المعجبين والمؤمنين، وهلك الأشقياء الذين غلبت عليهم شقوتهم ولم يستطيعوا أن يطفئوا نوره؛ إذ قد تكفل الله تعالى بحفظه حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وبفضل توجيه النبي ﷺ، أولى المسلمون الأوائل - من الحفظة والنساخ وسائر المسلمين - عناية كبيرة ودقة عظيمة في جمعه وتلاوته وحفظه. وكانوا شديدي الحرص على عدم خلط كلام الله تعالى بأقوال النبي ﷺ أو ملاحظات الصحابة الشخصية.

وبعدما استُكمل حفظ النص القرآني ونُشر على نطاق واسع، برزت الحاجة إلى تفسير معانيه. إلا أن كلام الله، بما فيه من نبوءات عظيمة وحقائق عميقة، يظل ذا أبعاد لا متناهية، يتعذر الإحاطة بها تماماً في أي تفسير بشري.

ومع ذلك، ومن أجل مساعدة القراء على فهم السياق التاريخي ومغزى الآيات القرآنية، ألّف عدد من العلماء البارزين تفاسير متعددة، اعتمدت في الغالب على الأحاديث النبوية، والسنة الشريفة، ومعاجم اللغة، والمرويات التاريخية.

غير أن بعض المفسرين، خلال هذه المسيرة، استندوا أحياناً إلى روايات مأخوذة من التقاليد اليهودية والنصرانية في تفسير بعض الآيات. وفي القرون القليلة الماضية،

ظهرت تفاسير وضعها بعض المستشرقين، انتقدوا فيها بعض الآيات، مستندين إلى رؤاهم التاريخية وتقاليدهم الدينية الخاصة.

أما هذا التفسير، المكون من خمسة مجلدات، فيستند إلى التفاسير العظيمة التي قدمها حضرة المصلح الموعود، مرزا بشير الدين محمود أحمد رحمته الله، الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام. الذي اعتمد على السنة والحديث والروايات الموثوقة واللغة العربية، وعلى كلام المسيح الموعود عليه السلام وشروحاته الإلهامية، ليقدم منظوراً جديداً ومتجدداً لمعاني القرآن الكريم. كما أنه يردّ بفعالية وحزم على انتقادات المستشرقين المعاصرين.

تُعَدُّ الترجمة العربية للمجلد الأول إضافةً قيّمةً إلى رصيد الجماعة الإسلامية الأحمدية من المؤلفات العلمية. وقد أنجز هذا العمل المهم بتوجيه كريم ورعاية مباشرة من الخليفة الخامس، حضرة مرزا مسرور أحمد رحمته الله، مما يُجسّد حرص الجماعة المُستمر على نشر القرآن الكريم وعلومه وتفسيره. وقد أُسندت مسؤولية هذا المشروع إلى المكتب المركزي للترجمة والبحث بإدارة الأستاذ محمد إبراهيم إخلف. وأُعرب عن خالص امتناني له ولفريقه على جهودهم المُتميزة واجتهادهم الأكاديمي والتزامهم الراسخ بهذه المهمة النبيلة.

نسأل الله تعالى أن يبارك في عملهم وأن يوفقهم لإتمام جميع المجلدات الخمسة من التفسير باللغة العربية بنجاح.

الحاج منير الدين شمس

وكيل التصنيف الإضافي، لندن

يونيو/حزيران ٢٠٢٥

نحمده ونصلي على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود

تقديم

هذا التفسير للقرآن الكريم هو الترجمة العربية لتفسير المجلدات الخمسة الإنجليزية المبني في الأساس على ما قدمه حضرة المصلح الموعود مرزا بشير الدين محمود أحمد رحمته الله، الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام من تفسير للقرآن الكريم، من خلال ما جمعه العلماء من دروسه ومحاضراته وخطبه وكتابه وملاحظاته التفسيرية.

ولقد نُشر لحضرته تفسير تفصيلي باللغة الأردية، في عشر مجلدات، تحت مسمى «التفسير الكبير»، شمل تفسير السور التالية: الفاتحة والبقرة، ومن سورة يونس إلى سورة العنكبوت، ومن سورة النبا إلى سورة الناس. وقد استند هذا التفسير على ما جاء فيه. أما بقية السور، أي من سورة آل عمران إلى سورة التوبة، ومن سورة الأحقاف إلى سورة المرسلات، فقد استعان المحررون بالملاحظات الكثيرة التي كان قد دَوَّنَها حضرة الخليفة الثاني عليه السلام، لإعداد تفسير مفصل وشامل، ولكنه لم يتمكن للأسف من إتمامه في حياته.

مساهمة خالدة في تفسير القرآن الكريم:

هذا التفسير تحفة نفيسة وفريدة، قدّمت شرحاً رائعاً لمعاني القرآن الكريم الحقيقية. ومع أنه لا يمكن لأيّ تفسير أن يدّعي الإحاطة بالمعنى النهائي للقرآن الكريم، إلا أن الطريقة التي فُتِح بها هذا الكنز الثمين على يد مؤلفٍ يتمتع ببصيرة عميقة في معاني الكتاب العزيز، قد أرسّت بلا شك معياراً ينبغي أن تُقاس به جميع التفاسير المستقبلية.

تطوير النسخة العربية:

تولى المرحوم الأستاذ مصطفى ثابت والدكتور حاتم الشافعي الترجمة الأولية للمجلد الأول من هذا التفسير، ندعو الله أن يتقبل منهما ويجعل هذا العمل الفذ في ميزان حسناتهما، آمين.

ومع تقدم المشروع، تولى مسؤولية الترجمة المكتب المركزي للترجمة والبحث بتوجيه مباشر ورعاية كريمة من حضرة خليفة المسيح الخامس عليه السلام، وقد أطلق حضرته على هذا التفسير اسم «التفسير الميسر».

وحيث تبين أن بعض الفقرات تتطلب إعادة ترجمة لضمان الاتساق والدقة والوضوح، أجرى المكتب المركزي للترجمة والبحث مراجعة شاملة ودقيقة للنص العربي ومقارنته بالنص الإنجليزي الأصلي، تلتها مراحل متعددة من التحسين التحريري بهدف الحفاظ على أعلى معايير الجودة اللغوية والدقة في الترجمة، والتي تطلبت فهماً عميقاً للتعابير الاصطلاحية والنطاق الدلالي الأوسع لكل من لغتي المصدر والهدف.

شكر وتقدير:

في هذا السياق، لعبت الأستاذة ريم إبراهيم والأستاذ ذیشان خالد دوراً محورياً في الإشراف على هذا المشروع، فنقدم لهما بخالص الشكر والامتنان. كما قام الأستاذ محمد إبراهيم إخلف بالمراجعة والتدقيق الأخير.

نتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ ذو الفقار راجا، الذي أشرف على تنضيد هذه الطبعة، وللأستاذ محمد أمين الراقي، الذي ساهم في إتمام هذا العمل.

ونود أن نُعرب عن امتناننا العميق للأستاذ تيم أبو دقة الذي قام بالتدقيق اللغوي، وشكر خاص للأستاذة نور البراقي، والأستاذة ضحى البراقي والأستاذة عائشة عودة على مساهماتهن القيّمة.

ونتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ محمد شريف عودة، أمير الجماعة الإسلامية الأحمدية في الديار المقدسة وللأستاذ مظفر أحمد ملك، وفريق دار الرقيم، على ما قدموه من نصائح قيّمة فيما يتعلق بطباعة الكتاب.

جزاهم الله تعالى وأسرههم خير الجزاء على تضحياتهم، وبارك فيهم دنيا وآخرة، آمين.

هيكل المجلد وتوضيح العنوان:

نلفت عناية القارئ إلى أن المجلد الأول من النسخة الإنجليزية لهذا التفسير يتضمّن مقدمة عامة في تفسير القرآن الكريم، بالإضافة إلى تفسير سورتي الفاتحة والبقرة.

أما في هذا الإصدار من التفسير الميسّر، ووفقاً لتوجيهات حضرة أمير المؤمنين عليه السلام، فقد اشتمل المجلد الأول على تفسير سور الفاتحة والبقرة وآل عمران. وأما المقدمة العامة في تفسير القرآن الكريم، فقد تُرجمت إلى العربية ونُشرت عام ٢٠٠٥ م تحت عنوان «التفسير الوسيط - الجزء الأول».

المكتب المركزي للترجمة والبحث

فارنام، المملكة المتحدة

حزيران/يونيو ٢٠٢٥

أسماء المراجع واختصاراتها

يستعمل بعض المفسرين حرفاً أو مجموعة من الحروف اختصاراً لاسم المراجع المستعمل، غير أن هذا لا يفيد القارئ كثيراً لأنه يضطر إلى الرجوع مرات ومرات إلى قائمة الاختصارات للتأكد من معنى الحرف المستعمل للدلالة على المراجع. وفي نفس الوقت يبدو أنه من غير المناسب كتابة اسم المراجع بأكمله في كل مرة يُذكر فيها. ولذلك اتبعنا طريقاً وسطاً، وذكرنا اسماً مختصراً للمراجع، فمثلاً بدلاً من كتابة اسم المراجع على النحو التالي: «البحر المحيط لابن حيّان»، اكتفينا بكتابة «البحر المحيط» أو «المحيط»، وبدلاً من «السيرة النبوية للشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام» اكتفينا بكتابة «ابن هشام». وهذه الأسماء المختصرة تدل القارئ بسهولة على المراجع المقصود. أما المراجع التي تستعمل بكثرة فلم نذكر لها اختصاراً، وبالنسبة لأسفار الكتاب المقدس، ذكرنا الصيغة التي يستعملها عادة أهل الكتاب، وهي ذكر اسم السّفر متبوعاً برقم الإصحاح ثم رقم الفقرة أو الفقرات المستشهد بها. وفيما يلي قائمة بأسماء المراجع والاختصارات المستعملة، وقد راعينا كتابة اسم المراجع ومؤلفه كامليين.

الاسم المختصر	اسم المراجع والمؤلف
كتب الحديث الشريف	
البخاري	صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.
مسلم	صحيح مسلم، الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري.
الترمذي	جامع الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي.
أبو داود	سنن أبي داود، الحافظ سليمان بن الأشعث أبو داود.

ابن ماجه	سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله بن ماجه القزويني.
المسند (أو مسند ابن حنبل)	مسند أحمد بن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل.
النسائي	سنن النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي.
البيهقي	سنن البيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي.
كنز العمال	كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الشيخ علاء الدين علي المتقي.
الدارقطني	سنن الدارقطني، الحافظ علي بن عمر الدارقطني.
القسطلاني	إرشاد الساري، أحمد بن محمد الخاطب القسطلاني.
فتح الباري	فتح الباري، أبو الفضل شهاب الدين بن علي العسقلاني.
ابن عساكر	تاريخ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر.
المنائوي	فيض القدير شرح الجامع الصغير، للإمام عبد الرؤوف المناوي.
الدارمي	سنن الدارمي، الحافظ أبو محمد عبد الله بن الرحمن التميمي الدارمي السمرقندي.

مراجع تفسير القرآن المجيد

الطبري (أو ابن جرير)	جامع البيان في تأويل آي القرآن، الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
ابن كثير	تفسير القرآن العظيم، أبو الفدا إسماعيل بن كثير.

الكشاف	الكشاف عن غوامض التنزيل، الإمام محمود بن عمر الزمخشري.
البحر المحيط	البحر المحيط، أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف الغرناطي، أبو حيان.
الدر المنثور	الدر المنثور، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي.
القدير (أو فتح القدير)	فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني.
فتح (أو فتح البيان)	فتح البيان، أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي.
البيان (أو روح البيان)	روح البيان، الشيخ إسماعيل حقي.
التفسير (أو التفسير الكبير)	التفسير الكبير، حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، الخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام .
الثعالي	الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الشيخ عبد الرحمن الثعالي.
التمييز	بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.

المعاجم ودوائر المعارف والدوريات

المنجد	المنجد في اللغة، علي بن الحسن الهنائي الأزدي.
بحار (أو بحار الأنوار)	مجمع بحار الأنوار، الشيخ محمد طاهر العجراتي.
كليات أبي البقا	الكليات، أبو البقا الحسيني.
مفردات (أو مفردات الراغب)	المفردات في غرائب القرآن، الشيخ أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني.
لسان العرب	لسان العرب، الإمام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم.

تاج (أو تاج العروس)	تاج العروس، أبو الفيض سيد محمد مرتضى الحسيني.
لين (أو معجم لين)	المعجم العربي الإنجليزي.
القاموس	القاموس، الشيخ نصر أبو الوفا.
أقرب (أو أقرب الموارد)	أقرب الموارد، سعيد الخوري الشرتوتي.
مصباح	المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي.
جيسينيوس	المعجم العبري الإنجليزي، جيسينيوس.
دائرة المعارف البريطانية	دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٤.
دائرة المعارف اليهودية	دائرة المعارف اليهودية.
دائرة معارف الأديان	دائرة معارف الأديان والأخلاقيات.
دائرة معارف الكتاب المقدس	دائرة معارف الكتاب المقدس.
دائرة معارف الإسلام	دائرة معارف الإسلام.
مجلة مقارنة الأديان	مجلة مقارنة الأديان.
الزمنخشري	أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمنخشري.
كردون	معجم كردون لألفاظ العهد القديم (أبو كريفا).

مراجع التاريخ والجغرافيا

الطبري	تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
موير	حياة محمد، السير وليام موير ١٩٢٤.

الخلافة	الخلافة قيامها وضعفها وسقوطها، السير وليام موير.
ابن هشام	سيرة النبي، الشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام.
الخميس	تاريخ الخميس، الشيخ حسين بن محمد الديار البكري.
الزرقاني	شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، إمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني.
أسد الغابة	أسد الغابة في معرفة الصحابة، الحافظ أبو الحسن علي بن محمد.
زاد المعاد	زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية.
البلدان	معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي.
مروج الذهب	مروج الذهب ومعادن الجوهر، العلامة علي بن الحسين المسعودي.
الأثير	كامل ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ابن الأثير.

مراجع التصوف والعقائد

الفتوحات (أو)	الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي.
الفتوحات المكية)	ملائكة الله، حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد،
ملائكة الله	الخليفة الثاني للمسيح الموعود.

مراجع العلوم والفلسفة والأدب

المبرّد كتاب الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد.

مراجع قواعد اللغة

سيبويه سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو بشر،
الملقب سيبويه.

مراجع الفقه

المحلّي المحلّي، الإمام محمود علي بن أحمد بن سعيد بن حزم.

المعاني

المختصر مختصر المعاني، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني.

المطوّل المطوّل، مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني.

كتب المسيح الموعود (حضرة مرزا غلام أحمد القادياني عليه السلام)

توضيح المرام

مرآة كمالات الإسلام

إزالة الأوهام

حقيقة الوحي

فلسفة تعاليم الإسلام

أسفار الكتاب المقدس

التكوين سفر التكوين.

الخروج سفر الخروج.

اللاويين	سفر اللاويين.
العدد	سفر العدد.
الأمثال	سفر الأمثال.
التثنية	سفر التثنية.
نحميا	سفر نحميا.
أشعيا	سفر أشعيا.
إرميا	سفر إرميا.
غلاطية	سفر غلاطية.
روميا	سفر روميا.
دانيال	سفر دانيال.
حزقيال	سفر حزقيال.
ملاخي	سفر ملاخي.
رؤيا	سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي.
متّى	إنجيل متّى.
لوقا	إنجيل لوقا.
مرقس	إنجيل مرقس.
يوحنا	إنجيل يوحنا.

متنوعات

المأوردي.

جريدة الحكم، قاديان.

جريدة الفضل، قاديان.

إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، حضرة شاه ولي الله.

الزند-أفستا.

الجماسبي، لجاماسب، الخليفة الأول لزرادشت.

الذساتير.

المراجع الإنجليزية وغيرها

AL-KORAN by George Sale.

American Medical Journal.

Capital Punishment in the Twentieth Century, by E. Roy Calvert.

Commentaries on the Old and the New Testaments, published by Society for Promoting Christian Knowledge, London.

Commentary, by C.J. Elliott, Lord Bishop of Gloucester.

Concordance by Alexander Cruden.

Cyclopaedia of Biblical Literature (New York, 1877).

Decline and Fall of the Roman Empire, by Edward Gibbon.

Diodorus Siculus (Translation by C.M. Oldfather, London, 1935).

Elwood Morris Wherry, Comprehensive commentary on the Quran.

Hebrew English Lexicon.

Historians' History of the World, by Henry Smith Williams.

History of Palestine and the Jews, by John Kitto (London, 1844).

History of the Nations by Walter Hutchinson.

John Medows Rodwell Translation of the Quran.

Leaves from Three Ancient Qur'ans, edited by Rev. A. Manganin, D.D.

Life of Napoleon, by John S.C. Abbott.

Merriam-Webster Dictionary.

Midrash Rabbah.

Moses and Monotheism, by Sigmund Freud.

On Heroes and Hero-Worship, by Thomas Carlyle.
The Dawn of Conscience, by James Henry Breasted.
The Jewish Foundation of Islam.
The Making of Humanity, by Robert Briffault.
The Pilgrimage, by LT. Burton.
The Scofield Reference Bible.
The Talmud (Selections by H. Polano).
Translation of the Targums, by J. W. Etheridge (London, 1862).



(١)

﴿سورة الفاتحة﴾

(مكية)

مكان وزمان نزول الوحي:

يذكر عدد كبير من المحدثين أن هذه السورة نزلت بأكملها في مكة، وأصبحت منذ اللحظة الأولى جزءاً لا يتجزأ من الصلاة. وتشير الآية ٨٨ من سورة الحجر ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ إلى سورة الفاتحة، علماً بأن سورة الحجر مكية كما هو معروف. وتذكر بعض الروايات أن الوحي نزل بها مرة أخرى بالمدينة. ولكن لا بد أن يكون توقيت نزول الوحي بها في المرة الأولى في مهد الدعوة النبوية.

أسماء هذه السورة وأهميتها:

أكثر الأسماء شهرة لهذه السورة القصيرة هو «فاتحة الكتاب»، وهو مأخوذ عن عدد من رواة الحديث الموثوق بهم (الترمذي ومسلم). ولقد تم اختصار هذا الاسم فيما بعد فأصبح «سورة الفاتحة» أو «الفاتحة» فقط.

وقد أطلق على هذه السورة أسماء عدة، منها الأسماء العشرة الأصلية الآتية: «الفاتحة»، «الصلاة»، «الحمد»، «أم القرآن»، «القرآن العظيم»، «السبع المثاني»، «أم الكتاب»، «الشفاء»، «الرُّقية»، «الكنز». وتلقي هذه الأسماء فيضاً من النور على الأهمية الشديدة لهذه السورة.

- ويبدو من اسم «فاتحة الكتاب» أنه يجب وضع هذه السورة في بداية القرآن المجيد وأنها مفتاح لمعانيه.

- أما اسم «الصلاة» فيرمز إلى أن هذه السورة تمثل دعاءً كاملاً، وأنها جزء لا يتجزأ من الصلاة الإسلامية.
- ويدل اسم «الحمد» على أن هذه السورة تلقي الضوء على الهدف الجليل لخلق الإنسان، وتعلمنا أن علاقة الله بالإنسان هي علاقة رحمة ورحمانية.
- ويشير اسم «أم القرآن» إلى أن السورة تحتوي على خلاصة القرآن المجيد بالكامل، إذ تقدم للإنسان، بصيغة موجزة، كل ما له تأثير على سلامة أخلاقه وروحانياته.
- ويدل اسم «القرآن العظيم» إلى أنه رغم كون هذه السورة معروفة باسم «أم الكتاب» و«أم القرآن»، إلا أنها تظل جزءاً من القرآن المجيد وليست منفصلة عنه كما يعتقد بعض الناس.
- ويدل اسم «السبع المثاني» (أي السبع آيات التي يعاد قراءتها تكراراً) أن السبع آيات القصيرات في هذه السورة تلي كافة احتياجات الإنسان الروحية. ويدل الاسم أيضاً على أنه يجب تكرار قراءة هذه السورة في كل ركعة من ركعات الصلاة.
- أما اسم «أم الكتاب» فيشير إلى أن الدعاء الموجود في هذه السورة هو سبب نزول الوحي القرآني.
- ويرمز اسم «الشفاء» إلى أن السورة تُقدم الدواء لكل الشكوك والوساوس.
- ويرمز اسم «الرُّقية» إلى أن السورة ليست مجرد دعاء يقي من العلل، ولكنها أيضاً تقدم الحماية من الشيطان وأتباعه، وتُقوِّي قلب الإنسان في مواجهتهم.
- كما يرمز اسم «الكنز» إلى أن هذه السورة كنز لا ينضب من المعرفة.

الفاتحة المذكورة في نبوءة بالعهد الجديد:

إن أكثر الأسماء شيوعاً لهذه السورة هو «الفاتحة». ومن اللافت أن هذا الاسم بذاته موجود في نبوءة بالعهد الجديد. يقول سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٠: ٢-١: «ثم رأيت ملاكاً آخر قوياً نازلاً من السماء متسربلاً بسحابة وعلى رأسه قوس قزح ووجهه كالشمس

ورجلاه كعموديّ نار. ومعه في يده سفر صغير مفتوح فوضع رجله اليمنى على البحر واليسرى على الأرض». وكلمة «مفتوح» باللغة العبرية هي «فَتوح» التي هي كلمة «فاتحة» باللغة العربية. واستكمالاً لل فقرات المذكورة من سفر الرؤيا ١٠: ٣-٤ يقول: «صرخ (أي الملاك) بصوت عظيم كما يزجر الأسد، وبعد ما صرخ تكلمت الرعود السبعة بأصواتها». وترمز الرعود السبعة إلى الآيات السبع لهذه السورة. ويقرّر علماء الدين المسيحيين أن هذه النبوءة تشير إلى القدوم الثاني ليسوع المسيح، وقد تم إثبات هذا بحقائق واقعة. والجدير بالذكر أن مؤسس الجماعة الأحمدية، حضرة مرزا غلام أحمد عليه السلام، الذي أعلن أنه هو الذي حقق نبوءة القدوم الثاني لعيسى عليه السلام، كان يحمل دائماً بيديه سورة الفاتحة، كما أنه كتب لها عدة تفاسير. وكان يستنبط من محتوياتها الأدلة على صدقه، ولطالما أشار إليها في خطبه وكتابه، وكان يستخدمها دائماً كنموذج للدعاء، حاثاً تلاميذه على أن يفعلوا مثله. ولقد استخلص من الآيات السبع القصيرة لهذه السورة حقائق لم تكن معروفة من قبل. وكأن هذه السورة كانت كتاباً مغلقاً إلى أن اكتشف كنوزها حضرة أحمد عليه السلام. وبذلك تحققت النبوءة الموجودة في سفر الرؤيا ١٠: ٤ التي تقول: «وبعد ما تكلمت الرعود السبعة بأصواتها كنتُ مزمّعاً أن أكتب فسمعت صوتاً من السماء قائلاً لي اختتم على ما تكلمت به الرعود السبعة ولا تكتبه». وتشير هذه النبوءة إلى أن «الفتوح» أو «الفاتحة» ستبقى كتاباً مغلقاً لمدة من الزمن، وأنه سيأتي الوقت الذي تُفتح فيه.

موضوع السورة:

تحتوي هذه السورة على خلاصة القرآن المجيد بأكمله. وهي تتكوّن من الخطوط العريضة لجميع الموضوعات التي يتعرض لها القرآن المجيد بالتفصيل. وتبدأ السورة بسرد الصفات الرئيسة لله تعالى، التي هي المحور الذي تدور حوله جميع الصفات الإلهية الأخرى، والتي تُعتبر أساس تشغيل الكون وعلاقة الله ﷻ بالإنسان. وتدل هذه الصفات الرئيسة، أي «رب العالمين» و«الرحمن» و«الرحيم» و«مالك يوم الدين»، على

أن الله تعالى عندما خلق الإنسان زوّده بأحسن الإمكانيات وأفضل الطاقات، ووفّر له كل ما يحتاج لنموّه وتطوّره الجسماني والاجتماعي والأخلاقي والروحي. بل أكثر من ذلك، لقد قرر الله للإنسان مكافأة جزيلة على كل أعماله وجهوده.

ثم تحدثنا السورة عن أن الإنسان قد خُلِق من أجل عبادة الله تعالى والتقرب إليه، وأنه في حاجة إلى عون الله ومساعدته حتى يتمكن من تحقيق هذا الهدف الجليل.

بعد ذلك نجد دعاءً شاملاً فيه تعبير كامل عن كل نزعات النفس البشرية. ويعلمنا الدعاء أن نسأل الله دائماً ونطلب معونته، حتى يعطينا ما نحتاج إليه لتحقيق النجاح في هذه الحياة الدنيا، وفي الحياة الآخرة. وحيث إن الإنسان يستمد قوّته وإقدامه من المثل الحسن الذي يراه في الشرفاء العظماء الذين عاشوا حياة ناجحة في الماضي، تعلمه السورة أيضاً دعاء الله تعالى وسؤاله أن يفتح له طرق التقدم الأخلاقي والروحاني، كما ساعد ﷺ وأعان أولئك الصالحين المتقين في تحقيق الهدف من حياتهم.

وأخيراً، يتضمّن الدعاء تحذيراً من أن الإنسان قد يضلّ عن الطريق الصحيح أحياناً بعد أن يهتدي إليه، وأنه قد يغفل عن هدفه فيبتعد عن خالقه. ولذلك تحثنا السورة على أن نبقي على حذر، وأن نطلب حماية الله تعالى على الدوام كيلا نبتعد عنه.

هذا هو الموضوع المذكور باختصار في سورة الفاتحة، ويتناوله القرآن المجيد بإسهاب وتفصيل، مع ذكر أمثلة عديدة لهداية القارئ.

صلة السورة ببقية القرآن الكريم:

تعتبر هذه السورة مقدّمة للقرآن المجيد، وملخصاً للكتاب العزيز بأكمله. وهكذا يتعرّف القارئ في بداية دراسته للقرآن الكريم على الخطوط العريضة للموضوعات التي يتوقع قراءتها. والجدير بالذكر أن الرسول ﷺ قد أشار إلى أن سورة الفاتحة هي أهم سورة في القرآن، فعن أبي سعيد بن المعلّى قال: كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّي كُنْتُ أَصَلِّي فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ

وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. ثُمَّ قَالَ لِي: لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ (البخاري، كتاب تفسير القرآن).

دعاء ما قبل ترتيل القرآن الكريم:

أمر الله تعالى المسلمين أن يبدأوا قراءة القرآن المجيد دائماً بدعاء قصير يستعينون فيه بالله تعالى ليحميهم من الشيطان. إذ يقول الله تعالى في الآية ٩٩ من سورة النحل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾. وكلمة إعادة أو حماية تتضمن (١) ألا يقع بنا مكروه؛ (٢) ألا يفلت منا خير؛ (٣) ألا نرجع للفساد بعد أن اهتدينا.

وهكذا، بطلب حماية الله تعالى عند ترتيل القرآن المجيد، فإننا ندعو أولاً: ألا يفلت منا أي من تعاليم الكتاب العزيز بسبب ضعفنا أو جهلنا، أو نتيجة لأخطائنا، أو تحت تأثير صحبة السوء. ثانياً: ألا نخفق في الفهم الصحيح لأي من تعاليم القرآن المجيد. ثالثاً: ألا نعود للجهل مرةً أخرى بعد أن فهمنا. والكلمات التي يجب ذكرها في هذا الدعاء هي: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ويجب ذكرها قبل ترتيل القرآن الكريم.

معنى ودلالة كلمة «سورة»:

يطلق اسم «سورة» على كل فصل من القرآن المجيد، وهناك مائة وأربع عشرة سورة. وتعني كلمة سورة: (١) مقام وتميز؛ (٢) علامة أو لافتة؛ (٣) صرح جميل ورفيع؛ و(٤) شيء مليء وكامل (أقرب الموارد وتفسير القرطبي). وتُسمى فصول القرآن المجيد بالسور للأسباب الآتية: (أ) ينال المرء رفعة في المقام بقراءتها ويصبح متميزاً من خلالها. (ب) تكون علامات لبداية ونهاية الموضوعات المختلفة التي يتناولها القرآن المجيد. (ج) كلُّ منها كأنه صرح روحي شريف. و(د) تحتوي كل سورة على موضوع بأكمله.

وقد استعمل القرآن المجيد نفسه كلمة «سورة» للتعبير عن هذا التقسيم، كما في الآية ٢٤ من سورة البقرة: ﴿قَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، وأيضاً الآية الثانية من سورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾. كما أنها استُخدمت أيضاً في الحديث الشريف، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهَرِنَا إِذْ أَعْفَى إِعْقَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةً سُورَةٌ فَقَرَأْتُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)“ (مسلم- كتاب الصلاة).

ومن هذا يتبين لنا أن لفظ «سورة» الذي يطلق على القسم من القرآن المجيد كان يستعمل منذ البداية، فهو ليس ابتداءً أضيف بعد ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

شرح الكلمات:

ب: حرف الباء الداخل على كلمة اسم، هو حرف يستخدم للتعبير عن معاني عدة. وفي اللغة العربية، يفهم من سياق الحديث أن إحدى الكلمات اقرأ أو أقرأ أو نقرأ أو أشرع أو أشرع أو نشرع تسبق «بسم الله». وبهذا يصبح التعبير «بسم الله» «ابداً بسم الله» أو «اقرأ بسم الله» أو «أنا أو نحن نبدأ بسم الله» أو «أنا أو نحن نقرأ بسم الله».

اسم: وكلمة «اسم» مأخوذة من كلمة «وَسَمَ» (علامة) أو «سمو» (ارتفاع)، وتعني اسم أو صفة (أقرب الموارد). وتقع هنا بالمعنيين؛ أولاً إنها تشير إلى الاسم «الله»؛ وثانياً إلى «الرحمن» و«الرحيم» وهما من صفات الله. و«الله» هو اسمه تعالى، المالك الوحيد لكل صفات الكمال، والخالي من أي عيوب. وفي اللغة العربية، لا تُطلق كلمة «الله» مطلقاً على أي شخص أو أي شيء غيره. ولا توجد أي لغة أخرى بها اسم مخصص لله تعالى ومقصود عليه وحده. فالأسماء الموجودة في اللغات الأخرى كلها صفات، وكثيراً ما تُجمع. أما كلمة «الله» فلا تُجمع مطلقاً. فهو اسم جامد غير

مشتق؛ وغير مأخوذ من أي مصدر، ولفظ «الله» لا يُستخدم مُطلقاً ككلمة وصفية. ولذلك فهو يستخدم كما هو بلا ترجمة حيث إنه لا مثيل له في اللغات الأخرى.

ويُساند وجهة النظر هذه متخصصون مرموقون في اللغة العربية. إذ يقول لين Lane في معجمه: «طبقاً لأكثر الآراء صحة، أن كلمة «الله» اسم جامد، تنطبق على الذات التي توجد بنفسها فقط، وتحتوي على جميع صفات الكمال، ولا يمكن لحرفي «ال» أن ينفصلا عن الكلمة» (معجم عربي-إنجليزي). ولحديث أوسع وأعمق عن كلمة «الله» يمكن أن يرجع القارئ إلى «التفسير الكبير» لحضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، الخليفة الثاني للإمام المهدي والمسيح الموعود.

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ: هاتان الكلمتان مأخوذتان من نفس المصدر وهو «رحم» بمعنى أنه أظهر الرحمة، وأنه كان خيراً وعطوفاً، وأنه غفر وسامح. وتجمع كلمة الرحمة بين الرقة والإحسان (مفردات الإمام الراغب). «الرَّحْمَنُ» على وزن فعْلان و«الرحيم» على وزن فَعِيل. وطبقاً لقواعد اللغة العربية، كلما زاد عدد الحروف المضافة إلى مصدر الكلمة كلما زاد وقع المعنى (الكشاف). وبذلك يدل وزن «فعْلان» على فكرة التشعُّب والامتلاء، ويدل وزن «فَعِيل» على فكرة التكرار ومكافأة من يستحق بسخاء (البحر المحيط). وبذلك تشير كلمة «الرحمن» إلى «الرحمة بالكون بأكمله»، وتشير كلمة «الرحيم» إلى «رحمة محدودة ولكنها متكررة».

وعلى ضوء ما سبق، يتبين لنا أن «الرحمن» هو من يُظهر الرحمة بكثرة وسخاء لكل مخلوقاته دون اعتبار لأي عمل أو مجهود منهم، أما «الرحيم» فهو من يظهر الرحمة مقابل أعمال الإنسان أو نتيجة لها، ولكن بسخاء وتكرار. وتنطبق صفة «الرحمن» على الله تعالى فقط، ولكن صفة «الرحيم» يمكن أن تنطبق على الإنسان أيضاً. وتتنطبق صفة «الرحمن» على المؤمنين وغير المؤمنين والمخلوق بأجمعه، وأما صفة «الرحيم» فتتنطبق في الأغلب على المؤمنين. ويُروى أن الرسول ﷺ قال: «الرحمن رحمن الدنيا والرحيم رحيم الآخرة» (المحيط)، وحيث إن هذه الدنيا غالباً ما تكون دار الأعمال، والعالم

الآخر تُجزى فيه الأعمال، فإن صفة الرحمن الربانية تُزود الإنسان بمادة أعماله في هذه الحياة، ولكن تأتي صفة الرحيم بالنتائج في الحياة الآخرة.

إن كل شيء نستمتع به في هذه الحياة، كله في الحقيقة، نِعَم من الله ﷻ، مقدمة إلينا قبل أن نعمل أي شيء نستحق عليه هذه النعم، بل إن النعم موجودة حتى من قبل أن نولد، في حين أن البركات التي تنتظرنا في الحياة الآخرة ستُعطى لنا مكافأة على أعمالنا. ومن هذا نرى أن «الرحمن» هو الذي يمن علينا بالعطايا والهبات حتى قبل أن نولد، في حين أن «الرحيم» هو الذي يمنح البركات التي تأتي بعد عملنا كمكافأة عليها.

التفسير:

(أ) إن آية ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هي الآية الأولى في جميع سور القرآن المجيد، ما عدا سورة «التوبة» التي لا تُعتبر سورة منفصلة، وإنما هي تكملة لسورة «الأنفال». وهناك قول لابن عباس ؓ يذكر فيه أنه عندما كان ينزل الوحي بأي سورة جديدة، كانت البسملة أول آية يوحى بها، وبدون البسملة لم يكن الرسول ﷺ يعرف أن سورة جديدة قد بدأت، فعن ابن عباس ؓ قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْرِفُ فَضْلَ السُّورَةِ حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (أبو داود - كتاب الصلاة). ويثبت هذا الحديث: (١) أن آية البسملة جزء من القرآن المجيد وليست مجرد شيء زائد يتم تكراره؛ (٢) أن سورة «التوبة» ليست سورة بذاتها. وكذلك فإن قول ابن عباس ؓ هذا يحض اعتقاد البعض بأن البسملة جزء من الفاتحة فقط وليست جزءاً من باقي سور القرآن المجيد. كما يدحضه أيضاً حديث آخر للرسول ﷺ جاء فيه أنه قال بكل تأكيد إن آية البسملة جزء من جميع سور القرآن المجيد، فعن ابن عمر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «ثم كان جبرائيل ؑ إذا جاءني بالوحي أول ما يلقي عليّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾» (سنن الدار قطني - كتاب الطهارة).

(ب) ولقد أعطى الرسول ﷺ أهمية كبيرة لآية البسملة. ويُروى أنه قال إن أي عمل مهم يتم بدون قراءة البسملة فحتمًا سيكون خاليًا من بركات الله تعالى. ولذلك من عادة المسلمين أن يبدأوا كل عمل بتلاوة هذه الآية.

(ج) ويدل وضع هذه الآية في بداية كل سورة على ما يلي:

(١) القرآن المجيد كنز من العلم الإلهي الذي لا يمكن إدراكه إلا بفضل خاص من الله تعالى. ويقول الله تعالى عن القرآن المجيد في الآية ٨٠ من سورة الواقعة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ بمعنى أنه لن يدرك أحد المعنى العميق لآيات القرآن المجيد إلا المقربين الذين تم تطهيرهم على يد الله تعالى. لذلك وُضعت البسملة في بداية كل سورة لتذكّر القارئ أنه من أجل أن يدرك كنز المعرفة الموجود بالقرآن المجيد ويستفيد منه، فإنه لا يكفي أن يعكف عليه بنيتة خالصة فقط، وإنما عليه أيضاً أن يطلب عون الله تعالى بصفة مستمرة، وأن يعيش حياة فاضلة.

(٢) وفي التوراة من العهد القديم نقراً: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه» (سفر التثنية ١٨: ١٨-١٩). وكما أن الرسول ﷺ جاء مثيلاً لموسى عليه السلام كما يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (المزمل: ١٦). لذلك، وتحقيقاً لنبوءة موسى عليه السلام المذكورة في التوراة، فقد قدّر الله تعالى أن كل مرة تنزل فيها سورة جديدة، لا بد أن تبدأ ب﴿بسم الله﴾. ويعني هذا أن كل سورة من سور القرآن المجيد، أو كل موضوع جديد يأتي من عند الله عن طريق الرسول ﷺ، لا بد وأن يبدأ بهذه الآية الكريمة، وذلك تحقيقاً لنبوءة موسى عليه السلام من ناحية، ومن ناحية أخرى لتكون تحذيراً متكرراً لليهود والمسيحيين أنهم إن لم يستجيبوا لكلام الرسول الجديد فسيكونون مسؤولين أمام الله تعالى.

(٣) ونقرأ أيضاً في العهد القديم: «وأما النبي الذي يطغي فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي»

(الثنية ٢٠: ١٨). ولذلك فقد جاءت آية البسملة في أول كل سورة في القرآن المجيد، حتى تصل الحقيقة لليهود والمسيحيين خاصة، ولجميع الناس عامة، أن نجاح دعوة الرسول ﷺ كانت خير دليل على أن كل ما قاله ﷺ كان بأمر الله؛ لأنه لو كان الحال غير ذلك لكان مآله الهلاك التام والموت المبكر بكل تأكيد، كما تشير الفقرة المذكورة عليه. وهكذا تصبح آية البسملة تحدياً قائماً لليهود والمسيحيين، وفي كل مرة يُعاد ذكرها على رأس كل سورة، تقوم كدليل على صدق الرسول ﷺ. ولا يمكن الوصول إلى هذه النتيجة لو أن الآية وُضعت في أول القرآن المجيد فقط.

(٤) وتخدم آية البسملة في وضعها قبل كل سورة في القرآن المجيد هدفاً مهماً آخر. إنها مفتاح معاني كل سورة على حدة. وهذا لأن كل الأسئلة ذوات التأثير على الموضوعات الأخلاقية والروحية لها علاقة بطريقة أو بأخرى بهاتين الصفتين الرئيسيتين: «الرحمانية والرحيمية». وهكذا فإن كل سورة، في الحقيقة، هي عرض تفصيلي لبعض وجوه الصفات الإلهية المذكورة بالآية.

(د) ويدّعي بعض الكتاب المسيحيين أن صيغة البسملة مستعارة من الكتب المقدسة السابقة، مشيرين إلى أن هذا يعني أنها لا يمكن أن تكون من أصل إلهي. ولقد عبّر «ويري Wherry» في تفسيره عن الرأي القائل بأنها مستعارة من «الزند أفستا» كما في العبارة: «مع اسم الرب، المسامح، الرقيق». وقد أتى «سيل Sale» باعتراضات مماثلة. وكان من رأي «رودويل Rodwell» أن القرآن استعار هذه الصيغة من اليهود، وأنها كانت شائعة الاستخدام بينهم، وكان يستعيرها منهم العرب قبل الإسلام. وهذه الانتقادات خاطئة وبعيدة عن الحقيقة؛ لأنه أولاً لم يدّع المسلمون قط أن هذه الصيغة أو ما يشبهها، لم تكن معروفة قبل نزول القرآن. وثانياً، من الخطأ افتراض أن البسملة لا يمكن أن تكون من أصل إلهي لمجرد أنها كانت تستخدم أحياناً بصيغة مطابقة أو مشابهة أيام الجاهلية وقبل نزولها في القرآن المجيد. سواء كان على شكلها نفسه أو بشكل مماثل له. وفي الواقع، يذكر القرآن المجيد نفسه أن سليمان عليه السلام

استخدمها في خطابه للملكة سبأ (سورة النمل: ٣١). ما يدّعيه المسلمون، وهو قول لم يرده أحد، أن القرآن المجيد هو أول كتاب مقدس يستخدم هذه الصيغة بهذه الطريقة (انظر (ج) أعلاه). وإنه لمن الخطأ القول بأن هذه الصيغة كانت شائعة بين العرب قبل الإسلام. ما قبل الإسلام، لأنه من المعروف أنهم لم يستخدموا اسم «الرحمن» لوصف الله تعالى. ومع ذلك، لو كان هناك صيغ كهذه لمُدح الله ﷺ قبلاً، فإن هذا يدل على صدق ما جاء في القرآن المجيد من أنه ليس هناك من أمة لم يُبعث فيها رسول، كما يقول تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥)، والقرآن المجيد هو مخزن لجميع الحقائق الأزلية التي وُجدت في الكتب السابقة (سورة البينة: ٤)، ولكنه يزيد عليها، ويحسن ما أخذه منها في الشكل أو في الاستخدام أو في الاثنين معاً.

(هـ) ولقد تساءل البعض: لماذا جاءت كلمة «اسم» قبل كلمة «الله» في آية البسملة. ويمكن الإجابة على هذا السؤال بعدة طرق:

(١) في اللغة العربية يستخدم حرف الباء ليس فقط ليدل على علاقة أو لطلب المساعدة ولكن أيضاً للحلفان. ولذا إن حذفت كلمة اسم فقد تُفهم «بالله» على أنها «أنا أحلف بالله». وإضافة كلمة اسم يزيل هذا اللبس.

(٢) بما إن الله تعالى هو مصدر الخير كله فمجرد الدعاء بأسمائه بركة، كما يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٧٩). وكان الرسول ﷺ يشفي الناس أحياناً بالدعاء بأسماء الله المختلفة. ولذلك أضيفت كلمة «اسم» لتذكر المؤمنين أن ذكر أسماء الله يجلب البركة.

(٣) كذلك فإن استخدام كلمة «اسم» يشير إلى أن الله خفي، ويمكن التعرف عليه فقط من خلال أسمائه التي هي صفاته. وتلاوة البسملة يطلب المؤمن معونة الله من خلال صفتيه: الرحمن والرحيم.

(٤) ونكرر، أن المعاني الكامنة للقرآن المجيد هي كنز مصون، لا يصل إليه أحد إلا بإذن الله. والشخص الذي يبدأ تلاوة القرآن بـ «بسم الله»، فكأنه يقول للملائكة

حراس هذا الكنز الروحي «أنا قادم باسم الله فافتحوا لي خزائن المعاني الكامنة في القرآن المجيد». والشخص الذي يُقبل على القرآن الكريم بهذه الروح، فإن الكنوز ستُفتح له بكل تأكيد. والآية ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ تُبين لنا كذلك أن مطهري الروح فقط هم الذين يصلون إلى أسرار القرآن العميقة.

(٥) وهناك سبب آخر لإدخال كلمة «اسم» في البسملة وهو لفت الانتباه لنبوءة موسى عليه السلام (التثنية ١٨: ١٨) كما ذكر سابقاً.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

ال: تستخدم للتعريف وللتعبير عن معانٍ عدة، منها معنى الكلية أو الاستغراق. وبذلك تعني كلمة «الحمد» كل أنواع الحمد.

حمد: يُقال «حمده» أي مدحه. وهناك أربع كلمات في اللغة العربية تستخدم بدلالات مختلفة للمدح أو الشكر وهي شكر وثناء ومدح وحمد، وهنا اختار الله تعالى منها الأخيرة. وعندما تستخدم كلمة «شكر» في حق الإنسان فإنها تعبر عن العرفان والشكر على المنافع التي جاءت، ولكن كلمة «حمد» لا تعكس فقط معنى الشكر بل بها أيضاً إشارة للصفات الذاتية للمحمود. أما كلمة ثناء فتشير إلى فكرة الشيعو حيث إن أصل الكلمة هو «ثنى» والذي يعني ويفيد التكرار. ولذلك فإن كلمة «ثناء» تستخدم للتأكيد على ذبوع الصفة أكثر من مدى تحققها في الشخص. وكلمة «مدح» تعطي معنى قريباً من «حمد» إلا أن المدح قد يكون زائفاً ولكن الحمد دائماً صادق. ويقول الرسول ﷺ: «احتوا التراب في وجوه المدّاحين».

أيضاً «المدح» يمكن أن يكون في صفاتٍ ليس للشخص فضلٌ فيها كأن يُمدح بطول قامته وصباحة وجهه مثلاً. أمّا «الحمد» فيكون على العمل الاختياري (مفردات الراغب).

ويشير «الحمد» أيضاً إلى الإعجاب الشديد بالمحمود وتعظيمه وتكريمه مع تواضع وخضوع الحامد (معجم لين).

لذا فكلمة «الحمد» هي الأنسب والأجدر بالله تعالى، لأنها تدل على كل أنواع الشكر والمدح والثناء، وبوجه عام تستخدم كلمة «الحمد» لله تعالى فقط وليس لأحدٍ غيره. **رَبّ:** «رَبّ الشيء» أي جمعه؛ وملكه. «رَبّ القوم» أي ساسهم وكان فوقهم. «رَبّ النعمة»: زادها. «رَبّ الأمر»: أصلحه وأتمّه. «رَبّ الصبي» أي ربّاه حتى أدرك. «الرب» تعني: السيد؛ المالك؛ المُطاع؛ المُدبّر؛ المُربّي؛ القيّم؛ المُنعم (أقرب الموارد ولسان العرب)؛ الذي يُنشئ الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ الكمال (مفردات الراغب). «الرب» أيضاً تعني: الخالق (البحر المحيط). ولا يطلق «الرب» مجرداً عن الإضافة إلّا على الله تعالى، ولكن يمكن أن تستخدم لغير الله تعالى إذا أُضيف إليها كلمة أخرى، كما يُقال: «رَبّ البيت» أي مالكه (معجم لين).

العَالَمِينَ: جمع العالم المشتقة من «عَلِمَ» أي عرف. «عَلِمَ» تعني: وَسَمَ أي وضع عليه علامة. «العَلَم»: الاسم الذي يميز الشخص أو الشيء؛ الراية؛ العلامة أو الأثر؛ المنارة. «العَالَم»: في الأصل تعني كل ما يساعد الإنسان على معرفة شيء لذا فإنها تستخدم للإشارة إلى كل المخلوقات أو الأشياء التي بها يعرف الإنسان الخالق العظيم ﷻ (أقرب الموارد). وكلمة «عَالَم» لا تشير فقط إلى كل الخلق من كائنات وأشياء، بل تستخدم أيضاً لتصنيف هذه المخلوقات. لذا يُقال «عالم الإنس» أي الجنس البشري أو «عالم الحيوان» أي مملكة الحيوانات. إن كلمة «عالمين» في الاستخدام القرآني لا تعني فقط المخلوقات العاقلة - أي البشر والملائكة - بل تعني كل المخلوقات (سورة الشعراء: ٢٤-٢٩) و(سورة فُصِّلَتْ: ١٠). وبطبيعة الحال تستخدم هذه الكلمة أحياناً للإشارة إلى شيء محدد، لذا في الآية ٢ من سورة الفرقان تعني «العالمين» الجنس البشري فقط وليس كل الخلق. وفي الآية ١٢٣ من سورة البقرة

استخدمت كلمة «العالمين» في نطاق أضيق فلم تعنِ كل الجنس البشري بل البشر في ذلك الوقت فقط.

لقد استخدمت كلمة «العالمين» في الآية التي نحن بصددتها على أوسع نطاق لتشمل كل ما هو دون الله تعالى، أي كل الأحياء والجماد بما في ذلك الملائكة والشمس والقمر والنجوم، إلخ.

التفسير:

يتعلم المؤمن أن يقول «الحمد كله لله تعالى»، وليس «أحمد الله» أو «نحمد الله»، حيث إن جملة «الحمد لله» تعني أكثر بكثير من «أحمد الله»، إذ لا يكفي للإنسان أن يحمّد الله تعالى على قدر علمه فقط، ولكن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لا يحتوي فقط على الحمد الذي يعرفه الإنسان، ولكنه يحتوي أيضاً على الحمد الذي لا يعرفه والذي يحق لله ﷻ. ويستحق الله الحمد في كل الأوقات، بدون الاعتماد على العلم الناقص للإنسان ولا على إدراكه المعيب. بل أكثر من ذلك، لو أن التعبير «أحمد الله» هو الذي استخدم في الآية الكريمة، لكان معنى ذلك أن الإنسان الذي هو محدود يمكن أن يفهم فهماً كاملاً الله تعالى الذي هو غير محدود، وهذا غير صحيح بالطبع.

وكلمة «الحمد» مصدر، وعليه يمكن أن يكون فاعلاً أو مفعولاً به. فإذا فسرناها على أنها فاعل تعني «الحمد لله» أن الله وحده له الحق في منح الحمد الحقيقي، وليس من حق أحد غيره أن يمنح هذا الحمد وذلك لمحدودية علمه. وإذا فسرناها على أنها مفعول به، فتعني أن الحمد الحق لله وحده. وبهذا يكون الحمد الواجب للآخرين مستعاراً فقط وعلى درجة ثانوية. إن الله تعالى هو الذي يزودنا بكل شيء، ويعطينا كل المقومات والقدرات. ولذلك عندما يُحمد شخص أو شيء ما، ففي الحقيقة يكون الحمد لله تعالى، أما الشخص أو الشيء فيستحق الحمد بشكل ثانوي فقط.

وتُعبّر آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن معانٍ كثيرة منها الآتي:

- (١) إن الله تعالى خالٍ تماماً من أي عيوب، وله كل صفات الكمال.
- (٢) هو وحده ﷻ يُدرك تماماً الطبيعة الحقيقية لكل الأشياء. وحقيقة هذه العبارة تثبت يومياً عن طريق الاكتشافات العلمية المتعددة، والتي تُثبت بالتالي ضخالة علم الإنسان على الدوام.
- (٣) ويحق لله تعالى « كل الحمد » فقط عندما نؤمن أنه رب العالمين؛ ولما كان هو رب العالمين فيتحتم ألا تكون عنايته الإلهية عامة وشاملة فحسب، ولكنها تمتد إلى كل من العالم الروحي والمادي. ويترتب على ذلك أنه يجب ألا يكون هناك شعب محروم من بركات الله الروحية، وأنه يجب أن تحظى جميع الشعوب بنصيبها من البركات. لذلك لو نزل وحي لشعب معين، فيجب أن ينزل للشعوب الأخرى الوحي الخاص بكل منهم ليهديهم، كما كان الحال قبل مجيء الإسلام. ومن ناحية أخرى، إذا حدث في وقت من الأوقات أنه لم يُبعث وحي منفصل لكل من الشعوب المختلفة ونزل وحي واحد فقط، فيجب أن يكون هذا الوحي شاملاً لجميع الشعوب، حتى يتيح فرصاً متساوية لكل الشعوب، وذلك هو الحال في الإسلام؛ وإلا لما كان الله «رب العالمين»، ولما كان يستحق «الحمد كله». وفي الحقيقة، إن الاعتقاد بأن الوحي امتياز خاص لشعب بعينه مع استبعاد الآخرين، فلا يكون لهم أي نصيب فيه، هو اعتقاد باطل، ومنافٍ للعناية الإلهية الشاملة، ولاستحقاق الله للحمد كله.
- (٤) إن القدرات والإمكانات التي يمن الله تعالى بها على الإنسان هي فضل منه ﷻ. ولذلك فهو الذي يستحق الحمد على أي خير يقوم به الإنسان.
- (٥) بربط «الحمد» بجملة «رَبِّ الْعَالَمِينَ» يلفت الله تعالى انتباهنا إلى حقيقة أن خير الإنسان الواحد مرتبط ومعتد على خير البشرية كلها. والمؤمن الحق هو الذي لا ينظر لخيرهِ وحده فقط ولكن لخير الجميع. وإذا لم يفعل هذا فقد أخفق إذن في إدراك روح الإسلام الحقيقية وشمول العناية الإلهية، إذ تكمن سعادة الفرد في سعادة المجموع.

(٦) تشير عبارة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أيضاً إلى أنه كما أن الأشياء لا تنمو وتكبر وتتغير من نفسها، فإن الحياة كلها تخضع لربوبية الله تعالى. وتشير العبارة أيضاً إلى مبدأ التطور في العالم، وهو أن الأشياء تمر في نموها بمراحل، وأن هذا النمو يتم بالتدرج على فترات، و«الرب» هو الذي يُنمي الأشياء ويُطوِّرها مرحلةً بعد أخرى. وتشير هذه الآية أيضاً إلى أن مبدأ التطور لا يتعارض مع الإيمان بالله تعالى. بل على العكس، إن التطور التدريجي للأشياء يدل على أن الخلق أكثر إبداعاً، وأن الله تعالى أكثر استحقاقاً للحمد. ويجب أن نوضح هنا أن عملية التطور المذكورة أعلاه لا تتطابق مع نظرية التطور المفهومة عادةً، وإنما استخدم لفظ التطور هنا بمعناه العام فقط.

(٧) ونكرر أن الآية تشير إلى حقيقة أن الإنسان قد خُلق ليتطور تطوراً غير محدود، لأن عبارة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تدل على أن الله تعالى يريُّ ويُنمي كل شيء من مرحلة أقل إلى مرحلة أعلى، ويمكن هذا فقط عندما تتوالى مراحل التطور والرقى، مرحلة تلو أخرى إلى ما لا نهاية.

(٨) وأخيراً، بوضع آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في فاتحة الكتاب العزيز وبداية القرآن المجيد، يعلن الله تعالى أن زمن نزول الوحي الخاص بكل أمة على حدة قد انتهى، وأن الله تعالى سيمنّ على العالم بوحى شامل عام. وعندما بعث الله تعالى رُسلاً في كل أمة من الأمم المختلفة، رفض الجاهلون من الناس الإيمان بالرسول الذين جاؤوا إلى الأمم الأخرى، لأنهم لم يفهموا غرض الله من ذلك في تلك المرحلة؛ ولكن مع مجيء الإسلام، جاء إلى البشرية كلها رسول واحد ودين واحد ودعيت شعوب العالم بأجمعها، الأبيض منها والأصفر، الأسمر منها والأسود، لتترنم جميعاً بأنشودة مشتركة، لحمد الله رب العالمين.

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

لشرح معنى كلمتي ﴿الرَّحْمَنُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾، رجاء الرجوع إلى شرح كلمات البسملة.

التفسير:

في آية البسملة، كانت صفتا ﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ المفتاح لمعنى السورة التي هما على رأسها. ولكن ذكرهما هنا في الآية الثالثة يخدم غرضاً آخر، وهو الربط بين صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ التي قبلهما وصفة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ التي بعدهما. وكما نرى، تدل عبارة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أيضاً على أن الله يرقى خلقه تدريجياً إلى درجات أعلى من التطور. وتلقي الضوء على عملية هذا التطور كلمتا ﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ المذكورتان في هذه الآية. وتعني كلمة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ أن الله تعالى لا يزود الإنسان فقط بالوسائل الضرورية، بل يزوده أيضاً بالإمكانات التي يحتاجها للتطور؛ وتدل كلمة ﴿الرَّحِيمِ﴾ على أنه عندما يستخدم الإنسان هذه الإمكانات والوسائل بطريقة صحيحة، يكافئه الله تعالى على أعماله ويلهمه الرغبة في عمل خير أكثر، وبذلك يفتح له طرق النمو والتطور التي لا نهاية لها.

وتلغي صفة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عقيدة الفداء المسيحية، حيث إن صفة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ تشير إلى أن الله تعالى يمن على خلقه بنعم لم يعملوا لها، بينما تستند هذه العقيدة إلى أن الله مُقَيَّد بأن يعامل الإنسان على أساس جدارته فقط. ويعلمنا الإسلام أن الله غير مُقَيَّد بأي موانع كهذه، فهو يملك القدرة على أن يغفر خطايا عباده ويعاملهم كما يشاء، ولكونه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ يستطيع أن يكافئ المرء بأكثر مما يستحق.

ومن ناحية أخرى، تلغي صفة ﴿الرَّحِيمِ﴾ عقيدة تناسخ الأرواح. وقد ولدت هذه العقيدة من فكرة أنه لما كانت أفعال الإنسان في هذه الحياة محدودة، فهي لا تستطيع أن تجلب له الخلاص الأبدي. وتبين صفة ﴿الرَّحِيمِ﴾ أن الله تعالى عندما يكافئ الإنسان على أعماله بأجر عظيم وثواب كبير، فإنه سبحانه يخلق فيه حب فعل المزيد من الخير والأعمال الصالحة، مما يؤدي إلى تكرار المكافآت، وهكذا... بلا نهاية.

إن سوء الفهم ناتج من أن المؤمنين بعقيدة تناسخ الأرواح يرون الجنة على أنها مكان ليس به عمل. ولذلك فإنهم يفهمون أن الخلاص يعني «نرفانا» أو انتهاء كل الرغبات والأعمال. وهذا ما تنفيه بشدة صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فإن الحياة الآخرة هي من خلق الله أيضاً، ولذلك فإن صفة «الرب» تستمر في تلك الحياة أيضاً كما هي في هذه الحياة الدنيا. ولن ينتهي التقدم الروحي للإنسان مع الموت، بل على العكس، فإنه سيستمر في عمل الخير في الحياة القادمة، وسيستمر الله ﴿الرَّحِيمُ﴾ في مكافأة هذه الأعمال. وبذلك يستمر التقدم الروحي إلى الأبد. إن الإنسان في هذه الحياة الدنيا قد ينجح في التقدم والرقى الروحي وقد يخفق، أما في الحياة الآخرة فلن يكون هناك إخفاق أو تأخر بل تقدم فقط. فالعمل سوف يستمر، وبالتالي فإن التقدم سيستمر إلى الأبد. وعلى ذلك فلا مجال للكلام عن مكافأة محدودة في نظير عمل محدود.

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

مَالِك: مشتقة من «مَلَك». يُقال «مَلَكَ الشيء» أي استولى عليه وكان في قدرته أن يتصرف فيه بما يريد. «مَلَكَ القوم» أي استولى عليهم. يرى البعض أن كلمة «ملاك» والتي تعني «المَلَك» مشتقة من المصدر نفسه. «المَلِك»: السلطان أو الحاكم. «مَالِك»: السيد أو صاحب المُلْك والذي يملك التصرف فيه كما يريد (أقرب الموارد).

يَوْم: يعني: الوقت مطلقاً، سواء النهار أو الليل، قصر أو طال؛ الوقت من طلوع الشمس إلى مغربها؛ الوقت الحالي أو الحين أو الآن؛ «أيام الله»: نِعْمُهُ وَنِقْمُهُ (أقرب الموارد ومعجم لين). جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (سورة الحج: ٤٨). وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (سورة المعارج: ٥). وأيضاً في موضع آخر يقول

تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (سورة المائدة: ٤)، فكلمة ﴿الْيَوْمَ﴾ هنا تعني ببساطة «الآن».

الدين: مشتقة من «دَانَ». يُقال «دانه» أي أعطاه أو جازاه أو أحسن إليه؛ استعبده وملكه؛ حكم عليه؛ أطاعه. «دان بالإسلام»: اتخذه ديناً (أقرب الموارد). لذا فكلمة «الدين» تستخدم بمعانٍ مختلفة، منها على سبيل المثال: (١) الجزاء والمكافأة؛ (٢) الحُكم أو القضاء؛ (٣) السلطان أو المُلْك؛ (٤) الطاعة؛ (٥) المِلَّة (معجم لين). ولقد استخدمت هذه الكلمة في القرآن المجيد بكل هذه المعاني (النساء: ١٢٦؛ المائدة: ٤؛ يوسف: ٧٧؛ النور: ٣؛ الصافات: ٥٤).

التفسير:

تُفهم هذه الآية بوجه عام على أنها تعني أن الله تعالى مالك يوم الحساب، ولكن لها دلالة أوسع. فمع أن آخر حساب وأكمّله سيتم يوم القيامة، إلّا أن عملية الحساب مستمرة حتى في هذه الحياة. وعلى هذا فإن المعنى الأوسع لهذه الآية هو أن الله ﷻ، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، هو أيضاً مالك فترة الحساب، ومالك عملية الحساب في هذه الحياة وفي الحياة القادمة. غير أن هناك اختلافاً واحداً، ففي هذه الحياة يُحكم على أعمال الإنسان عادةً ويتم مكافأته عليها بواسطة رجال آخرين: ملوك وحكام ورؤساء وقضاة... إلخ، ولذلك هناك دائماً احتمال لوقوع الخطأ. ولكن يوم الدين ستكون المالكية خالصة لله تعالى وحده، وسيكون الحساب في يده هو فقط.

وعليه لن يكون هناك خطأ في عقاب غير مستحق أو مكافأة في غير محلها. ومع أن الله تعالى مالك وقت الحساب في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة، إلّا أن ذكر صفة مالك يوم الدين هنا جاء لإبراز هذا الفرق، ولتأكيد أنه سيكون هو وحده ﷻ المالك الوحيد في يوم الدين.

والمقصود من استخدام كلمة ﴿مَالِكِ﴾ في الآية أيضاً الإشارة إلى حقيقة أن الله تعالى ليس كأي قاضٍ مُقيد بأن يتخذ قراره طبقاً للقانون الموضوع بحذافيه. ولكن

بما أنه المالك فيكون له الحق أن يغفر، وأن يُظهر الرحمة أينما يريد، وبالشكل الذي يراه.

وبذلك تخدم كلمة مالك غرضين. من ناحية، فإنها تحت الشخص الذي ارتكب خطيئة في لحظة ضعف ألا يأس من رحمة الله تعالى، حيث إن الله، المالك، هو الذي له القدرة على المغفرة. ومن ناحية أخرى، تحمل كلمة مالك تحذيراً بعدم إساءة استغلال الرحمة الإلهية. فإن الله المالك الذي يستطيع أن يغفر الخطايا، يكره أيضاً أن يرى عباده يسقطون في الخطايا، ولذلك فإنه باعتباره المالك يستطيع أن يعاقب أيضاً. وعلى هذا فإن صفة الله المالك تلهم الإنسان وتشجعه بالترغيب والترهيب، وهو أمر ضروري للتقدم والرقى الروحي للإنسان.

والصفات الإلهية الأربع: (١) ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، (٢) ﴿الرَّحْمَنِ﴾، (٣) ﴿الرَّحِيمِ﴾، (٤) ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، المذكورة في الآيات الأولى من سورة الفاتحة هي الصفات الرئيسية. أما الصفات الإلهية الأخرى فتوضح هذه الصفات الأربع وتفسرها فقط، وكأنها أربع قواعد يستقر عليها عرشه تعالى.

والترتيب الذي عليه هذه الصفات الأربع يُلقي الضوء على الطريقة التي يُظهر الله بها صفاته للإنسان. ومن الواضح أن أول صفة إلهية تظهر للإنسان هي صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والتي تعني أنه عندما خلق الله تعالى الإنسان، فإنه قد خلق له أيضاً المناخ اللازم لتقدمه ونموه الروحي. ثم يأتي العمل بصفة ﴿الرَّحْمَنِ﴾، ومن خلالها يمنح الله تعالى الإنسان القدرات والإمكانات المطلوبة لتقدمه الأخلاقي والروحي. وعندما يستخدم الإنسان بطريقة صحيحة القدرات التي مُنحت له، تأتي صفة ﴿الرَّحِيمِ﴾ لتكافئه على أعماله. ثم أخيراً، تؤدي صفة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إلى مجموع النتائج النهائية لمجهودات الإنسان؛ وتصل العملية إلى قمته ومستقرها في منحه السيطرة الروحية على العالم، كما هو الحال مع المختارين من الله. وهذا ما يمكن أن يسمى تدلي الله تعالى إلى الإنسان.

ومن ناحية أخرى، عندما يبدأ الإنسان بالارتقاء نحو الله تعالى تنعكس العملية. وفي هذه الحالة يصبح الإنسان أولاً مظهرًا لصفة «المالك»؛ ويبدأ في إظهار صفة «العدل» في نفسه ويُطعمها بالرحمة والمغفرة. وعندما يُطوّر الإنسان في نفسه صفة «المالك» يصل بذلك إلى المرحلة الثانية من التقدم الروحي وهي إظهار صفة «الرحيم» حيث إنه يبدأ في مكافأة أعمال الناس بحرية وسخاء. وهذه هي المرحلة المسماة بـ«الإحسان». والمرحلة التالية هي المتصلة بصفة «الرحمن». وهنا تتسع وتزداد دائرة الإحسان؛ ويمتد خيره إلى المؤمنين وغير المؤمنين على السواء. ويبدأ في معاملتهم تمامًا كمعاملة الأم لأولادها، الأم التي تتصرّف بدافع من غريزة الأمومة الطبيعية فقط، دون انتظار لأي مقابل. وهذه المرحلة تُسمى «إيتاء ذي القربى»، أي عمل الخير للآخرين كما يفعل الفرد لأقاربه المقربين. وبعدها تأتي صفة «رَبِّ الْعَالَمِينَ»، التي تُشكل أعلى درجات التطور الروحي حيث يصبح الإنسان مظهرًا لصفة «رَبِّ الْعَالَمِينَ». وفي هذه المرحلة يعتبر الإنسان نفسه مسؤولاً عن هداية وسلامة العالم بأكمله. فلا يكفيه أن يهتدي هو ومن حوله فقط، بل إنه يرغب في خير العالم كله، ويبدأ في استخدام قدراته التي منحها الله تعالى له في تحقيق هذه الغاية العظيمة. وهذه هي فلسفة «الهبوط والصعود»، أي العملية التي تم وصفها بمنتهى الجمال في هذه الآيات الثلاث القصيرة.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

نَعْبُدُ: مشتقة من «عَبَدَ». نقول «عَبَدَ الله» أي وَحَّده وأطاعه وخضع وذَلَّ له وخدمه والتزم شرائع دينه. وكلمة «عبادة» هي صيغة المصدر من «عَبَدَ»، وتعني: الانصياع والخضوع والطاعة ونهاية التعظيم لله تعالى (أقرب الموارد). وكلمة «عبودية»

تعني: إظهار التذلل، أي أنها تقارب كلمة «عبادة»، ولكن «العبادة» أبلغ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى (مفردات الراغب). ومن المعاني الأخرى لكلمة «عَبَدَ» أيضاً التأثر أو التطبع بشيء، جاء في مفردات الراغب: طريق مُعبد أي مذل بالوطء، فصار مذكلاً منصاعاً من كثرة خُطى السائرين عليه. أمّا فيما يتعلق بالعلاقة مع الله تعالى، فإن كلمة «عَبَدَ» تعني جعل النفس ممهدة للتأثر والتطبع والاصطباغ بصبغة صفات الله تعالى. كلمة «عَبَدَ» تعني: الإنسان حُرّاً كان أو رقيقاً؛ المملوك (أقرب الموارد)؛ العابد لله تعالى. «عَبَدَ الطاغوت»: عبَدَ للشيطان (معجم لين).

التفسير:

إن العبادة الصادقة تستدعي التواضع الكامل والاستسلام التام، ولن يكون هذا ممكناً إلا إذا تولّد في قلب الإنسان حالة متوافقة مع هذا التواضع والاستسلام. وعليه، فلا يمكن للإنسان أن يعبد الله حق عبادته إلا إذا أدى أعمال العبادة بخشوع القلب التام.

ويجب ملاحظة أن العبادة في الإسلام لا تقتصر على أداء بعض العبادات المعروفة، كالصلاة والصوم، إلخ، بل لها معنى أوسع بكثير. وفي الواقع، رُوي أن الرسول ﷺ ذكر أن أي عمل يؤديه المرء طاعةً لأوامر الله وطلباً لرضاه فهو عبادة. ويقول ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ» (البخاري، كتاب الإيمان).

وجاءت كلمة ﴿نَعْبُدُ﴾ في الآية قبل كلمة ﴿نَسْتَعِينُ﴾ لتدل على أنه بعد أن يعرف الإنسان الله تعالى، يكون دافعه الأول هو عبادته ﷻ. وتأتي الاستعانة بالله تعالى بعد الدافع بالعبادة. فالإنسان يريد عبادة الله، ولكنه يدرك أنه بحاجة إلى مساعدته ﷻ من أجل أداء هذه العبادة. ولهذا السبب جاءت كلمة ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بعد كلمة ﴿نَعْبُدُ﴾. إذ على الإنسان أن يعقد العزم أولاً على عبادة الله، ثم يستعين به لتحقيق ذلك.

وجاءت كلمة ﴿إِيَّاكَ﴾ قبل كلمتي ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾ كي تشير إلى حقيقة أن الله تعالى وحده الذي يستحق العبادة، وأنه وحده القادر على منح الإنسان المساعدة التي يحتاجها من أجل تنفيذ هذا الواجب بصدق وفاعلية. ولو لم يُمنح الإنسان القدرة والإمكانات الضرورية لهدايته، فلن يكون بوسعه له أن يصبح عبداً لله بالمعنى الحقيقي للكلمة. فليس هناك قانون من صنع الإنسان يمكن أن يجعل الإنسان عبداً صالحاً مخلصاً لله تعالى؛ ولا يمكن أن يحدث هذا التغيير إلا بعون الله ﷻ وحده.

واستخدام صيغة الجمع في كلمتي ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾ يلفت انتباهنا إلى نقطتين في غاية الأهمية:

- (١) إن المرء لا يعيش وحده في هذا العالم، بل هو جزء من المجتمع المحيط به. ولذلك عليه ألا يسير في طريق الله وحده، بل أن يسعى ليأخذ الآخرين معه.
- (٢) ما دام المرء لا يُصلح المجتمع الذي يعيش فيه، فإصلاحه لنفسه لا يجعله آمناً من الأخطار؛ لأن البيت الذي تحيط به بيوت أخرى تشتعل فيها النيران، لا يمكنه أن يستمتع بالأمان والاطمئنان طويلاً. وهكذا فإن استخدام صيغة الجمع هنا يشير إلى مبدأ ذي أهمية حيوية للنهضة الأخلاقية والاجتماعية والروحية للمسلمين، وكذلك لنجاحهم في نشر الدعوة والأنشطة الأخرى. ويُعتبر هذا المبدأ سمة خاصة من السمات التي تميز الإسلام، ويظل اليوم على قدر كبير من الأهمية كما كان دائماً من قبل.

وتُلمح الآية أيضاً إلى الخلاف المستمر الأزلي حول ما إذا كان الإنسان مُخَيَّراً أو مُسَيَّراً في اتخاذ طريق معين. وقد اختلف الكثير من المثقفين وأصحاب الفكر في جميع العصور على هذه النقطة، ولم يجدوا لها حلاً حتى الآن. إذ يرى البعض أن الإنسان سيد إرادته، وهو حر في عمل ما يشاء، ويعتقد آخرون أن حرية التصرف وهم، وأن الإنسان لا يتصرف إلا بما هو مُقدر له. والآية تُقدم حلاً سهلاً لهذه المعضلة.

فالكلمات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي وضعها الله تعالى على لسان الإنسان، تلفت انتباهنا إلى حقيقة أن الإنسان ليس مُسيّرًا، وإنما هو حر الاختيار وله أن يفعل ما يشاء. وعلى الجانب الآخر، فإن الكلمات ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تُذكرنا بحقيقة أنه على الرغم من أننا أحرار، فمن الممكن أن نعاني من أشكال عديدة من القيود والضغط. والدعاء ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدل على أن الله تعالى يرى كل أفعالنا، وهو الذي بيده أن يزيل القيود التي تمنعنا من اتخاذ الطريق الذي يدعونا سبحانه لنسلكه.

إن ما تقول به العقيدة المسيحية من أن الإنسان ورث الخطيئة من آدم عليه السلام، ولا يستطيع التخلص منها إلا بالفداء، يعادل القول بأن الإنسان ليس حرًا وإنما مُقيّد باتخاذ الطريق المُقدّر له. كذلك، فإن العقيدة الهندوسية الخاصة بتناسخ الأرواح تُعتبر هي الأخرى شكلًا من أشكال اتباع الإنسان لما هو مُقدّر له. فالقول بأن حالة الإنسان في هذه الحياة ليست إلا نتيجة أعماله في حياة سابقة، يعني فقط أن الإنسان مُقيّد باتباع الطريق المُقدّر له من قبل أن يولد.

من بين المفكرين المعاصرين، قدّم فرويد، الطبيب النفسي النمساوي الشهير، دعمًا قويًا لوجهة النظر هذه التي تقول بأن الإنسان مسير. لقد حاول أن يثبت أن أفعال الفرد البالغ تحددها الظروف والخبرات التي مرّ بها في مهد الطفولة، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من تأثير أيامه الأولى، فهو ليس حرًا. لا شك أن الظروف التي يمر بها المرء في بداية حياته تؤثر عليه فيما بعد. ومنذ ألف وأربعمائة سنة لفت الرسول ﷺ الانتباه إلى حقيقة أن الظروف التي يعيشها المرء في بداية حياته تؤثر عليه تأثيرًا كبيرًا. يقول ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ مَجَسَّانِيَّةٍ» (البخاري، كتاب الجنائز). وعلى الرغم من هذا، يرفض الإسلام فكرة أن الإنسان ليس حرًا. وإنّا نرى من خبرتنا اليومية أن المرء يستطيع بمرور الزمن أن يتخلص عادة من تأثير ظروف طفولته وأفكارها، ويسلك طريقًا في حياته يختلف عن شكل الحياة التي كان سيتخذها لو لم يتخلص من تلك الأفكار.

وهناك نقطة أخرى ينبغي توضيحها في هذه الآية. لقد جاء ذكر الله تعالى في الآيات الأربع الأولى في صيغة الغائب، ولكن في هذه الآية جاء ذكره فجأةً في صيغة المخاطب. هذا التغيير المفاجئ من صيغة الغائب إلى المخاطب قد يبدو على أنه مثال للنحو السيئ، ولكن الأمر ليس كذلك. إن التأمل العميق في الصفات الإلهية الموجودة بالآيات الأربع الأولى يستحضر في عقل العابد صورة جميلة جذابة لخالقه، فيشعر بالانجذاب إليه، وعندما يجتمع هذا الشعور مع إحساس المرء بحضور الله تعالى يجعل المرء يتحدث إلى ربه، ويطلب مساعدته في تضرّع وابتهاال. إن القرآن المجيد ليس كتاب فلسفة، وإنما أنزل ليحدث تغييراً في الإنسان، وليفتح أمامه طرق الارتقاء الروحي. ولذلك فإن أسلوبه يتناسق مع طبيعة الإنسان، ويتواءم مع مشاعره الداخلية.

إن التفكير في الصفات الإلهية الأربع يخلق في الإنسان حالة لا تقاوم من الشوق لخالقه، ويفجّر في نفسه رغبة عميقة لعبادته، حتى إنه لكي يُشبع هذا الشوق في نفسه غير صيغة الغائب المستخدمة في الآيات الأربع الأولى إلى صيغة المخاطب في الآية الخامسة. وأشار الرسول ﷺ إلى هذه النقطة بجمال في الحديث الشريف حيث يقول ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: قَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» (مسلم، كتاب الصلاة).

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

اهد: مشتقة من «هَدَى». «هداه» تعني: أرشده. «هداه الطريق» أو «هداه إلى الطريق» أي بيّنه له وعرفه به. «هَدَى فلاناً» أي تقدّمه ليريه الطريق. وتستخدم كلمة «هدى» غير متعدية، يُقال «هدي الرجل» أي عرف الطريق الصحيح. «الهُدَى» المصدر من هدى، وتستخدم بعدة معانٍ:

(١) رؤية ومعرفة الطريق الصحيح.

(٢) الوصول إلى الطريق الصحيح.

(٣) السير في الطريق الصحيح (أقرب الموارد ومفردات الراغب والكلّيات).

ولقد استخدمت هذه الكلمة في القرآن الكريم بكل هذه المعاني، لذا نقرأ قول الله تعالى:

(١) ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، أي أريناه وعرفناه الطريقين، طريق الخير وطريق الشر (سورة البلد: ١١).

(٢) ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٧٠)، أي أن الذين يجاهدون في سبيل الله، فإنه تعالى سيهديهم إليه بالتأكيد.

(٣) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ (سورة الأعراف: ٤٤)، أي أن الحمد كله لله تعالى الذي أرشدنا ودلّنا ﴿لِهَذَا﴾ أي إلى جنته، وذلك بأن أنعم علينا بالسير في الطريق المستقيم الذي أوصلنا إليها.

وفي موضع آخر، جاء في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (سورة محمد: ١٨)، أي أن الذين قبلوا تعاليم الله تعالى وهدايته، فالله تعالى يزيدهم رشاداً وهدى، ويدلهم على الطريق وينيره لهم ليرتقوا درجة بعد أخرى في هذا الطريق، حتى يبلغوا غايتهم المنشودة.

الصَّراط: وتكتب أيضاً «السرائط»، وتعني الطريق المستقيم (مفردات الراغب).

المُسْتَقِيم: مشتقة من «قَامَ» أي انتصب أو وقف. «استقام» أي اعتدل أو اتجه للطريق الصحيح. لذا فكلمة «مستقيم» تعني: السويّ الذي ليس فيه عوج أو التواء؛ الصواب؛ الاتجاه الصحيح (مفردات الراغب ومعجم لين).

التفسير:

إن الدعاء الذي تعلمنا إياه هذه الآية القصيرة غاية في الكمال والشمول، حتى إنه لا مثيل له في أي دين آخر. فالآية تُبين أولاً أن الطُّرُق نوعان: (١) مستقيم سويّ، و(٢) أعوج وغير سويّ، كما تلفت انتباه المؤمن الصادق إلى أنه ينبغي له أن يكون دائماً على حذر فيتخذ الطريق المستقيم ويتجنّب الطريق المعوج.

وقد يحدث أحياناً أن يُرى المرء الطريق الصحيح، لكنه لا يُوفّق للسير فيه. أو قد يضع قدمه على أول هذا الطريق، ثم يُخفق في الثبات عليه حتى النهاية. والدعاء المذكور في هذه الآية يُعلّمنا ألا نكتفي بأن نطلب من الله تعالى أن يرينا فقط الطريق المستقيم، ولا أن يهدينا إليه فحسب، بل نطلب أيضاً أن نظل على ذلك الطريق المستقيم إلى أن نصل إلى غايتنا المنشودة.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا الدعاء العظيم لا ينحصر في الأمور الروحية فقط، ولا يختص بأمور هذه الدنيا فحسب، ولكنه يغطي جميع احتياجات الإنسان الروحية والدينية على السواء، وهذا ما يجعله شاملاً بحق. إن المسيحي يدعو فقط لـ«خبزه اليومي»، ولكن على المسلم أن يجعل دعاءه شاملاً لجميع احتياجاته المادية والروحية. وفضلاً عن ذلك، كما سبق ذكره، إن هذا الدعاء ليس منحصراً في الاحتياجات الحالية للإنسان، وإنما يمتد إلى احتياجاته المستقبلية أيضاً. إنه دعاء مدهش، يمكن أن يستخدمه غير المسلم أيضاً بدون أن يتعارض مع أيّ من آرائه الدينية. وفي الواقع، لقد استخدم بالفعل هذا الدعاء عدد من غير المسلمين، واستفادوا كثيراً من فاعليته المذهلة.

ولقد أثار البعض اعتراضاً على هذا الدعاء بدعوى أن المسلمين يدعون به في صلواتهم اليومية، ودعائهم المستمر طلباً للطريق المستقيم يدل على أنهم لم يجدوه بعد. وهذا الاعتراض لا ينبع إلا من الجهل. فكما تم توضيحه، هذه الآية تُعلم المسلم ألا يدعو فقط لأن يريه الله تعالى الطريق المستقيم، ولا أن يهديه إليه فحسب، بل أن يكون هادياً له على الطريق نفسه، فيعينه لكي يظل عليه ولا يحيد عنه، إلى أن يصل إلى غايته. وفي الحقيقة، إن الإنسان يحتاج إلى عون الله ﷻ في كل خطوة وكل لحظة، ولذلك لا بد أن يلجأ إلى الله تعالى دائماً وأبداً بالتضرع والدعاء الذي تبرزه هذه الآية الكريمة. وعلى هذا، فإن الدعاء المستمر ليس فقط في محله، بل إنه لازم وضروري. والاعتراض بأن تكرار هذا الدعاء يكون عقيماً لا قيمة له، يجعل الاعتراض نفسه عقيماً ولا قيمة له. فطالما أن لنا احتياجات لم تُلب، وضرورات لم تُوف، وأهدافاً لم تتحقق، فإننا في حاجة إلى هذا الدعاء؛ وأي دعاء أشمل وأعَم من هذا الدعاء؟

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

أَنْعَمْتَ: مشتقة من «نعم» أي رقة. «نعم عيشه» أي طاب ولان واتسع. «أنعم فلاناً» أو «أنعم على فلان» أي أحسن إليه. «نِعْمَةٌ» تعني: الصنعة والمنّة؛ ما أنعم به عليك من رزقٍ ومالٍ وغيره؛ المسرة (أقرب الموارد). و«الإنعام» هو إيصال الإحسان إلى الغير، ولا يُقال إلا إذا كان الموصول إليه من الناطقين أي العقلاء، فمثلاً نقول «أنعم على عبده» ولا يُقال «أنعم على فرسه» (مفردات الراغب).

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: مشتقة من «غَضِبَ». «غَضِبَ عليه» أي أبغضه وحنق عليه مع الرغبة في الانتقام منه (أقرب الموارد). و«الغَضْبُ»: ثوران دَم القلب إرادة الانتقام (مفردات الراغب).

الضَّالِّينَ: مشتقة من «ضَلَّ» ضد اهتدى، أي حاد عن دينٍ أو حقٍ أو طريقٍ. «ضَلَّ سعيه»: عمل عملاً لم يُعَدْ عليه نفعه. «ضَلَّ الرجل» أي: مات وصار تراباً وعظاماً (أقرب الموارد).

كلمة «ضلالة» تستخدم أيضاً للإشارة إلى الانهماك في سعيٍ أو عملٍ ما، جاء في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (سورة الكهف: ١٠٥)، وجاء أيضاً ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (سورة الضحى: ٨).

التفسير:

في الآية السابقة علّمنا الله تعالى أن ندعُو بالهداية إلى الصراط المستقيم. وفي هذه الآية تكتمل الفكرة بإضافة الكلمات ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا الغرضين:

- (١) أنه ينبغي للمؤمن الحق ألا يكتفي بالهداية فقط إلى الصراط المستقيم، ولا أن يظل على الصراط المستقيم بعمل بعض الأعمال الصالحة، بل يتعيّن عليه أن يجعل هدفه أعلى وأسمى، بأن يصل إلى المكانة التي يتفضل فيها الله ﷻ بمنح عباده نعمه الخاصة، أي عليه ألا ينجح فقط في الامتحان، بل وأن يتفوق فيه.
- (٢) أن على المؤمن الحق أن يقتدي بأولئك الذين أنعم الله عليهم فكانوا مثلاً علياً يُحتذى بهم على مدى التاريخ، وأن يتشجع بهم. ويجب ألا يتوقف عند هذا، بل عليه أن يحاول أن ينضم إلى زمرة المقربين وأن يكون واحداً منهم. وكونه واحداً منهم لا يعني أن يكون في المؤخرة، بل عليه أن يبذل جهده ليكون في المقدمة، فإن الأول في صفه الدراسي لا يزال واحداً من الصف. وبهذا يكون الهدف الموضوع أمام المؤمن هدفاً عالياً فعلاً وسامياً جداً.

وفي وصف وتعريف ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ نقرأ في مكان آخر في القرآن المجيد:
﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾
(النساء: ٧٠)

هنا تقسم الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلى أربع مراتب، الأعلى هم «النبیین» والأدنى هم «الصالحين». وهكذا فإن الآية التي نحن بصدددها في سورة الفاتحة تحت المؤمن على أن يدعو الله تعالى لينعم عليه بالنعم الروحية التي تمكنه من أن يصل إلى إحدى هذه المراتب المنعم عليها. بل إن أعلى المراتب، وهي مرتبة النبیین، ليست ممنوعة على المسلمين. وهذا بالفعل هدف عظيم!

وتحتاج هذه النقطة إلى توضيح أكثر. فكما سبق ذكره، إن الآية لا تحت المؤمن على أن يكتفي بأن يكون إنساناً فاضلاً فحسب، بل تشير إلى أن عليه أن يسعى إلى الانضمام إلى النخبة من الناس الذين أنعم الله عليهم. فالمؤمن الذي يحب الله تعالى حقاً، لا يكفي أن يبقى في رتبة سفلى، فإن حب الذات الإلهية يولد في قلب الإنسان من الطموح الملتهب ما يجعله لا يقنع بالمرتبة العادية من الرقي الروحي والقرب من الله تعالى. حقاً، إن المؤمن الذي يحب الله تعالى لا يمكنه أن يعتبر أي مرحلة من قربه على أنها نهائية. وليست الرغبة في القرب غير المحدود من الله تعالى موجودة في قلب المؤمن الحق وحده، بل إن الله تعالى نفسه يريد ألا يظل الإنسان قانعاً بدرجة أدنى من قربه، بل يريد أن يدعو للاستزادة الدائمة من التقوى، تقوى أولئك الذين أنعم الله عليهم بنعمه وأفضاله الخاصة.

وكما سبق الإشارة إليه، إن «الإناعام» الذي يومئ إليه قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لا يقتصر على نعمة معينة، وإنما يشمل كل ما يُعطى للمرء كدليل على الرضا، سواء كان دنيوياً أو روحياً.

ومع أن كل النعم بركات إلهية، إلا أننا لا يمكن أن ننفي أن هناك بعض النعم التي تستحق هذه التسمية على وجه الخصوص، لأنها من أسمى النعم، فيقول تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢١)

وتشير هذه الآية إلى الأمور التي تُعتبر من النعم الخاصة التي يتفضل بها الله تعالى على الإنسان. والتي يقول موسى ﷺ لقومه من بني إسرائيل إنهم نالوا نصيباً وافراً منها.

إن هناك أنواعاً ثلاثة من المزايا التي يمكن أن يتميز بها الإنسان: (١) دنيوية وشخصية؛ (٢) روحية وشخصية؛ (٣) مزايا دنيوية أو روحية تتعلق بالآخرين، أي مزايا ذات طبيعة نسبية ينال فيها فرد أو أمة تفوقاً وسمواً على الآخرين. ومن الطبيعي أن يُفَضَّل الإنسان نوال هذا النوع الأخير من المزايا، الذي يمنحه التفوق على نظرائه وأقرانه. وفي الآية ٢١ من سورة المائدة المذكورة أعلاه، يقول موسى ﷺ لقومه من بني إسرائيل إن الله تعالى تفضل عليهم بجميع هذه الأنواع الثلاثة من النعم:

(١) لقد أعطاهم الله تعالى نِعَمًا دنيوية عظيمة، حتى إنهم ظلوا يحكمون الأرض المقدسة لفترة طويلة من الزمن. إن النعم الدنيوية تحتاج إلى المُلك والحكومة للمحافظة عليها والعمل على نموها وتقدمها، والأمة التي تنال الحكم تعطى الوسائل المهمة للتطور، سواء استفادت منها أم لا. إن منح الملك لشعب ما يعني أن جميع سبل التقدم الدنيوي مفتوحة له ومكفولة.

(٢) وقد أعطاهم الله أيضاً نِعَمًا روحية عالية. وكما أن المُلك هو الوسيلة لتحقيق العظمة الدنيوية ويعتبر قمة النعم الدنيوية، كذلك فإن النبوة هي الوسيلة لتحقيق العظمة الروحية وتعتبر قمة التقدم الروحي. وهذا هو السبب في أن موسى ﷺ يذكر لقومه أن النبوة، التي هي أعظم النعم الروحية، قد مُنحت لهم. ولقد نالوا بالفعل هذه النعمة من خلال سلسلة طويلة من الأنبياء.

(٣) والنوع الثالث من النعم نسبي، ويقول موسى عليه السلام لقومه إن الله ﴿ءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. ومع أن القول لموسى عليه السلام، فإن الكلمات قرآنية، وكما هي العادة يجمع الأسلوب القرآني بين اختصار الكلمات واتساع المعنى بشكل كبير في أسلوب لا يمكن إلا أن يترك أثراً عميقاً في نفس المتدبر.

وورود الكلمات ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعطي سعة كبيرة لدلالاتها. فهذه الكلمات لا تعني أن غاية المسلم هي الدعاء لله فقط حتى يريه الطريق الصحيح، بل إنها تحثه على الدعاء لأجل أهداف عظيمة، وللتوسل إلى الله تعالى ألا يريه فقط طرق الهداية، بل أن يهديه إلى طرق العلم الروحي الخاصة التي كشفها الله تعالى للمقربين قبله من الذين أنعم الله عليهم. ولقد من الله ﷻ على المسلمين بنعمة عظيمة يغرس هذه التطلعات الرفيعة في عقول المؤمنين.

ومع أنه في ضوء هذا التفسير الواضح لا ضرورة لتقديم المزيد من الأدلة لإثبات أن الأبواب لكل أنواع التقدم قد فُتحت على مصراعيها للمؤمنين، إلا أن مسلمي هذه الأيام قد استسلموا لليأس بشكل عام، ولهذا فإنه من الضروري أن نلجأ إلى القرآن المجيد لنرى معنى الدعاء لنوال النعم التي أنعم الله تعالى بها على الأمم السابقة، وما إذا كان هناك أي أمل في أن يُجاب هذا الدعاء. وكما هو مذكور أعلاه، نقرأ في الآيات ٦٧-٧٠ من سورة النساء: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا * وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

تحدث هذه الآيات الكريمة بوضوح عن النعم التي يعد الله تعالى بها المسلمين المخلصين، وهي تستخدم نفس الكلمات المذكورة في الآية التي نحن بصدد تفسيرها، أي ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. وكما تم إيضاحه مسبقاً، إن الذين أنعم الله عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون. وهذا يبين أن النعم الإلهية

التي يحث الله تعالى المسلمين على الدعاء من أجل نوالها هي أعلى درجات التقدم الروحي، ويخبرنا القرآن المجيد أن جميع هذه الدرجات ممكنة البلوغ، بل إن المسلمين سيبلغونها حقاً.

وأحياناً يعترض البعض بأن النبوة هبة وليست شيئاً مكتسباً. ولذلك فلا معنى للدعاء لنيلها. والإجابة على هذا الاعتراض هي أن المسلم لا يدعو للحصول على هبة النبوة خاصةً. إنه يدعو فقط بشكل عام، ويسأل الله تعالى أن يمنّ بأعلى النعم الروحانية على المسلمين، وبعد ذلك يترك الأمر في يد الله تعالى لينعم بما يشاء على من يشاء. ويقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، أي أنه سبحانه هو وحده الذي يعلم من يختاره نبياً. ولهذا فقد جعل الله تعالى هذا الدعاء بصيغة الجمع، قائلاً «اهدنا» وليس «اهدني»، إشارة إلى أن الدعاء من أجل نوال هذه البركات الروحانية يجب أن يكون عاماً وليس خاصاً. ومع أن النبوة هبة حقاً، إلا أنها ليست كذلك كلية، لأنه مما لا شك فيه أن فيها بعض عناصر الكسب أيضاً، وإلا لماذا مُنحت هذه الهبة لمحمد ﷺ وليس لأبي جهل؟

وهناك اعتراض آخر على هذا الموضوع وهو أنه عندما تم إعلان أن الرسول ﷺ هو «خاتم النبيين»، أصبح من المستحيل أن يظهر أي نبي بعده. وقد جاءت الإجابة بوضوح على هذا الاعتراض أيضاً في الآيات المذكورة أعلاه، وهي الآيات ٦٧-٧٠ من سورة النساء؛ لأن الكلمات المستخدمة فيها هي ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ وهي تعني بكل تأكيد أن النعم الروحية الموعودة للمسلمين، بما فيها النبوة، ستكون فقط لأولئك الذين يطيعون الله ﷻ والرسول ﷺ؛ وإنه من الواضح أن عمل من يطع الرسول ﷺ لن يكون منفصلاً عن عمل الرسول ﷺ، فلا يمكن لهذا الشخص أن يأتي بشريعة جديدة أو يغير في شريعة الإسلام شيئاً. وعليه، فإن ظهور نبي من أتباع الرسول ﷺ لا يتناقض مع كونه خاتم النبيين. بل على العكس، إن مثل هذا النبي التابع سيكمل فقط معنى خاتم النبيين. ولكن سنتحدث عن هذا فيما بعد في المكان المناسب.

وباختصار، نُحدثنا الآية بوضوح أن أبواب الرقي لأعلى الدرجات والبركات الروحانية مفتوحة أمام المسلمين. ومع ذلك، ينبغي ملاحظة أن «النعمة» أو «البركة» التي تحدثنا عنها الآية، لا تقتصر على الناحية الروحانية فقط، فهي تشمل جميع ما يخص الإنسان، ويضم الدعاء في مضمونه الأوسع طلب الرفعة والسمو الدنيوي. فمن ضمن نعم الله العلم والشرف والسلطة والثروة، وللمسلم الحق أن يدعو لنوال هذه النعم بجانب النعم الروحانية.

الجزء الأخير من الآية يحتوي على تحذير رادع. إذ يحدث أن يتلقى المرء النعم من الله تعالى، ثم يبدأ في إساءة استخدامها، وقد يفقد الطريق الصحيح، فيسقط ويستجلب غضب الله تعالى عليه. والجزء الأخير من الآية يحتوي على تحذير للناس عموماً، وللمسلمين خصوصاً، بهدف حمايتنا من هذا الخطر. فيحثنا الله تعالى على أن ندعُوَ بالآلِ نَجَلْبِ على أنفسنا غضبه، أو نتوه عن الصراط المستقيم بعد أن نكون من المقربين إليه ﷺ، بل أن يستمر تقدمنا، روحانياً ودنيوياً، دون تقهقر أو سقوط.

ولقد جاء استخدام الكلمات «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» و«الضَّالِّينَ» للتعبير عن نوعين من الأخطار. أحدهما هو ذاك الذي يلتزم بالطريق الصحيح ظاهرياً بينما يفقد الروح الداخلية، محتفظاً بالقشرة دون اللب. أما الآخر فهو ذلك الذي يفقد الطريق ذاته، فيضل ويتوه في البرية. هذان هما النوعان من الأخطار اللذان تشير إليهما الكلمات «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» و«الضَّالِّينَ». وقد قال الرسول ﷺ: «إن المغضوب عليهم اليهود والضالين هم النصارى» (الترمذي ومسنَد ابن حنبل). إن كلمات الرسول ﷺ هذه مليئة بالمعاني، فهي لا تصف فقط طبيعة هذين الخطيرين، ولكنها تحذر المسلمين أيضاً أنهم إن لم ينتبهوا، فسيقعون فريسة لهما. إذ قد يفقدون روح الدين كما فعل اليهود، الذين التزموا بحرفية الشريعة ولكنهم فقدوا روحها؛ أو قد يفقدون الطريق نفسه كما فعل المسيحيون، الذين حادوا عن التعاليم الصحيحة للمسيح ﷺ وراحوا يسلكون طريقاً آخر.

ويتحدث القرآن المجيد عن غضب الله تعالى الذي يحل على اليهود مرة بعد أخرى في الآيات ٦٢ و٩١ من سورة البقرة و١١٣ من سورة آل عمران و٦١ من سورة المائدة. ويشير أيضاً إلى انحراف المسيحيين عن التعاليم الحقيقية لعيسى في الآية ٧٨ من سورة المائدة.

وتشير الكلمات ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿الضَّالِّينَ﴾ إلى مجموعة أخرى من الأخطار. فكما هو معروف، لقد حدثنا الرسول ﷺ عن نزول عيسى المسيح، وتعني هذه الأحاديث قدوم مصلح، مسيح، من وسط المسلمين. وباستخدام الكلمات ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ التي قال الرسول ﷺ إنها تعني اليهود، يحذر القرآن المجيد المسلمين من أن يلقوا مصير اليهود برفضهم الإيمان بالمسيح الموعود لهم عندما يظهر بينهم. ولقد تحققت هذه النبوءة في شخص حضرة مرزا غلام أحمد القادياني رحمته الله، مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية.

وتشير كلمة ﴿الضَّالِّينَ﴾، والتي تعني المسيحيين طبقاً لكلام الرسول ﷺ، إلى الخطر الآخر. وتنبئ الآية عن وقت تسيطر فيه الأمم المسيحية على العالم، وتنبه المسلمين أن يأخذوا حذرهم ويحتاطوا ضد العقائد الزائفة والثقافة الفاسدة لهذه الأمم. إنه تحذير مخيف للغاية، ولكن مع الأسف الشديد، تم تجاهله!

وهذه الآية الأخيرة من سورة الفاتحة تحتوي أيضاً على نبوءة عظيمة أخرى. فكما رأينا، لقد نزل الوحي بهذه السورة مبكراً في مكة، عندما كان الرسول ﷺ محاطاً بالمشركين من عبّاد الأصنام، ولم يكن الإسلام قد اتصل بعد باليهود أو المسيحيين. مع ذلك فإن الدعاء المذكور في هذه الآية يشير إلى أخطار اليهود والمسيحيين ولا يشير إلى خطر الوثنية. وليس إغفال ذكر المشركين هنا، مع ذكر اليهود النصارى، بلا مغزى أو دلالة. فقد كان من المقدّر أن تُمحي عبادة الأصنام من بلاد العرب، وبذلك فلن تُشكّل خطراً على الإسلام. ولكن أخطاراً أخرى أشدّ هولاً ستواجه الإسلام في آخر الزمان. إن الخطر الداخلي على المسلمين هو أن يصبحوا كاليهود، والخطر الخارجي

عليهم هو من الخارج أن يصبحوا كالمسيحيين. وهكذا فإن للنبوءة الواردة في هذه الآية ثلاث دلالات: (١) إنها تشير إلى النهاية المبكرة لعبادة الأصنام في بلاد العرب؛ (٢) إنها تتحدث عن خطر أن يمنح المسلمون إلى حالة مماثلة لحالة اليهود؛ (٣) إنها تلوح بالعلو العالمي للأمم المسيحية في آخر الزمان، وتحذر المسلمين من تبني عقيدتهم والاستقاء من ثقافتهم. وقد تحققت كل هذه النبوءات حرفياً.

يقول الرسول ﷺ عندما يأتي المسلم إلى آخر الدعاء الموجود بالفاتحة، ينبغي له أن يقول «آمين»، أي اللهم تقبل دعاءنا! ولذلك فإن من عادة المسلمين أن يقولوا «آمين» بعد قراءة الفاتحة.

ملحوظة عامة على سورة الفاتحة:

سورة افتتاح القرآن الكريم، الفاتحة، تتم عن نظام جميل في ترتيب كلماتها وجملها. وكما قال الرسول ﷺ، إنها مُقسّمة إلى قسمين. القسم الأول يُخَصُّ الله ﷻ، والثاني يُخَصُّ الإنسان. والأجزاء المختلفة لكل قسم تُطابق بعضها بعضاً بطريقة غاية في الإبداع. ففي القسم الأول، نجد أن اسم الله، الذي يعبر عن له الصفات الجليلة جميعها، يقابل الكلمات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في القسم الثاني. فبمجرد أن يدرك العبد المخلص أن الله تعالى خالٍ من كل العيوب، ومالك لكل صفات الكمال، يتصاعد النداء تلقائياً من أعماق قلبه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

كذلك، في مقابل صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في القسم الأول، نجد الكلمات ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في الجزء الثاني. فعندما يعرف المسلم أن الله تعالى هو الرب، أي الخالق والمولى في العالمين ومصدر كل رقيٍّ وتقدّم، فإنه على الفور يحتمي به، قائلاً ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وفي الجزء الأول نجد صفة ﴿الرَّحْمَنِ﴾، أي الذي يُعطي النعم بدون حساب ويلبي جميع احتياجاتنا بسخاء، وفي مقابلها نجد الكلمات ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالجزء الثاني؛ لأن أعظم النعم التي ينالها الإنسان هي الهداية التي يوفرها الله تعالى له، بإرسال الوحي من خلال رسوله.

كذلك نجد في الجزء الأول صفة ﴿الرَّحِيمِ﴾، أي الذي يُعطي أحسن الجزاء على أعمال الإنسان، وفي المقابل نجد ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ في الجزء الثاني، لأن الرحيم هو الذي يمنح النعم المستحقة لعباده المقربين.

وفي مقابل ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ في القسم الأول، نجد الكلمات ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. إذ عندما يفكر الإنسان في أنه سوف يحاسب على أعماله، فإنه يفرغ من نتيجة الحساب؛ ولكن عندما يعن النظر في صفة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فإنه يبدأ بالدعاء لله تعالى لكي ينقذه من غضبه ومن الضلالة عن الطريق الصحيح.

ومن الخصائص الأخرى للدعاء المذكور في هذه السورة أنه يتلاءم مع فطرة الإنسان بطريقة طبيعية جداً. فهناك حافزان رئيسان في طبيعة الإنسان يدفعانه للخضوع؛ وهما الحب والخوف. بعض الناس يؤثر فيهم الحب، في حين أن الآخرين يحركهم الخوف. بالطبع حافز الحب أنبل وأسمى، ولكن قد يكون هناك من لا يؤثر فيهم الحب كما يؤثر فيهم الخوف. والفاتحة تتعامل مع كل من هذين الحافزين لدى الإنسان.

أولاً تأتي صفات الله تعالى التي تبعث على الحب، أي ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، و﴿الرَّحْمَنِ﴾، و﴿الرَّحِيمِ﴾، يتبعها صفة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ التي تُذكر الإنسان أنه إن لم يُصلح من نفسه، وإن لم يستجب للصفات التي تثير في نفسه حب الله تعالى، يجب عليه أن يستعد للحساب عن أعماله أمام الله تعالى. وهكذا يوضع الترهيب بالحساب بجانب الترغيب بالحب. لكن بما إن رحمة الله أوسع بكثير من غضبه، فحتى الصفة الرابعة، أي ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وهي الصفة الرئيسة الوحيدة التي تستعمل الترهيب، لم تُترك بدون الإشارة إلى الرحمة. وفي الواقع، هنا أيضاً تطفئ رحمة الله ﷻ على غضبه، لأنه يخبرنا أننا لن نقف أمام قاض من القضاة، ولكن أمام الرب الذي يملك العفو والمغفرة، والذي سوف يعاقب فقط عندما يكون العقاب ضرورياً من أجل إصلاح المذنب.

في آخر الدعاء كذلك يتم عرض حافزي الأمل والخوف. يُرغَّب الله تعالى أولاً من خلال الحب بوضع الكلمات الآتية على شفاه المُتضرع: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ

الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»، ثم يتبعها بالكلمات: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. وكذلك يتم الترغيب بالأمل جنباً إلى جنب مع الترهيب عملياً. ولكن هنا أيضاً يتم التحفيز بالحب أولاً.

وباختصار، إن سورة افتتاح القرآن، الفاتحة، عبارة عن مخزن مدهش للعلم الروحاني. إنها سورة صغيرة من سبع آيات قصيرات، ولكنها منجم علم وحكمة. ويطلق عليها «أم الكتاب» عن جدارة حيث إنها حقاً خلاصة القرآن المجيد.

فبعد أن تبدأ باسم الله تعالى، مصدر كل النعم والبركات، تستطرد السورة بسرد صفات الله تعالى الرئيسة، وهي (١) ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الخالق الذي يربي ويرعى العالم؛ (٢) ﴿الرَّحْمَنُ﴾، الذي يوفر جميع احتياجات الإنسان حتى من قبل مولده وبدون سعيه للكسب؛ (٣) ﴿الرَّحِيمُ﴾، الذي يُقدّر أحسن النتائج الممكنة لجهود الإنسان، ويكافئه عليها بسخاء؛ (٤) ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، الذي سيقف أمامه الجميع ليُحاسبوا على أعمالهم، فيعاقب الفاسقين منهم، ولكنه لن يعامل مخلوقاته كمجرد قاضٍ ولكن كربٍّ ومالك، يمزج العدل بالرحمة، فهو يعفو ويغفر كلما كانت المغفرة تؤدي إلى نتائج طيبة. هذه هي صورة الله ﷻ في الإسلام، التي رُسِّمَتْ في بداية القرآن الكريم - إله ذوق قوة وسلطان بلا حدود، وذو رحمة وإحسان بلا حصر.

ثم يأتي إعلان الإنسان، الإنسان الذي يملك ربه وخالقه وإلهه هذه الصفات السامية، بأنه مُستعد، بل مُتلهّف على عبادة الله تعالى، فيرمي بنفسه عند عتبة ربه في تضرّع تام؛ لكن الله يعلم أن الإنسان ضعيف ومُعَرِّض للخطأ، فمن رحمته أنه يحث عبده على أن يطلب عونه في كل خطوة من مسيرته، وفي كل احتياج يواجهه.

وأخيراً يأتي الدعاء، شاملاً وواسعاً، دعاءً يتضرّع فيه الإنسان لخالقه حتى يقوده إلى سواء السبيل في جميع أموره، سواء كانت روحانية أو دنيوية، وإن كانت تخص احتياجاته الحالية أو المستقبلية. إنه يدعو الله تعالى ألا يصمد فقط في كل المحن، ولكن أن يكون مثل المقربين لله، وذلك بأن يصمد بجدارة، ويتلقى أفضل النعم وأكرمها، وأن يستمر

إلى الأبد في سلوك الطريق الصحيح، مُتَقَرِّبًا لربه ومليكه أكثر فأكثر، دون أن يتعثّر في الطريق، كما فعل عدد من السابقين الذين أنعم الله تعالى عليهم بهذا الفضل الكريم. هذا هو موضوع سورة فاتحة القرآن المجيد، الذي يستمر تكراره، بشكل أو بآخر، في متن الكتاب العزيز الذي نحن بصددده الآن.



(٢)

﴿سورة البقرة﴾

(مدنية)

ملاحظات عامة:

سورة البقرة هي أطول سور القرآن المجيد، وقد أطلق عليها النبي ﷺ هذا الاسم، مما يرجح أن تسميتها كانت بوحى من الله تعالى. ويعود سبب التسمية إلى ورود لفظ «البقرة» فيها، في إشارة إلى حادثة مهمة في حياة الشعب اليهودي وإلى حقيقة أن الأمم تنحط وتسقط، لا بسبب الشرك الجليّ فحسب، بل نتيجة الشرك الخفي أيضاً الذي يتم تجاهله عادة، والذي يهدّد بدمار الناس روحانياً إن لم يحتاطوا منه كما ينبغي. هذا وللسورة اسم آخر وهو «الزهاء» وإن هذه السورة والتي تليها أي سورة آل عمران تعرفان باسم الزهراوين، أي النيرتين. عَنْ زَيْدٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَلَامٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّائَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا. (صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقْرَةِ وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ هِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ (الترمذي - كتاب فضائل القرآن). وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَنْ قَرَأَ أَرْبَعَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقْرَةِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ وَآيَتَانِ بَعْدَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَثَلَاثًا مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقْرَةِ لَمْ يَفْرُبْهُ وَلَا أَهْلُهُ يَوْمَئِذٍ شَيْطَانٌ وَلَا شَيْءٌ يَكْرَهُهُ. (سنن الدارمي، كتاب فضائل

القرآن). والمقصود من ذلك أن هذه الآيات تتضمن جوهر تعاليم الإسلام، فمن يتبعها بإخلاص لا يقربه الشيطان.

تاريخ نزول السورة:

نزلت هذه السورة في المدينة، وبدأ نزولها في أول سنة من الهجرة، ولم تكتمل إلا قبل وفاة الرسول ﷺ بفترة وجيزة.

موضع السورة في القرآن الكريم:

إن ما ذكرناه آنفاً من أن هذه السورة بدأ نزولها في السنة الأولى من الهجرة، وأنها تمت قبيل وفاة الرسول ﷺ، قد يدعو إلى التساؤل عن الحكمة من جعلها في مقدمة السور في المصحف بحيث لا يسبقها إلا سورة الفاتحة. وهذا السؤال يُعد جزءاً من التساؤل بصفة عامة عن ترتيب سور المصحف كلها. والردّ على هذا السؤال موجود في المقدمة التي جاءت في صدر هذا التفسير^١، ويكفي أن نذكر هنا أن سورة البقرة قد وُضعت عقب سورة الفاتحة لأنها أطول السور، ولكن لأنها تتضمن الأمور التي تواجه الإنسان مباشرة عقب انتهائه من الفاتحة وشروعه في دراسة الكتاب المجيد.

إن التفوق الأدبي لهذه السورة لا نظير له. ويروى أن لبید بن ربيعة أحد أصحاب المعلقات السبع في الجاهلية، والذي أسلم فيما بعد، قد سأله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يُسمعه شيئاً من شعره فأخذ يتلو سورة البقرة، ولما سُئل عن ذلك قال ما معناه: «كيف أنظم شعراً بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران» (أسد الغابة في معرفة الصحابة للحافظ أبو الحسن علي بن محمد).

موضوع السورة:

إن موضوع هذه السورة قد ذكر بصورة موجزة في الآية الثلاثين بعد المائة، إذ تتضمن هذه الآية دعاءً لإبراهيم عليه السلام توجّه فيه إلى الله تعالى متوسلاً إياه أن يبعث من بين أهل

١. تم نشر هذه المقدمة بالعربية باسم "التفسير الوسيط". (الناشر)

مكة رسولاً ينهض بالأمور التالية: (١) أن يذكر لهم آيات الله. (٢) يقدم للعالم كتاباً كاملاً للشرائع. (٣) يوضح لهم حكمة هذه التشريعات. (٤) يضع المبادئ التي من شأنها أن تغير الناس من الناحية الروحية وتجعلهم أمة قوية. وهذه الأغراض الأربعة التي دعا من أجلها إبراهيم عليه السلام قد عولجت بالتفصيل في سورة البقرة، وبالترتيب الوارد في الدعاء. فالآيات من ١ إلى ١٦٨ تتعلق بآيات الله جلّ جلاله، والآيات من ١٦٩ إلى ٢٤٣ تتعلق بالغرضين الثاني والثالث، أي الكتاب والحكمة؛ والآيات من ٢٤٤ إلى ٢٨٧ تتعلق بالغرض الرابع، أي بيان الوسائل التي ترتقي بها الأمة.

فتلاوة الآيات تشير إلى عرض الحجج الدالة على صدق رسالة الرسول ﷺ، فنجد مثلاً أنه ظهر في تمام الوقت تحقيقاً لدعاء إبراهيم عليه السلام. كذلك نجد أن بعثة الرسول ﷺ لم تكن أمراً مستحدثاً، فقد سبق مجيء الرسل، والإسلام ليس إلا ذروة التاريخ الديني للإنسان. ثم استشهد بقصص أنبياء بني إسرائيل مع ذكر كيفية فعل ناموس الطبيعة بما يؤيد دعوة الرسول ﷺ. ونجد أيضاً تحذيراً للكافرين من عاقبة رفضهم للآيات التي ظهرت تأييداً للرسول ﷺ وأن هذا سيؤدي إلى هلاكهم.

أما «تعليم الكتاب والحكمة» فيشير إلى أحكام الشريعة وما تنطوي عليه من حكمة أو فلسفة. وبعد عرض الأمور الأساسية كالإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والوحي والرسل، نجد الأوامر الخاصة بالصلاة والصوم والحج، ثم الأحكام الخاصة بالزواج والطلاق ورعاية اليتامى والأرامل وأحكام الموارث وما إلى ذلك، مع بيان ما تنطوي عليه هذه الأحكام والأوامر من حكمة.

وأخيراً يأتي بيان موضوع التغيير الروحاني الذي تضمنه دعاء إبراهيم عليه السلام، وذلك بذكر المبادئ التي تؤدي إلى يقظة الأمة بصورة مجملية، ولكن بطريقة مؤثرة فعالة. ثم نتلقى درساً في أنه لا يمكن لأي شعب أن يأمل في البقاء ما لم يكن مستعداً دائماً للموت في سبيل المحافظة على مثله. كذلك نجد تحريم الربا، لأنه لا يقضي على روح التضحية والتعاون بين الناس فحسب، وإنما يقود أيضاً إلى نشوب الحروب وإطالة مدتها.

وتنتهي السورة بنداء يهز القلوب، متضمنًا توسّل المؤمنين طلبًا للعون الإلهي من أجل أداء ما عليهم من مسؤوليات جليلة.

علاقة السورة بسورة الفاتحة:

مع أن لسورة الفاتحة رابطة بجميع سور القرآن المجيد، لكنها ترتبط بسورة البقرة بصفة خاصة؛ ذلك أن سورة البقرة تُعتبر بمنزلة الاستجابة للدعاء الذي جاء في الفاتحة في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. فسورة البقرة بما حوته من دروس عن الآيات السماوية وعن الكتاب والحكمة، ووسائل تزكية النفس، تشكل إجابة مناسبة جامعة للدعاء العظيم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

التفسير:

راجع تفسير سورة الفاتحة.

الْم ②

التفسير:

التركيب المختصرة في القرآن المجيد مثل ﴿الم﴾ تسمى المقطعات. وعند التلاوة يُنطق كل حرف منها على حدة. وترد هذه المقطعات فيما لا يقل عن ٢٨ سورة؛ وتأتي دائماً في مستهل السورة. وتتكون المقطعة من حرف واحد أو أكثر بحد أقصى خمسة حروف. وعدد الحروف المستعملة في المقطعات ١٣ حرفاً من الحروف الأبجدية، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والحاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والهاء، والنون، والقاف. من بين هذه الحروف، ورد كلٌّ من: الصاد، والقاف، والنون، منفرداً في أوائل بعض السور، بينما وردت بقية الحروف مجتمعة مع حرف آخر أو أكثر.

ومن المعاني الكثيرة التي وُضعت للمقطّعات، هناك معنيان أو تفسيران يُعدّان أكثرها وثوقاً. الأول: أن كل حرف من الحروف يمثل قيمة عددية محدّدة؛ فحرف الألف يمثل القيمة ١، وحرف الباء يمثل القيمة ٢، وحرف الجيم يمثل القيمة ٣، والدادل يمثل ٤، والهاء يمثل ٥، وهكذا... (أقرب الموارد). وقد كان هذا النظام معروفاً لدى العرب الأوائل، وذُكر في بعض كتب الحديث المشهورة (تفسير محمد بن جرير الطبري ج ١ ص ٧٠-٧١). وعلى هذا الاصطلاح العددي تكون ﴿الم﴾ تمثل المدة الزمنية التي يستغرقها الكشف عن المقصود الكامن في السورة.

ولما كان المجموع العددي للحروف ﴿الم﴾ هو ٧١، فالألف يعادل ١، واللام تعادل ٣٠ والميم تعادل ٤٠، وبالتالي فإن وضع هذه الحروف في مستهل السورة يعني أن موضوع سورة البقرة، أي تثبيت قدم الإسلام خاصة في مبدأ ظهوره، سيستغرق ٧١ سنة حتى يظهر ذلك المقصد بصورة كاملة. ومن المعلوم أن عملية تثبيت الإسلام استمرت حتى سنة ٧١ من البعثة النبوية، أي في السنة التي جمع فيها يزيد بن معاوية زمام السُلطة في يديه، حين دخل تاريخ الإسلام منعطفاً جديداً.

المعنى الثاني الموثوق به للمقطّعات وهو الأهم، أنها ترمز بصورة مختصرة لصفات معيّنة من صفات الله ﷻ. والسورة التي تستهل بمقطّعة من المقطّعات يكون موضوعها مرتبطاً بالصفات الإلهية التي ترمز إليها المقطّعة. وقد كان العرب يستعملون مثل هذا الاختصار في التعبير. فمثلاً قال الشاعر:

بالخير خيرات وإن شرّفاً ولا أريد الشر إلا أن تا

يعني أي سأقابل معروفك بالمعروف، ولكن إذا ملّت إلى الشر فلن أفكر في الشر إلا إذا أردته. فهنا استخدم الشاعر حرف (فا) اختصاراً للكلمة (فشر)، وحرف (تا) اختصاراً للكلمة (تشاء). وبالمثل فإن ﴿الم﴾ تعني «أنا الله أعلم». وهذا التفسير منسوب إلى ابن عم النبي ﷺ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (تفسير ابن جرير الطبري). وعلى ذلك فإن وضع الأحرف «ألف» و«لام» و«ميم» في مقدّمة سورة البقرة يشير إلى

أن محور البحث في السورة هو العلم الإلهي. فكأن الله ﷻ يعلن - كما تحقق بالفعل - أن المسلمين وإن كانوا ضعفاء في بادئ الأمر، فإنهم سينالون العلم والحكمة والسلطان عما قريب.

كان استخدام المقطعات شائعاً بين العرب في أشعارهم وأحاديثهم. وقد انتشرت هذه الطريقة أيضاً في العالم الغربي الحديث انتشاراً واسعاً؛ فيكاد لا يخلو قاموس من جدول لهذه الحروف ومعانيها. (للاطلاع على الشرح المفصل لموضوع المقطعات، يمكن الرجوع إلى التفسير الكبير).

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

شرح الكلمات:

ذَلِكَ: مكوّن من اسم الإشارة «ذا» واللام والكاف اللتين ألحقتا به، وهو يماثل كلمة «هذا» (أقرب الموارد). واستخدامه في الآية هو للإيدان بعلو شأن القرآن المجيد، وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف (فتح البيان لأبي الطيب صدّيق بن حسن).

الْكِتَابُ: (ال) أداة تعريف وتستخدم للدلالة على شيء محدد معروف للسامع أو القارئ. وبهذا المعنى، تعني عبارة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أن «هذا هو الكتاب». وتستخدم أداة التعريف «ال» أيضاً للدلالة على اجتماع خصائص جنس ما في فردٍ منه، كقولك «زيد الرجل» أي أن زيداً قد اجتمعت فيه صفات الكمال الموجودة في جنس الرجال. وبهذا المعنى، تعني عبارة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أن القرآن المجيد كتاب كامل، أو هو الكتاب الوحيد الذي اجتمعت فيه صفات الكمال.

رَيْب: مشتقة من «راب». يقولون «رابّة» أي تسبب في بلبلة فكره أو جعله يشك. والريب يعني: (١) القلق أو اضطراب الفكر. (٢) الشك. (٣) البلاء أو المصيبة. (٤)

ظن السوء أو التهمة الباطلة أو الوشاية (أقرب الموارد). وقد وردت كلمة «ريب» في القرآن المجيد في مواضع عديدة. ولكن في المواضع التي تكون فيها بمعنى الشك فيُقصد بها الشك السيئ؛ فالله تعالى يخاطب الكفار بقوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٤)، والريب هنا يعني الشك فيما هو حق، كذلك رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لَا يَرِيبُكَ» (مسند ابن حنبل). وفي هذا الحديث أيضاً يعني الريب الشك السيئ. ونخلص من ذلك أن لفظة «ريب» إذا استعملت بمعنى الشك فإنها تعني ذلك الشك الذي يكون قائماً على التحيز أو على سوء الظن، لا الشك الذي يساعد على البحث ويعين على تقدّم المعرفة.

هُدًى: مصدر الفعل هدى الذي يعني كما سبق شرحه في سورة الفاتحة: (١) دعاه أو أراه الطريق المستقيم. (٢) أوصله إلى الطريق المستقيم. (٣) جعله يسير على الطريق المستقيم إلى أن بلغ هدفه أو غايته.

الْمُتَّقِينَ: مشتقة من «اتَّقَى»، وهذه مشتقة من «وقى». يقولون «وقاه» أي حرسه وحماه من الشر وما إلى ذلك. ومعنى «اتَّقَى» أي كان على حذر أو اتخذ لنفسه ما يحميه. ومعنى «اتَّقَى به» اتَّخذه وقاية له كالدرع (أقرب الموارد).

وفي الاصطلاح الديني تعني هذه اللفظة التحرز من الآثام أو الأشياء الضارة، أو اتَّخَذَ الله تعالى كدرع للحفاظة من الآثام. ومن ثم فمن الخطأ أن تُعتبر التقوى مرادفة للخوف، إلا إذا حملنا الخوف على محمل حسن. وقد قيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبي بن كعب، وهو صحابي جليل، عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال بلى؛ قال فما عملت؟ قال شمّرت واجتهدت. قال فذاك التقوى (راجع تفسير ابن كثير). وقد أخذ الشاعر العربي ابن المعتز هذا المعنى وصاغه في شعر جميل فقال:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْضَ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى
(تفسير ابن كثير).

وعلى هذا فإن المتقي هو ذلك الذي يحذر الآثام دائماً أبداً، ويتخذ من الله ڤ درعاً وملجأ.

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ بمعنى «هذا هو الكتاب الكامل»، قد يحمل من حيث موضعه في صدر الآية عدة معانٍ، غير أن المعنيين التاليين يبدوان الأكثر تناسباً مع النص:

الأول بمعنى: هذا كتاب كامل، منزّه عن أية نقیصة، وحاوٍ لجميع الفضائل التي ينبغي لأي كتاب كامل مُنزّه عن العيب أن يحويها.

الثاني بمعنى: ذلك هو الكتاب أو ها هو ذا الكتاب الذي كنت تدعو من أجله، أو الذي وُعدت به.

وبإضافة عبارة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إلى قوله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يكون معنى العبارة كلها أن هذا الكتاب كتاب وافٍ من جميع الوجوه، ولا يتضمّن أي شيء من الريب، أي لا يحوي ما قد يؤدّي إلى بلبلة الفكر وإثارة الشك، أو جلب الضيق والغم وما إلى ذلك.

إن أي كتاب يدّعي أنه مُوحى به، ويدعو الناس إلى الإيمان به مع وجود كتب أخرى تدّعي أيضاً أنها من مصدر إلهي، ينبغي له أن يعلن منذ البداية أنه منزل من عند الله، كي يكون ذلك رداً على السؤال الذي ينشأ تلقائياً: ما الحاجة إلى كتاب جديد ما دامت هناك بالفعل كتب كثيرة؟ ولهذا أكد القرآن المجید في مطلعته أنه وحده،

دون سائر الكتب الأخرى، الكتاب الوافي والكامل الذي يلبي حاجات الإنسان على أكمل وجه.

والمقدور دعوى القرآن المجيد هذه أن تقدّم مادّة غزيرة تؤيدها؛ غير أنه يكفي هنا أن نشير بإيجاز إلى أن دعواه هذه تستند إلى ما تتصف به تعاليم القرآن المجيد من الشمول. فهو يعالج بوضوح ودقة جميع المسائل الهامة كالذات الإلهية وصفاتها، وأصل الإنسان وماهيته والغرض من وجوده وحياته في هذه الدنيا وفي الآخرة. كذلك يرشدنا القرآن إلى القواعد التي تنظم العلاقة بين الإنسان وخالقه وبين الإنسان وأخيه الإنسان؛ كل ذلك بكيفية لا نجد لها نظيراً في كتب الأديان الأخرى. ثم إن القرآن يرشد الآباء والأبناء والأزواج والزوجات والأقارب الآخرين، كلّاً فيما يختص بواجباته. وتحتوي تعاليمه أيضاً ما يتصل بالوصايا والمواثيق وحقوق الجار، وكذلك حقوق العامل وصاحب العمل، والحاكم والمحكوم. وفوق ذلك كله، فإنه يخبرنا عن الكيفية التي ينبغي للإنسان أن يوجّه نفسه بها في علاقته مع الله ﷻ ومع أنبيائه الكرام. أما الكتب الأخرى، فإما أنها قد غفلت تماماً عن هذه الأمور، أو عالجتها بطريقة جزئية جداً.

هذا وإن القرآن المجيد يقدم فكرة متّسقة جداً عن الأخلاقيات، وهو موضوع نلاحظ أن الكتب الأخرى إما قد تعرّضت له بقدر ضئيل جداً أو غفلت عنه كلية. ففي تعاليم البوذية مثلاً نجد بحثاً عن غرائز الإنسان الأساسية، ولكنه بحث تافه جداً بالقياس إلى ما يعرضه القرآن المجيد في هذا الصدد. فالقرآن الكريم يخبرنا عن وجود الغرائز والأغراض التي تخدمها والفائدة من توجيهها نحو الأغراض السليمة. كذلك يبين لنا القرآن كيفية تحوّل الغرائز إلى صفات أخلاقية طيبة أو سيئة؛ وكيف يمكن للصفات الطيبة أن تنمو، وكيف يمكن اقتلاع جذور الصفات السيئة أو عدم تشجيعها. إن تعاليم البوذية تغرس في الذهن قتل الشهوات، ولكنها لا تدلّنا كيف تنشأ الشهوات السيئة وكيف يمكن مقاومتها. ولكن القرآن يدلّنا على مصادر الخطيئة وعلى وسائل سدّ منافذها. ومع أن القرآن المجيد يعالج جميع هذه المواضيع

بالتفصيل إلا أنه صغير الحجم جداً، الأمر الذي يجعل تلاوته وفهمه وتذكره عملاً ميسوراً نسبياً. وهناك ألوف من الناس يحفظونه عن ظهر قلب. ولذلك فإن دعوى القرآن المجيد بأنه كتاب متكامل هي دعوى تقوم على حقيقة واقعة، كما أن تقديم هذه الدعوى في مستهل الكتاب قد جاء في موضعه المناسب.

والمعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ هو أن هذا التعبير بمنزلة الاستجابة لدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. إن الإنسان يدعو من أجل الهداية، وها هي ذي الهداية قد نزلت. ووفقاً لما تقدم يكون ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ معناه هذا هو الكتاب الذي يحوي الهداية التي تسأل عنها في الدعاء الذي تضمنته سورة الفاتحة. كما يمكن أن يكون معنى هذا التعبير: «ذلك هو الكتاب الذي وعدتم به».

ثم إن المعنى التام لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ يتكشف عندما نتلوها مع العبارة التي تليها ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي أن ذلك هو الكتاب الكامل المنزه عن وجود أي شك فيه، وهو الهداية للصالحين. إن أول رد فعل طبيعي على أي رسالة جديدة هو الخوف من أن تقود الإنسان إلى الخطأ أو الشر. وردّ الفعل الثاني هو الأمل في أن يثبت نفع هذه الدعوة الجديدة. وردّ الفعل الأول ذو طابع سلبي، والثاني إيجابي. وقد تضمنت الآية الكريمة ما يطمئن الإنسان على ما في داخله من ردّي الفعل هذين.. السلبي والإيجابي. إن القرآن المجيد كتاب كامل، لأنه لا يتضمن أي شيء يدعو إلى القلق أو يثير الشك أو اليأس. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو يحوي كل ما يلزم لهداية من يخشون الله تعالى. وقد أشير إلى ذلك في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد: ٢٩).

إن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا ينفي وجود من يشك في القرآن المجيد، إذ يشير القرآن نفسه إلى الاعتراضات التي وجهها الكفار إليه. فمعنى العبارة إذن هو فقط أن تعاليم القرآن معقولة لدرجة أن أي شخص سليم التفكير لا يسعه إذا ما اطلع عليها دون تحيز إلا أن يُقر بأن فيها الهداية حقاً. إن «ويري» (Wherry) وغيره من الناقدين

الغربيين جعلوا لذلك التعبير معنى واحداً، ورتّبوا على ذلك المعنى رأيهم بأنه لا بد من أن الرسول ﷺ كان قلقاً مما يشوب طبيعة القرآن من ريبة. وينسى هؤلاء الناقدون أن هذه الآية قد نزلت في المدينة، أي بعد أن تم نزول قدر كبير من آيات القرآن المجيد. وكان الكفار قد أثاروا من قبل كثيراً من الاعتراضات، وقد نزلت هذه الآية في معرض الرد على هذه الاعتراضات. ومن ثم فإن دعوى إحساس الضمير بالذنب ليست سوى اتهام باطل من أساسه. ثم إن توكيد الحق ونفي الشك أمر معروف في الكتب الأخرى. فقد ورد في التوراة: «كل كلمة في فمي بالحق ليس فيها عوج ولا التواء» (سفر الأمثال ٨: ٨؛ انظر أيضاً إشعياء ٤٥: ١٩؛ رسالة بولس الرسول إلى تيطس ٨: ٣؛ الإصحاح الأول؛ رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس ٩: ٤؛ رؤيا يوحنا اللاهوتي ٦: ٢٢). وفضلاً عما تقدّم، فإن لفظة «رَيْبٌ» لا تعني الشك الذي يعين على التحري عن الحقيقة، ولكنها تعني ذلك الشك الذي يتولّد من سوء الظن الذي لا أساس له. وعلى ذلك فإن عبارة «لَا رَيْبٌ فِيهِ» تعني أن القرآن المجيد لا يحوي أي شيء قائم على الريبة، أي أن كل ما فيه مؤسس على الحق وعلى اليقين؛ فهو لا يقرر أي مبدأ أو قاعدة إلّا ويؤيد ما يقرره بالحجة المقنعة.

هذا وإن لفظة «رَيْبٌ» تفيد أيضاً البلاء أو المصيبة. فيكون المعنى وفقاً لذلك أن القرآن المجيد لا يحوي أي شيء من شأنه أن يجلب التعاسة أو الغم للفرد أو للأمة. ويتأكّد هذا المعنى في قوله تعالى: «مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى» (طه: ٣). وقد رفع القرآن أقواماً من حضيض الانحلال الأخلاقي والفساد الاجتماعي إلى أوج المجد الدنيوي والروحاني. فلا عجب إذا اقتنعوا عن طريق التجربة أن القرآن لا يتضمن أمراً واحداً يترتب على تطبيقه ما يؤدّي إلى الأسف.

كذلك يدخل في مغزى «الرَيْب» الظن السيئ أو التهمة الباطلة أو الوشاية، وتبعاً لهذا يكون معنى «لَا رَيْبٌ فِيهِ» أن القرآن الكريم لا يتضمّن أي شيء مما قد يترتب عليه بطريقة ما زُيّي أي إنسان بتهمة باطلة. والواقع أن القرآن المجيد لا يقرر سلب

حق أي إنسان، ولا إساءة سمعة أي كائن من كان، لا الذات الإلهية ولا الكتب السماوية ولا أنبياء الله ورسله.

وقد يبدو عجيبيًا، وإن كان ذلك حقيقة واقعة، أن الكتب الدينية كأسفار الفيدا^٢ (Veda) والزند أفيستا^٣ (Zend-Avesta)، والعهد القديم والعهد الجديد في الكتاب المقدس، كل هذه الكتب تنسب إلى الله تعالى النقص بصورة أو أخرى، على عكس القرآن المجيد الذي يُنزه الله ﷻ عن أي نقص، إذ أنه وحده الذي يمثل كمال العزة والجلال والقداسة. وسيأتي بحث هذه النقطة بالتفصيل في موضعه المناسب من التفسير.

ولقد تعرض كلام الله تعالى لكثير من النقد. فهناك رأي يقول بأن الوحي ما هو إلا استجابة ذهنية لما يفكر فيه الإنسان من مسائل، أي أن أصحاب هذا الرأي ينكرون على العقيدة صفة اليقين التي تقوم على كونها وحياً من الله تعالى، ومن ثم فليس هناك فرق بين أفكار الإنسان والوحي الإلهي. ولكن القرآن الكريم يبرئ الكتب السماوية جميعها من التهم التي ألصقت بها والتي تزعم أنها ليست كلام الله، بل مجرد أفكار صدرت عن أناس يتميزون بحسٍ مرهف، فيقول: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء: ١٦٤). كذلك يقرر القرآن الكريم بأن جميع كتب الأديان الأخرى ترجع إلى أصل سماوي: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (آل عمران: ٤)، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٤)، ويقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥).

٢. كتب الهندوس المقدسة، ويطلق على هذه الديانة في العربية اسم «الديانة البرهمية»، ولفظة (فيدا) معناها العلم أو المعرفة. (الناشر)

٣. عبارة عن شرح لكتاب الأفستا أو كما يسميه العرب (الأبستاق) ومعناه الأساس أو المتن، وهو كتاب الديانة الزرادشتية التي ظهرت في بلاد الفرس. (الناشر)

هذا وقد تعرّض رُسُلُ الله تعالى؛ كآدم وإبراهيم وموسى وعيسى وكرشنا عليه السلام، للتجريح من غير قصد من جانب أتباعهم، وعن قصد من جانب سواهم. ولكن القرآن المجيد يعلن أنهم مبرّؤون جميعاً، إذ إن عصمة الأنبياء جميعاً تدخل في عداد المعتقدات الرئيسة في الإسلام. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥). كذلك يعلن القرآن المجيد طهارتهم فرداً فرداً (راجع طه: ١١٦؛ النجم: ٣٨؛ طه: ٢٣؛ طه: ٨٨؛ طه: ٩١؛ البقرة: ١٠٣؛ الأنبياء: ٩٢؛ البقرة: ٨٨؛ مريم: ١٤).

وخلاصة القول إن عبارة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تعني: (١) أن القرآن المجيد منزّه عما يبعث على اضطراب الفكر. (٢) لا يحوي أي شيء يُشكّ فيه، فكل تعاليمه وكل بيان فيه مؤيد بالأدلة. (٣) لا يحوي أي شيء يجلب للفرد أو الجماعة البؤس والأسى. (٤) لا يتضمن أي اتّهام أو أي فكرة سيئة ضد أي شيء أو أية عقيدة.

وتقدّم لنا عبارة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الجانب الإيجابي في القرآن المجيد، فهو ليس منزّهاً عن كل ما يضر فحسب، بل يشتمل أيضاً على كل ما هو إيجابي من الطراز الرفيع، وكما بيّنا سابقاً فإن للهداية ثلاث مراحل: (١) إرشاد الإنسان إلى الطريق المستقيم (٢) إيصاله إليه (٣) معاونته على سلوكه حتى يصل إلى غايته. ونستخلص من ذلك أن عبارة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تفيد أنه لا حدّ لما يحويه القرآن المجيد من هداية تسمو بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال، مما يؤهله لأن ينال قدراً أعظم فأعظم من نعم الله تبارك وتعالى. إن طرائق التقرب من الخالق جلّ جلاله ووسائله لا نهاية لها، وهي تنكشف للإنسان المخلص الواحدة بعد الأخرى دون أن يكون لذلك حدّ؛ وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٧٠). هذا وإن عملية التقدم الروحاني لا تتوقف بموت الإنسان، ولكنها تستمر أيضاً في الحياة الأخروية وفقاً لما يُفهم من قوله تعالى في وصف حال الرسول صلّى الله عليه وآله ومن معه في الآخرة: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَايْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (التحریم: ۹). وقد أثير اعتراض مفاده: إذا كان القرآن هدى للمتقين فقط، فماذا عن الذين لم يبلغوا مرتبة التقوى؟ هذا الاعتراض لا أساس له من الصحة؛ فالقرآن المجيد زاخر بالآيات التي تُثبت أنه هدى لجميع السالكين وطالبي الهداية، مهما كانت أحوالهم. (البقرة: ۲۲؛ البقرة: ۱۸۶؛ آل عمران: ۱۳۹؛ الإسراء: ۴۲؛ الكهف: ۵۵؛ الروم: ۵۹).

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

يُؤْمِنُونَ: مضارع للجمع المذكّر مشتقة من أَمِنَ أي شعر بالسلامة، وأَمِنَهُ: وثق به، وأَمِنَهُ: هيا له السلامة. أَمِنَ به: اعتقد بأنه حق، صدّق به. أَمِنَ له: خضع له وأطاعه (أقرب الموارد). ومن ثم فإن لفظة «الإيمان» تقابلها لفظة «الكفر». ولفظة «الإيمان» تستعمل بصفة خاصة فيما يتصل بالله ﷻ وغيره من الأمور الأساسية في العقيدة.

الْغَيْب: مشتقة من غاب أي احتجب، اختفى، بَعْدَ، وانقطعت به الصلة. فمعنى الغيب إذن هو ما لا يرى أو ما استتر عن العين، ما خَفِيَ على الإنسان، غير الموجود، النائي (أقرب الموارد ومعجم لين Lane).

جميع أركان الإيمان: الله ﷻ والملائكة والكتب والأنبياء واليوم الآخر، من الأمور الغيبية. فالكتاب المنزل يُرى في صورته المادية ككتاب، لكن كونه وحياً من عند الله يبقى من شؤون الغيب. وبالمثل، نرى النبي بشراً كسائر الناس، غير أنه كونه رسولاً من الله تعالى، فإنه يظل مستوراً عن الأعين. ومع ذلك فإن لفظة «الْغَيْب» لا تقتصر على أركان الإيمان فحسب.

يُقِيمُونَ: مضارع مشتق من أقام. أقام الشيء أسسه أو رفعه؛ نصبه معتدلاً. هذا وإن لفظة «أقام» مشتقة من «قام» أي وقف منتصباً، وقف، وقف ساكناً. وتعني إقامة الصلاة أداؤها بانتظام (أقرب الموارد) أو توفية حقوقها (مفردات الراغب).

الصَّلَاة: مشتقة من «صلى» وهي تتضمن معانٍ مختلفة باختلاف مواضعها، إذ تعني الدعاء، والدين، والرحمة، والاستغفار. وهي من الله تبارك وتعالى رحمته أو رضاه، ومن الملائكة تعني طلب المغفرة للإنسان وما إلى ذلك، ومن الإنسان تعني الدعاء. ولفظ الصلاة في الإسلام أصبح بصفة عامة يُطلق على العبادة المعروفة ذات الأركان المخصوصة من قيامٍ وركوعٍ وسجودٍ وتشهدٍ وتسليم. (أقرب الموارد).

رَزَقْنَاهُمْ: مشتقة من رزق. يقال رزقه أي أمده وأعطاه. والرزق الشيء الذي ينتفع به الإنسان، أو الشيء الذي يجلب على الإنسان الفائدة، وهو الطعام أو ما يقيم أود الحياة، أو نعمة من لدن الله ﷻ مادية كانت أو غيرها (أقرب الموارد - ومفردات الراغب).

يُنْفِقُونَ: مشتقة من «نفق». يقال نفق الشيء أي فني أو قلّ. وأنفق فلان إذا دأب على التصرف في ماله عن وسع حتى تضاعل أو نفذ (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

تشير هذه الآية إلى ثلاث خصال هامة يتصف بها المتقي: (١) أنه يؤمن بالغيب. (٢) يقيم الصلاة. (٣) ينفق مما أعطاه الله ﷻ.

وأولى هذه الصفات تتعلق بالإيمان أو الاعتقاد، وهو ما ينبغي أن يكون في المقدمة، والصفتان التاليتان تتعلقان بالأعمال. هذا وإن الإيمان بالغيب لا يعني التصديق بما هو غير مرئي تصديقاً أعمى، أو الاعتقاد بأشياء لا تحس ولا تدرك عقلاً؛ فليس أبعد عن روح القرآن من الظن بأنه يطالب المسلم بإيمانٍ يفتقر إلى ما يؤيده من تعليل وإدراك. والقرآن يستنكر بشدة مثل ذلك الاعتقاد. وحسب القرآن المجيد، ينبغي

الإيمان الصحيح على العقل والبرهان. تأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف: ٥)، ﴿أَمْ أُنزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٣٦)، ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا وَلَا خَرَجُوا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا خُرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٩-١٥٠)، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان: ٧٤).

كما أن لفظة ﴿الْغَيْبِ﴾ في القرآن الكريم لا تعني، كما يدعي بعض المتجنيين، الأشياء الخيالية غير الحقيقية، ولكنها تعني الأشياء الحقيقية المؤكدة وإن كانت مستورة عن العين، ويشير القرآن المجيد إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحجرات: ١٩)، ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (السجدة: ٧). وعلى هذا فمن الخطأ أن يقال، كما فعل القسيس «ويري» في شرحه للقرآن المجيد، أن الإسلام يلزم أتباعه بأمور عقائدية غامضة، ويطالبهم بالإيمان بها إيماناً أعمى. فالحق إن المسيحية هي التي تفرض على معتنقيها أموراً غامضة مثل تثليث الوجدانية، وبنوة عيسى عليه السلام، وهي أمور على طرفي نقيض مع العقل والمنطق.

إن لفظة ﴿الْغَيْبِ﴾ كما ذكرنا آنفاً تعني الأشياء التي وإن كانت فوق إدراك الإنسان حسياً، إلا أنه يمكن إثباتها بمنطق العقل أو بالتجربة. وليس من الضروري أن يكون كل ما هو فوق الإدراك الحسي غير معقول. وما من أمر غيبي يطالب المسلم بالإيمان به إلا ويقع في نطاق الإدراك العقلي، وهناك أشياء كثيرة في العالم غير مرئية ولكن ثبت وجودها بالاستدلال المقنع حتى إنه لا يمكن لأي إنسان أن ينكرها. إننا لا نستطيع أن ندرك الذات الإلهية بحواسنا المادية، وكذلك الحال فيما يتعلق بالملائكة

أو الحياة بعد الموت. ولكن هل يمكن إنكار وجود الله تعالى أو الملائكة من أجل ذلك؟ وهل يمكن إنكار الحياة بعد الموت بسبب هذا القصور الحسي.

إن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قد يعني أيضاً أن المؤمن ينهض بواجباته، ويؤدي شؤون العبادة بروح منزهة عن المساومة؛ ولا ينظر إلى ذلك كله بنظرة الأخذ والعطاء، أي أنه يتحمل المشاق، ويتعرض للمحن، ويقدم التضحيات، غير ناظر إلى مكافأة مادية يبتغيها أو أجر مباشر يريد نواله، وإنما يتصرف بروح يسودها إنكار الذات، من أجل خدمة قضية كبرى، وإن كانت غير مرئية، سواء كانت خدمة المجتمع أو الوطن أو الإنسانية جمعاء. وهذا كله داخل في معنى الإيمان بالغيب.

ثم هناك معنى آخر للفظه ﴿الْغَيْبِ﴾ وهو الاستتار عن أعين الناس. ووفقاً لهذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ هو أن إيمان المؤمن الصادق يكون ثابتاً راسخاً سواء أكان موجوداً وسط جماعة أو منفرداً بنفسه. وأما الإيمان الذي يحتاج إلى مراقبة دائمة ونصيحة مستمرة فلا قيمة تذكر له، ذلك أن الإيمان الصادق الحقيقي تكون جذوره متأصلة في قلب المؤمن ويبقى قائماً بذاته، فلا يضعف ولا يفتر حتى إذا حرم المسلم من صحبة المسلمين الآخرين، أو عاش في محيط من الكافرين. وقد وُصف ذلك الإيمان الراسخ في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٥٠). وقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد: ٢٦).

نتقل بعد ذلك إلى الصفة الثانية للمتقي، وهي صفة تتعلق بالأعمال، وقد أُشير إليها في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. وحسب المعاني المختلفة لإقامة الصلاة التي ذكرت من قبل، يكون المقصود من قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أنه ينبغي للمسلم أن يراعي خمسة أمور: الأول هو المواظبة على أداء الصلوات طوال حياته، حريصاً دائماً على أدائها. والواقع أن الصلاة غير المنتظمة ليست بصلاة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

هُم عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» (المعارج: ٣٥). الثاني: أن يؤدي الصلوات في أوقاتها المحددة وحسب القواعد الموضوعية لها. وقد أُشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٤). والأمر الثالث: ينبغي للمتقي أن يؤدي صلواته بخشوع، فلا يسمح بإفسادها بالأفكار التي تجول بخاطره مما يشوش عليه ويخرجه عن انتباهه. وفي ذلك يقول القرآن المجيد: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٢-٣). الأمر الرابع الذي ينبغي للمتقي مراعاته هو أداء الصلاة في جماعة. قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٤). والأمر الخامس هو أنه ينبغي للمسلم أن يحث الآخرين على أداء الصلوات بانتظام؛ وبذلك يكون قد أسهم في تعويد الناس على أداء هذه الفريضة ونشر هذه العادة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٣).

إن الصلاة ليست صفقة مع الله ﷻ، بحيث ينتظر المسلم شيئاً ما في مقابل صلاته. فالإسلام يرفض هذه الفكرة رفضاً قاطعاً، ويصف الصلاة بأنها وسيلة لتطهير الإنسان نفسه، إذ عن طريق الصلاة ينال الإنسان المعرفة الأكيدة التي تطرد الشك وتعاون الإنسان على إنشاء صلة حقيقية حيّة بينه وبين خالقه.

وهناك من يميلون إلى ذمّ التعبد بكيفية مخصوصة، ويعدونه طقوساً لا فائدة منها، ويقولون إن العبادة حالة ذهنية، فينبغي أن تقتصر على الفكر وحده. نعم، لا شك أن حالات التعبد تتعلق بالفكر، والإنسان السقيم فكرياً لا فائدة من وراء تواضعه الجسماني. والذي خلا قلبه من التأثير بجلال الله وعظمته، ومع ذلك يتغنى بحمده فإنه منافق. ولكن هذا هو الحال أيضاً فيما يتعلق بالشخص الذي يدّعي أنه قَبِلَ وارضى حقيقة ما، ومع ذلك لا تظهر على جسمه وسلوكه علامات ذلك الإيمان. إن الإنسان إذا ما أحبّ، فإن وجهه يفضحه عندما يظهر المحبوب أمامه. وكذلك حال الآباء أيضاً؛ فهم يدلّلون أطفالهم ويقبلونهم معبرين عن محبتهم بحركات مرئية. ويعبر الأصدقاء عن محبتهم بحركات ظاهرة أيضاً، وكل تعبيرات الحب بصورها

الموضحة عفوية لا تصنع فيها ولا تكلف. ولذلك من المستحيل أن يحب الإنسان خالقه، ويجيش صدره بشوق حقيقي إليه ثم لا يسعى إلى التعبير عن هذا الحب وذلك الشوق بحركات ظاهرة. وهذا هو سرّ العبادة؛ فهي التعبير الخارجي لعلاقة الإنسان مع الله ﷻ. وفضلاً عن ذلك فإن نعم المولى ﷻ تحيط بجسم الإنسان من كل جانب كما تحيط بروحه أيضاً، ومن ثم فإن العبادة الكاملة هي تلك التي يؤدي فيها كل من الجسد والروح دوره، وبدون تكاملهما معاً لا يتسنى المحافظة على روح العبادة الحقّة؛ وذلك لأنّ التعبّد القلبي هو الجوهر، والتعبّد بالجسم ليس إلا قشرة أو صدفة، ولا يمكن المحافظة على الجوهر بدون الصدفة، فإذا تحطّمت، فلا بد أن يلقي الجوهر مصيراً مماثلاً.

وإلى جانب مزايا الصلاة الأخرى، فإن صلاة الجماعة؛ كما هو شأن صلاة المسلمين دائماً، تعمل على إذكاء روح الأخوة. فالأغنياء والفقراء يقفون خمس مرات في اليوم جنباً إلى جنب في بساطة بعيدة عن التقاليد والرسوم، ويسجدون في خشوع لله تعالى. ومهما كثرت مشاغل أي منهم أو علا قدره، عليه أن ينظم وقته بحيث يتسنى له أن يؤدي صلاة الجماعة. ومثل هذا الترابط لا بد وأن يكون له أثر طيب في قلوب المصلين.

وبهذه المناسبة، يجدر أن نلاحظ أن الحركات الظاهرية في صلاة المسلمين تشمل جميع الأوضاع التي تُعبّر عن الخشوع، أي الوقوف مع ثني الذراعين، والانحناء والركوع والسجود مع ثني القدمين. وما يصحب كل وضع من قراءة أو أداء معين. وإلى جانب الأدعية المفروضة، فللمرء أن يدعو بكلامه الخاص وبالطريقة التي يراها. والصفة الثالثة للمتقي هي التي عبّر الله تعالى عنها بقوله: ﴿وَمِمَّا زَكَّاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. ومعنى ذلك أن الإنفاق لا يقتصر على البذل في سبيل الله، وإنما يشمل الإنفاق من أجل خير الفرد وخير الجماعة. فتركيب العبارة هنا تركيب يحمل أوسع مضمون

ممکن. فالثروة والقوة والنفوذ والقدرات الجسمانية والذهنية، وباختصار، كل ما يناله الإنسان من الله ﷻ ينبغي أن يخصص ولو جزءاً منه، في سبيل خير الآخرين. هذا ولا ينحصر تطبيق ذلك التعليم الإلهي على الفقراء فحسب، فكل من لهم حقوق لدى المسلم لهم الحق في مشاركته فيه. أي أن ذلك التعليم ينطبق على الأب الذي أنفق على تنشئة ابنه وتربيته، وعلى الأم التي أرضعت طفلها، وعلى الزوج الذي يفي بحاجات زوجته، وعلى الأبناء الذين يخدمون والديهم. وقد تضمن الحديث النبوي المشهور شرح ذلك الأمر الإلهي في أسلوب بالغ البيان. عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ فَجَاءَهُ فَقَالَ يَا عُثْمَانُ أَرَعَيْتَ عَنْ سُنَّتِي؟ قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَكِنْ سُنَّتَكَ أَطْلُبُ. قَالَ فَإِنِّي أَنَا وَأَصْلِي وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ لَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِيَصِيفَكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأُفْطِرْ وَصَلِّ وَنَمْ (سنن أبو داود - كتاب الصلاة).

وخلاصة القول إن الآية الكريمة تقدم لنا ثلاثة توجيهات وتصف لنا ثلاث مراحل في سلم الرقي الروحي للإنسان:

(١) ينبغي للمسلم أن يؤمن بالحقائق التي لا يراها بعينه ولا يدركها بحواسه الجسمانية. لأن ذلك الإيمان هو الدليل على تمتعه بالتقوى الحقيقية. فاللبيب لا يكتفي بالظواهر الطبيعية كما يراها، وإنما ينظر نظرة أعمق إلى مصادرها وأحوالها، وهذا التنقيب في أعماق المجهول هو الذي يؤدي إلى زيادة المعرفة وتحقيق النجاح. وكل ذلك يندرج تحت عنوان «الإيمان بالغيب»، وهو عنوان ذو دلالة خاصة فيما يتعلق بالله ﷻ الذي هو مصدر الوجود كله.

(٢) عندما يتفكر المؤمن في الخليفة وبما في الكون من نظام دقيق وتنسيق مدهش، يوقن بوجود الخالق، ويستولي عليه شوق لا يُقاوم للاتصال به ﷻ اتصالاً حقيقياً. وبلغ هذا الشوق ذروته في إقامة الصلاة.

(٣) وأخيراً عندما يُوفَّق المؤمن إلى إقامة صلة حيّة مع الخالق تبارك وتعالى فإنه يحس بدافع داخلي يحثه على خدمة إخوانه من بني البشر، الذين يُعدون أيضاً؛ باعتبارهم من خلق ربه ومولاه، أفراد عائلة كبيرة، هو نفسه أحد أفرادها. ومن ثم فهو يبذل لهم، راضياً عن طيب خاطر، مما وهبه الله تعالى من مال أو علم أو أي شيء آخر.

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

أُنْزِلَ: مشتقة من نَزَلَ بمعنى هبط من علو إلى أسفل. وعلى ذلك فإن صيغة الفعل المتعدي «أُنْزِلَ» يكون معناها جعله نازلاً. ويطلق هذا اللفظ مجازاً على كل نعمة يُنعم بها الله ﷻ على الإنسان، ذلك أن سمو مقام المولى تبارك وتعالى يقتضي أن يكون كل ما يهبه لمخلوقاته كأنه هابط من علٍ. وعندما تستعمل هذه الكلمة فيما يتعلق بكلام الله ﷻ فتكون بمعنى «أوحى»، تقول «أُنْزِلَ الله كلامه» أي أوحى به (أقرب الموارد).

الْآخِرَةِ: مشتقة من أَخَّرَ. تقول أَخَّرْتَهُ ضد قَدَّمْتَهُ، وقد تعني أَجَلْتَهُ أو أَرْجَأْتَهُ. والآخرة مؤنث الآخر، والآخر صفة، تقول «جاء آخرًا» أي أخيراً. والآخر، بفتح الحاء، الأشد تأخرًا في الذكر، ثم أُجْزِيَ مجرى «غير» وهو خاص بجنس ما تقدمه، فلو قلت «جاءني رجل وآخر معه»، لم يكن الآخر إلا من جنس الرجل، بخلاف «غير» فإنها تقع على المغايرة مطلقاً في جنس أو صفة. ويذهب أغلب المفسرين إلى أن لفظ ﴿الْآخِرَةِ﴾ في الآية صفة لموصوف مضمهر هو «الدار» (أي الدار الآخرة). غير أن سياق النص هنا يفيد أن الموصوف المضمهر ليس «الدار» وإنما «الوحي» أو «الرسالة» (أي الرسالة الآخرة) بمعنى الرسالة التي ستأتي بعد.

يُوقِنُونَ: أي يصدّقون تصديقاً ثابتاً. والفعل «أيقن» مشتق من «يقن»، تقول «يقن الأمر» أي ثبت ووضح، وأيقن الأمر وأيقن به أي علمه وتحققه. واليقين إزاحة الشك وتحقيق الأمر، فاليقين إذن هو الأمر المؤكد الثابت (أقرب الموارد).

التفسير:

تتضمّن هذه الآية ذكر ثلاث صفات أخرى للمتّقي. لقد تضمّنت الآية السابقة ذكر الإيمان بصفة عامة، غير أنه لمّا كان من شأن المؤمن الحقيقي أن يسعى لمعرفة تفاصيل ماهية التقوى كي يكون إيمانه كاملاً، لذلك فإن هذه الآية تخبره بأن الكمال الذي ينشده يتطلب أن يؤمن بالرسول ﷺ والذي عن طريقه يؤمن أيضاً بالرسول السابقين، كما ينبغي له في نفس الوقت أن يؤمن بمن سيأتي بعد. ومن ثم فإن الإيمان بمحمد ﷺ هو المركز أو الأساس فيما يتعلق بالإيمان برسول الله ﷺ. ولا يمكن لأي شخص أن يكون متّقياً ما لم يؤمن بالرسول الأعظم ﷺ.

إن المفهوم الخاطئ لقوله تعالى: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قد ينبني عليه أحياناً الظن بأن الغرض هو الإيمان بالقرآن فحسب لا بالرسول ﷺ، وهذا تصوّر يخالف القرآن بشدة في مواضع عديدة. قال تعالى: ﴿أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٦)، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (النساء: ١٣٧). وفضلاً عن ذلك فالقرآن المجيد يوضّح هذه النقطة بطريقة أخرى، فيقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ (الأنعام: ١١٥)، ويقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ (العنكبوت: ٤٨). فليس من قبيل الاعتبار أن يقول الله ﷻ في بعض المواضع أن القرآن المجيد قد أوحى به للناس، ويقول في مواضع أخرى أنه أوحى به للرسول ﷺ، فهذا الاختلاف في الصيغة ينطوي على معنى عميق؛ ذلك أنه عندما يقال بأن القرآن المجيد قد أنزل للناس، فالمقصود هو

التنبيه إلى أن تعاليم القرآن المجيد مناسبة وصالحة لهم، وترمي إلى ما يعود عليهم بالخير. وعندما يقال إن القرآن المجيد قد أنزل على الرسول ﷺ فالمقصود هو التنبيه إلى أنه عليه الصلاة والسلام ليس مجرد حامل رسالة، وإنما هو خير من يشرح هذه الرسالة التي جاء بها، وخير مثال لما تحويه هذه الرسالة من تعاليم. قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وهذا دليل بين على أن الرسول ﷺ ليس مجرد حامل رسالة، ولكن الله تعالى اختاره لغرض أسمى؛ أي ليكون قدوة لأتباعه، وإلا لكان من الممكن تكليف أي شخص بحمل الرسالة، ولما اقتضى الأمر هذا الاختيار الخاص.

إن قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يُظهر لنا خاصية تميّز بها الإسلام، ذلك أنه لا يقر بصدق جميع الرسل السابقين فحسب، ولكنه يلزم معتقيه أيضاً بأن يؤمنوا بأن التعاليم التي جاؤوا بها ترجع إلى مصدر سماوي. قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٨)، وقال ﷺ: ﴿إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥). وجدير بالتنبيه هنا إلى أن الإسلام يتضمّن التعاليم الكاملة الأخيرة التي تفوق التعاليم السابقة؛ وعلى ذلك فإن الإيمان بالتعاليم السابقة لا يعني إلا مجرد احترامها، ولا يعني أن يلتزم المسلم باتباعها. وهذا هو السبب في أن ذكر القرآن الكريم قد ورد في الآية قبل ذكر الكتب السابقة على خلاف الترتيب التاريخي، وفي ذلك تنبيه للمؤمنين إلى أن الإيمان بالكتب السابقة ليس أمراً مستقلاً بذاته وإنما يستند إلى القرآن المجيد.

وحسب قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فنحن مكلفون بأن نصدّق كل ما سبق نزوله على الرسل السابقين، وهو توجيه من أجل إشاعة السلام والانسجام بين أتباع مختلف الأديان. فالآية الكريمة لا تخص كتاباً بعينه، فكل كتاب سابق يدّعي أنه من أصل سماوي وارتضته طائفة كبيرة من البشر منذ أمد بعيد - يشمل مدلول هذه الآية.

إن لفظة ﴿الْآخِرَةِ﴾ تفيد أحد المعنيين، الرسالة أو الوحي الذي سيأتي فيما بعد، أو الدار الآخرة أي الحياة الأخروية. والمعنى الأول هو الأكثر انطباقاً هنا، ذلك لأنه

أكثر اتساقاً مع الفقرتين الأخيرتين في الآيتين اللتين تتحدثان عن الرسالات الإلهية. وبهذه المناسبة يجدر الإشارة إلى أن الرسالات السابقة والرسالة الراهنة (القرآن) قد رُبطت بالإيمان، وأما الرسالة الآخرة أي المقبلة فقد رُبطت باليقين. ذلك أن الإيمان يتعلق بأمر محدد ومعين، وأما الوحي المقبل فلكونه لم يكن قد عُرف وعُيّن بعد عندما نزلت هذه الآية، لذلك فقد استعمل له لفظة اليقين.

هذا وإن الموضوع الذي أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ قد تضمنته الآيتان الثالثة والرابعة من سورة الجمعة بإيضاح أكثر. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ* وَءَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فالقرآن هنا يحدثنا عن بعثتين للرسول ﷺ: الأولى تمت وسط العرب في القرن السابع الميلادي عندما نزل القرآن المجيد على الرسول ﷺ، وأما البعثة الثانية فهي التي كان مقدراً أن تقع في آخر الزمان ممثلة في شخص أحد أتباعه عليه الصلاة والسلام. وقد تحققت هذه النبوة في شخص أحمد المسيح الموعود مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، والذي حققت بعثته أيضاً النبوءات التي تنبأ بها الأنبياء الآخرون عن ظهور رسول عالمي في آخر الزمان.

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾

٤. ليس المقصود بالرسالة هنا نزول كتاب سماوي آخر سوى القرآن المجيد، إذ إن لفظتي الرسالة والرسول قد استعملتا في القرآن المجيد في شأن الأنبياء الذين آتاهم الله شرعاً والأنبياء الذين لم تأتهم شريعة كإسماعيل عليه السلام. فالمقصود برسالة المسيح الموعود والإمام المهدي إنما هو المهمة التي أوكلت إليه، وهي تجديد الإسلام وإعادة إنشاء جماعة المؤمنين، وإعادة المسلمين إلى الإيمان الحقيقي. (الناشر)

شرح الكلمات:

الْمُفْلِحُونَ: جمع المفلح، مشتقة من أَفْلَحَ بمعنى نجح ونال ما تمناه أو ما سعى إليه. نقول «أفلح زيد» أي نجح في سعيه وأصاب في عمله. والفلاح الفوز والنجاة والبقاء في النعيم والخير، والفلاح يفيد أيضاً الحصول على ما فيه صلاح الحال سواء أكان مادياً أم روحانياً. والفلاح الفوز بما يُغْتَبَطُ به (تاج العروس وأقرب الموارد). واستعمال حرف ﴿عَلَى﴾ في عبارة ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى﴾ بدلاً من استعمال التركيب المعتاد أي «أولئك هم المهتدون» له دلالة خاصة. فقوله تعالى: ﴿عَلَى هُدًى﴾ معناه الحرفي أنهم يَعْتَلُونَ الهداية، أي كأن الهداية بمنزلة المطيعة التي تقود الإنسان في يسر إلى الله تعالى. وهذا استعمال معروف، ومنه قولهم: «جعل الغواية مركباً» (راجع تفسير الكشاف).

التفسير:

تبين الآية أنه عندما يستوفي الإنسان جميع شروط التقوى سواء من ناحية الاعتقاد أو من ناحية العمل، فبمقدوره عندئذ أن يطمئن إلى أنه لا يخطو بطريقة صحيحة فحسب في طريق الهداية، وإنما أصبح متمكناً منها، مما يضمن له الفلاح في هذه الدنيا وفي الآخرة. وتشير عبارة ﴿عَلَى هُدًى﴾ أيضاً إلى أن المؤمن وقد دعا الله ﷻ طالباً الهداية، وذلك في دعاء الفاتحة، فإنه تعالى قد استجاب لدعائه، وأمدّه بالهداية في أسنى صورها؛ وهي هداية بمقدوره أن يمتطيها مطمئناً مستريحاً لتسرع به نحو إلهه وربّه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

كَفَرُوا: مشتقة من «كفر» ضد «آمن». والمعنى الحرفي للفظ «الكفر» هو ستر الشيء، ومن ثم يكون معنى الكفر أيضاً جحد النعمة وهو ضد الشكر. وفي الدعاء «لا تكفر»، والأصل لا تكفر نعمتك، وعندما ترد هذه اللفظة بمفردها دون صفة فإنها تعني نكران أي أمر أساسي في العقيدة كوحداية الله تعالى أو الإيمان بالرسول أو بالرسول ﷺ أو بالكتب المنزلة وما إلى ذلك (ومفردات الراغب).

ءَأَنْذَرْتَهُمْ: مشتقة من «أندر» وهذه من «نذر». يُقال نَذَرَ بالشيء أي عَلِمَهُ فحذره واستعد له. و«أندر» صيغة التعدي من «نذر». ومن ثم يكون أُنذره أي أعلمه وحذره من الخطر قبل حلوله؛ وبمعنى خَوْفَهُ أيضاً. يقال «أندرت القوم سير العدو إليهم فنذروا».

والهمزة في أول كلمة ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ لا تفيد الاستفهام وإنما هي فقط لتجعل اللفظة في محل المصدر. وعلى ذلك فإن قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ معناه «سواء عليهم إنذارك لهم أو عدم إنذارك». وهي جملة معترضة تصف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (ومفردات الراغب).

التفسير:

بعد أن جرى الحديث عن الإيمان الصادق ووصف درجة الإيمان السامية ينتقل الحديث إلى أقصى الضد، أي عن الكفار الذين بلغ بهم عدم الاكتراث للحق إلى درجة أنه سيان عندهم سماع التحذير أو عدم سماعه.

وبين القرآن المجيد أن مثل هؤلاء الكفار لن يؤمنوا ما داموا باقين على حالتهم هذه. هذا ولا تعني الآية مطلقاً أن الكفار لن يؤمنوا فيما بعد وأنهم سيبقون على كفرهم، فهذا ظن لا ترتضيه تعاليم القرآن المجيد، فضلاً عن أن الأمر الثابت تاريخياً ينقضه، إذ استمر دخول الناس في الإسلام بعد نزول هذه الآية. هذا ونجد في سورة النصر التي نزلت بعد هذه الآية البشرى للرسول ﷺ بأن الناس ستعتنق الإسلام في جماعات

وأفواج كثيرة، وقد تحققت هذه النبوة فعلاً. وحاصل القول إن قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني فقط أولئك الكفار الذين يصمون آذانهم عن الاستماع لتحذير الرسول ﷺ. ثم إن الحكم بعدم إيمانهم يظل قائماً ما داموا لا يغيرون موقفهم، إذ لا يمكن بداهة أن تقول إن الله تعالى قد قضى بعد نزول هذه الآية بأن يظل الكفار كفاراً. إذ قد يرفض الشخص الاستماع إلى التحذير اليوم، ولكنه في اليوم التالي يعدل عن ذلك ويستمع، ومن ثم لا يدخل في عداد من تعينهم الآية.

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

خَتَمَ: ختمه أي طبعه ووضع عليه الخاتم. وختم الشيء: وضع عليه نقش خاتمه حتى لا يجري عليه التزوير. وختم على قلبه: طبعه أي جعله لا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء، وهو كقوله تعالى: ﴿طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فلا تعقل ولا تعي شيئاً (وكليات أبي البقاء).
قُلُوبِهِمْ: جمع قلب المشتقة من قَلَبَ. يقال قلب الشيء حَوَّله ظهراً لبطن أو حَوَّلَ الشيء عن وجهه. والقلب: الفؤاد أو المركز في وسط الشيء. وقد يعبر القلب عن العقل أو الفهم أو التدبُّر أو الشجاعة أو الروح أو المعرفة والفتنة (لسان العرب).

سَمْعِهِمْ: السمع مشتقة من سَمِعَ. وللغة السمع ثلاثة معانٍ: (١) الأذن أو الآذان. (٢) حاسة السمع. (٣) الصوت المسموع (أقرب الموارد).

أَبْصَارِهِمْ: أبصار جمع بصر. يقولون بَصُرَ وَبَصَرَ بضم الصاد وكسرها أي رأى أو لاحظ أو عرف. وللبر ثلاثة معانٍ: (١) العين. (٢) حاسة البصر. (٣) العلم (أقرب الموارد).

عَذَابٌ: مشتقة من عَذَبَ. يُقال عَذَبَ الرجل أي ترك الطعام من شدة العطش. ويقال عَذَبَ عنه أي أعرض عنه. عَذَبَ فلاناً أي منعه أو حرمه، وعَذَبَ الشراب والطعام

أي صار طيباً شهياً. وعذب الماء صار قذراً. ويقال عذّبه أي ألمه أو عاقبه أو أخره أو منعه أو حرمه. والتعذيب الإيلام وتوقيع العقوبة. وعذّبه بمعنى منع عنه الطعام والنوم؛ أو بمعنى حرمه من لذة الحياة وخيرها. فمعنى العذاب إذن: أي شيء يشق على الإنسان ويؤلمه ويحول دون نيل مبتغاه. أو العقاب المؤلم كي يمتنع الإنسان عن تكرار فعلٍ ما، وردع الآخرين عن الإتيان بمثل فعله؛ أو إنزال العقوبة التي من شأنها أن تحرم الإنسان لذة العيش وتجعل حياته تعسة؛ أو هو ما يمنع الإنسان من تحقيق غرضه (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

تشير هذه الآية إلى الكفار الذين سبق ذكرهم في الآية السابقة، فتُعيّن الكيفية التي أوصلتهم إلى حالتهم المزرية هذه. ومن المعروف بالمشاهدة أن الأعضاء التي لا تستخدم لمدة طويلة تصبح ميّنة عديمة الفائدة، فالعين تفقد قوة الإبصار، والأذن تفقد القدرة على السمع إذا لم تُمارس كل منهما وظيفتها، كذلك تتبيّس أطراف الجسم لنفس السبب. والكفار الذين وُصفوا هنا رفضوا أن يستخدموا قلوبهم وأذانهم لتفهم الحق، فكانت النتيجة هي فقدان القدرة على السمع والفهم. فهذه إذن نهاية طبيعية لعدم مبالاتهم عن قصد، وهو ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ ولما كان مصدر جميع النواميس يرجع أصلاً إلى الله ﷻ المسيطر النهائي على الكون، ولما كان كل سبب تعقُّبه نتيجة الطبيعة طبقاً لإرادته تعالى، لذا فإن الختم على قلوب الكفار وعلى سمعهم يُنسب إلى المولى جلّ وعلا شأنه. وعلى ذلك فإن من الخطأ أن يُحمَل معنى الآية على أن الله تعالى قد شاء أن يختم هكذا على قلوبهم وأذانهم ومن ثم أصبح الكفار عاجزين عن الإيمان. إن القرآن المجيد ينقض هذه الفكرة ويقرر بوضوح أن الكفار هم بأنفسهم الذين يختمون على مصيرهم، ثم يلي ذلك ختم الله ﷻ كنتيجة لفعالهم. قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَفْسِهِمْ مِّثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ

بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٥٦). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٦)، وقال ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٥)، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٥). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ» ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. (سنن ابن ماجه - كتاب الزهد). كل ذلك يوضح الناموس الإلهي الجاري في الكون على النحو الذي ذكرناه آنفًا.

وجدير بالملاحظة هنا أن لفظة «السمع» قد جاءت في هذه الآية قبل لفظة «البصر» وهذا يتفق مع ناموس القدرة؛ إذ إن المولود تبدأ عنده حاسة السمع أولاً ثم حاسة البصر.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

آمن: مشتقة من آمن، وقد سبق شرحها في الآية رقم ٤. هذا وإن لفظ الإيمان لا يعني التصديق بالحق بطرف اللسان أو تمييز الحق بصورة سطحية، ولكن الإيمان يقوم على ثلاث دعائم أساسية مجتمعة وهي: اعتقاد بالقلب وإقرار باللسان ووفاء بالفعل. وعلى هذا جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٥) وقوله ﷺ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا

وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿النمل: ١٥﴾
(مفردات الراغب).

التفسير:

بيّنت الآيات الرابعة والخامسة والسادسة حالات أو خصائص المؤمنين، ثم يلي ذلك بيان حالات الكفار في الآيتين السابعة والثامنة. ويأتي بعد ذلك بيان فئة ثالثة من الناس أي «المنافقون». وقد كان هؤلاء يختلطون بالمؤمنين على اعتبار أنهم منهم. وهذه الفئة تنقسم إلى نوعين: طائفة كافرون في قلوبهم ولكنهم متّحدون مع المؤمنين من أجل مصلحة مادية أو اجتماعية، والنوع الثاني مؤمنون بقلوبهم ولكن تنقصهم قوة اليقين اللازمة لإحداث التغيير المناسب فيهم وبث روح الطاعة الكاملة فيهم. والآية تشير إلى النوع الأول من المنافقين.

وجدير بالملاحظة أن الآية قد اقتضت على ذكر الإيمان بالله وباليوم الآخر فقط دون ذكر باقي أركان الإسلام. وقد توهم بعض الناس من ذلك أن الإسلام لا يتطلب إلا الإيمان بالله وباليوم الآخر فقط. والواقع أن الإيمان بالله هو الركن الأول للعقيدة، والإيمان باليوم الآخر هو الركن الأخير، ومن ثم فإن الإيمان بالركنين الأول والأخير يعني ضمناً الإيمان بالأركان التي بينهما. هذا وقد ذكر القرآن المجيد في موضع آخر بوضوح أن الإيمان باليوم الآخر يتضمن تلقائياً الإيمان بالملائكة والكتب السماوية؛ إذ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣).

ومن ناحية أخرى يمكن تفسير ترك ذكر باقي أركان الإيمان في الآية على وجه آخر. فالمنافقون أرادوا أن يخدعوا المؤمنين، ومن ثم عبّروا عن عقيدتهم بهذه الكيفية وحذفوا عن قصد ذكر الإيمان بالرسول ﷺ. وهم إذ اكتفوا بالقول بأنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر ظنوا أنهم بهذه الكيفية يُدخلون في روع المؤمنين أنهم يؤمنون بجميع أركان الإسلام. ويؤيد هذا التفسير قوله تبارك وتعالى في الآية التالية: ﴿يُخَادِعُونَ

اللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا»، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فهو تأكيد لرفض دعوى المنافقين بأنهم مؤمنون، إذ لو كان المقصود مجرد نفي دعواهم لجرى القول بتعبير آخر مثل «إنهم منافقون» أو ما شابه ذلك. ولكن صيغة التعبير القرآني ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يتجلى فيها غرض التوكيد.

إن مثل هذا التوكيد في نقض دعوى المنافقين ظاهرة ملحوظة في القرآن المجيد. قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٨). وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ (المائدة: ٤٢)، وقال ﷺ: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (المائدة: ٦٢). فحسب القرآن الكريم لا يخرج المنافقون عن كونهم كفاراً. ونظرة القرآن الكريم هذه إلى المنافقين، واعتبارهم كفاراً تتضمن نقداً قوياً ورداً شديداً للنقد الذي يوجه إلى الإسلام، والادعاء بأنه يبيح استعمال القوة في أمور الدين. إن التحول من عقيدة إلى أخرى تحت ظلال القوة لا يمكن أبداً أن يكون مصحوباً بالإخلاص. والقرآن المجيد يؤكد على المؤمنين ضرورة الإخلاص، فلا شك أن ديناً كهذا يجعل الإخلاص صفة لازمة للمؤمن، لا يمكن مطلقاً أن يتنازل ويبيح استعمال أي قدر من القوة كي يجبر الناس على اعتناقه.

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا
أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

يُخَادِعُونَ: الماضي المفرد «خَادَعَ» مشتقة من خَدَعَ. يقال خدعه أي ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلمه، أو أظهر له شيئاً أو أمراً على غير حقيقته. ولفظة «خَادَعَ»

قد يُتَوَسَّع في استعمالها، أحياناً، على أنها مرادفة للفظه خَدَع، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، إذ إن لفظة «خَادَع» تعني الخداع الذي لم ينجح؛ وأما لفظة «خَدَع» فتعني أن من أريد خداعهم قد وقعوا فعلاً فريسة الخديعة (كليات أبي البقاء وأقرب الموارد). وهذا الفرق بين لفظتي خدع وخادع في المعنى يعزّز ما ذكره (معجم لين): يقال للرجل خَادِع إذا لم ينجح فيما أراده، وخَدَع إذا حقق ما ابتغاه.

هذا وإن كلمة «خَادَع» تتضمن معنيين آخرين: الأول بمعنى ترك أو هجر، والثاني كما في قولهم: «خدعت السوق» أي كسدت أو تأرجحت الأسعار فيها بين الزيادة والنقصان تبعاً لحركة التعامل (معجم لين وأقرب الموارد). وفي ضوء هذين المعنيين تكون عبارة ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ تتضمن معنيين: (١) يتركون الله ﷻ ويهجرونه. (٢) يتبدّل موقفهم منه، فتارة يؤمنون به ﷻ وتارة يكفرون.

يَشْعُرُونَ: مضارع وماضيه «شَعَرَ» بفتح العين وضمّها. يقال شعره وشعر به أي فطنه أو علّمه أو فهمه أو أحس به (قاموس المحيط وأقرب الموارد). والشعور قوة الإدراك، وهي قوة أو قدرة لا تعتمد على الحواس لإظهارها وإنما تنبع من داخل الإنسان. ولفظة ﴿يَشْعُرُونَ﴾ قد استعملت في الآية بمعنى أنه على الرغم من أن مرض المنافقين يكمن داخل قلوبهم إلا أن بصيرتهم لا تحذرهم منه.

التفسير:

توضّح الآية أن الإيمان الحقيقي يقوم على الصدق والإخلاص، وأما الإيمان الذي لا يقوم على ذلك فهو خداع، والله ﷻ لا يُخدع.

ولقد كانت هذه الآية محل اعتراض من وجهين؛ الأول: كيف يمكن لأي إنسان أن يخدع الله ﷻ؟ والثاني: أن لفظة ﴿يُخَادِعُونَ﴾ قد وردت في صيغة المفاعلة، وهي صيغة تفيد أن الفعل يشترك فيه طرفان؛ فكأن قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ يعني أن المنافقين يعملون على خداع الله ﷻ، وهو أيضاً يعمل على خداعهم.

والاعتراض الأول يمكن الرد عليه بأن اللفظة المستعملة هنا هي مضارع خادع وليس خدع، وبحسب ما شرحناه آنفاً في معنى هذه الكلمة يكون المقصود هو مجرد محاولة الخداع فحسب لا الخداع فعلاً. ومن ثم يتّضح أن الاعتراض لا أساس له.

والاعتراض الثاني لا يصح أيضاً، فإن حقيقة المفاعلة لا تعني دائماً وجود المشاركة، إذ قد تعني أن الفعل قد وقع من جانب واحد؛ ومثال ذلك قولك «عاقبتُ اللصَّ». فلفظة «عاقب» من نفس الصيغة ولكنها لا تفيد المشاركة، إذ إن العقوبة وقعت من جانب واحد.

ولعل من المناسب أن نذكر هنا شيئاً عن المنافقين. فقبل أن يبلغ الإسلام المدينة، كانت فيها قبيلتان وثنيتان من العرب هما الأوس والخزرج، وكان بها ثلاث قبائل يهودية هي بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع. وكانت القبيلتان الوثنيتان تفوقان اليهود من حيث العدد، ولكنهما كانتا أدنى منهم من حيث المال والعلم. ولذلك كان لليهود نفوذ كبير على وثنيي المدينة. ولكي يزيد اليهود من نفوذهم كانوا يثيرون الأحقاد القبلية المهلكة بين جيرانهم الوثنيين. وقبل ظهور الإسلام ببضع سنين أحست القبائل الوثنية في المدينة وأدركت أنه قد غرّر بها، فأروا أن ينظموا أنفسهم تحت راية ملك منتخب أصولاً. ووقع اختيارهم على عبد الله بن أبيّ زعيم قبيلة الخزرج. وأثناء الإعداد لتنصيبه ملكاً عليهم، جاءتهم الأنباء بظهور الإسلام، وبدأت الأمور فجأة تجري في اتجاه آخر، فمالت قبيلتا الأوس والخزرج إلى الإسلام، وأخذ أفراد كثيرون منهما يعتنقونه، معتقدين أن حل مشاكلهم لن يتحقق عن طريق تنصيب ملك وإنما عن طريق الدخول في الإسلام. وبعد مدة قصيرة هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة.

ولما صارت موجة الحماس للإسلام من القوة بحيث يتعذر مقاومتها، رأى عبد الله بن أبيّ وحزبه أن من الحكمة أن يقتفوا أثر رجال قبيلتهم في الانضواء تحت لواء العقيدة الجديدة؛ ولم يدركوا في ذلك الوقت أن استقرار الإسلام يعني تبديد آمالهم.

على كل حال، فإنه عندما تم تثبيت قوة الإسلام، أدركوا أن آمالهم قد تحطمت، فتلاشى بذلك أي تعلق كان لديهم بالإسلام. وتبدّل موقفهم منه إلى معاداته بصورة فعلية. غير أنه لما كانت الأغلبية العظمى من أبناء قبيلتهم قد أصبحوا من المسلمين المخلصين المتحمسين، لذلك لم يقدروا أن يرتدّوا عن الإسلام صراحة. وهكذا كان منشأ المنافقين؛ جماعة تنتسب إلى الإسلام من حيث الظاهر، وتكن له العداء خفية في قلوبها. ولافتقارهم إلى القوة الكافية لمناهضة الإسلام علناً، كان من الطبيعي أن يتجهوا إلى التحالف مع اليهود حتى يتسنى لهم القضاء على الإسلام. وفي بادئ الأمر لم تكن لهم أي علاقة مع أهل مكة لما كان بين الطرفين من تنافر قبلي يرجع إلى أمد طويل؛ غير أنه بعد موقعة أحد، وبتحريض من اليهود من جهة، وبدافع حسدهم من جهة أخرى، تناسوا عداوتهم وأخذوا يتآمرون سراً مع قريش متظاهرين في نفس الوقت بأنهم لم يخرجوا عن الإسلام، وظل زعيمهم عبد الله بن أبيّ يصاحب الرسول ﷺ في الكثير من غزواته.

ولقد ورد ذكر هؤلاء المنافقين في مواضع عديدة من القرآن المجيد، وكان آخر عمل أقدموا عليه في معاداتهم للإسلام هو محاولتهم التآمر مع قوة أخرى وهي نصارى الإمبراطورية البيزنطية بعد سقوط مكة. وقد حانت مناسبة أخرى في غزوة تبوك التي قادها الرسول ﷺ بنفسه في السنة التاسعة من الهجرة، ولكن باء مسعاهم بالخيبة. ولعل الصدمة التي تلقاها عبد الله بن أبيّ من جراء هذا الإخفاق هي التي أدّت إلى موته بعد ذلك بشهرين فقط. وعقب ذلك تشتت شمل هذا الحزب، واعتنق بعض أعضائه الإسلام بإخلاص، وقضى الباقون حياتهم في زوايا النسيان.

فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

مَرَضٌ: مشتقة من مَرَضَ أي أظلمت طبيعته واضطربت بعد صفائها واعتدالها. وقال ابن فارس: المرض كل ما خرج بالإنسان عن حد الصحة من علة ونفاق وشك ونفور وظلمة ونقصان وتقصير في أمر (أقرب الموارد). وفي مفردات الراغب المرض أي داء أو أي ضعف جسماني أو أخلاقي أو نقصان في الإيمان، أو أي شيء يعوق الإنسان عن صلاحيته جسمانياً أو أخلاقياً أو روحانياً.

يَكْذِبُونَ: الماضي «كذب» أي أخبر عن الشيء بخلاف ما هو مع العلم به، وضدها صَدَقَ. وسواءٌ فيه العمد والخطأ. يقال: كذبت العين أي خانها حسُّها. وكذب الرأي أي توهم الأمر بخلاف ما هو عليه (أقرب الموارد). وقد يطلق على الصدق إذا قيل بنية غير مخلصة، وهو ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ٢).

و«كذب» صيغة السببية أو التعدية. يقال كذبه أي جعله كاذباً أو نسبه إلى الكذب أو قال له كذبت. وكذب بالأمر أي أنكره وجحده. والكاذب الذي يقول خلاف الصدق. والكذاب كثير الكذب والذي اعتاد الكذب. والكذب والكذاب ضد الصدق أو القول الذي يخالف الحقيقة. والكذاب يعني أيضاً اتهام الغير بالكذب (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

إن الله تعالى يخبرنا عن مرضين في القلب؛ الأول الكفر والثاني النفاق. وقد أشير إلى أولهما في الآيتين السابعة والثامنة. وفي هذه الآية ترد الإشارة إلى مرض النفاق، إذ تشير إلى أن من يعانون من هذا المرض لا يتصرفون تصرف الأشخاص العاديين الأصحاء. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ» (البخاري - كتاب الإيمان).

ونلاحظ في الآية التي نحن بصدد تفسيرها أن زيادة النفاق يُنسب إلى الله ﷻ، وليس ذلك لأنه سبحانه يُريد النفاق، ولكن لأن ازدياد النفاق يرجع إلى عصيان أوامره، ولأن الله ﷻ هو الفيصل الأخير في عواقب أفعال الناس من خير أو شر. وقد نزل القرآن المجيد ليشفي الأمراض: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٨).

ازدياد المرض يعني أيضاً أن اتساع قوة الإسلام قد أدّى طبعاً إلى ازدياد مرض المنافقين، إذ اضطروا مرغمين أن يبقوا من حيث الظاهر وضد رغبتهم ودودين للمسلمين.

وفيما يتعلق بالكفار، وُصف العقاب بأنه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أما فيما يختص بالمنافقين، فقد وُصف عقابهم بأنه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وذلك لأن الكفار يعلنون كفرهم ويظهرون عداوتهم صراحة، بينما يُبقي المنافقون شعور العدااء والحقد مخفياً في قلوبهم، ظانين بهذا أن نفوسهم تستريح من وجهين: الحفاظ على عداوتهم للإسلام، ثم الضحك من المسلمين بخداعهم. ولذلك فإن العذاب الذي أُعدّ لهم يتميز على وجه الخصوص بالألم والحزن، وهذا جزاء يناسب فرحهم الكاذب.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا
نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

تُفْسِدُوا: مضارع، والماضي فَسَدَ ضد صَلَحَ، أي صار شريراً، أو أصابه العطب أو تلف، أو صار منتناً، أو أصبح في حالة متغيرة، أو صار في حالة مشوشة أو مضطربة. وأفسد صيغة التعديّة من فسد. يقال أفسده أي أتلفه أو شوّشه أو أعطبه... إلخ (معجم لين).

الأرض: وتتضمن عدّة معانٍ، فقد تكون بمعنى التربة أو الكرة الأرضية، أو جزء من التربة، أو أي بقعة من الأرض أو إقليم، أو سطح الأرض، أو أرضية البيت، أو أي شيء ينشر على الأرضية. أو قد تكون بمعنى الارتعاش أو الارتجاف. والأرض هو أسفل الشيء. (معجم لين).

مُصْلِحُونَ: من أصلح، وهذه مشتقة من صلح ضد فسد، أو زال عنه الفساد. وصلاح الرجل في عمله أي لزم الصلاح، وصلاح أي انتظم واستقام. ويقال هذا الشيء يصلح لك أي ينفعك أو يناسبك أو يليق بك. وأصلح صيغة التعدية من صلح، يقال أصلحه أي جعله في حالة ملائمة أو طيبة أو مستقيمة أو في حالة منتظمة... إلخ. وأصلح قد يعني صحّح ما فيه من عيب أو خلل، أو حسّنه، أو بمعنى سعى إلى السلام والالتئام والوفاق، أو حقق السلام والالتئام والوفاق. ويقال أيضاً أصلح بمعنى قام بعمل طيب أو مستقيم (معجم لين).

التفسير:

لجأ المنافقون إلى عدّة وسائل لبذر بذور التفرقة بين المسلمين:

(١) حاولوا تحريض الأنصار ضد المهاجرين، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨٩).

(٢) وحاولوا أحياناً أن يلزموا الرسول ﷺ في توزيع الصدقات، ويشير القرآن المجيد إلى ذلك: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٨). أو قد يعرضون بطريقته عليه الصلاة والسلام في جمع المعلومات، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ

يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ﴿التوبة: ٦١﴾.

(٣) وكانوا يسعون أحياناً لزعزعة روح المسلمين، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (التوبة: ٥٠). أو يحاولون تشبيط عزيمة المسلمين، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٤).

(٤) وكان المنافقون يحرّضون غير المسلمين أحياناً على محاربة المسلمين، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الحشر: ١٢).

هذه الآية التي نحن بصدد شرحها تتضمن الإشارة إلى تصرف المنافقين ذي الوجهين، فهم عندما يُواجهون بتصرفهم هذا يحتجون دائماً بأنهم يتصرفون بدافع الرغبة المخلصة فحسب، وأن نيّتهم إقامة المحبة المتبادلة والسلام وليس إشاعة الفساد. ويُعد هذا مثلاً للدفاع الذي يتدرّع به المفسدون.

إن وجود المنافقين والساخطين لا محيص منه في أي مجتمع منظم. وفي المجتمع الذي لم يبلغ تنظيمه درجة قوية يسهل على غير المتأثرين به أن يتركوه. وأما الجماعة المنظمة تنظيمًا جيدًا فإنه يصعب على الساخطين أن يتركوها، ولذلك فإنهم يبقون داخل هذه الجماعة ويمارسون نشاطهم الشرير سرًا. ولكن وجود المنافقين ليس بدليل على الضعف بل هو علامة على القوة، إلا أن ذلك لا يعني أن تهمل الجماعة أمرهم. فبالعكس يتم مراقبة الساخطين والمنافقين عن قرب ومعاملتهم بحزم عندما تتطلب الظروف ذلك. ولقد كان رسول الله ﷺ دائم الحذر من هذا الصنف من الناس.

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

وَلَكِنْ: هذا التركيب يتكون من كلمتين: «الواو» و«لكن». وفي العادة يكفي استعمال إحدى الكلمتين فقط، إلا أن استعمالهما معاً يقصد به تقوية المعنى.

التفسير:

أشارت الآية السابقة إلى الكيفية التي لجأ إليها المنافقون للإيعاز بأنهم لم يتسببوا في الفساد، وإنما المسؤول عن ذلك هم باقي جماعة المسلمين. وهذه الآية ترد على هذا الإيعاز بصورة مؤكدة وحاسمة: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يعني أن المنافقين يفتكرون إلى قوة التبصر. إذ لو أنهم بدلاً من اختلاقهم الأعذار لتبرير ازدواجيتهم حاولوا أن يراجعوا أنفسهم، لأدركوا بسهولة أن ما دفعهم إلى سلوكهم البغيض لم يكن حب السلام ولا الرغبة في الإصلاح، وإنما الجبن والحسد.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

سُفَهَاءُ: جمع سفيه، مشتقة من سَفِهَ. يقال سَفِهَ الرجل أي كان ذا سفاهة أو صار سفيهاً. والسفيه معناها (١) الساذج أو قليل الحظ من الفطنة أو الأحمق. (٢) الجاهل.

(٣) المتقلب الرأي الذي لا يثبت على حال. (٤) قليل الذكاء. (٥) الذي لا غاية من وراء آرائه. (٦) الذي يبدد ماله وثروته دون تدبر (أقرب الموارد، مفردات الراغب، لسان العرب).

يَعْلَمُونَ: مضارع، والماضي عَلِمَ. وَعِلْمُهُ معناها (١) عرفه. (٢) تيقّنه وأحاطه (أقرب الموارد). وفي مجال العقيدة يكون العلم بمعنى الإحاطة واليقين اللذين يقوم عليهما إيمان الإنسان.

التفسير:

تقول الآية إنه عندما سأل المؤمنون المنافقين أن يكونوا مخلصين في إيمانهم قالوا إن المؤمنين كالحمقى الذين يضيّعون أرواحهم وأموالهم هباء، وما هم إلا عصبة قليلة العدد أخذت على عاتقها محاربة الأمة كلها.

لقد رمى المنافقون المؤمنين بالحمق ظناً منهم أنهم يحافظون على أرواحهم وأموالهم عن طريق الإبقاء على صلات الصداقة مع الكفار، بينما عرض المسلمون أرواحهم وممتلكاتهم للخطر الدائم بسبب ابتعادهم عن الكفار. فضلاً عن ذلك فقد كان المسلمون ينفقون بسخاء في سبيل الدين. ولقد جاءت الإشارة إلى مثل هذه الأمور في مواضع عديدة من القرآن المجيد: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة: ٥٩)، ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٥٠)، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٧٩)، ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون: ٨).

ويرد الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥). وتعني هذه الآية أن المنافقين

سيشاهدون دمار ممتلكاتهم عمّا قريب، بينما يزدهر شأن المسلمين. إن النجاح والازدهار لا يأتيان عن طريق الجبن والبخل، وإنما عن طريق الشجاعة والتضحية، وقد كان المنافقون يفتقرون كل الافتقار إلى هاتين الصفتين. وتحقيقاً لهذه النبوءة عاش رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ حتى رأى تبدّد تدابيرهِ ضد الإسلام وأصبح ابنه الوحيد مسلماً مخلصاً.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا
خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا
نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

خَلَوْا: من خلا أي صَفِرَ. تقول «خلا الرجل» أي وقع في مكان خال لا يزاحم فيه، و«خلا المكان» أي فرغ ورحل ساكنوه، و«خلا الشيء» أي مضى، و«خلا بفلان وإليه ومعه» أي سأله أن يجتمع به في خَلْوَة ففعل (أقرب الموارد). ويقال «خلا فلان» أي مات (لسان العرب).

شَيَاطِين: جمع والمفرد شيطان، وهي مشتقة من «شطن» أو من «شاط». وكل خُلِقَ ذميم للإنسان يُسَمَّى شيطاناً (مفردات الراغب).

يقال «شطن عنه» أي بَعُد. و«شطن صاحبه» أي خالفه عن نيّته ووجهته (أقرب الموارد). فعلى أساس الاشتقاق من شطن يكون معنى لفظة شيطان ذلك الذي لا ينأى بنفسه عن الحق فحسب، وإنما يسعى أيضاً إلى إبعاد الآخرين. وعلى أساس الاشتقاق من شاط بمعنى احترق يكون معنى لفظة شيطان المخلوق الذي يحترق من البغض والغضب فيندحر.

وفي الاستعمال المتداول يطلق لفظ شيطان على الروح الخبيثة الشريرة أو كل عات متمرد أو الحية (أقرب الموارد)، وكل قوة أو خلق أو ميل مذموم كالغضب وما إلى ذلك يسمى شيطاناً (مفردات الراغب). كذلك قد يطلق على أي حالة مؤلمة كشدة العطش وغيرها (معجم لين).

وحسب المفهوم الواسع تطلق اللفظة على كل ما هو ضار أو مؤذ ويُتَوَقَّع منه المتاعب.

مُسْتَهْزِءُون: مشتقة من مستهزأ وهذه من هزأ. وكلتا اللفظتين بمعنى واحد. يقال «هزأ به واستهزأ به» أي سخر منه. و«هزئ الرجل» مات. والمستهزئ بالشيء المستخف به المنكر له (أقرب الموارد وتفسير الكشاف).

التفسير:

يتضح من نص الآية أن المقصود بالشياطين هنا ليس الأرواح الشريرة وإنما المقصود هم المتمردون وزعماء المناهضة من بين الكافرين والمنافقين، وقد كانوا معجبين بأنفسهم ومتعاليين وعلى استعداد لتجاوز جميع الحدود. وقد أشير إلى هؤلاء الزعماء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَصَلَّوْنَا السَّبِيلَا﴾ (الأحزاب: ٦٨). فهؤلاء الناس هم الذين زينوا الأذى للمنافقين وكانت صدورهم تلتهب دائماً بنار الحقد والحسد كلما رأوا ازدهار شأن المسلمين، في حين أنهم ضلوا بسبب ابتعادهم عن الحق.

وقد ترجم بعض المستشرقين المسيحيين لفظة «شياطين» إلى لغتهم بحيث تؤدي معنى العفاريت أو الأرواح الشريرة (Satans)، ثم اتهموا القرآن المجيد بأنه يسبّ الوثنيين واليهود والمسيحيين. وهو اتهام باطل من أساسه؛ ذلك أن لفظة شيطان في الآية لا تعني إلا ما ذكرناه آنفاً، أي أولئك المغرورين الذين يتزعمون إثارة الشر والتهميد. والواقع أن هذه اللفظة كما سبق بيانه واسعة المعنى في اللغة العربية، فمثلاً روي عن النبي ﷺ أنه قال ذات مرة لأحد صحابته: «الراكب شيطان والراكبان شيطانان

والثلاثة ركب“ (مسند أبي داود). والمقصود من ذلك هو أن المسافر منفرداً يكون معرضاً للأذى والخطر وكذلك المسافرين، أما إذا كان عدد المسافرين ثلاثة معاً فهم يكونون صحبة مأمونة. إن النقاد المسيحيين حريصون دائماً على تصيّد أي تعبير يظنونه خاطئاً في القرآن المجيد، ويتناسون ما ورد في كتابهم المقدس: «فالتفت وأبصر تلاميذه (أي السيد المسيح) فانتهر بطرس قائلاً اذهب عني يا شيطان لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (إنجيل مرقس، إصحاح ٨: ٣٣). وجاء أيضاً على لسان المسيح ﷺ: «يا أولاد الأفاعي، كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار» (إنجيل متى ١٢: ٣٤). فهذا نحن نرى أن المسيح يدعو أحد حواريه بأنه شيطان، ويرمي خصومه بأنهم ثعابين أو جيل من الأفاعي.

هذا وإن المعنى الذي ذكرناه للفظ «شياطين» في هذه الآية يؤيده رأي بعض علماء المسلمين البارزين كابن عباس وقتادة ومجاهد وعبد الله بن مسعود (تفسير الطبري)

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

يَسْتَهْزِئُ: راجع الكلمات المهمة للآية ١٥ من نفس السورة، وما سيأتي بيانه في التفسير.

يَمُدُّهُمْ: مضارع والماضي «مدّ»، يقال «مدّه في غيّه» أي أمهله وطوّله، و«مدّ المديون» أمهله. والمعنى الحرفي للفظ «مدّ» بسط وأطال. يقال «مدّ الحبل وغيره» بسطه. و«مدّ النهار» ارتفع و طال (أقرب الموارد).

طغيان: مشتقة من «طغى» أي جاوز الحد والقدر. و«طغى فلان» أسرف في المعاصي والظلم، و«طغى الماء» ارتفع (أقرب الموارد).

يَعْمَهُونَ: مضارع والماضي «عَمَ». يقال «عمه الرجل» أي تردد في الضلال وتخير في منازعة أو طريق. وعن الزمخشري «العمه كالعمى غير أن العمى عام في البصر والبصيرة، والعمه خاص بالبصيرة، فلا يقال أعمه العين». ويقال «عمهت الأرض» أي كانت بلا أمارات ولا أعلام تدل على الاتجاه. و«عمه في ظلم فلان» أي ظلمه بغير جنائية جليلة (أقرب الموارد).

التفسير:

في هذه الآية يُنسب الاستهزاء إلى الله ﷻ، فتخيّل الناقدون أنهم قد وجدوا الفرصة للاعتراض؛ فقالوا إن إله القرآن لا يتورّع عن السخرية. وهذا الاعتراض يرجع إلى الجهل المطبق بأساليب اللغة العربية ومصطلحاتها. ففي العربية قد يطلق أحياناً وصف الشرف نفسه على العقوبة أو الجزاء. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤١). ومن البديهي أن لفظة «سيئة» الثانية معناها العقوبة، ونظير ذلك ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ..﴾ (البقرة: ١٩٥). ومثال ذلك أيضاً في الشعر الجاهلي قول الشاعر النصراني عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يجهلُن أحدٌ علينا فنجهلُ فوق جهل الجاهلينا

ومن الواضح أن الشاعر في تحذيره هذا لا يهدد من يُظهرون جهلهم عليه وعلى قومه بأنه سيقابل جهلهم هذا بجهل أشد، وإنما يعني أن تصرفهم سيقابل بعقاب أشد.

ويتضح مما تقدم أن آية ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ لا تعني أن الله جل وعلا يسخر منهم، وإنما تعني أنه سيعاقبهم جزاء سخريتهم. هذا وإن ترجمة هذه الآية في بعض الترجمات على أساس ذلك المفهوم الخاطئ تتعارض تماماً وروح القرآن المجيد الذي يصف السخرية بأنها ضرب من الجهل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

(البقرة: ٦٨). فكيف ينسب الله ﷻ فعلاً إلى ذاته العليا وهو يصفه بأنه من أفعال الجاهلين؟

إن قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ ينبغي ألا يفهم أن الله تبارك وتعالى يمهل المنافقين ويؤخرهم كي يزدادوا في الطغيان. فهذا المعنى يتعارض مع الآية: ﴿وَقُلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: ١١١)، وكذلك الآية: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٨). ويتضح من هذا أن الله ﷻ يمهل الكفار ويؤخرهم لا لغرض سوى إتاحة الفرصة لهم ليصلحوا من أنفسهم، ولكنهم لسوء الحظ يزدادون طغياناً.

لفظة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في الآية.. المشتقة من «عمه» كما ذكرنا في شرح الكلمات، يدخل ضمن معانيها فقدان الأمانة أو العلامة. وحسب هذا المعنى يكون المقصود في الآية أن المنافقين يصرون على خبثهم دون اهتمام أو تدبر. فكانهم مسافرون على طريق خال من أي أمانة أو علامة تدلهم على المسافة أو الاتجاه.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

اشْتَرُوا: اشترى مشتقة من شرى وكلاهما بمعنى واحد. يقال «اشتراه» أي ملكه بالبيع. كذلك كل من ترك شيئاً وتمسك بغيره فقد اشتراه. وقد يكون لفظ اشترى بمعنى باع (أقرب الموارد).

التفسير:

قوله تعالى: ﴿اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ يحتمل معنيين، الأول: أن المنافقين استبدلوا الضلالة بالهدى، أي كأنهم اشتروا الضلالة وباعوا في مقابلها الهدى. والمعنى الثاني أنهم قد عُرضت عليهم الهداية والضلالة ولكنهم فضلوا الضلالة ورفضوا الهدى. والآية تتضمن هذين المعنيين معاً. فحسب المعنى الأول، أن كل إنسان يوهب في الأصل فطرة سليمة، ويُعطى أفضل الإمكانيات طبقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣١)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: ٥-٧)، ولكنهم نتيجة للتربية السيئة والأعمال الذميمة يفقدون هذه الفطرة السليمة ويضيعون القدرات والمواهب التي مُنحت لهم. ووفقاً لذلك يكون المقصود بالهدى في الآية الفطرة السليمة التي مُنحت لكل إنسان من الله ﷻ. ويكون المقصود بالشراء أن الناس يخسرون هذه النعمة الإلهية بسبب سوء عملهم، ومن ثم يتمسكون بالضلالة. وحسب المعنى الثاني يكون المقصود هو أن الله ﷻ يعرض على الناس الحق والهدى بواسطة رسله، على حين أن الشيطان يقدم لهم التعاليم الضارة. ونتيجة لسوء الاختيار يتقبل الإنسان الضلالة بدلاً من الهدى.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ
مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي
ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

مَثَلٌ: تتضمن هذه الكلمة عدة معان: (١) الشبه والنظير. (٢) الصفة. (٣) الحجّة. (٤) القول السائر (أقرب الموارد).

أَضَاءُ: مشتقة من ضاء أي لمع وأنار. تقول «ضاء القمر» أي أنار وأشرق. وأضاء لازم ومتعد: «أضاء البيت فأضاء» أي نوره فأنار. والضياء والضوء أي النور (أقرب الموارد). وقد استعمل الفعل «أضاء» في الآية بصيغة التعدية.

ظُلُمَاتٌ: جمع ظلمة. والظلمة زهاب النور، وقيل هي عدم الضوء عما من شأنه أن يكون مضيئاً. ويكنى بالظلمة عن الضلالة كما يكنى عن الهدى بالنور (أقرب الموارد). كما قد تستعمل الظلمة بمعنى الغم أو الشدة أو الخطر. واستعمال صيغة الجمع في الآية يشير إلى أن الموضوع أو المكان موضوع الحديث ليس مفتقراً إلى الضوء فحسب بل ومملوء بالأخطار المختلفة. وفي القرآن المجيد تجيء هذه اللفظة بصيغة الجمع دائماً للدلالة على صنوف مختلفة من الظلام الحسي أو الأخلاقي أو الروحي. وعندما يراد بها الظلام الروحي أو الأخلاقي فإن استخدام صيغة الجمع يتضمن معنى آخر أيضاً، إذ يشير إلى أن الخطايا والأفعال الشريرة لا تبقى على حالها، بل تنمو وتتكاثر؛ أي أن الزلّة الواحدة تؤدّي إلى زلّة أخرى.

التفسير:

تحدث الآية عن المنافقين الذين يُضمرون الكفر في قلوبهم ولكنهم من حيث الظاهر مندمجون في المجتمع الإسلامي. فنور الرسول ﷺ أو نور القرآن المجيد قد مسّهم سطحياً ولكنه لم يتمكّن من التغلغل إلى الداخل وذلك بسبب حالة المرض التي في قلوبهم. ولما كان التحوّل الديني يتطلب وصول النور إلى الداخل، لذلك فإنهم من حيث الواقع ظلوا محرومين من النور. وقول الله تعالى: ﴿الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ يحتمل معنيين، الأول أن فئة المنافقين قد أوقدوا النار لأنفسهم ولكن عندما ازداد انتشار الضوء وأضاء ما حوله استحوذ عليهم مرضهم الخفي، فأضاعوا النور

وبقوا في الظلام الدامس. وحسب هذا المعنى كأن الله ﷻ يقول ما معناه: إن مثلهم كمثل الذين استوقدوا ناراً، فلما أضاءت ما حولهم... إلخ. وهذا التعبير يتماشى تماماً مع طريقة التعبير في اللغة العربية ومع أسلوب القرآن بالذات. والمعنى الثاني لقول الله تعالى: ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ في الآية أن الرسول ﷺ أوقد النار أو النور امتثالاً لأمر الله ﷻ، وعندئذ ظهرت فئة المنافقين الذين مسهم النور خارجياً ولكنه لم يتعد ذلك إلى الداخل. فهم من حيث الظاهر في النور ولكنهم في الحقيقة محرومون من النور بسبب مرض قلوبهم، وكلما ازداد النور ازداد حرمانهم منه. وحسب هذا المفهوم كأن النص يقول ما معناه: مثلهم كمثل بعض أصحاب الذي استوقد ناراً فلما أضاء ما حوله... إلخ. وهذا التعبير صحيح أيضاً حسب الأسلوب العربي. ووفقاً لأي من المعنيين فإن المنافقين هم المحرومون من النور.

إن لفظة «نار» في الآية تعني التعاليم الإلهية والعلامات السماوية. وهذا المعنى مستمد مما ورد في غير هذا الموضع من القرآن المجيد. فمثلاً يروي لنا القرآن الكريم أن موسى ﷺ رأى ناراً بالقرب من جبل سيناء، ولما اقترب منها سمع صوتاً يناديه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص: ٣١). وفي موضع آخر من القرآن المجيد يقارن الوحي الإلهي بالنار، ويُشار إلى أن من الناس من لهم قدرات روحانية غير عادية حتى كأنها تتوقد من تلقاء نفسها دون وحي إلهي، فهي كالزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسه نار (النور: ٣٦). ومن ثم فإن لفظة «النار» قد يقصد بها أحياناً نور التعاليم الإلهية والآيات السماوية. وهذا هو المعنى المقصود في هذه الآية.

هذا وحسب استعمال العرب فإنهم قد يطلقون على الحرب لفظ «النار». قال تعالى في حق اليهود: ﴿كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة: ٦٥). وحسب هذا المعنى يكون معنى الآية أن المنافقين تأمروا مع الكفار لإيقاد نار الحرب ضد المسلمين، ولكن الحرب جاءت في مصلحة الإسلام إذ ازدادت شوكته، وتركت المنافقين في بلبلة تامة.

وقول الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ قد يعني أن الحروب مزّقت عن المنافقين رداء الإسلام الزاهي الذي كانوا يتسترون به. فالحروب لم تعجز فقط عن تحقيق النصر للكفار، بل وساعدت على كشف المنافقين أيضاً، إذ فضحتهم عندما عجزوا عن الانضمام إلى المسلمين وتحمل أهوال الحرب معهم. كما أن توسع تعاليم الإسلام وأحكامه بالتدريج قد ساعد أيضاً على هتك ستر المنافقين. وكلما زادت التعاليم الواجب طاعتها، زاد ثقلها على المنافقين.

وقول الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يعني أن المنافقين قد أثاروا الحروب كي يعيدوا ترسيخ نفوذهم، ولكن النتيجة الفعلية لهذه الحروب هي أنها قد كشفت عن نفاقهم مما أدّى إلى اضطرابهم وحيرتهم.

أما إذا أخذنا لفظة ﴿نَارًا﴾ في الآية بمعنى نور الإسلام، فيكون المعنى أنه وإن كان نور الإسلام قد مسّ المنافقين خارجياً غير أن قلوبهم ظلت غير متأثرة به. ومن ثم لم يجرمهم الله تعالى من نور الوحي الإلهي وبركاته جميعها، ولكنه حرّمهم أيضاً من نور الضمير الذي غرسه سبحانه في طبيعة البشر.

صَمُّ بُكْمٍ عُمَى فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

صَمٌّ: مشتقة من «أصم» وهذه من «صم». يقال «صم القارورة» أي سدّها. و«صم الرجل» أي انسدت أذنه أو ثقل سمعه فهو أصم أي لا يسمع أو ضعيف السمع. والأصم أيضاً الرجل الذي لا يمكن كسب تأييده ولا يُردُّ عن هواه. وتعني الكلمة الشخص الذي يصر على التماذي في أسلوبه الخبيث (أقرب الموارد).

بُكْمٌ: جمع «أبكم» المشتقة من «بكم». يقال بكم فلان أي امتنع عن الكلام تعمداً (أقرب الموارد). والأبكم الذي وُلِدَ أخرس، أو الذي لسانه نطق وهو الذي لا يحسن وجهه

الكلام، أو العيِّ الذي يعجز عن التعبير عما يريد قوله مع أنه قادر على النطق (تاج العروس).

عُمِّي: جمع أعمى المشتقة من «عَمِيَ». يقال عَمِيَ فلان أي ذهب بصره كله من عينيه كليتهما؛ أو ذهب بصر قلبه وجهل (أقرب الموارد). راجع شرح الآية ١٦ من نفس السورة.

التفسير:

تقدم الآية وصفاً ملائماً لبيان حالة المنافقين النفسية، الذين سبق ذكرهم في الآية السابقة؛ فأول سبب لضلّالهم أنهم أصمّوا آذانهم عن الاستماع لتحذيرات الرسول ﷺ. والسبب الثاني هو أنهم لم يفصحوا دون مواربة عما يختلج في صدورهم من شكوك، بحيث يمكن تبديدها بالحجة والبرهان؛ وقد منعهم عن السؤال والاستفسار فرط عجبهم واعتدادهم بأنفسهم. وأخيراً تبدّل إحساسهم حتى عجزوا عن إدراك ما يحرز الإسلام من تقدّم، وما له من تأثير على أتباعه وما أحدث فيهم من تغيير. ولكون المنافقين لم يستخدموا آذانهم وألسنتهم وعيونهم فهم كما وصفهم القرآن المجيد: صم بكم عمي.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ يشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن الإنسان يولد على فطرة نقيّة، فطرة الإسلام، ولكنه يُفسد نفسه بأعماله السيئة. فقول الله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ يعني تلك الحقيقة، أي أن هؤلاء الناس نأوا بعيداً عن طبيعتهم الطيّبة أصلاً، ومع أن الله ﷻ يناديهم إلى العودة إلى طبيعتهم النقيّة هذه إلا أنهم لا يرجعون.

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ
وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي

أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

أَوْ: حرف عطف يُراد به عدة معان. وهو هنا لمجرد التخيير ولا يفيد الشك.

صَيِّبٌ: مشتقة من «صاب» أي انصبَّ ونزل. يقال «صاب الشيء صَوْبًا» أي جاء من علٍ ونزل. والصَيِّبُ السحاب ذو المطر أو المطر نفسه (أقرب الموارد ومعجم لين).

السَّمَاء: مشتقة من سما أي ارتفع وعلا. والسماء كل ما عَلَاكَ فأظلك. والسماء سقف كل شيء وكل بيت. والسماء رواق البيت؛ أو السحاب أو المطر (أقرب الموارد).

رَعْدٌ: يقال رَعَدَ السحاب أي صات وضجَّ للإمطار؛ ورعد لي فلان أي تهدّدي. فالرعد صوت السحاب أو صوت الحرب. يقال «جاء بذات الحرب والصليل» أي بالحرب وما إلى ذلك. وفي الآية يشير اللفظ، بطريق المجاز، إلى الأوامر الثقيلة أو النبوءات التي تنذر بما سيقع من كوارث أو التعاليم المتعلقة بالحرب.

الْبَرْقُ: مشتقة من بَرَقَ، يقال بَرَقَ البرقُ أي ظهر، وبرقت السماء أي بدا منها البرق. وبرق الشيء أي لمع وتلألأ. والبرق وميض السحاب (أقرب الموارد). ولفظ البرق في هذه الآية يعبرٌ مجازاً عن الانتصارات في الحروب أو غنائم الحرب أو علامات الحق الواضحة.

الصَّوَاعِقُ: جمع الصاعقة، مشتقة من صَعَقَ. صعق الرعد أي اشتد صوته. وصعقت السماء القوم أي أصابتهم بالبرق. وصعق الرجل غُشِيَ عليه أو ذهب عقله من صوت يسمعه كالهدّة الشديدة، أو بمعنى مات. فلفظة الصاعقة تدل إذن على: (١) البرق الذي ينزل من السماء. (٢) المصيبة المدمرة أو العقاب. (٣) الموت

والهلاك. (٤) صيحة العذاب التي تنذر بما يصحبها من عقاب إلهي كالزلازل وغيره.
(٥) الغشية والغيوبة (أقرب الموارد ومعجم لين).

المَوْتُ: مشتقة من مات، وهي قد تكون بمعنى فقد الحياة، أو بمعنى نام. والموت ضد الحياة، ومعناه زوال الحياة أو ما لا حياة فيه. وكما أن لفظ «الحياة» يحمل عدة معان كذلك لفظ «الموت». فقد يكون معناه: (١) توقفت قوة النمو، كقوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ (ق: ١٢). (٢) زوال القوة الحسية أو قوة الشعور كما في قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ (مريم: ٢٤). (٣) زوال القوة العاقلة وقوة الإدراك كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (الأنعام: ١٢٣). (٤) الحزن والخوف المكدر للحياة كما في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (إبراهيم: ١٨). (٥) الموت الروحاني كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٧٠). (٦) النوم، وتسميه العرب الموت الخفيف. (٧) الهدوء والسكون. (٨) الفقر بعد الغنى. (٩) اليأس. (١٠) الضعة والحقارة والدناءة والخنسة. (١١) الأرض التي صارت خالية من الزراعة أو من السكان. وجاء في قاموس لسان العرب «وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال والهزم والمعصية وغير ذلك» (لسان العرب ومفردات الراغب ومعجم لين).

التفسير:

تشير هذه الآية إلى الفئة الثانية من المنافقين، أي الذين لم يبلغ إيمانهم درجة الإخلاص الكامل، ولا زالوا ضعاف العقيدة والعمل، فيضطربون كلما توقعوا هجوماً من العدو أو كلما جدّت ظروف تتطلب التضحية. فهذه الفئة تخشى الناس أكثر مما تخشى الله ﷻ، وتحاول أن تبقى على صلة طيبة مع الكفار، وذلك بالتراسل معهم وإمدادهم بأخبار المؤمنين. وكانوا يعزّون أنفسهم بما يظنونونه من أن الإسلام دين إلهي حقاً ولا بد أن ينتصر على الرغم مما يفعلونه، ومن ثم فليس من الصواب أن يعرضوا

أنفسهم لخطر لا داعي له. ولكن ليس في الإسلام موضع لمثل هذا التخاذل، إذ هو دين عمل وتضحية. ولهذا ورد ذكر هؤلاء الناس في أوائل القرآن المجيد ونبأهم بأن الله ﷻ يعتبرهم من زمرة المنافقين، وأنهم سيعاملون على هذا الأساس. إن الإسلام يعلمنا بالألّا نُفَوّت أي تضحية في سبيل إرضاء الله ﷻ، وكل من ليس مستعداً لهذه التضحية الكاملة لن يستحق الثواب الذي وُعد به الإسلام والمسلمون.

إن هذه الآية والتي قبلها تشيران إلى فريقين من المنافقين:

الأول: الكفار الذين يتظاهرون بالإسلام. والفريق الثاني: المؤمنون ضعاف الإيمان، سيئو العمل، مع الميل إلى الكفار. ويؤيد ذلك الاعتبارات التالية: (أ) في الآية ١٨ ذكر عن المنافقين أنهم يوقدون النار، ولم يُذكر عنهم ذلك في هذه الآية، بل بالعكس قد ذكر أن هناك علامات أو ابتلاءات ستُنزل من السماء. (ب) التشبيه في الآية الأولى جرى بأنه عندما أضاءت النار ما حولها حُرِّموا من الرؤية، وأما في الآيتين ٢٠ و ٢١ فالتشبيه جرى على أنه عندما وُجد النور استفاد منه الناس وأخذوا يمشون فيه. (ج) في التشبيه الأول قيل إن هؤلاء الناس ليسوا بمؤمنين، فهم صم بكم عمي، ولكن في التشبيه الثاني قيل فقط إن الله ﷻ أراد أن يكونوا صمّاً وعمياناً، وهو ما يدل على أنهم لم يكونوا أصلاً صمّاً وعمياناً، ولكن استمرارهم على ما هم عليه من سلوك سيؤدي بهم إلى ذلك. (د) في التشبيه الأول ذكر أن هؤلاء الناس يتآمرون ضد الإسلام والمسلمين، ولكن لم يذكر ذلك في التشبيه الثاني، واكتفى بالقول بأنهم يتركون المسلمين وقت الخطر. وكل هذه الحقائق تشير إلى أن هذه الآيات تتحدث عن فريقين من المنافقين، كل منهما يختلف عن الآخر. وهذا هو السبب في الفصل بين الآيتين بالحرف ﴿أو﴾. فالفريقان مستقلان عن بعضهما بعضاً وليساً طائفة واحدة.

إن مغزى الآية التي نحن بصدها هو أن الفريق الثاني من المنافقين أشبه ما يكون بالجبنة الذين تنخلع أفئدتهم لمجرّد الضباب والمطر المصحوب بالبرق والرعد، فلا

يستفيدون منه. وهكذا شأن مجيء الإسلام إذ تصاحبه الابتلاءات والمشاق. والمؤمن الحقيقي يعلم أيضاً أن هذه الأمور لها غرض فلا يضطرب؛ ولا يكون لهذه الابتلاءات أي أثر فيه إلا زيادة حماسته.

قد يُثار الاعتراض أحياناً ضد الأنبياء على اعتبار أن مجيئهم ينشأ عنه الاضطراب وفك عُرى الوحدة في الأرض. والآية تتضمن الرد على هذا الاعتراض. فالمطر يهب الحياة للأرض ولكن يصحبه الظلام والرعد، ويحجب ضوء الشمس لفترة محدودة، وهكذا أيضاً المحن التي تصاحب نزول الأنبياء، فإنها مجرد دليل على شروق عهد جديد أعظم بهاء وسناء.

ذكر عن لفظة الصاعقة في الآية أنها تجعل المنافقين يخشون الموت، ولكن الآية توضح أن هذا الخوف غير مقبول عقلاً، وذلك لأن هذه الصاعقة التي تثير خوف هؤلاء الناس تأتي بعد حدوث البرق فعلاً، ومن ثم فإن وضع الإنسان أصابعه في أذنيه لا يجدي فتيلاً. لقد نشأت حالة حرب فعلاً بين المؤمنين والكفار، ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى بعض التضحيات والمشاق، ومن ثم فلا فائدة من محاولة المنافقين أن يتجنبوا متطلبات الحرب وعواقبها.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ في نهاية الآية يشير إلى أن ما يساور المنافقين من خوف أمر غير مقبول، إذ ما دام الله تعالى قد قضى بهزيمة الكفار والقضاء عليهم، فلا حاجة بالمنافقين لأن يخشوا أي ضرر جدي منهم.

يَكَادُ الْبَرْقُ يُخَطِّفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ
مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

يَخْطَفُ: فعل مضارع والماضي خطف أي استلب بسرعة. وخطف البرق البصر أي ذهب به (أقرب الموارد).

شيء: مصدر من الفعل شاء، شاءه أي أراه. و«الشيء» كل ما يصح أن يُعلم ويُخبر عنه. والمفهوم الشائع لهذا اللفظ هو كما ورد تعريفه في مختار الصحاح «عبارة عن كل موجود إما حساً كالأجسام أو حكماً كالأقوال نحو: قلت شيئاً». ولكن المصدر في اللغة العربية قد يستعمل أحياناً بدلاً من اسم المفعول، وعلى هذا يمكن أن نقول إن لفظ «شيء» يعني أيضاً ما يُراد أو يُقصد أو كل ما يراد ويبتغى.

قَدِير: مشتقة من «قدر» أي قضى وحكم به عليه. وقدر عليه أي قوَّيَ عليه، فهو قادر وقدير. ولفظ ﴿قَدِير﴾ يفيد المبالغة. و«القدير» من أسماء الله الحسنى، أي أنه جل وعلا ذو قدرة لا حدود لها.

التفسير:

تشير الآية إلى أن الفئة الثانية من المنافقين (أي المؤمنين الضعاف من حيث العقيدة) يحتمل أن يفقدوا بصرهم؛ أو بعبارة أخرى أن بصرهم لم يذهب فعلاً، ولكن تكرر تعرضهم للمواقف التي تتطلب الشجاعة والتضحية، والتي عبّر عنها في الآية بالبرق والرعد، فمن المحتمل جداً أن يفقدوا بصرهم أي إيمانهم. ولكن الرحمة الإلهية اقتضت ألا يكون البرق مصحوباً دائماً بالصواعق، فهو كثيراً ما يكون ومضة لامعة تبدد حجب الظلام، فتساعد الساري ليلاً على التعرف على الطريق. وهذا البرق يرمز إلى قوة الإسلام التي تبهر الأعين. ففي هذه الحالة؛ أي في المناسبات التي تظهر فيها قوة الإسلام فإن هؤلاء المنافقين يسرون في ركب المسلمين، وقد عبّر في الآية عن ذلك بقول الله تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَصَآءَ لَهُم مَّشَآءَ فِيهِ﴾. أما إذا كان البرق والرعد من النوع الذي يهدد بالخطر وليس مجرد ومضة عابرة، أي عندما يتطلب الموقف التضحية بالنفس والمال، فإن الدنيا تُظلم في أعين هؤلاء المنافقين،

ويسودهم الذهول والحيرة، ويمتنعون عن المسير مع المسلمين وقد عبّر عن ذلك في الآية بقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾.

وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ يشير إلى أن هذا الصنف من المنافقين لا يزال يتمتع بالسمع والبصر، أي أن بمقدورهم أن يتخلّوا عن ضعف الإيمان، ولا زال الطريق مفتوحاً أمامهم ليمتثلوا لتعاليم الإسلام ويقبلوا قيادة الرسول ﷺ في إخلاص لا تشوبه شائبة. أما إذا تمسكوا بمسلكهم، واستمروا على ترك المسلمين في أوقات الشدة، فستنقطع صلتهم بالإسلام والمسلمين في أقرب وقت، ويفقدون سمعهم وأبصارهم.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني أن خشية هؤلاء المنافقين من أن يصيبهم الضرر على أيدي الكفار ترجع إلى نقص في إيمانهم بالله ﷻ، وإلى قصور في إدراكهم لصفاته جلّ وعلا؛ إذ لو أنهم علموا فقط أن الله تعالى قادر على أن يفعل كل ما يريده، وأنه قد قضى بأن تكون للإسلام الغلبة على جميع أعدائه، لما داخلهم أي خوف من الكفار. إن خشية غير الله تبارك وتعالى مردها دائماً أبداً إلى ضعف الإيمان بالمولى ﷻ، والافتقار إلى معرفة صفاته.

هذا وإن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يتضمّن ردّاً على سؤال يُطرح أحياناً بسداجة: هل الله قادر على أن يميت ذاته أو أن يخلق مثيلاً له، أو يكذب أو ما شابه ذلك من أسئلة؟ إن لفظة «شيء» كما سبق شرحها تعني ما يراد أو ما يُقصد. وبما أن الله تعالى لا يريد ولا يقصد أبداً أن يميت ذاته أو أن يجعل مثيلاً له أو أن يكذب أو ما إلى ذلك، لأن كل هذه الأمور تدل على النقص، وهو سبحانه منزّه عن أي نقص، فمن ثم لا محل لمثل هذه الأسئلة، وليس هناك أي داع لها فضلاً عن سخفها.

وجدير بالملاحظة أخيراً أن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يتضمّن تحذيراً للمسلمين، إذ تنبّههم إلى ضرورة الحذر من الانزلاق إلى حالة الكفر. ذلك أن

الإنسان قد ينتقل دون أن يشعر إلى حالة النفاق التي أشير إليها في الآية، أي الإيمان المشوب بضعف في العقيدة، ولا يحس في بادئ الأمر بما يطرأ عليه من تغيير، ثم يخطو بعد ذلك إلى حالة النفاق الآخر، أي يكون من حيث الظاهر في عداد المسلمين وهو في دخيلة نفسه كافر. ومن ثم ينبغي للمسلم الحقيقي أن يراقب نفسه دائماً، ويحذر ذلك الخطر، فلا يكتفي بكونه يؤمن بالتعاليم التي عرفها من الإسلام، بل ينبغي له أن يطبقها عملياً كمسلم صادق، ويكون مستعداً دائماً لأي تضحية في سبيل الإسلام.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

رَبّ: يقال «رَبّ الشيء» أي جمعه أو ملكه، و«رَبّ القوم» ساسهم وكان فوقهم، و«رَبّ النعمة» أي زادها وكثرها، و«رَبّ الأمر» طيّبه وأجاده، و«رَبّ الصبي» أي رعاه حتى أدرك. والرَبُّ في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً بعد حال إلى حدّ التمام. والرب معناه السيد أو الرئيس أو المالك أو من تجب طاعته، أو المعين الذي يكفل المصلحة. ولا يقال الرَبُّ مطلقاً إلاّ لله تعالى خالق كل شيء. وقد يضاف إلى غيره كقولك «رب البيت» فيكون بمعنى مالك البيت (لسان العرب وقاموس المحيط ومفردات الراغب ومعجم لين).

لَعَلّ: من الحروف المشبهة بالفعل، والمفهوم الشائع له أنه يفيد الشك مع الترجي. ولذلك عندما قام المترجمون المسيحيون بنقل هذا اللفظ إلى لغاتهم عبّروا عنه بمعنى «قد يمكن» أو «مصادفة» أو «ربما». وهذا كله خطأ بيّن كما هو واضح من نص الآية. وكما ذكر «لين» فإن لفظ «لعل» عندما يُذكر منسوباً إلى الله تعالى فإنه عادة لا يعني الشك وإنما يعني التوكيد. والواقع أن كل ما يعلنه الله ﷻ يشبه في طبيعته

ما يسمى بلغة العصر «النطق الملكي» فيرد فيه لفظ «لعل» بمعنى الرجاء الناشئ عن اليقين. ومعنى ﴿لَعَلَّ﴾ في هذه الآية هو «حتى» أو «كي». هذا وقد يرد هذا اللفظ أحياناً بمعنى «عسى».

التفسير:

كما رأينا، بدأ القرآن الكريم دعواه بالإعلان بأنه أفضل كتاب للهداية، وهو الكتاب الوحيد الذي يحقق هذا الغرض لأنه من الذات التي أحاطت بكل شيء علماً، أي من الله تعالى خالق الكون والمتكفل به، والذي يتفرد بكونه أحاط بكل شيء علماً. وخصائص ذلك الكتاب أنه، أولاً: خزانة ثمينة تحوي كل ما هو طيب وقيم. ثانياً: مُنَزَّه عن أي قصور أو نقص. ثالثاً: لا يقف بالإنسان ذكراً كان أو أنثى عند مرحلة من مراحل التقدم الروحاني، بل يأخذ به في طريق التقوى صاعداً من درجة إلى درجة أعلى في ذلك الطريق الذي لا نهاية له. وبعد أن قدّم القرآن المجيد دعواه هذه انتقل إلى وصف مجمل لثلاث طبقات من الناس: المؤمنين والكافرين والمنافقين، ويلى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي أطيعوه جل وعلا، وانهمضوا لما يريده، وذلك: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي كي تنالوا درجة التقوى. وهذا النداء يوجّه النظر إلى حقيقة دقيقة، ألا وهي أن القرآن المجيد يَمَكِّن المتّقين من بلوغ درجات أعلى فأعلى في سلم الرقي الروحاني، ولكن ينبغي لكل إنسان أن يسعى ليكون في زمرة المتّقين، ويكتسب ما في القرآن المجيد من فوائد روحانية.

تتطلب العبادة الخضوع الكامل، والإحساس بالخضوع لا ينشأ وينمو إلى حد الكمال إلا إذا شعر الإنسان ومعه آباؤه وأجداده بعرفان الجميل وتقديره. يخبرنا التاريخ أن كثيراً من الناس قد ضحّوا بأرواحهم في سبيل ملوك جبارين، وما ذلك إلا لأن أجداد هؤلاء الملوك قد أسدوا شيئاً من المعروف إلى أسلافهم. إن الشعور بعرفان الجميل يزداد قوة كلما التزم الناس بهذا الشعور وتناقلوه جيلاً بعد جيل. ولهذا كان من

المناسب أن يتضمّن النداء في الآية الإشارة إلى الآباء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

هذا وإن الآية تبين أيضاً في وضوح أن الغرض من العبادة ليس مجرد العلم بالله ﷻ ومعرفته، إذ لو كان الأمر كذلك لما اعتُبرت عبادة الأوثان - رغم ما فيها من جور - أمراً شديداً للضرر. إن الغرض من عبادة الله تعالى هو نيل التقوى والكمال الروحاني، فكيف يمكن لآلهة زائفة أن تجعل الإنسان كاملاً روحانياً، وهي لم تخلقه ولا تدري شيئاً عن قواه وطاقاته؟

ثم إن قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يشير بجلاء إلى أن الأمر بالعبادة لا يقصد من ورائه منفعة الله ﷻ، وإنما هو لمنفعة الإنسان نفسه. وأولئك الذين يعتبرون الشريعة لعنة ينظرون إليها كأنها مجرد إظهار لسلطة الله تعالى. ولكن القرآن المجيد يقرر بوضوح أن أوامر الله تبارك وتعالى يقصد بها هداية الإنسان. فمثل هذه التعاليم لا تعتبر لعنة، إذ إن الشخص الذي يحذر رجلاً من حفرة أمامه لا نقول بأنه يلعنه، وكذلك الطبيب الذي يصف الدواء لشخص يعاني آلام المرض لا نقول بأنه يضره. وهناك نقطة أخرى ينبغي أن نتذكرها، وهي أن معنى لفظة ﴿رَبِّ﴾ هو الخالق الذي يتولى تنشئة الإنسان بالتدرّج. وبولادة الإنسان يوضع الأساس الذي يقوم عليه مستقبلاً كمال تنشئته. فإذا كانت العبادة التي يؤديها لا تؤدي إلى تكامل قواه الكامنة، فإنها تكون مجرد مظهر أو قالب لا روح فيه.

إن قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لا يُعلّمنا أن نتجنب تلكم الأشياء التي من شأنها أن تقطع صلتنا بالله تعالى فحسب، ولكن يُعلّمنا أيضاً أن نتجنب كل ما يقطع العلاقة بين الإنسان وغيره، فالشخص الذي يرى أن الله تعالى هو الخالق الكفيل، فإنه يتجه إليه ﷻ من أجل ما يحتاج إليه، ولا ينظر بعين الطمع إلى ما لدى الآخرين من مال، وهو لن يكون أبداً غير مخلص لغيره من الناس، بل يعيش معهم في سلام. إن صحابة الرسول ﷺ عاشوا من أجل الله ﷻ، وما كانوا ينظرون إلا إليه، وقد شهدت

الدنيا في زمانهم سلاماً لا نظير له. والواقع أنه لن يكون هناك سلام إلا إذا أخلصنا لله تبارك وتعالى. فلو كانت دول الغرب على هذا الإخلاص لما أصابها ما تعانيه من ذلك المرض الأخلاقي الذي يسري في عروقها، أي شهوة تملك الأرض والمال.

إن هذه الآية تتضمن أول الأوامر التي حواها القرآن المجيد كما هو ظاهر من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهذا الأمر بعبادة الله ﷻ، مُوجَّه إلى الإنسانية كلها لا للعرب وحدهم. ويتضح من ذلك أن الإسلام ديانة عالمية، وأن طراز الأديان القومية قد أُلغِيَ وأصبح مفهوم الإنسانية قائماً على اعتبار الأخوة بين الناس جميعاً.

ولفظه ﴿رَبِّ﴾ تجيب على التساؤل عن المعبود الذي ينبغي عبادته، إذ تتضمن إنكار جميع الآلهة الزائفة التي لم تخلق شيئاً وهي نفسها مخلوقة.

إن الإنسان يُسْتَنْهَض بأحد أمرين: الحب أو الخوف. والآية تتضمن الدعوة عن طريق هذين الحافزين فهي تشير بقولها: ﴿رَبِّكُمْ﴾ إلى ما جاء في سورة الفاتحة من صفات الله ﷻ التي تجعله وحده جديراً بالعبادة وطلب المعونة والهداية. فهو: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وهما صفتان داعيتان للمحبة، وهو: ﴿مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي السيد المتصرف وحده وقت الحساب، وهذه صفة باعثة على الخشية. والحب ينشأ من الحُسْن؛ أي ما اتصف به المحبوب من جمال، أو من الإحسان؛ أي الشعور بإحسان المحسن وجميله. والله تبارك وتعالى حسن بل ومصدر كل إحسان. ومن أوجه ذلك الحسن أنه يخلق الإنسان في حالة متدنية جداً، ثم يرتفع ذلك المخلوق بالتدريج إلى أوج الكمال. وأما الإحساس بالإحسان أو عرفان الجميل فإن دعوة الناس عن طريقه قد تضمنتها قول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

ولما كان (الرب) هو أيضاً السيد المالك صاحب السلطان والأمر النافذ والجدير بالطاعة التامة، فإن التفكير في مخالفة تعاليمه يولد الإحساس بالخوف من العقاب، خاصة وأنه مالك يوم الدين، إذ يتعين على المرء أن يقدم حسابه بين يديه. ولما كان (الرب) هو المعين الكافل للمصالح، فإن مخالفته تؤدي إلى الحرمان من معونته أو الخروج

من كفالاته ورعايته وهذا يسبب الإحساس بالخوف كذلك. فقلوه ﷻ: ﴿رَبُّكُمْ﴾ استنهاض للهمم من طريق المحبة والخشية كليهما.

ومن العجيب أنه عندما سئل السيد المسيح عن «آية وصية هي العظمى في الناموس» قال: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الأولى والعظمى» (إنجيل متى ٢٢: ٣٦ - ٣٨). ولكن هذا الأمر الذي وصفه السيد المسيح بأنه أعظم الوصايا وأولها في الشريعة لا يرد في موضع متقدم من الإنجيل، ولكن يرد ذكره متأخراً جداً، ثم لا تُساق هذه الوصية إلا عندما سأل عنها أحد الناس، في حين أنه كان يجدر أن يكون لهذه الوصية موضع الصدارة اللائق بأهميتها. وكذلك الحال فيما يتعلق بالتوراة، إذ ترد هذه الوصية في الأسفار المتأخرة، وهو ما نلاحظه أيضاً على باقي الكتب. أما القرآن المجيد فهو وحده الذي يحل هذه الوصية محل الصدارة.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ
بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ
الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

فِرَاشًا: مشتقة من فَرَشَ. يقال «فرش الشيء» أي بسطه أو مدّه. والفِرَاش بكسر الفاء. ما يُفرش على الأرض ويُنام عليه، أو ليجلس الإنسان عليه أو يضطجع. والفراش أيضاً السهل المنبسط من الأرض أو الطريق الممتد (معجم لين).

بِنَاءً: مشتقة من بَنَى أي شَيّد ضد هدم. والبناء التشييد أو ما يُرْفَع ويُشَيّد، أو سطح البيت أو الغرفة وما إلى ذلك، أو السقف (معجم لين).

الثَّمَرَات: جمع ثمرة المشتقة من الفعل ثَمَرَ. والثمرات حِمْل الشجر. يقال «ثمر الشجر» أي طلع ثمره أو نضج. وأثمرت الشجرة طلع ثمرها. وتستعمل الثمرة مجازاً بمعنى النسل والولد، أو كل نفع يصدر عن شيء كقولك «ثمرة العمل الصالح» (تاج العروس وأقرب الموارد).

أَنْدَادًا: جمع «نَدَّ». والند شبهه الشخص أو الشيء، أو مثيله من حيث المادة. معناه أيضاً الشيء الذي يمكن أن يؤدي ما يؤديه غيره أو يقوم مقامه. وقد يتضمّن «النَدَّ» معنى المخالفة أيضاً. يقال «نَدَّ البعير» أي نفر وذهب على وجهه شاردًا. و«تَنَادَوْا» أي تخالفوا وتنافروا. وفي قاموس أقرب الموارد: النَدَّ المثل ولا يكون إلا مخالفاً؛ يقال ما له ند أي ما له نظير. يختلف معنى النَدَّ عن الشريك، إذ يشترك الشريك مع غيره في عمل ما أو يشاركه في بعض الصفات. ويعبّر عما يُعبد من دون الله تعالى بالأنداد (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

في هذه الآية يُستكمل موضوع الآية السابقة. لقد سبق القول بأنه ينبغي عبادة الرب لأنه هو الخالق، ولأنه وحده الذي ينشئ قوى الإنسان ويغذيها. وتذكر هذه الآية أن الله لم يخلق الإنسان فقط بل خلق أيضاً السماوات والأرض، ومن الجلي أن أشغال الإنسان تعتمد على ما يحيط بها. فالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو الضرب في الأرض أو ما إلى ذلك لا يمكن أن يتيسر إلا عن طريق الطبيعة وتأثير السماوات والأرض. كذلك أفعال الإنسان لا يمكن أن تُوجّه توجيهها سليماً إلا عن طريق الذات التي أوجدت السماوات والأرض. وهو وحده الذي بمقدوره أن يُطوِّع هذه الموجودات لخير الإنسان ولا أحد غيره له مثل هذه القدرة والعلم والسلطان. ومن ثم يجب على الإنسان أن يعبد الله تعالى وحده.

ثم إن قوله تعالى بأنه قد جعل السماء بناءً يوحي بأنه لما كان البناء أو السقف يعتبر مصدر وقاية لمن يعيشون فيه أو تحته، فكذلك الأجرام البعيدة من الكون فإنها وقاء

لكوكبنا. وأولئك الذين درسوا علم الفلك والظواهر الجوية يعرفون أن لهذه الأجرام التي تجري في مسالكها في الفضاء غير المحدود حول الأرض من جميع الجوانب تأثيرها على الأرض بما يضمن سلامتها واستقرار حالتها.

يلي ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ويلاحظ أن لفظة ﴿السَّمَاءِ﴾ قد جاء ذكرها في الآية مرتين. فالأولى تعني كل ما يحيط بالكرة الأرضية، وأما الثانية أي في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فيقصد بها السحاب؛ ذلك أنه لو كانت هذه اللفظة تعني معنى واحداً في الموضعين، لما كانت هناك حاجة إلى تكرارها دون داع، وكان يكفي استعمال الضمير في الموضع الثاني. أي أن تكرار الكلمة يرمي إلى أن المقصود من ذلك هو أنها في الموضع اللاحق تحمل معنى يخالف معناها في الموضع السابق.

وأخيراً يقول تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. بعد أن تم تبين أن كل شيء في هذا العالم هو من خلق الله تبارك وتعالى، يوجه النظر إلى أن الأمر الواقع هو أن الله ﷻ ليس له نظير. فما من شيء في الكون يمكن أن يدلنا على أن أي جزء منه قد خلق عن طريق غير الله ﷻ. وإذا كان الإنسان يلمس ذلك، فلماذا إذن يعبد ما سوى الله تعالى؟

وتشير هذه الآية أيضاً إلى أن كمال العلم المادي يعتمد على التوافق بين القوى الأرضية والقوى السماوية. فعندما يتلوث الماء بفعل الإنسان على سطح الأرض فيأتي المدد بماء طاهر نقي من السماء، كذلك عندما يفسد الهواء بسبب التنفس فإنه يرتفع إلى أعلى ليتجدد ويصير نقياً. والعين مثلاً عضو نافع، ولكن ما جدواه بدون أشعة الشمس. فمجمال القول؛ كما أن الأرض بمنزلة الفراش للإنسان، والسماء بمنزلة السقف، فكذلك الحال في مجال العالم الروحاني. إن العقل من الهبات التي أودعت في الإنسان، ولكن العقل كالعين لا يمكنه أن يؤدي وظيفته كما ينبغي دون معونة الوحي الإلهي. وغرائز الإنسان نقية ولكنها تتلوث بسبب الجشع والحقد وما

إلى ذلك. ولا يمكن تطهير هذه الغرائز إلا بماء الوحي. ومن ثم يتعدّر على الإنسان أن يحرز الفلاح الروحاني دون أن تتصل نفسه بالله سبحانه وتعالى. فعن طريق إظهار اعتماد الحياة المادية على الأرض والسماء معاً يدلنا الله ﷻ على ما يماثل ذلك في الحياة الروحانية، ويعلمنا ﷻ أنه في الأمور الروحانية أيضاً ينبغي للإنسان ألا يعتمد على الوسائل الأرضية وحدها، فذهنه وحده ليس بكاف. ذلك أن العالم الروحاني يحتاج إلى المعونة السماوية كالعالم المادي. وكما أن هناك سماء فوق الأرض، فكذلك هناك سماء فوق قلب الإنسان وعقله. وهذه هي هداية الله تعالى التي يتلقاها الإنسان عن طريق الوحي.

وبهذه المناسبة قد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو أن الرأي الحديث السائد الآن يقول بأن فكرة وجود الله قد نشأت عن الاعتقاد البدائي بالأرواح والأشباح والجنّيات. ويقال أيضاً إن الإنسان في العصر البدائي كان يعبد البهائم والحشرات السامة، ثم تقدم بالتدرّج نحو فكرة وجود الله. ويبدو أن النقاد المحدثين متفقون على أن فكرة تعدد الآلهة كانت دائماً سابقة على فكرة الإله الواحد، ويدّعون أن تاريخ عقائد الإنسان قد سجل ذلك. وبعض الذين يعتنقون ذلك الرأي يحاولون التوفيق بينه وبين الدين، فيدّعون أن وجهة نظرهم لا تتعارض مع الدين، ذلك أن الله ﷻ كشف عن نواميس الطبيعة بالتدرّج، ومن ثم لا غرابة في أن يكشف عن ذاته بالتدرّج أيضاً.

إن جميع الأديان السائدة الآن تقوم على الوحي، ومن ثم كان الوحي هو أساس جميع الأديان. فالقول إن الله تعالى قد كشف عن نفسه بالتدرّج، وإنه في أول الأمر وجه العالم نحو آلهة أخرى، ثم بعد ذلك وجه الناس إلى ذاته؛ كل هذه الأقوال تنهار من أساسها. إذ ما الذي منعه ﷻ عن أن يهدي الناس إليه من بادئ الأمر؟ إن جميع الأديان الحيّة في العالم تعتقد من بادئ الأمر في الوحي؛ فالهندوسية واليهودية والمسيحية والزرادشتية والإسلام، جميع هذه الأديان تعلّمنا بأن الوحي قد بدأ مع خلق الإنسان. وما دام الأمر كذلك فلا يمكن أن تكون فكرة وجود الله قد نشأت

عن تطور تدريجي. وعلى ذلك فإن الآراء التي تأخذ بهذا التطور تتعارض مع الدين، ولا مناص لمن يتمسكون بهذه الآراء من أن ينكروا للوحي الذي هو أساس الدين. إن إنكار المسيحيين الغربيين للوحي شائع جداً، وذلك أمر طبيعي لأن المسيحية قد عجزت منذ أمد بعيد أن تقدم أي أمثلة لأناس ذوي تجربة في مجال الوحي، ومن ثم يتضاءل عجبنا إذا ما وجدنا أن أولئك الباحثين الذين لم تكن لهم تجربة ذاتية في هذا المجال، ولم يتعرّفوا على من لديهم هذه التجربة، أن ينكروا الوحي إنكاراً تاماً. وعلى أي حال فإنه طبقاً للقرآن المجيد فإن الله ﷻ خاطب الإنسان في جميع العصور، والقرآن نفسه سَجِلٌ للوحي السماوي، ووفقاً للقرآن المجيد فإن الوحي لا بد من أن يستمر نزوله على من يعتنقون الإسلام. وقد كان مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام هو الذي تلقى الوحي في عصرنا هذا. وكل من يعرف ذلك لا يدهش لمن ينكرون الوحي، وإنما يعتبرهم مجرد أناس جاهلين متعلقين بالأوهام.

والواقع أن الآراء التي تقول بتطور التوحيد واهية البنيان. يقال إن فكرة الألوهية الموجودة بين الأقوام غير المتمدنة في عصرنا هذا هي من قبيل الشرك؛ أي الاعتقاد بتعدد الآلهة، وعلى ذلك فإن فكرة وجود إله واحد قد نشأت من وسط يسوده الشرك أصلاً. ولكن هل هذه الأقوام الموجودة اليوم هي نماذج مماثلة للأقوام البائدة؟ ذلك ما لم يمكن التحقق منه. لقد عرفت المدنية عصوراً عديدة، وقد كانت اليونان وإيران والعراق ومصر والهند والصين مراكز للمدنية والحضارة في وقت ما، ولكن هذه الأمم يخيم عليها الآن الظلام والجهل، فإذا كان من الممكن أن ينشأ الجهل من المدنية، فلماذا لا ينشأ الشرك من التوحيد؟ لقد كان كرشنا في الهند يدعو إلى عقيدة التوحيد، ولكن بعد عصره اجتاحت البلاد موجة من عبادة الأوثان. وفي اليهودية حلت الآلهة الزائفة محل «يهوه»، وقد كان السيد المسيح عليه السلام يدعو في صورة مبسطة إلى الاعتقاد بإله واحد، ولكن المسيحية اليوم تؤمن بالتثليث؛ فالعقيدة الأدنى يمكن أن تزيج العقيدة الأعلى. إن الإسلام ديانة ذات ماضٍ تاريخي، وحتى أعداؤه يقرّون بأنه يدعو إلى وحدانية الله تعالى المتّزّهة، ومع ذلك فإن بعض المسلمين اليوم قد انحدروا

إلى عبادة ما سوى الله جل وعلا. إن الأمثلة التي ذكرناها تنقض الفكرة التي تقول بأن التوحيد لا بد وأن يكون قد نشأ من الشرك.

وفضلاً عما تقدم فإن دراسة الدين البدائي تدلنا على أن الأقوام البدائية كان لديها فكرة عن وجود إله كامل، إلى جانب ما كانت تعبد من آلهة أخرى، والأمر الوحيد هو أن الله يُعرف بأسماء تختلف باختلاف الأقوام. كما أن فكرة الوحي موجودة أيضاً لدى الشعوب البدائية، ويرون أن الوحي هو الوسيلة التي عرفوا الله تعالى عن طريقها.

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ
اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

عَبْدِنَا: مشتقة من عَبَدَ. يقال «عَبَدَ الله» أي أطاعه وخضع وذل وخدمه والتزم شرائع دينه ووحدّه. و«العبادة» اسم المصدر وهي الطاعة ونهاية التعظيم لله تعالى (أقرب الموارد). وفي مفردات الراغب «العبودية» إظهار التذلل، و«العبادة» أبلغ منها لأنها غاية التذلل. وللفظ العبادة معنى آخر هو تقبُّل الشيء للطابع أو العلامة، وهذا المعنى مأخوذ مما ذكر في مفردات الراغب. يقال «طريق مُعَبَّد» أي مُذَلَّل بالوطء. وعلى ذلك فإنه فيما يتصل بالله تعالى يكون معنى العبادة أيضاً: تقبُّل الإنسان لطابع صفات الله جل وعلا. و«العبد» الإنسان حراً كان أو رقيقاً، والعبد أيضاً الأسير، ويكون أيضاً بمعنى خادم الله تبارك وتعالى. و«عبد الطاغوت» يُطلق على من يخدم الشيطان أو يعبدّه (أقرب الموارد ومفردات الراغب ومعجم لين).

شَهَادَةُ: جمع «شَهِيد» مشتقة من «شَهِد». يقال «شَهِدَ المجلس» أي حضره. و«شَهِدَهُ» أي اطلع عليه وعاینه. و«شَهِدَ على كذا» أي أخبر به خبراً قاطعاً، و«شَهِدَ عند الحاكم فلان على فلان بكذا» أي أدّى ما عنده من الشهادة فهو شاهد. و«الشَهِيد»: الشاهد أو الأمين في شهادته أو الذي لا يغيب عن علمه شيء (أقرب الموارد ومعجم لين). والشَهِيد معناه أيضاً المساعد أو العون (مفردات الراغب). وحسب هذا المعنى الأخير يصح أن يكون المقصود بلفظ ﴿شَهِدَآءَكُم﴾ في الآية اليهود الذين كانوا على صلة طيبة بالكفار، وهم الذين أشير إليهم في قوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (المائدة: ٨١)، ويقولون عن عبدة الأوثان ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (النساء: ٥٢).

التفسير:

تضمّنت الآيتان السابقتان أول أمر سماوي موجه إلى الناس، ولما كان ذلك الأمر يقضي بأن يتّجه الناس إلى الله تعالى، فقد ساور الكفار المشركين شعور طبيعي بالتنكر لهذا التعليم القرآني الذي يطالب بالتوحيد، وذلك لأنهم أحسّوا بأن قبوله يعني ترك معتقداتهم التي يعتزّون بها منذ أمد بعيد.

وفي هذه الآية يقول الله تبارك وتعالى لهم أنه إذا كان القرآن المجيد قد أثار في أذهانهم الشكوك والحيرة أو أنه لا يستحق أن يُقبل، فما عليهم إلا أن يقدموا مثيلاً له، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله، فهذه الحقيقة بالذات تدل على أنهم على خطأ. إن مسألة سمو القرآن الكريم بحيث يتعدّر الإتيان بنظيره قد عولجت في خمسة مواضع مختلفة من الكتاب العزيز:

(١) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ وهي الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

(٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٩).

- (٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٤).
- (٤) ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ٨٩).
- (٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٤: ٣٥).

ونلاحظ أن التحدي في الآيتين الأوليين متشابه، وأما في المواضع الثلاثة الباقية فمطالبة الكفار في كل موضع منفصلة عما في الموضعين الآخرين وتختلف عنهما. وعلى هذا فلنبدأ بأعظم صور التحدي في هذه المواضع وهو الوارد في سورة الإسراء (الموضع الرابع)، فنجد أن الله تعالى يطالب الكفار بالإتيان بما يماثل هذا القرآن الكريم كله، مع السماح لهم أن يستعينوا بمن شاؤوا من الإنس والجن. أما التحدي الوارد في سورة هود (الموضع الثالث) فقد اقتصر على مطالبة الكفار بالإتيان بقدر محدود يماثل عشر سور فقط من القرآن المجيد. والتحدي الوارد في كل من سورة البقرة وسورة يونس (الموضعان الأول والثاني) فينحصر في المطالبة بالإتيان بسورة واحدة فقط. والتحدي الوارد في سورة الطور (الموضع الخامس) فقد خلا من أي تحديد؛ إذ طوّل الكفار بأن يُباروا القرآن في أي قدر منه كما يشاؤون. ويبدو عند النظرة السطحية أن هذا الاختلاف في صيغ التحدي في المواضع المختلفة متناقض بسبب عدم تناسق القرآن الكريم. وقد جاهد بعض المفسرين ليشرحوا ما بدا لهم من تناقض فقالوا إن هذا التحدي نزل في فترات مختلفة، فجاء التحدي أولاً بالمطالبة بالإتيان بما يماثل القرآن كله، ولما عجز الكفار خُفِّض التحدي إلى المطالبة بالإتيان بما يماثل عشر سور، ثم لما استعصى عليهم الإتيان بهذا القدر خُفِّض التحدي إلى درجة أدنى فطوّلوا بالإتيان بما يماثل سورة واحدة فقط. وأخيراً لما أعيتهم الحيلة طوّلوا بأن يأتوا بما يماثل أي قدر يختارونه. ولكن هذا التفسير يبدو أنه غير سليم ذلك لأن السور التي تضمّنت صيغ هذا التحدي قد نزلت على الترتيب التالي: (١) سورة

الطور (الموضع الخامس المذكور آنفاً)، (٢) سورة الإسراء (الموضع الرابع)، (٣) سورة هود (الموضع الثالث)، (٤) سورة يونس (الموضع الثاني)، (٥) سورة البقرة (الموضع الأول)، وهو الترتيب الذي ذكره المستشرق رودويل (Rodwell).

ويتضح حسب ترتيب النزول أن أول تحد كان خلواً من أي شرط يتعلق بالقدر المطلوب الإتيان بمثله، وقد ترك للكفار حرية اختيار أي قدر من أي موضع من القرآن المجيد. فمن الغريب - تماشياً مع تفسير هؤلاء المفسرين - أنه بعد أن عجز الكفار عن ذلك التحدي الأول غير المشروط أن يأتي التحدي بعد ذلك محوطاً بسياج من الشروط والقيود، فيطالب الكفار بأن يأتوا بمثل القرآن كله، ثم يخفف التحدي إلى عشر سور، ثم يخفف مرة أخرى إلى سورة واحدة. وذلك ترتيب غير طبيعي.

وفضلاً عما تقدم، فإن بعض هذه السور التي تضمنت التحدي قد نزلت في فترات متقاربة جداً حتى صعب على المفسرين ترتيب هذه السور.

لذلك فليس من المستحسن أن يعالج هذا الموضوع على أساس الترتيب التاريخي لنزول السور. ثم إن هناك نقطة جديرة بالاعتبار في هذا الصدد وهي أن الآيات الخاصة بالتحدي لا تتضمن أي إشارة إلى أي حادث تاريخي، ومن ثم فإن التحدي يعتبر غير مقيد بل قائم في كل زمان. وعلى ذلك فالسؤال الآن: ما الكيفية التي يُقدم بها التحدي إلى الكفار في العالم؟ هل يُطلب إليهم أن يأتوا بمثل القرآن المجيد كله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل سورة واحدة، أو بما يماثل أي قدر منه؟ وظاهر أنه لو كان طلب الإتيان بما يماثل أي قدر من القرآن المجيد قلّ أو كثر يكفي في حد ذاته للتحدي، فليس ثمة ما يدعو إلى تقديم تحدٍّ أشد حيث يُطالب الكفار بالإتيان بنظير لسورة واحدة، ثم لو كانت المطالبة بالإتيان بمثل سورة واحدة كافية فلا لزوم للمطالبة بما يماثل عشر سور، وهكذا أيضاً لو كانت المطالبة بالإتيان بما يماثل عشر سور كافية للتحدي فإنه لا حاجة إلى المطالبة بما يزيد عن ذلك؛ أي بما يماثل القرآن كله، الأمر الذي يُعد تمادياً لا مبرر له.

والواقع أن آيات التحدي هذه على اختلاف أنواع الطلب فيها قائمة في كل زمان، ولا حاجة إلى ربطها بالترتيب التاريخي لنزول القرآن المجيد. إنه تحدّ صالح لأن يقدّم في عصرنا هذا أيضاً بجميع صوره كما وردت في القرآن المجيد، وبمثل ما حدث في عهد الرسول ﷺ.

وقبل الشروع في شرح مختلف صيغ التحدي الخمس السابق ذكرها، يجدر أن نلاحظ أنه في جميع مواضع هذه الآيات قد صاحب التحدي ذكر المال والسلطان، إلا في الآية الواردة في سورة البقرة، والتي كما ذكرنا من قبل لا تحوي نوعاً جديداً من التحدي، وإنما هي تكرار لما ورد في آية التحدي في سورة يونس. ونخلص من ذلك إلى أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين مسألة الثروة والسلطان وبين نوع التحدي؛ أي المطالبة بالإتيان بما يماثل القرآن المجيد، أو بما يماثل جزءاً منه. ويرجع ذلك الارتباط إلى أن القرآن المجيد قد عُرض على الكفار باعتباره كنزاً لا يُقدَّر بمال، ومن ثم عندما طالب الكفار الرسول ﷺ بكنوز دنيوية، كما ذكر القرآن المجيد: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ (هود: ١٣)، جاء الرد بأن لدى الرسول ﷺ في القرآن كنزاً لا يدانيه كنز آخر. ثم إن الكفار قد سألوا شيئاً آخر: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ (هود: ١٣)، وقد تضمّن الرد الجواب عن ذلك الطلب أيضاً، بأن الملائكة تنزل عليه لأن مهمتها هي أن تنقل إليه الكلام الإلهي، وقد كُرم بذلك. وهكذا نرى أن كلا المطلبين؛ أي الكنز وإنزال الملائكة، قد جاء الجواب عنهما معاً، وذلك بعرض القرآن المجيد على اعتبار أنه كنز لا نظير له، نزلت به الملائكة. ومن ثم قدّم التحدي بأن يأتوا بما يماثل القرآن المجيد، كدليل على ما له من خاصية لا نظير لها: ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَنْزَلَ بِلَعْمِ اللَّهِ﴾ (هود: ١٥). ولننظر بعد ذلك في مختلف الآيات الخاصة بالتحدي، كل آية على حدة. إن أكبر طلب هو ذلك الذي ورد في سورة الإسراء، حيث دُعي الكفار ليأتوا بكتاب يماثل القرآن المجيد بخواصّه عديدة الجوانب. وهنا لم يُطالب الكفار بأن يقدموا كلاماً من إنشائهم على اعتبار أنه موحى به من الله تعالى، وإنما طُلبوا بأن يقدموا شيئاً من تأليفهم الخاص ويعلموا أنه في مرتبة القرآن المجيد، إن لم يكن أعلى

منه. فكان من مقتضى ذلك أن يبين القرآن المجيد المعيار الذي تكون به الموازنة، وهو ما تجده عقب آية التحدي: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: ٩٠). وفي ذلك إشارة إلى أن الكفار ينكرون على القرآن المجيد أنه مُنَزَّل من لدن الله تعالى ويعتقدون أنه من إنشاء محمد ﷺ، فمن ثم عليهم أن يقدموا كتاباً كالقرآن المجيد بحيث يحوي الميزات الآتية:

- (١) أن يلقي ضوءاً على كل موضوع جوهرى يتعلق بالدين.
- (٢) ينبغي أن تكون معالجته لكل هذه المواضيع شاملة ومتضمنة هداية مفصلة لكل مسألة.
- (٣) أن يكون مُنَزَّهاً عن الشر ولا يحوي إلا ما هو خير.
- (٤) ألا يستهدف الخير لأمة بعينها، وإنما ينشد كل ما هو خير للإنسانية جمعاء، كما يحوي الهداية التي تناسب جميع الطبائع والأوضاع، وكذلك جميع الظروف والأحوال.

ولكن عندما نزل هذا التحدي لم يكن القرآن المجيد قد نزل كله بعد. فالكفار إذن لم يطالبوا آنئذ أن يأتوا بنظير للقرآن المجيد كله، أي بما نزل وما سوف ينزل. وعلى ذلك يتضح أن هذا التحدي يتضمّن نبوءة بأن الكفار لن يقدرُوا على الإتيان بمثل ما قد نزل من القرآن المجيد، ولا بمثل ما سينزل من بعد. ثم إن التحدي ليس بقاصر على الكفار الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ فقط، وإنما يشمل المتشككين والمعترضين في كل زمان.

والتحدي الثاني هو ما تضمّنته الآية ١٤ من سورة هود. وهنا كان الاعتراض بأن الرسول ﷺ لم يأت بكنز ولم تنزل عليه الملائكة، فجاء التحدي مناسباً لنوع الاعتراض، فدعى الكفار لأن يأتوا بسور مشابهة ويقدموها باعتبار أنها من كلام الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ

﴿قَاتُوا بَعْشِرَ سُورٍ مِّثْلِهِ مِفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (هود: ١٣-١٥). ويلاحظ أن قول الله تعالى: ﴿قَاتُوا بَعْشِرَ سُورٍ مِّثْلِهِ مِفْتَرِيَاتٍ﴾ في الآية، يشير إلى إنكار الكفار نزول الملائكة على رسول الله ﷺ، ف قيل لهم: إذا كان المَلَكُ لم ينزل عليه حقاً، وأن دعواه بتلقي الوحي الإلهي عن طريق الملائكة مفتراة، فما عليكم إلا أن تقدّموا من جانبكم عشر سور مفتريات، وادّعوا مثله أنها نزلت عن طريق الملائكة، ثم انظروا ماذا ستكون عاقبتكم. فإذا كانت شجاعتكم قد خذلتكم عن أن تفتروا على الله تعالى هذه الفرية، فكيف تتصورون إمكان إقدام الرسول ﷺ على ارتكاب ذلك الإثم والافتراء على الله جل وعلا. ثم إذا كان قد جرّؤ على الافتراء على الله ﷻ، فلماذا ظلّ بمأمن من العقاب الإلهي؟

والسبب في أن الكفار قد طولبوا في هذه الآية بالإتيان بعشر سور، لا القرآن كله، يرجع إلى أن الأمر لم يكن يتعلق بسمو القرآن الكريم وكماله من جميع الوجوه، وإنما يتعلق بذلك القدر منه فقط؛ فقد كان الكفار يعترضون بأن بعض أجزاءه فقط هي المعيبة كما هو ظاهر من قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ ومن ثم لم يطالب الكفار بأن يقدّموا كتاباً متكاملًا كالقرآن المجيد كله، بل طولبوا بعشر سور فقط بدلاً من ذلك القدر من القرآن الذي قالوا بأنه معيب؛ وذلك حتى يوضع مدى صدق كلامهم موضع الامتحان.

وفيما يتعلق بتحديد عدد السور من أجل الغرض المشار إليه، فينبغي أن يلاحظ أن ذلك العدد؛ أي العشرة، من الأعداد التامة في اللغة العربية. ولما كان الغرض هو نقض دعوى الكفار بأن أجزاءً معيّنة من القرآن الكريم معيبة، لذلك ترك للكفار حرية اختيار ما شاؤوا أن يبذلوه من جهود لتأييد دعواهم، دون تحديد قدر هذه الجهود، التي يصح أن تبلغ العشرة. فمطالبته الكفار بالإتيان بعشر سور مفتريات لا تعني إذن أن بمقدورهم أن يفتروا عدداً أقل من هذا؛ وإنما تعني إتاحة عدة فرص لهم لتأييد صدق دعواهم.

ومجمل القول إنه عندما كان الأمر يتعلق بسمو القرآن المجيد ككتاب كامل، جاء التحديّ (الإسراء: ٨٩) متضمناً مطالبته المعترضين بكتاب يضاهيه. ولكن عندما كان الأمر يتعلق ببعض أجزاء القرآن المجيد، اكتفى بمطالبته المعترضين بأن يختاروا عشرة أجزاء باللغة النقص من وجهة نظرهم، ويقدموا قدراً يباريها من إنشائهم.

والآية الثالثة التي تتضمن التحديّ هي الآية ٣٩ في سورة يونس، حيث يعلن القرآن المجيد بأنه لا نظير له. وقد طوب الكفار بأن يأتوا بسورة واحدة فقط، وذلك لأن الموضوع هنا يختلف عن الموضوعين السابقين. فالتحديّ هنا قدّم تأييداً لدعوى القرآن المجيد نفسه، لا لمناسبة دحض اعتراض تقدم به الكفار. وبيان ذلك أن الآيات من ٣٢ إلى ٣٦ قد تضمنت القول بأن الله تعالى هو صاحب السلطان المطلق على كل شيء. وتأييداً لذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ٣٨)، أي أن القرآن المجيد يشمل المزايا التالية:

- (١) إنه يحتوي على التعاليم التي يعجز البشر عن ابتداعها من عندهم.
- (٢) جاء مصداقاً للنبوءات التي تضمنتها الكتب السابقة.
- (٣) تضمن إتمام ما كان من نقص في تعاليم الكتب السابقة.
- (٤) أن كلام الله تعالى بين دفتي ذلك الكتاب مصون بحيث لا يقدر أي إنسان على أن يحرفه أو يتلاعب فيه.
- (٥) أن تعاليمه موجهة إلى الناس جميعاً في جميع الأزمان.

وتعزيزاً لهذه الدعوى قدّم التحديّ في الآية التاسعة والثلاثين للمنكرين أو المتشككين ليأتوا بسورة واحدة فقط تتضمن تلك المزايا بالكيفية التي وردت في هذه السورة؛ أي سورة يونس.

تتضمن الآيتان ٣٤، ٣٥ من سورة الطور أقل قدر من التحديّ، إذ طوب الكفار بأن يأتوا بحديث واحد أو دعوى واحدة تشبه أي حديث أو دعوى من القرآن المجيد.

وقد عُرض هذا الطلب كتعزيز أيضاً لدعوى أعلنها القرآن المجيد، لانتقاض اعتراض من جانب الكفار، ولذلك كان الطلب ينصب على قدر يسير. والدعوى المشار إليها قد تضمنتها الآيات الأولى من السورة، إذ تقول إن الوحي القرآني الذي وُعدت به الإنسانية عن طريق موسى عليه السلام على جبل سيناء سوف يستمر تدوينه وتلاوته ونشره، كما سيستمر ازدياد أعداد متّبعيه؛ ولن يقتصر أتباع القرآن على كونهم من عامة الناس فقط، بل سيكون منهم رجال من ذوي المكانة في المجال الروحي والمجال الدنيوي. كما أن نبع العقيدة الجديدة سيظل مصدر شراب الحياة الأبدية لجميع أمم العالم، حتى إن تحقق هذه الأنباء سينطوي على البرهنة بأن هناك يوماً للحساب. بعد ذلك يتحدّى القرآن المجيد الكفار فيقول إنهم إذا كانوا يظنون أن الوحي القرآني مفترى، فعليهم إذن أن يقدموا أي نبأ غيبي كذلك الذي سبق ذكره، أي قبل الآيتين ٣٤، ٣٥ من السورة. وهو تحدٍّ غير مشروط أو محدد الكيفية. فليس على الكفار أن ينسبوا ما يقدمونه إلى الله تعالى، ولا يشترط في النبوءة التي يقدمونها أن تكون من عندهم، بل يمكنهم أن يستعيروها من أي كتاب آخر. ثم إنهم غير مطالبين بأن يأتوا بنبوءات تماثل عدد نبوءات القرآن المجيد وهي كثيرة جداً، وإنما يكفي أن يأتوا بنبوءة واحدة، تشبه تلك التي ذكرت في مستهل سورة الطور. وبعد ذلك التحدي يقال لهم إن هذا الطلب يستعصي عليهم إجابته، ذلك لأن الذات الوحيدة التي بمقدورها أن تحققه هي خالق السماوات والأرض، ومالكها بما فيها من كنوز، والذي لا تقتصر قدرته على العلم فحسب، بل له السيطرة على الغيب. وهذا التحدي صالح أيضاً لكل زمان.

والتحدي الخامس هو ذلك الذي تضمنته الآية التي نحن بصدد شرحها، وهنا كما في سورة يونس، الآية ٣٩، لم يكن الغرض من الطلب نقض اعتراض ما ساقه الكفار، وإنما كان تعزيزاً لدعوى ساقها القرآن المجيد ذاتياً. وفيما يختص بالتحدي الوارد في سورة البقرة، فقد وردت الدعوى التي ساقها القرآن المجيد في الآية: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٣). وبالمثل فيما يتعلق بالتحدي الوارد في سورة يونس، فقد جاءت الدعوى في الآية: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ

الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ٣٨)، وهذا يدل على أن ذلك النوع من التحدي الذي يطالب بالإتيان بسورة واحدة ذو علاقة خاصة بقول الله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وجدير بالملاحظة أن دعوى القرآن الكريم في سورة البقرة تقول بأن ذلك الكتاب هدى للمتقين، ومعنى ذلك أن القرآن المجيد يسمو بالمتقين إلى أعلى مراتب الرقي الروحاني. ونخلص من ذلك إلى أن الطلب الذي في سورة البقرة يتحدى الكفار بأنهم إن كانوا يشكون في أن القرآن المجيد مُنَزَّل من عند الله تبارك وتعالى، فعليهم إذن أن يقدموا سورة تضاهي ما للقرآن المجيد من تأثير روحاني على متبعية.

إن من بين خصائص القرآن المجيد أن الإنسان إذا ما قرأ أي سورة من سوره فإنها تبعث في النفس تأثيراً رقيقاً سامياً. ومن ثم فإنها بدلاً من أن تثير الشكوك تطردها، وتعلو بالإنسان إلى ذلك المستوى الذي لا تستطيع أن ترقى إليه الشكوك، وذلك مستوى الصلة بالله ﷻ، وهو درجة لا يمكن بلوغها إلا لمن تدبر القرآن المجيد وحده، الذي لا يدانيه في هذا المضمار أي كتاب آخر.

إن ذلك الشرح الذي سقناه آنفاً يوضح أن الأنواع المختلفة لتحدي القرآن المجيد للكفار بأن يأتوا بمثله، جميعها واضحة التحديد. وكل تحدٍّ مستقل بذاته عن التحديات الأخرى، وإن كانت تشترك كلها في كونها صالحة لكل زمان. وليس هناك تفاضل بين صنوف التحدي هذه، ولا يلغي واحد منها غيره. إن الفهم الخاطئ الذي يقول بأن كل ألوان التحدي واحدة متماثلة، يرجع إلى فكرة خاطئة، وهي أن التحدي في مختلف المواضع يتعلق بطلاوة أسلوب القرآن المجيد وبلاغته، ولكن ذلك ليس صحيحاً. إن كل تحدٍّ في أي موضع من المواضع الخمسة المشار إليها آنفاً لا يشابه غيره، ولا يتفق الطلب في كل موضع مع غيره في المواضع الأخرى. فكل تحدٍّ يتضمن طلباً معيناً واضحاً ومستقلاً بذاته، وتبعاً لطبيعة كل طلب سُئل الكفار أن يقدموا ما يماثل القرآن الكريم كله أو ما يماثل بعضه.

ويبقى بعد ذلك سؤال، وهو هل هذه المطالبات تتضمن أيضاً تحدي الكفار بأن يأتوا بما يناظر القرآن المجيد في طلاوة أسلوبه وبلاغته؟ والرد على ذلك هو بالإيجاب على وجه التأكيد. ولكن ذلك الطلب يرد بصورة غير مباشرة. ذلك لأن الآراء السابقة لا يمكن التعبير عنها إلا في أسلوب سام أيضاً. ولما كان القرآن المجيد يحتوي على أفكار بالغة سمو، فمن ثم لم يكن هناك بد من أن تكون وسيلة نقل هذه الأفكار عن طريق استخدام لغة بالغة سمو أيضاً في جمال بلاغتها ونقاء أسلوبها، وإلا لكانت الناحية الموضوعية في القرآن المجيد عرضة لأن تبقى محفوفة بالغموض والشك؛ الأمر الذي ينقص من جمال القرآن المجيد المتكامل من جميع النواحي. وعلى ذلك فإن التحدي الذي وجه به الكفار على اختلاف صوره وأغراضه، يتضمن أيضاً التحدي بالإتيان بما يماثل جمال أسلوبه وفخامة بلاغته.

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

الحجارة: جمع ومفردا الحجر، مشتقة من حَجَرَ. يقال حَجَرَهُ أي منعه. وحجر عليه الأمر أي حرّمه. وحجر الطين وتحجّر أي تصلّب. ويطلق على الفضة والذهب معاً «الحجران». وقد يسمى الفحم المعدني Coal - لا فحم الخشب Charcoal - حجراً أيضاً. ومن معاني الحجر أيضاً الصخر أو الكتلة العظيمة من الصخر. وقد يراد بالحجارة الأوثان المنحوتة من الصخر أو المصنوعة من المعدن على سبيل المجاز (أقرب الموارد وتفسير الكشاف ومعجم لين).

أَعِدَّتْ: أَعَدَّ مشتقة من عَدَّ. يقال عَدَّ الدراهم أي حسبها وأحصاها. وعددت زيدا صادقا أي حسبته وظننته. وأعدّه لأمر كذا أي هيّأه وأحضره (أقرب الموارد).

تقول الآية إن أعداء الإسلام لا يستطيعون أن يقدموا ما يماثل القرآن المجيد كما طُلب منهم في الآية السابقة. فعليهم إذن أن يفهموا أن هذا هو كلام الله تعالى، ومن ثم فهم لا يناهضون إنساناً ما، وإنما يناهضون الله تعالى بذاته، فحريّ بهم أن يستعدوا لذلك المصير الذي أعد لأولئك الذين يناهضون المشيئة الإلهية.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ يعني أن الكفار يعلمون أن لا قدرة للأوثان على أن توحى إليهم بشيء، ولذلك لن يطلبوا العون منها.

هذا وإن لفظة ﴿وَقُود﴾ في الآية قد تؤخذ بمعنى مجازي، وفي هذه الحالة يكون معناها أن عذاب جهنم ينشأ عن عبادة الأوثان، ومن ثم تكون الأوثان بمنزلة الوقود لنار جهنم باعتبار أنها تؤجج تلك النار.

كذلك لفظتنا ﴿النَّاسُ﴾ و﴿الْحِجَارَةُ﴾ يمكن القول بأنهما تشيران إلى صنفين من أهل جهنم. فلفظة ﴿النَّاسُ﴾ كما يؤخذ من أصل اشتقاقها تتضمن معنى المحبة، وعلى ذلك يمكن القول بأن لفظة ﴿النَّاسُ﴾ في الآية يُقصد بها أولئك الكفار الذين يجوز أن نعتبرهم من الناس، لأنهم لا زالوا يكتّون قدراً من محبة الله تعالى. وأما الصنف الآخر فقد لقبوا بالحجارة حيث لم تبق فيهم أي محبة لله جل وعلا. ومثل هؤلاء الكفار ليسوا حقاً بأفضل من الحجارة.

ومع أن الآية تتضمن ذكر النار والحجارة، إلا أنه يجب ألا يغيب عن البال أن الحياة الآخرة ليست مادية. والواقع أن التعبيرات الواردة في القرآن المجيد بشأن أنواع الثواب والعقاب الأخروي يجب ألا تُحمل على معناها الحرفي، وأن تؤخذ بمعنى مجازي. وجدير بالملاحظة أيضاً أن العقاب الأخروي ليس بدائم. فالنار حسب المفهوم الإسلامي ليست باقية، وما هي إلا وسيلة للإصلاح، وسيأتي بيان ذلك في موضعه.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا
مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ
قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

بَشِّرَ: فعل أمر مشتق من بَشَرَ. يقال «بَشَّرَ الأَديم» (أي الجلد المدبوغ) وغيره أي قشره. و «البشرة» ظاهر الجلد. و «البشرى» الخبر يحدث في البشرة تغييراً، وهذا يكون للخبر السار كما يكون للحزن أيضاً، ولكن غلب استعماله فيما يفرح. وفي تاج العروس: «إذا أطلقت اختصت بالخير». وجاء في القرآن المجيد في حق الكفار: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢٢). وقد لُقب كل نبي في القرآن المجيد بأنه بشير ونذير؛ ذلك لأنه يخبر المؤمنين بما يسرهم وينبئ الكفار بما يسوؤهم (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

الصَّالِحَات: مفردها «الصالح» مشتقة من صَلَحَ. صلح الشيء، ضد فسد، أو زال عنه الفساد، ويقال «هذا يصلح لك» أي يوافقك أو يناسبك أو يفيدك (أقرب الموارد). وعلى ذلك فلفظة ﴿الصَّالِحَات﴾ تُطلق على الأفعال والأعمال التي ليست طيبة فحسب وإنما هي أيضاً ملائمة أو مناسبة أو مفيدة (راجع أيضاً شرح مفردات الآية رقم ١٢ من السورة).

جَنَّات: المفرد جنّة، مشتقة من «جَنَّ». يقال «جَنَّتْ الليل» أو «جَنَّ عليه» أو «أجَنَّتْ» بمعنى ستره. وكل ما سَتَرَ عنك فقد جَنَّ عنك. والجنّة الحديقة ذات الشجر الذي يستر أرضها، أو بستان الفاكهة، أو الحديقة الغناء النضرة ذات الزروع الزاهرة (أقرب الموارد ومعجم لين). فدار الثواب الأخروي قد سُميت إذن بالجنّة لأن رحمة

الله تبارك وتعالى خفيّة عن عين الإنسان؛ أو لأنّ الجبّة كالحديقة، وتمثل أشجارها الإيمان الصادق كما تمثل أنهارها الأعمال الطيبة.

الأنهار: المفرد نهر، والفعل نَهَرَ. يقال «نهر الماء» أي جرى في الأرض وجعل له نَهْرًا. وكل كثير جرى فقد نَهَرَ. والنهر الماء الجاري المتسع. ثم أطلق النهر على الأخدود مجازًا للمجاورة (أقرب الموارد).

أزواج: المفرد زوج. والزوج كل ما معه آخر من جنسه. والعامة تخطئ فتظن أن الزوج اثنان، وليس ذلك مذهب العرب. أي أن الزوج واحد من اثنين معًا، حتى لو كانا ذكرين أو أنثيين (أقرب الموارد). ومن معاني الزوج أيضًا الرفيق (معجم لين).

خَالِدِينَ: مشتقة من خَلَدَ. يقال «خلد بالمكان» أي أقام. و«الخلود» هو تَبَرُّي الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، كقولهم للأثافي خوالد (الأثافي جمع أثفية، وهو الحجر يوضع عليه القدر)، وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها (أقرب الموارد ومفردات الراغب). فالخلود إذن لا يشترط فيه الدوام.

التفسير:

تتضمّن هذه الآية وصفًا مجملًا للنعم التي سيلقاها المؤمنون في الآخرة. وقد أثار النقاد الذين يتعرّضون للإسلام كل ما في جعبتهم من صنوف النقد فقالوا:

(١) إن النعيم الموعود هو مجرد ترغيب في الجشع، والعقيدة التي تقوم على ذلك لا تستحق أن تسمى عقيدة.

(٢) يبعد القرآن الكريم بنعم ماديّة، وهذا غير مقبول.

(٣) إذا كانت النعم الأخروية ستكون مادية، فمن الواجب إذن أن يكون هناك بعثٌ لجسم الإنسان المادي؛ وهو غير معقول كلية، ذلك لأن جسم الإنسان في

هذه الحياة الدنيا يتحلل، ويدخل جسم الشخص الواحد في عملية بناء أجسام أخرى عديدة؛ فلمن يُعطى ذلك الجسم في الآخرة.

(٤) وَعَدَ الْمُؤْمِنُونَ بِزَوَاجَاتٍ فِي الْآخِرَةِ، فَكَانَ الْعِلَاقَاتُ الْجَنَسِيَّةُ سَوْفَ تَسْتَمِرُّ فِي الْآخِرَةِ. والترغيب بالناحية الجنسية مفروض فيها أن تكون لغرض استمرار النوع في هذه الحياة الدنيا، ومن ثم فليست هناك أي حكمة لوجود العلاقات الجنسية في الآخرة.

(٥) الْجَنَّةُ، كما جاء في القرآن الكريم، يبدو أنها مكان للحياة المترفة والمتعة الحسية. وعلى ذلك فإن المفهوم الإسلامي للحياة الآخورية مجرد تماماً من الروحانية.

إن هذه الاعتراضات ترجع إلى العجز عن فهم تعاليم الإسلام الحقيقية. فقد أوضح القرآن المجيد بجلاء أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا لا يمكنه أن يدرك النعم الآخورية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٨). ويعني هذا أن كل ما ورد في التنزيل العزيز عن الجنة أو النار، هو على سبيل المجاز ولا غير. أي أن جميع الأوصاف المتعلقة بالآخرة ينبغي ألا تُحمل على المفهوم المعتاد في هذه الحياة الدنيا. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ» ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. (البخاري - كتاب بدء الخلق). فلو كانت النعم الآخورية تماثل المتع الدنيوية لكان بمقدورنا أن نتصورها وندرك كيفيتها إلى حد ما. ومن ثم فإن النعم الآخورية لا بد وأن تكون مختلفة تمام الاختلاف عن النعم الدنيوية.

كذلك جاء في موضع آخر من القرآن المجيد: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ (الرعد: ٣٦). ولأن ثمار الجنة وأنهارها سوف تكون دائمة، فلا بد إذن أن تكون شيئاً آخر غير مادي. وورد أيضاً في القرآن المجيد: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا

من كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (محمد: ١٦)، وبديهي أن كل ذلك لا يعني أشياء مادية. ووصفت خمر الجنة في القرآن المجيد بأنها: ﴿بَيْضَاء لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ﴾ (الصافات: ٤٧، ٤٨)، كما ورد في شأنها: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢٢). وقيل في موضع آخر عن شراب الجنة أيضًا: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (المطففين: ٢٨). وجاء في وصف الكأس التي تتناقلها أيدي أهل الجنة: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ﴾ (الطور: ٢٤). فخمر الجنة ليست شرابًا طاهرًا في ذاتها فحسب وإنما هي مُطَهَّرَةٌ أيضًا، وجميع خواصها وصفاتها على العكس من طبيعة الخمر الدنيوية التي جاء في شأنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجُسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١ و٩٢). ويثبت من هذا أن خمر الدار الآخرة تختلف جدًّا عن الخمر الدنيوية، فهي شراب طاهر، ويظهر شاربيها، وهي ليست بشيء مادي.

والواقع أن نعم الجنة لا تشترك في أي شيء مع ما يقابلها من نعم الدنيا إلا في الاسم فقط، وهذا أيضًا هو رأي ابن عباس رضي الله عنه - وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم.

وهنا قد يقال: إذا كان الأمر كذلك فلماذا سُميت نعم الجنة بأسماء النعم الدنيوية المادية؟ والجواب على ذلك هو أن الإسلام جاء للناس كافة، وهو لا يقتصر في الخطاب على ذوي المدارك العالية وإنما يخاطب غيرهم أيضًا. ولذلك فهو يستخدم ألفاظًا بسيطة كي يفهمها جميع الناس. هذا وقد كان من دأب الكفار أن يقولوا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرّم أطايب الدنيا على متّبعيه، ومن ثم فعندما توصف النعم التي أُعدّت للمؤمنين، استخدم الله تعالى أسماء الأشياء التي تعتبر عادة من خيرات هذه الدنيا، مع الإشارة إلى أن المسلمين سوف ينالونها في الآخرة، وأنها سوف تكون على حالة أفضل. فالماء في هذه الدنيا يتغير ويصبح آسنًا، ولكن المؤمنين في الآخرة سوف يجدون ماء لا يتغير. والحدائق من النعم الدنيوية، غير أنها تجف وتذوي،

ولكن الحقائق التي سوف ينالها المؤمنون ستبقى نضرة يانعة دائماً أبداً. وكان الكفار يشربون الخمر المخدرة التي تجعلهم سُكارى وتعطل حواسهم، وأما الخمر التي سوف ينالها المؤمنون في الجنة فهي طاهرة ومطهرة. وهكذا نرى أن الغرض من استعمال الألفاظ المألوفة كان لإبراز ذلك التباين المهم بين النعم الدنيوية وما يقابلها من نعم الآخرة. وفيما عدا ذلك فليس هناك أي شيء مشترك بين هذه وتلك إلا التسمية فقط.

ولعل من المناسب أن نضيف هنا أنه وفقاً للإسلام لن تكون الحياة الآخروية حياة روحية خالصة، بمعنى أنها ستتكوّن من حالة ذهنية ولا غير ذلك. كلاً؛ وإنما سيكون هناك جسم ما، ولكنه غير مادي، ويمكن للإنسان أن يتصور ذلك إلى حد ما من ظاهرة الأحلام. ففي التزليل العزيز يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٣). فالموت والنوم متشابهان، والفرق بينهما هو أنه في حالة الموت تنفصل الروح عن الجسم انفصالاً تاماً دائماً؛ وأما في حالة النوم فيكون الانفصال جزئياً ولمدة محدودة. والمناظر التي يشاهدها الإنسان في الحلم لا يمكن أن نقول بأنها عقلية بحتة أو روحية خالصة، لأن الإنسان له أيضاً جسم في الأحلام، ويجد نفسه أحياناً بين الحقائق والأنهار ويأكل الفاكهة ويشرب اللبن. ومن العسير أن نقول بأن محتويات الأحلام ليست سوى حالات ذهنية. فاللبن الذي يستمتع به الإنسان في الحلم لا شك في أنه تجربة حقيقية، وعلى ذلك لا يمكن أن نقول بأنه هو هو ذلك اللبن المادي الموجود في هذه الحياة الدنيا. والأحلام لها معناها الخاص. فتناول الفاكهة (المانجو) مثلاً يرمز إلى الولد الصالح أو القلب المتقي، وتناول العنب يعني الحب وخشية الله تعالى، وتناول الموز يعني وضعاً قانونياً جيداً يسهل الحصول عليه. ومجمل القول إن النعم الروحانية في الدار الآخرة لن تكون مجرد تحقق ذهني لما هو مألوف لهبات الله تعالى التي ألفناها في هذه الحياة

الدنيا. والواقع أن ما نتمتع به في هذه الحياة الدنيا ما هو إلا تمثيل للهبات الحقة الفعلية من لدن الله تعالى التي سيجدها الإنسان في العالم الآخر.

إن الحقائق تمثل الإيمان، والأنهار تمثل الأعمال. وكما أن الحقائق لا تُغْنَى بدون الأنهار، فكذلك شأن الصلة بين الإيمان والأعمال الطيبة. ولذلك فإن الإيمان والأعمال لا بد من أن يتلازما كي تتحقق النجاة. ففي العالم الآخر سوف تُذكر الحقائق الناس بأعمالهم الطيبة في هذه الحياة الدنيا، وسوف تُذكرهم الأنهار بأن أعمالهم الطيبة التي قاموا بها لم تذهب سُدىً.

ثم إن جريان الجداول والأنهار خلال الحقائق يتضمّن أيضاً أن كل شخص في الجنة سيكون له حظه أو نصيبه الخاص من المتعة، وهو نصيب لا حد له. في هذه الحياة الدنيا تجري العادة بأن يقوم الجدول الواحد بريّ عدّة حقائق، ومن ثم ينشأ احتمال حدوث نزاع بين أصحاب هذه الحقائق، ولكن في العالم الآخر سيكون لكل جنة (أي حديقة) جدولها الخاص الذي يرويها وحدها. وتتضمّن الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (يونس: ١٠).

ومن الخطأ أن يقال إن قول الله تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ في الآية التي نحن بصدددها يعني أن المؤمنين سوف يُعطون فاكهة مماثلة لتلك التي كانوا يتمتعون بها في هذه الحياة الدنيا. فكما أوضحنا آنفاً ليست فاكهة الدنيا وفاكهة الآخرة شيئاً واحداً. والواقع أن فاكهة الآخرة سوف تكون صورة لصفات إيمان المؤمنين، وعندما يتناولونها سيعرفون ويتذكّرون أنها ثمرة إيمانهم في الحياة الدنيا، وعرفاناً لذلك الفضل يقولون: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ قد يعني أيضاً: هذا الذي وُعدنا به من قبل، وحسب هذا المفهوم يكون المعنى، هذا الذي وُعدنا في الحياة الدنيا بأن نُعطاه.

ولفظه ﴿مُتَشَابِهًا﴾ تشير إلى التشابه بين فرائض العبادة التي قام بها المؤمنون في الحياة الدنيا وثمار الجنة. أي أن أعمال المؤمنين في هذه الحياة الدنيا سوف تبدو كالثمار في الآخرة. ويتوقف قدر جودة هذه الثمار على درجة إخلاص الإنسان في عبادته وأدائها على وجهها الأكمل. ومن ثم فإن بمقدور الإنسان أن يزيد في حسن ثماره وجودتها.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ يُفهم منه أيضاً أن كل صنف من الطعام الأخروي سوف يكون ملائماً تماماً للصنف الآخر. وهذا التوافق في الغذاء ينتفي معه احتمال أي مرض روحاني. كذلك يُفهم أيضاً من قول الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أن طعام الجنة سوف يكون ملائماً لجميع أهلها، ومناسباً لكل فرد، وعلى قدر مقامه ومدى تقدمه الروحاني.

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني أن المؤمنين سوف يقيمون في الجنة بصفة مستمرة ولن يكونوا معرضين لأي تغيير أو تلف. إن الإنسان يموت لأنه يعجز عن تدبير الغذاء الذي يلائمه تمام الملائمة من جميع النواحي، أو لأنه يتعرض للقتل على يد شخص آخر. ولما كان الغذاء في الجنة يناسب كل فرد بصورة كاملة، ولما كان الإنسان سوف يعيش وسط أصحاب طاهرين مسلمين، فمن ثم لا يصيبه التلف أو الموت.

هذا وسوف يكون للمؤمنين أيضاً أزواج مطهرة في الجنة. إن الزوجة الطيبة تثبت السرور والراحة، والمؤمنون في هذه الحياة الدنيا يجتهدون في الحصول على الزوجات الطيبات، وستتحقق لهم هذه الصحبة الطيبة الفاضلة في الآخرة، غير أن متع الجنة ليست مادية.

ونورد فيما يلي نموذجاً يعتبر مثلاً لتعليقات المستشرقين المسيحيين على هذا الموضوع، وهي مقتطفات من كتاب «حياة محمد» بقلم السير وليم موير حيث قال: «من الملاحظ إلى حد كبير أن إشارات القرآن إلى هذه الجنة الشهوانية يكاد ينحصر

أغلبها في الفترة التي كان يحيا فيها محمد حياة عفيفة معتدلة مع زوجة واحدة تبلغ من العمر ستين سنة، بصرف النظر عن نزوع رغباته. وجدير بالالتفات أن السور المدنية التي تمثل قدراً ضخماً من الوحي الذي استغرق عشر سنوات بعد الهجرة لا يرد فيها ذكر النساء كمتعة في الجنة إلا مرتين، وكان التعبير عن ذلك في كل من الموضعين بصورة بسيطة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾. فهل خبا تشوّق محمد بعد أن بلغ حد الإشباع من هذه المتعة، أم أن زيادة اتصاله بالمبادئ اليهودية والأخلاقيات قد أوقفت نمو براعم الشبق في الوحي، وغطت بصورة مضطربة صورة الجنة الحسية التي رُسمت في قلبه؟

من العجيب حقاً أن يميل التفكير المجرد بهؤلاء النقاد المسيحيين الذين يتظاهرون بالثقافة والعلم إلى مهاجمة معلم يُكنّى له الملايين العديدة من الرجال والنساء في مختلف بقاع العالم أعمق التبجيل والإخلاص. ويبدو أن هؤلاء النقاد قد تجرأوا على فعل ذلك لأن للمسيحيين اليوم الغلبة السياسية على المسلمين، ولقد أنستهم بضعة قرون من السلطان أن المسلمين حكموا العالم المسيحي ألف سنة بالتمام، ولم يقل المسلمون طوال هذه المدة شيئاً يمس المسيح ﷺ، وقد احترموا شعور المسيحيين في الوقت الذي لم يكن لديهم أي شيء يحميمهم وكانوا أضعف حالاً من المسلمين اليوم. إن السير ولیم مویر يتجاهل ببساطة أن هناك أشياء أخرى عدا النساء أيضاً قد ذكرت في السور المكينة، ولم يُشر إليها في السور المدنية. ففي السور المدنية نجد أن في الجنة خمر وعسل وأنهار من لبن، فهل كان الرسول ﷺ محروماً حتى من هذه الأشياء وهو في مكة فاستعاض عن ذلك بتخيّل وجودها في الجنة؟ ألا ما أسخف هذا القول! وفي رأيي أن النبي ﷺ كان أيسر حالاً وهو في مكة عما كان عليه وهو في المدينة. فقد كانت زوجته الغنيّة السيدة خديجة على قيد الحياة في ذلك الوقت وقد وضعت مالها كله تحت تصرّفه. ولما انتقل إلى المدينة كانت معظم أمواله قد أنفقت في الأعمال الطيبة، فلم يبق له إلا النّزر اليسير الذي يعيش عليه. فإذا كان يتخيّل

صورة للجنة لتعويض ما كان يفتقر إليه لكان من الأجدر أن تظهر هذه الصورة في المدينة لا في مكة.

ثم لو فرضنا جدلاً أن السير وليم موير كان مصيباً في زعمه، ألا يحق لمن ينتقدون المسيحيين أن يقولوا بالمثل... أن يسوع تخيل نفسه ملكاً على اليهود لأنه كان مضطهداً في كل مكان؟ وألا يحق القول أيضاً بأن يسوع كان محروماً من الحياة الجنسية ولذلك لازمته وسيطرت عليه فكرة مجيئه مرة أخرى إلى هذه الدنيا، وتخيل أنه سيتخذ ما لا يقل عن خمسة عذارى كزوجات له؟ وها هو نص ما ورد على لسانه في العهد الجديد: «حينئذ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس. وكان خمس منهن حكيماً وخمس جاهلات. أما الجاهلات فأخذن مصابيحهن ولم يأخذن معهن زيتاً. وأما الحكيماً فأخذن زيتاً في آنيتهن مع مصابيحهن. فقالت الجاهلات للحكيماً أعطينا من زيتكن فإن مصابيحنا تنطفئ. فأجابت الحكيماً قائلات: لعله لا يكفي لنا، ولكن اذهبن إلى الباعة وابتعن لكن، وفيما هن ذاهبات لابتعن جاء العريس، والمستعدات دخلن معه إلى العرس وأغلق الباب» (إنجيل متى، الفقرات من ١-١٠). أليس العريس المحاط بسرب من العذارى هو الجنة التي تخيلها يسوع؟

ولنعد إلى الموضوع الأصلي. لقد كان الكفار في مكة يعيرون المسلمين لفقرهم، ويقولون لهم ليس لديكم شيئاً مما لدينا من أطياب، وتعقيباً على قول الكفار قال الله تعالى إن الجزاء الذي سوف يناله المؤمنون في الجنة سيكون أفضل مما لديهم. وعندما استقر الإسلام في المدينة ترك الكفار هذا التقريع، ومن ثم ترك الله ﷺ ذكر الأوصاف التي كانت توصف بها الجنة من قبل. ومع ذلك فإن هذه الأوصاف بمعناها العميق لا زالت باقية لكل زمان.

وفضلاً عن ذلك فإن الأمر في مكة كان يستوجب شرح وتوكيد أساس العقيدة الإسلامية، ولهذا نجد قدراً كبيراً في تفصيل العقيدة في السور المكية. ولما كانت

الجنة مأوى المؤمنين في الآخرة تعتبر ركناً هاماً من أركان العقيدة، لذلك جرى تناولها بالتفصيل في السور المكية. وأما في المدينة فقد كان الأمر على خلاف ذلك، إذ دعا الحال إلى الاهتمام بالمسائل العملية، كالأخلاقيات والتشريع الاجتماعي، ولذلك وُجّه اهتمام أكبر لهذه المسائل في السور المدنية. ثم إن السور المكية تضم أيضاً أوصافاً للجهنم، فما هو ذلك الغرض الذي يتمثل في أوصاف جهنم؟

والرأي الآخر الذي يعرضه السير وليم موير هو أن الرسول ﷺ غير نظرته إلى الجنة نتيجة لما تأثر به من اليهود والمسيحيين في المدينة. ولكن السير وليم موير نسي أن النقاد المسيحيين يجمعون في نقدهم على أن عبداً مسيحياً من مكة علم الرسول ﷺ الأسفار النصرانية، فأدّج ما حوته في القرآن المجيد. والسير وليم موير نفسه يدّعي أن الرسول ﷺ تعلم المسيحية من «صُهيّب»، وهو عبد رومي في مكة (ص ٦٧ من كتاب حياة محمد). فإذا كان الرسول ﷺ قد عرف تعاليم المسيحية وهو بمكة، فلم يكن بحاجة إذن لأن ينتظر حتى يبلغ المدينة لكي يتأثر من يهودها ومسيحييها. والواقع أن الأسفار اليهودية والمسيحية خالية من أوصاف الجنة. وقد كان اليهود والنصارى منكبين دائماً أبداً على الشؤون الدنيوية حتى إن كتبهم لم تقل شيئاً كثيراً عن الحياة القادمة. وكانوا يأخذون الوعود التي يعدّهم بها أنبياءهم على اعتبار أنها تتعلق بهذه الحياة الدنيا. وعلى ذلك فلا يمكن أن نتصور بأن يكون لهذه التعاليم تأثير على أي إنسان.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً
فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا

أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ
كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

يَسْتَحْيِي: مشتقة من «حَيَّ» ومعناها: (١) عاش ضد مات، أو فيه حياة. (٢) خجل أو خفر أو احتشم. والمصدر «حياء» ومعناه الخجل أو الخفر أو التواضع أو الاحتشام أو انقباض النفس عن شيء وتركه حذرًا من اللوم فيه. يقال «استحيا من كذا» أي امتنع منه أو انقبض عنه أو أبى أن يفعله بدافع العجب أو الاعتزاز بالنفس (معجم لين).

يُضِلُّ: مشتقة من «ضَلَّ» ضد اهتدى، أي جار عن دين أو حق أو طريق، وتكون أيضًا بمعنى أخطأ أو ضاع. ويقال «ضل سعيه» أي عمل عملاً لم يعد عليه بنفع. و«ضلَّ الرجل» أي هلك وصار ترابًا. و«أضل» صيغة المتعدي من ضلَّ. يقال «أضله» ضد هداه، أو بمعنى دفعه أو غيبه أو أضاعه أو أهلكه. و«أضله» أيضًا بمعنى وجده مخطئًا أو ضالًا أو ضائعًا .. إلخ. ويقال «أضله الله» بمعنى: (١) حكم الله تعالى بأنه كان مخطئًا أو ضالًا. (٢) أعرض الله تعالى عنه أو تركه فضلَّ (تفسير الكشاف ومعجم لين وأقرب الموارد). وقد يُراد بالضلالة الانهماك في سعي أو مطلب، أو يراد بها الإخفاق في بلوغ الفرصة، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ١٠٥). وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (الضحى: ٨).

الْفَاسِقِينَ: مفرداها الفاسق، مشتقة من فَسَقَ أي عصى وجار عن قصد السبيل. ورد في قوله تعالى: ﴿فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي ترك أمر الله، وعصاه. والفاسق اسم فاعل ومعناه الذي يتنكب الطريق السوي، أو يحيد عن الحق، أو يتجاوز حدود القانون أو يخرج عن حدود الطاعة. ويطلق هذا اللفظ عادة على من يعاهد نفسه على الطاعة أو اتباع أحكام القانون ثم يقصّر في ذلك (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

ذُكر في الآية السابقة أن خيرات الجنة لا تماثل خيرات الدنيا، ومن ثم قد يقال إنه إذا كان الأمر كذلك فما الداعي أصلاً لوصف الجنة؟ وهذه الآية تتضمن الرد على هذا السؤال؛ ذلك أنها تشير إلى أنه حتى لو كان تصوير القرآن المجيد للجنة والنار غير مطابق للواقع، إلا أنه لا يُنكر أن استعمال التمثيل يلقي ضوءاً على الحياة الآخرة ويساعدنا على تكوين فكرة عنها. لا شك في أن الله تعالى قد استخدم المجاز والتشبيه في وصف الجنة والنار، ومع ذلك فليس بمقدور أحد أن يقول بأن ذلك غير مُجَدِّ. فأساليب المجاز والتشبيه تستخدم في جميع اللغات، وهي أداة للتعبير عن عمق المعنى الذي يتعذر إدراكه بوسيلة أخرى. ولعل هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن للأذهان أن تستوعب عن طريقها الأفكار الخاصة بالأشياء التي تتعلق بالمجال الروحي. نعم، إن الألفاظ التي استخدمت في القرآن المجيد قد تكون بسيطة في ظاهرها كضالة البعوضة أو ما يفوقها في الصغر، ومع ذلك فهي تساعدنا على تصور الجنة. والمؤمنون يعلمون أن هذه الألفاظ قد استعملت على سبيل المجاز، ويحاولون إدراك مغزاها العميق. وأما الكفار فيتخذون من ذلك وسيلة لتصيد الخطأ فيها. وبذلك يزداد تماديهم في الخطأ والضلال.

والمعنى الحرفي لقول الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهَا كَثِيرًا﴾ هو «يُضِلُّ الكثيرين». ولكن معنى هذه العبارة في الآية هو كما ذُكر في شرح المفردات آنفًا - أن الله تعالى يحكم بأن الكثيرين قد ضلّوا، ذلك لأنه وإن كان الضلال ينشأ من الإنسان نفسه كما هو واضح من العبارة الأخيرة في الآية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، غير أن الله تعالى هو الحَكَم الأخير، وهو القاضي الذي يعلن حكمه بأن هذا كان من الضالين وذاك كان من المهتدين.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ
يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

ميثاق: مشتقة من «وَثَّقَ» أي قَوِيَ وَتَبَّتْ وكان محكمًا. و «أوثقه» ثَبَّتَهُ وأحكمه، أو قَيَّدَهُ وشدَّه بالوثاق أي بالقيد أو الحبل ونحوه (أقرب الموارد).

الْخَاسِرُونَ: مفردُها «خاسر» مشتقة من «خَسِرَ». يقال خسر التاجر أي وُضِعَ في تجارته ضد ربح. و «خسر الرجل» ضل وهلك. فالخاسر إذن يعني ذلك الذي تعرّض لخسارة أو يعاني من خسارة أو الضال. (أقرب الموارد ومعجم لين). قال تعالى: ﴿لِيَجْمَعَ كُفْرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٣)، فالتعبير ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ معناه الذين أهلكوا أنفسهم، وذلك قياسًا على معنى عبارة أخرى قريبة الشبه، وهي قوله تعالى: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ١٣١) (راجع مادة «سفه» في قاموس لسان العرب).

التفسير:

تُبين هذه الآية بعضًا من صفات الخاسرين، أي العصاة الذين ورد ذكرهم في الآية السابقة. وهذه الصفات هي أنهم ينقضون ما عاهدوا الله عليه، وثانيًا يقطعون الصّلات التي يأمر الله تبارك وتعالى بإحكامها، وثالثًا يشيرون في الأرض الاضطراب والفساد.

وفيما يتعلق بالصفة الأولى، فيجدر ألا يغيب عن البال أن العهد الذي ينقضونه قد أشير إليه في موضعين من التنزيل العزيز: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿الأعراف: ١٧٣﴾. والموضع الثاني: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَاتِيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَزْنَا قَالَ فاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨٢).

وفيما يختص بالصفة الثانية، فجدير بالذكر أن محبة الله تعالى تدوي في قلوب العصاة، وحتى لو نشأت في قلوبهم ذات مرة أي صلة بالله تعالى فإنهم لا يراعونها فتنقطع، إذ إن حبههم قاصر على الأشياء الدنيوية، وكل اهتمامهم موجه إليها. والصفة الثالثة: أي الإفساد في الأرض، تعني أنه حتى حبههم للعالم لا يتسم بطابع الإخلاص، إذ لو كانوا مخلصين في حبههم للعالم لسانوها من الاضطراب والسوء، ولكن الواقع أنهم يخلقون الاضطراب والسوء، ومن ثم فهم الخاسرون من جميع الوجوه.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا
فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

أَمْوَاتٌ: جمع مفرد «ميت» ومعناه: (١) زالت عنه الحياة. (٢) لا حياة فيه. أي أن كلمة «ميت» تُطلق على الشيء الذي لا حياة فيه أصلاً، كما تطلق على الشيء الذي فارقه الحياة. كذلك قد تُطلق لفظة «ميت» على من يعاني سكرات الموت أو قارب الموت ولكنه لم يمت بعد (معجم لين، وانظر شرح الآية ٢٠ من نفس السورة أيضاً).

أَحْيَاكُمْ: الفعل المتعدي «أحيا» مشتق من «حَيَّ» ومعناها عاش أو كان حياً. وأحياء: وهبه الحياة أو ردَّ عليه الحياة. فيقال مثلاً «أحيا الأرض» أي أخصبها بعد الجذب، و«أحياء» بمعنى أنقذه من الهلاك. و«الحياة» ضد الموت وتتضمن عدة معان: (١) صفة النمو كما في الحيوان والنبات. (٢) صفة الإحساس. (٣) صفة الإدراك. (٤) خلو البال من الهم والحزن. (٥) البقاء والدوام في الدار الآخرة (أقرب الموارد ومعجم لين).

تَكْفُرُونَ: الماضي «كَفَرَ» وقد سبق شرحها في الآية السابعة من نفس السورة. والمصدر من «كَفَرَ» «كُفِّرَ». والكفر بالله لا يعني فقط نكران وجود الله، وإنما يطلق أيضاً على إنكار صفات الله تعالى وعصيان أوامرهِ.

التفسير:

تعود بنا هذه الآية إلى الموضوع الأصلي للوحي، إذ إن مسألة ثواب المؤمنين وعقاب الكفار كانت أمراً عارضاً، والموضوع الحقيقي هو الوحي. وهذه الآية تبين استحالة وجود الحياة الروحية بدون الوحي، ذلك أنه ليس بمقدور أي إنسان أن يعرف شيئاً عن الحياة الآخرة دون عون الله وإرشاده، لأنه تبارك وتعالى هو وحده الذي أحاط بكل شيء علماً. وتشير الآية إلى أنه إذا كان الله جلَّ وعلا يهيئ لنا ما نحتاجه لحياتنا المادية، فالأحرى أن يهيئ لنا أيضاً ما نحتاج إليه في حياتنا الروحية التي هي أكثر أهمية من الناحية المادية.

إن الله سبحانه وتعالى حكيم، فإذا كانت حياة الإنسان غير ذات هدف لَمَا خلقها، أما وقد خلقها فلا يُعْرِضُها للموت إلا إذا كانت هناك حياة أخرى بعد الموت. أي أنه إذا كان الموت هو نهاية الحياة، فإن خلق الإنسان يكون ضرباً من العبث. فالحقيقة المستمدّة من كل صنع الله ﷻ هي أنه لم يخلق الإنسان ليعيش ستين أو سبعين سنة ثم يرتد تراباً؛ وإنما لتتهيأ له حياة أفضل وأكمل لا نهاية لها يحياها بعد الموت.

وقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يشير إلى أن الإنسان عندما يموت لا تنتقل روحه إلى الجنة أو إلى النار مباشرة، وإنما هناك فترة موقوتة تقضيها الروح في تدوَّق

بعض ما قدّمته من أعمال صالحة أو سيئة. وأما موعد الحساب الكامل فإنه يأتي فيما بعد.

هذا وإن ذكر الحياة مرتين في الآية، بلفظ أحيا ويحيي، قد يتضمّن الإشارة أيضاً إلى ارتفاع شأن الإسلام في هذه الحياة الدنيا. وذلك لأن الإسلام هو أداة الحياة الروحية، فالإحياء الإسلامي الأول تم في عهد الرسول ﷺ، وأما الإحياء الثاني فقد قدّر بأن يكون في آخر الزمان، وقد أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٤)، أي أنه سيكون للرسول ﷺ بعثة ثانية في هذه الدنيا، وقد تحقق ذلك الوعد في شخص مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ
أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

أَسْتَوَى: مشتقة من «سَوَى» أي استقام واعتدل. «استوى» بمعنى «سوي» وتكون أيضاً بمعنى استقر. يقال «استوى على ظهر دابّته» أي استقر على دابّته. ويقال «استوى على العرش» كناية عن التملك وإن لم يجلس الملك على العرش. «استوى عليه» استولى عليه وظهر. «استوى إلى الشيء» قصده أو وجّه انتباهه إليه. قيل كل من فرغ من عمل وعمد إلى غيره فقد استوى إليه وله (أقرب الموارد). وفي مفردات الراغب أن لفظ «استوى» يقال على وجهين؛ أحدهما أن يُسند إليه فاعلان فأكثر نحو استوى زيد وعمرو أي تساويا. والوجه الثاني أن يسند إليه فاعل واحد فيكون معناه اعتدال الشيء في ذاته.

سَوَاهُنَّ: سَوَّى صيغة التعدية من «سَوَّى» أي جعله منسقاً أو معتدلاً. تقول «سويت المعوج فما استوى»؛ أو بمعنى جعله مستوفياً، أو جعله متناسباً في جميع أجزائه، أو بمعنى جعله في حالة مناسبة، أو جعله ملائماً لما يلزم حالته من مقتضيات أو احتياجات، أو بمعنى كمله أو جعله في حالة جيدة أو وضعه في الوضع الصحيح أو في الوضع الطيب (أقرب الموارد ولين).

التفسير:

لقد خلق الله ﷻ كل ما على الأرض لمنفعة الإنسان. وقد جاء في موضع آخر من القرآن المجيد وفيما يتعلق بالصفة الأولى، فيجدر ألا يغيب عن البال أن العهد الذي ينقضونه قد أشير إليه في موضعين من التنزيل العزيز: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٣). والموضع الثاني: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَاتِيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨٢).

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجنات: ١٤). فالشمس والقمر وغيرها من الأجرام السماوية ذات فائدة جلية للبشر. وقد كشف العلم الحديث الكثير من ذلك، ولا زال المجال واسعاً في هذا الصدد. وجميع الكشوف تثبت صدق تعاليم الإسلام وشمولها. والعلم يدأب على معرفة المزيد من خواص ما في الأرض، وظهر أن الكثير من الأشياء التي كانت تُعد غير ذات فائدة إنما هي ذات نفع عظيم للإنسان.

هذا وإن الإنسان هو وحده دون باقي المخلوقات الذي يعرف كيف يستفيد مما في العالم، ومن ثم إذا كانت هناك أشياء وفيرة قد خلقت لزيادة رفاهية الإنسان وتوسيع مجال نشاطه. وإذا كانت هذه الأعداد التي لا حد لها قد جُعِلت من أجل

تقدّم الإنسان مادياً، فلا يمكن والحالة هذه أن يقال بأن خلق الإنسان لا غرض من ورائه، أو أنه لم يتهياً له ما يلزمه في مجال التقدم الروحاني.

وتشير الآية أيضاً إلى أن الدنيا هي الميراث العام للبشرية، فلا يجوز أن تكون ملكاً لشخص ما أو لأمة من الأمم. وإن تجاهل الغرب لهذه الحقيقة سيؤدي به إلى الخراب والدمار.

ولو طبّقت تعاليم الإسلام لارتفع الحسد والحقد بين الأفراد بعضهم بعضاً وبين الشعوب. إن أوامر الإسلام فيما يتعلق بالصدقة والزكاة تقوم على هذا المبدأ، أي كون الدنيا ميراثاً عاماً للناس جميعاً. والإسلام لا يحرم الملكية الخاصة، ولكن ينبغي ألاّ تمارس هذه الرخصة بحيث نحرم الآخرين من حقهم في ذلك الميراث العام.

ومما ينبغي ملاحظته أيضاً أن معظم الأديان تعتبر هذه الدنيا مكاناً غير مرغوب فيه للإنسان، فالنجاة من وجهة نظر هذه الأديان تكون بقتل الرغبات والهروب من الشر والمتاعب. وفي المقابل من هذا نجد أن اليهود يجعلون هذه الدنيا الغاية الوحيدة للحياة. أما الإسلام فهو وحده الذي يعلمنا أن نستخدم - بطريقة سليمة - تلكم الخبرات والفرص التي تهيئها لنا هذه الدنيا، كما يعلمنا أن نجعل منها وسيلة لإحراز النجاح والنجاة في الآخرة.

وقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ لا يتضمّن الإشارة إلى موضوع خلق الأرض والسموات، وإنما يرمي فقط إلى القول بأن كل ما خُلق في هذه الأرض قد جُعل لفائدة الإنسان، ثم تتابع القول بأن من يستخدمون هذه النعم الإلهية بطريقة سليمة يتقدمون ويعلمون من درجة إلى درجة أعلى في سلم الرقي الروحاني. ولفظ ﴿سَبْعَ﴾ في مصطلح اللغة العربية يعني الكمال والتمام. وتبعاً لذلك يكون معنى ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أن الله ﷻ قد راعى إعداد موضع للرقي الروحاني الدائم، ألا وهي الجنة في العالم الآخر.

وبهذه الآية يختتم هنا بحث موضوع الحاجة إلى الوحي. فالكيفية التي خلق الله تبارك وتعالى العالم عليها تشير إلى ضرورة الوحي. ولو كان غير مقدّر للإنسان أن يرقى روحانياً رقيّاً لا حد له، وهو ما يعتبر الوحي الوسيلة الفعالة الوحيدة لهذا الرقي، فإنه ما كان هناك داع أيضاً لما زُوّد به الإنسان من قوى وقدرات. وما كان ذلك إلا لكي يتمكن من السير في طريق الرقي الذي لا حد له.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي
الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ
فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

قَالَ: ومنه القول وهو كل ما نطق به اللسان تاماً كان أو ناقصاً. وقد تستعمل هذه اللفظة مجازاً للتعبير عن معانٍ مختلفة دون استخدام اللسان؛ فمثلاً قد يقصد بها الدلالة على شيء، كما في قول الشاعر:

امتلاً الحوض وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني
ومن الواضح أن الحوض لم يتكلم، وإنما استعملت كلمة «قال» في البيت للدلالة على حالة الحوض بأنه قد امتلأ. وقد يقصد بها الاعتقاد؛ نحو «فلان يقول بقول أبي حنيفة». كذلك قد يقصد بها المتصوّر في النفس قبل الإبراز باللفظ (قول)، فيقال: «قلت في نفسي شيئاً لم أظهره» (لسان العرب ومفردات الراغب).

الْمَلَائِكَةُ: مفرداها «الملك»، واختلف في أصل اشتقاق هذه اللفظة. فقال بعضهم إنها مشتقة من ملك، ولكن الرأي الغالب أن لفظة «الملائكة» مشتقة من «الألوكة»

أي الرسالة. يقال: «ألك بين القوم ألكاً» وألوكاً أيضاً أي ترسل. وهذا يفسر عمل الملائكة، فهم يبلغون رسالات الله تبارك وتعالى إلى الخلق وينفذون مشيئته في الكون (مفردات الراغب ولين).

خَلِيفَةٌ: مشتقة من خَلَفَ أي جاء بعده أو ناب عنه. ولفظة «خليفة» تتضمن ثلاثة معانٍ: الأول مَنْ يخلف غيره ويقوم مقامه، والثاني الإمام الذي ليس فوقه إمام، والثالث السلطان الأعظم أو الملك أو الحاكم (أقرب الموارد). وقد تُطلق على الشخص الذي يتقدم غيره ويكون تابِعاً له (راجع فتح القدير للشوكاني).

نُسَبِحَ: مشتقة من سَبَحَ. يقال «سبح عن الأمر: أي فرغ منه بعد أن أتمه، وسبح في الماء أي غامَ، وكل ما انبسط في شيء فقد سبح فيه. ويُستعار اللفظ لمَرَّ النجوم في الفلك وجري الفرس وسرعة الذهاب في العمل. و«سَبَحَ الله» أو «سَبَحَ لله» أي عَظَّمَه. وعندما يكون التسبيح متعلقاً بالله تعالى يراد به تعظيمه ﷻ وتنزيهه من أي سوء أو عيب ومن أي شيء قد يسلب صفاته أو يحيط منها... كصفات الوجدانية والعلم والقدرة والقدوسية... إلخ (راجع مفردات الراغب وتاج العروس ومفردات الراغب).

نُقَدِّسُ: مشتقة من قَدَّسَ يَقْدُسُ. والقُدُس والقُدُس: الطهارة. والنعت منه قُدُّوس وقَدُّوس. قَدَّسَ فلان أي صار طاهراً مباركاً. وقَدَّسَ الله فلاناً أي طَهَّرَه وباركه. وقَدَّسَ الرجل الله أي وصفه بالتقديس وبرَّاه من العيب. فكان هناك وجه شبه في المعنى بين التقديس والتسبيح، إلا أن التقديس يتضمن فوق ذلك إسناد صفات الإثبات لله تعالى كصفات الطهارة والجلال... إلخ (مفردات الراغب ولسان العرب وأقرب الموارد).

التفسير:

لهذه الآية أهمية خاصة، إذ اختلف العلماء في تفسيرها، وكانت مبعث التساؤل عمّن هو آدم وأين كان، ولماذا ذكر الله تعالى للملائكة أنه سيجعله خليفة، ولماذا اعترض الملائكة على ذلك.

وقبل النظر في هذه الأمور لا بد أولاً من بيان العلاقة بين هذه الآية والآية السابقة. ولماذا ذكر آدم بعد موضوع اصطفاء نبي الإسلام محمد ﷺ. وإذا كان الرسول ﷺ رسولاً حقاً من لدن الله تعالى، فهل كان أول من تلقى رسالة سماوية أم سبقت رسالته رسالات سماوية أخرى؟ وإذا كان أول رسول فلماذا أهمل الله تعالى أمر السابقين من خلقه الذين لا حصر لعددهم؟ إن هذه الأسئلة تحدد لنا فوراً معالم الطريق لبحث هذا الموضوع. إن موضوع هذه الآية هو أن الرسول ﷺ ليس بأول نبي، فقد سبقه أنبياء كثيرون، وكان آدم أول حلقة في السلسلة. وهكذا ندرك أن إشارة الله تعالى إلى خلافة آدم تتضمن إزالة الشكوك التي تساور أذهان الكفار بشأن خلافة محمد ﷺ. فليس من الغريب ألا يفقهوا بعثته، إذ حتى الملائكة لم يفقهوا الغرض من النبوة في مبدأ أمرها.

والرأي الشائع أن آدم الذي عاش قبل حوالي ٦٠٠٠ سنة كان أول إنسان خلقه الله تعالى على ظهر الأرض، ولكن هذا الرأي لا تؤيده الدراسة المتفحّصة للحقائق المتعلقة بهذا الموضوع. فالواقع أن العالم قد مرت به دورات مختلفة من الخليقة والمدنية. وآدم الجد الأعلى للجنس البشري الحاضر ليس إلا الحلقة الأولى للدورة الحالية، وليس أول إنسان خلقه ﷺ. فلقد نهضت أمم وسقطت، وظهرت مدنيات واختفت، وانقضى أودام كثيرون من قبل آدمنا هذا. وربما عاشت من قبل أجناس أخرى وهلكت، ونشأت دورات أخرى من المدنية وبادت. وهذا القول يقول به أيضاً بعض علماء المسلمين البارزين، فمحيي الدين بن عربي، الصوفي العظيم، يقول إنه رأى ذات مرة في الرؤيا أنه يطوف بالكعبة، ورأى أن رجلاً ظهر أمامه وقال له

إنه أحد أجداده، فسأله كم مضى على وفاته؟ فأجاب بأن ذلك يزيد على أربعين ألف سنة. فقال له إن هذه المدة تسبق وجود آدم. فسأله الرجل عن أي الأوامد يتحدث، أقربهم عهداً به أم غيره؟ ويقول ابن العربي: «وهنا تذكرت قول الرسول ﷺ بأن الله قد خلق ما لا يقل عن مائة ألف آدم، وقلت في نفسي إن هذا الرجل الذي يدعي بأنه أحد أجدادي قد يكون أحد هؤلاء الأوامد السابقين» (راجع الفتوحات المكية ج ٣ ص ٦٠٧).

وإذا قدرنا أن عصر سلالة كل واحد من الأوامد يبلغ ٧٠٠٠ في المتوسط، فيكون عمر الجنس البشري استناداً إلى قول الرسول ﷺ ٧٠٠ مليون سنة، وهو مجموع سلالات الأوامد فقط، ولا يدخل فيه ما قد يجوز أن سبقت سلالة أول آدم من الخلائق. ووجهة نظر العلم الحديث على خلاف ذلك، إذ يقدر عمر الجنس البشري بمليون سنة (دائرة المعارف البريطانية، طبعة ١٤، ج ١٤، ص ٧٦٧).

هذا وليس لنا أن ندعي أن الجنس الذي عاش قبل آدم انقرض تماماً قبل مولده. إذ من المحتمل جداً أن تكون قد بقيت من هذا القوم القديم فضلة صغيرة، وكان آدم واحداً منها، ثم اختاره الله ﷻ ليكون الجد الأعلى لجنس جديد والطيعة لمدينة جديدة. وكما رأينا؛ فقد خلق آدم إذن من بين الموتى، وبذلك فهو يمثل فجر عهد حياة جديدة.

ولعله من المفيد أن نورد هنا قولاً من أقوال المسيح الموعود ﷺ في هذا الصدد، إذ قال ما تعريبه: «إننا لا نتابع الكتاب المقدس فيما يراه من أن العالم قد بدأ بمولد آدم منذ ستة أو سبعة آلاف سنة مضت، وأنه لم يكن هناك أي شيء قبل ذلك، ومن ثم كان الله تعالى آنئذ عاطلاً بغير عمل. كذلك لا ندعي بأن جميع البشر الذين يعيشون الآن في مختلف أرجاء الأرض كانوا جميعاً من سلالة آدم واحد بعينه. فعلى العكس من ذلك نقول بأن آدم لم يكن أول رجل، وقد وُجدت البشرية من قبله، والقرآن الكريم بنفسه يشير إلى ذلك «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً». ولما كان لفظ «الخليفة» يعني

النائب، فمن الجلي إذن أن البشر قد وُجدوا قبل آدم. ومن ثم لا نستطيع أن نقول بأن سكان أمريكا وأستراليا الأصليين... إلخ هم جميعاً من سلالة آدم الأخير هذا، أو من سلالة آدم هلك من قبله». (جريدة الحكم ١٩٠٨/٥/٣٠)

إن لفظة ﴿خَلِيفَةً﴾ في الآية تشير كما ذكرنا آنفاً إلى أن آدم كان من بقية جنس قديم أو كان خلفاً، واصطفاه الله لينشئ في الوجود جنساً جديداً. هذا ومن معاني لفظ «الخليفة» نائب الله تعالى، أي الإمام أو الزعيم الذي يختاره الله ﷻ ليؤدي مهمة معينة.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا اعترضت الملائكة على تعيين آدم خليفة؟

وبداية، ينبغي ألا يغيب عن البال أن ما قيل من أن الملائكة اعترضوا ليس في الواقع اعتراضاً، وإنما هو مجرد عرض للحقائق على الله تعالى لا على سبيل الاعتراض ولكن بغية المعرفة والاستنارة. وحقيقة الأمر أنه كلما بُعث نبي جديد، فذلك يعني أن الله جل وعلا يريد أن يُحدث انقلاباً في العالم، وتغييراً في الأوضاع السائدة عن طريق النبي، وهو بمنزلة إيدان ببدء عهد جديد. ومن الطبيعي أن هذه العملية تؤدي إلى هدم الوضع القديم وبناء نظام جديد، وهذا بالضبط هو شأن خلافة آدم باعتباره أول رسول للنظام الجديد.

فقبل آدم كان الناس يعيشون بدون شريعة، وكانوا أقرب ما يكون إلى حالة الهمجية. وقد قدّر الله تعالى أن يفرض القانون عن طريق آدم. وإذا ما فُرض القانون جاءت الخطيئة، ذلك لأن الخطيئة ما هي إلا خروج على القانون. وبسبب علم الملائكة المحدود وقلة تبصّرهم بالمستقبل، كان من الطبيعي، وهم بهذا القدر من الإدراك، أن تكون فكرة خلافة آدم مدعاة لبلبله أذهانهم. فمجيء هذا الحاكم من قبل الله تعالى ينطوي على ظهور الخطيئة والعصيان، ويستتبع ذلك أن يحاسب الناس ويعاقبوا على أفعال كانوا يأتونها من قبل دون أن يكون عليها حرج. فمن وجهة نظر الملائكة لم يكن آدم سوى مُشرّع يضع الحدود لأفعال الناس، ويوقع العقاب على من يتعدّونها.

وإذن فالخليفة المقبل سوف يريق الدماء، ويثير الاضطراب في الأرض بما يحدثه من هزّات في جدران المجتمع القائم.

لقد تراءى للملائكة الجانب المظلم من الصورة فقط، ولكن الله تعالى كان يرى الجانب المضيء. فعند الله كان آدم بمنزلة التّاقور الذي سيسمع الناس من خلاله نداء الله تبارك وتعالى المدوّي، فتدب الحياة في الأموات ويتنبه النائمون من سباتهم العميق. ومن ذلك الوقت يبدأ ظهور أناس في الوجود يعرفون ربهم، ويكونون مظهرًا لصفات الله تبارك وتعالى، ويحيون حياة طيبة صالحة.

إن الله تعالى لا يرضيه أن يترك بني نوع الإنسان في حالة موت من الناحية الروحانية لمجرد أن قسماً منهم سيتبين أنهم عصاة. ونفس واحدة مطيعة هي عند الله أفضل من ألف ألف نفس عاصية. فشموع مضيئة مفرّقة هنا وهناك في أنحاء الظلام خير على كل حال من الظلام الدامس المطبق. ومهما كانت رقعة الظلمات متسعة، ومهما كانت أضواء الشموع ضئيلة فذلك أفضل من أن يخيم الظلام على العالم كله.

وفضلاً عن ذلك، فإن آدم ورسالته ليسا بمسؤولين عن النفوس المناهضة التي رفضته، فهو لم يكن إلا بشيراً للرحمة، ومن ثم فأولئك الذين رفضوه وأغضبوا الله تعالى هم أنفسهم الملمومون لما يحيق بهم. إننا لا نؤاخذ الشمس على الظلال التي تنشأ عن نورها.

هذه هي الحقيقة العميقة التي تنطوي عليها القصة التي ترونها للعالم الآية التي نحن بصدد شرحها. وقد كان من المناسب جداً أن تَرِدَ في مستهل سور القرآن المجيد كي تكون بمنزلة إنذار وتحذير ولفٍ لأنظار أولئك الذين وُجِّهت إليهم رسالة نبي الإسلام ﷺ. وقد كان على الرسول أن يجلب النور من لدن الله تبارك وتعالى، وكان من اللازم أن تحدث في مستهل دعوته عملية ضخمة من هدم وبناء تهيأت لها الإنسانية. وكان لفريق من الناس أن يستيقظوا من سباتهم وينجوا من النار، وكان لفريق آخر أن تُقَصَّرَ عليهم المضاجع فيتمادوا في الشر وينفخوا في النار المتأججة. ولكن المؤمنين على قُلُوبهم كانوا أرجح في الميزان عند الله تعالى من جموع الكفار،

بل إن الرسول ﷺ كان هو وحده أرجح في الميزان من جميع البشر. ومما أُوجي إليه ﷺ: «لولاك ما خلقت الأفلاك». وليس هذا من قبيل التفاخر السخيف، ولكنه تقرير لحقيقة وحكمة تامتين. أليس مقدار حبة من الحق أفضل من جبل من الباطل؟ غير أن الرسول ﷺ لم يكن حبة من الحق، بل كان جبلاً شامخاً.

وفي هذه الآية التي نحن بصدد دراستها والآية التي تليها ينبغي ألا يفهم الحديث الذي دار بين الله تعالى والملائكة بالمعنى الحرفي للألفاظ، أي أنه ليس من الضروري أن يكون قد حدث حوار فعلاً بهذه الألفاظ العديدة، فكما ذكر في شرح المفردات. قد تستعمل لفظة ﴿قَالَ﴾ بطريق المجاز، ولا يُقصد بها التعبير باللسان، بل لمجرد الدلالة على حال أو ظرف بديلاً للتعبير باللسان. ووفقاً لهذا المعنى المجازي ليس من الضروري أن الله تعالى قد نطق فعلاً بهذه الألفاظ المنسوبة إليه، وأن الملائكة أجابوا فعلاً بتلك الألفاظ العديدة. وإنما يمكن أن نقول بأن تلك الألفاظ المنسوبة إليهم تعبر فقط عن حالتهم وتصوّرهم.

وقد كثر الكلام عن الوضع الذي وُلد فيه آدم، والموضع الذي كان فيه عندما اختاره الله تعالى ليكون مصلحاً. والرأي الشائع هو أن الجنة كانت مقرّه، ثم طُرد منها فيما بعد، وحل بمكان آخر على الأرض. ولكن قول الله تعالى: ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يُكذّب ذلك الرأي، وهو يدل بدلالة قاطعة على أن آدم عاش على الأرض، واختاره الله وهو على وجه الأرض. وفيما يتعلق بمقر إقامته، فإن الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع، والتي لا محل لبسطها هنا بالتفصيل تشير إلى أن الاحتمال الأغلب هو أن آدم عاش في بادئ الأمر بالعراق، ثم وُجّه لينتقل إلى أرض قريبة في الجنوب.

ونظراً لأننا لا نقول بأن آدم، خليفة الله المذكور في هذه الآية، أول إنسان خلقه الله تعالى، فليس هنا إذن مجال للبحث عن كيف وأين خُلِق أول إنسان، فهذا سيأتي بيانه في مواضعه عند تفسير الآيات المتعلقة بهذا الموضوع.

وجدير بالملاحظة أن لفظة ﴿خَلِيفَةً﴾ في الآية التي نحن بصدها قد أخذت بمعنى «رسول من الله تعالى». والواقع إن رسل الله تعالى هم أيضاً خلفاء الله؛ إذ أنهم مظهر الصفات الإلهية بالقدر الذي يناسب عصر كل منهم.

ونشير بهذه المناسبة إلى أن لفظة ﴿خَلِيفَةً﴾ قد استخدمت في القرآن المجيد لتؤدّي معانٍ ثلاثة:

الأول: بمعنى رسول الله. وواقع الحال يدل على أن الرسل صور أو ظلال يتجلى الله تعالى من خلالها. وقد كان آدم خليفة وفق هذا المعنى، وكذلك سُمّي داود أيضاً خليفة بهذا المعنى في القرآن المجيد: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ (ص: ٢٧).

الثاني: بمعنى القوم الذين يحلّون محل قوم آخرين. وعلى هذا فعندما تنحط أمة من الأمم أو تندثر وتحل محلها أمة أخرى، فيُطلق على هذه الأمة التي استُقدِمت «خلفاء»، كما في قوله تعالى: ﴿... وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (الأعراف: ٧٠)، وقوله أيضاً في نفس السورة: ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ (الآية ٧٥).

الثالث: يطلق لفظ الخليفة أيضاً على الأشخاص الذين يحلون محل النبي لأنهم يقتفون أثره، وينفذون الشرع، ويصونون وحدة أتباعه. وهذا الخليفة قد يُعين بواسطة النبي، أو يصطفيه الله تعالى مباشرة كنبى يخدم أغراض النبي الذي قبله. أي أن الخليفة قد يُنتخب من بين الناس، أو قد يعين بواسطة النبي، أو قد يُصطفى مباشرة من لدن الله تبارك وتعالى كنبى يخدم أغراض النبي الذي سبقه. وقد كان أبو بكر رضي الله عنه خليفة انتخبه الناس عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد عيّن موسى عليه السلام هارون خليفة له عندما عزم على الصعود إلى الجبل كما هو ظاهر من لفظ ﴿اخْلُفْنِي﴾ في الآية التي ذكرت ذلك ﴿... وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ (الأعراف: ١٤٣). ومع أن هارون عليه السلام نفسه كان نبياً أيضاً إلا أنه قام كخليفة لموسى أثناء غيبته. وبهذه الكيفية قد يصطفى الله تعالى أحياناً نبياً ليصلح أمة نبى آخر. وهذا النبي لا يأتي بشرع

جديد، وإنما يقتصر عمله على تطبيق أحكام الشريعة القائمة. ونظراً لأنه ينهض بعمل النبي الذي سبقه فلذلك يُسمى خليفة. وهو لم يُعين بواسطة النبي الذي سبقه، ولم يُنتخب كخليفة بواسطة الناس، ولكن تعيينه قد تم مباشرة من قِبَلِ الله ﷻ. وقد كان في بني إسرائيل خلفاء كثيرون من هذا الصنف، فكانوا رُسلًا من الله تعالى، ولكن لم يأت أي واحد منهم بشريعة جديدة. وكانت مهمتهم تنحصر في القيام بأمر شريعة موسى ﷺ. ويشير القرآن المجيد إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ (المائدة: ٤٥). وقد كان عيسى ﷺ آخر هؤلاء الخلفاء، إذ لم يأت بشرع جديد كما أعلن ذلك بنفسه: «لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» (إنجيل متى - الإصحاح ٥: ١٧ و ١٨).

ولقد وُعد المسلمون بهذه الأنواع الثلاثة من الخلافة، طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٦). ولقد أورث الله المسلمين الأرض في عهد الرسول ﷺ، ثم أقام من بعده خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ. وأخيراً في زماننا هذا، تؤمن الجماعة الإسلامية الأحمدية أن الله تبارك وتعالى اختار أحمد القادياني ﷺ خليفة لرسول الله ﷺ بنفس الكيفية التي اختار بها عيسى خليفة لموسى ﷺ. وقد أُعطي أحمد ﷺ مقام النبوة باقتفائه أثر الرسول ﷺ دون أن يأتي بشرع جديد. والغرض من اصطفاائه هو خدمة الإسلام وإعلاء كلمته في العالم.

ولما كان ذكر الملائكة يَرِدُ لأول مرة في القرآن المجيد في هذه الآية، فمن المناسب إذن أن نورد هنا شيئاً عنها.

إن لفظة «مَلَك»، كما جاء شرح معناها في المفردات، يتضمّن معناها الحرفي، وهو «حامل رسالة» أو «مبعوثاً». وهنا يتضح الغرض من خلق الملائكة، فهم يبلغون رسالات الله تبارك وتعالى وينفّذون مشيئته في الكون. وليس معنى ذلك أن الله تعالى ليس بالقوي العليم المحيط، وأنه محتاج إلى مندوبين لينفّذوا إرادته أو ليلبغوا رسالاته... كلاً، وإنما غاية ما في الأمر أنه من حكمته البالغة قضى بأن يجري قضاؤه بطريقة منظمة. وكما هو الحال بالنسبة إلى العالم الدنيوي، فقد أجرى الله تعالى نفس النظام في العالم الروحاني أيضاً. ووضّع نظام ما، أو طريقة للعمل، لا يرجع إلى قصور من جانب الله ﷻ، بل على العكس من ذلك فإنه يدل على الكمال. ومن ثم فإن الملائكة جزء من النظام الذي يتم عن طريقه تنفيذ إرادته ﷻ في العالمين المادي والروحاني معاً. ففي مجال العالم الماديّ يمثل الملائكة الحلقة الأولى التي يبدأ منها تسلسل حلقات من أعلى إلى أدنى. وأما في مجال العالم الروحاني فهم يمثلون حلقة مباشرة بين الله جل شأنه والإنسان. وقد يتعذّر علينا أن نفهم تماماً كُنه الملائكة، إلّا أنه بمقدورنا أن ندرك الغرض من خلقهم، والوظائف التي أريد لهم أن يؤدوها.

وحسب تعاليم الإسلام، هناك عدد كبير من الملائكة. وهم مقسّمون إلى طبقات، ولكل طبقة وضعها المحدد، وتؤدي غرضاً معيناً. وهم يباشرون تأثيرهم، كل طبقة في مجالها الخاص، وهم كعمال في خدمة الله تبارك وتعالى لتنفيذ إرادته. وفي العالم الدنيوي، يقفون من وراء الستار، ويباشرون تأثيرهم عن طريق عوامل مادية في الكون، ومجال الملائكة يظهر فقط عندما يبلغ العامل المادي نهايته. وأما في المجال الروحاني فإن تأثير الملائكة يبدو أكثر وضوحاً، فهو تأثير مباشر يعمل دون تدخل أي عامل آخر. وهذه هي الحكمة من جعل الاعتقاد بوجود الملائكة ركناً من أركان الإيمان في الإسلام حسبما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦). وذلك لأنه كما يتضح من واقع الحال، ينطوي إنكار الملائكة على سدّ جميع المنافذ التي يصل من خلالها نور الله تبارك وتعالى إلى الناس.

إن الملائكة لا تُرى بالعين البشرية، إلا أنها تظهر للإنسان أحياناً بصورة أو بأخرى، ولكن ليس بصورة حقيقية، بل هو نوع من التجلي. وهذا هو السبب في أن الملك قد يتجلى في عدة مناسبات بصور مختلفة. ومع ذلك فهذا الاتصال ليس من قبيل التخيل ولكنه حقيقي وذو تأثير مباشر يمكن الإحساس به دون شك، بل ويمكن أن يُختبر عن طريق ما يؤدي إليه من نتائج. وهناك أحاديث عديدة في شأن ظهور الملائكة للرسول ﷺ عدة مرات بصورة أو بأخرى. وينبغي على أي حال أن يكون مفهوماً بشكل قاطع أننا عندما نتحدث عن ملك يظهر لكائن بشري، لا نعني بذلك نزوله فعلاً إلى الأرض تاركاً موضعه المعين في السماء، وإنما نعني فقط تجليه بحيث يتخذ شكلاً يمكن لعين الإنسان أن تراه. كما ينبغي أن يفهم أيضاً أن الملك ليس مجرد قوة، ولكنه كائن حي ينفذ مشيئة الله ﷻ في أي وقت وبالكيفية التي يؤمر بها.

وفيما يختص بواجبات الملائكة، فالقرآن المجيد يذكر عدداً منها، وأهمها:

(١) تبليغ رسالات الله تبارك وتعالى، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٦).

(٢) حضّ الإنسان على فعل الخير، ثم توجيه قلبه نحو الفضيلة، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٨، ٩). (راجع سنن الترمذي أيضاً كتاب التفسير).

(٣) خدمة الأنبياء ومساعدتهم وتأييد دعوتهم، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٣٠)، ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (النساء: ١٦٧). كما أنهم يعاونون المؤمنين أيضاً، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (فصلت: ٣١ و ٣٢).

(٤) يَنْزِلُونَ بِالْعَذَابِ عَلَىٰ مَنْ يَناهضُونَ الْأَنْبِيَاءَ، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩). كذلك تُلقِي الخوف والرعب في قلوب أعداء الأنبياء ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٥ و ١٢٦).

(٥) ينفذون قوانين الطبيعة، إذ أنهم حملة العرش، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر: ٨).

والسبب في ذكر الملائكة مع آدم ﷺ في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها هو كما أوضحنا آنفاً يدخل في واجبات الملائكة معاونة رسل الله جل وعلا، ولذلك فإنه عندما يبعث الله تعالى رسولا إلى الدنيا، يكلف سبحانه الملائكة بخدمته، وذلك بأن يجعلوا مختلف قوى الطبيعة تتجه إلى خدمته في سبيل تحقيق أغراضه. ومن ثم، عندما شاء الله ﷻ، أن يبعث آدم مصلحاً، أنبأ الملائكة بعزمه كي يفرغوا أنفسهم لخدمته.

ولزيادة إيضاح موضوع الملائكة نحيل القارئ إلى المراجع الآتية:

- (١) «توضيح المرام» - لمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية ﷺ.
- (٢) «مرآة كمالات الإسلام» - لمؤسس الجماعة أيضاً.
- (٣) «ملائكة الله» - لحضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، الخليفة الثاني لمؤسس الجماعة.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

الْأَسْمَاءُ: المفرد اسم، قيل إنه مشتق من «السمو»، وقيل أصله «الوسم»، ومعنى الاسم: (١) اللفظ الموضوع على الجوهر والغرض لتمييزه، (٢) العلامة، (٣) الشهرة أو السمعة، (٤) ما يُعرف به ذات الشيء أو أصله (أقرب الموارد ومعجم لين ومفردات الراغب).

صَادِقِينَ: جمع «صادق»، مشتقة من «صَدَقَ». يُقال «صدق في رأيه» أي كان رأيه على صواب. و«صدق في الحديث» ضد كذب. و«صَدَقَهُ» بمعنى أخلص له كقولك «صدقته النصيحة أو صدقه الإخاء» (معجم لين وأقرب الموارد). وعلى ذلك فقولك «صَدَقْتُ» أي (١) قلت الصدق ولم تكذب أو (٢) أصبت في القول ولم تخطئ. وهذا المعنى الثاني هو المقصود في الآية.

التفسير:

اختلف المفسرون في المعنى المقصود من لفظة ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ في الآية، فقال بعضهم إن الله تبارك وتعالى علم آدم ﷺ أسماء كل شيء، وقال آخرون إنه علّمه اللغة، وقال غيرهم إنه علّمه أسماء ذريته جميعاً.

لا شك أن الإنسان قد احتاج إلى اللغة لأنها الوسيلة إلى المدنية، ولا شك في أن الله تعالى قد علّم آدم ﷺ اللغة. ولكن القرآن المجيد قد ذكر أن هناك أسماء لا بد للإنسان أن يتعلمها من أجل صلاح دينه وأخلاقه. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(الأعراف: ١٨١). ويتضح من هذه الآية أنه ليس بمقدور الإنسان أن يتوصّل للعلم الإلهي إلّا بإدراك صحيح لأسماء الله تعالى أو صفاته، ولن يُعرَف ذلك إلّا من الله جل وعلا. ومن ثم كان من الضروري أن يوهب آدم ﷺ، منذ البداية، معرفة هذه الصفات كي يتسنى للإنسان أن يكون على علم ومعرفة به سبحانه، فيتوصّل إلى التقرب منه ولا ينحرف بعيداً عنه.

هذا ويتضح من الآية أن لفظة ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ تعني صفات الله تبارك وتعالى، وينبغي للمسلم أن تكون هذه الأسماء مألوفة لديه كي يدعوه بها، متخيراً منها ما يناسب الغرض من دعائه. فمثلاً إذا كان الإنسان يدعو طالباً العفو والرحمة، فعليه أن يتوسل بالأسماء الإلهية الخاصة بهاتين الصفتين. كذلك إذا كان الدعاء من أجل التقوى، فالدعاء لله ﷻ يكون عن طريق الأسماء الخاصة بالصفات التي تتعلق بهذا المطلب، وهكذا.

كذلك تتضمّن الآية أنه ينبغي للإنسان ألاّ يبتدع من عنده صفات لله تعالى، وذلك لأن الله تعالى هو وحده الذي بمقدوره أن يضع صفاته. والواقع أن أولئك الذين حاولوا أن ينسبوا إلى الله تعالى من عندهم صفات أخرى قد تهددهم العقاب الإلهي.

ومجمل القول، تعلمنا الآية أن على المسلم أن يعرف أسماء الله تعالى كما تعلمها من لدنه تبارك وتعالى، والتي لا حق للإنسان أن يبتدعها من مخيلته. وهناك قرائن قوية تدل على أن الله تعالى قد علّم آدم ﷺ أسماءه، ويزداد الاستدلال قوة إذا ما أخذنا في الاعتبار الفرق بين الإنسان والمَلَك. وحسب القرآن المجيد، يختلف الإنسان عن الملائكة، وذلك أنه من الممكن للإنسان أن يتشبه بالله تعالى؛ أي يكون صورة أو مرآة تعكس الأسماء الحسنى، أو صفات الله جل شأنه. وأما الملائكة فلا ينعكس عليها إلّا قدر يسير من هذه الصفات. فهم كما وصفهم القرآن المجيد: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم: ٧). وهذا يعني أن الملائكة لا تستطيع فعل

شيء من تلقاء نفسها، وليست لها إرادة مستقلة، فهم مُسيّرون، يؤدّون ما كُلّفَتهم به العناية الإلهية. وعلى خلاف ذلك فقد مُنح الإنسان حرية الإرادة وحرية الاختيار. ومؤدّى هذا الفرق أن الإنسان قد وُهب من القدرات ما يمكنه أن يجعل من نفسه مظهرًا كاملاً للصفات الإلهية. وإلى ذلك يشير قول الرسول ﷺ بأن أفضل الخلق ما وافق أسماء الله الحسنى (كنز العمال ٢/٢). فكما أن الله تعالى رحيم، كذلك ينبغي لنا أن نتجمل بالرحمة في معاملتنا مع بني البشر، وكما أنه جل وعلا غفور فينبغي لنا أن نكون كذلك أن نتبعه في هذا الشأن، وكما أنه يحيي الضعيف فبالمثل ينبغي لنا أن نكون كذلك. وهذا الدرس الذي علمنا إياه حديث الرسول ﷺ يؤيد القول بأنه من الممكن للإنسان أن يتشبه بجميع الصفات الإلهية. ونخلص من ذلك إلى أن القرآن المجيد وأحاديث الرسول ﷺ تتفق على أن الإنسان والملائكة يختلفان من حيث إظهار صفات الله تبارك وتعالى، كما يتضح أن قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، في الآية موضوع الشرح، يُقصد به صفات الله تعالى. وتعني الآية أن الله تعالى أودع في آدم أولاً حرية الإرادة وما يلزمه من قدرة على إدراك مختلف الصفات الإلهية، ثم منحه بعد ذلك معرفة هذه الصفات، ولولا هذه المعرفة لما كان بمقدور آدم ﷺ أن يتشبه بها.

والآية التالية تعزز ما ذكرناه آنفاً، إذ يتّضح منها أن ﴿الْأَسْمَاءَ﴾ لم تكن معلومة للملائكة، ويتضح منها أيضاً أن ﴿الْأَسْمَاءَ﴾ ما هي إلا الصفات الإلهية.

هذا وقد تعني لفظة ﴿الْأَسْمَاءَ﴾ خواص الأشياء المختلفة الموجودة في الكون. ولما كان الإنسان قد هُيئَ لينتفع من قوى الدنيا، لذلك مُنح آدم ﷺ المقدرة على معرفة ماهية هذه القوى وخواصها.

ولفظ «كل» في قوله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ لا يراد به الاستغراق؛ أي جميع الأسماء على الإطلاق، وإنما يراد به أن الله علّم آدم ﷺ الأسماء على قدر الحاجة. وقد استعمل لفظ «كل» بهذا المعنى في مواضع أخرى من القرآن المجيد، كقوله تعالى: ﴿قَلَمًا

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿الأنعام: ٤٥﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (النمل: ١٧)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: ٥٨).

والضمير في قوله ﴿عَرَضَهُمْ﴾ يشير إلى أن الأشياء المشار إليها هنا هي مما يَعْقِل، وعلى هذا يكون المعنى أن الله تعالى أطلع آدم ﷺ في حالة الكشف على صنف من الناس من نسله تتجلى فيهم الصفات الإلهية؛ وهم الرسل وغيرهم من الأولياء الذين يتمتعون بالقرب الإلهي حتى إنهم يكونون مظهر هذه الصفات، ويتم عن طريقهم إصلاح الناس. وعندئذ سئل الملائكة عما إذا كان بمقدورهم أن يبرزوا تلك الصفات الإلهية كهؤلاء الناس كما يروي القرآن المجيد: ﴿أَنبِئُنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ...﴾.

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

سُبْحَانَكَ: مصدر سبح، ويستعمل المصدر للمبالغة. راجع الشرح في الآية ٣١ من نفس السورة.

التفسير:

لقد كان الملائكة يدركون مدى طبيعتهم، ولذلك عندما سُئلوا.. اعترفوا صراحة أن ليس بمقدورهم أن يُبرزوا الصفات الإلهية كالإنسان، إذ ليس بمقدورهم أن يبرزوا إلا تلك الصفات في حدود ما شاء الله تعالى لهم ببالغ حكمته. إن الإنسان صورة أكل

من الملائكة لله تبارك وتعالى، بل أكمل من بقية الخلق كلهم، لأن الله تعالى قد خلقه في أحسن تقويم (التين: ٥).

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ
بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا
كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٥٤﴾

شرح الكلمات:

تَكْتُمُونَ: الماضي «كتم»، يقال كتم الشيء أي أخفاه أو كبته. ويقال «كتم الفرس الربو» أي ضاق منخره عن نفسه، فالفرس بعدما يجري مسافة يلهث، ولكن ضيق منخره يجعل نفسه كأنه مكبوت في صدره (معجم لين مادة كتم). فالكتمان إذن الإخفاء أو الكبت، وليس من الضروري أن يكون عن قصد أو نتيجة لرغبة أو محاولة لإخفاء شيء ما.

التفسير:

عندما أقر الملائكة بعجزهم عن إبراز صفات الله تعالى التي كان آدم عليه السلام قادراً على إظهارها، أبرز آدم ﷺ - طاعة للمشيئة الإلهية - مختلف القدرات التي غُرست فيه، وأرى الملائكة مدى سعة قدراته الطبيعية. وهكذا دل الإنسان على حكمة وجود كائن مؤهل لأن ينال من الله تعالى صفة حرية الاختيار أو حرية الإرادة بحيث يتجه بها إلى التقوى أو إلى الخطيئة، ومن ثم يكون بمقدوره أن يظهر للعالم عظمة الله تعالى وجلاله.

وقول الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمَ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ لا يعني أن الملائكة رغبوا أو حاولوا الإخفاء، إذ حسب ما أوضحنا في شرح المفردات قد يعني الكتمان حالة ليس فيها رغبة أو محاولة لإخفاء شيء ما أو كبته. ووفقاً لذلك فإن قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ لا يعني سوى الإشارة إلى تلك الصفات الإلهية التي تعجز الملائكة عن إظهارها في أنفسهم بسبب قصور استعدادهم الطبيعي. ومن الخطأ البين أن يفهم من هذه العبارة أنها تعني أن الملائكة ما كانوا يقولون الحقيقة كلها.

وكما أوضحنا في شرح الآية (٣١) من نفس السورة، ليس من الضروري أن يكون ذلك الحوار فيما بين الله تعالى والملائكة وآدم عليه السلام قد حدث فعلاً بمعناه الحرفي. فلفظة ﴿قَالَ﴾ قد تستعمل أحياناً لوصف النتيجة العملية لواقعة أو وقائع دون أن يكون هناك كلام فعلاً أو حوار. ومن قبيل ذلك قول الشاعر: «قالت له العينان سمعاً وطاعة». وهكذا يمكن أن تكون قصة آدم مجرد تصوير أدته الألفاظ.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ
مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

اسْجُدُوا: فعل أمر، والماضي سجد. ومعناه (١) خضع وذل أو (٢) خفض رأسه أو (٣) انحنى. ويقال «سجدت السفينة للرياح» أي أطاعتها ومالت بميلها (أقرب الموارد). (٤) والسجود أصله التذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله تعالى وعبادته (مفردات الراغب).

إِلَّا: حرف استثناء. والاستثناء في اللغة نوعان: (١) استثناء متّصل، وهو أن يكون المستثنى والمستثنى منه من جنس أو نوع واحد. كقولك «جاء القوم إلّا زيداً» فزيد

المستثنى واحد من القوم المستثنى منهم. (٢) استثناء منقطع، كقولك «جاء القوم إلّا حماراً». فالمستثنى هنا ليس من جنس أو نوع المستثنى منه. والاستثناء في الآية هو من هذا النوع الثاني؛ أي أن إبليس ليس واحداً من الملائكة.

إِبْلِيسُ: مشتقة من «أبلس» ومعناه: (١) قلّ أو تناقص حسنه أو فضله، أو (٢) فقد الأمل ويئس من رحمة الله تعالى، أو (٣) انكسرت نفسه وصار حزينا، أو (٤) تحيّر حتى أصبح لا يرى طريقه، أو (٥) صَمَتَ من الأسى أو اليأس، أو (٦) أُفْحِمَ في الجدال، أو (٧) عجز عن القيام برحلته، أو (٨) حيل بينه وبين غرضه. ويطلق لفظ إبليس عادة علماً على الشيطان (معجم لين).

وتبعاً لأصل اشتقاق اللفظ يكون «إبليس» ذلك الذي قل فيه جانب الخير ورجح فيه جانب الشر، وأصبح متحيراً ومرتبكاً لا يعرف طريقه ليأسه من رحمة الله تعالى بسبب عصيانه. ولفظ «إبليس» يُعتبر عادة مرادف للفظ «شيطان»، ولكن في بعض المواضع يختلف إبليس عن الشيطان كما سيبيء في الشرح.

كَانَ: من الألفاظ الشائعة الاستعمال، وتتضمّن معانٍ كثيرة منها: (١) حدث، (٢) يكون، (٣) سيكون، (٤) وُجد أو وقع نحو: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن». وقد يُراد بها الثبوت، وفي القرآن المجيد: ﴿كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي أن الله أزليّ صفتي العلم والحكمة. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ (الأنفال: ٦٨) يعني ما صحّ وما استقام أن يكون له أسرى. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾ (آل عمران: ١٦٢) أي من المستحيل أن يخون نبي الأمانة، أو لا يمكن لنبي أن يخون الأمانة (راجع أقرب الموارد، ومفردات الراغب، وتاج العروس، وتفسير الكشاف).

التفسير:

عندما أصبح آدم عليه السلام رآة تتجلى فيها الصفات الإلهية، وُرفِعَ إلى مقام النبوة، أمر الله تعالى الملائكة أن يخدموه. وقول الله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ لا يعني أن يخروا على الأرض، فالقرآن المجيد يقول بصورة قاطعة: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ (فُصِّلَتْ: ٣٨)، ومن ثم فإن السجود لآدم ﷺ على سبيل التعبد يتعارض مع تعاليم الإسلام. ولذلك فإنه يستحيل أن يأمر الله تعالى بأمر كهذا. فالسجود في الآية يعني إذن الطاعة والخضوع. وعلى ذلك يكون معنى الآية أن الله تعالى أمر الملائكة بخدمة آدم ﷺ، أي معاونته في بعثته ومهمته. وبهذه الكيفية قد أمر الله الملائكة بخدمة جميع أنبيائه تعالى، وأهم واجب لهم هو خدمة الغرض من بعثة الرسول وجذب قلوب الناس إليه.

وفيما يختص بإبليس، ينبغي أن نفهم تماماً أن إبليس لم يكن من الملائكة، ذلك لأنه قد ذكر عنه أنه عصى الله تعالى، بينما جاء في حق الملائكة أنهم يطيعون الله دائماً وأبداً. قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم: ٧)، ومن ثم فإن إبليس لا يمكن أن يكون ملكاً.

هذا ولا محل للاعتراض على غضب الله تعالى من إبليس ما دام الأمر في الآية بالخضوع لآدم كان موجهاً للملائكة وإبليس ليس منهم. والجواب على ذلك الاعتراض هو أن إبليس قد أمر أيضاً بطاعة آدم ﷺ كما هو مذكور في موضع آخر من القرآن المجيد: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٣). ويتضح من هذا أن إبليس وإن لم يكن من الملائكة إلا أنه قد أمر أيضاً بطاعة آدم ﷺ. وفضلاً عن ذلك، فحتى لو كان الأمر الإلهي لم يشمل صراحة غير الملائكة، ولم يكن هناك أمر على حدة لإبليس، فمع ذلك فإن الأمر الذي يتناول الملائكة يتناول غيرهم أيضاً؛ ذلك لأن الملائكة بحكم كونهم القوامين على مختلف أنحاء الكون والمحافظين عليه، فإن أي أمر يوجه إليهم ينصرف تلقائياً إلى جميع من عداهم أيضاً.

وفيما يتعلق بماهية إبليس، فموجز القول حسب ما جاء في شرح المفردات أن كلمة ﴿إِبْلِيسَ﴾ اسم كنية طبقاً لأساس اشتقاق هذه الكلمة. إذ يبدو معناها أنه روح شريرة تناهض الملائكة، وقد لُقِّب بذلك لأنه يتصف بالصفات العديدة التي

سبق ذكرها عند شرح المفردات. وعلى الأخص صفات الافتقار إلى الخير، والحيرة -حتى إنه لا يعرف طريقه- واليأس من رحمة الله تعالى.

وأما كون إبليس ليس هو الشيطان الذي ورد ذكره في الآية السابعة والثلاثين من السورة، فذلك واضح من أن القرآن المجيد يذكر إبليس والشيطان جنباً إلى جنب في المواضع التي يرد فيها ذكر آدم عليه السلام، وأما في المواضع الأخرى فنلاحظ أن القرآن المجيد يراعي التفريق بينهما؛ أي أنه كلما تحدّث القرآن المجيد عن ذلك المخلوق الذي رفض إطاعة آدم عليه السلام خلافاً للملائكة، فإن لفظ إبليس يرد في جميع هذه المواضع دون استثناء، ولكن كلما تحدث القرآن الكريم عن ذلك المخلوق الذي أغوى آدم عليه السلام، وكان سببا في خروجه من الجنة فإن ذكر الشيطان يرد في جميع هذه المواضع دون استثناء. ونلاحظ هذه التفرقة في عشرة مواضع على الأقل، ففي سورة الأعراف قيل في شأن إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (الأعراف: ١٣)، وقيل في نفس السورة في شأن الشيطان: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الآية ٢٢). ونلاحظ ذلك أيضاً في الآية ٣٢ من سورة الحجر، والآية ٦٢ من سورة الإسراء، والآية ٥١ من سورة الكهف، والآيتين ١١٧ و ١٢١ من سورة طه، والآية ٧٥ من سورة ص. وهذه التفرقة التي روعيت في جميع المواضع من القرآن المجيد ذات دلالة قوية، تثبت أن إبليس الذي يرد ذكره دائماً أبداً مقروناً بذكر الملائكة يختلف عن الشيطان الذي أغوى آدم وكان فرداً من قومه الذين بُعث لإصلاحهم. وعلى ذلك فإن إبليس ليس من الملائكة، ويتضح ذلك من وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله تعالى أبداً، ويطيعون أمره دائماً، طبقاً لما ذكره في حقهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥١)، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم: ٧). وعلى الخلاف من ذلك قيل عن إبليس أنه عصى بغيره أمراً صريحاً صادراً إليه من الله تعالى كما هو ظاهر من الآية: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ

أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٣، ١٤). وفي موضع آخر من القرآن المجيد قيل عن إبليس إنه: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف: ٥١).

ويتّضح مما تقدم أن إبليس وإن كان ليس من الملائكة إلا أنه ينتمي إلى خلق آخر من خلق الله تعالى وهم خلق لهم القدرة على طاعة الله تعالى وعصيانه بخلاف الملائكة. ثم إن القرآن يزيد الأمر إيضاحاً إذ يذكر أنه عندما عصى إبليس بسفاهته أمر الله كما شاء له هو، طرده الله تعالى ولعنه لأنه اختار الخروج عن طاعة الله ﷻ. وعندئذ أقسم إبليس أنه سيسعى في غواية الناس وعرقلتهم كي لا يسيروا على الطريق المستقيم (راجع الآية ١٧ و ١٨ من سورة الأعراف، والآيات ٣٥ و ٣٦ و ٤٠ من سورة الحجر، والآية ٦٣ من سورة الإسراء). وفي موضع آخر نقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٣-١٩). كذلك نجد في موضع آخر من القرآن المجيد أن الله تعالى يقول لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٣). ثم نجد في موضع آخر أن الله تعالى يقول إن إبليس ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ (الكهف: ٥١)، أي أنه كان من خلق يختلف عن الملائكة، ويقول سبحانه عن الإنس والجن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧).

وفيما يتعلق بوجود الخير والشر في الدنيا، فيصح أن يقال بأن الله تعالى ببالغ حكمته قد جعل الإنسان كائناً حراً. فوهبه القدرة على أن يختار الطريق المستقيم، أو ينقاد إلى طريق الخطأ حسبما يريد. وهذا النظام الذي يشترك فيه الملائكة وإبليس يتلاءم تماماً وطبيعة الأشياء ويرمي إلى خير الإنسان نفسه. ذلك أنه إذا لم يوجد فيه عامل الحرية، فإن الإنسان لا يستحق عندئذ أن يُمدح ولا يستأهل المكافأة على أعماله

الطيبة. أما إذا أصبح الإنسان أهلاً للجزاء على حسن عمله، فذلك يستلزم أيضاً أن يكون مسؤولاً عما يرتكب من خطيئة أو تقصير. إن عامل الحرية الذي جعله الله تعالى فيه يتطلب أن يكون قادراً على السير في أيٍّ من الطريقين.

هذا وقد فعل الله تعالى أكثر من ذلك، فهو يهب كل إنسان بداية طيبة في الحياة، وذلك بمنحه فطرة طيبة فاضلة. والإنسان بنفسه هو الذي يُفسد هذه الفطرة السليمة فيما بعد ويتخذ طريق الشر. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفُطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ. كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟». (البخاري - كتاب الجنائز) وفضلاً عن ذلك فإن الله تبارك وتعالى يبعث الرسل ويُنزل وحيه لإصلاح بني نوع الإنسان، حتى إذا ما كان الإنسان قد ضل نتيجة اختياره أو بتأثير أرواح شريرة أو بتحريض صحبة سيئة، فسيسمع النداء الذي يدعو إلى طريق الصواب. وسنزيد هذه المسألة بياناً عند الكلام عن الشيطان في الآية بعد التالية.

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا
مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

شَجَرَةٌ: والجمع شجر، مشتقة من «شَجَرَ». يقال «شجر الأمر بينهم» أي اختلف الأمر بينهم وتنازعوا فيه. وقد سُمِّيَ الشجر شجراً لدخول بعض أغصانه في بعض. وقد يُراد بالشجرة أصل الإنسان ومنبته، فيقال «هو من شجرة طيبة» أي من أصل طيب (معجم لين).

الظَّالِمِينَ: جمع والمفرد «ظالم» مشتقة من «ظَلَمَ» ومعناها: (١) وضع الشيء في موضع خاطئ أو وضعه في غير موضعه، أو (٢) عرّضه للخسارة أو النقصان، أو (٣) تجاوز الحد وارتكب الخطأ. فالظالم إذن هو الذي يفعل فعلاً غير لائق أو غير مناسب، أو يرتكب الخطأ، أو يعمل ما يؤدي إلى خسارة غيره (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

لفظ الجنة في الآية لا يعني الجنة الأخروية، وإنما يُقصد به الحديقة. وهو صفة الموضع الأول الذي عاش فيه آدم ﷺ. ولا يمكن أن يعني الجنة الأخروية، وذلك أولاً لأن آدم ﷺ قد خلق ليعيش على الأرض، كما يدل على ذلك بوضوح قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣١). وثانياً لأن الجنة موضع إذا ما دخله الإنسان مرة فلن يخرج منه أبداً. وفقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ (الحجر: ٤٩). ولما كان آدم ﷺ قد أُخْرِجَ من الجنة التي أقام فيها في مستهل حياته، فلا يمكن إذن أن تكون هي الجنة الأخروية، وإنما هي بقعة من بقاع أرضنا هذه، وقد سُميت بالجنة لخصوبة تربتها ووفرة عشبها. ووفقاً للدراسات الحديثة يتّجه الرأي إلى أن الموضع الذي جعل ليعيش فيه آدم ﷺ هو جنة عدن التي تقع بالقرب من بابل في العراق أو آشور.

والشجرة حسب ما جاء في التوراة كانت شجرة معرفة الخير والشر: «وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت» (سفر التكوين، إصحاح ٢: فقرة ١٦-١٧). ولكننا نعلم من القرآن المجيد أنه بعدما أكل آدم ﷺ وحواء من الثمرة المحرمة صارا عريانين. ومعنى ذلك أن الشجرة كانت مصدر شر، إذ إن معرفة الخير والشر ليس من شأنها أن تجعل آدم ﷺ يُظهر ضعفاً. ووجهة النظر القرآنية بادية الصحة لأن حرمان الإنسان من المعرفة يهدم الغرض الأساس من خلقه. على أي حال، يبدو أن القرآن المجيد والكتاب المقدس متفقان في نقطة واحدة، وهي أن تلك الشجرة لم

تكن شجرة حقيقية، ولكنها رمز؛ إذ لا يوجد على سطح الكرة الأرضية شجرة واحدة لها تلكم الخواص؛ أي تجعل الإنسان عرياناً أو تمنحه معرفة الخير والشر. وعلى هذا فالشجرة هنا تمثل شيئاً آخر.

وطبقاً لشرح معنى لفظ الشجرة آنفاً، فهذا اللفظ قد يتضمن معنى النزاع. وقد ورد في التنزيل العزيز: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: ٦٦).

وفي موضع آخر من القرآن المجيد ورد ذكر شجرتين من صنفين مختلفين: شجرة طيبة وشجرة خبيثة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٥-٢٧). فالأشياء الطاهرة والتعاليم الطاهرة تمثلها الشجرة الأولى، والأشياء الدنسة والأفكار الدنسة تمثلها الشجرة الثانية. وفي ضوء هذه الشروح يكون معنى الآية، أولاً: أن آدم عليه السلام قد أمر بتجنب المنازعات. وثانياً: إنه حُدِّر من الأشياء الخبيثة. إذ ولو أن الآية لم تتضمن تعيين الطيب والخبيث، ولكن التحريم لا يمكن أن يعني إلا الأشياء غير الطاهرة والخبيثة.

وقول الله تعالى: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ يفيد أن الأرض التي أقام بها آدم عليه السلام لم تكن بعد تحت ملكية خاصة، أي أنها من الأرض التي يقال لها «أرض الله»، وقد مُنحت له وبذلك أصبح سيّداً لكل ما صار تحت نفوذه.

والعبارة الأخيرة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تعني أن الاقتراب من هذه الشجرة يؤدي إلى أن يكون آدم عليه السلام واحداً من الذين لا يراعون في أعمالهم مقتضى اللياقة، أو حسب ما ذكر آنفاً في شرح لفظة «ظلم» أنها قد تعني وضع الشيء في غير موضعه.

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ
وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

أَزَلَّهُمَا: مشتقة من «زَلَّ». ومعناها «زَلِقَ». يقال «زَلَّتْ يا فلان» إذا زَلَّ في طين أو في منطق. و«أَزَلَّهُ» معناها: (١) جعله يَنْزِلُق، (٢) نَحَّاه عن الطريق المستقيم (لسان العرب وأقرب الموارد). «الزَّلَّة» في الأصل استرسال الرجل من غير قصد (مفردات الراغب).

اهْبِطُوا: مشتقة من «هَبَطَ، وتعني رحل؛ نزل؛ حط؛ سقط؛ ولكن حين تكون متبوعة بحرف الجر «من» فإنها عادة تعني رحل أو انتقل من المكان، وعلى هذا فإن «هبط من الوادي» تعني رحل وانتقل من الوادي، غير أن قواعد اللغة العربية تسمح بحذف حرف الجر، وعلى ذلك فإن كلمة «اهْبِطُوا» في الآية الحالية تعني انتقلوا أو ارتحلوا. وفيما بعد، في الآية رقم ٣٩ من نفس السورة نجد قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ وتعني انتقلوا أو ارتحلوا من ذلك المكان.

مُسْتَقَرٌّ: مشتقة من «استقر» وهي بدورها مشتقة من «قَرَّ». يقال «قَرَّ في المكان» أو «استقر في المكان» أي مكث في المكان، أو استتب له المقام في ذلك المكان، أو اتخذ من المكان مقاماً له. مُسْتَقَرٌّ: تعني المكان الذي يتخذه المرء مقاماً له لزمناً ما (أقرب الموارد).

مَتَاعٌ: مشتقة من متع، يقولون «متع الله بكذا» أي جعله الله تعالى ينتفع بكذا لزمناً طويلاً. وعلى هذا تعني «متاع»: (١) أياً من ضرورات الحياة مثل المطعم والملبس

والأمتعة؛ (٢) أمتعة الدنيا؛ (٣) أي ربح قصير الأمد لا يطول به الأجل (أقرب الموارد). وتعني الكلمة أيضاً الانتفاع بشيء ما لبعض الوقت (مفردات الراغب).

التفسير:

من الواضح أن ضمير «الهاء» في ﴿عَنْهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ يعود إلى الشجرة. والجزء الأول من الآية أي قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ فَاخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ يعني أن كائناً شيطانياً دفع آدم وزوجه للخروج من المكان الذي كانا فيه، وبذلك فقد حرهما من النعم التي كانا يستمتعان بها. وكما سبق القول في الكلام عن الآية قبل السابقة رقم ٣٥ نلاحظ أن من خدع آدم ﷺ وتسبب في إثارة المتاعب له كان الشيطان ولم يكن إبليس الذي ذكرت عنه الآية أنه رفض الخضوع لآدم وأبى طاعته. ولا يوجد هذا التمييز في الآية الحالية فقط وإنما يوجد في القرآن المجيد كله. فحيثما جاء ذكر رفض الخضوع والطاعة لآدم ﷺ يأتي ذكر إبليس، وحيثما يأتي ذكر الغواية التي تعرض لها آدم ﷺ للأكل من الشجرة المحرمة يأتي ذكر الشيطان، وهذا التمييز يدل على أن وصف «الشيطان» المذكور هنا لا يعود إلى إبليس ولكنه يعود إلى شخص من بين القوم الذين بُعث فيهم آدم ﷺ، كان يضمر له العدا. ويتأكد هذا الرأي في قوله تعالى: إلى إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الإسراء: ٦٦). ولما كان آدم ﷺ خليفة الله تبارك وتعالى، فما كان لإبليس من سلطان عليه، ويتبين من هذا أن الشخص الذي استطاع أن يؤثر عليه ويغويه ويخرجه مما كان فيه كان شخصاً آخر. ولإبراز هذه الحقيقة جاء ذكر كلمة ﴿الشَّيْطَانُ﴾ هنا في هذه الآية لأن لها معنى أوسع من كلمة «إبليس».

والعبارة الأخيرة في الآية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ تثبت أيضاً أن القرآن المجيد لا يؤيد قول من يقولون برفع أيِّ إنسان حياً إلى السماء؛ إذ أنها تذكر أن الأرض هي الموضع الذي حدده الله تعالى للإنسان كي يعيش عليه. ومن ثم فالقرآن المجيد يرفض فكرة رفع عيسى ﷺ أو أي مخلوق آخر إلى السماء حياً.

ولعل من المناسب أن نذكر هنا شيئاً موجزاً عن لفظة «الشیطان». وكما ذكرنا آنفاً، تحمل هذه اللفظة معنى أوسع من لفظة «إبليس». ذلك أن إبليس قد أطلق في القرآن المجید على تلك الروح الشريرة التي تنتمي إلى الجن والتي رفضت الخضوع لآدم عليه السلام، ومن ثم أصبح إبليس زعيم قوى الشر في العالم. وأما الشیطان فقد أطلق على أيّ شر كان، سواء كان مخلوقاً أو شيئاً ما، وسواء كان روحاً شريرة أو إنساناً أو حيواناً أو مرضاً أو أي شيء آخر. وعلى ذلك يمكن أن يقال بأن إبليس شیطان، ورفاقه ومن يلوذون به شياطين، ومناهضو الحق شياطين، ومثيرو الأذى شياطين، والحيوانات المؤذية شياطين، والأمراض الضارة شياطين. نجد في القرآن المجید وفي الأحاديث النبوية وتراث اللغة العربية الشواهد الكثيرة على أن لفظة «شیطان» تستعمل في معانٍ بالغة الاتساع. فالقرآن المجید يقول بأن هناك شياطين من الإنس وشياطين من الجن (الأنعام: ١١٣). كذلك أطلق لفظ الشياطين على من يشيعون الشر (البقرة: ١٥). والرسول ﷺ سَمِيَ لصاً تعود السطو على أبي هريرة رضي الله عنه شيطاناً (البخاري). وَعَنْ أَبِي دَرٍّ رضي الله عنه قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ الْبَيْهَمِ (أي الأسود الذي لم يخالطه لون آخر) فَقَالَ: «شَيْطَانٌ». (سنن ابن ماجه - كتاب الصيد). كذلك أمر رسول الله ﷺ بتغطية الآنية حتى لا يدخلها الشیطان (سنن ابن ماجه - كتاب الأشرية). ومن الواضح أن المقصود بالشیطان الحشرات المؤذية والجراثيم. وكذلك أيضاً حث الرسول ﷺ الناس على تنظيف أنوفهم عند الاستيقاظ من النوم في الصباح لأن الشیطان يسكنها (صحيح مسلم). ومن الجلي أنه يعني بذلك أن ما يتراكم فيها بالليل مضر بالصحة، وقد سمّاه شيطاناً ينبغي إزالته.

ويتضح من الشواهد التي سقناها آنفاً أن لفظة شيطان قد اصطلاح على استعمالها بشكل أوسع، إذ تُطلق على كل ما هو ضار أو مؤذ سواء كان كائناً حياً أم لم يكن. (راجع أيضاً شرح الآية ١٥ من نفس السورة).

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

تَلَقَّى: مشتقة من «لَقِيَ» يقال «لَقِيَ فلانًا» أي استقبله أو صادفه أو رآه. ويقال «لَقَّاه الشيء» أي طرحه إليه. ومعنى «ألقاه» طرحه. يقال «ألقى إليه القول» أي أبلغه إياه. وعبرة «ألقى عليه رحمته» معناها شمله برحمته. ويقال «تلقى الشيء» أي استقبله أو صادفه أو رآه. و«تلقى منه الشيء» أي تلقَّنه (أقرب الموارد).

كَلِمَات: المفرد «كلمة» وتجمع أيضًا على «كَلِم» ، مشتقة من «كَلَمَ». وعبرة «كَلَمَ» معناها جرحه أو حدّثه. و«كلمه» بمعنى حدّثه أو جاوبه، وهي تستعمل عادة فيما يدور من حديث بين اثنين أو أكثر. و«الكلام» القول أو الحديث الذي يتضمّن معنى، أو هو المعنى القائم في النفس، فيقال «في نفسي كلام». وقد يراد بالكلام الشيء المكتوب، و«الكلمة» اللفظة أو كل ما ينطق به الإنسان مفردًا كان أو مركّبًا. وقد يراد بالكلمة القضاء أو الحكم (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

تاب: أي رجع. والتائب اسم فاعل، والتوّاب الكثير التوبة. و«تاب إلى الله» رجع إلى الله تعالى منيبًا بعد أن عصى أو أخطأ. و«تاب الله عليه» أي رجع الله عليه بالعفو والرحمة. و«التائب» الذي يتوب أو يرجع إلى الله بعد المعصية أو الخطيئة. و«التوبة» الرجوع عن الذنب والاتجاه إلى الله تعالى طلبًا للعفو مع العزم على الطاعة والاستقامة. ولفظة «التوّاب» عندما يوصف بها الإنسان يكون معناها الشخص الذي يكون مستعدًا دائمًا أبدًا للتوبة ويكثر من الرجوع إلى الله تعالى طلبًا للعفو مع الوعد بإصلاح نفسه. وعندما يوصف الله تعالى بأنه تواب فيعني ذلك أنه يكثر من الرجوع على عباده بالعفو والرحمة (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تذكر هذه الآية أنه لما خدع الشيطان آدم ﷺ، ونباه الله تعالى بخطئه، توجه آدم ﷺ إلى الله ﷻ بالدعاء طلباً للمغفرة. وهذا الدعاء لقنه إياه الله ﷻ، وقد وردت صيغة هذا الدعاء في موضع آخر من القرآن المجيد: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٤). هذا هو الدعاء الذي تعلمه آدم ﷺ من الله تعالى، وقد استجاب الله له وغفر له. وكَوْنُ الله تعالى بنفسه قد علم آدم ﷺ كلمات هذا الدعاء يدل على أن آدم ﷺ كان من الأصفياء وأنه كان يتلقى الوحي الإلهي.

كذلك تُبين لنا الآية أن الله ﷻ يعلم بنفسه عباده - في مناسبات خاصة - صيغة الدعاء الذي ينبغي أن يتوجهوا به إليه. ومن الواضح أن ألفاظ الدعاء التي يختارها الله تعالى بنفسه لا بد من أن تلقى الاستجابة على الفور. والواقع أن هذه وسيلة لتكريم الأتقياء، أو بعبارة أخرى كأن الله تعالى يقول لعباده: هلموا إلي بالسؤال وأنا أستجيب له. وحقاً إن ذلك من عجائب صنع الله تعالى، وكأن رحمته ومغفرته تشتاقان دائماً إلى النزول إلى الإنسان حتى لمجرد التفاته إليه ﷻ للتوبة. عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً وَمَنْ لَقِينِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً» (صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار).

قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي
هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٩﴾

شرح الكلمات:

خَوْفٌ: مشتقة من خَافَ. والخوف توقع مكروه عن أَمارة مظنونة أو معلومة. والأمن ضد الخوف (مفردات الراغب).

يَحْزَنُونَ: مضارع، والماضي حَزَنَ ضد فرح، أو بمعنى أَسَفَ أو تملّكه الغمّ، ويكون الحزن عادة، وليس دائماً، متعلقاً بالماضي.

التفسير:

لما كان من المقرر أن يكون آدم عليه السلام جدّاً أعلى لجيل عظيم، وبشيراً لعصر جديد، فعندما آن أوان ذلك، اقتضى الأمر إعلان البشرية عن طريق آدم عليه السلام بأن يستعدوا لتلقي الهداية من ربّهم من وقت لآخر. ومن ثم فإن الآية تُعتبر بمنزلة أخذ عهد على سلالة آدم بأنه سيستمر ظهور نفوس عظيمة تدعو الناس إلى الحق والهدى، ومن يتبعون هؤلاء الأولياء ينالون النجاة، وتمتلئ قلوبهم بالإيمان الصادق، فيتمتعون بالسلام واطمئنان البال في جميع الأحوال، فلا يخشون شيئاً يتوقعونه، ولا يأسفون لما قدّمته أيديهم فيما مضى. وذلك لأنهم قد حظوا بالقرب من الله تعالى وصارت أفئدتهم هي جنّتهم.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

خَالِدُونَ: راجع شرح الآية ٢٦ من نفس السورة.

التفسير:

تضمّنت الآية السابقة بشرى للناس، وتتضمّن هذه الآية تحذيراً لأولئك الذين يرفضون هدى الله ﷻ، إذ سوف يُساقون إلى النار، ولن يتمتعوا أبداً بسعادة قلبية أو راحة بال، مهما نالوا من الغنى والثروة. وفي الآخرة أيضاً سوف ينال من اتّبعا الهدى ثواب سعيهم، وسوف ينال من رفضوا الهدى جزاء أعمالهم.

والفقرة الأخيرة من الآية أي ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا تعني أن الإقامة في جهنّم سوف تكون أزلية. فالإسلام لا يقول بدوام جهنّم، إذ يعتبرها كدار للشفاء حيث يُرسل إليها الناس للعلاج والبرء. إن إله الإسلام هو أرحم الراحمين، وليس بحقود، ولا يتلذذ بإنزال العقاب على خلقه. هذا وإن العقاب لا يُوقع إلا إذا صار لا بُد منه، وحتى في هذه الحالة التي تحتمّ العقاب، فإن الله ﷻ يريد إصلاح خلقه. والعقاب في هذه الدنيا وفي الآخرة لا يتم بدافع الانتقام، ولكنه في هذه الدنيا وفي الآخرة ينطوي ما يسببه من ألم على حكمة غايتها العلاج والشفاء. وعندما تتحقق هذه الغاية فليس ثمة بعد ذلك من حاجة إلى استمراره، بل يُرفع. وبناء على ذلك يعلمنا الإسلام أنه سوف يأتي على أهل النار الوقت الذي يخرجون فيه منها بعد شفائهم من أمراضهم الروحانية ويدخلون الجنة. وسيجيء بيان ذلك عند شرح قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: ١٠٧-١٠٩).

ويكفي هنا المقابلة بين وصفي عذاب جهنّم ونعيم الجنة، إذ جاء وصف النعيم بأنه غير مجذوذ أي أنه دائم غير منقطع، ولم يُذكر ذلك في شأن العذاب.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُوا ④

شرح الكلمات:

إِسْرَائِيلَ: اسم آخر ليعقوب بن إسحاق عليه السلام. وقد لُقّب بذلك من الله تعالى فيما بعد حسب ما ورد في سفر التكوين الإصحاح ٣٢ والفقرة ٢٨ «فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت». والأصل العبري لهذه اللفظة مركّب من «يسرا» و«إيل» ومعناه: (١) أمير الله، أو (٢) محارب الله، أو (٣) جندي الله. ويتضمّن استعمال هذه اللفظة ثلاثة معان: (١) للدلالة على يعقوب عليه السلام بالذات كما في الفقرة ٢٨ من التوراة المشار إليها آنفاً؛ (٢) نسل يعقوب كما في الفقرتين ٣ و٤ من الإصحاح ٦ من سفر التثنية «فاسمع يا إسرائيل واحترز لتعمل، اسمع يا إسرائيل الرب إلّنا رب واحد»؛ (٣) أيّ رجل صالح يخشى الله تعالى، أو أيّ جماعة يتصفون بهذه الصفة. راجع معجم كرودن (Concordance by Cruden) والموسوعة العبرية الإنجليزية (Hebrew-English Lexicon).

اذْكُرُوا: يجيء لفظ «ذَكَرَ» للدلالة على عدة معان: (١) قال شيئاً؛ (٢) حفظ الشيء في الذهن؛ (٣) ذكر ما كان منسياً. ويُقال الذّكر ذِكران: ذِكرٌ بالقلب وذِكرٌ باللسان (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

عَهْدِي: مشتقة من «عَهَدَ» يقال «عَهَدَ إليه عهداً» أي أوصاه وشرط عليه. ويقال «عَهَدَ الحرمة» أي رعاها وحفظها. ويقال «عهد زيدا بمكان كذا» أي لقيه. و«عهدته» أي عرفته، تقول «الأمر كما عهدت» أي كما عرفت. و«عهد فلان وعده» أي وقّاه. وعهد الشيء أي حفظه ورعاه حالاً بعد حال، قيل هذا أصله ثم استعمل في الموثق

الذي يلزم مراعاته. و«عهد الله» أي وحده. و«عهد إلى فلان في كذا» أي ضمن. و«عاهده» أي عاقده وحالفه. و«تعهد» أي تفقده وتحفظ به.

و«العهد» الوصية أو الموثق أو اليمين يحلف بها الرجل، و«العهد» أيضاً الوفاء أو الضمان أو المودة أو الأمان أو الذمة (معجم لين وأقرب الموارد). وكلمة ﴿بِعَهْدِي﴾ في الآية لا تعني الوعد الذي وعده الله تعالى، لأن ذلك لا يصح بداهة أن يتولى اليهود الوفاء بهذا الوعد، ومن ثم فإن قول الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ معناه أوفوا بعهدي الذي تعهدتم به، وبالمثل يكون معنى قول الله تعالى: ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي أوف بما وعدتكم به.

فَارْهَبُونِ: الماضي «رَهَبَ» أي خاف. وقول الله تعالى: ﴿فَارْهَبُونِ﴾ في الآية أصله «فارهبوني» والضمير يعود على الله تعالى. وإيراد هذا الضمير مع ﴿يَايَا﴾ وكذلك حرف الفاء يضيف على العبارة معنى التوكيد.

التفسير:

تضمنت الآية السابقة ذكر آدم عليه السلام، وفي ذلك إشارة إلى أنه من سُنَّة الله تعالى الجارية منذ القدم أن يُنزل وحيه، وأن من دأب ذوي النفوس الخبيثة أن يناهضوا الوحي السماوي. ومن ثم فلا غرابة من وجود أناس يقفون موقف العداء من القرآن المجيد. وقد وُجَّه الخطاب في هذه الآية إلى بني إسرائيل لتوجيه النظر إلى أن تلكم السُنَّة الإلهية لم تكن قاصرة على عهود البشرية الأولى، ولكنها سُنَّة جارية، تتكرر كلما اقتضى الحال نزول وحي سماوي، وخير شاهد على ذلك هو تاريخ بني إسرائيل. وإلى جانب هذه الإشارة إلى بني إسرائيل فالآية توجه النظر أيضاً إلى أن بني إسرائيل قد فقدوا الآن نعمة الله تعالى لتقصيرهم في الوفاء بما عاهدوا الله عليه، ومن ثم قضى ﷻ باختيار قوم آخرين يستأهلون نعمته. وسبب آخر لذكر بني إسرائيل هنا هو أنهم لكونهم آخر أمة تشرفت بالوحي الإلهي قبل مجيء الإسلام، فهم يستحقون تحمل نصيب أكبر من المسؤولية بالقياس إلى غيرهم من الأمم.

وفيما يتعلق باستعمال لفظ «بني إسرائيل» في هذه الآية دون «بني يعقوب» مثلاً أو «اليهود»، فجدير بالذكر أن لفظ «إسرائيل» لقب أطلق من الله تعالى على يعقوب، أما «يعقوب» فيظهر أنه الاسم الذي اختاره له أبواه. فضلاً عن ذلك فإن اسم «إسرائيل» لقب نعني معناه المحارب في سبيل الله، ومن ثم فإن استعمال هذا اللفظ في الخطاب يتضمن تذكير اليهود بأنهم أبناء جندي عظيم من جنود الله تعالى، ولذلك ينبغي لهم أن يسلكوا مسلك الجنود في شهادتهم، ويطرحوا جانباً كل الاعتبارات التافهة، ويتقدموا للانضمام تحت لواء الرسول الذي بعثه الله تعالى بما يعود بالخير عليهم. فالتركيب «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» أشبه بعبارة «يا ابن الكريم»، وهي صيغة تستعمل لحض المخاطب وحثه على اقتفاء أثر أبيه في النبل والكرم. وهكذا يتضح السبب في عدم استعمال لفظ «بني يعقوب» بدلاً من «بني إسرائيل». وأما فيما يخص سبب عدم استعمال لفظ «يهود»، فإن هذا اللفظ لقب نعني أيضاً كبني إسرائيل ثم صار علماً. وكلما أراد القرآن المجيد الكلام عن أتباع موسى ﷺ كجماعة انحدرت من جد أعلى واحد فإنه يستخدم كلمة «بني إسرائيل»، وعندما يتحدث عنهم باعتبارهم فئة من الناس تُكوّن وحدة دينية فإنه يستعمل لفظ «يهود». ولفظ «يهود» أو «هود» مشتقة من «هاد». ومعنى اللفظ الذين يرجعون إلى الله تعالى أو إلى الحق ويتوبون. ويرى البعض أن لفظ «يهود» مأخوذ من «يهودا» أحد أبناء يعقوب ﷺ، ولما كان نسل يهوذا ونسل أخيه بنيامين قد كَوَّنوا معاً مملكة يهوذا في القدس، وكانوا يناهضون قبائل إسرائيل العشر الأخرى، ويطلق عليها جميعاً اسم إسرائيل. ولما كانت مدينة القدس قد صارت المركز الديني لليهود، لذلك أصبحت ديانة اليهود تُعرف باليهودية ويُطلق على من يعتنقون هذه الديانة اسم اليهود (دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة يهود Jews).

والنعم المذكورة في الآية يُقصد بها النعم الروحية والدينية التي نال اليهود نصيبهم منها، وهي النعم التي أشير إليها في القرآن المجيد: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ

أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢١). وتشير هذه الآية بجلاء إلى أن اليهود قد أنعم الله عليهم بأسمى النعم الروحية وهي النبوة، وبأسمى النعم المادية وهي المُلْك، وتؤيد وقائع التاريخ ذلك.

وقول الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي أوفوا بالعهد الذي تعهدتم به لي فأوفي بالعهد الذي وعدتكم به، يصح أن يكون معناه ببساطة أن الله تعالى طالبهم أن يتمسكوا بأوامره فيوفي بوعوده التي وعدهم بها. والقرآن المجيد يذكر عن ذلك العهد الذي ورد في الآية أن إبراهيم عليه السلام بعدما تلقى الأوامر الإلهية وأتمها أي أداها على خير وجه، وعده الله تعالى بأن يكون إماماً؛ أي رئيساً وقُدوة للناس: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ثم سأل إبراهيم ربه: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فكان الجواب: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٥). ومؤدَى ذلك أن العهد الإلهي لا يشمل إلا الصالحين من أبناء إبراهيم عليه السلام. وتشير التوراة أيضاً إلى ذلك العهد: «وتكلم الله معه - أي مع إبراهيم - قائلاً: أما أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الأمم... وملوك منك يخرجون... هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يُختن كل ذكر، فتُختنون في لحم غُرْلَتِكُمْ، فيكون علامة عهد بيني وبينكم... وأما الذكر الأغلف الذي لا يُختن في لحم غرلته فتُقطع تلك النفس من شعبها، إنه قد نكث عهدي» (سفر التكوين، إصحاح: ١٧، فقرات من ٤ إلى ١٤). ويستفاد من التوراة أن الختان هنا يُحمل على معنى الطهارة الروحية، ففي سفر اللاويين: «وإني أيضاً سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض أعدائهم» (الإصحاح ٢٦ فقرة ٤١)، وفي سفر إرميا: «لأنه هكذا قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم أحرثوا لأنفسكم حرثاً ولا تزرعوا في الأشواك، واختننوا للرب وانزعوا غُرْلَ قلوبكم» (إصحاح ٤: ٣ و٤)، وفي سفر إرميا أيضاً: «ها أيام تأتي يقول الرب وأعاقب كل مختون وأغلف» (إصحاح ٩: ٢٥). وقد احتفظ اليهود بالمظهر الخارجي لِسُنَّة الختان هذه وأهملوا المقصود الروحي الباطني. وأما المسيحيون فقد طرحوا جانباً هذه السُنَّة بوجهيها معاً.

وعهد إبراهيم عليه السلام هذا قد جُدد عدة مرات أخرى مع الإسرائيليين، وقد ورد ذكر ذلك العهد الثاني في مواضع عدة من التوراة (راجع سفر الخروج، إصحاح ٢٠، وسفر التثنية إصحاحات ٥، ١٨، ٢٦) فعلى جبل سيناء أو جبل حوريب كما يسمى في سفر التثنية، تلقى موسى عليه السلام الوصايا العشر، ودعا قومه للتمسك بها (التثنية إصحاح ٢:٥ و ٣)، وحضهم على المحافظة عليها قائلاً: «في جميع الطريق التي أوصاكم بها الرب إلهكم تسلكون لكي تحيوا ويكون لكم خير وتطيلوا الأيام في الأرض التي تمتلكونها» (التثنية ٥: ٣٣). وورد في سفر التثنية كذلك: «وقد واعدت الرب اليوم أنه يكون لك إله وأن تسلك في طريقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وتسمع صوته، وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعباً خاصاً كما قال لك وتحفظ جميع وصاياه» (التثنية ٢٦: ١٧ و ١٨).

وعندما أخذ العهد، تجلّى جلال الله تعالى على جبل سيناء، وتملك الإسرائيليين الرعب عندما رأوا «الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن» (الخروج ١٨: ٢٠)، وقالوا لموسى: «تكلم أنت معنا فنسمع، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت» (الخروج ١٩: ٢٠). وقد كان هذا الذي قالوه بمنزلة الختم على مستقبلهم، إذ قال الله تعالى عندئذ لموسى عليه السلام إنه وإن كان بنو إسرائيل سينعمون ببركته طوال اتباعهم لهذه الوصايا التي نزلت عليهم عن طريق موسى عليه السلام، لكن لن يظهر بينهم فيما بعد نبي مشرّع مثله، وأن ذلك النبي المشرّع الذي سوف يظهر سوف يكون ظهوره من بين إخوة بني إسرائيل، أي من نسل إسماعيل عليه السلام. وعن ذلك يقول موسى عليه السلام: «قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه» (التثنية ١٨: ١٧ و ١٨ و ١٩).

ففي هذه العبارة أخبر الله تعالى الإسرائيليين بأنهم لرفضهم الإصغاء لكلام الله، فإن النبي المشرّع الذي يلي موسى عليه السلام لن يخرج من بينهم ولكن من بين إخوتهم. والواقع أنه ظهر في بني إسرائيل أنبياء بعد موسى عليه السلام، وقد شهد القرآن المجيد

بذلك: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ (البقرة: ٨٨)، ولكن النبي المماثل لموسى ﷺ؛ أي النبي المشرع الذي قَدَّر الله تعالى مجيئه لم يخرج من بينهم طبقاً للنبوءة المشار إليها آنفاً.

وتذكر النبوءة بجلاء أن النبي المشرع التالي سوف يكون من بين إخوة بني إسرائيل، ولما كان بنو إسماعيل هم إخوة بني إسرائيل، فقد ظهر الرسول ﷺ منهم. وهو ما يطابق الوعد الأول الذي وُعد به إبراهيم ﷺ، والذي تضمّنه دعاؤه الوارد في الآية: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٠).

هذا ومن الخطأ القول بأن عبارة التوراة: «من وسط إخوتهم» قد تشير إلى الإسرائيليين أنفسهم. والخطأ في ذلك أنه في زمان موسى ﷺ كانت جميع قبائل بني إسرائيل تعيش مع بعضها، فإذا كان النبي الموعود سيظهر من بينها فليس من المقبول عقلاً أن تكون عبارة «من وسط إخوتهم» التي قالها الرب صحيحة في أداء ذلك المفهوم، كذلك لا يمكن أن تنطبق النبوءة على عيسى ﷺ، إذ فضلاً عن أنه لم يكن نبياً مشرعاً حسبما ذُكر في إنجيل متى على لسان المسيح نفسه: «لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (متى ٥: ١٧ و ١٨)، ثم إنه كان ينتمي إلى إسرائيل لا إلى إسماعيل ﷺ. وقد تحققت النبوءة في شخص النبي العربي محمد ﷺ الذي كان من نسل إسماعيل ﷺ وكان رسولاً مُشرعاً.

وهناك اعتراض على ذلك، وهو أنه قد ورد في موضع آخر من التوراة عبارة: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك» مما يدل على أن المقصود هم الإسرائيليون أنفسهم، ولكن هذا الاستنتاج ظاهر البطلان، وذلك لأنه أولاً: هذه الألفاظ التي وردت في سفر التثنية الإصحاح ١٨ الفقرة ١٥ هي من كلام موسى ﷺ، وأما

عبارة: «أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم» في الفقرة ١٨ فهي من كلام الله تعالى نفسه. ولما كانت النبوة مؤسسة على وحي الله تعالى وليس على تفسير موسى ﷺ فمن المفروض أن تكون عبارة «أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم» هي الأصح والأولى في الاعتبار. ثانياً: حتى ولو اعتبرنا أن عبارة: «يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك» تستند حقاً إلى الوحي الإلهي، فإن هذه العبارة يصح أن تنطبق أيضاً على نبي الإسلام ﷺ، وذلك لما كان قد بُعث لجميع الشعوب فيمكن أن يقال حقاً إنه قد بُعث فعلاً من وسط كل شعب من شعوب العالم، وفي هذه الحالة يمكن تفسير عبارة: «من وسطك من إخوتك» على وجهين؛ الأول: أن النبي الموعود سوف يُبعث لجميع أمم العالم بما في ذلك بني إسرائيل. والثاني: من ناحية شخص ذلك النبي فإنه ينتمي إلى بني إسماعيل.

ونظراً لأن اليهود نقضوا عهد الله تعالى مراراً، لذلك انتقل ذلك العهد إلى الرسول ﷺ وإلى أتباعه. وقد ذكر القرآن المجيد أن موسى ﷺ دعا الله تعالى قائلاً: ﴿وَكَتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...﴾ (الأعراف: ١٥٧ و ١٥٨).

وذكر الرسول ﷺ في الكتاب المقدس قد ورد في الإصحاح ١٨ من سفر التثنية حيث تضمن حصّ الإسرائيليّين على اتباع النبي الموعود لينالوا رحمة الله تعالى. ومرة أخرى يقول القرآن المجيد: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْنَكُم مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَضُكُمْ وَآخُذُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨٢).

ويتضح مما تقدم أن قول الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يتضمن تذكير الله تعالى لبني إسرائيل بأنه قد أعطى عهداً لإسحاق وذريته من بعده بأنهم إذا أوفوا بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم، فإنه ﷺ سيستمر في منحهم نعمة. أما إذا نقضوا العهد فإنه سيحرمهم من نعمة. أما وقد تقاعس بنو إسرائيل تقاعساً تاماً في الوفاء بالعهد، فإن الله تعالى بعث النبي الموعود من بين أبناء إسماعيل عليه السلام طبقاً لوعده ﷺ، ومنذ ذلك الوقت انتقل العهد إلى أتباع النبي الجديد، فمن أطاعه سيكون الفلاح حليفه ومن رفضه فسيطرده.

وقول الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يؤدي أيضاً إلى نتيجة هامة. لقد كانت النبوة أجل النعم التي أنعم الله تعالى بها على بني إسرائيل وفاءً لوعده، ومثل التوراة الشريعة التي نزلت عليه. ولكن ذلك لم يسد الباب بحيث توقف بعث أنبياء من بينهم، والذين استمر مجيئهم حتى بعد موسى عليه السلام. ولم يأت هؤلاء الأنبياء بشرع جديد، ولكنهم كانوا يتلقون الوحي الإلهي، ونفخوا في قومهم روحاً جديدة. والقرآن المجيد يشير أيضاً إلى هذه النعمة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢١). وفي الآية التي نحن بصدد شرحها، نجد أن الله تعالى يتمسك بوعده لبني إسرائيل، وهو أنهم إذا ما أوفوا من جانبهم بعهدهم وآمنوا بنبي الإسلام فإنه سيستمر في الوفاء من جانبه بنعمة النبوة التي وعدهم بها والتي كانت جارية فيهم من قبل، وبديهي أن ذلك لا يتم إلا بالكيفية السابقة؛ أي ببعث أنبياء غير مشرعين من بينهم يخدمون الشريعة القائمة. وهكذا بهذه الكيفية يكون مجيء الأنبياء غير المشرعين لخدمة شريعة الإسلام. ويستتبع ذلك بجلاء أنه حتى بعد افتتاح الرسول ﷺ لسلسلة الرقي الروحاني الجديدة، فإن باب النبوة يظل مفتوحاً. وأما القول بسد باب النبوة فإنه يناقض وعد الله تعالى لبني إسرائيل بأنهم إذا ما آمنوا بسلسلة الرقي الروحاني الجديدة فسوف يستمر تمتعهم بنعمة النبوة التي تمتعوا بها من قبل.

ويتّضح أيضاً مما تقدم أن النبوة التي وُعد بها الإسلام تشابه نبوة أنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام، والتي لم تكن نبوة تشريعية وإنما كانت لمجرد خدمة شريعة موسى. وهكذا أيضاً شأن النبوة الموعودة في الإسلام، فإنها ليست نبوة تشريعية، ولكن يُقصد بها مجرد خدمة القرآن المجيد. (راجع شرح الآية السابعة من سورة الفاتحة).

وقول الله تعالى الذي تحتّم به الآية أي: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ فإنه ينطوي على تحذير ونداء لبني إسرائيل. وكما ذكر في شرح المفردات، فإنها تتضمن توكيداً ثلاثياً، وكأن المعنى: «خافوني أنا فقط، واحذروا ولا تحافوا إلا إياي». ولقد أثار بنو إسرائيل غضب الله تعالى مراراً عليهم بنقضهم ما عاهدوه عليه. ومن ثم يبدو أن الله تعالى ينبههم هنا بأن ها هي ذي فرصة أخيرة قد أُتيحت لهم كي يخشوا الله ويتّبعوا ذلك النبي الجديد، إذ لا زال من الممكن أن يستردوا عفو الله تعالى. ولكنها فرصة أخيرة، ولا فرصة أخرى سواها إلى الأبد.

وجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن قول الله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ لا يعني أن الله تعالى كائن مخيف. وإنما المقصود أنه ما من كائن يستحق أن يُخشى إلا الله تعالى. فالإسلام يقتل كل جذور الخوف إلا من الله تعالى. والواقع أن كل من يخاف أي إنسان أو أي شيء سوى الله تعالى ليس بمؤمن صادق الإيمان.

وآمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا
أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا
وَإِيَّايَ فَاتَّقُوا ﴿٤٢﴾

شرح الكلمات:

مُصَدِّقًا: مشتقة من صَدَقَ ضد كَذَب. يقال صدق فلان أي قال الحق، أو هو صادق. وصدقه أي شهد بأنه صادق. يقال صدَّق زيدٌ خالدًا أي شهد زيد بأن ما قاله خالد كان حقًا (أقرب الموارد ومعجم لين).

لَا تَشْتَرُوا: انظر شرح الآية رقم ١٧ من نفس السورة.

التفسير:

إن لفظة التصديق في شأن الأنبياء السابقين أو الكتب السابقة يمكن أن تؤدي ثلاثة معانٍ: (١) أن دعوى الأنبياء السابقين أو دعوى الكتب السابقة بأنها من عند الله تعالى هي دعوى صادقة. (٢) أن التعاليم التي جاء بها هؤلاء الأنبياء أو التي تضمنتها تلك الكتب هي تعاليم حقة. (٣) أن الأنبياء الغيبية التي تنبأ بها الأنبياء السابقون أو التي وردت في الكتب عن مجيء نبي آخر أو نزول وحي جديد أو غير ذلك هي جميعاً أنباء صادقة. والقرآن المجيد ورسول الله ﷺ كلاهما مصدق للأنبياء السابقين والكتب السابقة من جميع هذه الوجوه الثلاثة. ففيما يتعلق بالوجه الأول يعلن الإسلام: أن جميع الأنبياء السابقين الذين قالوا بأنهم مرسلون من عند الله تعالى، وجميع الكتب التي ادّعت أنها منزلة وكان هناك طائفة كبيرة من الناس تؤمن بأصحاب هذه الدعوى وبتلك الكتب، فالإسلام يعتبرهم أنبياء ويعتبر هذه الكتب كتباً سماوية. وقد أُشير إلى ذلك في موضعين من سورة البقرة، أي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (الآية ٥)، وقوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ (الآية ٢٨٦). وفيما يختص بالوجه الثاني، فالإسلام يقر بأن جميع تعاليم الأنبياء السابقين وجميع تعاليم الكتب السماوية السابقة هي تعاليم حقة. ولا يعني ذلك تصديق التعاليم بحالتها التي كانت عليها وقت نزول القرآن المجيد، وإنما ينصرف التصديق إلى التعاليم بحالتها الأولى عندما نزل بها الوحي السماوي. وقد أُشير إلى

ذلك في قوله تبارك وتعالى في وصف الصحف المطهرة التي نزلت على الرسول ﷺ بأنها ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ (البينة: ٤). وفيما يختص بالوجه الثالث، فالإسلام يعلن بأن الأنبياء الغيبية التي وردت في الكتب السابقة أو التي ذكرها الأنبياء السابقون عن مجيء نبي ونزول تشريع سماوي هي أنباء صادقة وقد تحققت بنزول القرآن المجيد وبعثة الرسول محمد ﷺ. هذه هي الوجوه الثلاثة لمعنى لفظة التصديق الواردة في مواضع عديدة من القرآن المجيد.

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن كلمة ﴿مُصَدِّقًا﴾ هنا قد لحقها حرف الجر «اللام» وليس «الباء» أي ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا﴾ وليس «مصدقاً بما». وهناك اختلاف في المعنى إذا ما وردت هذه الكلمة بدون حرف عن معناها إذا لحقها حرف «الباء»، وكذلك إذا لحقها حرف «اللام». فعندما يُراد بها الاعتقاد بصدق أمر ما فإنها تستعمل مجردة أو مقترنة بحرف «الباء». وعندما ترد في القرآن المجيد مقترنة بها حرف «اللام» فتكون بمعنى التحقيق والوفاء، فيقال مثلاً «جئت تصديقاً لقول فلان» أي أتيت تحقيقاً لقوله. هذا وإن استعمال هذه اللفظة في القرآن المجيد في مواضع عديدة يوضح ذلك الاختلاف بصورة عملية. فمثلاً في القرآن المجيد وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة: ٩٢) يتضح بجلاء أن لفظة ﴿مُصَدِّقًا﴾ هنا المتبوعة بحرف «اللام» يراد بها دون شك التحقيق والوفاء لا التوكيد أو الشهادة على صدق الكتاب السماوي السابق. فقول الله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قد أريد به إثبات صدق القرآن المجيد، أي أن معناه هو أن القرآن المجيد قد جاء تحقيقاً أو وفاءً لما ورد في الكتاب المقدس، وليس معناه أن القرآن المجيد يشهد بصدق الكتاب المقدس، ذلك أنه لو شهد كتاب على صدق كتاب آخر فلا يعني ذلك أن هذا الكتاب الآخر هو حق فعلاً، إذ حتى الدجال يمكن أن يشهد بأن كتاباً سماوياً سابقاً حق، ولكن تحقق الأنبياء الغيبية في الكتاب المقدس هو وحده الذي يعتبر شاهداً على صحة القرآن المجيد. ومن ثم يتبين أنه كلما ورد ذكر التصديق في القرآن المجيد مشفوعاً

بحرف اللام عند الكلام عن كتب أهل الكتاب، فإن معنى هذه اللفظة يكون الوفاء وتحقق أنباء تلك الكتب، لا الشهادة بأن جميع ما تحتويه تلك الكتب حق بلا ريب. كذلك أيضاً نجد نفس التعبير في الآية: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (فاطر: ٣٢). فلفظة ﴿مُصَدِّقًا﴾ هنا تعني أيضاً تحقيقاً أو وفاء. إذ تقول الآية إن القرآن المجيد الذي نزل على رسول الله ﷺ هو بذاته الحق، وهو مصداق لما جاء فيما سبق أن أوحى به الله تعالى، أي تحقق بنزوله ما جاء في النبوءات السماوية السابقة. أما إذا قيل إن المقصود من لفظة ﴿مُصَدِّقًا﴾ هنا هو الشهادة على صحة الكتب السماوية السابقة فإن هذا يعني الإقرار بأن جميع التعاليم التي حوتها الكتب السابقة هي حقة وصحيحة، في حين أن تعاليم هذه الكتب يعارض بعضها بعضاً، وتشتمل جميعاً على قدر من التعاليم التي تتعارض مع القرآن المجيد. ومن ثم إذا أخذنا بهذا المعنى؛ أي القول بأن التصديق هنا يعني الإقرار بصحة الكتب السماوية السابقة، فيترتب على هذا أن القرآن الكريم يوافق على التعارض القائم بين هذه الكتب، بل ويقر أيضاً بصحة التعارض بين تعاليمه وتعاليم تلك الكتب. ونخلص من هذا كله إلى أن لفظة ﴿مُصَدِّقًا﴾ لا تحتل إلا معنى واحداً وهو تحقق الأنباء الغيبية التي ذكرت في الكتب السابقة.

إن موضع هذه الآية يناسب تماماً سياق الموضوع كما هو ظاهر من العلاقة بينها وبين الآية السابقة. إن الله ﷻ يدعو بني إسرائيل للإيمان بمحمد رسول الله ﷺ الذي كان مجيئه مصداقاً لما تنبأ به كتابهم المقدس. والواقع أن جميع الكتب قد تنبأت بمجيء نبي عظيم، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضُكُمْ وَأَخَذْتُكُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨٢). فهذه الآية تخبرنا أن كل نبي بلغ أمته عن مجيء نبي عظيم، ودعا أمته للإيمان به عند ظهوره. وقد كان الحال قبل الإسلام أن كل نبي كان يُبعث لقوم من الأقسام، واستمر الحال على ذلك إلى أن جاء الإسلام، ففرض الله

تعالى أن يُبعث نبي عظيم لجميع الأقسام كافة. ولهذا كان من اللازم أن يسبق ذلك أن يؤخذ العهد على جميع الأمم بالإيمان بذلك النبي المبعوث للعالم أجمع عند ظهوره. وقد ورد ذكر مجيء ذلك النبي العظيم الذي يجمع الأمم في سفر أشعياء من التوراة حيث نجد: «هو ذا عبدي أعصده. مختاري الذي سُرّت به نفسي، وضعت روحي عليه فيُخرج الحق للأمم. لا يصيح ولا يرفع ولا يُسمع في الشارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يُطفئ، إلى الأمان يُخرج الحق. لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته» (٤٢: ١-٤). ثم نقرأ أيضاً في سفر أشعياء: «هو ذا قد جعلته شارعا للشعوب رئيسا وموصيا للشعوب» (٤: ٥٥). ثم قارن ذلك بخطاب الله تعالى للرسول ﷺ في القرآن الكريم: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٤٢). هذا وإن النبا الغيبي الذي تضمّنه سفر أشعياء لا يمكن القول بأنه ينطبق على عيسى عليه السلام لأنه لم يدع بأنه بُعث للناس كافة، وإنما قال: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ٢٤: ١٥).

كذلك نقرأ في سفر أشعياء: «حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غنى الأمم. تغطيكَ كثرة الجمال بُكران مديان وعِيفة كلها تأتي من شبا. تحمل ذهباً ولباناً وتبشر بتسابيح الرب. كل غنم قيذار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحي وأزبن بيت جمالي» (٦٠: ٥-٧). وفي هذا الصدد يقول القرآن المجيد: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحُجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج: ٢٨).

فهل هناك بيت آخر سوى ذلك البيت القائم بمكة الذي يُهرع الناس إليه على ظهور الجمال حيث يقدمون القرابين؟

فإذا أضفنا إلى الأنباء الغيبية المشار إليها النبا الغيبي بظهور نبي من بين إخوة بني إسرائيل وغيره، فإن الأمر يتكشف فوراً عن أن الكتاب المقدس قد اشتمل على

نبوءات تتعلق بمجيء نبي عظيم يجمع الأمم، كما يتضح أيضاً أن هذه النبوءات قد تحققت في شخص الرسول محمد ﷺ.

إن قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ في الآية التي نحن بصدد شرحها يتضمن دعوة بني إسرائيل إلى تدبر دعوى الرسول ﷺ وتجنب المسارعة إلى رفضها. وقد كان تحذيرهم من التسرع في رفض الحق لأن الإنسان إذا ما تسرع مرة في رفض الحقيقة دون أن يتفكر فيها بأناة ودون تحيز من هوى النفس، فإنه من العسير عليه أن يتقبلها بعد ذلك، ويصير متعصباً ضدها. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: ١١١).

إن هذا القول يشير إلى أنه لما كانت لدى أهل الكتاب أنباء إلهية عن مجيء نبي عظيم من بين نسل إسماعيل عليه السلام، فقد كانوا هم أجدر الناس بأن يحكموا بصدق نبي الإسلام ﷺ، ومن ثم يكونوا أول من يتبعوه، أو على الأقل ما كان يليق بهم أن يتمادوا إلى أقصى حد في رفضه.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قد وضّحه القرآن المجيد في موضع آخر: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ (النساء: ٧٨). وفي ضوء هذا الإيضاح يكون المعنى: لا تضيعوا الحق من أجل المغام الدنيوية لأن هذه المغام وإن كانت تبدو كبيرة إلا أنها زائلة ولا تساوي شيئاً بالقياس إلى المغام الأخروية. كذلك يمكن أن يكون معنى هذه العبارة أن من يرفضون الحق قد يضمنون المغام الدنيوية فقط، ولكن الدهر قُلبٌ، وبالتالي فإنه يحدث في هذه الحياة الدنيا أن يعلو شأن الصالحين.

والعبارة الأخيرة في الآية ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ تشبه في تركيبها العبارة الأخيرة من الآية السابقة أي ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾. والفرق بين العبارتين هو فقط في إحلال لفظة ﴿فَاتَّقُونِ﴾ محل لفظة ﴿فَارْهَبُونِ﴾، والأولى أوسع في معناها (راجع شرح الآية ٣ من نفس السورة).

وقبل الانتقال إلى شرح الآية التالية، يبدو من الضروري إزالة ما قد يحتمل من فهم خاطئ. إن القرآن المجيد يعلن بنفسه أنه مصدق لكتب النصارى واليهود، ولكننا نفينا أن ذلك التعبير يعني هنا أن القرآن الكريم يقر بصحة الكتب السابقة، ولكنه يعني أن نزول القرآن المجيد جاء محققاً لما أشارت إليه الكتب السابقة من نبوءات. وهذا لا يصح أن يكون محل فهم خاطئ فيقال إن القرآن المجيد لا يُقر بأن الكتب السابقة مصدرها سماوي. فالواقع أن القرآن نفسه يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥). ويدعو أتباع كل نبي أن يؤمنوا بجميع الرسالات الأخرى، على أن ذلك الإيمان ينبغي أن يكون عن طريق الرسول ﷺ لا بطريق مستقل عنه. وفي نفس الوقت يعيب القرآن المجيد ويرفض تعاليم عديدة تُنسب إلى الكتب السابقة يقول بأن هذه التعاليم مدسوسة عليها. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (مريم: ٨٩-٩٢)، وأيضاً: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠)، وكذلك: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٧). وتتلخص نتيجة ما تقدم فيما يلي:

(١) عندما يقول القرآن المجيد عن نفسه بأنه مصدق للكتب السابقة فلا يعني بذلك أنه يقر بصحة جميع ما في تلك الكتب، وإنما يعني أنه جاء مصداقاً لأنبيائها الغيبية.

(٢) ومع ما ذكر آنفاً فالقرآن المجيد يقر بأن جميع الكتب السابقة ترجع إلى أصل سماوي.

(٣) هذا الإقرار لا يعني أن القرآن المجيد يقر بصحة جميع التعاليم الواردة في تلك الكتب، إذ إن قدرًا كبيراً مما فيها قد تعرّض للتلاعب، كما أن هناك تعاليم كانت مقررة لمدة زمنية معينة ثم نُسخت.

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

تَلْبِسُوا: الماضي «لَبَسَ». يقال «لَبَسَ الثوب» أي استتر به. وأصل اللبس الستر، وباقي المعاني متفرعة منه، فتكون بمعنى التغطية أو الإخفاء... يقال «هذه الأرض ألبستها حجارة سود» أي غطتها، وتكون بمعنى الاختلاط والاشتباه... يقال «لبس عليه الأمر» أي خلطه وجعله مشتبهاً بغيره، ويقال «تلبس عليه الأمر أي اختلط واشتبه وأشكل (أقرب الموارد).

الْبَاطِل: مشتقة من بَطَلَ ومعناها: (١) فسد (٢) سقط حكمه (٣) ذهب ضياعاً... يقال «بطل دمه» أي ذهب هدرًا. ومعنى الباطل: (١) كل ما هو نقيض الحق. (٢) كل ما يذهب ضياعاً ولا فائدة فيه. (٣) الأمر أو الحكم الذي عُطِل ولا يُعمل به. (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

تتضمن هذه الآية الكريمة نهي اليهود عن شيئين؛ الأول: خلط الحق بما هو كاذب، وذلك بأن يسوقوا كلاماً من كتبهم ويضعوا له تفسيراً خاطئاً من عند أنفسهم. والأمر الثاني الذي نُهوا عنه هو كتمان الحق وإخفاؤه، أي كتمان الأنبياء الغيبية التي في كتبهم والتي تشير إلى النبي الموعود مجيئه.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

الزَّكَاةُ: مشتقة من «زكا» أي نما أو ازداد أو صلح أو طَهَّرَ.. إلخ، ومن ثم يكون معنى الزكاة: (١) الازدياد والكثرة. (٢) الطهارة. (معجم لين). وفي الاصطلاح الفقهي: هي الصدقة الواجبة حسب الشروط التي وضعها الإسلام (راجع شرح الآية ٦٠ من سورة التوبة). وفي مفردات الراغب: سُميت هذه الصدقة المفروضة بالزكاة لما يكون فيها من رجاء البركة أو لتزكية النفس؛ أي تنميتها بالخيرات والبركات.

ارْكَعُوا: الماضي «رَكَعَ» أي انحنى، ويقال ركع إلى الله أي تواضع لله واطمأن له خالصة. ويطلق الركوع على الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي، أو قد يراد بالركوع التواضع والتذلل إمَّا في العبادة أو في غيرها. وكانت العرب تسمي من آمن بالله تعالى ولم يعبد الأصنام «راكعًا»، ومن ذلك قول النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي المشهور: سيبليغ عذرًا أو نجاحًا في امرئ إلى ربّه ربّ البريّة راكع (راجع لسان العرب وأقرب الموارد وأساس البلاغة للزمخشري).

التفسير:

تتضمّن هذه الآية دعوة بني إسرائيل إلى أن يغيروا من حالهم تغييراً كاملاً، وينضمّوا إلى الإسلام لا بالإقرار فحسب ولكن بالعمل أيضاً، إذ إن التغيير الكامل هو وحده سبيل نجاتهم.

وقول الله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ لا يعني هنا مطالبة بني إسرائيل بالركوع في الصلاة، إذ لو كان الأمر كذلك لكان تكراراً لا محل له لأن العبارة التي قبل هذه: أي ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قد تضمّنت هذا المعنى. ومن ثم فإن قول الله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ معناه أن يخضعوا لله تعالى خضوعاً كاملاً، ويطرحوا جانباً أي علاقة أخرى قد تقودهم إلى الضلال والبعد عن الله تعالى.

ورُبَّ سائل يسأل: لماذا جرى القول هكذا ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ بدلاً من استعمال صيغة أبسط مثل «اركعوا مع المسلمين»؟ والجواب على ذلك هو أن ذلك التركيب

قد اختير لأنه يحمل في مضمونه إقناع اليهود بأن ذلك الأمر الإلهي لا ينطوي على التعسف وإنما يقصد به مصلحتهم خاصة، لأن امتثالهم له يدخلهم في زمرة الصالحين. ثم إن لفظة ﴿الرَّاكِعِينَ﴾ وهي اسم وصفي تتضمّن دلالة لا نجدها في الاسم العَلَم، فضلاً عن ذلك فإن استعمال هذه اللفظة يتضمّن ثناء الله تعالى على المسلمين، وهو ثناء يستحقونه كجماعة اتجهت إلى الله اتجاهاً تاماً وقطعت جميع الصلات التي كانت تربطها مع الآلهة الكاذبة. وهذا المعنى الإضافي ما كان يمكن أن تؤدّيه لفظة «مسلم» أو «مؤمن» إذ صارت كل من هاتين الكلمتين بمنزلة اسم العَلَم.

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

الْبِرُّ: معناها معاملة الأهل وغيرهم بالحسنى، أو الصدق أو الإخلاص، أو الاستقامة، أو الطاعة، أو طاعة الله ﷻ (أقرب الموارد)، وفي مفردات الراغب: البر التوسع في فعل الخير.

تَنْسَوْنَ: الماضي «نَسِيَ» وتكون بمعنى: (١) ضد حفظ. (٢) تجاهل. (٣) ترك الشيء أو أهمله (أقرب الموارد).

تَعْقِلُونَ: الماضي «عَقَلَ» ومعناها: (١) فهم أو علم. (٢) أدرك خطأه. ويقال عقل الغلام أي أدرك سن البلوغ. ويقال عقل البعير أي شدّه بحبل (أقرب الموارد). وفي مفردات الراغب أصل العقل الإمساك والاستمساك. ويقال عقل لسانه أي كفّه.

التفسير:

هنا يسأل القرآن المجيد بني إسرائيل.. كيف تأمرون الناس بأن يتوسعوا في فعل الخير أو يحسنوا معاملة الناس ويلتزموا الصدق والإخلاص ويعبدوا الله تعالى

ويطيعوه، ثم تتغافلون عن أنفسكم مع أنكم تتلون الكتاب. هذا وإن كتابكم يحوي نبوءات تتعلق بنبي الإسلام ﷺ. ومع ذلك فأنتم ترفضونه، وهكذا أعرضتم عن أمر إلهي عظيم مع أنكم تأمرون الناس بالتمسك بأوامر أخرى أقل أهمية، فهلا بعد ذلك تعقلون؟

إن لفظة ﴿الْكِتَابِ﴾ هنا يُقصد بها كتاب اليهود المقدس (التوراة)، ولا تعني اللفظة أن كل ما في ذلك الكتاب صحيح لا يقبل الجدل. والغرض هنا هو لفت نظر اليهود إلى أنهم في الوقت الذي يظنون فيه أنهم أهل الكتاب، فإنهم يسلكون مسلك الجهلاء، فهل ذلك سلوك يليق بسلوك أهل الكتاب حقاً؟

هذا ويصح تفسير قول الله تعالى: ﴿اتَّأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ بتفسير آخر. فلفظة «البر» كما جاء في شرح المفردات معناها معاملة الأقارب بالحسنى، ووفقاً لذلك يكون المقصود هو دعوة بني إسرائيل إلى تدبر موقفهم من إخوانهم أبناء إسماعيل عليه السلام. لقد دأبوا على حَضِّ الناس على معاملة الأهل بالحسنى، ولكنهم منذ أكثر من ألفي سنة مضت وهم يعاملون ذوي قرابتهم معاملة مشينة، ورفضهم للرسول ﷺ هو أيضاً بدافع الحسد الذي يكتونه لذرية إسماعيل.

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

الصَّبْرُ: مشتقة من «صَبَرَ». والصبر معناه: (١) إلزام النفس دوماً بما يقتضيه العقل والشرع. (٢) حبس النفس عما يمنعه العقل والشرع. (٣) حبس النفس عن إظهار الحزن والجزع. والصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سُمي صبراً لا غير ويضاد الجزع، وإن كان في محاربة سُمي

شجاعة، وإن كان في نائبة مُضْجَرَة سُمِّيَ رحابة الصدر، ويضاده الضجر (مفردات الراغب).

خَاشِعِينَ: والمفرد خاشع مشتقة من خشع ومعناها انّضع، تواضع، خص، كف نفسه وعقلها، اشتغل بالله تعالى وحده واستسلم لرحمته استسلاماً كاملاً (أقرب الموارد ومفردات الراغب ولسان العرب). ويقال خشعت الأرض أي سكنت واطمأنت. هذا وإن الآية التالية تبين المعنى المقصود من لفظة ﴿الْخَاشِعِينَ﴾ هنا.

التفسير:

هذه الآية والآية التي تليها يصح أن يكون الخطاب فيهما موجهاً إلى بني إسرائيل أو إلى المسلمين. فعلى الوجه الأول يكون المعنى أنه ينبغي لبني إسرائيل ألا يسارعوا إلى رفض الرسول ﷺ، وإنما عليهم أن يتحرّوا الحقيقة مستعينين بالصبر والصلاة. ثم تنتهي الآية بعبارة يوحي أسلوبها بأنه لما كان التحري عن الحقيقة بواسطة تلکم الطريقة أمراً صعباً، لذلك يُخَشَى ألا يتوسل أهل الكتاب بهذه الطريقة التي لا يلجأ إليها إلا الخاشعون. وأما على الوجه الثاني؛ أي إذا اعتبرنا الخطاب موجّهاً إلى المسلمين، فمن البديهي أن ذوي العقول الضعيفة من بين المسلمين قد بدأ يداخلهم الخوف من أهل الكتاب بعد ما أخذ القرآن المجيد في سرد مساعي اليهود العدوانية ضد المسلمين، وهذا التأثير النفساني على مستمعي القرآن الكريم اقتضى أن يتحوّل سياق الكلام إلى مخاطبة المسلمين بما يبث فيهم الأمل ويشجعهم، فهم إذا ما تذرّعوا بالصبر والصلاة فلا خوف عليهم، أو بعبارة أخرى، إذا ما أعرضوا عن الشرور وتحلّوا بالفضيلة واستقاموا وتمسّكوا بالصبر والمداومة على التوبة إلى الله تعالى بالدعاء طلباً للعون، فمن المؤكد أن يمدّهم بعونه، ويهزمون من يناهضونهم.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ يعود على الصلاة أو على الاستعانة المشتقة من ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾. والمعنى أن التماس عون الله تعالى عن طريق

الصبر والصلاة ليس بالأمر الهين، إذ لا يكفي أن يكون الإنسان مستقيماً بل يتطلب أيضاً كبح جماح النفس والتوكل الكامل.

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ
إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

يَظُنُّونَ: والماضي ظنّ وهو من الأضداد، أي قد يكون معنى الظن الشك أو عدم التأكد، وقد يكون معناه تارة أخرى اليقين والعلم المؤكد (أقرب الموارد). ومن الواضح أن المعنى الثاني هو المقصود في هذه الآية.

التفسير:

هذه الآية تفسر كلمة ﴿الْحَاشِعِينَ﴾ التي وردت في الآية السابقة، فتقول إن الخاشعين عند الله تعالى هم أولئك الذين يثقون به ثقة كاملة ويعتقدون اعتقاداً جازماً بأنهم سيلاقونه يوماً ما. ومثل هؤلاء الناس يتميزون بقوة العقيدة ولا يهتزّون أمام مناهضيتهم ومن يعارضهم.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾

التفسير:

من الواضح أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى اليهود خاصة. وبدء الآية بقول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يوحى إلى العود إلى الموضوع السابق، إذ إن هذه العبارة هنا تكرار للعبارة التي تصدرت الآية ٤١ من نفس السورة. ولكن ذلك ليس مجرد تكرار،

لأن الكلام التالي هنا يختلف عن الكلام السابق في الآية ٤١. ومن ثم فإن الآية تعني تقديم نقطة جديدة في نفس الموضوع. ففي الآية السابقة كانت نعمة الله تعالى على اليهود تشير إلى العهد بينه ﷺ وبين اليهود، وأما نعمة الله تعالى المذكورة في هذه الآية فتشير إلى ما سبق من تفضيلهم على العالمين.

ففي هذه الآية تذكير لليهود بأن الله ﷻ قد وفى ما وعدهم به، ولكنهم قد قصّروا في تنفيذ ما عاهدوه عليه، ولذلك كفّ عنهم البركات التي كان ينعم بها عليهم، وها قد جاءهم النبي الموعود به من بين إخوانهم، وتحولّ عهد الله تعالى إلى أناس جدد، ومن ثم فليس لهم حق الشكوى أو الاعتراض.

هذا وإن قول الله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ لا يعني تفضيل اليهود على الناس أجمعين منذ بدء الخليقة على كوكبنا هذا، فمثل هذا المفهوم لا يتماشى مع ما ورد في مواضع أخرى من القرآن المجيد. نذكر مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٤). فلو كان تفضيل اليهود تفضيلاً مطلقاً عاماً بمعناه الحقيقي لاقتضى ذلك ألا توجد أمة أخرى تشاركهم في مثل هذا التفضيل. أما وقد انتفى تفرّدهم بالتفضيل، فإن المعنى المقصود هو تفضيلهم في عصرهم ذاك فقط.

هذا وإن القرآن المجيد عندما يقصد معنى التفضيل على جميع الأمم، فإنه يستعمل صيغاً أخرى، فمثلاً يخاطب القرآن المجيد المسلمين فيقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١١). وهذا تعبير يعني بصورة قاطعة أن المسلمين أفضل الأمم جميعاً التي ظهرت على الأرض، وأنها جعلت لتعود بالخير على الناس.

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا
وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

تَجَزَى: مضارع والماضي جَزَى. يقال جزاه به وجزاه عليه أي كافأه. وجزاه عن الأمر قضي، يقال جَزَتْ عنك شاةٌ أي قضت. وبنو تميم تقول أجزأت عنك شاة بالهمز. وجَزَى هذا من هذا أو عن هذا أي كان هذا عوضاً عن هذا (أقرب الموارد ومعجم لين).

شَفَاعَةٌ: مشتقة من شفع، أي أضاف إلى الواحد ثانياً فصار شفعاً أي زوجاً. يقال: كان وترّاً فشفعته أي كان واحداً فقرنته بآخر. وفي مفردات الراغب الأصفهاني: «الشفع ضم الشيء إلى مثله. والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرٍ له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حُرمة ومرتبة إلى من هو أدنى منه مرتبة». ولما كان معنى الشفاعة يتضمّن المماثلة أو المشابهة، فكأن الشافع يَقْرُنُ أو يضم إليه المحتاج إلى الشفاعة عندما يستخدم نفوذه لقضاء حاجته. فالقول «شفع لفلان أو في فلان إلى الأمير» يعني أنه تشفع له لدى الأمير على اعتبار أن صاحب الحاجة يرتبط به بصلة القرابة أو الصداقة أو التبعية أو ما إلى ذلك. ومن ثم فإن الشفاعة تعني الرجاء أو الدعاء لشخص من أجل التفضّل عليه أو التجاوز عن ذنوبه تقديراً لصلة الشافع به. كذلك تدل الشفاعة على أن الشافع أعلى مرتبة من صاحب الحاجة (مفردات الراغب، ولسان العرب، وأقرب الموارد، ومعجم لين).

عَدَلٌ: مشتقة من عَدَلَ. والعدل معناه: (١) القصد في الأمور ضد الجور. (٢) ما يقوم مقام الشيء من غير جنسه. (٣) الفدية التي لا جور فيها (أقرب الموارد).

التفسير:

تتضمّن هذه الآية مسألة هامة، فالله تعالى يخاطب بني إسرائيل الذين يدعون أنهم من سلالة الأنبياء، ويقول لهم إنهم وإن كانوا حقاً من نسل رجال مقدّسين، وأنه سبحانه قد شملهم بنعمة خاصة، كما رفعهم فوق أهل زمانهم، إلّا أن نقضهم المتكرر لعهد، وجنوحهم إلى الحياة الخبيثة، ثم رفضهم أخيراً النبي الموعود به طبقاً لأنبياء

كتابهم المقدس، أصبحوا بذلك لا يستحقون بركاته سبحانه وتعالى، بل بالعكس صاروا أهلاً للعنة، ولا بد أن يستعدّوا لمحاسبتهم على أفعالهم. وهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها تدعو اليهود ليستعدوا ليوم الدين حيث يقفون أمام الله تعالى دون نصير، ولا أحد يتشفع لهم أو يعاونهم بأي وجه من الوجوه. ولا قيمة لكونهم من نسل أناس مقدسين، ولن يُقبل منهم أي عوض أو فدية، فهو يوم عصيب حقاً على أولئك الذين يرفضون رسل الله ﷺ لأنه في ذلك اليوم لا ينفع الإنسان إلا ما قدّمت يده.

وكما أن المجرم لا يجد أمامه إلا وسائل أربع قد تضمن له النجاة، فإن الله تعالى ذكر هنا جميع هذه الوسائل، وأوضح بجلاء أنه ما من وسيلة من هذه الوسائل تفيد المجرم يوم الحساب. وأول ما يخطر على بال الآثم هو أنه بريء قانوناً من الجريمة التي اتُّهم بارتكابها، فإما أن يكون مرتكب الجريمة شخصاً آخر غيره، وإما أن يكون قد ارتكب الجريمة بتحريض شخص آخر، أو أن أحداً قد تحايل على إلقاء التبعة عليه. وهكذا يحاول المجرم الخلاص بإلقاء اللوم أو المسؤولية على غيره. ففيما يتعلق بهذه الدعوى يقول القرآن المجيد أنه في يوم الحساب: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾. أي إذا كان الشخص مذنباً حقاً فلا بد أن يقع اللوم على رأسه، ولا يمكن أن يتحوّل اللوم إلى غيره. فكل إنسان سوف يحمل عمله على عاتقه، ولن تكون هناك كفارة في ذلك اليوم، أي لن يكون هناك من يقف عوضاً عن غيره.

وعندما تخفق وسيلة التنصل من الجريمة وإلقائها على شخص آخر، فإن المجرم يلجأ إلى الوسيلة الثانية التي يرجو النجاة عن طريقها، وذلك أنه إما أن يحتمي بشخص ذي نفوذ يقف إلى جانبه، وإما يدعي بأنه ينتسب إلى شخص ذي منصب رفيع، ومن ثم فهو يستحق أن يعامل معاملة خاصة. ورداً على ذلك يقول القرآن المجيد: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾. وكما سبق بيانه في شرح المفردات فإن الشفاعة تعني هنا أمرين؛ الأول: لن يؤذن لأي إنسان ذي منصب أن يتشفع للمجرم؛ والثاني: لن يُسمح للمجرم نفسه أن يدّعي بأنه ينتسب إلى شخص ذي نفوذ.

والوسيلة الثالثة التي يرجو المجرم النجاة عن طريقها هي أن يحاول الخلاص عن طريق أداء الفدية. ويقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾. أما وقد خاب الرجاء في هذه الوسائل جميعاً، فلم يبق للمجرم إلا الالتجاء إلى الوسيلة الأخيرة، فيظن أن استعمال القوة هو الوسيلة للنجاة قسراً. وفي هذا يقول القرآن المجيد: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾. أي أنهم لن يجدوا من يعاونهم في الوقوف أمام قضاء الله تعالى.

إن القرآن المجيد لا يقصد التهديد، ولكنه يذكر هذه الأمور لينبّه بني إسرائيل إلى عدم التعلق بالأمانى الكاذبة، وليدركوا أن الطريق الوحيد المفتوح أمامهم هو الإيمان بالرسول محمد ﷺ، الذي بعثه الله تعالى من أجل مصلحتهم أنفسهم.

وهنا يطرأ سؤال هام: ما هي تعاليم الإسلام فيما يختص بالشفاعة؟ فهل يرى الإسلام أنه لا جدوى على الإطلاق من وراء الشفاعة، وأنها غير مشروعة كما يبدو من الآية، أم أن للإسلام وجهة نظر معينة في الشفاعة المجدية المشروعة؟ ويؤخذ من القرآن المجيد ومن الأحاديث النبوية أن القول الثاني هو الصحيح، وها نحن نبسط الموضوع فيما يلي:

إن الشفاعة كما ورد في شرح المفردات تعني وفقاً لأصل اشتقاقها إضافة شيء ما إلى الآخر، أو ارتباط شخص بآخر ليكونا اثنين أو زوجين على أساس المشابهة بينهما، وترد مختلف مشتقات هذه اللفظة في القرآن المجيد فيما لا يقل عن تسعة وعشرين موضعاً. وتحتفظ اللفظة في كل موضع من هذه المواضع بواحد من وجهي المعنى الأصلي لها أو بكليهما. إن استعمال لفظ الشفاعة يعني أن الشخص الذي يتشفع لغيره يجب أن يكون حائزاً على صلة ذات جانبين. الأول: أن يكون على علاقة خاصة مع الشخص الذي يتشفع إليه، إذ إنه لا يجزئ أحد على التقدم بالشفاعة دون وجود هذه الصلة، ثم لا جدوى من الشفاعة بغير وجود هذه الصلة. والجانب الثاني هو

لزوم أن يكون الشافع على صلة خاصة بالشخص الذي يطلب الشفاعة. إذ لا أحد يتشفع لشخص ما إذا لم تكن بينهما صلة خاصة طابعها المشابهة والمشكلة.

وفي الاصطلاح الديني تعني الشفاعة أن يتشفع رجل تقي إلى الله تعالى في شخص مذنب. وهنا أيضاً تلزم الصلة ذات الجانبين المشار إليها آنفاً. فالشخص التقي الذي يتقدم لله ﷻ ينبغي أن يكون على علاقة خاصة معه جل شأنه ويكون مباركاً وأثيراً عنده. ومن جهة أخرى ينبغي أن يكون على صلة حقة بمن يتشفع لأجله، إذ يحتمل إذا لم توجد هذه الصلة أن لا يجد حافزاً له على طلب العفو والمغفرة، بل لا تُعد الشفاعة في مثل هذه الحالة ذات قيمة لدى الله تعالى. الواقع أن الشفيع الذي يستند إلى هذه الصلة بوجهيها يتقدم إلى الله تعالى وهو يقول مثلاً: اللهم جئتكَ برجاء خاص وأنا أعلم أنك راضٍ عني وميِّزني بنعمتك، وها هو إنسان تربطني به صلة خالصة قد زلّ في لحظة ضعف وتعثّر واضطرب، وبما أنك رؤوف ومحسن إليّ، فأسألك ربي أن ترأف أيضاً بعبدك هذا المخطئ وتعفو عن خطاياها. وهذا ما يمكن أن يسمى جوهر الشفاعة حسبما يعلمنا الإسلام وحسبما يعرفنا بأنها الشفاعة المشروعة.

ويتضح من معنى الشفاعة الذي ذكرناه آنفاً أن الشفاعة تحكمها عدّة شروط:

الأول: أن يكون الشفيع مقرّباً إلى الله تعالى وحائزاً على نعمته الخاصة.

الثاني: ينبغي أن يكون الشخص المحتاج إلى الشفاعة على صلة صادقة وحقيقية مع الشفيع.

الثالث: ينبغي أن يكون مَنْ وقع منه الذنب رجلاً طيّباً على وجه العموم، والذنب الذي ارتكبه نتيجة إغراء طارئ في لحظة ضعف، إذ كيف يكون للشخص الذي اعتاد ارتكاب الآثام أي صلة صادقة برجلٍ متّقٍ.

الرابع: ينبغي أن تكون الشفاعة بإذن من الله تعالى دائماً، ذلك لأن الله تبارك وتعالى وحده الذي يعلم ما إذا كان ذلك الرجل الصالح مقرّباً عنده فعلاً. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى هو وحده الذي يعلم ما إذا كانت الصلة بين ذلك

الشفيع المتقي وبين المتشفع له تقوم على الصدق والإخلاص، إذ كثيراً ما تبدو الصلة طيبة من حيث الظاهر، ولكنها فاسدة من حيث الباطن.

الخامس: ليس من الضروري أن تكون كل شفاعاة مشروعة ومثمرة. إذ لا تكون كذلك إلا إذا تحققت كل الشروط المطلوبة.

إن وجهة النظر التي ذكرناها آنفاً تجد ما يؤيدها بصورة واضحة في تعاليم الإسلام. فمثلاً نجد في القرآن المجيد: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ١٢٤). والخطاب في هذه الآية موجه إلى بني إسرائيل، والمعنى أنهم ما داموا قد رفضوا الرسول ﷺ، وبذلك فوتوا على أنفسهم إقامة أهم العلاقات الروحية، لذلك لن تنفعهم الشفاعاة يوم القيامة. وهذا يدل بوضوح على أن الشفاعاة لا تكون مجدية إلا للذين يؤمنون بنبي عصرهم، ولا جدوى من الشفاعاة للذين يرفضون رسول الله تعالى ويناهضون السلطة السماوية. وما دام هؤلاء الناس قد قصروا في إنشاء العلاقة التي طلب إليهم إنشاؤها، فليس هناك إذن محل للشفاعة.

كذلك جاء في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (طه: ١١٠) أي لا يتقدم للشفاعة إلا بإذن من الله تعالى، ويكون راضياً عن قول الشافع لأجل المشفوع له. وهذه الآية تلقي ضوءاً على ثلاثة أمور مهمة:

الأمر الأول: إذا كان هناك من ستكون شفاعتهم مجدية، فإنه، من جهة أخرى، هناك من لا تفيد شفاعتهم شيئاً.

الأمر الثاني: أن تلك الشفاعاة لن تجدي إلا إذا أذن الله تعالى بها.

الأمر الثالث: إن ذلك الإذن لن يكون إلا للشفاعة من أجل أولئك المذنبين الذين يتمتعون على الأقل بسلامة الإيمان، أي يكون إيمانهم صادقاً وقائماً على أساس متين، وذنبهم ينحصر في دائرة الأعمال نتيجة ضعف أحياناً، دون أن يمتد ذلك إلى العقيدة.

وفي موضع آخر من القرآن المجيد نقراً قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٦). وتمدنا هذه الآية بالعلة في إقرار المبدأ الذي تضمنته الآية السابقة، أي (طه: ١١٠)، فتقول الآية إن إذن الله تعالى ضروري لأنه هو وحده الذي يحيط بكل شيء علماً، وهو وحده الذي يعلم ما إذا كانت الصلة ذات الوجهين في الشفاعة موجودة فعلاً أم لا. أي ما إذا كان الرجل التقى الذي يروم الشفاعة على صلة حقاً بالله تعالى بالقدر الذي يؤهله لأن يتشفع، ثم ما إذا كان الشخص الذي يريد أن يتشفع له على صلة حقة وخالصة به؛ أي بالشافع.

ولتوضيح هذه النقطة نذكر هنا ذلك الحادث الذي وقع في زمن نوح عليه السلام. ففي وقت الطوفان العظيم رأى نوح ولده وقد أحاطت به الأمواج المتلاطمة وهو على وشك الغرق، وعندئذ أتجه نوح إلى ربه منادياً إن ذلك الولد المشرف على الغرق هو من أهله الذين وعد الله تعالى بحفاظتهم. وعندئذ أجابه الله تعالى جواباً قاطعاً وقال: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: ٤٧). ويبدو من هذا أنه في لحظة من اللحظات التي يعاني فيها الفكر شدة الاضطراب، تقدم نوح عليه السلام إلى ربه متشفعاً لأجل ابنه قبل أن يستأذن، وعندئذ ذكره الله تعالى بأن ذلك الولد وإن كان ابنه من الناحية الجسمانية، ولكنه من الناحية الروحانية الحقة ليس بابنه، ومن ثم فهو ليس بأهل للشفاعة التي بُني أساسها على الصلة الروحانية.

وبعد ما أوضحنا باختصار طبيعة الشفاعة وشروطها، ننتقل بعد ذلك إلى مسألة صور الشفاعة وأنواعها. ويتكشف من دراسة الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع ومما أوضحناه آنفاً أن هناك ثلاثة أنواع من الشفاعة:

النوع الأول: الشفاعة القولية، وفي هذه الحالة يدعو المقرب إلى الله تعالى استناداً إلى الصلة الخاصة بينه وبين الله جل وعلا، ويتضرع طالباً مثلاً المغفرة لفلان المخطئ

الذي يرتبط به، أو البرء لفلان التعس الذي أقعده المرض أو حلت به المصائب. والشفاعة في هذه الحالة هي فعلاً نوع من الدعاء الذي يتميز بشدة التضرع، ويتسم بآثره القوي. ذلك أن الدعاء مجرد طلب يتوجّه به الداعي إلى الله تعالى. وأما الشفاعة فإنها وإن كانت دعاءً إلا أنها دعاء يستند إلى تلك العلاقة ذات الجانبين التي ذكرناها آنفاً. فالشفيع يتضرع إلى الله تعالى بطريقة خاصة لأنه يتمتع أولاً بمكانة خاصة عند الله ﷻ، ولأنه ثانياً يتشفع من أجل شخص يرتبط به ارتباطاً حقيقياً خالصاً. وذلك الارتباط ذو الجانبين يضفي على الشفاعة قوة لا نجد لها في الدعاء العام، فالشفيع يقول مثلاً: رب إن كنتُ أثيراً عندك، فاشمل بعطفك أيضاً ذلك الشخص الذي يعاني فإنه عزيز لديّ. ومثل هذا الدعاء الذي يتم بإذن من الله تعالى لا شك أنه يستدرّ رحمة الله تبارك وتعالى، ولا شك في أنه ينال القبول.

النوع الثاني: هو أيضاً صورة من صور الشفاعة بالقول، ولكنه لا يكون في صيغة دعاء، بل مجرد قول يُعبّر فيه الشفيع عن الصلة التي تربطه ومن يطلب الشفاعة لأجله. فقد يحدث أحياناً بدافع الخوف أو الحياء أن يحجم الشفيع عن السؤال المباشر أو الدعاء، ويكتفي بالتعبير عن الصلة التي تربطه ومن يستشفع له تاركاً الأمر لله ﷻ. ومثال ذلك شفاعة نوح عليه السلام من أجل ابنه التي ذكرناها من قبل، فنوح عليه السلام لم يدعُ لابنه وإنما اكتفى بأن يذكر لله تعالى الصلة القائمة بينهما فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود: ٤٦). ومن الواضح أن هذه حالة من حالات الشفاعة، وإن كنا لا نجد فيها أسلوب الدعاء فعلاً.

النوع الثالث: هناك نوع من الشفاعة لا يقع تحت أي من نوعي الشفاعة السابقين، فلا هو شفاعة في صيغة دعاء، ولا هو تعبير عن وضع الشافع ومن يستشفع لأجله، وإنما هو شفاعة توجد تلقائياً من العلاقة ذات الجانبين التي هي أساس الشفاعة. والواقع أن هذه العلاقة بالذات هي التي يطلق عليها شفاعة. فمثلاً يتحدث القرآن المجيد عن بني إسرائيل يوم القيامة فيقول: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةُ﴾ (البقرة: ١٢٤)، فلفظ الشفاعة قد استعمل هنا بمعنى العلاقة، أي كأن الله تعالى يقول لبني إسرائيل

أما وقد رفضتم الارتباط برسول الله ﷺ فلن تنفعكم أي رابطة أخرى، ولا فائدة من كونكم من أتباع إبراهيم أو موسى أو داود عليهما السلام أو غيرهم.

وعلى أساس ذلك المفهوم يُعتبر المبعوث السماوي شفيعاً لجميع أتباعه الصادقين دون تفرقة، وكل من يلوذون به ينجون، ويصيب الهلاك الآخريين. وعلى أساس ذلك المفهوم أيضاً يعتبر الله تبارك وتعالى شفيعاً، فكل من يتمسكون بحبله يكون نصيبهم النجاة. وأما من لا يرتبطون به ﷻ فيكون نصيبهم الدمار.

وهنا ينشأ سؤال آخر وهو: لِمَ أقرَّ الله تعالى مبدأ الشفاعة أصلاً؟ والجواب على ذلك أن الشفاعة أولاً باعتبارها الصلة الطيبة هي روح الروحانية. وكل تقدم روحاني يعتمد على هذه الصلة. فالنفس التي ليست على صلة بالله تعالى مآلها الضياع، وكذلك النفس التي ليست على صلة بنبي عصرها الذي يُعتبر ممثلاً لله تعالى على الأرض مآلها أيضاً الضياع. وإلى ذلك يشير القرآن المجيد: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ (النساء: ٨٦). وهكذا يتضح أن الشفاعة بمعنى الصلة الطيبة هي في حد ذاتها تشهد على ضرورتها وعلى فائدتها دون حاجة إلى بسط القول عنها. ولكن إذا أخذنا الشفاعة بمعناها الآخر، فهنا يحتاج الأمر إلى شيء من الإيضاح. فإذا كان كل شيء يتوقف على الإيمان الحقيقي والأعمال الصالحة، فما هي الحاجة إذن إلى وجود الشفاعة؟ إن مجرد التفكير السطحي في هذه المسألة يؤدي بنا إلى الاقتناع بأن الفكرة الخاطئة السائدة بين كثير من الناس عن الشفاعة إنما ترجع إلى المفهوم المعتاد الخاطئ لمعنى هذه اللفظة. لذلك نجد أن الناس الذين لا يقيمون وزناً للمبادئ الخلقية، يذهبون إلى القضاة ليتشفعوا من أجل المجرمين، وهكذا يطعنون العدالة في الصميم. ولكن الشفاعة الإسلامية بعيدة كل البعد عن ذلك، فهي ليست مجرد وساطة، ولكنها عنصر ملحق يبدأ بمبدأ الإيمان الحقيقي والعمل السليم. فحسب تعاليم الإسلام، لا يكون أحد أهلاً للشفاعة من أجله إلا إذا كان على علاقة خالصة مع نبي زمانه، وصادقاً في عقيدته، ويسعى جاهداً ليحيا حياة مستقيمة وفقاً لتعاليم الإسلام، إلا أنه يتعثر أحياناً نظراً لضعفه،

وليس هناك خطأ متأصل فيه فيما يتعلق بعلاقته مع الرسول، إذ هي علاقة نقيّة صادقة، إلّا أن زلته من حين إلى حين تجعله قاصراً عن السمو إلى المستوى المطلوب. فمثل هذا الشخص يجعله الله تعالى أهلاً لأن يحظى بالشفاعة لأجله، ولا يكون ذلك إلّا بعد إذن خاص منه ﷺ. فإذا كان العليم الخبير ﷺ يرى بعد ذلك أن هذا الشخص يستحق المغفرة، فمن له أن يعترض ويقول بأنه لا يستحق العفو؟ والواقع أن الشفاعة الإسلامية ليست إلا شكلاً آخر للتوبة، إذ إن التوبة ما هي إلا إعادة إصلاح علاقة أصابها العطب، أو تقوية رابطة تعرّضت للضعف. غير أن باب التوبة يُغلق عند الموت، وأما باب الشفاعة فيظل مفتوحاً كوسيلة لمظهر رحمة الله تعالى، والتي قال جل شأنه عنها: "رحمتي سبقت غضبي". (رواه البخاري). فالشفاعة إذن تقوم على أساس مظهر الرحمة الإلهية. ولما كان الله تعالى ليس بقاّض وإنما هو مالك، فليس هناك ما يحول دون أن تشمل رحمته من يشاء.

ثم إن هناك سببا آخر لإجازة الإسلام للشفاعة، ذلك أنها طريقة لتكريم الله تعالى أنبياءه. وحقاً إنه لشرف عظيم أن يسمح للإنسان أن يتقدم إليه ﷺ طالباً الشفاعة. إن بعض النقاد المسيحيين يدّعون أن وجود الشفاعة في الإسلام من شأنه أن يشجع على ارتكاب المعاصي. وليس هناك أبعد عن الصواب من هذا القول. فالإسلام إذ يميز الشفاعة إنما يشجع الناس على تقوية صلتهم بالرسول ﷺ لا توهينها. ولما كانت المعصية ليست إلا نتيجة ضعف في الصلة الروحانية، فإن الشفاعة والمعصية تقفان في الواقع على طرفي نقيض. ومن الجهل المطبق أن يقال بأن قاعدة الشفاعة، والتي يركز مفهومها أصلاً على سلامة الصلة مع الله تعالى ورسوله ﷺ، تشجّع الإنسان على المعصية. بل على العكس، فإن مبدأ الكفّارة في المسيحية هو الذي يستند إلى مفهوم غير طبيعي، إذ يقول بأنه من الممكن للإنسان أن يحمل عنه غيره خطاياهم، وهذا موضوع سنعالجه فيما بعد في موضعه من القرآن المجيد.

يبقى بعد ذلك سؤال آخر، وهو: لمن ستكون الشفاعة يوم القيامة؟ وقد أدى ذلك السؤال إلى كثير من النقاش، وبالتالي إلى كثير من سوء الفهم. ونقول بداية إن الإسلام لا يحصر حق الشفاعة في شخص معين، إذ حسب مفهوم الشفاعة في الإسلام، كل تقي تكون لصلته بشخص ما القدرة على التأثير روحانياً في ذلك فإنه يكون فعلاً شفيعاً له. وعلى هذا فجميع الأنبياء شفعاء، ولكن كل في مجاله الخاص. فإبراهيم عليه السلام شفيع لأولئك الذين اتبعوه، وموسى عليه السلام شفيع للذين اتبعوه، وهكذا. ولكن ببعثة نبي الإسلام محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم قد انتهت كل الصلوات الأخرى، ذلك لأن بعثته لكل زمان وللشخص جميعاً. فحتى أتباع موسى عليه السلام في زماننا هذا لا يمكنهم أن يتجهوا إلى موسى للشفاعة، وكذلك الحال بالنسبة لأتباع عيسى عليه السلام لأن هؤلاء الأتباع يُعتبرون من الناحية الروحية في ظل نظام نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، إذ قد انتهت أزمنة الأنبياء السابقين ونظمهم. وحقيقة الأمر أن الله تعالى هو وحده الشفيع الحقيقي طبقاً لما بينه القرآن المجيد: ﴿مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة: ٥). فالله تعالى هو إذن الشفيع الحقيقي، أي أن الصلة به هي وحدها التي يُعتدّ بها في الواقع، ومن ثم يكون الأنبياء شفعاء ثانويين فحسب. وكل نبي يمثل الله تعالى في عصر من العصور، وفي مكان معين، يُعدّ شفيعاً لأهل ذلك العصر وتلك البقعة من الأرض. ويستنتج من ذلك أن الأنبياء الذين خلوا قبل الإسلام كانوا شفعاء لأتباعهم في زمانهم فقط، وقد انتهت مدة شفاعتهم بظهور الإسلام. وأصبح نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم هو وحده الشفيع لجميع العصور ولكل الأمم. ولكونه المظهر الكامل لله تعالى فهو إذن الشفيع الكامل صاحب الرسالة العالمية، وهو ثانياً الشفيع العالمي الذي أنهى مجيئه جميع الصلوات الأخرى، وثالثاً هو الآن الشفيع الوحيد صلى الله عليه وسلم، ومصدقا لذلك نحيل القارئ على الحديث الجلي الذي رواه مسلم في هذا الصدد (كتاب الإيمان): حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ حَدَّثَنَا مَعْبُدُ بْنُ هِلَالٍ الْعَزْرِيُّ قَالَ انْطَلَقْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَتَشَفَّعْنَا بِثَابِتٍ فَأَنْتَهَيْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي الضُّحَى فَاسْتَأْذَنَ لَنَا ثَابِتٌ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَأَجْلَسَ ثَابِتًا مَعَهُ عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ لَهُ يَا أَبَا حَمْزَةَ إِنَّ

إِخْوَانَكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يَسْأَلُونَكَ أَنْ تُحَدِّثَهُمْ حَدِيثَ الشَّفَاعَةِ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ اشْفَعْ لِدُرِّيَّتِكَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ خَلِيلُ اللَّهِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيُوتَى مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ فَيُوتَى عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأُوتَى فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأُحْمَدُهُ بِمَحَامِدِهِ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ يُلْهِمْنِيهِ اللَّهُ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ لِي يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ فَأَقُولُ رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأُحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ لِي يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ فَأَقُولُ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ لِي انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ».

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَالِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

آل: مشتقة من الفعل «آل»، يقال «آل إليه» أي رجع إليه، و«آل عنه» رجع عنه. و«أُلْتُ الشيء» أصلحته وسُسْتُه. و«آل الملك» رعيته، و«آل الرجل» أهله وعياله. هذا وتذهب طائفة من علماء اللغة إلى أن الألف في «آل» بدل من «الهاء» أي أن أصل اللفظة «أهل»، فالأهل والآل بمعنى واحد. ويقال «أهل الأمر» أي وُلاته. و«أهل البيت» سكانه، و«أهل الرجل» زوجته وعشيرته وذوو قرياه (لسان العرب والقاموس المحيط). ولما كانت لفظة «آل» تتضمن معنى الرجوع، فإن «آل الرجل» أي عياله وعشيرته، و«آل الزعيم» أي قومه ومتبعيه، فكل هؤلاء يرجعون إلى الرجل أو إلى الزعيم في شؤونهم، كما أن الرجل أو الزعيم يرضى مصالحهم ويحكمهم.

فِرْعَوْن: ليس هذا اللفظ اسم علم، وإنما هو لقب كان يلقب به ملوك قدماء المصريين. وفي التوراة سُمي كل ملك من ملوك قدماء المصريين فرعون، ورعسميس الثاني هو فرعون الذي جرى ما جرى بينه وبين موسى عليه السلام (دائرة معارف الكتاب المقدس).

يُذَبِّحُونَ: مشتقة من «ذَبَحَ» أي شق، فثق، نحر، خنق. و«يُذَبِّحُونَ» صيغة مبالغة. ولفظة «يُذَبِّحُونَ» معناها هنا: (١) أن فرعون وقومه كانوا يعاملون بني إسرائيل معاملة البهائم. (٢) وكانوا يقتلونهم دون شفقة. هذا ويجدر أن نلاحظ أن اللفظة هنا لا تعني أن فرعون وقومه كانوا يذبحون بني إسرائيل كما تُنحر البهائم، وإنما تعني أنهم كانوا يقتلونهم، إذ نجد في الآية ١٤٢ من سورة الأعراف أن لفظة «يُقَتَّلُونَ» استعملت بدلاً من لفظة «يُذَبِّحُونَ»، فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

نِسَاءَكُمْ: جمع امرأة من غير لفظها (أقرب الموارد). وقد تستعمل هذه اللفظة أحياناً بمعنى البنات، كما جاء في القرآن المجيد: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُثَلَّى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ

وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ (النساء: ١٢٨). وقد تُستعمل أيضاً بمعنى الأزواج كما جاء في الآية: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

بَلَاءٌ: البلاء الاختبار والامتحان. وقد يكون الاختبار تارة بالمسار وتارة بالشدائد (أقرب الموارد).

التفسير:

في الآيات من ٤١ إلى ٤٨ ذكر الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بصفة عامة بنعمه ﷺ عليهم، وعلى الأخص نعمة النبوة التي أنعم بها عليهم. وبعد ذلك يوجه الله ﷻ نظرهم إلى تلكم النعم التي رفعتهم فوق الأقوام الآخرين، وأولى هذه النعم تخليصهم من أيدي فرعون وقومه الذين أذاقوهم أمر العذاب.

ويعترض بعض النقاد المسيحيين على القرآن المجيد، فيقولون إن التوراة لم تذكر أبداً أن بني إسرائيل كانوا يُذبحون ذبح العجاوات حسب رواية القرآن الكريم، وقد أوضحنا في شرح المفردات أن لفظة «ذبح» لا تعني هنا النحر فعلاً بجز الرقبة، إذ إن من معانيها الشنق أو الخنق. ولما كان فرعون قد أمر في بادئ الأمر بخنق أطفال بني إسرائيل عند ولادتهم، ثم عدّل قراره بما يتضمّن اتخاذ وسائل أخرى للقضاء على بني إسرائيل، لذلك استعمل القرآن المجيد لفظة ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ التي يشمل معناها مختلف وسائل القتل. هذا وقد ذكرنا أن هذا التعبير القرآني يتضمّن الإشارة إلى أن الفراعنة وقومهم كانوا يعاملون بني إسرائيل معاملة الأنعام، فيقتلونهم بأي كيفية تترأى لهم. وذكرنا أيضاً في شرح المفردات أن القرآن المجيد قد استعمل لفظة ﴿يَقْتُلُونَ﴾ في آية أخرى مشابهة.

وفي التوراة نجد: «ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال له لئلا ينمو... فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فينوم ورعمسيس. ولكن بحسبما أذلّوهم هكذا نموا وامتدوا، فاختشوا من بني إسرائيل فاستعبد

المصريون بني إسرائيل بعنف ومزّروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين والدّين وفي كل عمل في الحقل وفي كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنف.. وكلم ملك مصر قابلي العبرانيات ... وقال حينما تولّدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي، إن كان ابنا فاقتلاه وإن كانت بنتا فتحيا. ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلّا كما كلمهما ملك مصر. بل استحيّتا الأولاد ... وكان عذرهما الذي انتحلته: إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة ... ثم أمر فرعون جميع شعبه قائل: كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها» (الخروج ١: ٨-٢٢).

ويظهر بوضوح من ذلك النص أن فرعون، واسمه رمسيس الثاني، لم يكتف بإنزال أشد العذاب عليهم سواء بالعمل الشاق أو التحقير، بل أمر بقتل الذكور من الأطفال وترك الإناث ليصبحن نساء كما ذكر القرآن المجيد. لقد استخدم القرآن المجيد لفظ «ذبح» ويعني بذلك أن الأمر الملكي الأول كان يقضي بخنق الأطفال الذكور، ولكن عندما لم يحقق ذلك الأمر الغرض المطلوب، أصدر فرعون أمراً آخر بإلقاء جميع الأطفال الذكور في النهر، وهي أشد وسائل القتل بعداً عن الرحمة وتجرداً من الإنسانية.

ولما كانت لفظة ﴿بَلَاءٌ﴾ تعني الاختبار عن طريق النعمة أو البركة، أو عن طريق الحزن والمحنة، فإن قول الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ قد يشير إلى خلاص الإسرائيليين من فرعون وقومه، وعلى هذا الوجه يُحمّل لفظ ﴿بَلَاءٌ﴾ على المعنى الأول. أو قد تكون الإشارة في كلمة ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى قتل الذكور من أطفال الإسرائيليين، وعلى هذا الوجه يُحمّل لفظ ﴿بَلَاءٌ﴾ على المعنى الثاني.

ففي هذه الآية يُذكر الله تعالى بني إسرائيل كيف أنه نجّاهم من صنوف العذاب القاسي والمحن، ويوجّه نظرهم إلى عظم الآية التي تمثلت في نعمته عليهم، وكأنه يقول لهم إنه قد وفى صادقاً بوعده لإبراهيم على أتم وجه، ولكن لما جنحوا إلى شق

عصا الطاعة وقابلوا أفضال الله تعالى بالسيئات، أمسك ﷺ عنهم نعمه، وحول نعمة النبوة إلى إخوتهم بني إسماعيل.

ويلاحظ أن الله تعالى لم يقل إنه قد نجا بني إسرائيل من فرعون، بل قال إنه نجاهم من ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾، ذلك لأن فرعون أنزل بهم العذاب بواسطة قومه، ووقف هو من ورائهم. وفضلاً عن ذلك فإن كلمة ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ في تعبير اللغة قد تُعبر عن فرعون وقومه، أي أن فرعون غير مستثنى من قومه فيما فعلوه بني إسرائيل.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

فَرَقْنَا: يقال فَرَقَ بينهما أي فصل أو شق، و«فرق الشعر» أي سَرَّحه، و«فرق لفلان أمر» أي تبين واتضح، و«فرق له من الشيء» أي بيَّنه (أقرب الموارد).

بِكُمْ: تحتل عدة معان كما في تفسير الكشاف: الأول بمعنى من أجلكم، الثاني بمعنى معكم. ونص عبارة الكشاف «كانوا يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم فكأنما فرق بهم كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما»، والثالث بمعنى من أجل إنجائكم أي بسبب إنجائكم، والرابع بمعنى فرقناه أثناء وجودكم، ونص عبارة الكشاف «فرقناه ملتبساً بكم».

التفسير:

تشير هذه الآية إلى ما جرى من قيام موسى ﷺ بقيادة قومه في الخروج من مصر إلى فلسطين بناءً على أمر الله تعالى، فشرع الإسرائيليون في الرحيل سراً بالليل، ولكن عندما علم فرعون بهروبهم تبعهم بجيشه ليعيدهم إلى العبودية. وتذكر الآية كيف أن الله تعالى قد أنعم عليهم بأنه فرق البحر من أجلهم وأغرق المصريين. وقد جاء

ذكر هذه الحادثة في التوراة كما يلي: «ومدّ موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سورّ لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد» (الخروج ١٤: ٢١-٣٠).

والبحر المذكور في الآية القرآنية وفي عبارة التوراة التي أوردناها آنفاً هو البحر الأحمر الذي مر الإسرائيليون منه من موضع في وسطه أو عند طرفه ليفروا من مصر إلى الأرض المقدسة (الخروج ١٤).

وقد ورد ذكر هذه الحادثة في مواضع أخرى من القرآن المجيد، بالإضافة إلى الآية التي نحن بصدد شرحها؛ فجاء في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَحْشَى﴾ (٧٨)، وفي سورة الشعراء: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٤)، أي أنه صار البحر في جانب، وبدا من ناحية الجانب الآخر الذي انحسر عنه الماء انخفاض عظيم مملوء بالماء. وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مَّتَّبِعُونَ * وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (الدخان: ٢٤ و ٢٥) يُفهم منه أن الله تعالى قد أمر موسى بأن يعبر البحر بسرعة ويغادره في وقت انحسار الماء أي قبل انتهاء موجة الجزر وعودة المياه مرة أخرى، وبذلك يتحقق غرضان: الأول ضمان جفاف قاع البحر، والثاني أن يتوهم المصريون ويطمئنوا إلى أنه ليس من المنظور أن تدهمهم موجة المد، فيغريهم ذلك على الاستمرار في تتبع الإسرائيليين، وبذلك يتم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

وفي ضوء الوصف سالف الذكر يبدو أن وقائع الحادثة جرت على الوجه الآتي:

عندما كان الإسرائيليون في طريقهم إلى أرض الميعاد تبعهم جيش فرعون، ولما بلغوا أحد ذراعي البحر الأحمر (خليج السويس) الذي اعترض طريقهم، وملكهم الفرع لأن فرعون وجنوده كانوا على مقربة منهم من ورائهم، ولكن الله بعث فيهم الفرع عن طريق موسى عليه السلام إذ ضرب الماء بعصاه، وكان ذلك في فترة موجة الجزر، ولما انحسر البحر تكشّف قاعه عن روابي رملية ضخمة تناثرت بينها منخفضات مملوءة بالماء. فعبر الإسرائيليون القاع الجاف بسرعة تحت قيادة موسى عليه السلام وبلغوا الضفة الأخرى، وكان يتبعهم جيش فرعون، وفي الوقت الذي كان فيه الجيش ما زال في قاع البحر، عادت موجة المدّ وهلك الجيش كله.

وجدير بالذكر هنا أن المعجزة حسب المفهوم القرآني هي فعل إلهي خالص لا يدّ للإنسان فيه. وعلى ذلك فإن ضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه لم يكن إلا مجرد علامة أو إشارة لا شأن لها بانشقاق البحر، الأمر الذي يرجع كله إلى الله تعالى الذي دبر وصول موسى عليه السلام في وقت موجة الجزر، بحيث يتم في اللحظة التي يرفع فيها عصاه انحسار الماء. ولكن عندما شرع جيش فرعون في عبور البحر صادفته العقبات كما يحدث عادة للجيش ذات العتاد الثقيل، ومن ثم ترتب على ذلك عرقلة تقدم الجيش، فأخذته موجة المد وهو ما يزال في وسط البحر فغرق.

هذا وإن ألفاظ القرآن المجيد ذاتها لا تتمشى مع الاستنتاج الخاطئ بأن البحر انقسم فعلاً إلى قسمين لتهيأ لموسى عليه السلام وقومه طريق يسلكونه. فالكلمتان اللتان استعملهما القرآن المجيد في هذا الصدد وهي «فرقنا» و«انفلق» حسب أصل اشتقاقهما تؤيدان معنى الانفصال. ومن ثم فإن هاتين الكلمتين تؤيدان القول بأنه عندما بلغ بنو إسرائيل البحر بدأت موجة الجزر وانفصل البحر، وبدت للعيان الكثبان الرملية التي عبر عليها اليهود حتى وصلوا إلى الضفة المقابلة.

هذا وإن واقعة ملاحقة فرعون لموسى عليه السلام حتى وسط البحر تدل على أن ذلك قد حدث في فترة موجة الجزر، أما إذا قيل إن البحر قد انشطر فعلاً بكيفية تختلف عن

السُّنَّةُ الإلهية الجارية، فإن فرعون، في هذه الحالة، ما كان ليجرؤ على التقدم في أثر موسى عليه السلام، ولكن الأمر كان معجزة عظمى تمت في توافق محكم بين سُنن الطبيعة التي تضافرت على إنقاذ بني إسرائيل وإهلاك فرعون وقومه.

وبهذه المناسبة نورد نصًا ذكره «أبوت» (Abbot) في كتاب «حياة نابليون» عن حادثة توضح كيف عاينت موجتا المدّ والجزر موسى عليه السلام وأهلكت فرعون في عملية عبور البحر الأحمر: «في يوم من الأيام قام نابليون وجماعة من حاشيته برحلة إلى الموضع الذي يماثل المكان الذي عبر منه بنو إسرائيل البحر الأحمر منذ ثلاثة آلاف سنة حسب ما ترويهِ الروايات. فبعد ما بدأت موجة الجزر عبر البحر إلى الشاطئ الآسيوي على مسطحات محدودة، وهناك استرعى اهتمامه ما شاهده من أشياء عديدة مختلفة، فظل مشغولاً بها إلى قبيل الغروب، ولما همّ بالعودة كان الشفق قد أخذ في التراجع وحل محله الظلام بسرعة، وضلت الجماعة طريقها، وأخذت تجول وسط الرمال في حيرة، وأحاطت بهم موجة المد التي عادت بسرعة. وازدادت حلقة ظلام الليل، وأخذت الخيل تغوص شيئاً فشيئاً في الأمواج الآخذة في الارتفاع، وبلغت المياه أحزمة سروج الخيل، وصارت تضرب أقدام راكبيها، وبدا الهلاك حقيقة واقعة. وفي هذا الموقف الرهيب، تمكن نابليون من تخلص نفسه بما عُهد فيه من بديهة حاضرة وبّت حاسم، وهما صفتان يبدو أنهما ما خذلتاه قط. ولم تتمكن الخيل من الوصول إلى الشاطئ إلاّ عند منتصف الليل بعد أن خاضوا في وسط الأمواج التي لا طمت صدورهم. إن موجة المد ترتفع في هذا الموضع إلى ٢٢ قدماً. وقد قال نابليون: لو أنني هلكت بالطريقة التي هلك بها فرعون، لوجد مبشرو المسيحية في ذلك شهادة فخمة ضدي». (كتاب حياة نابليون، الفصل ١٢، ص ٩٦).

وإضافة عبارة ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في الآية يُقصد بها أن يتحقق بنو إسرائيل من أنه مع أن هذه المعجزة قد حدثت أمام أعينهم، وهلك عدوهم المتعالي الفخور الذي كان يضطهدهم أمام أنظارهم، إلاّ أنهم أثبتوا أنهم غير شاكرين لربهم ورسوله.

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

ظَالِمُونَ: المفرد «ظالم» مشتقة من «ظَلَمَ». ومعناها: (١) وضع الشيء في غير موضعه. (٢) تجاوز الحد، أو اعتدى، أو أساء إلى غيره (أقرب الموارد).

التفسير:

تشير هذه الآية إلى حادث العجل الذي ورد ذكره في التوراة (سفر الخروج الإصحاح ٣٢). إن الإنسان يكون عادة عبداً للبيئة، وهذا ما يكون بصفة خاصة في الأقوام المستعبدين إذ تتملكهم عادة تقليد حكامهم في سلوكهم وعاداتهم. وقد عاش بنو إسرائيل تحت حكم الفراعنة مدة طويلة، فتسرّبت إليهم وثنية المصريين. ولما غادروا مصر مع موسى ﷺ، كانوا كلما صادفهم أناس وثنيون، كانوا يسألون موسى ﷺ المرة بعد الأخرى أن يسمح لهم بالتعبد مثلهم. وإلى ذلك يشير القرآن المجيد: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٩). وقد كانوا يشناقون لهذه العبادة، حتى إنه عندما ذهب موسى ﷺ إلى جبل سيناء صنعوا عجلاً وأخذوا يعبدونه. وقد كانوا يُبَجِّلُون العجل لأن البقرة احتراماً خاصاً عند المصريين. إن مصر كانت كالهند بلاداً زراعية، وللمواشي فيها قيمة عالية، ومن ثم نشأت فيها عبادة البقرة.

إن التوراة تذكر أن هارون ﷺ صنع عجلاً لبني إسرائيل (سفر الخروج، إصحاح ٣٢، فقرة ١-٦)، ولكن القرآن المجيد ينفي ذلك القول نفياً قاطعاً، فقد كان هارون ﷺ نبياً؛ ومن ثم لا يمكن أن يُقدم على القيام بأعمال الوثنية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾

(طه: ٩١). ومن العجيب أن تضم دفّتا كتاب يدّعي أنه مُنزل من عند الله تعالى مثل هذه القصص التي لا أساس لها ولا يمكن تصديقها. وهذا وحده دليل على أن ذلك الكتاب قد عبثت به أيدي الإنسان. ومن المحتمل أن بعض من لهم غرض في ذلك قد عمدوا إلى تحريف ما في ذلك الكتاب من كلام مقدس، ونسبوا رذائل معينة إلى الأنبياء، ثم تناول رجال الدين المسيحي ذلك التحريف في لهفة واعتبروه كلاماً موثقاً به يفيدهم كوسيلة لرفع مكانة المسيح فوق باقي الأنبياء.

وتحدّث الآية عن فترة معينة قدرها أربعين ليلة، ثم إننا نجد في موضع آخر من القرآن المجيد أن المدة المحددة كانت في بادئ الأمر ثلاثين ليلة ثم تبعثها مدة إضافية قدرها عشر ليال، وبذلك أصبحت المدة كلها أربعين ليلة (راجع الأعراف: ١٤٣). وهذا العدد من الأعداد التامة، ويومئ إلى أن الله تعالى قد كرّم موسى ﷺ لصدقه وإخلاصه.

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ في الآية يعني أنكم لجأتم إلى إقامة نظير لله تعالى، وهذا حقاً أعظم ظلم، أي وضع الشيء في غير موضعه. وفي موضع آخر من القرآن الكريم عرّف اتخذ شركاء لله تعالى بأنه ظلم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٤).

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٣﴾

التفسير:

تذكر التوراة أن عبادة العجل جلبت لعنة الله تعالى، ثم دعا موسى ﷺ ربّه من أجل بني إسرائيل، ونص عبارة التوراة: «فندم الربّ على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه» (الخروج ٣٢: ١٤). وجدير بالذكر والملاحظة هنا أن القرآن المجيد يستعمل

لفظة «عفا» لا «ندم» التي وردت في التوراة والتي لا تليق بما لله تعالى من علو وجلال. ومن المحتمل جداً أن استعمال كلمة «ندم» كان نتيجة خطأ في ترجمة النص الأصلي، أو تحريف من جانب المتأخرين.

وجدير بالملاحظة أيضاً أن لفظة العفو لا تعني مجرد الصفح عن الذنب أو التجاوز عنه، وإنما تعني أيضاً محو الخطيئة. فالإنسان إذا ما اتَّجه إلى الله تعالى تائباً بصدق وإخلاص فإنه سبحانه لا يصفح فقط عن ذنبه بل يحو كل أثر له، ويترك الإنسان نقياً طاهراً وكأنه وُلد من جديد.

هذا وإن قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يشير إلى معنى عميق، فالعفو من جانب السلطة العليا يثير في نفس من نال العفو مشاعر الشكر، وهذا بالتالي يحث الإنسان على الإكثار من الطاعة وفعل الخير، وهكذا تتولد حالة من الصلاح المستمر.

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٤﴾

شرح الكلمات:

مُوسَى: هو موسى عليه السلام مؤسس الديانة اليهودية، وهو الذي نَجَّى بني إسرائيل من أيدي فرعون، وقد كان نبياً إسرائيلياً، وعاش حسب تأريخ التوراة بعد إبراهيم عليه السلام بـ ٥٠٠ عام تقريباً، أو حوالي ١٤٠٠ سنة قبل المسيح عليه السلام.

ولقد كان موسى عليه السلام نبياً صاحب شريعة، وأما الأنبياء الذين جاؤوا بعده فقد كانوا غير مشرَّعين، أي أن مهمتهم كانت تقتصر على اتباع شريعته وإقامتها. وباعتبار موسى عليه السلام مؤسساً لشريعة عظيمة فهو يشبه نبي الإسلام ﷺ إلى حد كبير، وقد أشار القرآن المجيد إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (المزمل: ١٦).

وفيما يتعلق بالاسم «موسى» فيلاحظ أن هذه اللفظة عبرية فعلاً، وتكتب وتُقرأ في تلكم اللغة هكذا: «موشيه - Moshè» ومعناها الشيء الذي يُلْتَقَط من الماء، أو ببساطة: الشيء الذي يُنْتَشَل (دائرة معارف الكتاب المقدس Encyclopoedia Biblica). كما أن التوراة ذاتها تؤيد هذا المعنى؛ إذ جاء على لسان ابنة فرعون: «ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء» (الخروج ٢: ١٠). كذلك نجد لهذا الاشتقاق اللغوي ما يؤيده في اللغة العربية التي اشتقت منها اللغة العبرية. فالعرب يقولون «أوشى الشيء» أي استخرجه أو انتشله. ولفظة «موشى» اسم مفعول من «أوشى»، وعلى ذلك يكون معناها الشيء الذي استُخرج أو انتُشِل. ويمكن أيضاً أن تكون اللفظة مشتقة من «أوسى» وأصلها «وسى». يقال «أوسى الشيء» أي قطعه (أقرب الموارد). ولما كان موسى عليه السلام قد اقتطع من أهله، لذلك سُمِّي بهذا الاسم.

وفي العصر الحديث اتجه رأي بعض العلماء الغربيين مثل بريستد في كتابه «فجر الضمير»، وفرويد في كتابه «موسى والتوحيد» إلى أن كلمة «موسى» ليست عبرية بل مصرية. وقيل كذلك أن موسى لم يكن إسرائيلي المولد ولا يمت بصلة إلى الأصل العبري. وليس هناك ما يمنع من عدم الاعتراض على الرأي الأول؛ أي على ما يقال من أن أصل اشتقاق كلمة «موسى» مصري، وذلك لأن موسى عليه السلام قد فُصل عن أهله منذ طفولته ونشأ في بيت فرعون، فمن الطبيعي أن تختار ابنة فرعون؛ وهي مصرية، اسماً له كما تشاء، غير أنه إزاء ما بيناه من قبل من أن لفظة «موسى» عبرية الأصل، فمن ثم إذا كانت ابنة فرعون هي بنفسها التي سمّت الطفل، فلا بد أن تكون قد اختارت اسماً من أصل عبري، متأثرة في ذلك بظنها أنه ينتمي إلى الشعب الإسرائيلي. وعلى أي حال، فمن المحتمل أن تكون أخت موسى عليه السلام هي بذاتها التي اقترحت الاسم، إذ كانت معروفة لدى أهل بيت فرعون. وكانت حاضرة وقتما انتشلت ابنة فرعون الطفل من النهر. فالتوراة تروي: «فَنَزَلَتْ ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر، فرأت - أي ابنة فرعون - السفط بين الحلفاء. فأرسلت أمتها وأخذته، ولما فتحته رأت الولد، وإذا هو صبي يبكي فرقت

له وقالت هذا من أبناء العبرانيين. فقالت أخته لأمة فرعون: هل أذهب وأدعو امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد» (الخروج ٢: ٥ و ٦ و ٧). وكذلك ورد في القرآن المجيد: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا رَبُّنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: ٩-١٤).

وأما الرأي الآخر الذي يقول بأن موسى عليه السلام لم يكن إسرائيلياً، أو أن بني إسرائيلي لم يقطنوا مصر أبداً، فهو رأي لا يستند إلى أي أساس يدعو إلى قبوله. فهو يناقض جميع الحقائق المقررة، ويتعارض مع التاريخ المعترف به للشعب اليهودي ومع ما جاء في التوراة وفي القرآن المجيد اللذين يكذبان تلك الفكرة.

ومن بين الأدلة التي يستدل بها النقاد الغربيون لتأييد وجهة النظر هذه، نجد من بينها استدلالين جديرين بالالتفات. الاستدلال الأول هو أن لفظة «موسى» اسم مصري بادي الظهور بكثرة في هذه اللغة مثل «أمنميس Amenmesse» و «أحمس Ahmosi» و «تحتمس Thotomes» و «رعموس Ramose» وغير ذلك. وهذا الاسم الأخير هو فرعون الذي عاش موسى عليه السلام في عصره. ومع أن دراسة هذه الألفاظ المصرية بعمق تدل على أنها تختلف في الواقع عن اللفظة العبرية أو العربية التي تناولناها بالدراسة آنفاً، ومع ذلك فحتى لو سلمنا بأن «موسى» اسم يرجع إلى أصل مصري، فليس هناك ما يبرر أن نفترض بأن الشخص لم يكن إسرائيلياً وإنما كان مصري الأصل. إذ لما كان بنو إسرائيل تابعين للمصريين، وكانوا يعيشون تحت حكم الفراعنة، فليس من الغريب أن يستعملوا أسماء مصرية لساداتهم، وقد حدث مثل هذا في الهند إذ أغرم كثير من الهنود بالأسماء الإنجليزية واستعملوها فعلاً، إلا أنه كما أوضحنا آنفاً

تبقى الحقيقة قائمة، ألا وهي أن لفظ «موسى» عبري يرجع إلى أصلٍ من الاشتقاق في اللغتين العبرية والعربية.

والاستدلال الثاني الذي يقدمه أولئك الناقدون هو أن وحدانية الله تعالى ترجع إلى أصل مصري، وكان أول من هداه تفكيره إلى ذلك ووضع هذه الفكرة موضع التنفيذ أحد قدماء الملوك المصريين، ويدعى «أمنحوتب الرابع Amenhotep» الذي ارتقى العرش عام ١٣٧٥ ق.م. وتوفي عام ١٣٥٨ ق.م. ويحتمل أن عمره كان عند وفاته ثلاثين سنة، وهو الذي لُقّب نفسه فيما بعد باسم «إخناتون Ikhnaton» أو «أخيناتون Akhenaton»، ومعناه خادم الإله الواحد. تقوم دعوى هؤلاء الناقدين على أن موسى عليه السلام كان مصرياً، وأنه استعار فكرة الوجدانية من إخناتون وبشّر بها بين بني إسرائيل، وهذا استنتاج ساذج في سخفه. فأولاً لا يعقل مطلقاً أن نفترض وجود فكرة معينة تكون حكرًا لدى قوم وحدهم دون غيرهم. فقد تكون فكرة معينة لدى العديد من الأقوام، وتكون نشأة الفكرة لدى كل قوم مستقلة عن الأقوام الآخرين، أي دون أن تنتقل من قوم إلى قوم. والأمر الثاني هو أننا حتى لو فرضنا جدلاً بأن وحدانية الله تعالى أصلها مصري، فليس من الإنصاف أن نستنتج أن موسى عليه السلام لم يكن إسرائيلياً. فإذا كان بمقدور الرجل الهندي مثلاً أن يستعير فكرة ما من رجل إنجليزي، فلماذا لا يمكن للإسرائيلي أن يستعير فكرة ما من مصري. وحقيقة الأمر هي أن فكرة وحدانية الله تعالى ليست ابتداءً مصرياً أو فلسطينياً أو غير ذلك، وإنما مرجعها أصلاً إلى الوحي الإلهي، وهو نعمة أنعم بها الله تعالى على أمم عديدة، في أنحاء متفرقة، وفي أزمنة مختلفة، وكانت هذه النعمة تتنزل على كل أمة من الأمم على حدة. وما ادّعى أحد أن موسى عليه السلام كان أول من خطرت على باله فكرة الوجدانية ولا من بشر بها. والحق أنه تلقى ذلك عن طريق الوحي الإلهي، شأنه في ذلك شأن من سبقوه كيعقوب وإسحاق وإبراهيم ونوح وآدم عليهم السلام.

ومجمل القول، ليس هناك مبرر لأن يُفترض بأن «موسى» اسم مصري الأصل وأن صاحب الاسم لم يكن إسرائيلياً. فالشهادة اللغوية من اللغة العبرية والعربية معاً،

والرأي الذي يقبله العقل، والشهادة المستمدة من التاريخ اليهودي ومما تناقلته الروايات، بل فوق ذلك شهادة التوراة والقرآن المجيد، كل ذلك يؤيد الحقيقة الواقعة؛ أعني أن موسى عليه السلام كان إسرائيلياً وليس مصري الأصل، وأن اسمه أيضاً يرجع إلى أصل عبري (راجع التفسير الكبير لحضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد، الخليفة الثاني لمؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، ففيه بحث أوفى لهذا الموضوع).

الكتاب: مشتقة من «كَتَبَ» ومعناها: (١) خَطَّ (٢) جعل شيئاً مفروضاً أو فرض حكماً. ولفظه كتاب قد تكون بمعنى (١) ما يُكتب فيه أو ما يكتب عليه، (٢) الصحيفة، (٣) الكتاب المُنَزَّل، (٤) ما يكتبه الشخص ويرسله، (٥) القُرْضُ أو الحكم على شخص أو جماعة (أقرب الموارد).

الْفُرْقَان: وهي كلمة عربية مشتقة من «فرق» ومعناها: فلق أو فصل. ومن الخطأ أن يُظن أنها سريانية وليست عربية، فاللغة العربية تكثر فيها ألفاظ ترجع إلى نفس اشتقاق هذه اللفظة، ونصادفها في التراث العربي الجاهلي. وأصل اشتقاق الفرقان معناه الفصل، ومن ثم فإن لفظة فرقان تُطلق على كل ما فُرق به بين الصدق والكذب أو بين الحق والباطل. كذلك يتضمّن معناها الحجّة أو البرهان لأنه وسيلة الفصل بين الحق والباطل، وتطلق أيضاً على الصبح أو السّحر لأنهما يفرقان بين الليل والنهار، ويشمل معناها أيضاً النصير (تاج العروس وأقرب الموارد).

ويتضح مما تقدّم أن جميع الكتب المنزّلة تُسمّى فرقاناً، كذلك يصح أن يُطلق الفرقان على الآيات والعلامات الإلهية.

التفسير:

المقصود بلفظ ﴿الْكِتَاب﴾ في الآية هو الألواح التي كُتبت عليها الوصايا العشر التي أوصى الله تعالى بها. والقرآن بنفسه يبين أن الوصايا العشر هي التي نزلت على

موسى عليه السلام وليست الأسفار الخمسة الأولى من التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأَوِرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٦) وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ (الأعراف: ١٥١). وقد أوضحنا في شرح المفردات أن لفظة ﴿الْكِتَابِ﴾ تطلق على أي شيء يُحَظَّ فيه (كالصحيفة في أقرب الموارد). وعلى ذلك فلفظة الكتاب هنا لا تشير إلى الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، وإنما تشير إلى الوصايا العشر التي كُتبت على الألواح. وتبعاً لذلك يكون معنى الآية أن الله تعالى لم يعط موسى عليه السلام الوصايا العشر التي كُتبت على الألواح فحسب، بل أعطاه أيضاً الآيات والبيّنات، وهياً له من الوقائع ما يؤدي إلى التفرقة بين الحق والباطل. هذا وحسب القرآن المجيد لا يُراد بلفظة ﴿الْفُرْقَانِ﴾ شيئاً معيناً، فكل علامة أو مناسبة يُظهر بها الله تبارك وتعالى ما يفرق بين الحق والباطل، أو أي حجة يراد بها تحقيق ذلك الغرض، كل ذلك يُطلق عليه لفظ ﴿الْفُرْقَانِ﴾. وقد وردت هذه التسمية بمعنى «القرآن» كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ٢). كذلك سُميت موقعة بدر «يوم الفرقان» حيث بدت فيها بصورة جلية معونة الله تعالى في كسر شوكة قريش: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤٢).

وقد ذهب الدكتور «Wherry ويري» في نقده إلى أن القرآن المجيد قد أخطأ هنا؛ إذ تقرر الآية أن التوراة قد نزلت على موسى عليه السلام وهو على جبل سيناء. وهذا النقد يكشف عن قصور إمامه باللغة العربية، إذ من الواضح أنه توهم أن لفظة «كتاب»

٥. وهي أسفار «التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية» التي يطلق عليها لفظ التوراة، ولها عند اليهود والنصارى مكانة خاصة بالقياس إلى باقي الأسفار في الكتاب المقدس. (الناشر)

العربية لا تتضمن معانٍ عديدة مختلفة أوسع من كلمة «Book» الإنجليزية. وقد ساقه عدم تمكنه من اللغة العربية إلى القول أيضاً بأن لفظة «فرقان» ترجع إلى أصل سرياني.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ
فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ
فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٥﴾

شرح الكلمات:

بَارِيكُمْ: البارئ هو الصانع، مشتقة من «برى». يُقال برى السهم وبرى القلم أي نحتها. والبارئ الذي يُشكّل الشيء ويصوغه عن طريق القطع والكشط. والفرق بين لفظي «البارئ» و«الخالق» أن الخالق معناه موجد الشيء وفقاً لخطة وتقدير معين، أو مبدع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، وأما البارئ فمعناها من يصوغ الشيء على هيئة منسقة. غير أن العادة جرت باستعمال لفظ البارئ كمرادف للخالق، ذلك لأن صوغ الشيء ما هو إلا نتيجة للسبب. هذا وقد خُصَّ «الباري» بوصف الله تعالى (مفردات الراغب ومعجم لين).

التفسير:

يبدو من هذه الآية أنه وإن كانت واقعة عبادة العجل قد تبعها عَفْوٌ عام، إلا أن ذلك لم يكن شاملاً لجميع بني إسرائيل، وإنما كان الأمر يستوجب معاقبة المحرّضين على تلك المعصية بقتلهم. فقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لا يعني الأمر لليهود بأن ينتحروا جميعاً أو أن يقتل بعضهم بعضاً، ولكنها قد تعني «اقتلوا رجالكم» أو «اقتلوا أقاربكم أو أصحابكم»، وهذا المعنى تؤيده الآية الخامسة والثمانون من نفس السورة

حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي ولا تخرجون قومكم أو أهليكم. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ...﴾ (النور: ٦٢). وهكذا وردت كلمة ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ في الآية التي نحن بصدد شرحها بمعنى أهليكم أو إخوانكم. انظر أيضاً الآية ٨٦ من سورة البقرة، والآية ٦٧ من سورة النساء.

لقد روت التوراة هذه الحادثة على النحو التالي: «هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه، ومُدُّوا وارجعوا، ومن باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه. فقتل بنو لاوي بحسب قول موسى، ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل» (الخروج ٣٢: ٢٧ و ٢٨).

ويؤخذ من ذلك النص أن عدد الأشخاص الذين قتلوا بلغ حوالي ثلاثة آلاف، وهذا تقدير ظاهر الخطأ، وبالمثل ذكرت التوراة أن عدد الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر كانوا نحو ستمائة ألف من الرجال عدا الأولاد (الخروج ٣٧: ١٢). وهذا أيضاً تقدير خاطئ، فمثل ذلك العدد الضخم ما كان يمكن أن يعيش كعبيد وخدم مسخرين لدى المصريين، وقد كانوا حسب تقدير المصريين أنفسهم جماعة قليلة العدد ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرِّ ذِمَّةٍ قَلِيلُونَ﴾ (الشعراء: ٥٥). ويبدو أن منشأ الخطأ يرجع إلى وقوع لبس وخلط بين لفظتي «إلف» بكسر الالف و«ألف» بفتحها. ومعنى الأولى الأنيس أو الأهل من الائتلاف وهو الائتنام والاجتماع، أما اللفظة الثانية فهي عدد. فالواقع أن بني إسرائيل الذين كانوا بمصر كانوا نحواً من ستمائة أسرة وليس ستمائة ألف رجل. وبالمثل كان عدد الذين قُتلوا ثلاث أسر وليس ثلاثة آلاف شخص وهو عدد كبير جداً، إذ المعقول أن التحريض على عبادة العجل قد بدأ من جانب ثلاث أسر، وهي الأسر التي تولى قومهم قتلهم.

هذا وقد فسرت عبارة ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بمعنى اقتلوا شهواتكم، وهو تفسير لا تأباه أساليب اللغة العربية. ويذهب المفسرون الذين أخذوا بهذا المعنى إلى أن الله تعالى

قد عفا عن بني إسرائيل بشفاعته موسى عليه السلام، ومن ثم يستحيل أن يأمرهم الله تعالى بأن يقتلوا إخوانهم، لأن مثل ذلك الأمر لا يتفق مع سابقة العفو. ولكن هذا الرأي الذي ذهب إليه بعض المفسرين يبدو غير مقبول، ذلك لأن العفو العام على قوم من الأقوام لا يتعارض مع معاقبة عدد قليل منهم؛ الذين هم رؤوس الفتنة والمحرضون على الفساد.

وقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ يتضمّن حُضَّ بني إسرائيل على الرجوع إلى خالقهم ومصوّرهم، أي أنه ينبغي لهم أن يعملوا على تغيير نفوسهم وإصلاحها.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى
نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

الصَّاعِقَةُ: انظر الآية رقم ٢٠ من نفس السورة.

التفسير:

تحتوي التوراة المتداولة حالياً قصوراً وأخطاء في مواضع عديدة، ولا يرد فيها بصورة مباشرة ذكر الحادثة الواردة في هذه الآية، ولكن الفحص الدقيق للتوراة يكشف عن أن هذه الحادثة وقعت في الوقت الذي ذهب فيه موسى عليه السلام ليتلقى الوصايا، تاركاً جماعته مخيمين بسفح الجبل. وفي اليوم الموعد أخرج موسى عليه السلام قومه من خيامهم ليلقوا الله تعالى فوقفوا أسفل الجبل، ونزل الرب على الجبل وأمر موسى من قمة الجبل قائلاً: «حذّر الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون» (سفر الخروج ١٩: ٢١). فلفظة «لينظروا» تدل على أن بني إسرائيل كانوا متلهفين لرؤية الله تعالى، وهو ما يطابق ما ذكره القرآن المجيد من أنهم في بادئ الأمر أبدوا

رغبة في رؤية الله تعالى، ولكن عندما حدث التجلي الإلهي فعلاً ورأوا البرق والرعد وارتجاف الجبل وتصاعد الدخان منه، ارتعدوا وابتعدوا و«قالوا لموسى تكلم أنت فتسمع، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت» (الخروج ٢٠: ١٩). ومن ذلك يتضح بجلاء أن بني إسرائيل أرادوا بادئ الرأي أن يروا أوضح تجلٍّ لله تعالى وإلا فلن يؤمنوا، ولكن عندما تملّكهم الذعر الشديد عدلوا عن طلبهم إلى أقصى حد، وصاروا لا يريدون رؤية تجلي الله تعالى ولا حتى سماع صوته حرصاً على حياتهم.

هذا وإن لفظة «قالوا» الواردة في النص سالف الذكر لا تعني بالضرورة أن الإسرائيليين عبّروا بألسنتهم عن رغبتهم، ولكن كما ذُكر في شرح مفردات الآية ٣١ من نفس السورة، قد يراد بكلمة «قال» الدلالة على شيء دون استخدام اللسان، أو أن يُتَصَوَّر في النفس قبل الإبراز باللفظ. ومن ثم فإن معنى عبارة التوراة «وقالوا لموسى تكلم أنت...» أن الإسرائيليين لم يقولوا ذلك فعلاً بألسنتهم، وإنما كانت حالتهم تدل على ذلك. ووفقاً لهذا التفسير يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى...﴾ في الآية أن الإسرائيليين لم يقولوا لموسى ﷺ بألسنتهم أنهم يريدون أن يروا الله جهرةً، وإنما كانت نفوسهم تحبش بهذه الرغبة، وبدأ عليهم ما يدل عليها.

ولما كانت لفظة ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ يدخل ضمن معانيها «الموت»، فيصح أن يكون معنى الآية أن طلب بني إسرائيل هذا - وهو طلب غير معقول، ويدل على غاية الغرور - قد جلب عليهم الموت الروحاني. وهذا المعنى يؤيده ما جاء في الآية التالية أي، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

هذا ومما تجدر ملاحظته هنا أن التوراة تسوق حادثة عبادة العجل بعد الحادثة التي تشير إليها الآية التي نحن بصدددها، وذلك بعكس ترتيب القرآن المجيد، إذ ترد حادثة عبادة العجل قبل المطالبة أو الرغبة في رؤية الله تعالى جهرةً كشرط للإيمان. ولكن إنعام النظر في الموضوع يؤدي بنا إلى الإقرار بأن الترتيب القرآني هو الصحيح؛ ذلك لأنه لو كان الإسرائيليون قد شاهدوا أولاً ما حدث عند جبل سيناء، ولمسوا

التجلي الإلهي بمظهره الرائع وأثره العميق في نفوسهم، فمن المستبعد جداً أن يتجه بنو إسرائيل بعد كل هذا إلى عبادة العجل، وقد رأوا بأعينهم تلك الآية العظمى منذ وقت قريب، ولا شك إذن في أنهم قد اتجهوا إلى عبادة العجل قبل الذهاب إلى جبل سيناء طبقاً للترتيب الوارد في القرآن المجيد، فهم عندما نهاهم موسى ﷺ عن عبادة العجل أطاعوه، إلا أن الغرور دفعهم إلى التعبير عن رغبتهم في رؤية الله تعالى كي يتيقنوا من وجوده فعلاً. ومن ثم سار بهم موسى ﷺ إلى جبل سيناء، ونزل الله تعالى على الجبل، حسب رواية التوراة، أمام أعينهم (الخروج ١٩: ٩-١١). وعلى ذلك فإن قول القرآن الكريم: ﴿فَأَخَذْتُكُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قد يكون المقصود منه الإشارة إلى حادث التجلي الإلهي وما صاحبه من رعود وبروق أشاعت الرعب الشديد في نفوس بني إسرائيل.

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

بَعَثْنَاكُمْ: ترد لفظة «بعث» للدلالة على معان عديدة: (١) أرسل. يقال «بعث فلاناً» أي أرسله رسولاً. (٢) نصّب. يقال «بعثه» أي نصّبه وأقامه. (٣) أثاره وهيجّه. (٤) أحياه. (٥) أهبّه وأيقظه. (٦) حضّه. يقال «بعثه على الشيء» أي حمّله على فعله (أقرب الموارد، وراجع أيضاً كتاب «بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز» للفيروز آبادي).

التفسير:

لا يصح أن يفهم من الآية أنها تعني أن بني إسرائيل ماتوا فعلاً ثم رُدّت إليهم الحياة، فالقرآن المجيد ينكر إنكاراً قاطعاً فكرة عودة الحياة إلى الناس في هذه الحياة

الدنيا ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٦). إذن فالموت الذي تحدث عنه الآية إما أن يكون المراد منه الموت الروحاني، أو يراد به حالة حزن ورعب جلبها عقاب شديد أوقع على قوم موسى عليه السلام. ثم إن التوراة تؤيد أيضاً هذا الموت الذي يتحدث عنه القرآن المجيد فتقول: «... فرجع موسى إلى الرب وقال: آه لقد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب، والآن إن غفرت خطيتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت، فقال الرب لموسى من أخطأ إليّ أمحوه من كتابي. والآن إذهب اهد الشعب إلى حيث كلمتك ... فضرب الرب الشعب لأنهم صنعوا العجل» (الخروج ٣٢: ٣١-٣٥).

ولكن سرعان ما تداركتهم مغفرة الله ﷻ، إذ إنه ما شاء أن يهلكهم، ولكن أراد لهم أن يسموا أخلاقياً وروحانياً ويكونوا أناساً شاكرين.

وَضَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ
وَالسَّلْوٰى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

الْمَنَّ: مصدر، والفعل «مَنَّ». يقال مَنّْ عليه أي أنعم عليه بشيء من غير تعب ولا نصب، واصطنع عنده صنّعة وإحساناً. فالْمَنَّ معناه: (١) الصنّعة والإحسان. (٢) كل ما ينال من غير مشقة أو صعوبة: (٣) قد يُراد به أيضاً كل طُلّ ينزل من السماء على شجر أو حجر ويتعقّد عسلاً ويجف جفاف الصمغ (أقرب الموارد).

السَّلْوٰى: مشتقة من «سلا». يقال «سلا عن الشيء» أي نسي ذكره وذهل عنه، و«سلاه عن الشيء» أي كشفه عنه وأزال حزنه وهمّه. والسَّلْوٰى معناه: (١) طائر يشبه

السَّمانى ويوجد في بعض بلاد العرب وما جاورها. (٢) كل ما يُدخِل على الإنسان الرضا والسعادة. (٣) العسل. (لسان العرب وأقرب الموارد).

التفسير:

يقول الله ﷻ إنه أرسل الغمام لِيُظِلَّ بني إسرائيل، وذلك لأنهم كانوا يخيّمون بأرض مكشوفة وجوها حار. ونعلم مما ورد في التوراة أن السحب كانت تنتشر فوق الموضع الذي يحطّون به فتظله، ثم كانت السحب تنكشف عنهم يوم يأخذون في الرحيل (راجع الخروج ٤٠: ٣٤-٣٨). ولكن يتضح من الآية التي نحن بصددّها أن هذه السحب لم يكن يقتصر عملها على إلقاء الظل على بني إسرائيل بل كانت تمطرهم أيضاً، ذلك لأن السحب المحمّلة بالأمطار هي التي تكون عادة كثيفة ولونها ضارب إلى السواد، وهي التي تحجب أشعة الشمس. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الآية تذكر إلى جانب الغمام لونين من الطعام: المن والسلوى، أي أنهما يكملان نعمة الغمام ذي الظل. والواقع أن الماء والطعام كانا نادرين في تلك البريّة المجدبة، ولذلك سخر الله ﷻ السحاب ليُطْفئ ظمأهم، وهياً لهم المنّ والسلوى ليسد جوعهم، وليس بالمستغرب على الله تعالى أن يمنّ بتلك النعم الخاصة على عبّيده ليكشف عنهم المشاق ويهيئ لهم سبل الراحة.

وقد ورد ذكر المن والسلوى في التوراة: «فكلم الرب موسى قائلاً سمعت تذر بني إسرائيل، وكلمهم قائلاً في العشية تأكلون لحماً وفي الصباح تشبعون خبزاً وتعلمون أيّ أنا الرب إلهكم. فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة، وفي الصباح كان سقط الندى حوالي المحلة، ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البريّة شيء دقيق مثل قشور، دقيق كالجليد على الأرض. فلما رأى بنو إسرائيل قالوا بعضهم لبعض من هو لأنهم لم يعرفوا ما هو. فقال لهم موسى هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا» (الخروج ١٦: ١١-١٥)

إن بني إسرائيل عندما افتقدوا الطعام في البرية وتراءى لهم شبح الموت جوعاً بدأوا يتذمرون من موسى وهارون عليهما السلام، فقالوا لهما كما تروي التوراة «لينا مئتنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع (الخروج ١٦: ٣)». وكان الرد على هذا التذمر هو ما جاء بالفقرات التي أثبتناها آنفاً من التوراة.

وقد روي عن النبي ﷺ حديثان عن المنّ الذي أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل؛ الحديث الأول عن سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءُ الْعَيْنِ». (صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن ومسلم كتاب الأشربة) وأما الحديث الثاني فقد ورد في التفسير المسمى «البحر المحيط» أن النبي ﷺ قال إن الكمأة من الأشياء التي منّ الله تعالى بها على موسى ﷺ، فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى وَمَاؤُهَا شِفَاءُ لِلْعَيْنِ». (مسلم كتاب الأشربة) ويتضح من ذلك أن الله تعالى أمدّ بني إسرائيل بالعديد من الأشياء وهم في البرية، وكان من هذه النعم ما يصيبهم مفرقاً تارة، ومجتمعاً تارة أخرى.

هذا ومع أنه لم يرد في الآية ذكر كيف أساء بنو إسرائيل إلى أنفسهم، إلا أنه لما كان الله تعالى قد عدّد هنا نِعَمَهُ عليهم، فمن الجليّ أنهم أساءوا إلى أنفسهم بنكرانهم لأنعمه وتذمّرهم والبكاء على حظهم بالرغم مما اختصهم الله تعالى به من نعم، وهم بفعلهم هذا لم يسيئوا إلى الله تعالى ولا إلى رسوله، وإنما أساءوا إلى أنفسهم.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ
نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

سُجِّدًا: مشتقة من «سجد» ومعناها: (١) أظهر الخضوع والتذلل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٦). (٢) طأطأ رأسه وانحنى ووضع جبهته على الأرض كما في هيئة الصلاة المخصوصة (مفردات الراغب). والمعنى الأول هو المراد في هذه الآية وذلك لعدة أسباب، ولكن يكفي أن نذكر هنا أن ولوج الأبواب لا يكون بالانحناء ووضع الجبهة على الأرض.

حِطَّة: مشتقة من «حطّ» ومعناها: (١) هبط أو نزل. (٢) أنزل أو أسقط. يقال «حطّ الرجل الرّحل ونحوه» أي أنزله من علوّ إلى سُفل، و«استحطّ فلاناً وزره» أي طلب إليه أن يضع عنه عبئه الثقيل أو يريحه منه (أقرب الموارد). ولما كان طلب إزالة الوزر في الشرع يعني طلب العفو عن الخطايا، فإن كلمة ﴿حِطَّةٌ﴾ التي معناها الحرفي الإنزال من علوّ إلى سُفل، يقصد بها في الآية طلب حط الخطايا أو العفو عنها.

نَغْفِرُ: الماضي «عَفَرَ». يقال «غفر الشيء» أي ستره. ويقال «غفر المتاع في الوعاء» أي أدخله وستره. و«غفر الله ذنبه» غطّى عليه وعفا عنه. و«غفر الأمر بِغَفْرَتِهِ» أي أصلحه بما ينبغي أن يُصلح به (أقرب الموارد ومعجم لين). والغفران والمغفرة مصدران، وهما من الله تعالى العفو عن العبد وصورته من أن يمسه العذاب (مفردات الراغب).

التفسير:

هنا نلاحظ مرة أخرى خطأ آخر في التوراة، فلا تذكر بصورة مباشرة هذه الحادثة التي تشير إليها الآية الكريمة. وعلى أي حال، فقد جاء في التوراة أن معركة دارت في تلكم الأيام بين العماليق وبني إسرائيل في رَفِيدِيم (الخروج ١٧: ٨). ويدل ذلك على أن العماليق كانوا يقيمون بموقع معين بهذه الجهات. ومع أن طبيعة الأراضي هناك صحراوية، إلّا أن ذلك لم يكن ليمنع من وجود سكان مفرقين في أنحاء مختلفة، ذلك لأنه حتى بين القبائل الرّحل، فإنهم يتخذون مواقع صغيرة هنا وهناك للإقامة، ولتجتمع فيها بطونهم المفرقة.

ولما كان بنو إسرائيل متلهفين على الإقامة في المواضع الآهلة بالسكان لسهولة العيش فيها، ولأنها تلائم طبيعة حياتهم السابقة التي تعودوا عليها، لذلك كانوا يلتمسون الذهاب إلى أي قرية مجاورة حيث يتسنى لهم الجمع بين حياة الصحراء وحياة الحضر، ويصبحوا أحراراً في المأكل، فيأكلوا حيث يشاؤون كما هي العادة في الصحراء حيث لا توجد الملكية الخاصة.

ولكن لما كان من شأن هذا التغيير أن يحدث صلات بينهم وبين قوم آخرين، وبذلك يحتمل أن يكون لهذه الصلات تأثير على خلقهم، لذلك طُوبوا بأن يراقبوا أنفسهم ويخضعوا لله تعالى ويطيعوه، ويدعوه كي يغفر لهم ما قد يرتكبون من خطايا. وهم إذا ما اتبعوا ذلك الإرشاد، فإنه سبحانه يشملهم برحمته ويغفر خطاياهم، بل ويزيد المتقين منهم خيراً وبركة.

هذا وإن عبارة ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةُ﴾ لا يقصد بها قرية بعينها، ولكن معناها حسب أساليب اللغة العربية «قرية ما» أو «أقرب قرية».

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

رِجْزًا: الرجز بالكسر أو بالضم معناها: (١) القدر. (٢) العذاب. (٣) عبادة الأوثان. (٤) الشرك أو الوزر (أقرب الموارد).

مِنَ السَّمَاءِ: راجع الآية ٢٠ من نفس السورة. والسماء معناها: (١) كل ما علاك فأظلك. (٢) سقف كل شيء. ومن ثم يكون معنى ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من علو أو من الله. أي أن

العذاب أو العقاب الذي حلّ ببني إسرائيل لم يكن مرجعه إلى أسباب أرضية ولكنه نزل عليهم من علٍ.

التفسير:

هذه الآية مكتملة لموضوع الآية السابقة. فالله ﷻ قد أمر بني إسرائيل أن يكون سلوكهم متّسماً بالخضوع له، وأن يصلّوا ويدعوا ليغفر لهم خطاياهم، ولكن كما عُهد فيهم دائماً من فساد وغرور، عصوا الأوامر الإلهية وبدّلوا ألفاظ الصلاة التي علّموها من الله تعالى، ومن ثم طهّروهم بعقاب غير أرضي، أي أنزل عليهم الوباء أو الطاعون الذي أهلك العديد منهم. هذا ويمكن أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بأن عصيانهم قد ارتد على نفوسهم، بمعنى أنه انقلب إلى انحلال خلقي، وقذارة في القلوب والعقول.

ومسألة القول الذي استبدل به اليهود القول الذي علّموه ليست بذات أهمية. وفي رأي بعض العلماء أن بني إسرائيل استعملوا كلمة «حَبَّة» بدلاً من «حِطَّة»، أي أنهم سألو الله ﷻ أن يعطيهم القمح بدلاً من أن يسألوه أن يهب لهم المغفرة عن خطاياهم (راجع البخاري كتاب التفسير، وتفسير ابن جرير). وتقارب اللفظتان في النطق يهيئ الفرصة لبني إسرائيل للتلاعب عن سوء نية. ولكن كما قلنا من قبل، ليس القول المحرّف الذي استبدله اليهود بذئ أهمية، ولا فائدة منه ما دام الحال هو كما أشار القرآن المجيد؛ أي ما دام الكثيرون منهم قد عصوا ربهم، وتلاعبوا بالدين، واستحقوا العقاب من أجل ذلك.

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ
عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا

وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

عَصَاكَ: «عَصَا».. يعصوه (الفعل واوي) أي ضربه بالعصا، و«عصا القوم» أي ألف بينهم أو جمعهم على أمر يهمهم خيراً كان أو شراً، و«عصا الجرح» شدّه. ومعنى «العصا»: (١) ما يتوكأ عليه المرء.. أي العود الذي يتحمّل ثقل الإنسان. (٢) الائتلاف والحياة الزوجية. (٣) الجماعة. (٤) عظم الساق. (أقرب الموارد).
الحجر: معروف، وقد يراد به الكتلة الكبيرة من الصخر (معجم لين).

التفسير:

تذكر الآية نعمة أخرى من الله تعالى بها على بني إسرائيل. فعندما اشتد بهم الظلم ذات مرّة، وتعدّر عليهم الحصول على الماء في الصحراء، نجّاهم الله تعالى بأن عزّف موسى ﷺ بطريق الوحي موضع صخرة إذا ما ضُربت بالعصا تفجّر الماء.
وقد جاء ذكر طلب الماء ومدّهم به في موضعين من التوراة. ففي أحد الموضعين تقول التوراة: «ثم جاؤوا إلى إيليم، وهناك أثنتا عشرة عين ماء.» (الخروج ١٥: ٢٧). ويلاحظ أنه لا يرد هنا ذكر موسى ﷺ وضربه الحجر بالعصا. أما في الموضع الآخر، فتقول التوراة إن موسى ضرب صخرة حورب بالعصا - بأمر الله تعالى - فخرج ماء غزير (سفر العدد ٢٠: ٢-١١). ويبدو أن القرآن المجيد يشير إلى حادث صخرة حورب لا الحادث الذي وقع في الموضع المسمى إيليم، والفرق الوحيد هو أن التوراة لم تذكر عدد العيون التي تفجّرت، وأما القرآن المجيد فقد ذكره، وفيما عدا ذلك فتكاد التوراة والقرآن المجيد يتفقان على باقي التفاصيل. وفيما يتعلق بذلك الفرق الطفيف، فيبدو عقلاً أن قصص القرآن المجيد هو الأصح، ذلك لأن عدد بني إسرائيل

كان يبلغ بضعة ألوف، فضلاً عن الدواب والأنعام، وبالتأكيد أن عيناً واحدة لا تكفي ذلك الجمع الغفير، وخصوصاً إذا ما أخذنا في الاعتبار أن بني إسرائيل كانوا على وشك الموت من شدة العطش. وكانوا حسب رواية التوراة قد بلغ بهم السخط غايته، وكأنهم ما كانوا ليتورّعوا عن التطاول على موسى ﷺ إلى حدّ رجمه بالحجارة.

هذا ومن الممكن أنه كانت هناك فتحة واحدة عند النبع ثم تشعبت إلى اثني عشر مجرى عندما انحدر الماء متدفّقاً من الصخرة، وهذا العدد يوافق عدد قبائل بني إسرائيل. وإذا كنا لا نجد في الوقت الحاضر أثراً لهذه العيون، فليس ذلك بالأمر المستغرب، إذ من المعروف بالتجربة أن بعض العيون قد تتفجّر في موضع من المواضع ثم يتوقف خروج الماء منها بعد ذلك. وفضلاً عن ذلك، فهناك رواية يرويه المستشرق «سيل Sale» تشهد بأن عدد العيون كان حسب ما ذكره القرآن المجيد، إذ يبدو منها أنه حتى القرن الخامس عشر كانت هناك اثنتا عشرة عيناً جارية. وفيما يلي نص ما جاء في ترجمة القرآن الإنجليزية بقلم المستشرق المذكور: «...الصخرة توجد داخل حدود بلاد العرب، ولا بد أن بعض مواطنيه (يقصد الرسول ﷺ) قد رأوها، إن لم يكن هو بنفسه قد رآها وهو الأمر الأكثر احتمالاً. وتبعاً لذلك يبدو أنه كان على حق، إذ إن الشخص الذي ذهب إلى تلك الأمكنة في نهاية القرن الخامس عشر يخبرنا بيقين أن الماء كان يخرج من اثني عشر موضعاً من الصخرة بقدر عدد قبائل بني إسرائيل» (Al-koran, by Sale, p. 8).

إن معجزة موسى ﷺ هذه لا ترجع إلى أنه أخرج الماء بطريقة تخالف السنة الجارية في الكون، ولكن وجه الإعجاز هو أن الله ﷻ أخبره بطريق الكشف عن تلك البقعة المعيّنة حيث كانت حالة الماء مهيأة لأن تتفجر بمجرد الضرب بالعصا. ومن المعروف بالتجربة لدى الذين يدرسون الأحوال الجيولوجية في المناطق الصخرية أن الماء قد ينساب أحياناً من تحت الروابي الصغيرة أو الصخور، فإذا ما ضربت الصخرة بشي ثقيل أو مدبّب تدفّق الماء إلى الخارج.

وتختتم الآية بقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ وهي عبارة تناسب سياق الكلام؛ فقد أنعم الله تعالى على بني إسرائيل باليمن والسلوى، ثم أنعم عليهم بالماء، ولكن لما كانت المعيشة السهلة غير المقيدة قد تبعث في النفس الغرور والميل إلى الفساد، لذلك جاء التحذير في نفس الوقت ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وذلك كي يتمسكوا بضبط النفس والامتناع عن خلق المتاعب والفساد في الأرض.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ
فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ
مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا
قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ
خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ
اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

فُومِهَا: الفوم هو الحنطة أو الحمص أو الخبز أو سائر الحبوب التي تُخبز، أو الثوم، أو اللقمة العظيمة (أقرب الموارد).

مِصْرًا: المصّر: (١) الكورة أو المدينة. (٢) أو الحد بين الأرضين خاصة. (٣) الحد في كل شيء (أقرب الموارد).

يَقْتُلُونَ: مضارع والماضي قَتَلَ. ومعنى القتل: (١) الإماتة بسيف أو حجر أو سم أو أي سبب آخر. (٢) محاولة القتل. (٣) العزم على القتل. (٤) الانصراف عن الشخص وقطع جميع الصلات به. وفي القول المأثور حسب رواية عمر «اقتلوا سعداً فقتله الله». (٥) إمطة الشهوات. (٦) كسر شدة الشيء، يقال «قتل الشراب» أي مزجه بالماء، و«قتل الجوع» أي كسر شدته، و«قتل غليله» أي سقاه فزال ظمأه. (٧) الإذلال، تقول «قتلت فلان» أي ذلته. (٨) جعل الشخص كمن قُتل حسياً أو خُلقياً أو روحانياً. وفي القول المأثور: «إذا بويح لخليفتين فاقتلوا الأخير منهما» أي أبطلوا دعوته واجعلوه كمن مات. (٩) العلم التام بالشيء، يقال «قتل الشيء خبراً» أي أحاط به علماً. (١٠) اللعن، كما جاء في القرآن المجيد: ﴿قَتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ (الذاريات: ١١) فهذا دعاء على الكذابين المفترين (مفردات الراغب ولسان العرب وأقرب الموارد).

التفسير:

تذكر هذه الآية الكريمة مناسبة أخرى يتضح منها كيف أن بني إسرائيل لم يبذلوا أي جهد مقابل النعم الإلهية وما تستحقه من تقدير. فعندما كانوا في الصحراء، أنزل الله تعالى عليهم المنّ والسلوى، ولكن سرعان ما أظهرُوا عدم القناعة بنوع واحد من الطعام، وضجّوا مطالبين بصنوف أخرى مما تنبت الأرض من الخضر، والقثاء، والحنطة، والعدس، والبصل. وقد جاء ذكر ذلك في التوراة: «فعاد بنو إسرائيل أيضاً فبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً، قد تذكّرنا السمك الذي كنّا نأكله في مصر مجّاناً، والقثاء والبطيخ والكرّات والبصل والثوم» (العدد ١١: ٤ و٥). هذا ويلاحظ أن المنّ والسلوى كانا يُعتبران كطعام واحد نظراً لأن بني إسرائيل كانوا يأكلونهما بصفة مستمرة مدّة طويلة، غير أنه يبدو من التوراة أن السلوى انقطعت بعد فترة من الزمن، واقتصرت طعامهم على المنّ (العدد ١١: ٦).

ولما كان طلب بني إسرائيل لا يقوم على فهم سليم لحكمة الله تعالى من وراء جعلهم يتنفسون الهواء الطلق في الصحراء لفترة من الوقت، لذلك لا قوا الإذلال وجلبوا لعنة الله تعالى عليهم. إن غضب الله تعالى عليهم لم يكن لأنهم طلبوا لوئاً آخر من الطعام، ولكن غضب الله تعالى يرجع في الواقع إلى سبب آخر. فهم عاشوا مدة طويلة في ظل الاستعباد والانقياد لغيرهم، لذلك صاروا جبناء مترخين، وأراد الله تعالى لهم أن يقيموا بالصحراء بعض الوقت كي يعيشوا معيشة الرياضة، ويعتمدوا في غذائهم على النباتات البرية ليتخلصوا من جبنهم وتواكلهم في تلك البيئة الصحراوية الطلقة. وهكذا تتجدد حيويتهم، فيذهبوا إلى أرض الميعاد، ويصبحوا حكماً على فلسطين بعد أن صاروا أهلاً لذلك. إلا أن بني إسرائيل قصّروا في إدراك الغرض الإلهي الحقيقي، أولعلمهم أدركوه ولكنهم قصّروا في تقديره، ومن ثم أصروا في حق على تفضيل معيشة المدن. وقد أشار القرآن المجيد إلى هذا الخطأ، فقال إنهم تطلّعوا إلى حياة الزراعة وفضلوها على المعيشة التي كانت ستُعدهم لأن يكونوا حكماً. فهو ﷺ أراد أن يهيئهم ليكونوا سادة حاكمين على أرض الميعاد، ولكنهم اشتبهوا الفلاحة. ومن ثم أمرهم الله تعالى، بازدراء، أن يذهبوا إلى أي بلدة حيث يجدون ما يشتهون. لقد استحق بنو إسرائيل العقاب لأن عدم صبرهم يرجع إلى افتقارهم إلى الإيمان بوعد الله تبارك وتعالى. ويرجع هذا الخلو من الإيمان إلى معارضتهم لأنبيائه، وعدم تصديقهم للآيات السماوية. وكان السبب في مناهضتهم للأنبياء أنهم كانوا قومًا معتدين مفسدين. لقد دعاهم الأنبياء إلى الهداية والفضيلة، ولكنهم كانوا يكرهون ذلك، وكانت النتيجة أن عارضوا الأنبياء. وهكذا نرى القرآن المجيد يستقصي بصورة باهرة أسباب كل رذيلة كي تُقتلع من جذورها، ويُقضى على إمكان تكرارها.

إن في طلب اليهود ﴿لَنْ نَّضِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ صيغة التهديد والغرور، وهم لو كانوا يريدون أن يعبروا عن رغبتهم فحسب لعبروا عن ذلك بصيغة أخرى، ولقالوا مثلاً: «إننا لا نقوى على الاكتفاء بطعام واحد»، لا بالكيفية التي سجّلها القرآن

المجيد. هذا وتعطينا التوراة صورة حية عن موقف بني إسرائيل، وكيف كانت حالتهم في هذا الصدد تنم على سوء الأدب، بل تكاد تبلغ حد العصيان السافر، قالوا: «قد تذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجانا والقثاء والبطيخ والكرّات والبصل والثوم. والآن قد يبست أنفسنا، ليس شيء غير أن أعيننا إلى هذا المنّ. وأما المنّ فكان كبزر الكزبرة ومنظره كمنظر المثلّ وكان الشعب يطوفون ليلتقطوه ثم يطحنونه بالرحى أو يدقونه في الهاون ويطحنونه في القدور ويعملونه ملّات، وكان طعمه كطعم قطائف بزيت، ومتى نزل الندى على المحلّة ليلا كان ينزل المنّ معه. فلما سمع موسى الشعب يكون بعشائهم كل واحد في باب خيمته، وحي غضب الرب جداً ساء ذلك في عيني موسى. فقال موسى للرب لماذا أسأت إلى عبدك ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ؟ أألقي حبلت بجميع هذا الشعب أو لعل ولدته حتى تقول لي احمله في حضنك كما يحمل المربي الرضيع إلى الأرض التي خلقت لأبائه؟ من أين لي لحم حتى أعطي جميع هذا الشعب لأنهم سيكون عليّ قائلين أعطنا لحماً لنأكل. لا أقدر أنا وحدي أن أحمل جميع هذا الشعب لأنه ثقل عليّ. فإن كنت تفعل بي هكذا فاقتلني قتلاً إن وجدت نعمة في عينيك، فلا أرى بليتي» (العدد ١١: ٥-١٥).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ في الآية لا تعني أن الإسرائيليين قتلوا الأنبياء فعلاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة، فالى ذلك الحين لم يُعرف أنهم قد قتلوا أي نبي. والواقع أن موسى عليه السلام كان أول نبي أرسل إلى بني إسرائيل باعتبارهم شعباً. وعلى ذلك فإن موسى وهارون عليهما السلام هما الشخصان الوحيدان المقصودان في هذه العبارة، ومن المعلوم أن هذين النبيين لم يُقتلا، وإن كانوا كثيراً ما يناهضونهما، وكانوا يميلون أحياناً إلى قتلها طبقاً لما جاء في التوراة: «فصرخ موسى إلى الرب قائلاً: ماذا أفعل بهذا الشعب، بعد قليل يرجعونني» (الخروج ١٧: ٤). وعلى ذلك فالقتل بمعنى الإماتة بعيد الاحتمال هنا، ولكن معناه أن مناهضة بني إسرائيل للأنبياء كانت من العنف بحيث إنهم كانوا على استعداد لارتكاب جريمة القتل. وهذا المعنى لا يؤيده فقط

المعنى اللغوي للفظه القتل كما جاء في شرح المفردات، وإنما تؤيده فوق ذلك الشواهد القرآنية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢٢). هذا وقد ورد في البخاري عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِفَنَاءِ الْكُعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. (البخاري- كتاب تفسير القرآن) ويظهر من هذا الحديث بجلاء أن لفظة ﴿يَقْتُلُونَ﴾ قد استعملت بمعنى «يحاولون أن يقتلوا» أو «يريدون أن يقتلوا».

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن الغرض الذي تضمنته الآية ٥٩ من هذه السورة يختلف جد الاختلاف عن الغرض الذي تضمنته الآية التي نحن بصدد تفسيرها، ومع أنه يبدو أنه في كلا الموضعين قد أمر الله تعالى بني إسرائيل بأن يذهبوا إلى مكان ما مأهول، إلا أن معنى كل آية يختلف عن الأخرى اختلافاً تاماً، بل إن المعنيين متضادان في الواقع. ذلك أنه في الآية الأولى رقم ٥٩ كان الأمر بالذهاب صادراً بناءً على رغبة الله تعالى تلقائياً من لدن ذاته العليا فقال: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، وأما في الآية الحالية (رقم ٦٢) فإن صيغة الكلام تدل على سخط الله تبارك وتعالى وغضبه بصورة قاطعة. كذلك كان المراد في الآية الأولى أن المقصود هو أن يدخل بنو إسرائيل قرية أو موضعاً أهلاً بالسكان في قلب الصحراء فحسب دون أن يهجروا حياة الصحراء المطلقة، وإنما يربطون بينها وبين ظروف التيسير في القرى. وعلى العكس من ذلك جاء في الآية الحالية ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ إذ المعنى أنهم يقيمون بمدينة ما ويهجرون نهائياً عيشة الصحراء ويمارسون حياة المدن الميسرة. وهذا هو الفرق في المعنى بين الآيتين؛ ولذلك استعملت لفظة ﴿ادْخُلُوا﴾ في الآية الأولى، ولفظة ﴿اهْبِطُوا﴾ في الآية الثانية التي تتضمن معنى النزول. وبالمثل نجد أن الأمر بالدخول قد شُفِعَ

بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، وأما في الآية الحالية التي نحن بصددتها نجد عبارة أخرى تقابل ذلك وهي ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾. والفرق بين الحالين ظاهر، فالتعبير القرآني الأول يشير إلى حرية الحياة الصحراوية، وأما التعبير الثاني فيشير إلى الجو الخانق والاستعباد الفكري في المدن والقرى.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى
وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

الَّذِينَ ءَامَنُوا: هذه الكلمة تعني هنا الذين يقرّون بصدق الإسلام، أي المسلمين. فالإيمان هنا يعني مجرد اعتناق الإسلام. هذا وقد استعملت لفظة «مؤمن» بما يرادف لفظة «مسلم» في موضع آخر من القرآن المجيد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (النساء: ١٣٧).

الَّذِينَ هَادُوا: أي اليهود. ولفظة «هادوا» معناها أصلاً تابوا ورجعوا إلى الله، يُقال «هاد» المذهب إلى الله» فهو هائد والجمع هود. و«هاد» أي دخل في اليهودية. و«هاد» صات بصوت ضعيف لين. و«هاد في النطق» أذاه بسكون ورفق. و«هؤد» مشى رويداً، ويقال «هؤد في السير» أي أبطأ (أقرب الموارد). وفي مفردات الراغب «الهؤد» الرجوع برفق، وصار الهؤد في التعارف «التوبة». قال تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا. و«هؤد» في الأصل جمع هائد، و«هود» اسم نبي عليه السلام.

النَّصَارَى: مشتقة من نصر. يقال «نصر المظلوم» أي أعانه. و«النصارى» هم أتباع المسيح، وفي القرآن المجيد قال المسيح عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ

لَحْنُ أَنْصَارِ اللَّهِ ءَامَنًا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٣)، فهم نصارى لأنهم ناصروه وعاونوه. أو قد تكون اللفظة (كما جاء في أقرب الموارد) نسبة إلى بلدة «الناصر» وهي قرية في الجليل نشأ فيها المسيح. وعلى أيّ المعنيين فإن كلمة ﴿نَصَارَى﴾ صارت تُطلق على من يعتنقون المسيحية (راجع أيضاً مفردات الراغب).

الصَّابِئِينَ: مشتقة من «صبا» بمعنى نزع واشتاق أو مال إلى الجهل والفتوة، وقيل مشتقة من «صبا» أي خرج. يقال «صباً ناب البعير» أي خرج. ويقال لمن خرج من دين إلى دين آخر أنه صبا. فالصابئ لغة هو من ترك دينه القديم واتجه إلى آخر. وفي الاصطلاح يطلق لفظ (الصَّابِئِينَ) على فرق دينية كانت ببعض أنحاء بلاد العرب والبلاد المجاورة لها. وتطلق هذه التسمية على أصحاب العقائد التالية: (١) عبدة النجوم الذين يقطنون بلاد النهرين (راجع الإمبراطورية الرومانية للمؤرخ جيبون الجزء الخامس ص ٤٤، مروج الذهب للمسعودي، ودائرة معارف الدين والأخلاقيات تحت كلمة Mandocans). (٢) أصحاب عقيدة تجمع بين أشتات من اليهودية والمسيحية والزرادشتية (راجع تفسير ابن كثير). (٣) قوم كانوا يقطنون بالقرب من الموصل ببلاد العراق، وكانوا يؤمنون بإله واحد ولكن لم يكن لهم كتاب شريعة، وكانوا يدّعون أنهم يتبعون دين نوح عليه السلام (راجع تفسير ابن كثير وابن جرير). (٤) قوم مما يلي العراق يؤمنون بجميع الأنبياء ولهم طريقة خاصة في الصلاة والصوم (راجع تفسير ابن كثير). ويذهب بعض الفقهاء إلى أن الصابئين أهل كتاب ولذلك يجيزون لهم حقوق أهل الكتاب. وعلى أي حال لا يجوز الخلط بين أيّ من هذه الطوائف وبين السبائيين الذين ذكر فريق من شارحي الكتاب المقدس أنهم كانوا من أهل اليمن القديمة (راجع في هذا الصدد مجلة مقارنة الأديان مجلد ٤٩ ص ١٢٩-١٣٢).

مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ: الإيمان في هذه العبارة يُقصد به الإيمان الحقيقي الكامل، أي الإيمان الذي يُعتبر إيماناً صادقاً عند الله تعالى، وليس مجرد الإقرار باللسان. وقد وردت

لفظة «إيمان» بهذا المعنى في الآية ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٥).

التفسير:

قد يُظنُّ أن هذه الآية أُقحمت بين الآيات التي تتعلق بترزع بني إسرائيل وترددهم، وبذلك لا يناسب وضع الآية هنا سياق الكلام. ولكن إذا أنعمنا النظر نجد أن وضع الآية جاء في أنسب مكان هنا. إن القرآن المجيد ليس بكتاب قصص، ولكنه - طبقاً لما ذكره - قد نزل ليرفع أولئك الذين سقطوا أخلاقياً وروحانياً، وهو يتبع ترتيباً يلائم طبيعة النفس البشرية غاية الملاءمة. ويساير حالة القارئ الذهنية، فيفصل بين كل قصص بفاصل من الإشارات المناسبة لإنعاش النفس خلقياً وروحانياً. وتبعاً لذلك، نجد هنا أنه بعد أن عدّ القرآن المجيد بعضاً من خطايا بني إسرائيل، تابع القول بأنه وإن كانت ذنوبهم عظيمة إلا أن رحمة الله العظيمة لا حد لها، ولذلك يمكنهم حتى الآن، بل ويمكن للنصارى والصابئين أو أي قوم آخرين، أن يتجهوا إلى الله تعالى ويؤمنوا بإخلاص بالله ﷻ وبالיום الآخر، وهما أس الإيمان الذي يشمل من حيث المبدأ جميع عُمد الإيمان، ثم يشفعوا ذلك الإيمان بالعمل الصالح، فعندئذ يصبحون أهلاً لنيل رضا الله تعالى ورحمته.

إن لهذه الآية أهميتها، وقد نشأ خلاف كثير حول معناها الحقيقي. ذهب فريق ممن لم يعتادوا التعمق في دراسة القرآن المجيد إلى القول في تسرع إلى أنه حسب هذه الآية، فإن الإيمان بالإسلام ليس بالأمر الضروري، فباب النجاة مفتوح لأي إنسان سواء أكان مسلماً أو نصرانياً أو على أي عقيدة أخرى، ما دام يؤمن بالله واليوم الآخر فقط. وليس هناك أبعد من الحقيقة من هذا القول. فالقرآن المجيد يعلن بصورة مؤكدة في مواضع عديدة أن الإيمان بالرسول ﷺ وبالوحي أمر أساس. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا* أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ١٥١ و ١٥٢). ويقول أيضاً: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣). ويتّضح بجلاء من هاتين الآيتين، دون أي لبس، أن القرآن المجيد يقرر: أولاً: أن الإيمان بالرسول جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله تعالى. ثانياً: أن الإيمان بالآخرة يتضمّن الإيمان بالوحي أيضاً. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ٢٠)، وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٦). وهاتان الآيتان مع الآيتين السابقتين، يثبت منها بصورة قاطعة أن الاعتراض أو الرأي الذي أشرنا إليه آنفاً لا ينهض على أساس، وأنه يرجع إلى الجهل التام بتعاليم القرآن المجيد. والواقع، حسبما جاء بالآيات السابقة، قد اقتصر القرآن المجيد هنا على ذكر الله تعالى واليوم الآخر لأنهما أساس الإيمان وحدهما فقط، ولكن لأنهما يتضمنان الأمرين الآخرين. وهذه الأسس الأربعة: أي الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر وبجميع الرسل وبالوحي هي جميعاً مرتبطة ببعضها ارتباطاً جوهرياً لا ينفصم.

بعدما تقدّم، يبقى أن نفهم المعنى الحقيقي للآية التي نحن بصدد تفسيرها، ويتّضح من تدبر نص الآية والسياق، أنه لا يبقى أدنى شك في إمكان احتمال معنيين فقط لها:

المعنى الأول: بعد إيراد عدد من الأخطاء التي ارتكبتها بنو إسرائيل، يدعوهم الله تبارك وتعالى إلى طريقة حاسمة لتقرير أي الفريقين الذي يتلقى عونه ﷺ، المسلمين أم الإسرائيليين. وزيادة في إقامة الحجّة، يضم إليهم أهل الأديان المحيطة بالجزيرة العربية من يهود ونصارى وصابئة. ومن الواضح أنه في المسائل الدينية عندما يُفرغ من قول كل ما يمكن أن يقال، وبعد أن تنتهي تجربة كل ما يصح تجربته، لا يبقى هناك إلاّ معيار واحد للفصل بين الأحزاب المتنازعة، هو أيّ الفرق هي التي تحظى بعون الله تعالى ونصرته، وأياها قد حُرّم من ذلك. فإذا كان الله تعالى إلهاً حياً، وهو الذي أرسل رسولاً لإحياء العالم، فلا جدال في أنه ﷺ يُعين رسوله ويعززه بالآيات القوية التي تؤيده. فلماذا لا يؤخذ بذلك المعيار للفصل بين ما هو حق وما هو

باطل؟ أما وقد بلغت الأمور إلى ذلك الحد الذي يتطلب دعوة اليهود والنصارى وغيرهم، فإن الله تعالى يقول إنه أصبح في الميدان الآن أربع فرق: المسلمون واليهود والنصارى والصابئون، فلينظروا جميعاً ويروا أي فريق منهم ترعاه يد الله تعالى في النزاع القائم. ففي زمن موسى عليه السلام نصر الله تعالى بني إسرائيل على المصريين، وفي زمن عيسى عليه السلام أعان الله النصارى على أعدائهم، وكذلك الحال بالنسبة للأنبياء الآخرين، فقد أزر الله تعالى أتباعهم على مناهضيهم، وقد كان ذلك برهاناً عملياً ملموساً على أن الحق في جانب الأنبياء لا في جانب أعدائهم. ونفس هذا المعيار المجرب يمكن الآن استخدامه، وهكذا تقول الآية: أي فريق من هؤلاء آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فله أجره عند الله ولا خوف عليه ولا يحزن. ولقد قُدِّم ذلك التحدي إلى جميع من كانوا يزعمون أنهم يحظون بمعونة الله تعالى، وقد كان النصر الأخير الذي لا نظير له، وهو النصر الذي أحرزه الإسلام على جميع مخالفه أوضح برهان على أنه هو الفريق الذي ثبت عملياً أنه في جانب الحق.

وهكذا نرى أن هذه الآية - موضوع التفسير - تنطوي على نبوءة عظيمة كان تحقيقها بانتصار الإسلام برهاناً على صدقه يهرعون مناهضيه. ويزداد العجب لهذه النبوءة إذا ما أخذنا في الاعتبار أن الآية قد نزلت في السنوات الأولى من الهجرة، أي في الوقت الذي كان الإسلام يجتاز فيه مرحلة محن ومشاق قاسية، وكان مصيره يبدو متأرجحاً. بل لو قيست حالة الإسلام إذ ذاك بالمقاييس الدنيوية لتراءى في نظر مناهضيه أنه سيؤول بأسوأ خذلان لا مثيل له في التاريخ.

وهنا رُبَّ معترض يقول إنه بعد قرون من الانتصار بدأت حالة المسلمين في التدهور، ومن ثم لا قيمة لذلك البرهان الذي سقناه. ولكن هذا الاعتراض باطل لعدة أسباب: فأولاً، إذا أخذنا بشهادة التاريخ نجد أن جميع الأديان المنزلة لا تُنسب إلى الجماعات من حيث الناحية الدنيوية العادية، ولكنها تُنسب إلى تلك الجماعات التي تناضل من أجل أهداف دينية. ومن خطئ الرأي أن يُظن بأنه ينبغي أن يستمر العون الإلهي قائماً حتى بعد أن صار القوم أمواتاً من حيث العقيدة ومن حيث

الأفعال. وثانياً: ينبغي ألا يعزب عن البال أن تدهور حالة المسلمين في زماننا هذا وارتفاع شأن المسيحيين من الناحية الدنيوية هو بنفسه يطابق الأنباء الغيبية التي تنبأ بها النبي ﷺ. وفضلاً عن ذلك فإن عجلة الزمان دائرة، وحسب أنباء أخرى للرسول ﷺ، قد حان الوقت ليسترد الإسلام مجده بواسطة المسيح الموعود الذي ذكر الرسول ﷺ أنه سينوب عنه.

المعنى الثاني للآية يقوم على مضمون روحاني، فالله تعالى يقول إنه يوجد الآن أربع فرق متنازعة في الميدان، أي المسلمون واليهود والنصارى والصابئة، وتدعي كل واحدة منها أنها تحظى بصلة روحانية صادقة مع الله ﷻ. ولكن لما كان لكل شيء في هذه الدنيا علامات وخواص معينة تميزه من غيره، فهكذا أيضاً حالة الإنسان في صلته الروحانية مع الله تعالى، فإن هذه الحالة تتميز بعلامات وخواص معينة. وتقول الآية إن إحدى هذه العلامات هي أن الذين يحظون بصلة روحانية حقة مع الله تعالى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ أي أن صلتهم بالله تبارك وتعالى تجلب لهم راحة البال والاطمئنان القلبي الكامل بحيث لا يترك الإنسان في الظلام؛ يساور قلبه التردد في كل آن؛ أهو يسير على الطريق المستقيم أم لا؟ ويتزايد حزنه على ما مضى من أفعاله، ويؤرقه القلق على المستقبل. إن الحياة الأخروية للمؤمن الحقيقي تبدأ من هذه الحياة الدنيا؛ ولذلك قال القرآن المجيد بأن من كان على صلة وثيقة بربه له جنتان؛ جنة في هذه الحياة الدنيا، وجنة أخرى في الحياة الآخرة ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ (الرحمن: ٤٧). وهكذا تدعو الآية التي نحن بصددتها أصحاب كل عقيدة أن يفتشوا قلوبهم عن راحة الفكر وطمأنينة البال اللتين تلازمان العقيدة الحقّة.. ثم لينظروا هل هم ينعمون فعلاً بالراحة والطمأنينة الفكرية.

وهناك معنى آخر للآية، وهو أن الإقرار بالحق باللسان فقط لا يجدي شيئاً عند الله تعالى؛ فقد أقر اليهود أو صدّقوا بالحق بألسنتهم، ولكن لما كان هذا التصديق لم يصل إلى قلوبهم، فقد تعثروا في كل خطوة كانوا يخطونها، وجلبوا على أنفسهم

غضب الله تعالى. وتقول الآية في بيان قوي أنه لا فائدة من أن يكون الإنسان يهودياً أو نصرانياً أو صابئاً أو مسلماً إذا كان إيمانه لا يتعدى طرف اللسان، فهذا إيمان ميت يفتقر إلى القوة الدافعة. فلكي يكون الإيمان مفيداً حقاً، ومقبولاً عند الله تعالى، ينبغي ألا يكون مجرد إقرار باللسان، وإنما يجب أن يكون شيئاً آخر تتأصل جذوره في أعماق القلب، وتنتشر فروعه الحية السليمة في جميع الأنحاء. وهذه هي القاعدة التي يلزم ألا تغيب عن البال، بل وحتى الجماعة الإسلامية التي وُلدت حديثاً ينبغي لها أن تضعها نصب أعينها دائماً أبداً.

ومما تجدر ملاحظته أن كلمة ﴿الصَّابِّينَ﴾ تنطبق على العديد من أهل النحل على النحو الذي بيّناه في شرح المفردات. ولا نعدو الصواب إذا قلنا إن هذه الكلمة في الآية لا يقصد بها نحلة معينة من بين النحل، وإنما تعني أي واحدة منها. وبهذا المفهوم الواسع للكلمة يتضح لنا عظم الحجة التي تسوقها الآية وقوتها.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

ميثاق: مشتقة من الفعل وَثَقَ. يُقَالُ وَثَقَ الشَّيْءُ أي قوي وثبت وكان محكمًا. أَوْثَقَهُ في الوثاق إثاقًا أي شدّه به بقوة وإحكام. الميثاق أي العهد أو العقد المؤكد (أقرب الموارد ومعجم لين).

ويجدر الانتباه إلى أن كل أمر من الله تعالى هو ميثاقٌ وعهدٌ مع المؤمنين، لأنه طالما كان الإنسان أو الناس مؤمنين بالله تعالى وراضين بهديه وإرشاداته كما هي، فإنهم

حينئذ يدخلون في عهدٍ أو موثقٍ مع الله تعالى على أنهم سوف يطيعون كل أوامره، حتى ولو لم يكن عهداً أو ميثاقاً مكتوباً. (انظر أيضاً الآية ٢٨ من نفس السورة)

رَفَعْنَا: مشتقة من الفعل رَفَعَ أي حمل شيئاً أو شخصاً؛ رفعه رفعاً: ضد وضعه. رفع شخصاً أي رَفَّاه في المنزلة والمكانة والكرامة والشرف. وتعني أيضاً رفع الأمر أو الشكوى لأولي الأمر (مفردات الراغب وأقرب الموارد).

وتعني أيضاً الشيء الذي يعلو عمّا بجواره، كما جاء في الحديث الشريف: «.. فَرَفَعْتُ لَنَا صَخْرَةً طَوِيلَةً لَهَا ظِلٌّ..» (البخاري - كتاب المناقب)

فَوْق: مشتقة من الفعل فَاقَ أي تجاوز أو تخطى. يُقال فاق الشيء يفوقه فوقاً وفَوْقاً أي علاه. فَوْق: مصدر وهو نقيض تحت وتستخدم بمعناها الحرفي كظرف مكان أو زمان، كما تستخدم بالمعنى المجازي أو المعنوي للدلالة على علو المكانة أو الاستعلاء (أقرب الموارد).

كما تستخدم أيضاً للدلالة على ارتفاع مكان عن المكان الذي يشغله شخص ما، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، أي عندما نزل الأعداء عليكم من مكان يعلوكم (سورة الأحزاب - الآية ١١).

الطُّور: معناه (١) الجبل. (٢) جبل الطور أو جبل سيناء. أي أن لفظ «الطور» هو اسم لكل جبل وكذلك يُطلق على جبلٍ محدد (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

يعود القرآن المجيد في هذه الآية الكريمة إلى ذكر الموضوع السابق، أي ذكر آثام بني إسرائيل، ولكن في مجال مختلف. إذ تشير الآية إلى المناسبة التي صعد فيها موسى ﷺ إلى جبل سيناء ليتلقى الوصايا العشر، وترك قومه واقفين عند سفح الجبل (راجع سفر الخروج ١٩: ١٧). فالميثاق المشار إليه في هذه الآية والذي تولوا عنه، يختص بالوصايا العشر التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ في تلك المناسبة.

ولا تعني آية ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أن جبل الطور قد ارتفع بالفعل مادياً وظل معلقاً فوق رؤوس بني إسرائيل، وإنما تعني فقط أن الميثاق قد أخذ من بني إسرائيل حينما كانوا وقوفاً عند سفح الجبل، وهو معنى يتفق مع التعبير العربي المذكور في شرح الكلمات. ورفع الجبل منسوب إلى الله تعالى لأنه سبحانه هو الذي أمر بني إسرائيل بالحضور والوقوف عند سفح الجبل.

ويمكن أن تشير الآية أيضاً إلى المشهد الذي اهتز فيه جبل سيناء اهتزازاً شديداً بفعل زلزال قوي، حينما كان بنو إسرائيل قد ضربوا خيامهم بالقرب منه (راجع سفر الخروج ١٩: ١٨). ففي تلك المناسبة ظهرت قمة الجبل وكأنها تتأرجح فوق رؤوس أولئك الذين كانوا وقوفاً بالقرب منه.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾

شرح الكلمات:

فَضْلٌ: مشتقة من الفعل فَضَلَ ويعني: (١) بقي، يُقَالُ «فَضَلَ من المال كذا» أي ذهب أكثره وبقي أقله؛ (٢) ما زَادَ أو ما فاق أو تجاوز حداً معيناً. لذا فكلمة «فَضْلٌ» تعني: (١) الشيء الكثير أو الزيادة؛ (٢) الوفرة؛ (٣) العطية التي لا يلزم معطيها أن يهبها؛ (٤) الإحسان والابتداء به بلا عِلَّةٍ له (أقرب الموارد ومعجم لين).

لذا فإن كلمة «فَضْلٌ» تستخدم بصفة عامة - ولكن ليس دائماً - للإشارة إلى تلك النعم الدنيوية أو المادية (راجع سورة الجمعة - الآية ١١). انظر أيضاً معنى كلمة «رحمة» فيما يلي.

رَحْمَةٌ: مشتقة من الفعل رَحِمَ ويعني: (١) أبدى شفقةً؛ (٢) تعَطَّفَ ورقاً؛ (٣) أحسن إليه؛ (٤) غَفَرَ. لذا فكلمة «رحمة» تعني: رقة القلب أو العطف أو الإحسان أو المغفرة،

أو الميل لإظهار أي صفة من هذه الصفات. وكلمة «رَحِمَ» تعني بيت منبت الولد، لذا فكلمة «رحمة» تعطي معنى العطف والحنان الذي تبديه الأم (معجم لين). عند مقارنة كلمة «رحمة» بكلمة «فضل» - التي سبق شرحها - يتبين أن «الرحمة» تعني بشكل عام النعم والهبات الإلهية المتعلقة بالدين أو بالأمور الروحية. لذا ورد عن النبي الأكرم ﷺ هذا الحديث الشريف: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ» (النسائي - كتاب المساجد).

التفسير:

بدلاً من أن تستوي علاقة بني إسرائيل بالله تعالى بعد أن أنزل عليهم وصاياه، إذا بهم يتولّون عنه ويظهرون تسيباً وعدم اهتمام بتنفيذ تلك الوصايا (راجع سفر عدد ١١: ١). ولما كان الله تعالى برحمته وفضله يريد أن يرفعهم مادياً وروحياً فقد غفر لهم ذنوبهم ونجّاهم من الخسران المبين.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

السَّبْتُ: مشتقة من الفعل سَبَتَ ويعني: (١) استراح؛ (٢) سبت الشيء: قَطَعَهُ؛ (٣) سبت الرأس: حلقه؛ (٤) قام بأمر السبت. والسبت هو يوم من أيام الأسبوع ويُسمى سبباً لأنه يوم عطلة لا يعمل فيه (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

قِرَدَةً: جمع «قرد» المشتقة من الفعل قَرَدَ ويعني لَصِقَ بالأرض؛ تَمَرَّغَ في التراب. أقرد: أي أصبح خسيساً وحقيراً وذليلاً. والقردة جمع قرد وهو حيوان خبيث (أقرب الموارد ومعجم لين).

خَاسِئِينَ: جمع خاسئ المشتقة من الفعل خَسَأَ. يُقال خَسَأَ الكلب: بَعَدَ وانزجر؛ ويُقال خَسَأَ الرجلُ الكلب: طرده وزجره. لذا فهو فعل متعدٍ ولازم . الخاسئ: هو المُبعد المطرود الذي لا يُترك أن يدنو من الآخرين (أقرب الموارد). وطبقاً لقواعد اللغة العربية فإن كلمة خاسئين التي هي جمع خاسئ، تستخدم للعاقل فقط، أمّا بالنسبة للحيوانات -أي لغير العاقل- فتستخدم كلمة خاسئة.

التفسير:

تحدّث الآية الكريمة عن يوم السبت الذي انتهك بنو إسرائيل حرمة. والآية تشير إلى أن العهد الذي قطعه الله تعالى مع بني إسرائيل يتضمّن في بنوده المحافظة على تقديس يوم السبت (راجع سفر الخروج ٢٠: ٨-١١)، وذلك بتكريسه للأمر الروحانية والاجتماعات الدينية. ولكن البعض منهم، بسبب تمردهم المعتاد، لم يحافظوا على قدسية يوم السبت، مما استنزل سخط الله وغضبه عليهم، الأمر الذي أدّى إلى إذلالهم (راجع سفر نمحيا ١٣: ١٥-١٨؛ وسفر إرميا ١٧: ٢١-٢٣). إن انتهاك حرمة يوم السبت كانت خطيئة كبيرة، لأنها دلّت على أن بني إسرائيل كانوا يريدون أن يظلّوا منهمكين في الشؤون الدنيوية، ولم يأبهوا بأن يعطوا أي اهتمام للأمر الدينية، ولا حتى في يوم واحد من أيام الأسبوع.

ومن الخطأ فهم كلمة ﴿قِرْدَةً﴾ على أن أولئك الذين انتهكوا حرمة يوم السبت قد تحوّلوا بالفعل إلى حيوانات من القردة، فالقرآن المجيد يشير إلى هذه الواقعة في مكانين آخرين، في الآية ٦١، ٦٢ من سورة المائدة، والآيات ١٦٧ إلى ١٦٩ من سورة الأعراف. وإن دراسة هذه الآيات، حتى ولو كانت دراسة عابرة، تشير إلى أن هؤلاء الناس لم ينقلبو مادياً إلى قردة. فقد استُخدمت كلمة ﴿قِرْدَةً﴾ في هذه الآية بالمعنى المجازي لتعني الحسّة والوضاعة مثل القردة، فالتحوّل لم يكن في الجسد أو الهيئة، وإنما في الخُلُق والشخصية.

وزيادة في التدليل على ذلك، فإن حقيقة أن جمع المذكر السالم الذي ينتهي بالحرفين «ون» أو «ين» لا يستعمل إلا للعاقل فقط. والجمع المستعمل في الآية هو ﴿خَاسِئِينَ﴾، وهو يبين أن كلمة ﴿قِرَدَةً﴾ في الآية لا تشير إلى مخلوقات غير عاقلة؛ أي أن أولئك الذين اتّصفوا بصفات القردة لا زالوا بشرًا. ولو كان القرآن المجيد يريد تبين أن أولئك القوم قد تحوّلوا بالفعل إلى قردة لما استخدم لفظ ﴿خَاسِئِينَ﴾ بل لكان استعمل لفظ «قردة خاسئة».

وقد قال بهذا الرأي في الماضي الكثير من كبار مفسري القرآن المجيد، فمثلاً «مجاهد» الذي يُعتبر من التابعين، أي من الجيل الذي تبع جيل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، كما أنه كان أحد كبار المفسرين، قال: «إنهم لم يتحوّلوا بالفعل إلى قردة، وإنما تحوّل قلوبهم فقط إلى قلوب القردة، فالله تعالى استخدم هذا التعبير في صورة المجاز» (ابن كثير). كذلك فإن الكثير من المفسرين الآخرين كان لهم نفس الرأي، إذ أنهم فسّروا التعبير ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ بأنها تعني «أذلة صاغرين».

وباستعمال كلمة ﴿قِرَدَةً﴾ في وصف فريق من اليهود، فإن الله تعالى يشير إلى أنه كما أن القردة مخلوقات ذليلة، رغم أنها تتمتع بقدر كبير على المحاكاة والتقليد، وهي عادة يمكن عند حسن توجيهها أن تقود الإنسان إلى التقدم، إلا أن القردة تظل حيث هي كما لو كانت تدور في حلقة مفرغة دون إحراز أي تقدم على الإطلاق. وكذلك أولئك اليهود، ضُربت عليهم الذلّة والمسكنة، رغم ما كان لديهم من مصادر العلم والثروة، فلم يتمكنوا من أن يحققوا لأنفسهم مكاناً بارزاً في العالم. وكما جاء تحت شرح الكلمات، فإن المصدر المشتق منه كلمة «قردة» يحمل معنى الإذلال والهوان كما يعني أيضاً التمرّغ في التراب. والغريب في الأمر أن الكثير من أهل الغرب الذين هم على درجة كبيرة من التقدم العلمي يظنون أن الإنسان قد تطوّر عن القردة دون جميع الحيوانات الأخرى.

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

شرح الكلمات:

نَكَالٌ: مشتقة من الفعل نَكََلَ. يُقال نَكََلَ بفلان: أي أصابه بنازلةٍ وصنع به صنيعاً يُحذَّر غيره ويجعله عبرة له (أقرب الموارد).

التفسير:

إن العقوبة إذا طُبِّقت بحكمة، يجب أن يكون لها غرضان اثنان: (١) إصابة الآثم بآلم يجعله يصلح من نفسه في المستقبل. (٢) أن يكون عبرة يتَّعظ به الآخرون فلا يقعون في خطأ مماثل. ولكن، كما يُبينه الجزء الأخير من الآية، فإن من يستفيد من الموعظة هم المتقون الذين يخشون الله تعالى.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ
تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

هُزُوءًا: تعني: (١) سخرية؛ (٢) هدفًا للاستهزاء (لسان العرب). (انظر أيضاً سورة البقرة: الآية ١٤).

التفسير:

هنا يأتي ذكر إثم آخر من الآثام التي ارتكبتها بنو إسرائيل، وهو ما يتعلق بعبادتهم العجل. ورغم أنه قد تم تدمير ذلك العجل في الآية ٥٢ من سورة البقرة، إلا أن الشعور

بتبجيل البقر ظل كامناً في قلوبهم، وسوف يتم شرح الآية الحالية والآيات التي تليها عند شرح الآية رقم ٧٢.

قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالِ إِنَّهُ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَاتٌ بَيْنَ
ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

فَارِضٌ: مشتقة من الفعل فَرَضَ. يُقَالُ فَرَضَتِ الْبَقَرَةُ أَي كَبُرَتْ وَطَعَنْتْ فِي السِّنِّ (معجم لين).

عَوَاتٌ: مشتقة من الفعل عَانَ. يُقَالُ عَوَّنتِ الْمَرْأَةُ أَي دَخَلَتْ فِي مُنْتَصَفِ الْعُمُرِ فَأَصْبَحَتْ مَكْتَمَلَةُ الشَّبَابِ. والعوان: النصف في السن من كل شيء. الحرب العوان هي أشد الحروب (أقرب الموارد).

التفسير:

انظر تفسير الآية رقم ٧٢ من السورة.

قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالِ
إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا
تَسْرُّ النََّاظِرِينَ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

صَفْرَاءٌ: مؤنث أصفر وتعني الشيء الذي لونه مثل لون الذهب (أقرب الموارد).

فَاقِعٌ: مشتقة من الفعل فَقَعَ، وتعني: (١) خَلَصَ وَصَفًا لونه؛ (٢) اشتدت صفته. فاقع اسم فاعل ويعني: (١) الخالص الصفرة الناصعها؛ (٢) الخالص الصافي من الألوان أيًا كان والمشهور أنه صفة للأصفر (أقرب الموارد).

التفسير:

انظر تفسير الآية ٧٢ من السورة.

قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ
تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنِ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧١﴾

شرح الكلمات:

الْبَقَرُ: اسم جنس من الحيوانات، والبقرة تستخدم للذكر والأنثى، والجمع بقرات (أقرب الموارد).

التفسير:

انظر تفسير الآية ٧٢ من السورة.

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ
الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ
فِيهَا قَالُوا أَلَّيْنِ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا
وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٢﴾

لقد عاش بنو إسرائيل لزمان طويل بين المصريين الذين كانوا يقدّسون البقر، وبالتالي فقد تسرّب ذلك التقديس إلى قلوب بني إسرائيل، ولذلك فإنهم حين أرادوا أن يتّخذوا صنماً يعبدونه من دون الله تعالى جعلوه على هيئة العجل، كما جاء في الآية ٥٢ من سورة البقرة (راجع سفر الخروج ٣٢: ٤). لذلك، كان من المناسب من أجل اجتثاث ذلك الشعور الآثم من قلوب بني إسرائيل، أن ينزل إليهم الأمر المزمع بعد المزمع بذبح البقر، فكان هذا ما حدث بالفعل (راجع سفر عدد ١٩: ١-٩، وسفر اللاويين ٤: ١-٢١؛ ١٦: ٣، ١١). إن الأمة التي تذبح حيواناً دون أيّ تردد لا يمكن أن تفكر في اتّخاذها إلهاً من دون الله تعالى.

وفي الآيات التي نحن بصددّها، من الآية ٦٨ إلى ٧٢، جاء ذكر موسى عليه السلام وهو يأمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة قرباناً. ويبدو أنهم أمروا في أول الأمر أن يذبحوا بقرة عادية، ولكن يبدو أيضاً أنهم كانوا يحتفظون ببقرة معيّنة كانت مدلّة لديهم. وقد انتابهم شعور طبيعي بسوء الظن جعلهم يظنون أن الأمر يتعلّق بتلك البقرة بالذات. لذلك فقد ظلّوا يكرّرون سؤال موسى عليه السلام أن يبيّن لهم البقرة التي يريد الله تعالى منهم أن يذبحوها. ونتيجة لتكرار أسئلتهم أضيفت بعض الصفات لتحديد البقرة. وفي النهاية، عندما انطبقت جميع الأوصاف على البقرة التي كانت في حسابهم اضطروا أن يقولوا ﴿الآن جئت بالحقّ﴾. وتدلّ هذه الكلمات على أنهم كانوا منذ البداية يعلمون البقرة المطلوب ذبحها بالذات. ولما أسقط في أيديهم لم يكن أمامهم سوى أن يذبحوا تلك البقرة المدلّة، وبالتالي فقد تمّ اتّخاذ خطوة هامة في انتزاع جذور ذلك الشعور الآثم من قلوبهم.

وقد جاء ذكر تلك الواقعة في الكتاب المقدس أيضاً (راجع سفر العدد ١٩: ١-٩). غير أن الصيغة القرآنية تختلف بعض الشيء عما جاء في الكتاب المقدس. فحسب القرآن المجيد جاء التوجيه الإلهي في أول الأمر بذبح بقرة عادية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ

أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً»، وبسبب تكرار أسئلتهم جاء ذكر الأوصاف الإضافية التي حدّدت بقرة ما بعينها. أما رواية التوراة فلا تذكر هذا التساؤل المتكرر، وإنما جاء ذكر الصفات الخاصة بتلك البقرة عند أول الأمر. كذلك تبين الرواية القرآنية أن بني إسرائيل قد امتثلوا في النهاية للأمر الإلهي بعد تردّد طويل، كانوا يتحجّجون فيه بالرغبة في معرفة المزيد من التفاصيل عن البقرة المطلوب ذبحها، ولكن الكتاب المقدس لا يلقى أي ضوء على الأسلوب الذي تم به تنفيذ الأمر. وليس من الصعب طبعاً رؤية أي كتاب كان الحق في جانبه، إذ إنه من الصعب تصديق أن بني إسرائيل الذين كانوا يعترضون على موسى ﷺ كلما أمرهم بشيء يتعارض مع هواهم، فإنهم مع ذلك ينقذون أمراً ما بغير أي اعتراض، رغم أن هذا الأمر يتعلق بذبح بقرة كانت عزيزة لديهم.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٣﴾

شرح الكلمات:

قَتَلْتُمْ: مشتقة من الفعل قَتَلَ. يُقال قتله أي: (١) أماته؛ (٢) حاول قتله؛ (٣) جعله كالمقتول. (انظر أيضاً شرح الكلمات للآية ٦٢ من نفس السورة)

نَفْسًا: استخدمت هذه الكلمة هنا نكرة، وبحسب قواعد اللغة العربية، هذا التنكير إمّا أن يستخدم للحديث عن شخص لا أهمية له ولا حاجة لذكر اسمه، أو أن يستخدم للحديث عن شخص ذي مقامٍ عالٍ؛ وعليه فأحياناً تستخدم الكلمة مُنْكَرَةً للدلالة على عظمة شأنها (المطوّل للتفتراني).

فَادَارَأْتُمْ: مشتقة من الفعل دَرَأَ. يُقال درأه أي دفعه أو جذبه بشدة. وادارأتم هي في الأصل اِتدارأتم وتعني: (١) تدافعتم في الخصومة واختلقتم؛ (٢) ألقى بعضكم على بعض اللوم والمسؤولية (أقرب الموارد ومعجم لين).

تَكْتُمُونَ: (انظر شرح الكلمات للآية ٣٤ من نفس السورة).

التفسير:

انظر شرح الآية التالية.

فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ
الْمُوتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

الْمُوتَى: جمع الميت. والميت هو: (١) من مات فعلاً؛ (٢) من كان كالميت؛ (٣) من يموت أو أوشك على الموت (معجم لين). (انظر أيضاً شرح الكلمات للآيات ٢٠ و ٢٩ و ٥٧ من نفس السورة)

التفسير:

ذكر الله تعالى في الآية السابقة جانباً من سيئات بني إسرائيل من أجل أن يبين لهم أنه من غير المعقول أن يستمر سبحانه في إنزال نعمه وأفضاله عليهم رغم استمرار سلوكهم السيئ. ويذكر الله ﷻ في الآيات ٧٣، ٧٤، ٧٥ واحداً من آخر أعمالهم التي تسببت في أن طفق كيل سيئاتهم وختم بذلك على مصيرهم.

إن القرآن المجيد لم يذكر اسم الشخص الذي قتله اليهود، ولكن حين نقرأ الآيات في ضوء الحقائق التاريخية، تبدو أنها تنطبق على قتل اليهود لأحد صحابة النبي ﷺ

في المدينة. وفيما يلي بعض تفاصيل الحادثة التي كانت أول فعل علي ارتكبه يهود المدينة ضد المسلمين.

كان الرسول ﷺ قد عقد عند وصوله إلى المدينة معاهدة مع اليهود، غير أن نجاح المسلمين واستمرار تقدمهم أثار غيرة زعماء اليهود، فبدأ البعض منهم يحرّض أتباعه ضد المسلمين. ووقعت الكارثة مع غزوة بدر التي أشعل فيها انتصار المسلمين غيرة اليهود وحقدهم حتى بلغ منتهاه. ونتج عن ذلك تنامي الشعور العدائي للمسلمين، وصار سلوك اليهود تجاه الإسلام يتسم بالوقاحة وسوء الأدب. وقد حدث بعد فترة وجيزة من معركة بدر أن ذهبت إحدى نساء المسلمين إلى متجر أحد اليهود، وجلست لشراء بعض الحاجيات. غير أن زمرة من اليهود الذين تصادف وجودهم بالمتجر أمطروها بوابل من الإهانات، بعد أن غافلها صاحب المتجر فشبك أسفل جلبابها بأعلاه مستخدماً شوكة، حتى إذا ما وقفت غاضبة لتترك المكان بسبب ما سمعت من إهانة، تعرّى جزء من جسدها دون أن تشعر بذلك. وقد انفجر صاحب المتجر وأصحابه ضاحكين حين وقفت المرأة، ولما أدركت هي انكشاف جسدها راحت تصرخ مستغيثة. وسمع الصراخ أحد المسلمين الذين تصادف مروره في ذلك المكان، فاندفع داخل المتجر حيث نشب عراك بينه وبين اليهود الذين كانوا فيه. ونتج عن ذلك قتل صاحب المتجر كما قتل الرجال اليهود ذلك الرجل المسلم، وحدث هرج ومرج، وكاد الأمر يُفضي إلى وقوع شغب خطير. وقد حدثت هذه الواقعة في نهاية السنة الثانية للهجرة، وإليها تشير الآية السابقة: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُتُمْ فِيهَا﴾. وقد اختلف اليهود في أمر هذه الجريمة، ورفض أي منهم أن يعترف بأنه هو الذي قتل الرجل المسلم، رغم أنهم جميعاً اتّبَعُوا أسلوباً وقحاً في التناول على النبي ﷺ حينما كان يهيب بزعماء اليهود أن يتّقُوا الله تعالى ويخشوه، وأن يمتنعوا عن تهديد أمن المدينة. وكان من نتيجة ذلك أن نشب القتال بين القبيلة اليهودية بني قينقاع وبين المسلمين، مما أدّى إلى إخراج هذه القبيلة ونفيها خارج المدينة (سيرة ابن هشام والطبري والزرقاني).

غير أن المسؤولية الحقيقية لما حدث كانت تقع على عاتق أحد زعماء اليهود في المدينة، وهو كعب بن الأشرف، الذي لعب دوراً خطيراً في تحريض القبائل اليهودية وإشعال نار البغض والكراهية لديهم ضد المسلمين. كان الرجل يُعتبر زعيماً عاماً لجميع قبائل اليهود في بلاد العرب كلها، وكان رجلاً ذا ثراء واسع كما كان شاعراً مُمفوّهاً. وقد كان كعب طرفاً في المعاهدة التي عقدها الرسول ﷺ مع اليهود عند وصوله إلى المدينة، غير أنه كان يضمر كراهية شديدة للإسلام ونبيه الكريم ﷺ، وكانت هذه الكراهية تزداد ضراوة مع مرور الأيام وارتفاع شأن الإسلام. ولما حقق المسلمون انتصاراً حاسماً في غزوة بدر الكبرى، وأدرك كعب أن الإسلام يضرب بجذوره في أعماق تربة المدينة، ارتأى أن يتخذ خطوات حاسمة لاستئصال الدين الجديد. وعلى الفور شد الرحال إلى مكة، وهناك استطاع بأسلوبه البليغ وأشعاره المؤثرة أن يذكي نار العداوة والبغضاء التي كانت تتأجج في صدور قريش، وقد جعلهم كعب يُقسمون له وهم يمسكون بأذيال الكعبة المشرفة، على أنه لن يهدأ لهم بال إلا إذا دمروا الإسلام وقضوا على نبيه. وبعد ذلك راح كعب يطوف بالقبائل الأخرى في بلاد العرب كي يثيرها ضد الرسول ﷺ وضد الجماعة الصغيرة من أتباعه المؤمنين. وبعد أن أضرم نيران الحقد والعداوة في أنحاء البلاد عاد إلى المدينة، وأخذ في خلق أسباب النزاع والشقاق وذلك بإنشاد الأشعار البذيئة التي تناول فيها بعض نساء المسلمين وسيدات من أسرة النبي ﷺ بأسلوب متدنٍ وألفاظ وضيعة منحطة. وقد ذاعت تلك الأشعار على نطاق واسع، وراح أعداء المسلمين يردّدونها علانية. وكان من نتيجة هذه الأشعار أن استعرت نيران الكراهية لدى اليهود إلى أن اتخذت شكلاً سافراً من السلوك العدائي ضد النبي ﷺ وصحابته، الأمر الذي كان يتعارض مع التزاماتهم التي نصّت عليها معاهدتهم مع المسلمين، بل ألقت بتلك المعاهدة أدراج الرياح. وقد أدّت هذه الأساليب العدوانية إلى تشجيع اليهود على ارتكاب أساليب العنف المشار إليها آنفاً، في خرق علفي واضح لشروط المعاهدة التي وقّعوها مع النبي ﷺ عند وصوله إلى المدينة (ابن هشام والزرقاني وأبو داود).

وعلى هذا، فإن المسؤول الحقيقي عن اغتيال المسلم المذكور عاليه لم يكن سوى كعب بن الأشرف نفسه، الزعيم اليهودي الشرير الوقح، الذي حرّض اليهود على التمرد وخيانة العهد، بل إنه لم يتردد في التآمر على حياة الرسول ﷺ نفسه (الزرقاني). وقد ثبت جُرمه بوضوح تام حتى بات حقيقة معروفة، وكانت جريمته، بلغة العصر، هي الخيانة العظمى ضد الدولة، وكان بالفعل من أشد أعداء الإسلام. ولذلك فقد حكم عليه الرسول ﷺ بالإعدام، ونُقذ الحكم في العام الثالث من الهجرة. وتشير الآية الحالية إلى حكم الموت هذا حيث تقول: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ (يعود الضمير هنا إلى القاتل، أي المتسبب الحقيقي في كل هذا الفساد) بِبَعْضِهَا (أي جزاء لبعض ما كسبت يده من الجريمة التي ارتكبها ضد المقتول)، الأمر الذي يعني أن حكم القتل الذي صدر ضده كان جزاءً لبعض جرائمه التي ارتكبها، وأما بقية العقوبة التي يستحقها فإنه سوف ينالها في الآخرة. وفي الحقيقة، هناك بعض الذنوب التي يغفرها الله تعالى إذا وَقَعَت على المذنب العقوبة التي يستحقها في الدنيا، ولكن جريمة القتل العمد لإنسان بريء، وخاصة إذا كان ذلك الإنسان البريء رجلاً صالحاً من عباد الله المخلصين، فإن إعدام القاتل ليس بالعقوبة الكافية على ذلك الجرم الفظيع، بل هي عقوبة جزئية فحسب، أمّا العقوبة الحقيقية لهذه الجريمة النكراء فهي في نار جهنم، كما تذكر الآية ٩٤ من سورة النساء.

وباستخدام صيغة الجمع في لفظة ﴿قَتَلْتُمْ﴾ يشير القرآن المجيد إلى كل المجتمع اليهودي في المدينة، فهو الذي كان مسؤولاً عن هذه الجريمة ونتائجها، أي حكم الإعدام الذي صدر في محله على الزعيم الذي أثار زوبعة الحقد والكراهية.

وأما قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ فيعني أن وقوع العقوبة على المذنب الجاني إنما هو وسيلة فعالة لإحياء الموتى، لأن معاقبة القاتل تمنعه من ارتكاب المزيد من الجرائم، وهكذا يمكن إنقاذ حياة الكثيرين ممن كانوا من الممكن أن يفقدوا حياتهم لو لم تكن هناك عقوبة رادعة. ويشير القرآن المجيد نفسه إلى أن وقوع هذا

القصاص يُعتبر وسيلة أكيدة في إعطاء الحياة، إذ نقرأ في الآية ١٨٠ من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

وفي النهاية، يجدر التنويه إلى أن البعض أشار إلى أن هذه الآيات تنطبق أيضاً على محاولة قتل وصلب المسيح عليه السلام التي قام بها اليهود. غير أن الدراسة الحديثة تؤيد بشدة التفسير المذكور عاليه. كذلك لا بد من ذكر أن التفسير الذي وضعه بعض المفسرين لهذه الآية وذكروا فيه أن شخصاً ما قد عاد بالفعل إلى الحياة بعد أن تم قتله إنما هو تفسير خاطئ تماماً، لأنه لا يتفق مع سياق الآيات كما أنه يتعارض مع المفاهيم الحقيقية للإسلام، وهو ليس سوى خبط من الأساطير التي لا تجد لها أساساً في الواقع الحقيقي.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ
كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا
يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ
مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

يَشَّقَّقُ: هي في الأصل يتشقق وهو مشتق من شَقَّ. شَقَّ الشيء: صَدَعَهُ وفَرَّقَهُ. تشقق الحطب أي تصدع وتفرق (أقرب الموارد).

التفسير:

إن جريمة قتل المسلم البريء المشار إليها في الآيات السابقة كانت هي التي ختمت على مصير يهود المدينة الذين ازدادت بعدها قسوة قلوبهم شدة بعد شدة حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة.

ومتضى الآية فتقول إن هناك أشياء مفيدة حتى بين الجمادات، كالأحجار مثلاً. وأما اليهود، فرغم أنهم كائنات عاقلة، ولديهم القدرة على الفهم والإدراك، وهم ذرية قوم صالحين، فقد أصابهم جمود حتى إنهم صاروا أسوأ من الحجارة. إن للحجارة مهام تؤديها، كما أن لها فوائد أيضاً، ولكن لما كانت الحجارة عديمة الإرادة، فإن ما تقوم به لا يعود عليها بنفع أو فائدة. إن الأعمال في حقيقة الأمر نوعان، أولاً: تلك التي لا تؤدي باختيار أو نتيجة للإرادة؛ وثانياً: تلك التي تؤدي بسبب الإرادة وإنما بسبب بعض القوانين الطبيعية. وحسب ما يقول به الإسلام فإن الأعمال التي تؤدي نتيجة لاستعمال الإرادة هي وحدها التي تستجلب الجزاء، أما الأعمال التي من النوع الثاني، التي لا تؤدي بناء على إرادة واختيار، فإنها رغم أنها لا تأتي لفاعلها بأي مكافأة أو جزاء، إلا أنها تكون مفيدة في بعض الأحيان. ومعظم اليهود في زمن النبي ﷺ قد أصابهم الفساد والانحراف، حتى إنهم لم يكونوا أبعد من أن يقوموا بعمل صالح من أجل الرغبة في الصلاح فحسب، بل إنهم لم يقوموا بفعل شيء مفيد، ولو على سبيل التصرف الطبيعي أو التلقائي بغير إرادة. لقد أصبحوا أسوأ من الحجارة؛ إذ إن من بعض الحجارة قد تتدفق المياه التي تعود بالنفع على الناس.

وقد أضافت الآية أن هذا القول لا ينطبق على كل الأمة اليهودية بأسرها؛ فإن البعض من بني إسرائيل بغير شك كانت قلوبهم عامرة بخشية الله تعالى. ويقول القرآن المجيد عن هؤلاء في الآية التي نحن بصددناها: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ومما هو جدير بالذكر أن الضمير «ها» في هذه العبارة يعود على القلوب ولا يعود على الحجارة. والواقع أن الضمير «ها» في ﴿مِنْهَا﴾ التي تكررت مرتين تعود الأولى

منها إلى الحجارة، بينما تعود الثانية إلى القلوب بلا ريب. والقرآن المجيد يحتوي على العديد من الحالات التي تُسمّى «انتشار الضمائر» حيث تشير الضمائر المتشابهة الواقعة في نفس الجملة إلى أسماء مختلفة. فمثلاً نقرأ في الآية العاشرة من سورة الفتح قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. وفي هذه الآية يشير ضمير «الهاء» في المرتين الأوليتين في قوله: ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ إلى الرسول ﷺ، بينما يشير نفس ضمير «الهاء» في المرة الثالثة في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ إلى الله تبارك وتعالى.

ويشير قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ﴾ إلى أنه حتى بين الجمادات هناك درجات متفاوتة لقيمة الأشياء، إذ يكون بعضها أكثر فائدة من الآخر. وبين القرآن المجيد أن علينا إدراك الفرق بين الدرجات المختلفة في منفعة جميع الأشياء، فكل شيء يجب أن ينال ما يستحق، سواء كان صغيراً أو عظيماً.

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ
فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

يُحَرِّفُونَهُ: مشتق من الفعل حَرَفَ. حَرَفَ الشيء عن وجهه أي صرفه وغيره. المصدر حَرَفٌ ويعني جانب أو حافة الشيء. وحَرَفَ القول: (١) غيرَه عن مواضعه؛ (٢) جعله على حرفٍ من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

تتوجّه الآية بالحديث إلى المسلمين، مشيرة إلى أن اليهود قد صاروا في حالة من الجمود الفكري حتى إنهم صاروا كالْحِجَارَة أو أشد قسوة، ولذلك على المسلمين ألاّ يطمعوا في أن يؤمنوا بما يؤمنون هم به، أو أن يتصرّفوا نحوهم بصدق وإخلاص. لقد ضاع الإيمان تماماً من قلوب بني إسرائيل في ذلك الزمن، وفقدوا كل معايير الشرف. إنهم يسمعون كلام الله من الرسول ﷺ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم إذا بهم يحزّون كلام الله من بعد ما عقلوه. وبذلك فإنهم يسعون عن عمد إلى إضلالهم وإثارتهم ضد الرسول ﷺ وأتباعه الكرام عن طريق التخريب المتعمّد، فلا يمكن توقّع أن يمنع هؤلاء مانع من نقض معاهداتهم ونكث وعودهم والتزاماتهم.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

فَتَحَ: وتعني: (١) فتح الباب خلاف أغلقه؛ (٢) بسط الشيء خلاف طواه؛ (٣) علّم كقول فتح الله على فلان أي علّمه وعزّفه؛ (٤) غلب على أرض أو انتصر على قوم (أقرب الموارد).

عِنْدَ: وتفيد العديد من المعاني، على سبيل المثال: مع، بواسطة، لدى، بالقرب، في وجود، من وجهة نظر، بحسب تقدير.. إلخ (معجم لين).

تذكر الآية الكريمة فريقاً آخر من اليهود الذين كانوا يتصرفون بروح من النفاق. فحين كانوا يلقبون المسلمين كانوا يبدون توافقاً معهم، مدفوعين في ذلك بالدوافع الدنيوية، وكانوا يؤكدون على صحة النبوءات التي جاءت في كتبهم المقدسة عن ظهور الرسول ﷺ، ولكن حين يكونون بعيدين عن أعين المسلمين مخالطين قومهم، كانوا يسلكون مسلكاً مختلفاً. وفي مثل هذه المناسبات، كان الفريق الآخر من قومهم يلقبون عليهم باللائمة وينهرونهم، لأنهم كانوا يحدثون المسلمين بما أنزل الله تعالى في كتبهم، أي أنهم كانوا يخبرون المسلمين عن النبوءات التي كانت تحتويها صحفهم المقدسة عن رسول الإسلام ﷺ، ولذلك كان قومهم ينهرونهم متعللين بأن المسلمين سوف يحاجونهم ويلومونهم أمام الله تعالى يوم الحساب، لأنهم رفضوا الإيمان بالرسول الموعود ﷺ، ومع ذلك فإنهم كانوا على علم تام بتلك النبوءات التي تحدثت عن مقدم الرسول ﷺ وتشهد على صدقه. وقد أشار القرآن المجيد إلى حدوث مثل هذا التحاجج يوم القيامة، إذ يقول تعالى في الآية ٣٢ من سورة الزمر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾. وبسبب الضعف الإنساني، فإن الشخص المذنب حتى وإن كان يعلم أن القاضي يعرف الحقيقة، فإنه يحاول أن يقدم بعض الحجج للدفاع عن نفسه. وبالإضافة إلى ذلك، هناك فرقة من اليهود كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يعرف تفاصيل كل شيء، وذلك على الرغم مما جاء في كتبهم المقدسة بخلاف ذلك. ومن الجائز أن أولئك الذين كانوا ينهرون إخوانهم ويلومونهم لأنهم كانوا يخبرون المسلمين عما تحتويه كتبهم المقدسة من نبوءات، كان لديهم نفس هذا المفهوم، فكانوا يخشون أن يكشف المسلمون هذه الحقائق عند الله يوم القيامة، ويلومونهم على ذلك أمام الله تعالى.

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٨﴾

التفسير:

تشير الآية إلى أن اليهود يعلمون أن كتبهم المقدسة تنص على أن الله تعالى يعلم السر والعلن والظاهر والباطن (راجع سفر إرميا ١٦: ١٧ وسفر دانيال ٢: ٢٢). وعلى ذلك، حتى ولو لم يكشفوا للمسلمين عن النبوءات التي تحتويها كتبهم المقدسة، فإن الله تعالى هو العليم بكل شيء، وسوف يحاسبهم بناء على ذلك.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ
وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

أُمِّيُونَ: جمع أُمِّي وهو من لا يعرف الكتابة ولا القراءة نسبة إلى الأم لأن الكتابة مكتسبة، فهو على ما ولدته أمه من الجهل بالكتابة (أقرب الموارد). وأُمِّي تعني أيضاً: (١) من ليس له كتاب موحى به من الله؛ (٢) من ينتمي إلى أمة العرب (معجم لين).

أَمَانِيَّ: جمع أمنية وهي مشتقة من الفعل منى وتعني: (١) الرغبة؛ (٢) القصد؛ (٣) الكذب والبهتان؛ (٤) القراءة أو التلاوة (أقرب الموارد).

التفسير:

هناك فريق ثالث من اليهود لا يعلمون شيئاً من الكتاب على الإطلاق، وليس لديهم من علم إلا ما سمعوه من الأقاويل، أو ما تخيلوه من الأمانى. وبدلاً من محاولة فهم الكتاب، وجعل إيمانهم مؤسساً على قاعدة من الاقتناع والإدراك، فإنهم يتبعون أهواءهم. إن معارفهم لا تقوم على أساس الكتاب المقدس، بل إنهم يفضلون تحريف الكتاب حسب أهوائهم ومفاهيمهم الخاطئة. وكما تعني كلمة «أمنية»، فعند قراءة الآية الكريمة بهذا المفهوم، فإنها تعني أن اليهود لا يعلمون من الكتاب والشرعة

إِلَّا الْحَرْفَ وَالْمَظْهَرَ فَحَسَبَ، وَأَنَّهُمْ فَقَدُوا كُلَّ عِلَاقَةٍ بِالرُّوحِ وَالْجَوْهَرِ، فَهُمْ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَلَكِنْ لَا يَفْهَمُونَهُ.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ
لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٨٠﴾

شرح الكلمات:

وَيْلٌ: كلمة عذاب وتعني: (١) حلول الشر؛ (٢) العقاب؛ (٣) جهنم. والتعبير ويل له أو ويله أو ويل لك أو ويلك، يستخدم للتهديد والوعيد بالعذاب (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

هناك من اليهود من كانوا يكتبون كتباً بأيديهم ثم يقولون للناس إنها كلام الله. إن هذا التصرف السيئ كان واسع الانتشار بين اليهود والأقوام الآخرين. فبالإضافة إلى الكتب المقدسة المعترف بها، هناك العديد من الكتب الأخرى، حتى أنه أصبح من المستحيل الآن التفريق بين الكتب التي هي من وحي الله تعالى وتلك التي لم يوح الله بها. ومن سوء عمل اليهود أيضاً أنهم حرّفوا كذلك معاني الكلمات التي أوحى بها الله تعالى. إنهم بأنفسهم كتبوا كتاباً بأكمله وزعموا أنه مؤسس على أدلة الكتاب المقدس، بينما كان في حقيقة الأمر يعارض ما جاء في الكتاب المقدس. إن المسؤولين عن ذلك ليسوا مسؤولين فقط عن أفعالهم، أي عن تحريف كلام الله، ولكنهم مسؤولون أيضاً عن سيئات أولئك الذين اتّبعوهم واتّخذوهم مثلاً يحتذون به في اقتراف أحد الأعمال الآتية: (١) تحريف كلام الله عن مواضعه، كما في الآية ٧٦ من

سورة البقرة. (٢) تفضيل الشؤون الدنيوية على الآخرة (الآية ٧٧ من سورة البقرة).
 (٣) اتباع أمانيتهم وأهوائهم (الآية ٧٩ من سورة البقرة). لذلك حين يتحدث عنهم
 القرآن المجيد يستعمل كلمة ﴿وَيْلٌ﴾ لكي ينذرهم ويذكّرهم بسوء أعمالهم.

لقد زعم بعض الكتاب المسيحيين أن الآية التي نحن بصددّها تثبت أن الكتب
 المقدسة عند اليهود والنصارى كانت على حالتها الأصلية دون أي تحريف في زمن
 الرسول ﷺ، غير أن هذا الزعم عارٍ عن الصحة تماماً، لأن القول بتحريف النص
 لا يعني أن ذلك النص كان صحيحاً. إن من يعبث بنسخة مغلوطة محرّفة، ويعتقد
 هو بصحّتها وحقيقتها، يستحق اللوم ويتحمّل نفس المسؤولية التي يتحمّلها من
 يعبث ويحرّف نصّاً سليماً صحيحاً. وعلى ذلك، فإن تحذير أهل الكتاب من تحريف
 الكتاب المقدس لا يعني أبداً أن الكتاب المقدس كان موجوداً بصورته الأصلية في
 زمن الرسول ﷺ.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أنه من المقبول أن يشتروا به ثمناً كبيراً.
 إن الكلمات تعني أن ثمن تحريف الوحي الإلهي هو ثمن قليل مهما كان ومهما عظم،
 وذلك بسبب الخسارة العظمى التي تحيق بهم نتيجة لذلك التحريف. وفي مكان آخر
 يذكر القرآن المجيد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ (النساء: ٧٨).

وفي الجزء الأخير من الآية الكريمة يكرر القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لَهُمْ﴾ مرتين
 قائلاً: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، وذلك لتبيان أنهم
 بفعل ذلك قد ارتكبوا خطيئتين: (١) تدوين شيء محرّف. (٢) فعل ذلك بهدف
 الحصول على نفع مادّي. وحيث أن الخطيئة خطيئتان، كذلك فإن العقاب سيكون
 مضاعفاً.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ
أَتَّخِذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

شرح الكلمات:

النَّارُ: ويعني هذا اللفظ مصدر الضوء والحرارة، والأخير هو الذي يغلب استخدامه. ويشق من نفس المصدر، كلمة نور وتعني الضوء وهي تستخدم للإشارة فقط إلى الضوء دون الإشارة إلى الحرارة. وتستخدم كلمة «النار» للإشارة إلى جهنم حيث يعذب فيها بالنار (أقرب الموارد). ومما يلفت النظر أنه كلما شُبهَ نعيم الجنة بالأنهار الجارية، جاء الحديث عن عذاب جهنم بأنه النار.

التفسير:

بعد سرد البعض من سيئات اليهود، راح القرآن المجيد يشرح السبب الجذري وراء خطيرة اليهود وجفاء قلوبهم. فبيّن القرآن المجيد أن اقترافهم لهذه السيئات نتيجة لظنهم الخاطئ بأنهم في مأمن من العقاب الإلهي (انظر دائرة المعارف اليهودية تحت كلمة «جهنم»)، أو أنهم إذا تعرّضوا للعقاب فإنهم لن يُعاقبوا إلا لأيام معدودة. ويُروى أن فريقاً من اليهود في زمن النبي ﷺ كانوا يظنون أن عقاب اليهود لن يستمر أكثر من أربعين يوماً (ابن جرير تحت تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة)، بينما يعتبر فريق آخر أن هذه المدة طويلة جداً، حتى إنهم اختصروها إلى سبعة أيام فقط (ابن جرير نفس المرجع). وأما بالنسبة لليهود في العصر الحديث فإن المستشرق سيل (Sale) يقول: «إنه رأي شائع بين اليهود في العصر الحاضر أن أي شخص (من اليهود)، مهما ارتكب من سيئات، أو أيّاً كان المذهب الذي ينتمي إليه، لن يمكث في جهنم أكثر من أحد عشر شهراً، أو عاماً واحداً فقط على أكثر تقدير، فيما عدا داثان

Dathan وأبيرام Abiram والملحدين (من بين اليهود) الذين سوف ينالون العذاب هناك إلى الأبد». (ويري، الجزء الأول ص ٣١٨).

والجزء الأخير من الآية: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ يشير إلى أن أمر النجاة لا يتوقف على هوى أحد، وإنما يتوقف على فضل الله ورحمته تعالى الذي وضع قانوناً لذلك. وقد بين القرآن المجيد هذا القانون في الآيتين التاليتين.

بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ
خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

سَيِّئَةٌ: مشتقة من الفعل ساء أي قَبَحَ فصار قبيحاً أو شريراً. وعليه فإن كلمة سيئة هي كل ما هو قبيح أو شرير. تقول العرب: قول سيئ أي قول قبيح أو فكرة شريرة (أقرب الموارد).

خَطِيئَةٌ: مشتقة من خطأ وتعني اقترف ذنباً أو ارتكب معصية. وكلمة خطيئة تعني الذنب عن عمدٍ أو غير ذلك، ولكن المشهور هو أنها الذنب المُتَعَمَّد (أقرب الموارد ومعجم لين ومفردات الراغب).

التفسير:

تبين هذه الآية والتي تليها قانون العقاب والثواب، أو بمعنى آخر المآل إلى جهنم أو إلى الجنة. وقد بدأ القرآن المجيد بذكر القانون الخاص بالعقاب قبل الثواب، لأن اليهود ذكروا في الآية السابقة أنهم في مأمن من العقاب. وقد بنى اليهود اقتناعهم هذا على أنهم شعب الله المختار، وأنهم من سلالة الأنبياء. والقرآن المجيد يرفض تماماً هذه

الدعوى، ويذكر أن جهنم والجنة لا تختصان بعرق من الأعراق، لأن دخول جهنم أو الجنة يتوقف على ما يؤمن به الإنسان من عقائد، وعلى ما يقدمه من أعمال في هذه الدنيا. فإذا آمن إنسان ما بعقائد خاطئة، وقام بارتكاب أعمال آثمة، فإن مصيره إلى جهنم، بصرف النظر عما إذا كان يهودياً أو مسيحياً أو يتبع أي دين آخر.

إن كلمة «سَيِّئَةٌ» حين تُقرأ في السياق الذي جاءت فيه، فإنها تعني رفض اليهود الإيمان بالنبي ﷺ، وهي بذلك تشير إلى المتطلب الأول لاستحقاق العقاب، وهو موضوع العقائد الخاطئة. وكلمة «خطيئة» تعني ارتكاب الآثام بوجه عام، وهي بذلك تشير إلى المتطلب الثاني لاستحقاق العقاب، وهو عمل السيئات. وجدير بالذكر أن الذنوب العابرة يمكن أن يغفرها الإله الرحيم، بشرط أن يكون الإيمان صادقاً والعقيدة سالحة، بالإضافة إلى أن يبذل المذنب جهداً مخلصاً لكي يعيش نقيّاً في طاعة الله تعالى. ولذا، فإن كلمات الآية ﴿وَأَخَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ تشير إلى حقيقة أن ارتكاب مثل تلك الآثام هو الذي يدفع الإنسان إلى جهنم، حيث إنها لكثرتها كأنها تحيط بالإنسان كما يحيط الجيش الغازي بعدوه من جميع الجهات، فلا يترك له منفذاً ليهرب أو ينجو منه.

ومجيء الآية بعد ذكر العقائد الخاطئة والأعمال السيئة التي انغمس فيها اليهود، تحمل إليهم تحذيراً بأنهم بسبب تاريخهم الأسود في ارتكاب المعاصي، عليهم أن يشعروا بالخجل من الادّعاء الكاذب بأن العذاب لن يمسه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

خَالِدُونَ: تعني البقاء لمدة طويلة، ولكن لا تعني بالضرورة البقاء لزمن لا نهاية له. انظر «شرح الكلمات» في الآية ٢٦ من نفس السورة.

التفسير:

هذه الآية جامعة مانعة، وتقدّم المختصر المفيد فيما يتعلق بالقانون الإلهي الذي وضعه الله تبارك وتعالى للنجاة ودخول الجنة.

إن جميع الأديان تقريباً تعتبر النجاة حكراً على أتباعها بينما تُدين أتباع جميع الأديان الأخرى وتعدّهم بالبقاء الدائم في جهنّم. وقد رفع الإسلام صوته عالياً ضدّ هذه الأفكار، معلناً أنها أفكار خاطئة ولا تقوم على أساس. فالإسلام يؤكد على أنه لا يمكن نوال النجاة إلّا إذا اجتمع الإيمان الصحيح مع العمل الصالح. وشرط الإيمان الصحيح بمنزلة تحذير لأولئك الذين يرفضون قبول بعض رسل الله تعالى، ومع ذلك يأملون في الحصول على النجاة لمجرّد أنهم ينتمون إلى جنس معيّن من الناس، أو لأنهم من سلالة بعض الصالحين. وشرط العمل الصالح بمنزلة تحذير لأولئك الذين يهملون القيام بأداء الأعمال الصالحة، ظانّين أن مجرّد الانتماء إلى طائفة المؤمنين هو ما يكفي للحصول على النجاة. إن الإسلام يرفض كلّاً من هذين الصنفين من الناس.

وكلمة ﴿خَالِدُونَ﴾ تعني البقاء لمدة طويلة، طولها غير محدّد، ولكنها لا تعني بالضرورة دوام البقاء بلا نهاية. فكما هو ملاحظ، جاءت هذه الكلمة في الآية ٨٢ و ٨٣ فيما يتعلق بكل من الجنة والنار. ولكن يجب ألا يُفهم من هذا أن كلّاً من سوء العقاب في جهنّم أو حسن الجزاء في الجنة سوف يدوم بلا نهاية بناء على استخدام هذه الكلمة، أو أنها تعني أن كلاهما سوف يستمر لمدة طويلة بغير انقطاع، فقد أوضح القرآن المجيد في آيات أخرى، أنه رغم أن كلّاً من العقاب في جهنّم والثواب في الجنة يوصفان بأنهما خالدان، فإن ثواب الجنة فقط هو الذي يدوم بلا نهاية (راجع الآيات ١٠٧ إلى ١٠٩ من سورة هود).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا
 اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ
 وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٤﴾

شرح الكلمات:

ميثاق: أي عهد. انظر شرح كلمات الآية ٦٤ من نفس السورة.

التفسير:

بعد تبيان مسلك اليهود في زمن الرسول ﷺ تجاه الأنبياء والصحف المقدسة الخاصة بهم، يلفت القرآن المجيد أنظارهم إلى التعاليم التي كان عليهم أن يتبعوها ولكنهم تجاهلوا.

والآية لا تشير إلى ميثاق بعينه، وإنما تبرز السيئات التي كانت منتشرة بين اليهود في ذلك الزمن، رغم أن كتابهم المقدس كان يحرم عليهم ارتكابها. لقد تكرر في الكتاب المقدس تحريم عبادة أي شيء من دون الله تعالى (انظر سفر الخروج ٢٠: ٣-٦)، وأيضاً كان احترام وتكريم الآباء ضمن تعاليم الكتاب المقدس (انظر سفر الخروج ٢٠: ١٢). وبالمثل هناك الكثير من التعاليم الواضحة التي تختص بحسن معاملة ذوي القربى (سفر اللاويين ١٩: ١٧، ١٨؛ وسفر الخروج ٢١: ٩؛ وسفر أمثال ٣: ٢٧، ٢٨). ونجد الأمر بحسن معاملة اليتامى في سفر التثنية ١٥: ١١. والأمر بالتلطف في معاملة الناس عموماً في سفر أمثال ٣: ٣٠. وجاء الأمر بإقامة الصلاة في سفر التثنية ٦: ١٣. أما الأمر بإعطاء الصدقات فجاء في سفر الخروج ٢٣: ١٠، ١١.

لقد تجاهل اليهود بشكل واضح هذه الأوامر والتعاليم. فاتخذوا لله أنداداً، حتى إن البعض منهم اعتبر أن عزرا (العزير) ابن الله تعالى، والبعض اتبع كلام رجال الدين واعتبروه كلام الله، ونحوا جانباً كلام الله تعالى. لقد كان تعاملهم مع بعضهم سيئاً للغاية، وكذلك لم تكن معاملتهم لليتامى والمساكين تتسم بالرحمة. كانوا يفتقدون شعور الألفة فيما بينهم، ولم يكونوا حريصين على أداء الصلاة أو إيتاء الزكاة. غير أنه من الجدير بالملاحظة أن الله تبارك وتعالى لم يُدن الأمة اليهودية بأسرها، وإنما استثنى من بينهم القليل الصالح.

وفي هذه الآية الكريمة، كما هو في كل مكان من القرآن المجيد، يأتي سياق الكلمات حسب ترتيب الأهمية. لذلك جاء ذكر عبادة الله الواحد في أول الأمر، ثم جاء بعد ذلك ذكر الناس بعد تقسيمهم إلى قسمين: القسم الأول هم أولئك الذين يستحقون المعاملة بالحسنى كحق لهم، والقسم الثاني هم أولئك الذين يستحقون المعاملة بالحسنى باعتبارها عملاً كريماً. وقد جاء ذكر القسم الأول أولاً لأن معاملة أولئك بالحسنى يُعتبر فرضاً، بل يُعتبر ديناً ينبغي أن يُدفع لأصحاب الحق، وهم الوالدان وذوو القربى. ثم يأتي بعد ذلك ذكر أولئك الذين تُعتبر معاملتهم بالحسنى عملاً كريماً، مع ذكر كل طائفة منهم حسب استحقاقها أيضاً، فيأتي ذكر اليتامى ثم المساكين ثم الناس عامة. وأخيراً يأتي ذكر أعمال الطاعة لله تعالى، ومن بينها يأتي ذكر أكثرها أهمية التي تتعلق بتزكية النفس من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهذه تأتي بعد معاملة الناس بالحسنى. إن معاملة الناس بالحسنى هي الخطوة الأولى نحو الرقي الأخلاقي للإنسان، الذي غالباً ما يشعر بدافع طبيعي من داخله إلى ذلك، دون الرجوع إلى شريعة أو قانون.

والجدير بالذكر أن التعاليم الموجودة متفرقة في الكتاب المقدس، قد ذكرت مجتمعة في آية واحدة، وبترتيب رائع في القرآن المجيد.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ
وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ
وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٥﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية رقم ٨٧ من نفس السورة.

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ
فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى
تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ
بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا
جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ
الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٦﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية رقم ٨٧ من نفس السورة (الآية التالية).

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٧﴾

التفسير:

بعد المعالجة العامة لسيئات اليهود في الآية السابقة، يخاطب القرآن المجيد يهود المدينة بالذات في الآيتين السابقتين ٨٥، ٨٦. فتذكر الآية الكريمة أن اليهود كانوا يتقاتلون معاً، ويخرجون بعضهم بعضاً من ديارهم رغم أن ذلك كان محرماً عليهم. وكما سبق ذكره في تفسير الآية ١٨ من سورة البقرة، كان يسكن المدينة في زمن الرسول ﷺ ثلاث قبائل من اليهود، هم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، كما كان يقطنها أيضاً قبيلتان وثنيتان هم الأوس والخزرج. وقد انضمت قبيلتان من اليهود إلى جانب الأوس، هما بنو قينقاع وبنو قريظة، بينما أخذت قبيلة بنو النضير جانب الخزرج. ولما كانت هذه القبائل الوثنية تتقاتل بعضها مع بعض، كانت قبائل اليهود تشترك في القتال تلقائياً. وعندما يقع أحد اليهود في الأسر لدى الوثنيين، كان اليهود يجمعون الأموال لدفع فديته وإطلاق سراحه، إذ كان اليهود يعتقدون أنه لا يصح أن يظل يهودي في أسر أحد من الأمم الأخرى. والقرآن المجيد يستنكر هذا المسلك بتبيان أن دينهم لا يمنع فقط أسر أحد من اليهود، بل يحرم أيضاً التقاتل فيما بينهم، الأمر الذي كانوا يمارسونه بشكل واضح. وقد بين لهم القرآن المجيد أنه ليس أسوأ من الإيمان ببعض الكتاب المقدس وترك البعض الآخر، وذلك لأن الإيمان ببعض الكتاب يدل على أنهم مقتنعون بصحة ذلك الكتاب. وعلى هذا، فإن ترك البعض من الكتاب يُعتبر دليلاً على فساد نفوسهم. أما عن تحريم أسر اليهود فيمكن للقارئ أن يجد ذلك في سفر اللاويين ٢٥: ٣٩-٤٣، ٤٧-٤٩، ٥٤-٥٥؛ وسفر نحemia ٨: ٥؛ ودائرة معارف الكتاب المقدس الجزء الخامس ص ٤٦٥٧. وحسب تلك التعاليم، كان يهود المدينة يعملون على فك أسرى اليهود بدفع الفدية المطلوبة لهم، ولكن هذا

العمل كان عملاً مشيناً منافياً للعقل، لأنهم هم الذين خلقوا بأنفسهم الظروف التي أدت إلى وقوع أولئك اليهود في الأسر.

وتبين الآية رقم ٨٧ حقيقة أن اليهود الذين وقفوا ضد النبي ﷺ قد صاروا من أهل الدنيا تماماً، حتى إنهم نسوا كل شيء عن الحياة الآخرة. لذلك فإنهم لا يستحقون أي رحمة، وحيث إنه لا توجد أي ظروف أو دواعٍ لتخفيف العقاب عنهم، فإن العقاب لن يُخفف عنهم.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٨﴾

شرح الكلمات:

قَفَّيْنَا: مشتقة من قفا وهي مؤخرة العنق. قفا أثره: تبعه. ويُقال قَفَّى فلاناً زيداً أو بزيدٍ أي اتَّبَعَهُ إياه وكذلك قَفَّيت على أثره بفلانٍ أي اتَّبَعْتُهُ إياه (أقرب الموارد).

بَيِّنَاتٍ: مشتقة من بَيَّنَّ. يُقال بَيَّنَّ الشيء أي أوضحه وجلَّاه. البَيِّنَات: الآيات والبراهين التي توضح الأمر وتشكل الإثبات على صدق المدعي (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

رُوحُ الْقُدُس: مكونة من كلمتين: «روح» و«الْقُدُس». روح تعني حياة النفس، المَلَك، كلمة الله؛ وكلمة الْقُدُس تعني الْمُطَهَّر أو الْمُبَارَك. لذا فإن «روح الْقُدُس» تعني كلمة

الله المباركة؛ أو الروح أو المَلَك المبارك (أقرب الموارد ومعجم لين). وهي تطلق بصفة عامة على جبريل عليه السلام سيد الملائكة النازلين بكلام الله.

التفسير:

في هذه الآية، يخبر القرآن المجيد اليهود بأنهم عادوا وعارضوا جميع الأنبياء بدءاً من موسى عليه السلام وانتهاء بعيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك لأن تعاليم أولئك الأنبياء كانت تتعارض مع أهوائهم التي كانت تميل إليها نفوسهم.

وبينما تتحدث الآية بوجه عام عن الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام إلا أنها تذكر عيسى ابن مريم عليه السلام بصفة خاصّة. ويكمن سبب هذا في أن اليهود، لسبب أو لآخر، قد آمنوا بجميع هؤلاء الأنبياء الذين جاؤوا قبل عيسى عليه السلام، ولكنهم بعناد غليظ رفضوا أن يؤمنوا به. ولذلك كان من المناسب أن يأتي ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام بالذات وأن يُذكر أيضاً أنه كان نبياً صالحاً تقيّاً مثل بقية الأنبياء الذين سبقوه، الذين يؤمن بهم اليهود. فقد أنعم الله تعالى عليه مثلما أنعم عليهم بأنزول روح القدس التي تنزل على الأنبياء، مما يبيّن أن هناك فرقاً بينهم وبين بقية الناس من أهل الدنيا. وإن من أكثر الدلائل على صدق دعوى المسيح ابن مريم عليه السلام على أنه نبي مرسل من لدن الله تعالى، أنه سبحانه قد أنعم عليه بالآيات وتنزل روح القدس، وهذه الأمور هي نفسها التي على أساسها آمن اليهود بالأنبياء السابقين. وقد ذكرت هنا لفظة «البيّنات» ولفظة «روح القدس» ليس على وجه التخصيص للمسيح ابن مريم عليه السلام، ولكن لأن «البيّنات» و«روح القدس» التي لا بد أن يؤتاها كل نبي، قد جحدها وأنكرها اليهود بالنسبة لعيسى بن مريم عليه السلام. وفي إنجيل متى ١٢: ٣٨-٤٠ يتضح أن اليهود أنكروا أن المسيح بن مريم عليه السلام قد جاء بأي آية، بينما في إنجيل لوقا ١١: ١٥ وإنجيل متى ١٠: ٢٥ نجد أنه حسب ما قاله اليهود، فإن المسيح عليه السلام لم يكن محروماً من الروح القدس فحسب، وإنما كان تحت تأثير الروح الشريرة، أي الروح الشيطانية والعياذ بالله، فكان هو نفسه الشيطان.

ويتضح من القرآن المجيد أن نوال «البيّنات» ونزول «روح القدس» أمر مشترك بين جميع الأنبياء وليس أمراً اختص به المسيح ابن مريم عليه السلام وحده، إذ يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (غافر: ٢٣)، وانظر أيضاً الآية ١٠٠ من سورة البقرة. وفي مكان آخر يذكر سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٣)، بل إن القرآن المجيد يذكر أن نزول روح القدس ليس وقفاً على الأنبياء وحدهم بل يشترك فيه أيضاً المؤمنون المخلصون، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (المجادلة: ٢٣). ولدينا أيضاً، فيما يتعلق بهذا الموضوع، شهادة رسول الله ﷺ الذي روي عنه أنه قال لشاعره حسان بن ثابت: "أجبههم يا حسان (يقصد المشركين) عن رسول الله، اللهم أيد حسان بروح القدس" (البخاري ومسلم). وعن سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ عُمَرَ مَرَّ بِحَسَّانَ وَهُوَ يُنْشِدُ الشَّعْرَ فِي الْمَسْجِدِ فَلَحَظَ إِلَيْهِ فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَتَشَدُّ وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ثُمَّ اتَّفَقَتْ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ أَنْشُدْكَ اللَّهَ أَسَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ أَحِبَّ عَنِّي اللَّهُمَّ آيِدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ قَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ" (صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة).

ويعلن حسان رضي الله عنه في بيت من شعره عن أن روح القدس كان دائماً مع المسلمين، إذ يقول كما جاء في صحيح مسلم:

وَجَبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِيْنَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ

يتضح مما سبق أن «البيّنات» و«روح القدس» لم يكونا نعمة خاصة للمسيح ابن مريم عليه السلام، وإنما نعمة نالها جميع الأنبياء، بل إن الصالحين من غير الأنبياء قد تنزل عليهم روح القدس. أما ذكر «البيّنات» و«روح القدس» بالذات في هذه الآية، فكان المقصود به هولفت أنظار اليهود إلى أن إنكارهم نبوة المسيح ابن مريم عليه السلام لا يقوم على أساس بتاتاً.

ومن المعروف أن لفظ «روح القدس» هو اسم من أسماء «جبريل عليه السلام» (جرير وابن كثير). وكما سبق شرحه عند تفسير الآية ٣١ من سورة البقرة، فإن الله تعالى بحكمته العليا قد خصّص مختلف الملائكة لتنفيذ إرادته وإظهار صفاته في الكون؛ والملاك الذي عُهدت إليه أعمال التطهير والتزكية وإظهار صفة الله القدّوس، يسمى «روح القدس». ويوجد أيضاً نفس هذا الاسم في الكتاب المقدس (المزامير ٥١: ١١). ويقول بعض المفسرين إن «روح القدس» هو أيضاً اسم الله الأعظم (ابن كثير).

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ
فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

غُلْفٌ: جمع أغلف أي جعل الشيء في غلاف أو محاط بأغطية. وأغلف تعني أيضاً الشخص الذي لم يُحتسَ بعد. يُقال قلب أغلف أي لا يعي شيئاً كأنه حُجِبَ عن الفهم بالغلاف (أقرب الموارد). وكلمة قلوبنا غُلْفٌ هنا تعني أيضاً أن قلوبهم أوعية للعلم ومخزن للمعرفة فلا يحتاجون لعلم آخر من أحد (مفردات الراغب).

لَعَنَهُمُ: لعنه يعني: (١) أبغده من الخير؛ (٢) أخزاه وسبّه؛ (٣) طرده (أقرب الموارد). اللَّعْنُ - المصدر للفعل لعن - يعني: الطرد والإبعاد على سبيل الغضب والسخط. وعندما يكون من الله على أحد فهو يعني: (١) في الدنيا: انقطاعاً من قبول رحمته وتوفيقه؛ (٢) وفي الآخرة: توقيع العقوبة والعذاب (مفردات الراغب). والكلمة لم تستعمل هنا على سبيل الذم، ولكن على سبيل تبيان الحالة التي عليها الشخص.

التفسير:

يمكن تفسير آية ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بجميع المعاني المذكورة عالية. فكلما وجد اليهود أنفسهم عاجزين عن تفنيد الدلائل القرآنية، فإنهم يقولون بتهكّم إنهم قوم قليلو

الذكاء ولا يستطيعون فهم العقائد الإسلامية، فينبغي على المسلمين أن يخاطبوا علماءهم، وأن يشرحوا لهم تلك العقائد. وعندما نأخذ كلمة ﴿غُلْفٌ﴾ بمعنى «مغلّفة في أغطية»، فإن جواب اليهود وقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ يعني أن قلوبهم تتمتع بحماية خاصة من الله، ولذلك لا يمكنهم أن يتأثروا بدعوة المسلمين. وأيضاً عندما نأخذ الكلمة على أنها تعني «مخزن للمعرفة»، فإن جواب اليهود يعني أن لديهم جميع المعارف الروحية الضرورية المطلوبة، فليسوا في حاجة إلى أي معارف أخرى.

وأياً كان الدافع لدى اليهود لهذا القول فإن القرآن المجيد يؤكد على أن المعارف الإسلامية لا تتفق فقط مع العقل ويمكن فهمهما بسهولة ويسر، وإنما هي أسمى من جميع التعاليم الأخرى. ولذلك فإن جواب اليهود يدل على أنهم قد فقدوا كل علاقة بالله تعالى، وأن إيمانهم قد صار باطلاً يشوبه الفساد.

والغرض من قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ بيان أن لعنة الله تعالى لا تحل بأحد إلا بعد أن يرتكب عملاً شنيعاً يستحق عليه اللعنة. فالله ﷻ الرحمن الرحيم لا يحرم أحداً من رحمته إلا إذا أغلق الإنسان بنفسه على نفسه أبواب الرحمة.

ويشير قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى مبدأ عظيم آخر. فرغم أن الله تعالى قد لعن اليهود ووصفهم بالكفر، إلا أنه سبحانه لا يقول إنهم فقدوا إيمانهم تماماً. نعم إن إيمانهم ليس كاملاً، لا بل إنه حقاً قد فسد لاحتوائه من الباطل أكثر مما يحتوي من الحق، ومع ذلك فإن الله تعالى يعلم ذلك القليل الذي لديهم. ولنقارن هذا مع دعوى اليهود أنفسهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ (البقرة: ١١٤)، أما إله الإسلام فإنه لا يقول ذلك عن أي من اليهود أو النصارى.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَىٰ

الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾

شرح الكلمات:

يَسْتَفْتِحُونَ: مشتقة من الفعل فتح ويعني: (١) فتح الباب خلاف أغلقه وفتح الشيء أي فرجه؛ (٢) حقق النصر على غيره. وعليه فكلمة يستفتحون لها معنيان: (١) يتدرون أو يبدؤون؛ (٢) يطلبون النصر (أقرب الموارد).

التفسير:

حسب المعنى الأول لكلمة ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ تعني الآية أن اليهود كانوا يخبرون الوثنيين العرب أن صحفهم المقدسة ذكرت نبوءات عن ظهور نبي سوف يقوم بنشر الحق في الأرض. ولكن حينما ظهر ذلك النبي فعلاً، فحتى أولئك الذين شاهدوا آيات الله تتحقق فيه، رفضوا أن يؤمنوا به.

وإذا أخذنا المعنى الثاني للكلمة، فتعني الآية أنه قبل ظهور النبي ﷺ كان اليهود يدعون الله تعالى بتوسّل وتذلّل لكي يرسل رسولاً حتى يُظهر دين الحق على جميع الأديان الباطلة (ابن هشام ج ١ ص ١٥٠). ولكن لما ظهر بالفعل ذلك النبي الذي كانوا يدعون الله لظهوره، وأصبح ظهور الحق على الباطل أمراً واضحاً، رفضوا أن يؤمنوا به. وكان من الطبيعي أن يستنزل ذلك لعنة الله على رؤوسهم.

ويمكن تكرار القول هنا إن كلمة «لعنة الله» لم تستعمل في القرآن المجيد على سبيل الشتم، ولكن على سبيل تبيان الحالة التي عليها الشخص، أو منزلة قوم من الأقوام. وكما سبق شرحه في الآية السابقة، إن المعنى الحرفي لكلمة «لعنة» هو «البعد عن جانب الله»، وعلى ذلك، فإن كل من يقف معارضاً الله تعالى وأنبياءه فإنه يجلب على نفسه لعنة الله، أي أنه أبعد نفسه عن جانب الله ﷻ، وحرّم نفسه من رحمته.

بِسْمَا أَسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩١﴾

شرح الكلمات:

بَغْيًا: مشتقة من بغى. يُقال بغى الشيء أي تمنّاه أو طلبه أو نظر إليه. بغى الرجل أي عدل عن الحق، أو عصى أو تمردّ على السلطة الشرعية. بغى عليه: استطال عليه وظلمه (أقرب الموارد). بغى على أخيه أي حسده؛ تمنى أن تزول النعمة من أخيه وتنتقل إليه (معجم لين).

بَاءُوا: مشتقة من باء وتعني رجع. باء به أي رجع به. باء بغضب من الله: رجع بغضب الله عليه أي حلّ عليه غضب الله؛ استحق غضب الله عليه (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تخبرنا الآية أن اليهود رفضوا أن يؤمنوا برسول الله ﷺ لا لسبب إلا لأنه كان ينتمي إلى قوم يختلف عنهم. وتعني الآية أن اليهود الذين تكشّف الحق لهم، وأدركوا أن القرآن المجيد هو نفس الكتاب الذي ذكرته صحفهم المقدّسة، فإنهم مع ذلك رفضوا الحق بسبب استكبارهم وعنادهم، وقليلًا ما كانوا يعلمون أنهم بعملهم هذا كانوا يسرعون بإهلاك أنفسهم. والحقيقة أنهم لم يحتملوا رؤية نبي يُبعث من بين قوم آخر غير قومهم، ولم يدركوا أن الجميع هم خلق الله، وليس ثمة سبب مادّي يقتضي أن يكون ظهور الأنبياء حكرًا على بني إسرائيل.

ويعني قوله تعالى: ﴿بَاؤُوا بِغَضَبِ﴾ أنهم رجعوا بغضب الله تعالى، مما يعني أن الله ﷻ قد دعاهم إليه كي يُنعم عليهم بأفضاله، ولكنهم بدلاً من أن يستجيبوا له لينالوا الفضل منه، فإنهم رجعوا من حضرته وهم يحملون استياء الله وغضبه. وجاءت جملة ﴿بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ لتبين أن اليهود قد استنزّلوا على أنفسهم غضب الله تعالى قبل أن يأتيهم رسول الله ﷺ، لأنهم رفضوا أن يؤمنوا بالمسيح ابن مريم عليها السلام، بالإضافة إلى فعلهم السيئات. ولما رفضوا أن يؤمنوا برسول الله ﷺ فإنهم بذلك استجلبوا على أنفسهم غضباً على غضب.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ
بِمَا أُنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ
مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾

التفسير:

تبين الآية أنه كلما دُعي اليهود لقبول الإسلام فإنهم بدلاً من التفكر في حقائقه ومبادئه، كانوا يكتفون بقول إنهم يؤمنون بما أنزل على أنبياء بني إسرائيل فقط، ولا يؤمنون بأي وحي منزل على من هو ليس منهم، حتى ولو كان ذلك الوحي الذي ينكرونه ويرفضون الإيمان به للسبب الهزيل الذي يتحججون به هو الحق الذي جاء تصديقاً وتحققاً للنبوءات التي تحتويها صحفهم المقدسة عن نزول كتاب جديد. وتضيف الآية أن ادعاءهم بالإيمان بما أنزل الله على أنبياء بني إسرائيل فقط هي دعوى زائفة، لأنهم كانوا يعارضون أنبياءهم دائماً في زمنهم.

وتبين هذه الآية بوضوح ماذا تعني كلمة ﴿مُصَدِّقًا﴾ حين تكون متبوعة بحرف الجر «لام». فإن التعبير ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا﴾ برهان على صدق القرآن المجيد، فمن الواضح

أن هذا التعبير يعطي معنى تحقيق نبوءات الكتاب المقدس عن صدق القرآن المجيد. انظر أيضاً الآية ٤٢ من سورة البقرة.

ويمكن للقارئ أن يرجع إلى النبوءات المشار إليها في هذه الآية، والتي جاء ذكرها في الكتاب المقدس عن القرآن المجيد وعن رسول الله ﷺ، وهي في سفر التثنية ١٨: ١٥-١٩؛ أعمال الرسل ٣: ١٩-٢٤؛ التثنية ٣٣: ٢؛ إنجيل متى ٢١: ٤٢-٤٤؛ أشعيا ٢١: ١٣-١٧ والإصحاح ٩-١٣؛ والإصحاح ٤٢ والإصحاح ٦٢: ٢-٤؛ دانيال ٧؛ وغيرها.

ولشرح معنى الكلمات ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ انظر تفسير الآية ٦٢ من سورة البقرة.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ
الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٣﴾

التفسير:

انظر شرح الآية ٥٥ من نفس السورة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ
قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٤﴾

شرح الكلمات:

أُشْرِبُوا: مشتقة من شَرِبَ. أَشْرَبَ: جعله يشرب. والتعبير «أُشْرِبَ في قلبه حب فلان» أي خالط حُبُّه قلبه (أقرب الموارد). وقول الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي أشربوا في قلوبهم حب العجل.

التفسير:

لشرح آية ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ انظر الآية ٦٤ من نفس السورة.

أما قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ فيعني أنهم رفضوا أن يطيعوا الله تبارك وتعالى، ولا يعني هذا أنهم قالوا بالفعل هذه الكلمات بنصّها، فإن كلمة «قال» كما سبق ذكره عند شرح الآية ٣١ من نفس السورة لا تعني أحياناً الحديث الفعلي، وإنما تعني السلوك العملي.

والإشارة إلى عبادة العجل في الآية ٩٣ ليس مجرد تكرار لما سبق ذكره في الآية ٥٥، فقد جاء ذكر ذلك الحدث هنا توضيحاً لما قيل عن اليهود في الآية السابقة. فالآية تلفت أنظارهم إلى مسلكهم في زمن موسى ﷺ. إذ لما غاب عنهم موسى لفترة قصيرة فقط اتخذوا العجل إلهاً لهم، رغم أنهم رأوا كيف أعان الله تعالى موسى ﷺ وأظهر على يديه آيات عظيمة؛ وذلك رغم أنهم تعهّدوا بالألّا يشركوا بعبادة الله أحداً. ورغم ذلك العهد، فقد أظهروا بأعمالهم عصيانهم لله تعالى.

وفي الجزء الأخير من الآية الكريمة تأتي الإشارة إلى أن اليهود يعترفون بما أنزل إليهم من الله تعالى، ولكن اعترافهم هذا كان غريباً؛ إذ رغمًا عن ذلك ظلّوا على معارضتهم وكفرهم بالأنبياء، فإن كان هذا هو الإيمان، فإن إيمانهم هذا يقودهم إلى الضلال.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ
خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٥﴾

التفسير:

انظر شرح الآية التالية رقم ٩٦.

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٦﴾

التفسير:

تدعو الآيتان ٩٥ و٩٦ اليهود أن يشتركوا مع المسلمين في مباهلة، أي أن يشترك الطرفان في الدعاء إلى الله تعالى أن يصب الموت والخراب على الفريق الذي استحق غضب الله تعالى لأنه على ضلال. فإذا كان اليهود بالفعل هم أبناء الله وأحبّاءه، والمسلمون هم الذين عليهم غضب الله تعالى ومقتته، فلا بد أن يصيب المسلمين الموت والدمار، وبذلك يتبيّن بجلاء ووضوح أي الفريقين على جانب الحق. إن الدليل الوحيد الذي يمكن أن يبيّن الحقيقة بين الدعاوى المتعارضة للأديان فيما يختص بالنجاة في الحياة الآخرة، هو أن يبدأ في هذه الحياة الدنيا بتحقيق بعض الوعود عن نوال رضا الله تعالى. فإذا حدث نتيجة دعاء الله تعالى في هذه المباهلة أن أظهر الله تعالى رضاه عن اليهود، فسوف يكون هذا دليلاً أكيداً على أن رضاه سيكون في جانبهم أيضاً في الآخرة.

ويضيف القرآن المجيد أن اليهود لن يقبلوا أيضاً هذا التحدي؛ فهم يعلمون تماماً حقيقة أعمالهم ونواياهم.

ولشرح موضوع المباهلة شرحاً مفصلاً انظر تفسير الآية ٦٢ من سورة آل عمران.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ
وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

التفسير:

إن السبب في أن اليهود كانوا أكثر تعلقاً بالدنيا من الوثنيين العرب هو أن الوثنيين لم يكونوا يؤمنون بأي عقاب بعد الموت. ولذلك، رغم أنهم كانوا يحبّون الدنيا، باعتبارها مكاناً يجدون فيه السعادة وينالون فيه الشرف، إلا أنهم لم يكونوا يأملون في حياة أخرى، وبالتالي لم يكن لديهم خوف من العقاب بعد الموت، ولذلك كانوا أقل تمسكاً بالحياة من اليهود الذين كانوا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وكانوا يخشون في أعماق وجدانهم من أنهم سوف ينالون عقاباً شديداً من الله تعالى على سوء فعالهم وفساد أعمالهم.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى
قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى
وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٨﴾

شرح الكلمات:

جَبْرِيل: اسم مركب من «جبر» و«إيل». و«جبر» في العبرية تعني: الرجل أو البطل أو الرجل العظيم. و«إيل» تعني: الإله. (القاموس العبري-الإنجليزي لـ«ويليام جيسينيوس»، بوسطن، ١٨٣٦. وراجع أيضاً البخاري، باب التفسير).

وتوجد كلمة «إيل» في عدة كلمات مركبة (فمثلاً، كلمة «إسماعيل» الواردة في سفر التكوين ١٦: ١١، تعني «الله يسمع»).

أمّا في اللغة العربية، التي هي أم اللغات جميعاً بما فيها العبرية، فكلمة «جبر» تعني إصلاح الشيء من كسر؛ إعطاء الفقير بسخاء حتى يتحسن حاله؛ الرجل الشجاع. وكلمة «إيل» إمّا أن تكون مشتقة من الكلمة العربية «الله» أو من المصدر «آل»، و«آل» اسم الفاعل من «آل» يُقال «آل الملك رعيته»: ساسهم ودبر أمورهم، و«آل على القوم»: ولي عليهم. فالآئل: المدبر؛ الحاكم؛ الملك. (الأقرب) وكل هذه المعاني تناسب الله تعالى.

لقد ذكر ابن عباس رضي الله عنه أن الاسم الآخر لجبريل هو «عبد الله» أي خادم الله (جبريل)، وهذا ببساطة معنى آخر من معاني كلمة جبريل.

لذا فالمَلِك «جبريل» سُمّي بهذا الاسم لأنه: خادم الله؛ الخادم الشجاع والقوي لله؛ يعتني بصلاح العالم؛ يتنزل بهبات الله على البشر بسخاء.

أمّا بالنسبة للإسلام، فـ«جبريل» هو سيد الملائكة (الدر المنثور) ولهذا اختاره الله تعالى لينزل من السماء بالقرآن الكريم، أكمل وآخر الشرائع. يعتبر الكثير من الكتاب أن «جبريل» هو مرادف لـ«الروح القدس» التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. كذلك قد جاءت تسمية «جبريل» بـ«الروح الأمين» في القرآن الكريم (سورة الشعراء الآية ١٩٤).

التفسير:

لقد سبق ذكر دعوة اليهود للإيمان بالقرآن المجيد، ولكنهم رفضوا هذه الدعوة (انظر عاليه الآية ٩٢)، وذلك بسبب أن جبريل عليه السلام هو الذي أتى بها من عند الله تعالى، بينما حسب رأيهم كان من المفروض أن يكون حامل الوحي الإلهي هو ميكائيل عليه السلام (مسند). وكما نفهم من الكتاب المقدس، فإن مهمة جبريل عليه السلام هي أن يبلغ رسالة الله تعالى إلى عباده (انظر سفر دانيال ٨: ١٦؛ ٩: ٢١؛ وإنجيل لوقا ١: ١٩، ٢٦. وإنه من الغريب أن يأتي ذكر جبريل للمرة الأولى في العهد القديم في سفر دانيال، وليس قبل ذلك). ويذكر القرآن المجيد في الآية التي نحن بصددتها نفس المهمة لجبريل عليه السلام، ولكن في بعض الكتابات اليهودية المتأخرة جاء وصفه باعتباره «ملاك النار والرعد» (راجع دائرة معارف الكتاب المقدس تحت كلمة «جبريل»). وكانت هذه هي فكرة اليهود في زمن النبي ﷺ، إذ كانوا يعتبرون جبريل عليه السلام الملاك المسؤول عن الموت والكوارث والمصائب (ابن جرير في تفسير الآية ٩٨ من سورة البقرة). ويخبرنا المؤرخون المسلمون أن هذه الفكرة قد استولت على عقول اليهود بشكل كبير لدرجة أنهم عندما سمعوا أن جبريل عليه السلام هو الذي أتى بالوحي القرآني قالوا «جبريل عدونا، ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب». وكان الغرض من قولهم هذا أنهم لن يؤمنوا بوحي جاء به جبريل عليه السلام (مسند). ويبدو أن السبب في عداة اليهود لجبريل عليه السلام أنهم هُزموا في أيام نحس عليهم، ولما كانوا يعتقدون أن جبريل عليه السلام هو ملاك الحرب والمصائب، لذا فقد نسبوا نحسهم إليه. ولا شك أن أحاديث التلمود والتارجون كانت هي أصل ذلك الاعتقاد الذي رسخ وانتشر بين اليهود، وإلا فإن الكتاب المقدس أصلاً يعتبر أن جبريل عليه السلام هو ملاك البشارات والوحي الإلهي. ومن الواضح أنه بمرور الزمن ظهرت الأساطير والخرافة، وتغلبت على الحقيقة التي ضاعت فيما بعد؛ وتمسك اليهود بمعتقداتهم الخاطئة التي وقفت حائلاً دون قبول القرآن المجيد، أو أي وحي يأتي عن طريق جبريل عليه السلام.

وقد أتى القرآن المجيد في الآية التي نحن بصددتها بأربعة أدلة لتفنيد حجة اليهود في رفضهم قبول القرآن المجيد. أولاً: إنه لا يمكن أن يأتي أي ملاك بوحى من الله تعالى إلا بأمر مباشر منه ﷻ. وعلى ذلك فإن الملاك الذي يأتي بالوحي الإلهي، سواء كان جبريل أو ميكائيل أو غيره، ليس سوى وسيلة لنزول الوحي الإلهي؛ وحتى لو كانت الأحاديث اليهودية تربط بين وقوع المصائب وبين أي ملاك، فلا يمكن الشك في مصدر الرسالة التي يحملها ذلك الملاك. ثانياً: إن الوحي الإلهي الذي نزل على رسول الإسلام ﷺ قد جاء ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما جاء قبله من الكتب المقدسة. وقد تحققت فيه كل النبوءات المذكورة في الصحف السابقة عن مجيء النبي صاحب الشريعة، مما يعتبر دليلاً واضحاً على أنه حقاً من عند الله تعالى. ثالثاً: ما دام قد تبين عملياً أن في تعاليم القرآن هدى للناس، يكون قبوله فرضاً على جميع الصالحين من ذوي الفكر السليم. رابعاً: إن القرآن المجيد يحتوي على تعاليم ليست صحيحة فحسب، بل إنها ﴿بُشْرَى﴾ للمؤمنين، لأنها تأتي إليهم بأنعم الله تعالى ورحمته. إن مثل هذا الوحي الإلهي لا يصح أن يُرفض لمجرد أن جبريل عليه السلام هو الذي أتى به.

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾

شرح الكلمات:

مِيكَال: اسم لملاك آخر، وهو مثل «جبريل»، من رؤساء الملائكة. و«ميكال» اسم مركب من «مي» و«كائيل» أو «من» و«كائيل» ويعني الاسم: مثل الإله أو الذي يشبه الإله (دائرة المعارف اليهودية). وحيث أنه ليس هناك أحد مثل الله، فإن الملك «ميكال» قد حُصَّ بهذا الاسم لأنه قد وُكِّلَ إليه الأعمال التي تُرسَخ وحدانية الله في الكون. لقد كان «ميكال» الملك المفضل عند اليهود (دائرة المعارف اليهودية، وجرير في

تفسير سورة البقرة الآيات ٩٨، ٩٩). كانوا يسمونه الملك المحافظ أو المؤيد (دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة ميكال).

أمّا من وجهة النظر الإسلامية، فإن جبريل أعلى مقامًا من ميكال عليه السلام. لقد وصف جبريل عليه السلام بأنه عبد الله، في حين وصف ميكال عليه السلام بأنه عبيد الله، وكما هو معروف فإن عبيد تصغير لعبد (جرير، الجزء الأول - ٣٢٩).

في زمن الرسول ﷺ، كان اليهود يعتبرون جبريل عليه السلام ملاك الحرب والمشقات والكوارث، في حين كانوا يرون ميكال عليه السلام ملاك السلام والوفرة والمطر والكلأ (جرير وابن كثير).

التفسير:

كما أن إهانة رسول الملك تُعتبر إهانة للملك نفسه، كذلك فإن هؤلاء الذين يصفون أيًا من الملائكة بما لا يليق إنما يخطئون في حق الله ﷻ. ولذلك يعلن القرآن المجيد أن كلام اليهود المذكور في الآية السابقة يتضمّن سوء تقدير لجلال الله تعالى وردًا لإرادته، ولا يفعل ذلك إلّا من كان عدوًّا لله. إن الملائكة هي حلقة هامة في السلسلة الروحانية، ومن يكسر حلقة واحدة من هذه السلسلة أو يبدي سوء القصد ضد أي حلقة من حلقات النظام الروحاني، فإنه في حقيقة الأمر يقطع صلته بالنظام كله. ومثل هذا الإنسان يحرم نفسه من أنعم الله تعالى، ويخسر البركات التي تنزل على عباد الله المخلصين، وبذلك فإنه يكون مستحقًا للعذاب الذي يحيق بالمعتدين.

وفي هذه الآية جاء ذكر جبريل وميكال (أي ميكائيل عليه السلام) على وجه الخصوص، بعد ذكر الله تعالى وملائكته ورسله بوجه عام، والسبب في ذلك ليس بعيداً عن الإدراك. لقد كان اليهود يعتبرون أن جبريل عليه السلام عدوًّا لهم، ولذلك كان من المحتمّ أن يشار خاصة إلى أن العداوة لجبريل عليه السلام تعني العقاب الإلهي. وقد جاء ذكر اسم ميكال عليه السلام أيضًا إلى جانب جبريل عليه السلام وذلك حتى لا يرتكب أي مسلم حماقة الرد على اليهود بأن يطعن في ميكائيل عليه السلام، باعتباره الملاك المفضّل لدى اليهود.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٠﴾

التفسير:

تبين الآية أن رفض اليهود الإيمان بالنبي ﷺ، وكذلك الآخرين الذين يرفضونه أيضاً، أمر لا يقوم على منطق لأن دعواه تقوم على حجج مقنعة وآيات بيّنة. والآية الكريمة تكذب بقوة ووضوح أولئك الذين لديهم من الوقاحة ما يجعلهم يؤكدون على أن الآيات والمعجزات لم تنزل على الرسول ﷺ، فإن أعظم الآيات التي أوتيتها النبي ﷺ هو القرآن المجيد الذي لا نظير له.

وتعني كلمة ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ التي جاءت في نهاية الآية أولئك الذين التزموا باتّباع أوامر الشريعة الإلهية واعترفوا بشرعيّتها ثم تمردوا عليها فيما بعد (معجم لين). وهذه صورة واقعية لليهود الذين رفضوا أن يؤمنوا بالرسول ﷺ رغم أن ظهوره قد سبق وأن جاء ذكره في صحفهم المقدسة.

أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

التفسير:

انظر شرح الآية التالية.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

التفسير:

كما سبق الإشارة إليه في الآية السابقة، لقد تعهد اليهود لأنبيائهم أن يؤمنوا وينصروا ذلك النبي الذي سوف يظهر بين إخوانهم، أي بني إسماعيل، تحقيقاً للنبوءات المذكورة في الكتاب المقدس. ولكن، رغم أن جميع الدلائل والعلامات المذكورة في تلك النبوءات التي تتعلق بذلك النبي الموعود قد تحققت في شخص الرسول الكريم ﷺ فإنهم مع ذلك أصرّوا على إنكارهم لنبوته، ولذلك فقد خانوا وعودهم وكذبوا صحفهم المقدسة.

إن كلمة ﴿مُصَدِّقٌ﴾ يمكن أن تعني: (١) أن القرآن الكريم يعلن أن الكتاب المقدس كان صحيحاً. (٢) أن القرآن الكريم يحقق النبوءات المذكورة في الكتاب المقدس. والمعنى الثاني هو المقصود هنا، لأن الآية تذكر أن فريقاً من اليهود قد نبذوا كتاب الله (أي التوراة) وراء ظهورهم نتيجة لتحقيق نبوءات الكتاب المقدس بنزول القرآن المجيد. أما إذا اعتبرنا المعنى الأول، فلا يمكن أن يكون صحيحاً، لأنه إذا كان القرآن المجيد يعلن أن الكتاب المقدس كان صحيحاً ولم يشبه أي تحريف، فلا يمكن أن يكون هذا هو سبب نبذ اليهود لكتابهم المقدس (أي إلقاءه وراء ظهورهم). فمن الواضح أن المعنى الصحيح هو أنه بالرغم من أن نزول القرآن المجيد يحقق النبوءات التي جاءت عنه في الكتاب المقدس، إلا أن اليهود رفضوه، وبذلك فقد نبذوا كتابهم وألقوا به وراء ظهورهم.

وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ
وَمَا كَفَرَ سَلِيمًا وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ

كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ
عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ
بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ
أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾

شرح الكلمات:

تَتْلُوا: انظر الآية ١١٤ من نفس السورة.

الشَّيَاطِينُ: أي المتمردون. انظر الآية ١٥ من سورة البقرة.

عَلَى: تأتي بمعنى «في» كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾، أي في سفر أو أثناء السفر (أقرب الموارد والمغني). وتستخدم أيضاً بمعنى «ضد» للدلالة على المعادة لشخص أو لشيء ما، كما يقولون: خرج عليه أي صار ضده أو أصبح معادياً له. وفي هذه الحالة يكون معنى قول الله تعالى: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي يُعادون حكومة سليمان أو يتآمرون ضد حكومته.

السِّحْرُ: سَحَرَهُ أي خدعه؛ استماله؛ فتنه؛ سلب لُبَّهُ. سَحَرَ الفضة: طلائها بالذهب لتبدو خداعاً كالذهب. والسِّحْر هو كل ما لطف مأخذه ودق؛ الفساد؛ إخراج الباطل في صورة الحق؛ ما يفعله الإنسان من حيل؛ الخداع؛ التمويه. سحره عن

كذا: صرفه عنه (أقرب الموارد). لذا فكل ما هو كذب أو بهتان أو غش أو حركة خادعة، تهدف إلى إخفاء الحقيقة عن النظر العام، تندرج تحت السحر.

الْمَلَكَيْنِ: مُثْنَى مَلَك. راجع الآية ٣١ من نفس السورة. وقد يُطلق مجازاً على الشخص الصالح، كما ذكر القرآن الكريم عن سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة يوسف - الآية ٣٢).

والآية التي نحن بصدد تفسيرها تتحدث عن ملكين كانا يقومان بتعليم الناس شيئاً ما، ولا يجوز هنا أن تُفهم كلمة «الملكين» بمعناها الحرفي لأن الملائكة لا تعيش وسط الناس وليس لها حرية التعامل المباشر معهم (سورة الإسراء - الآيات ٩٥، ٩٦ وسورة الأنبياء - الآية ٨).

لذا ففي الآية التي نحن بصدد تفسيرها ليس المراد هنا من «الملكين» الملائكة بمعناها الحرفي، وإنما هما رجلان صالحان.

هَارُوتَ وَمَارُوتَ: كلاهما من الأسماء الوصفية، أي التي تصف الشخص المسمى بها بصفة أو بصفات معينة. هاروت: مشتقة من هرت أي مَزَّقَ، يقال هرت الثوب: مزقه (أقرب الموارد). وعليه فهاروت تعني: كثير التمزيق أو المُمَزِّق. أمّا ماروت فهي مشتقة من مرت الشيء أي ملسه. وملس الشيء: انتزعه واستأصله (المنجد). فكأن ماروت هو من يمهّد بكسر شوكة العدو واستئصاله. وعليه فإن «هاروت وماروت» يشيران إلى رجلين صالحين كانت مهمتهما أن يُمَزَّقَا ويحطما قوة وغرور شعب معين.

فِتْنَةً: الفتنة هي اختبار المرء ليتبين خيره من شره (معجم لين). يُقال فتن الصائغ الذهب أي أذابه بالبوتقة وأحرقه بالنار ليبين الجيد من الرديء ويعلم أنه خالص أو مشوب (أقرب الموارد).

التفسير:

لقد حُبكت حول هذه الآية الكريمة الكثير من الأساطير التي لا يؤيدها القرآن الكريم ولا الأحاديث الشريفة، بل وتتعارض معهما. وإنه لمن الخطأ تفسير الآية بناء على تلك الأساطير والخرافات. ولا يحتاج الأمر إلى دليل خارجي لتفسير هذه الآية، وإنما كلماتها وحدها كافية لتشرح نفسها بنفسها. فمن الواضح من الآية نفسها أن اليهود في زمن النبي ﷺ كانوا يتبعون نفس أساليب التآمر التي كانوا يتبعونها في زمن سليمان عليه السلام وفي زمن وجودهم في الأسر في مملكة بابل. وتزيد الآية الأمر وضوحاً فتشير إلى أن أولئك الفاسدين الذين تمردوا على ملك سليمان كانوا هم «الفسدة المتمردون» الذين وصفتهم الآية بلفظ ﴿الشَّيَاطِينِ﴾ الذين اتَّهموا سليمان عليه السلام بالكفر. ويقول الله تعالى إن سليمان عليه السلام لم يكفر، ولكن أولئك الشياطين الفسدة المتمردين هم الذين كفروا. كما تخبرنا الآية أن أولئك الشياطين المتمردين كانوا يُعلمون أولياءهم بعض الآيات التي يفسرونها لتعطي معنى يختلف عن المعنى الحقيقي لتلك الآيات، وذلك لخداع الناس وإخفاء حقيقة أفعالهم وأنشطتهم السرية. وكل هذا يشير إلى تلك المؤامرات السرية التي كان يحكيها أعداء سليمان عليه السلام ضده، والتي كان هدفهم من ورائها تقويض ملكه وتحطيم إمبراطوريته. وتشير الآية الكريمة إلى أنه الآن، في زمن الرسول الكريم ﷺ، عاد أولئك القوم إلى اتباع نفس تلك الأساليب الخسيسة في التآمر، ولكن قصدهم سوف يخيب في النهاية.

وحيث إن الآية تشير إلى بعض الأحداث التاريخية، فإنه من الأفضل الإشارة إلى تلك الأحداث بشيء من التفصيل.

فحينما رأى اليهود أن قوة الإسلام في تنام مستمر، وأن معارضة المشركين العرب لم تستطع أن توقف تقدّمه وانتشاره، أخذوا يحرضون القوى الخارجية ضده. وفي ذلك الوقت كان هناك قوتان عظيمتان تجاوران الجزيرة العربية، إحداها الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، والثانية الإمبراطورية الفارسية. ولما كان اليهود في عدااء مع

الإمبراطورية الرومانية لأنهم كانوا دائماً يلقون الاضطهاد منها، لم يكن أمامهم سوى الإمبراطورية الفارسية التي كانوا يأملون في الحصول على مساعدتها. وعندما كان اليهود يلقون الاضطهاد والمعاناة من الإمبراطورية الرومانية المسيحية، لجأوا إلى رحاب الإمبراطورية الفارسية حيث نعموا هناك بحريتهم الدينية، وانتقل بذلك مركزهم من فلسطين وبيت المقدس إلى بابل (تاريخ الأمم لهتشينسن ص ٥٥٠). وفي القرن السابع الميلادي، أي في حياة الرسول ﷺ، عانى اليهود من الاضطهاد الشديد على أيدي أباطرة الرومان في الإمبراطورية البيزنطية، ويقول مؤلف كتاب تاريخ مؤرّخي العالم ج ٧ ص ١٧٥: «حاول كل من موكاس وهرقل أن يقضي على الديانة اليهودية، وأن يحوها من على وجه الأرض إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولم يدّخر هرقل وسعاً بنفسه في استخدام كل أنواع القسوة لتحقيق هذا الغرض في نطاق مملكته، بل إنه جعل نفي اليهود وطردهم أو تحويلهم قسراً عن دينهم السمة المميزة لتصرفه معهم». لذلك كانت المملكة الوحيدة في زمن الرسول ﷺ التي يمكن أن يلجأ إليها اليهود ويطلبوا معونتها هي المملكة الفارسية، حيث كان زملاؤهم من اليهود يتمتعون فيها بنفوذ كبير، خاصّة في زمن الإمبراطور خسرو الثاني (راجع دائرة المعارف اليهودية ج ٩ ص ٦٤٨).

وعلى هذا، حين رأى اليهود أن مجهوداتهم لوقف تقدم الإسلام قد باءت بالفشل تماماً، راحوا يحرضون البلاط الفارسي ضد الرسول ﷺ، مستخدمين في ذلك العديد من الوسائل؛ وكان من نتيجة ذلك أن أصدر خسرو الثاني أوامره إلى حاكم اليمن أن يرسل «مدّعي النبوة العربي» أسيراً إليه. ولكن حين جاء وفد الحاكم إلى الرسول ﷺ طلب إليهم أن يقابلوه في اليوم التالي، حيث أخبرهم أن الله تعالى قد أوحى إليه بأنه قد تم اغتيال ملكهم. وحينئذ عادوا أدراجهم وبلغوا الحاكم بهذه الواقعة. وحدث أن تلقى الحاكم خطاباً من سيروس بن خسرو الثاني يبلغه فيه بأنه قتل أباه بسبب استبداده وطغيانه، وأن على الحاكم أن يجدد ولاء الطاعة له من جميع الرؤساء

والزعماء في اليمن، وأن الأمر الذي أصدره أبوه بخصوص القبض على ذلك العربي قد أصبح لاغياً (الطبري ج ٣ ص ١٥٧٣-١٥٧٤).

ويقول بعض المؤرخين، ومن بينهم الطبري، أن الرسالة التي أرسلها الرسول ﷺ إلى ملك فارس يدعوه فيها إلى الإسلام كانت هي السبب الذي جعل الملك يصدر أوامره بالقبض عليه، ولكن بعد مراجعة التواريخ التي حدثت فيها هذه الوقائع، يتضح أن هذا المفهوم كان خاطئاً. فكما نقرأ في تاريخ الزرقاني (ج ٢ ص ٢١١-٢١٢)، تم إرسال الرسالة المذكورة من المدينة في غرة المحرم من العام السابع للهجرة، وهذا التاريخ يوافق يوم ١٢ أبريل (نيسان) عام ٦٢٨ بعد الميلاد (معجم لين تحت كلمة «هجرة»). بينما تم اغتيال خسرو الثاني الذي أصدر أوامره بالقبض على الرسول ﷺ في ٢٩ من فبراير (شباط) من نفس العام ٦٢٨ (راجع مؤرخين تاريخ العالم ج ٨ ص ٩٥). وعلى هذا يتبين أن وجهة النظر القائلة بأن رسالة النبي ﷺ هي التي كانت السبب في أن يصدر خسرو الثاني أوامره بالقبض على رسول الله ﷺ ليست صحيحة، وبالتالي فإن السبب الوحيد الذي دفع خسرو لإصدار ذلك الأمر هو أن أذنيه كانتا قد امتلأتا بالسم الذي كانت تصبه فيهما الشكاوى والتقارير التي كان يتلقاها، وهي حقيقة اعترف بها السير وليم موير في كتابه (حياة محمد ص ٣٧٠). إن تلك الجهود الشيطانية التي بذلها اليهود هي التي يشير إليها القرآن المجيد في الآية التي نحن بصدددها.

وتشير الآية الكريمة كذلك إلى غباء اليهود لظنهم أنه من الممكن لهم أن يحققوا نجاحاً في مخططاتهم ومؤامراتهم بهذه الطريقة. والآية تلفت أنظارهم إلى حقيقة أنهم مسؤولون مرتين عن حادثتين سبق لهم أن تأمروا فيهما. وكانت حادثة التآمر الأولى ضد سليمان عليه السلام، حين تمرد البعض منهم عليه، وراحوا يدبرون المؤامرات ويرسمون الخطط ويشيعون الضغائن ضده حتى إنهم اتهموه بالكفر؛ بينما كان الكافرون الحقيقيون هم أولئك الذين انقلبوا عليه وأشاعوا عنه التهم الباطلة، وأقاموا الجمعيات السرية التي كانت تستخدم بعض العلامات والرموز السرية. وقد جنى

اليهود أنفسهم حصاد الشوك الذي زرعه بأيديهم: فقد اضمحلت قوتهم نتيجة لتلك المؤامرات، وفي النهاية ضاعت منهم كل قوّة إلى أن تم طردهم من الأرض المقدّسة وسبّوهم إلى أرض بابل. إن هذه الجمعيات السرية اليهودية، والمؤامرات التي ارتكبتها، والعلامات والرموز السرية التي استخدمتها، والتي تشير إليها الآية الكريمة، تجد تعزيزاً لما جاء ذكره في الكتاب المقدس نفسه (سفر الملوك الأول، الإصحاح ١١: ١-٦)، حيث نقرأ أن تهمة عبادة الأصنام قد ألصقت بسليمان عليه السلام. وقد جاء ذكر ما فعله أعداؤه في سفر أخبار الملوك الأول، الإصحاح ١١: ١٤، ٢٣، ٢٦؛ وجاء ذكر المؤامرات السرية في سفر أخبار الأيام الثاني الإصحاح ١٠: ٢-٤ حيث يتبين أن اليهود أرسلوا إلى «يربعام» وهو أحد الأعداء الألداء لسليمان عليه السلام بُعيد وفاته مباشرة، وحاولوا أن يرغموا ابن سليمان على الرضوخ لمطالبهم مستخدمين بعض المزاعم الباطلة ضد أبيه، وذلك قبل جلوس الابن على عرش أبيه. وقد جاء ذكر العلامات والرموز السرية في سفر الملوك الأول الإصحاح ١١: ٢٩-٣٢ حيث رُمز لعشر قبائل من بني إسرائيل بعشر قطع من ثوب، وقيل ليربعام إن هذه القبائل العشر ستكون في جانبه ضد سليمان عليه السلام؛ وهذا هو ما حدث تماماً، إذ إن هذه القبائل العشر جعلت يربعام ملكاً عليها (أخبار الملوك الأول ١٢: ٢٠). ومرة أخرى نجد تأكيداً لما ذكره القرآن المجيد عن خيانة وتمرد أعداء سليمان عليه السلام عليه في سفر أخبار الأيام الثاني ١١: ١٥، حيث يتبين أن أعداء الذين اتهموه بالكفر قد سقطوا هم أنفسهم في هوّة عبادة الأصنام حين استتبّ لهم الأمر.

وبالإضافة إلى شهادة الكتاب المقدّس، هناك أيضاً دليل آخري ثبت وجود تنظيم سري في زمن سليمان عليه السلام كان يعمل ضده. فهناك رواية قديمة كانت تنتشر بين الماسونيين الأحرار في العصور الوسطى، تشير إلى أن سليمان عليه السلام كان يشعر بالغيرة من الذكاء الفائق الذي كان يتمتع به «حيرام» المهندس الرئيس الذي بنى المعبد في أورشليم، وقد قيل إنه حاول أن يقتل ذلك البناء (أي الماسوني) العظيم بلقائه في إناء يحتوي على نحاس مصهور، ولكن تم إنقاذه بواسطة روح قابيل الذي كان

أحد أجداده، والذي تنبأ أنه في النهاية سوف يتم لهم الانتصار على أعدائهم. وقد نفّذ سليمان عليه السلام، كما تعزو إليه تلك الرواية، حكم الإعدام في ذلك المهندس البتاء. ويقال إنه قد رسم بعض العلامات السرية التي كانت نوعاً من الرموز السرية التي لم يعرف كنهها أحد سواه هو وأصحابه (راجع كتاب الجمعيات السرية في العالم الجزء الثاني ص ١-٨. وحيث إن أصل هذا الكتاب لم يعد من الممكن الحصول عليه يمكن الرجوع إلى ترجمة له باللغة الأردنية). ثم نعلم أيضاً من هذا الكتاب أنه قبل زمن الماسونيين، كانت جميع العلامات والرموز المستعملة في كل المحافل الماسونية تُستعمل أيضاً في زمن الملك سليمان عليه السلام (ص ١١)، وأنه عند إجراء مراسم تكريس العضو الجديد، كانت قصة «حيرام» تتلى عليه. ومهما كان من غرابة هذه القصة إلا أنها تشير على الأقل إلى حقيقة وجود التنظيمات السرية بشكل أو بآخر في زمن حكم الملك سليمان عليه السلام، وكانت تلك التنظيمات السرية رائجة ومنتشرة في عهده.

أما حادثة التآمر الثانية التي يشير إليها القرآن المجيد، والتي لجأ اليهود فيها إلى التنظيمات السرية، فكانت خلال فترة وجودهم في الأسر في بابل. ولكن في هذه المرة لم يكونوا يتآمرون ضد أحد من الأنبياء، بل إنهم كانوا يعملون تحت إمرة وقيادة رجلين صالحين، كانا يعملان بتوجيه من الله تعالى لتحقيق نجاة اليهود من أسرهم. وقد كانت مهمتهم هي العمل على تمزيق وتدمير إمبراطورية بابل، عدوة اليهود التي وضعتهم في الأسر والسبي. فنظموا لذلك الجمعيات السرية، وكان هذان الرجلان الصالحان ينبّهان على العضو الجديد الذي ينضم إلى تلك التنظيمات السرية بأنهما فتنة وامتحان من الله تعالى للفرقة بين الحق والباطل، وأن على الشخص الذي يريد أن يكرّس نفسه للعمل أن يؤمن بصدق كل ما يقولانه ويتبعهما تماماً وإلا فإن معصيتهما سوف تؤدّي به إلى الكفر، وكان من تعاليم تلك التنظيمات السرية التفرقة بين الرجال والنساء، وقصر عضوية تلك التنظيمات على الرجال فقط (وهذا التقليد القديم كان معمولاً به في أغلب الجمعيات السرية). وكان يُذكر أيضاً أن

الحواريين وتلاميذ هذين الرجلين الصالحين كانوا يوجهون أنشطتهم فقط ضد أولئك الذين يريد الله تعالى أن ينزل بهم عقابه.

وفي الآية التي نحن بصددھا يشير القرآن المجيد إلى تلك الأيام التي أحضر فيها الملك نبوخذنصر اليهود في الأسر إلى بابل، وأبقاهم هناك في السبي لزمان طويل. والرجلان الصالحان اللذان تشير إليهما الآية وأطلقت عليهما لفظ ﴿مَلَكَيْنِ﴾ هما حبيبي النبي وزكريا ابن عدو (راجع سفر عزرا ١: ٥). وحين تولى الملك كورش زمام العرش في ميديا وفارس وقويت شوكته، عقد اليهود معه اتفاقاً سرياً، وساعدوه كثيراً بتسهيل عملية غزوه لمملكة بابل. ومكافأة لهم على خدماتهم لم يسمح لهم فقط بالعودة إلى فلسطين، بل إنه ساعدهم أيضاً في إعادة بناء الهيكل (راجع مؤرخي تاريخ العالم ج ٢ ص ١٢٦).

وبعد أن ذكرت الآية الكريمة أن اليهود في زمن الرسول ﷺ قد اتبعوا نفس أساليب التآمر السري التي اتبعها الشياطين المتمردون في زمن ملك سليمان عليه السلام، والتي اتبعها اليهود فيما بعد تحت قيادة رجلين صالحين في بابل، كان من الضروري أن تبين الآية النتيجة النهائية من تخطيطاتهم السرية ضد الرسول ﷺ، لأن مجهوداتهم السرية في المرتين السابقتين كانت لها نتائج مختلفة. ففي المرة الأولى التي اتبع فيها اليهود تلك التخطيطات السرية ضد أحد أنبياء الله تعالى، انتهت تلك الجهود كلها بفقدانهم لعزتهم ومجدهم، وأدت في النهاية إلى نفيهم إلى بابل. وفي المرة الثانية اتبعوا نفس أساليب التخطيطات السرية، ولكن تحت قيادة وتوجيه رجلين صالحين، فكان أن كُتب لهم النجاح. ولذلك، من أجل أن يبين القرآن المجيد ما إذا كانت نتيجة التخطيطات السرية التي يقوم بها اليهود في زمن النبي ﷺ سوف تؤدي إلى الفشل كما حدث في أيام النبي سليمان عليه السلام، أو إلى النجاح كما حدث في بابل، تقول الآية الكريمة: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إشارة إلى أن النجاح لن يكون حليفهم هذه المرة كما كان في بابل. وعلى ذلك فقد كان من نتيجة مؤامراتهم ضد الرسول ﷺ أن لقي حليفهم الوحيد، الملك خسرو الثاني، حتفه على يد ابنه، وتم

إجلاؤهم وطردهم من الجزيرة العربية في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويذكر الله تعالى في الجزء الأخير من الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي أنهم قد علموا يقيناً بسبب تجربتهم السابقة أن من يتعامل في ذلك التخطيط الذي كان يُدبر سرّاً فلن ينال في الآخرة من نجاح ولا فلاح. أما الكلمات الأخيرة من الآية ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فتلقي الضوء على مدى حرص الله تعالى على أن يعرف عباده الحق دائماً ويتبعوه، وألا يضلهم عنه القوم الفاسقون.

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾

شرح الكلمات:

مَثُوبَةٌ: مثل ثواب (مترادفان)، مشتقة من ثاب بمعنى رجع بعد ذهابه أو عاد لحالته الطيبة. مثوبة وثواب: الجزاء على الأعمال خيرها وشرها، ولكن بصفة عامة تختص بالخير (أقرب الموارد).

التفسير:

لو كان لدى اليهود إيمان حقيقي، وكان في قلوبهم تقوى الله تعالى وخوف منه، لما كرّسوا كل طاقاتهم في الحصول على المكاسب الدنيوية، بل لجعلوا كل همهم ثواب الآخرة. غير أنهم كانوا يطمعون في حطام الدنيا فقط، وأهملوا الآخرة تماماً، مما يدل على أن إيمانهم لا يقوم على شيء من الصدق والإخلاص، ولا يؤدي بهم إلى حياة التقوى والصلاح.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا
وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾

شرح الكلمات:

رَاعِنًا: مشتقة من رعى بمعنى لاحظ أو شاهد. راعى أمره: عمل ما فيه صالحه. راعني سمعك: استمع لمقالي. راعى النجوم أي راقبها وانتظر مغيبها (أقرب الموارد)، لذا فإن راعنا تعني عاملنا بإحسان أو التفت إلينا.

ويمكن أن تكون الكلمة مشتقة من «رعن» وتعني أنه تصرف بحماقة، وفي هذه الحالة يكون راعن: أحمق؛ مغرور؛ متكبر (أقرب الموارد).

انْظُرْنَا: مشتقة من نظر بمعنى رأى؛ راقب؛ لاحظ. وانْظُرْنَا تعني: أصغ إلينا؛ تأن علينا وانتظرنا. كلا الكلمتين «راعنا وانظرنا» يستخدمهما المستمع عندما لا يستطيع متابعة أو ملاحظة قول المتكلم، وكأن المستمع يقول للمتكلم: أرجوك أن تكرر ما قلت؛ أو كأنهما تعبير ينم عن الاعتذار؛ أو تستخدمان في مناسبات أخرى مشابهة عندما يريد الشخص أن يلفت انتباه شخص آخر إليه.

التفسير:

بعد أن ذكر القرآن المجيد التدابير السرية التي انخرط فيها اليهود للعمل على تخريب وإفشال مهمة الرسول ﷺ بمساعدة الآخرين من الخارج، راح القرآن الكريم يعدد مكائدهم وأساليبهم الخسيسة التي اتبعوها للإساءة إلى رسول الله ﷺ وتحقير شأنه، محاولين بذلك زرع بذور الشقاق والتمرد بين المسلمين. وقد تم اختيار ما يبدو أنه أمر بسيط، مما يدل على أن الروح المعنوية لدى الناس يمكن أن تتأثر أحياناً بأمر بسيط ولكنها تؤدي إلى نتائج وخيمة، كما أنها تقوّض روح النظام واحترام السلطة لدى الناس. وإلى ذلك جاءت الإشارة إلى أنه كان من عادة اليهود تدبير الحيل التي من شأنها سلب الاحترام الذي كان يملأ قلوب المسلمين تجاه النبي ﷺ. وكانت إحدى تلك الحيل الخسيسة توجيه بعض الألفاظ إلى الرسول ﷺ والتي لا تتفق وروح النظام والاحترام، أو التي تحمل في طياتها معنيين أحدهما جيد والآخر سيئ.

وقد راح بعض المسلمين يحاكون اليهود في أسلوب كلامهم، وذلك جهلاً منهم ودون أن يفتنوا إلى المقصد الخبيث وراء قصد اليهود.

كانت إحدى تلك الكلمات التي يستخدمها اليهود هي كلمة «راعنا» التي جاء بيان معانيها عند شرح الكلمات، وهي تعني «اجعل لنا اعتباراً». ولكن لما كانت كلمة «راعنا» تحمل أيضاً معنى المفاعلة التي تعطي مفهوم تبادل الفعل بين فريقين يقفان تقريباً على نفس المستوى، فإنها يمكن أن تعني أيضاً «اجعل لنا اعتباراً لكي نجعل لك اعتباراً». ولما كان في هذا التعبير سوء احترام للرسول ﷺ فقد منع الله تعالى المسلمين من استخدام هذا اللفظ، وأمرهم باستخدام لفظ أكثر تهذيباً ولا يحتمل إلا معنى واحداً، فأمرهم باستخدام لفظ «انظرنا» بدلاً من «راعنا»، لأن لفظ «انظرنا» يحمل نفس معنى اللفظ الآخر بغير أن يتضمن معنى سيئاً. ويأمر الله تعالى المسلمين أن يحسنوا السمع للنبي ﷺ حتى لا يكونوا في حاجة إلى استخدام مثل تلك الكلمات.

وكما سبق بيانه، إن كلمة «راعنا» التي منع الله تعالى المسلمين من استعمالها يمكن أن يأتي اشتقاقها من المصدر «رعن» التي تعني الشخص الغبي أو الشخص المغرور المعجب بنفسه، أي الأرعن، وحين تستخدم في الحديث مع شخص ما تأخذ شكل «راعنا» أي أيها الغبي أو أيها الأرعن. واليهود الذين انحطت أخلاقهم وفسدت تماماً، كانوا يتبعون هذه الأساليب الوضيعة بقصد التوهين والتحقير لمقام الرسول ﷺ، ولكي يوهنوا ويضعفوا من روح الاحترام التي كان يتمتع بها في قلوب أتباعه. وقد ذكر القرآن المجيد هذه الواقعة لتحقيق غرضين؛ أولاً: لكشف ألاعيب اليهود ولفت أنظارهم إلى خسة وفساد نياتهم؛ وثانياً: ليُعلم المسلمين درساً في الحرص والاحترام. ولمعرفة ما جاء من أحاديث شريفة في هذه الوقائع يمكن مراجعة تفسير ابن جرير الطبري والدر المنثور تحت تفسير الآية ١٠٥ من سورة البقرة. وعلى سبيل المثال: حدثنا بشر بن معاذ قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا، قول كانت تقوله اليهود استهزاء فزجر الله المؤمنين

أن يقولوا كقولهم (تفسير الطبري - ابن جرير). وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «راعنا» بلسان اليهود السب القبيح، فكان اليهود يقولون لرسول الله ﷺ سرّاً فلما سمعوا أصحابه يقولون أعلنوا بها فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم. فأنزل الله الآية. وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنه قال لا تقولوا راعنا وذلك أنها سبة بلغة اليهود (الدر المنثور - جلال الدين السيوطي).

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا
الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ
رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠١﴾

التفسير:

كان أهل الكتاب وقبائل العرب الوثنية تشعر بحقد وضغينة نحو المسلمين بسبب الخير الذي يتنزل عليهم. وللدرد على ذلك يقول تعالى إنه سبحانه ذو الفضل العظيم، وأنه رب العالمين الذي لا يختص برحمته جنساً واحداً من دون الناس، وإنما يختار لرحمته وفضله من يشاء من خلقه. والآن وقد اختار المسلمين، فإنه بذلك لا يختص برحمته جنساً واحداً من الناس، لأن بعثة الرسول الكريم ﷺ للعالم بأسره، والدعوة عامة موجّهة للجميع أن يأتوا لينهلوا من فضل الله تعالى، ولذلك فليس من حق أحد أن يشعر بالحقد أو بالغيرة والحسد. لقد بدأ فجر زمن الفضل العظيم بمجيء الإسلام، الذي هو أيضاً زمن الفضل العميم.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا
أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٧﴾

شرح الكلمات:

نَنْسَخْ: مشتقة من نسخ وتعني: (١) أبطل أو ألغى شيئاً، سواء أقام شيئاً آخر مقامه أم لا. (٢) نسخ الكتاب أي نقله وكتبه طبق الأصل (أقرب الموارد). ومنها اشتقت كلمة نسخة من كتاب. ومن المعنى الأول تأتي كلمة «ناسخ» أي الشيء الذي يلغي أو يُبطل شيئاً آخر. و«منسوخ» هو الشيء الذي تم إلغاؤه أو إبطاله.

نُنْسِهَا: مشتقة من نسي ضد حفظ. أنسي الشيء أي حُمل على نسيانه. فمعنى ننسها أي ننسيك إياها ونمحو أثرها من الذاكرة.

مِثْل: لها ثلاثة معان مختلفة: (١) أما أن تفيد التشبيه. (٢) أو تفيد الشيء نفسه. (٣) أو أن تأتي زائدة لا تفيد معنى معين (أقرب الموارد والمصباح المنير).

التفسير:

حاول بعض المفسرين أن يستنتجوا من هذه الآية الكريمة أن حكم بعض الآيات القرآنية قد أصبح لاغياً بواسطة أحكام آيات أخرى نزلت بعدها، ولكن هذا الاستنتاج خاطئ تماماً وعار عن الصحة شكلاً وموضوعاً. فليس في الآية القرآنية ما يدل على أن لفظة ﴿آيَةٍ﴾ التي وردت بها تدل على أنها تعني «آية من آيات القرآن المجيد». وفي الآية السابقة، كما في الآية التالية، جاء ذكر أهل الكتاب ومشاعر الغيرة التي انتابتهم تجاه الوحي الجديد، الأمر الذي يبين بكل وضوح أن كلمة «آية» التي أشير إلى أنها قد نُسخَت وتم إلغاؤها وإبطال حكمها، تعود إلى الوحي الذي سبق الوحي القرآني. وتبين الآية القرآنية هنا أن الصحف السابقة كانت تحتوي

على نوعين من التعاليم الإلهية؛ أولاً: تلك التي اقتضى الأمر نسخها وإبطالها بسبب تغير الأحوال والظروف في العالم، وبسبب العالمية التي يتصف بها الوحي القرآني الجديد. وثانياً: تلك التي كانت تحتوي على حقائق دائمة، والتي ما كانت في حاجة إلى نسخ ولا إلغاء، وإنما فقط إلى إحياء، حتى يمكن إعادة تذكير الناس بالحقائق التي نسوها. لذلك كان من الضروري: (١) إلغاء أو نسخ بعض الأمور في الشرائع السابقة والإتيان ببدائل لها. (٢) إحياء ما فقد من الحقائق الأزلية التي كانت تحتويها تلك الشرائع. ولذلك فقد نسخ الله تعالى، أي ألغى، بعض الأجزاء من الكتب السابقة، وأتى بدلها بما هو خير منها، وفي نفس الوقت جاء بمثل ما كان قد فقد أو نساه الناس من تلك الكتب. إن هذا هو المعنى الوحيد للآية الكريمة الذي يتفق مع سياق الآيات القرآنية، ومع التوجيه العام للقرآن المجيد. ففي هذه الآية الكريمة التي نحن بصددنا تتعلق كلمة «نُسَخَ»، أي نبطل، بكلمة «بُخِّرَ مِنْهَا»، بينما تتعلق كلمة «أَوْ نُسِهَا» بكلمة «أَوْ مِثْلَهَا» مما يعني أن الله تعالى حين يلغي أو يبطل أمراً فإنه يأتي في مكانه بخير منه، وإذا حدث أن نسي الناس أمراً فإنه يأتي به مرة أخرى، أي يعيد إليه الحياة.

وقد اعترف اليهود أنفسهم أنه بعد أن حمل «نبوخذ نصر» بني إسرائيل أسرى إلى بابل، فقدت الأسفار الخمسة التي تحتوي التوراة بأكملها (دائرة معارف الكتاب المقدس ٦٥٣-٦٥٤).

والمعنى الذي وضعه بعض الذين قاموا بترجمة معاني آيات القرآن المجيد، وزعموا أن بعض آيات الكتاب العزيز قد صارت باطلة، لا يتعارض فقط مع كلمات القرآن المجيد، وإنما يصطدم أيضاً بالعقل؛ ولا يمكن ذكر أي حديث صحيح من أحاديث الرسول ﷺ يؤيد هذا المعنى. إذ ورد عن النبي ﷺ أنه قال: إن القرآن المجيد بأكمله يجب أن يُتبع، وأنه هو نفسه قد اتبع جميع تعاليمه خلال حياته الشريفة. عَنِ الْحَارِثِ قَالَ: مَرَرْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍِّّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ حَاضُوا فِي الْأَحَادِيثِ، قَالَ:

وَقَدْ فَعَلُوهَا، قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةً». فَقُلْتُ مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ. هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ. هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهُ الْجِنَّ إِذْ سَمِعْتَهُ حَتَّى قَالُوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (الترمذي - كتاب فضائل القرآن).

وبالإضافة إلى هذا فإن القرآن المجيد نفسه يشهد على نقائه وسلامته، والآية المعروفة جيداً: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٠) لا تترك مجالاً لأي استنباط آخر. ولو كان من الممكن قبول نسخ أو إبطال أي جزء أو آية من القرآن المجيد، فإن الوعد المذكور بحفظه يكون لاغياً بغير قيمة، إذ في تلك الحالة يكون من المستحيل التفرقة بين ما هو حق وما هو باطل من آيات الكتاب العزيز.

ومرة أخرى نذكر أنه لا يوجد أي تناقض البتة في القرآن المجيد، وبالتالي فليس هناك حاجة للقول بنظرية النسخ هذه. إن ما يظنه البعض تناقضاً، لا يدل إلا على عدم فهم من جانب أولئك الذين يدعون وجود التناقض. فحين يفشل البعض في فهم العلاقة الحقيقية بين آيتين من آيات القرآن المجيد، فإنه يميل إلى الظن بوجود تناقض بينهما. وبالتالي يجد أن أسهل الأمور لديه أن يقول بأن إحدى الآيات قد نسخت الأخرى. وحالما يزول ما يظنه البعض تناقضاً، وتوضح الرابطة الحقيقية بين الآيتين، فإن نظرية النسخ تسقط وتصير بلا مسوِّغ. ولذلك فإن أولئك الذين أخذوا بنظرية النسخ، اضطروا بالتدرج إلى التقليل من عدد الآيات التي ظنوا أنها منسوخة؛ فبينما كان الظن في أول الأمر أن عدد الآيات المنسوخة يبلغ ٥٠٠ آية، راح العلماء المتأخرون يُنقصون ذلك العدد إلى أن بلغ خمس آيات فقط. ولكن، حتى هذا

لم يكن صحيحاً؛ إذ أنه لا يوجد على الإطلاق في القرآن المجيد ولا آية واحدة تلغي أو تبطل أو تنسخ آية قرآنية أخرى، ونحن نتحدّى جميع أولئك الذين يخالفوننا الرأي أن يبرهنوا لنا على وجود آية واحدة منسوخة في الكتاب العزيز. إنه من المؤسف حقاً أن يتحوّل المعنى الجميل للآية التي نحن بصدددها، والذي بيّناه باختصار فيما سبق، إلى تفسير يشوبه الجهل ويشوّهه سوء التفكير.

وتشير الآية إلى أمر هام آخر. لقد أحيط أهل الكتاب علماً بأن القرآن المجيد قد جاء لينسخ جميع الصحف السابقة؛ فطبقاً لما يليه تغير أحوال البشرية، جاء القرآن بشريعة جديدة، ليست أفضل من جميع الشرائع السابقة فحسب، وإنما تصلح للعالمين جميعاً في كل زمان وكل مكان. إن ما يشوبه النقص ويعوزه الكمال، والذي كان صالحاً لزمان محدود فقط، يجب أن يخلي مكانه لما هو أفضل وأكمل وذو صبغة عالمية. ويعد توضيح هذا الأمر يستطرد القرآن المجيد فيوضح أنه رغم أن تعاليم الكتاب العزيز قد جاءت لكل زمان، فإنه من المقدّر في علم الله تعالى أنه سيأتي زمن في عمر الإسلام حين يظل القرآن سليماً بحرفه ورسمه، ولكن المسلمين سوف يفقدون روحه وجوهره. وحين يأتي ذلك الزمن فإن الله تعالى سوف يعيد إحياء التعاليم القرآنية، أي يأتي بمثلها، بأن يبعث من بين المسلمين أنفسهم بمبعوث خاص لتجديد تعاليم الإسلام. وقد جاءت الإشارة إلى هذه النبوءة بشكل أكثر وضوحاً في الآية الرابعة من سورة الجمعة، حيث وعد الله تعالى أن يبعث في آخر الزمان مجدداً يماثل رسول الله ﷺ، وقد جاء عن هذا المجدد أنه سوف يأتي بالإيمان الحق حتى ولو كان قد ابتعد عن العالم وصار في بعد الثريا التي هي مجموعة من النجوم البعيدة (انظر البخاري كتاب التفسير). وقد تحققت هذه النبوءة في شخص مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٨﴾

شرح الكلمات:

وَلِيٍّ: يُقال وَلِيَّ الرجل أي نصره أو صاذه. ولي البلد أي تسلط عليها. لذا فكلمة «وَلِيٍّ» تعني: (١) الصديق؛ (٢) النصير؛ (٣) المحب؛ (٤) الحفيظ... إلخ (أقرب الموارد).

التفسير:

تقدّم هذه الآية الكريمة دليلاً على أن الوحي القرآني قد نسخ وأبطل جميع أنواع الوحي الذي سبقه. فالله تبارك وتعالى يقول إن له ملك السماوات والأرض، ولذلك كان من المناسب أن تأتي في النهاية شريعة تناسب العالم بأجمعه. وتوجّه الآية أنظار اليهود إلى أن من مصلحتهم قبول الإسلام؛ وإلا فلن يجدوا لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً.

وهناك إشارة مكنونة في الآية الكريمة، تبين أن المسلمين رغم أنهم اليوم (أي عند نزول الآية) محقرون ومضطهدون، إلا أنهم لن ينالوا من الله تعالى النعم الروحية فحسب؛ بل إنهم سوف ينالون أيضاً السيادة المادية على ممالك الدنيا؛ أليس لله تعالى ملك السماوات والأرض، وهو سبحانه الذي يعطي الملك لمن يشاء؟

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ
مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٩﴾

شرح الكلمات:

سَوَاءٌ: مشتقة من سَوِيَ. سَوِيَ الرجل أي استقام أمره. سواء تعني: (١) الوسط بين الحدين؛ (٢) سواء السبيل: ما استقام منه؛ أو الطريق الصحيح أو المستقيم (أقرب الموارد ولسان العرب).

التفسير:

تذكر الآية حيلة أخرى من حيل اليهود التي ابتدعوها لإفشال مهمة النبي ﷺ. فقد راحوا يسألون أسئلة سخيفة لا تتعلق بالأمور الدينية. وقد فعلوا ذلك محاولة منهم لحقن المسلمين بنفس الروح الخبيثة لإثارة الأسئلة وإيجاد التساؤلات في نفوسهم، لعل قلوبهم تتحوّل بالتدرج لتبتعد عن نور الإيمان إلى ظلام الشك. والآية تحذّر المسلمين من هذا المسلك، وتذكّرهم بأن اليهود قد أهلكوا أنفسهم حين اتبعوا هذا الأسلوب مع موسى ﷺ. وبناء على ذلك، ينبغي على المسلمين أن يكونوا على حذر من اتباع ذلك المثل السيئ. وفي الحقيقة، إن كثرة الأسئلة التي لا معنى لها في الأمور الدينية تؤدّي في النهاية بالإنسان إلى فقدان الإيمان، إذ إن ذلك النوع من الأسئلة والتساؤلات يحطّ من شأن الدين، ويجعل منه عبثاً أو مجرد لون من الفلسفة السفسطائية.

ولتوضيح طبيعة تلك الأسئلة التي كان بنو إسرائيل يوجهونها إلى موسى ﷺ، يشير القرآن المجيد إلى أحدها في الآية ١٥٤ من سورة النساء حيث يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾. وتوضح هذه الآية طبيعة تلك الأسئلة التي كانوا يوجهونها إلى موسى ﷺ، وقد منع الله تعالى المسلمين من توجيه مثل تلك الأسئلة إلى رسولهم الكريم ﷺ.

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم
مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ
أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا
وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٠﴾

شرح الكلمات:

فَاعْفُوا: مشتقة من عفا. يُقال عفا عنه أو عفا له أو عفا ذنبه أو عفا عن ذنبه أي صفح عنه وترك عقوبته وهو يستحقها وأعرض عن مؤاخذته. عفا الله عنه: محاذنوبه. عفا عن الشيء: أمسك عنه وتنزه عن طلبه (أقرب الموارد).

أَصْفَحُوا: مشتقة من صفح. صفح عنه أي أعرض عنه، وتجنَّبه، وتركه. كذلك تعني: أعرض عن ذنبه. الصَّفْح: الجانب؛ وفي الإنسان: جانب الوجه (أقرب الموارد). **أَمْر:** الفعل أَمَرَ ويعني طلب أو سأل أو كَلَّف. الأمر: الطلب؛ التكليف؛ الحكم؛ القرار؛ الحال؛ الشيء؛ الشأن؛ الحدث. أمر الله: وعيد أو قضاء الله بإنزال العقاب (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

أراد اليهود أن يضلوا المسلمين ويقودوهم إلى الكفر، وذلك باتباع العديد من الوسائل والتدابير التي أشرنا إلى بعضها فيما سبق، وكان كل ذلك بسبب الحسد الذي يملأ قلوبهم تجاه المسلمين. غير أن الآية تعظ المسلمين بعدم الشجار معهم، بل الانتظار والتحلي بفضيلة الصبر حتى يقرر الله تعالى الأمر ويقضيه بنفسه.

وكما جاء في شرح الكلمات، هناك فرق دقيق بين العفو والصفح. فبينما يعني العفو الامتناع عن توقيع العقوبة، فإن الصّح يعني تحويل المرء وجهه بعيداً عن الشيء، أو ترك الشيء وشأنه. وباستخدام الكلمتين سوياً فإن الله تعالى يعظ المسلمين بالألّا يعفوا فقط عن اليهود ويمتنعوا عن معاقبتهم على أفعالهم الخسيسة وتدابيرهم الدنيئة، وإنما عليهم أن يتركوهم وشأنهم، وأن يظلوا مبتعدين عنهم إلى أن يفتح الله تعالى بنفسه سبيلاً للمسلمين، وهو ما فعله سبحانه حين أعلن اليهود أنفسهم الحرب على المسلمين.

ومن الخطأ الظن بأن آية ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ تعني أن يشن المسلمون حرباً عدوانية على اليهود. إن قضاء الله تعالى العام أو حكمه سبحانه هو المقصود هنا، كما يفهم ذلك من الكلمات التي جاءت بعد ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فإن البعض من اليهود دخلوا في الإسلام، بينما هلك الباقون نتيجة للعقاب الإلهي الذي نزل بهم.

وبعني قوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أن النبي ﷺ لم يفعل شيئاً يثير حفيظتهم ولا غيرتهم، وإنما كانت طبيعتهم الخبيثة هي التي أدت إلى اشتعال غيرتهم. لقد انبثق مرض الحسد من داخل قلوبهم، ولم تأت جرائمه من الخارج.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا
لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١١﴾

التفسير:

عندما يتعرض المرء للاضطهاد المستمر فإنه قد يفقد صبره، ولكن القرآن المجيد ينصح المسلمين بدوام الصبر على المكاره وتحمل العناء والشدائد، ولكي يتمكنوا من

ذلك تأمرهم الآية بإقامة الصلاة من ناحية، وإيتاء الزكاة من ناحية أخرى، لأنهم حين يقومون بفعل ذلك فإنهم سوف ينالون من الله تعالى القوة على التحمل والجلد. وكلمات الآية ﴿وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تحتوي على حقيقة روحية عميقة، فكل ما يؤدّيه المرء من خير يظل محفوظاً عند الله تعالى ولا يضيع منه شيء. فكل عمل صالح يكون مثل البذرة التي تحمل في ذاتها شجرة وارفة الظلال، ولكنها تظل غائبة عن أعين الناس. لذلك على المسلمين ألا يظنوا أن صلاتهم وزكاتهم سوف تضيع هباءً، بل يكونوا على يقين أنها سوف تأتي بشمراتها عاجلاً أم آجلاً.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا
أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٢﴾

شرح الكلمات:

هُود: يرى البعض أن كلمة «هوداً» هي جمع «هائد» وهو اسم فاعل من «هاد» ويعني تاب ورجع إلى الحق. يقال هاد المذنب إلى الله فهو هائد وجمعها هود. وكلمة هود هي الاسم الصحيح لليهود، وإن كان البعض يرى أن الاسم الأصلي والأشهر هو اليهود أو يهود وأن الياء قد حذفت بعد ذلك (أقرب الموارد). راجع أيضاً الآية ٦٣ من نفس السورة.

التفسير:

حتى الآن لم يأت ذكر النصارى منفصلاً عن ذكر اليهود، ولكن الآن يذكرهم القرآن المجيد مع ذكر اليهود مشيراً بذلك إلى أن حالتهم لم تكن بأفضل من حالة اليهود، فكلاهما تحت وهم أن المرء يمكن أن ينال النجاة لمجرد كونه يهودياً أو نصرانياً. ولقد نسوا أن الله تعالى حينما يؤسس عهداً جديداً فإنه من المستحيل لأحد أن ينال

النجاة دون الالتزام بهذا العهد الجديد واتباعه. فإذا كان كل من اليهود والنصارى على حق في زعمهم، فعليهم أن يأتوا ببرهان أو بدليل من صحفهم المقدسة، على أنه يكفي للمرء أن يلحق بصفوفهم لكي ينال النجاة في الآخرة. ولكنهم لن يستطيعوا فعل ذلك، لأن صحفهم المقدسة نفسها تحتوي على النبوءات التي تذكر ظهور نبي عظيم وعليهم أن يتبعوه، لأن رفضهم قبوله يؤدي إلى بعدهم وانسلاخهم عن الله تعالى.

لقد جاءت كل من المسيحية واليهودية من أجل هداية بني إسرائيل فقط. فإن مهمة المسيح ﷺ لم تكن من أجل العالم كله (انظر إنجيل متى ٦: ٧؛ ١٠: ٦؛ ١٥: ٢٤؛ وإنجيل مرقس ٧: ٢٧) ورغم أن أتباع المسيح ﷺ قد قاموا فيما بعد بمخالفة تعاليمه التي تقضي بحصر مهمته في اليهود فقط، وادّعوا أن رسالته عالمية، إلا أن الحقيقة الناصعة تظل واضحة، وهي أنه كان رسولاً إلى بني إسرائيل فقط. ولما كانت الأمم الأخرى هي أيضاً من خلق الله تعالى، فإنه مما لا يخالف الحق أن نؤمن بأنه سبحانه لا بد وأن يكون قد رتب أمر هدايتهم أيضاً. وعلى هذا فلا يحق لليهود والنصارى أن يعتقدوا بأن باب النجاة قد أوصد في وجه أتباع الأديان الأخرى، فإن مثل هذه الاعتقادات تعني أن الله تعالى قد حصر أمر النجاة في قبائل بعينها، بينما حرم الآخرين من النجاة، وهو أمر بادي السخافة، ولا يليق بشأن الله تعالى.

أما الإسلام، فلا يمكن أن يوجه إليه مثل هذا الاتهام. فإنه قبل كل شيء ليس ديناً يختص بقبيلة ما، وإنما جاء للعالم أجمع، فهو عالمي في طبيعته. إذ يأمر الله تعالى رسوله في القرآن المجيد أن يعلن: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩). وبالمثل هناك حديث شريف للرسول ﷺ بنفس المعنى حيث يقول: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّتَمَّا أَدْرَكَ الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِي الصَّلَاةَ يُصَلِّي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَلَمْ يُعْطَ نَبِيٌّ قَبْلِي، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً" (النسائي - كتاب الغسل والتميم).

ثم إن الإسلام، على غير ما تدّعيه كل من اليهودية والنصرانية، لا يعتبر الجحيم باقية بلا نهاية، بل هي مكان للإصلاح يتخلص فيه المذنبون من آثار ذنوبهم، ويتمكنون في النهاية من معرفة طريقهم إلى الجنة، لينعموا فيها بالثواب على ما يمكن أن يكونوا قد فعلوه من خير في هذه الحياة الدنيا. ومن ناحية أخرى، يعتبر الإسلام أن نعيم الجنة نعيم مقيم دائم بلا نهاية. أما اليهود والنصارى فإن أمانهم هي التي ولدت في نفوسهم تلك الأفكار، بأنهم هم وحدهم الذين سوف ينالون النجاة من دون العالمين. لذلك يقول لهم القرآن المجيد: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٣﴾

شرح الكلمات:

بَلَىٰ: حرف تصديق مثل «نعم» وأكثر ما تقع بعد الاستفهام. وتختص بالإيجاب سواء كان ما قبلها مثبتاً أو منفياً نحو «أَقَامَ زيدٌ؟» الجواب بلى أي قام، و«أما قام زيد؟» الجواب بلى أي قام أيضاً (معجم لين). وهي جواب للإثبات أيضاً توجب ما يقال لك لأنها تركت النفي. فإذا قلت لزيد ليس عندك كتاب فقال بلى، لزمه الكتاب. أمّا إذا قال نعم فلا يلزمه (أقرب الموارد).

أَسْلَمَ: مشتقة من سَلِمَ أي نجا أو خلاص أو برأ. سلم من العيب والآفة أي برأ ونجا منها. أسلم هو فعل لازم ومتعدٍ ويعني: (١) تدين بالإسلام؛ (٢) انقاد أي سلّم نفسه إلى غيره كلية؛ (٣) قدّم طواعية. وأسلم وجهه لله: قدم نفسه وفوض أمره لله تماماً وجعل الله هو كل ما يشغله (معجم لين وأقرب الموارد).

وَجْهَةٌ: الوجه له معانٍ عديدة منها: العناية والاهتمام؛ نفس الشيء؛ التوجه؛ الجاه؛ القصد والنية؛ صفحة الوجه؛ المرضاة كأن يقال فعل ذلك لوجه الله أي لمرضاته تعالى (الأقرب).

مُحْسِنٌ: مشتقة من حَسَنَ بمعنى جَمَلَ أي أصبح جميلاً. أحسن إليه: أي عمل معه حسناً أو أعطاه الحسنة. أحسن الشيء: جعله حسناً. إحسان: الفعل الحسن؛ عمل الطيبات؛ الإخلاص. الحسنى: (١) النظر إلى الله تعالى؛ (٢) العاقبة الحسنة؛ (٣) الظفر (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

هذه الآية الكريمة على جانب كبير من الأهمية، وتشرح حقيقة أساسية. فلدحض مزاعم اليهود والنصارى باحتكار النجاة لأنفسهم، يُذَكِّر القرآن المجيد بالمبدأ الأساس، وهو أنه لا يفيد بشيء أن يكون المرء يهودياً أو نصرانياً، لأن النجاة الحقيقية هي في الإسلام الذي يعني الخضوع المطلق لإرادة الله تعالى، والالتزام التام بكلامه ﷺ. فمن يحقق هذا ينال حقاً النجاة من الله تعالى، أما مجرد التفوّه بالإيمان فلا ينفع بشيء. إن كلمة ﴿مُحْسِنٌ﴾ في الآية، «أي فاعل الأعمال الطيبة» كما أشير إلى ذلك في شرح الكلمات، قد شرحها الرسول ﷺ عندما سُئِلَ عن معنى الإحسان فقال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك". أي إنك حين تصلي أو تقوم بعبادة الله تعالى، فإنك تؤدّي ذلك بروح من الصدق والإخلاص واليقين، حتى إنك لتشعر بأنك ترى الله تعالى (وأن الله تعالى يراك أيضاً)؛ أو إذا كنا في درجة أقل من درجات اليقين، فإنك على الأقل تشعر بأن الله تعالى يراك. وتعني أيضاً كلمة ﴿مُحْسِنٌ﴾ الشخص الذي يقوم بفعل الخير لمخلوقات الله تعالى. وعلى هذا فإن النجاة من وجهة نظر الإسلام تقوم على: (١) الإسلام، أي الخضوع المطلق لإرادة الله تعالى؛ (٢) عبادة الله تعالى بدرجة كاملة من اليقين؛ (٣) إسداء الخير وعمل الطيبات للناس.

إنها سمة خاصة من سمات الإسلام أنه يجعل أتباعه يدركون أن وجود الله تعالى ودوام الاتصال به حقيقة واقعة، وبذلك فإنه يمكنهم من إنشاء رابطة حقيقية ودائمة معه سبحانه، حتى في هذه الحياة الدنيا. وهذا الرابطة في الواقع هي بداية النجاة. إن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام قد وصف هذا الأمر في الكلمات الجميلة التالية:

”إن الآية تومئ إلى ثلاث مراحل هامة للخير التام الكامل؛ وهي (١) مرحلة الفناء؛ (٢) مرحلة البقاء؛ (٣) مرحلة اللقاء. وتبين الكلمات «أسلم وجهه لله» أن كل قوانا وكل أعضائنا وكل ما لدينا يجب أن يخضع لله تعالى ويكرس لخدمته، وتُعرف هذه المرحلة بمرحلة الفناء، أي الموت، الذي يجب على المسلم الحقيقي أن يميت به ذاته. والجملة الثانية ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ تشير إلى مرحلة البقاء، أو البعث من الموت بعد ذلك، وذلك بحب الله تعالى بحيث تكون كل حركات الإنسان خاضعة لإرادته ﷻ، وتموت تماماً أنانيته وذاته داخل نفسه، ويصير كما لو أنه قد نال حياة جديدة يمكن أن تسمى بحالة البقاء. فهو يحيا لله تعالى، ومن خلال ذلك يعيش أيضاً لخدمة بني الإنسان. والجزء الأخير من الآية ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يصف المرحلة الثالثة والأخيرة، وهي مرحلة اللقاء مع الله تعالى. وهي أسمى درجات المعرفة بالله واليقين به والتوكل عليه ومحبته ﷻ. إن جزاء إخلاص المرء وولائه لله تعالى ليس مجهولاً أو مشكوكاً فيه، إنه حقيقي ويقيني، مُشاهد وواقعي، كما لو أنه يُلمس باليد. وفي هذه المرحلة يصير الإنسان على يقين تام بوجود الله تعالى، حتى إنه ليقال إنه يراه بالفعل، فلا خوف مما يخبئه المستقبل يمكن أن ينال من إيمانه، والماضي الذي انقضى قد دُفن وانتهى، والحاضر الحي لا يحمل له أي حزن أو أسف. فكل الأفضال والبركات الروحية حاضرة من أجله. وهذه المرحلة هي التي تُسمى مرحلة اللقاء، أو الارتباط بالله سبحانه وتعالى“. (مرآة كمالات الإسلام)

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ
وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ
وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٤﴾

شرح الكلمات:

اليهود: هم أتباع موسى عليه السلام أو أتباع الديانة اليهودية. وكما سبق عند تفسير هذه الكلمة، يتبين أنها إما أن تكون مشتقة من «هاد» أي تاب ورجع إلى الحق (أقرب الموارد)؛ أو أن تكون مشتقة من «يهودا» أحد أبناء يعقوب عليه السلام. لقد أسس نسل «يهودا» مملكة مستقلة في اورشليم التي صارت المركز الديني لليهود، لذا يُطلق على هذه الديانة «اليهودية» نسبة إلى «يهودا» ويسمى أتباعها «يهود» (دائرة المعارف البريطانية - تحت كلمة jews. انظر أيضاً الآية ٣٦ و ١١٢ من نفس السورة).

يَتْلُونَ: مشتقة من تلا بمعنى: (١) تَبَعَ؛ (٢) قرأ (أقرب الموارد). جاء في القرآن الكريم: ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا﴾، أي القمر إذا تبع الشمس. وجاء أيضاً في القرآن الكريم: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، أي الرسول الذي يقرأ عليهم آيات الله تعالى. كلمة «يَتْلُونَ» في الآية التي نحن بصدد تفسيرها تشير إلى المعنيين المذكورين، أي أن كليهما يقرأ نفس الكتاب أو أن كلا منهما يتبع نفس الكتاب (انظر أيضاً الآية ١٠٣ من نفس السورة).

التفسير:

ليس من شيء يُعَدَّ محافياً للإسلام أكثر من معارضة الحق، أينما يكون ذلك الحق. والإسلام يؤكد على أن جميع الأديان تحتوي على بعض الحق، والدين الصحيح يعتبر

صحيحاً ليس لأنه يحتكر الحق وحده، ولكن لأنه يحتوي كل الحق، ويخلو تماماً من كل نقص. ومع أن الإسلام يعلن أنه هو الدين الكامل، إلا أنه لا ينكر الحق الموجود في الأديان الأخرى، بل يعترف بما فيها من حقائق. وإذا اعترفت الأديان الأخرى بهذه القاعدة الذهبية التي يعلنها الإسلام، وإذا تم فهمها وتقدير أهميتها، فإن الكثير من الضغائن والمرارات بسبب الاختلاف بين الأديان سوف تختفي. ولكن للأسف هناك اتجاه عام بين أتباع الأديان المختلفة، يرفض الاعتراف بوجود الحق في الأديان التي تختلف عن أديانهم. والقرآن الكريم يعلن أن هذا الفكر نتيجة لسوء الفهم ونقص الحكمة. وتدين هذه الآية الكريمة بشدة اليهود والنصارى، لأن كلا منهم يرفض أن يرى ما هو موجود من خير في الدين الآخر، وذلك بالرغم من أن هناك الكثير المشترك فيما بينهم، فهم جميعاً أتباع نفس الكتاب، الكتاب المقدس.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ
فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا
كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِينَ لَهُمْ فِي
الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾

شرح الكلمات:

خَرَابِهَا: مشتقة من خَرِبَ. يقال خَرِبَ البيت: ضد عَمِرَ أي أصبح مهجوراً قفراً. كلمة «الخراب» - مصدر خرب: نقض العمار وهي تشير إلى المكان الذي صار مهجوراً، متهدماً، قفراً (أقرب الموارد).

التفسير:

تدين هذه الآية الكريمة بشدة أولئك الذين يجعلون خلافاتهم الدينية تصل بهم إلى أقصى حدود التطرف، حتى إنهم لا يتورعون عن الاعتداء على أماكن العبادة التي

تخص الأديان الأخرى وينتهكون حرمتها، وهم يعرقلون الناس ويمنعونهم من أداء شعائرهم الدينية، بل ويتمادون في ذلك إلى حد أنهم يخربون معابد الآخرين. والآية تدين بشدة أعمال العنف هذه، وتدعو إلى روح التسامح وسعة الفكر.

إن الإسلام يعترف بحق جميع الناس في استعمال أماكن العبادة، ويعلن أنه إذا أراد أحد أن يعبد الله تعالى في أي مكان مخصص لعبادة الله تعالى، فيجب ألا يمنعه أحد من ذلك؛ فإن المعبد أو المسجد مكان مخصص لعبادة الله تعالى، ومن يمنع أحد من عبادة الله تعالى فيها فإنه يعمل في حقيقة الأمر على خرابها ودمارها.

إن هذا هو ما يأمر به الإسلام فيما يختص باحترام أماكن العبادة، ومع ذلك فإن البعض يدين الإسلام ويّتهمه بأنه دين يحض على العنف ولا يحض على التسامح. إن الإسلام في الحقيقة هو الدين الوحيد الذي يدعو إلى سعة الفكر، ويحض على احترام المشاعر الدينية لجميع الناس؛ والرسول ﷺ هو أول من طبّق هذا التعليم العظيم، ووضع هذا التوجيه النبيل موضع التنفيذ. فقد دعا وفداً من نصارى نجران إلى أن يؤدّوا شعائرهم الدينية في المسجد المعروف بمسجد النبي، وذلك عندما جاؤوا إلى المدينة لإجراء مباحثة معه عن بعض الأمور الدينية (الزرقاني).

ومما هو جدير بالذكر أن الآية الكريمة تصف نوعين من العقاب لهؤلاء الذين يمنعون اسم الله تعالى من أن يُذكر في أماكن العبادة؛ أحدهما هو الخزي في الدنيا، والآخر هو العذاب العظيم في الآخرة. وعقوبة الخزي في الدنيا هي ما يليق بالجرم المرتكب، لأن الشخص الذي يبني معبداً أو مسجداً بغرض أن يُذكر فيه اسم الله تعالى، ثم يعمل على منع الناس من أداء شعائر العبادة فيه، لا يمكن إلا أن يحظى عاجلاً أو آجلاً باحتقار الناس وازدراءهم. والآية تتضمن أيضاً نبوءة عن كفار مكة الذين منعوا المسلمين من دخول الكعبة، وقد تحققت النبوءة عند فتح مكة وزوال كل أثر لسلطان المشركين.

وأخيراً، تجدر الإشارة إلى أن الآية الكريمة يجب ألا تُفهم على أن القرآن المجيد يعطي لكل الناس الحق في دخول جميع أماكن العبادة دون أي اعتبار، وإنما يحق دخولها فحسب لأولئك الذين يريدون استخدامها فقط لغرض العبادة، ودون أن تكون هناك أي دوافع أخرى.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾

شرح الكلمات:

ثمَّ: اسم يُشار به إلى المكان البعيد، بخلاف كلمة «هنا» التي تشير إلى المكان القريب (أقرب الموارد).

وَجْهَ اللَّهِ: كما جاء تفسيرها في الآية ١١٣ من نفس السورة فكلمة «وجه» تعني: (١) صفحة الوجه؛ (٢) العناية والاهتمام؛ (٣) نفس الشيء؛ (٤) التوجه؛ (٥) القصد والنية (أقرب الموارد).

التفسير:

تحتوي هذه الآية الكريمة على نبوءة عن مستقبل الإسلام المشرق وتقدمه العظيم. فالله تعالى يبشّر المؤمنين هنا بأنهم لما كانوا هم الذين يدعون إلى الحق، وهم حملة لواء الله تعالى، فإن النجاح حليفهم، والتوفيق نصيبهم حيثما كانوا؛ وأن من خلالهم سوف ينتشر الإسلام في جميع أنحاء العالم، في المشرق كما في المغرب. وقد جاءت هذه النبوءة في زمن كان المسلمون فيه مجرّد حفنة من الرجال، يعانون من جميع أنواع المحن والمشاق، حتى إن المستقبل أمامهم كان يبدو لهم حالاً. غير أن النبوءة تحققت حين تم فتح مكة، وانضوت كل الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، وفي خلال قرن واحد من الزمان صار لواء الإسلام يرفرف عالياً في كل البلاد تقريباً.

من العالم المعروف آنذاك. وتشير أيضاً الكلمات ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ إلى أن الإسلام سوف ينتشر أولاً في الشرق، وبعد أن يأتي النبي الموعود مجيئه في آخر الزمان سوف يبدأ في التغلغل إلى الغرب. وعلى هذا، فليستعد الغرب لقبول الإسلام، فلم يعد الوقت بعيداً لذلك.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ فإنه يلقي الضوء على التقدم الروحاني العظيم الذي بلغه صحابة الرسول ﷺ. لقد كان الله تعالى راضياً عنهم وعن أحوالهم حتى إنه سبحانه قدّر أن يتوّج جميع جهودهم بالنجاح والفلاح. وتتضمن الآية أيضاً أن المؤمنين لا يقومون بأداء أي عمل ما لم يكن الله تعالى راضياً عنه، ولذا فإن جميع جهودهم سوف تحظى بالنجاح.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٧﴾

شرح الكلمات:

قَانِتُونَ: جمع قانت وهو اسم فاعل مشتق من قَنَتَ وتعني: (١) أطاع؛ (٢) تواضع وخضع؛ (٣) أمسك عن الكلام؛ (٤) قام للصلاة أو أطلال القيام في الصلاة (أقرب الموارد).

التفسير:

تحدثت الآية عن النصارى الذين سيلتقي بهم المسلمون في زحفهم العظيم حاملين مشعل الإسلام. فعندما فشل المسيحيون الأوائل في جذب اليهود إلى الانضواء تحت لوائهم، وجّهوا أنظارهم إلى الرومان والإغريق، ولكنهم سرعان ما صاروا أسارى لفلسفاتهم، ونهلوا من أفكارهم وعقائدهم، ثم انتهى بهم الأمر إلى تبني تلك الأفكار، والاعتناق بتلك العقائد. وقد نتج عن ذلك أن بدأ المسيح ﷺ يتخذ ولداً لله

تعالى، وصارت نظرية التثليث أساس العقيدة المسيحية. إن تعبير «ابن الله» الذي جاء في الأدب اليهودي على سبيل المجاز، بما يعني «العبد الحبيب إلى الله تعالى» أو «نبي الله»، صاريؤخذ بمعناه الحرفي (إنجيل لوقا ٣٦: ٢٠؛ إنجيل متى ٩: ٥، ٤٥، ٤٨؛ سفر الخروج ٢٢: ٤؛ سفر غلاطية ٢٦: ٣ وغيرها). لقد نسف الإسلام هذه العقيدة، وقدم في هذه الآية التي نحن بصدها العديد من الدلائل التي تكشف زيفها:

(١) إن كان لله ولد فلا بد أن يخضع لل رغبات الجنسية، ويحتاج إلى زوجة، ويمكن أن ينقسم ويتكاثر، فالولد جزء من جسد الوالد. وأيضاً لا بد أن يخضع للموت، لأن عملية بقاء النوع، التي يتضمنها نسبة الولد إلى الله تعالى، هي من صفات الأجسام الفانية. غير أن الإسلام يرفض جميع هذه الأفكار، لأنه يقرر أن الله تعالى قدوس منزّه عن جميع تلك العيوب، وعن ضعف الاحتياج إلى شيء ما. (٢) أحياناً يحتاج المرء إلى ولد أو إلى من يخلفه لكي يمد سلطانه ويخضع لنفوذه تلك البقاع التي لم تعترف بسلطته. ولكن الله تعالى غني عن هذه الاحتياجات ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما تقول الآية.

(٣) أحياناً يحتاج الملك إلى ولد لكي يساعد أباه في السيطرة على أماكن القلاقل وبسط نفوذ أبيه أو لكي يحافظ على الأماكن البعيدة عن المملكة التي قد تتمرد على السلطة، ولكن الله ﷻ ليس بحاجة إلى ذلك، فكما تقول الآية ﴿كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ﴾. وعلى هذا، ومن أي زاوية نظرنا إلى هذا الموضوع، يتبين أن الله تعالى لا يحتاج للولد، وليس في حاجة إلى معين أو إلى من يساعده في عمله للسيطرة على الكون. وفي الواقع إنها لزندقة وتحقير من شأن الإله العظيم أن يُنسب هذا إليه. وتقدم الآية التالية مزيداً من الشرح.

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٨﴾

شرح الكلمات:

بَدِيعٌ: مشتقة من بدع. يقال بدع الشيء أي صنعه واخترعه لا على مثال، أي لأول مرة ولم يكن هذا الشيء موجوداً من قبل (معجم لين). و«الإبداع» (المصدر من بديع) وهو إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء، إذا استعمل في حق الله تعالى، فهو إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان وليس ذلك إلا لله (مفردات الراغب). وعليه فالكلمة تفيد كلاً من الإنشاء والخلق.

التفسير:

إن هذه الآية الكريمة لا تنقض العقيدة المسيحية التي تنسب الألوهية إلى المسيح عليه السلام فحسب، بل إنها تفنّد بموضوعية ومهارة النظرية الهندوسية التي تقول بأزلية الروح والمادة. فالآية الكريمة تُبين هنا أن من صفات الله تعالى أنه:

- (١) خالق السماوات والأرض، مما يعني أنه لم يكن في حاجة إلى معونة من أولاد ولا ذرية، ولا من أحد لكي يخلق هذا الكون.
- (٢) إنه بديع السماوات والأرض، أي أنه خلق هذا الكون من العدم، دون أن يكون هناك وجود لأي شيء ولا وجود لأي مادة.
- (٣) إنه القوي القدير الذي إذا أراد أن يحقق أمراً، أو شاء أن يخلق شيئاً، فإنه يكون حسب ما قدره سبحانه وتبعاً لمشيئته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الآية لا تعني بالضرورة، كما يفهم أحياناً بطريق الخطأ، أنه حينما يقضي الله تعالى أمراً فإن ذلك الأمر يقع في التو والحال، وإنما تعني الآية أن الله تعالى قوي قدير؛ ولذلك حين يقضي أمراً فلا يمكن أن يقف شيء ما أمام تحقق قضاء الله تعالى. فالآية لا تشير إلى عنصر الزمن، الذي قد يكون قصيراً أو طويلاً، حسب مشيئته سبحانه.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ
تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٩﴾

التفسير:

تشير هذه الآية إلى مطلبين عاريين من كل عقل أو منطق، تقدّم بهما أهل الكتاب من يهود ونصارى.

(١) أن يكلمهم الله تعالى مباشرة وأن يخبرهم أن محمداً ﷺ هو فعلاً رسوله.

(٢) أن يروا آية يختارون هم نوعها وهويتها.

وللرد على المطلب الأول، يبين القرآن المجيد أن الجهال من الناس فقط، الذين ليسوا على دراية بأساليب الله تعالى، هم الذين يتقدمون بمثل هذا المطلب. وقد تقدّم أقوام الأنبياء السابقين كلهم بمثل هذا المطلب، ولم يقبله الله تعالى لسخافته وعدم معقوليته. لذلك فمن الغباء أن يطلبوا من الرسول ﷺ أمراً لم يأت به أنبيأؤهم الذين يؤمنون بهم.

وللرد على المطلب الثاني الذي يطلب آية حسب هواهم، يبين القرآن المجيد أن الله تعالى قد بين بالفعل الآيات التي تكفي لهداية ذوي العقول من الناس. ويمكن لهم، إذا أرادوا، أن ينتفعوا بها، غير أن الشخص العنيد والفاقد المنحرف لا ينفعه شيء. وطلب الآية من الرسول ﷺ لا يعني أبداً أن الآيات لم تظهر على يديه. وفي الواقع إذا كان طلب الآية من نبي، يُعتبر دليلاً على عدم ظهور أي آية من ذلك النبي، لدل هذا على عدم ظهور أي آية من أي نبي على الإطلاق. فكل نبي واجهه قومه بمثل هذا الطلب، وخاصة المسيح ﷺ (راجع إنجيل متى ١٢: ٣٨-٣٩).

ومما يجدر التنويه به هنا هو أنه كلما جاء ذكر طلب معارضي الأنبياء بإظهار آية، فإن الآية التي يعنونها دائماً هي إما أن تكون آية من اختيارهم هم، أو آية في شكل عقاب إلهي، كما يقول تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا ءَامَنْتُ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَزِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٦-٧)؛ وكقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨)؛ راجع أيضاً طه: ١٣٤-١٣٥ والعنكبوت: ٥١.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٢٠﴾

التفسير:

أما بخصوص مطلب نزول آية العقاب الإلهي، فيقول القرآن المجيد إن العقاب سوف يحل حتماً بأولئك الذين يرفضون قبول الرسول ﷺ، لأنه، مثل بقية جميع الأنبياء، كان بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين. وكل من يدرس التاريخ يعلم جيداً كيف تحققت هذه النبوءة، فقد شهد العالم هزيمة ودمار كل من وقف معانداً للرسول الكريم ﷺ بشكل ليس له مثيل في التاريخ، رغم أن أحوال الدنيا والظروف المادية كانت كلها في جانب الكافرين ضد الرسول ﷺ.

وتعتبر كلمات الجزء الأخير من الآية ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ بمنزلة تسرية عن الرسول ﷺ الذي كان بسبب عنايته المفرطة شديد القلق على مصيرهم. وفي مكان آخر يذكر القرآن المجيد أنه يكاد يقتل نفسه حزناً وغماً عليهم لعدم إيمانهم: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٤).

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ
تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ
وَلَئِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ
الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢١﴾

شرح الكلمات:

مِلَّةٌ: مشتقة من ملّ. يقال ملّ الشيء في الجمر: أدخله فيه. و«المِلَّة»: الديانة؛ الشريعة في الدين؛ الطريق الصحيح (معجم لين).

أَهْوَاءٌ: جمع هوى. والفعل هوى يعني سقط أو نزل من علٍ إلى أسفل. ويعني أيضاً الصعود أو الارتفاع، يُقال هوى الرجل الجبل أي صعد وارتفع. الهوى: الرغبة؛ العشق يكون في الخير والشر؛ إرادة النفس وميلانها إلى ما تستلذ؛ الأمنية المنحطة. اتبع هواه: صار تابعاً لميوله الشريرة الفاسدة وانحرف عن الطريق المستقيم (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

رغم أن الكلمات ﴿وَلَئِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تبدو كأنها مَوْجَّهة للرسول ﷺ إلا أنها عامة في تطبيقها، فالمقصود بها هم الأتباع وليس شخص الرسول ﷺ. لقد وُصِفَ ﷺ في القرآن المجيد بأنه أسوة حسنة، وعلى خلق عظيم، وأنه أكمل النبيين (راجع الآية ٣٢ من سورة آل عمران، القلم: ٥، الأحزاب: ٢٢). وعلى ذلك فإنه أسمى ما يكون، وأعلى وأرفع من أن يتبع أهواء اليهود والنصارى فيما يتعلق بالهدي الذي تلقاه مباشرة من الله تعالى. وقد استُخدم هذا الأسلوب في أماكن متفرقة من القرآن المجيد، والسبب في هذا هو التأكيد على أهمية الأمور التي تبدو مَوْجَّهة إليه ﷺ، ولكنها في الحقيقة مَوْجَّهة إلى أتباعه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

فَتَقَعَدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (الإسراء: ٢٣). وهذا الأسلوب ليس وفقاً على القرآن المجيد وحده، وإنما يمكن أن نرى حالات مشابهة لذلك في الكتاب المقدس أيضاً (انظر مثلاً سفر التثنية ١٦: ٢١-٢٢).

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ
أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢٢﴾

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يشير بوضوح إلى المسلمين، وليس إلى اليهود أو النصارى، لأن المسلمين هم الذين كانوا صادقين في إيمانهم بالكتاب العزيز، فكانوا ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، وليس اليهود والنصارى الذين رفضوا الإيمان بالقرآن المجيد، وكذبوه معتبرين أنه حديث مفترى. وقد جاءت الإشارة إلى اليهود والنصارى في الجزء الأخير من الآية، باعتبار أنهم هم الذين كفروا بالكتاب العزيز، وتصفهم الآية بأنهم هم الخاسرون. وتثنى الآية الثناء الجميل على الصحابة الكرام، الذين تصفهم بأنهم هم الذين اتبعوا الهدى الإلهي فآمنوا به حق الإيمان.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنَا فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٣﴾

التفسير:

قبل أن يتعرض القرآن المجيد إلى موضوع انتقال النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، بعد أن امتلأت كأس سيئات اليهود إلى حافتها، وفاضت بذنوبهم

ومعاصيهم، يلفت الله تعالى أنظار اليهود مرة أخرى إلى نعمه وأفضاله التي خصهم بها، مما يتضمن أيضاً تذكيرهم كذلك بفسادهم وشرورهم.

إن النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، والأفضال التي خصهم بها منذ زمن موسى عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام، قد جاء ذكرها باختصار في الآية السابقة، كما جاء أيضاً ذكر مفاسدهم ومعاصيهم. وقد جاءت الإشارة بالذات إلى المعاملة الخسيسة التي تلقاها منهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وعانى منها المسلمون. وأخيراً جاء ذكر الموضوع مختصراً في الآية الحالية تمهيداً لتقديم موضوع جديد، وهو نقل النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل. فبمجيء النبي الأكبر والأعظم صلى الله عليه وسلم انبثق فجر عهد جديد، ولم يعد من حق أولئك الذين كذبوه وعارضوه أن يتمتعوا بأنوار الأفضال الإلهية، التي أشرقت من أفق ظهور الإسلام.

وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ
شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا
شَفَاعَةُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٤﴾

التفسير:

لعله يبدو أن هذه الآية تعالج نفس الموضوع الذي سبق معالجته في الآية ٤٩ من سورة البقرة حيث يقول تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ ولكن عند مقارنة الآيتين يتبين فرق يلفت الأنظار. ففي الآية ٤٩ جاء لفظ «شفاعة» قبل لفظ «عدل»، بينما انعكس هذا الترتيب في الآية الحالية، فجاء لفظ «عدل» قبل لفظ «شفاعة». والسبب في ذلك أن لفظ «عدل» الذي جاء بمعنى «الفدية»، يبين أن من النوازع الطبيعية لدى الإنسان أنه حين يريد إنقاذ نفسه فإنه يميل أولاً إلى اتباع أرخص الوسائل كلفة

وأقلها صعوبة ومشقة. فإن لم تسعفه هذه الوسائل أخذ يبحث عن بدائل أخرى. وبمعنى آخر، فإن الإنسان لن يدفع الفدية لإنقاذ نفسه، إلا إذا أدرك أنه لا سبيل للحصول على حريته إلا بدفعها. وقد جاء ذكر هذا الترتيب الطبيعي في الآية ٤٩ حيث جاء ذكر الشفاعة قبل ذكر العدل، أي الفدية. ولكن بعد هذه الآية، تم إلقاء الضوء على العديد من معاصي اليهود، وخاصة أسلوب الخيانة والعداء الذي عاملوا به الرسول ﷺ، ولذلك لم يعد لهم من أمل في الاعتماد على الشفاعة، وأصبح من الطبيعي أن يتجه فكرهم أولاً إلى موضوع دفع الفدية. ولذلك انعكس الترتيب في هذه الآية عن شبيبتها السابقة. ولشرح موضوع الشفاعة بتفصيل أكبر يمكن الرجوع إلى الآية ٤٩ من سورة البقرة.

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ
إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي
قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾

شرح الكلمات:

ابْتَلَى: مشتقة من بَلَى: خَلَقَ وَرَثَ أي أصبح قديماً بالياً. «بلاه» و«ابتلاه» أي جرّبه واختبره. و«البلاء»: الغم يبلي الجسم؛ الاختبار يكون بالخير والشر (أقرب الموارد). و«الابتلاء» يتضمن أمرين: أحدهما تعرّف حال أحد والوقوف على ما يُجهل من أمره؛ والثاني كشف جودته ورداءته. وإذا نُسب هذا الفعل إلى الله تعالى كقولنا: ابتلى الله تعالى فلاناً، فلا يراد إلا المعنى الثاني، أي أنه أظهر كفاءات خفية في فلان، لأن الله تعالى هو عالم الغيب ولا يحتاج ليطلع على شيء خفي في أحد (مفردات الراغب).

كَلِمَات: جمع كلمة، ولها معانٍ عديدة، مثل: اللفظة؛ ما ينطق به الإنسان مفرداً كان أو مركباً؛ الحكم ويشمل الأوامر والنواهي وهو المعنى المقصود في هذه الآية الكريمة (المفردات).

إِمَام: مشتقة من أَمَّ. يُقال أَمَّ القوم أو أَمَّ بالقوم أي تقدمهم؛ كان لهم إماماً. والفعل «أَمَّ» يعني أيضاً قَصَدَ. و«الإمام»: المؤتم به؛ الذي يُجعل أسوة وقدوة في قوله وأفعاله (معجم لين).

التفسير:

تشير الآية إلى أن الله تعالى اختبر إبراهيم عليه السلام ببعض الأمور، ووجده على طاعة كاملة، ولذا عبّر الله تعالى عن مشيئته بأن يجعله للناس إماماً. وعندئذ راح إبراهيم عليه السلام يعبر عن رغبته في أن ينال الآخرون هذا الفضل العظيم من الله تعالى، فطلب من الله تعالى أن ينعم بهذا الشرف على ذريته أيضاً. وقد أجابه الله تعالى قائلاً إن الظالمين لن ينالوا شيئاً من هذا العهد. وكان هذا يعني أن القادة والمصلحين سوف يُبعثون في ذريته، ولكن هذا الفضل العظيم سوف ينقطع عن العصاة والظالمين.

ويشير القرآن المجيد إلى هذا العهد لكي يذكر اليهود بأن حرمانهم من النبوة، كان يتطابق مع هذا العهد الذي أبرمه سبحانه مع إبراهيم عليه السلام، وكان يحتوي شرطاً واضحاً، وهو أن من يظلم نفسه من بين ذريته بعصيان الله تعالى، فسوف يُحرم من نوال النعمة الموعودة. ولذلك فالآية تخبر اليهود بأنهم قد حُرِّموا من نعمة النبوة بسبب كثرة معاصيهم. وقد جاءت الإشارة باختصار إلى هذا العهد في الكتاب المقدس في سفر التكوين ١٧: ٩-١٤. غير أن القرآن المجيد يذكر هذا العهد بوضوح وتفصيل أفضل.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا
 مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
 وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٦﴾

شرح الكلمات:

مَثَابَةٌ: مشتقة من ثاب وتعني رجع. يُقال ثاب الناس أي اجتمعوا. ثاب المريض: رجعت إليه صحته. المثاب: المكان الذي يتجمع فيه الناس بعد تفرقهم؛ المكان الذي يكتب فيه الثواب، أي ذلك المكان الذي إذا زاره الإنسان أثيب عليه (أقرب الموارد ومفردات الراغب). راجع أيضاً تفسير الآية ١٠٤ من نفس السورة.

مَقَام: مشتقة من قام بمعنى انتصب ضد قعد. مقام: موضع الوقوف (أقرب الموارد). وهنا تعني كلمة «مقام»: الكعبة الشريفة حيث قام إبراهيم عليه السلام عابداً لله تعالى. «مقام إبراهيم»: هو مكان بجوار الكعبة يصلي فيه الحجيج ركعتين بعد الانتهاء من الطواف حول الكعبة.

عَهْدُنَا: مشتقة من عَهِدَ أي وَعَدَ. يُقال عَهِدَ إِلَيْهِ عَهْدًا: أوصاه وشرط إليه. عَهِدَ إِلَىٰ فُلَانٍ: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه (أقرب الموارد).

الطَّائِفِينَ: جمع طائف المشتقة من طاف. طاف حول الشيء أي دار أو لَفَّ حوله (أقرب الموارد).

الْعَاكِفِينَ: جمع عاكف المشتقة من عكف. يُقال عكف في المكان أي لبث في المكان ولزمه لا يريد مغادرته على سبيل التعظيم. ومنه الاعتكاف والেকوف: وهو الاحتباس، وسُمي هكذا لأن الإنسان يحبس نفسه بإرادته لعدة أيام في المسجد من أجل الصلاة والعبادة تقرباً لله تعالى (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

تعني الآية أن الله تعالى قد وعد بأن تكون الكعبة ﴿مَثَابَةً﴾ للناس، أي مكانًا ينال الناس فيه الثواب، ومركزًا يأتون إليه لعبادة الله تعالى. ويمكن للمؤمنين فقط أن يدركوا كيف تحقق الجزء الأول من العهد، أي أن تكون الكعبة مكانًا ينال الناس فيه الثواب، وذلك من المشاعر التي تنتابهم، وتدفعهم دفعًا بشكل لا يستطيعون مقاومته لزيارة ذلك المكان المقدس. أما تحقق الجزء الثاني من الوعد، أي أن يكون البيت مركزًا يشعر الناس فيه بالأمن، فقد أثبتته حقائق التاريخ في الأربعة عشر قرنًا الماضية، والتي شهد بها حتى أعداء الإسلام. والكعبة المشرفة، كما تقول بعض الروايات، وكما يشير إلى ذلك القرآن المجيد نفسه، قد بُنيت في أول الأمر بواسطة آدم عليه السلام، وظلت لبعض الوقت مركزًا للعبادة لذريته. ثم مع مَرَّ الزمان، أخذ الناس يعيشون في مجتمعات منفصلة عن بعضها، واتخذوا مراكز للعبادة خاصة بكل من تلك المجتمعات. ثم أعاد إبراهيم عليه السلام بناء الكعبة، وظلت منذ ذلك الحين مركزًا للعبادة لذريته من فرع إسماعيل عليه السلام. ولكن بمرور الوقت، تحولت لتكون مركزًا لتخزين الأصنام التي بلغ عددها ٣٦٠ صنمًا، على عدد أيام السنة تقريبًا. وبعثة الرسول ﷺ عادت الكعبة المشرفة لتكون مركزًا للعبادة لكل الناس وجميع الأمم، لأن بعثة الرسول الكريم ﷺ صارت للعالم بأسره. وهكذا، فإن الأمم التي كانت قد انفصلت بعضها عن بعض بعد آدم عليه السلام، عادت مرة أخرى إلى الاتحاد عند الكعبة، التي صارت المركز الروحي للإنسانية جمعاء إلى يوم القيامة.

ومرة أخرى صارت الكعبة، ومكة المكرمة التي تحتويها، مركزًا للإسلام والسلام. وصدق تحقق هذه النبوءة أمر فوق جميع الشبهات. إن إمبراطوريات عظيمة قوية قد انهارت، وأراض شاسعة كانت تعج بالناس والحياة منذ فجر التاريخ صارت قفرًا، ولكن سلام مكة لم يتعكر صفوه أبدًا. إن مراكز الأديان الأخرى لم تدع أبدًا نوال مثل هذا السلام، ولم تنل هذا الأمن والعصمة من الأخطار. إن أورشليم، وهادوار، وبيناريس وغيرها، قد تم غزوها جميعًا بواسطة الغزاة الأجانب، وكانت مسرحًا لكثير

من العنف وسفك الدماء، ولكن مكة المكرمة ظلت دائماً مكاناً للأمن والسلام. ولم يجرؤ أي غازٍ أو فاتحٍ أجنبي على دخولها، بل ظلت هذه المدينة المقدسة دائماً وأبداً في أيدي أولئك الذين يعترفون بحرمتها وقديستها.

والأمر الخاص بتطهير بيت الله تعالى، لا يعني تطهير البيت من الخارج أو من الظاهر فقط، ولكن يعني تطهيره أيضاً من رجس عبادة الأصنام. وقد وجه الله تعالى في الأصل هذا الأمر إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولكن الذي نجح في تنفيذه أخيراً كان هو الرسول العظيم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذي أزال ٣٦٠ صنماً من الكعبة، وضعها فيها عباد الأصنام من قريش، وذلك بُعيد أن تم له فتح مكة.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا
وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا
ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٧﴾

شرح الكلمات:

المَصِيرُ: مصير مشتقة من صار أي رجع وتحول وانتقل وانتهى إليه. المصير: المرجع والمعاد أي المكان أو الحالة التي ينتهي ويرجع إليها الإنسان (أقرب الموارد).

التفسير:

حينما دعا إبراهيم عليه السلام ربه بهذا الدعاء، لم يكن هناك من وجود لأي مدينة بجوار الكعبة. لذلك فقد دعا إبراهيم عليه السلام في ذلك المكان القفر المنعزل، أن يجعل الله تبارك وتعالى في هذا المكان بلداً، وأن يكون هذا البلد مكاناً آمناً، ومركزاً للأمن والسلام للناس. وقامت مكة المكرمة استجابة لهذا الدعاء، وظلت مكاناً ومركزاً للأمن

والسلام لألوف السنين. والدعاء يتضمن أيضاً أن «بيت الله» سوف يكون سبباً لتحقيق الأمن والسلام للناس، وكان من المقدّر أن يتم هذا عن طريقين، أولاً: أن أولئك الذين يدخلون في دين الإسلام يظلون في أمن من جميع المهالك، كما يتمتعون بأفضال الله ونعمه عليهم. ثانياً: أن يكون الإسلام هو الوسيلة التي تأتي بالسلام والوئام بين شعوب وأمم العالم جميعاً.

وحينما كان إبراهيم عليه السلام يدعو لسكان مكة، نراه قد حصر دعاءه فيمن آمن منهم بالله واليوم الآخر. والسبب في هذا أنه حين كان يدعو من قبل ذلك أن يبعث الله تعالى أئمة في ذريته، أجاب سبحانه بأنه سوف يبعث أئمة في الصالحين فقط، لأن الظالمين منهم لن ينالوا بركات هذا العهد (انظر الآية ١٢٥). لذلك حين دعا ربه مرة أخرى لأن يرزق أهل مكة من الثمرات، كان أكثر حرصاً، وحصر دعاءه من أجل أولئك الصالحين ممن آمن منهم بالله تعالى واليوم الآخر. وهذا يبين كيف يكون أنبياء الله تعالى شديدي الخضوع لتوجيه الله تعالى، حريصين على طاعته. ولكن يبدو أن حرص إبراهيم عليه السلام قد تعدّى الحد المطلوب، ففي هذه المرة رد الله تعالى قائلاً إنه سيرزق الجميع سواء كانوا صالحين أم لا، وذلك لأنه سبحانه هو الرزاق الكريم للعالمين، وليس للصالحين وحدهم. أما الأشرار والعصاة فسوف ينالون عقابهم على شرورهم وعصيانهم.

وقد حرص إبراهيم عليه السلام على أن يخص الصالحين والأبرار من أهل مكة بأدعيته، لأنه كان يرجو أن تكون مكة مكاناً يقيم فيه فقط الصالحون والأبرار، ولكن الله تعالى كان يعلم أنه حتى هذا البلد المقدس لن يظل نقياً غير ملوث طوال قرون التاريخ الطويلة.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٨﴾

التفسير:

بعد أن ثبت عدم صلاحية اليهود لتلقي أفضل النبوة، كان من الطبيعي أن ينشأ هذا السؤال، وهو: أي أمة من بين الأمم تستحق أن ترث هذا الفضل العظيم من الله تعالى؟ وللإجابة على هذا السؤال جاء هنا ذكر تاريخ بناء الكعبة، الذي اشترك فيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وقد أضيف إلى ذلك تلك الأدعية التي دعا بها كل منهما (انظر الآيات ١٢٨ - ١٣٠) والتي كان من المقدّر في علم الله تعالى أن تؤتي أثمارها. وكانت هذه الأدعية تطلب من الله تبارك وتعالى أن يبارك في ذرية إسماعيل عليه السلام، فيزيد في العدد وينال من رزق الله تعالى، وأن يبعث الله ﷻ في ذريته نبياً عظيماً. وأما موضوع ما إذا كان إبراهيم عليه السلام هو الذي أسس بناء الكعبة المشرفة، أم أنه قد أعاد بناءها فقط، فقد ظل يثير الكثير من الجدل حوله. فالبعض يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة في ذلك المكان، بينما يتبع الآخرون خطوات البناء إلى أيام آدم عليه السلام، ويعتبرون أن إبراهيم عليه السلام قد أعاد بناءها فقط على الأنقاض القديمة التي كانت موجودةً هناك. والقرآن المجيد والأحاديث النبوية الصحيحة تؤيد وجهة النظر الثانية، إذ تبين أنه قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ذلك البناء في ذلك المكان، كانت هناك آثار من بناء قديم. وحتى في هذه الآية الكريمة التي نحن بصددتها تشير الكلمات «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ» إلى حقيقة وجود بناء سابق، ولكنه تهدّم ولم يبق منه سوى آثار الأساس الذي كان البناء القديم يقوم عليه. ويذكر القرآن المجيد أن الكعبة هي أول بيت وضع للناس: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ» (آل عمران: ٩٧). ولما كان الناس يعيشون قبل إبراهيم عليه السلام، وظهر فيهم أيضاً بعض الأنبياء من قبله، يصير من المعقول أن مكاناً ما قد تم إنشاؤه من أجل عبادة الله تعالى. ولما كان القرآن المجيد يصف الكعبة بأنها أول بيت بني لعبادة الله تعالى، فلا بد أنها كانت الأسبق في الوجود.

وبالإضافة، يذكر القرآن المجيد أن إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه بالدعاء التالي، عندما ترك إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر في المكان الذي تركهما فيه، حيث قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ (إبراهيم: ٣٨). ويتضح من هذه الآية الكريمة أن الكعبة كانت موجودة قبل زمن إبراهيم عليه السلام.

كذلك فإن أحاديث النبي ﷺ تؤيد هذا الرأي. عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النَّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتَعْفَى أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسَقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يُلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ أَلَلَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ قَالَتْ إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ اسْتَقْبَلَ بَوَجهِ الْبَيْتِ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾» (البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء).

وبين هذا الحديث الذي ذكره الرسول ﷺ أنه حتى قبل أن يذهب إبراهيم عليه السلام إلى ذلك المكان حيث مكة الآن، كان ذلك المكان يُعد مكاناً مقدساً، وإلا فكيف وجهه وجهه تجاه الكعبة حين كان يدعو بهذا الدعاء، وكيف استخدم في دعائه هذه الكلمات ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾؟ والتاريخ لا يمدنا بأي حقيقة تتعارض مع وجهة النظر هذه، لأن كل ما يمكن استخلاصه من التاريخ يدل على أن الكعبة المشرفة بناء بالغ القدم. وقد اعترف المؤرخون، وحتى بعض النقاد ممن يحملون العداء للإسلام، بأن الكعبة كانت تعتبر مكاناً مقدساً منذ أزمنة سحيقة. ولعله مما يثير الانتباه الإشارة إلى المقتبس التالي: «يتحدث ديو دوراس سيكولاس الصقلي (عام ٦٠ قبل الميلاد) عن المناطق المعروفة الآن باسم الحجاز فيذكر أنها كانت تتمتع بقداسة

خاصة لدى أهل البلاد»، ثم يضيف: «هناك مذبح مقدس مبني هناك من حجارة صلبة وهو قديم قدم الزمان، ويزوره الناس المقيمون حوله من كل مكان» (ترجمة س. م. أولدفاذر، لندن ١٩٣٥، الكتاب الثالث، الفصل ٤٢ الجزء الثاني ص ٢١١-٢١٣). ويقول السير وليم موير: «لا بد أن هذه الكلمات تشير إلى البيت المقدس في مكة، فإننا لا نعلم عن مكان آخر كانت له هذه القدسية العامة في بلاد العرب، والروايات تدل على أن الكعبة قد بُنيت منذ زمان سحيق، وهي مكان يحج إليه الناس من جميع أنحاء بلاد العرب. ولا بد أن يكون هذا الاحترام والإجلال قد بدأ في الأزمنة السحيقة» (موير ص ١٠٣).

ويتساءل بعض النقاد المسيحيين عن مدى صحة دعوى حضور إبراهيم عليه السلام إلى المكان الذي فيه مكة الآن وعن بنائه الكعبة، محتجّين في ذلك بدليل واه، وهو أن الكتاب المقدس قد سكت عن ذلك. وليس من الصعب بطبيعة الحال رؤية سخف هذا الاعتراض. فلا يمكن إنكار أن قصة ترك إبراهيم عليه السلام لزوجته هاجر وابنه إسماعيل في صحراء ما، والنقص في الماء، والعطش الشديد الذي أصاب الصبي، وتدفق مياه البئر بفضل الله تعالى، كلها أمور ذكرها الكتاب المقدس (انظر سفر التكوين ٢١: ١٤-١٩). ولما كان الكتاب المقدس لا يعطي سوى لمحة مختصرة من حياة إسماعيل عليه السلام، وذلك للكرهية التي كان اليهود يضمرونها له، فليس من المأمون أن يتقرر الأمر بالاعتماد على الكتاب المقدس وحده. فمن المعروف أن بني إسرائيل كانوا ينظرون بازدراء إلى بني إسماعيل، لذلك من المحتمل أن يكون بنو إسرائيل قد قاموا بحذف أو إسقاط الكثير من الأمور التي تتعلق بإسماعيل عليه السلام في الكتاب المقدس. وعلى أي حال، ليس لدى النقاد المسيحيين أي دليل تاريخي يمكن أن يستندوا إليه في رفض شهادة القرآن المجيد، خاصة وأن الروايات المحلية المعروفة والمنتشرة على نطاق واسع في بلاد العرب تؤيد هذه الشهادة. وقد شعر بعض الكتاب المسيحيين بأنه لا مفرّ لهم من الاعتراف بصدق شهادة القرآن المجيد والأحاديث الشريفة، أو على الأقل هناك احتمالات قوية تؤيد صدقها. ويقول المستشرق رودويل في

تفسيره للقرآن عند الآية ١٢٨ من سورة البقرة: «يقول فرايتاج إنه ليس هناك من سبب معقول للشك في أن الكعبة قد تأسست كما تذكر هذه الآية، وهو يرى أن شهادة القرآن هذه ليست بغير أساس». ويشير الملازم بورتن في كتابه «الحج» الجزء الثالث ص ٣٣٦ إلى الروايات التي يقول عنها «إنها تتحدث بوضوح وتناسق عن أن إبراهيم قد زار مكة وأنه قد بنى الكعبة»، وهو يرى أن هذه الروايات ليست بغير أساس. ويتحدث كذلك «ترجوم أورشلیم» عن زيارات قام بها «رجل كبير السن إبراهيم إلى خيمة ابنه البدوي إسماعيل بعيداً في الجزيرة العربية» (الأساس اليهودي للإسلام ص ٨٤). ويؤيد التلمود وجهة النظر هذه، أن إبراهيم عليه السلام ذهب مرتين لكي يرى إسماعيل عليه السلام، بعد أن كبر إسماعيل عليه السلام وصار رجلاً ثم تزوج (مختارات مترجمة بواسطة هـ. بولانو، لندن، تاموز ٥٦٣٦، ص ٥١).

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً
مُسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ
أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾

شرح الكلمات:

مَنَاسِكُنَا: جمع منسك المشتقة من نسك أي ترهّد وتعبد وتقشّف. نسك لله: تطوّع بقرية وذبح لوجه الله تعالى. مناسك الحج: عبادات أو شعائر الحج؛ وقيل أيضاً مواضع وأماكن عبادات أو شعائر الحج (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

بعد أن رفعا القواعد من البيت وأتما بناء الكعبة، توجه إبراهيم وابنه عليه السلام إلى الله تبارك وتعالى بهذا الدعاء لكي يجعلهما يعيشان حياة صدق وإخلاص وخضوع لله تعالى، وأن يريهما طرق العبادة التي يقبلها سبحانه، والتي يمكن أن يؤدّيها في الكعبة.

وهذا الدعاء الذي دعا به كل من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يبين لنا أنه حتى أولئك الذين بلغوا درجة عظيمة ومقاماً سامياً عند الله تعالى، لا يزالون في حاجة إلى الدعاء المتواصل لله تعالى لزيادة طهارة نفوسهم وتركيز أعمالهم. فمهما بدت أعمال الإنسان الظاهرة نبيلة صالحة، إلا أنها أحياناً تفتقد روح الصدق، وتؤدي بالإنسان إلى نتائج سيئة وعواقب وخيمة.

وقد استعمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هنا لفظ «مسلم» فقالوا: ﴿وَجَعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، وأيضاً طلبا من الله تعالى أن يجعل من ذريتهما ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً﴾ أي أمة خاضعة لأمر الله تعالى ومسلمة لإرادته. وهذا يشرح آية قرآنية أخرى تقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من أطلق على المؤمنين اسم المسلمين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٩). ولا يعني هذا بالطبع أن إبراهيم عليه السلام قد استعمل كلمة «مسلم» في دعائه كاسم علم، ولكن كصفة، غير أن استخدامه هذا الاسم في دعائه المذكور يشير بالتأكيد إلى أن أمة ستأتي من ذريته لا تحمل فقط هذا الاسم، وإنما سوف تتصف أيضاً بروح الإسلام، أي الخضوع لإرادة الله تعالى وأوامره.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٠﴾

شرح الكلمات:

آيات: جمع آية ولها معان عديدة: عين الشيء وشخصه؛ العلامة الظاهرة للشيء فمثلاً كلمات الكتاب آياته لأنها تدل على الموضوع وبالجملية فكل شيء ظاهري يدل على شيء خفي فهو آية؛ العبرة؛ المعجزة. كذلك من معاني كلمة «آية»: الجملة؛ الجزء من

الكلام؛ كل كلام ينتهي بفاصل لفظي؛ الجملة من القرآن الكريم (أقرب الموارد ومعجم لين).

الكتاب: لفظ الكتاب يستخدم على الأكثر للدلالة على الشيء المكتوب؛ أو الحكم المفروض (أقرب الموارد). انظر أيضاً الآية ٥٤ من نفس السورة.

الحكمة: مشتقة من حكم. يُقال حكمه أي منعه عن الفساد وعما يريد. حكم بالأمر: قضى وفصل في الأمر. حَكَمَ: صار حكيماً (أقرب الموارد). الحكمة: ما يمنع من الجهل؛ العلم؛ صواب الأمر وسداده؛ الحلم؛ وضع الشيء في موضعه (مفردات الراغب ومعجم لين).

يُزَكِّيهِمْ: مشتقة من زَكَّى المشتقة من زكا أي زاد ونمّا؛ أو طهر. زكّاه: طهره؛ زاده وأنماه. التزكية: الإنماء والتطهير (أقرب الموارد).

العزیز: مشتقة من عزّ: صار عزيزاً؛ قويّ؛ عَظُمَ أو ارتفع شأنه؛ اشتد وصلب. عزيز: عظيم وقوي أو عالي الشأن؛ المنيع. العزيز: من أسماء الله الحسنى ويعني المنيع الذي لا يُنال ولا يُغالب ولا يُعجزه شيء ولا مثل له (معجم لين). انظر أيضاً الآية ٢٠٧ من نفس السورة والآية ٥٥ من سورة المائدة.

الحكيم: مشتقة من نفس المصدر الذي اشتقت منه كلمة «حكمة» (سبق تفسيرها). حكيم: صاحب حكمة أو علم أو معرفة؛ عاقل؛ راجح؛ فيلسوف؛ طيب؛ منصف. الحكيم: من أسماء الله الحسنى ويعني الجامع لكل الحكمة (معجم لين). إذا استخدمت في حق القرآن الكريم يكون معناها الكتاب المملوء حكمةً والمبرأ من كل عيب أو نقص وليس فيه أي تناقض ولا يشوبه أي خلل؛ أو هو الكتاب الذي يفصل بالحق في الاختلافات الدينية.

التفسير:

هذه الآية تُعتبر واحدة من أهم الآيات في السورة، فهي تلفت النظر إلى دعاء إبراهيم عليه السلام عندما ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليهما السلام ليعيشا وحدهما في وادي مكة المقفر المجذب. ويختص هذا الدعاء بأن يبعث الله تعالى في أهل مكة نبياً تتوفر فيه أربعة أمور:

(١) أن يتلو على الناس آيات ربهم بحيث تنفذ هذه الآيات إلى عقولهم.

(٢) أن يعلمهم شريعة الله تعالى.

(٣) أن يعلمهم الحكمة من التعاليم الإلهية، لأنه ما لم يعلم الإنسان الحكمة التي وراء الأمر الإلهي، فإنه لا يدرك أهمية تنفيذ ذلك الأمر الإلهي، وإنما يشعر بأنه حمل ثقل عليه، كما كان الحال مع المسيحيين الذين لم يستطيعوا فهم الحكمة من شريعة موسى عليه السلام فراحوا يعتبرونها لعنة (انظر سفر رومية ٤: ١٥؛ غلاطية ٣: ١٣).

(٤) أن يزكي نفوس الناس ويفتح أمامهم سبل التقدم. (انظر أيضاً الآية ١٥٢ من سورة البقرة).

إن ذلك الدعاء الذي انبثق من أعماق قلب إبراهيم عليه السلام قد تحقق في شخص الرسول ﷺ، وإن اجتماع العناصر الأربعة لهذه النبوة في شخص الرسول ﷺ بهذا الشكل الرائع، لهو حقيقة من حقائق التاريخ التي اعترف بها حتى أشد النقاد عداوة. وقد اتفق الجميع على أن رسول الإسلام ﷺ كان «أكثر الأنبياء نجاحاً».

وحقيقة أن إبراهيم عليه السلام لم يطلب في دعائه أن يبعث الله تعالى عدة أنبياء، وإنما اكتفى بطلب بعثة نبي واحد فقط، تبين أنه عندما توجه إلى الله تعالى بهذا الدعاء كان يقصد طلب بعث نبي عظيم، نبي رئيس يفوق الجميع في مقامه وعظمته. وقد أشار الرسول ﷺ إلى أن دعاء إبراهيم عليه السلام هذا قد تحقق في شخصه، فقد روي عنه أنه قال: «أنا دعوة إبراهيم» (جرير وابن عساكر).

وكما سبق ذكره في مقدمة هذه السورة، فإن الآية التي نحن بصددنا عبارة عن ملخص للسورة بأكملها، وهي لا تُعتبر شرحاً واسعاً لموضوع هذه الآية فحسب، وإنما تتناول السورة الأمور الأربعة بنفس الترتيب المذكور في هذه الآية، أي أنها تذكر الآيات، وبعد ذلك يأتي الكتاب أي الشريعة، ثم الحكمة من قوانين الله تعالى، وفي النهاية يأتي ذكر التزكية وفتح مجالات التقدم.

ولعله من الجدير بالذكر هنا أن القرآن المجيد قد ذكر دعاءين مختلفين لإبراهيم عليه السلام، أحدهما يختص بذرية إسحاق عليه السلام، والآخر يختص بذرية إسماعيل عليه السلام. وقد جاء ذكر الدعاء الأول في الآية ١٢٥ من سورة البقرة، وجاء الدعاء الثاني في الآية التي نحن بصددنا الآن. وقد دعا إبراهيم عليه السلام في الدعاء الأول أن يبعث الله تعالى أئمة، ولكن لم يذكر شيئاً عن أعمال أو مهام أولئك الأئمة، ولا عن مقامهم ودرجاتهم، وإنما اقتصر الأمر على كونهم أئمة يتبع بعضهم بعضاً لإصلاح بني إسرائيل. أما حين كان يدعو لذرية إسماعيل عليه السلام، فقد سأل ربه أن يبعث فيهم نبياً ذا صفات معينة، وله مهمة عظيمة. وأيضاً حين استجاب الله تعالى لدعاء إبراهيم عليه السلام الأول، لم يذكر أحداً من أولئك الأئمة الذين سوف يتم بعثهم، وإنما ترك أمر ظهورهم يُفهم عن طريق الاستنباط، وأشار بشكل بارز إلى حقيقة أنه بالرغم من ظهور أولئك الأئمة، فإن بني إسرائيل سوف ينتهي بهم الأمر إلى الوقوع في الضلال وارتكاب المعاصي. وعلى النقيض من هذا لم يذكر الله تعالى أيّاً من ذلك فيما يختص بذرية إسماعيل عليه السلام. وفي هذا إشارة ضمنية إلى أن أيام مجدهم وعزتهم سوف تستمر بعد بعثة ذلك النبي العظيم ﷺ إلى يوم القيامة. وهذا بلا شك كان وصفاً رائعاً يصوّر بصدق الفرعين اللذين انبثقت عنهما ذرية إبراهيم عليه السلام.

وبذكر الدعاء الإبراهيمي في الآيات ١٢٧ إلى ١٣٠، يشير القرآن المجيد إلى أن إبراهيم عليه السلام لم يدعُ فقط لذرية إسحاق عليه السلام، وإنما دعا لذرية إسماعيل عليه السلام أيضاً، الذي كان ابنه البكر. ولما فقدت ذرية إسحاق عليه السلام نعمة النبوة بسبب معاصيهم ومفاسدهم، فإن بقية ذرية إبراهيم عليه السلام هم نسل إسماعيل عليه السلام، وعلى هذا كان من المحتم أن يظهر فيهم

النبي الموعود. ومن أجل بيان أن الرسول المنتظر سوف يظهر في بني إسماعيل، يذكر القرآن المجيد بناء الكعبة بواسطة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، كما يذكر الدعاء الذي دعا به إبراهيم عليه السلام من أجل ابنه البكر.

ويقدم النقاد المسيحيون اعتراضين على هذه النتيجة الطبيعية المنطقية: أولاً: إن الكتاب المقدس لم يذكر أن الله تعالى قد وعد إبراهيم عليه السلام بشيء فيما يختص بذرية إسماعيل عليه السلام. ثانياً: وحتى لو ثبت أن الله تعالى قد وعد إبراهيم عليه السلام بهذا الوعد، فليس هناك ما يدل على أن رسول الإسلام ﷺ قد جاء من سلالة إسماعيل عليه السلام.

أما بخصوص الاعتراض الأول، فيجب أن نضع في الاعتبار أنه حتى ولو لم يذكر الكتاب المقدس أي نبوءات عن إسماعيل عليه السلام، فإن غياب مثل هذه النبوءات يجب ألا يؤخذ على أنه شهادة حاسمة على أن هذه النبوءات لم تحدث أصلاً. فلا يخفى على أحد أن سارة، كما جاء في الكتاب المقدس، كانت تكره إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر، وقد توارث ذريتها من بني إسرائيل هذه الكراهية لذرية إسماعيل عليه السلام (انظر سفر التكوين ١٦: ١٢). وفي هذه الظروف يكون من العبث البحث في الكتاب المقدس عن نبوءة تبين عظمة شأن إسماعيل عليه السلام، وما هو محبوب لنسله من فضل الله تعالى في رحم المستقبل، خاصة وأن الكتاب المقدس قد ظل لزمناً طويلاً خاضعاً لتدخل الأيدي البشرية من بني إسرائيل. وبالإضافة، إذا كان يمكن قبول دليل الكتاب المقدس فيما يتعلق بالنبوءات الخاصة بإسحاق عليه السلام، فلماذا لا يمكن قبول الدليل القرآني فيما يتعلق بذرية إسماعيل عليه السلام؟ ولكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن الكتاب المقدس يحتوي بالفعل على بعض النبوءات التي تختص بمستقبل ذرية إسماعيل عليه السلام، كما توجد فيه أيضاً نبوءات عن ذرية إسحاق عليه السلام، وفيما يلي بعض هذه النبوءات:

(١) «وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن منكم

كل ذكر» (التكوين ١٧: ٩-١٠). وقد تم هذا العهد مع إبراهيم عليه السلام بعد مولد إسماعيل عليه السلام وقبل مولد إسحاق عليه السلام، مما يبين أنه ينطبق على إسماعيل عليه السلام وذريته.

(٢) «فقال لها ملاك الرب (أي لهاجر) ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب لأكثرنَّ نسلك فلا يُعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبل فتلدين ابناً وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنساناً وحشياً (يبدو أن التعبير في الأصل كان «إنساناً عربياً» أو «إنساناً بدوياً» وقد تُرجم هنا ليكون «إنساناً وحشياً»)، يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه وأمام إخوته يسكن». أي رغم أن الجميع سيكون ضده ويغار منه فإنه سينال الفوز والنجاح رغم ذلك.

(٣) وهناك المزيد مما يدل على أن العهد الذي أبرمه الله تعالى بينه وبين إبراهيم عليه السلام وذريته من بعده، والذي جاء في سفر التكوين ١٧: ٦-٨، كان يشمل إسماعيل عليه السلام وذريته. إذ يقول الكتاب المقدس «وأثرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم». والآن، ألم تستمر أرض كنعان لمدة ١٣٠٠ سنة في أيدي بني إسماعيل، فإن لم يكن العرب المسلمون من نسل إبراهيم عليه السلام، فلماذا استمرت أرض كنعان في أيديهم طوال هذه المدة.

(٤) «وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله ... وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمه وأكثره كثيراً جداً اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة». ويمكن ملاحظة أن الوعود التي قطعت لإسماعيل عليه السلام تشابه تلك التي قطعت لإسحاق عليه السلام؛ لا بل إنها كانت أعظم في العدد. إذ يقول الله تعالى بالنسبة لإسماعيل عليه السلام: (أ) ها أنا أباركه؛ (ب) وأثمه؛ (ج) وأكثره كثيراً جداً؛ (د) اثني عشر رئيساً يلد؛ (هـ) وأجعله أمة كبيرة.

(٥) ومما يدل كذلك على أن العهد الذي أبرمه الله تعالى مع إبراهيم ﷺ كان يشمل إسماعيل ﷺ أيضاً، حقيقة أن الله تعالى جعل الختان علامة على عهده مع إبراهيم ﷺ ونسله من بعده، وقد استمر ذلك الختان في ذرية إسماعيل ﷺ. ورغم أن الإسلام قد أعاد فرض الختان على المسلمين، إلا أن الختان كان رائجاً وشائعاً بين العرب، مما يدل على أنهم كانوا من ذرية إبراهيم ﷺ، وبالتالي فإن عهد الله تعالى مع إبراهيم ﷺ كان يشملهم، ولذا استمرت فيهم عادة الختان التي ترمز لهذا العهد.

وقد حاول الكتاب المسيحيين أن يخرجوا إسماعيل ﷺ وذريته من عهد الله تعالى مع إبراهيم ﷺ، وذلك بالاستدلال أحياناً بحجة أن ذرية الجارية (أي هاجر) لا يمكن أن يُعتبروا من نسل إبراهيم ﷺ. غير أن هذه الحجة واهية ولا أساس لها، وذلك حتى ولو افترضنا صحة أن هاجر أم إسماعيل كانت جارية، فقد جاء ذكر إسماعيل ﷺ بوضوح بأنه من نسل إبراهيم ﷺ، إذ يقول الكتاب المقدس: «وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك» (التكوين ٢١: ١٣).

إن هذه الفقرات المقتبسة عالياً من الكتاب المقدس تبين:

- (١) أن إسماعيل ﷺ قد وُلد حسب الوعد الذي تلقاه إبراهيم ﷺ قبل مولده.
- (٢) أن الله تعالى بارك إسماعيل ﷺ وأمه هاجر.
- (٣) أن الله تعالى وعد بأن يثمر إسماعيل ﷺ وأمه ويكثرهما كثيراً جداً.
- (٤) أن الله تعالى كان مع إسماعيل ﷺ.
- (٥) أن العهد الذي أبرمه الله تعالى مع إبراهيم ﷺ ومع نسله عن ختان كل طفل ذكر من ذريته قد شمل أيضاً إسماعيل ﷺ وذريته.

وفي واقع الأمر، إن الوعد الذي قطعه الله تعالى مع إسماعيل ﷺ، لا يختلف كثيراً عن الوعد الذي قطعه مع إسحاق ﷺ، فكلاهما سوف ينال البركة، وكلاهما سوف يكون مثمرًا، وذرية كل منهما ستكثر كثيراً جداً، وكلاهما سيكون أمة عظيمة، كما

أن كلاهما سينال الملك والسلطان. ولما كانت طبيعة الوعد لكلا الأخوين لا تختلف في مجملها بعضها عن بعض، فلا بد من الاعتراف بأن الخير الذي ناله أبناء إسحاق يجب أن يكون هو أيضاً الذي ناله أبناء إسماعيل. وإنه من غير الصحيح الظن بأن ما جاء في سفر التكوين ٢١:١٧ من أن الله تعالى سيقم عهده مع إسحاق عليه السلام، أن ذلك يعني أن الله تعالى سوف يبعث الأنبياء في ذريته فقط، لأن الله تعالى قطع عهداً مماثلاً مع إبراهيم عليه السلام قبل أن يولد إسحاق عليه السلام، ومن الواضح أن هذا العهد يشمل إسماعيل عليه السلام، وهذا العهد قد ذكره الكتاب المقدس في سفر التكوين ١٧:١٠-١١، وحسب هذا العهد تم ختان إسماعيل عليه السلام عندما كان عمره ١٣ سنة، ومنذ ذلك الحين صار الختان شعيرة دينية بين ذرية إسماعيل عليه السلام. وهذا يدل، بما لا يدع مجالاً للشك، على أن العهد المذكور عاليه يشمل ذرية إسماعيل عليه السلام كما كان يشمل ذرية إسحاق عليه السلام. وقد اعترف بهذا بعض الكتاب المسيحيين البارزين (The Scofield Reference Bible p. 25).

هذا عن الوعود الشفهية، والآن فلنرى من الناحية العملية كيف عامل الله تعالى أبناء إسماعيل عليه السلام، إذ نقرأ في سفر التكوين ٢١: ١٤-٢٠ «فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واطعاً إياهما على كتفيها والولد وصرفها، فمضت وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار. ومضت وجلست مقابله بعيداً وبكت. فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها ما لك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احمل الغلام وشدي يدك لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس».

وبين هذا أن الله تعالى أنقذ إسماعيل عليه السلام بشكل معجز، وأوجد من أجله بئراً من الماء. والآن، على أولئك المسيحيين أن يبينوا ما هي المعجزة التي فعلها الله تعالى من أجل إسحاق عليه السلام حتى يمكن أن يقارنوها بما فعله سبحانه من أجل إسماعيل عليه السلام. ونجد

أيضاً في المقتبس المذكور عاليه: «وكان الله مع الغلام»، مما يعني أن إسماعيل عليه السلام كان ينمو تحت العناية الخاصة من الله تعالى.

وفي المقتبس التالي ما يقدم دليلاً آخر على حقيقة أن إسماعيل عليه السلام كان يُعتبر من ذرية إبراهيم عليه السلام على قدم المساواة مع إسحاق عليه السلام، حيث نقرأ في سفر التكوين ٦:٢٥ أنه لما طعن إبراهيم عليه السلام في السن وشارف على النهاية، صرف عنه أبناء الجواري إلى أرض المشرق. ثم يقول الكتاب المقدس: «وهذه أيام سني حياة إبراهيم التي عاشها مئة وخمس وسبعون سنة. وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيخة صالحة شيخاً وشبعان أياماً وانضم إلى قومه. ودفنه إسحاق وإسماعيل ابناه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون» (التكوين ٢٥:٧-٩). والآن، إذا كان إسماعيل عليه السلام يُعد أيضاً من أبناء الجواري، كان لا بد أن يُعامل كبقية أبناء الجواري، ولكن هذا لم يحدث: لأنه عندما مات إبراهيم عليه السلام، لم يكن أبناء الجواري موجودين بعد أن صرفهم إبراهيم عليه السلام إلى أرض المشرق، ولم يكن موجوداً سوى إسماعيل وإسحاق عليه السلام، وكلاهما اشترك في مراسم دفن أبيهما. وهذا يدل على أن إسماعيل عليه السلام لم يكن يُعتبر من أبناء الجواري، بل كان يُعتبر مماثلاً لإسحاق عليه السلام، وكان يُعامل على قدم المساواة معه.

ولرد على الاعتراض الثاني والذي هو: حتى ولو كان من الممكن اعتبار أن العهد الذي أبرمه الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام يتضمن ذرية إسماعيل عليه السلام، فإنه لا بد من إثبات أن الرسول ﷺ هو من ذرية إسماعيل عليه السلام. ولهذا يجدر بنا أن نذكر الأمور التالية:

(١) إن أفضل وسيلة لمعرفة أصل جنس من الأجناس هي الروايات المتوارثة لدى أبناء ذلك الجنس نفسه. وكما نعلم جيداً، فإن قريش، القبيلة التي ينتمي إليها الرسول ﷺ، كانت تؤمن وتعلن دائماً أنها من نسل إسماعيل عليه السلام، وأن هذا الأمر كان معروفاً بين جميع سكان بلاد العرب.

(٢) لو كان إعلان قريش، والقبائل الأخرى التي تعلن هي الأخرى أنها من سلالة إسماعيل عليه السلام، لم يكن صحيحاً، لاعتضت على ذلك الادعاء جميع القبائل التي

هي من سلالة إسماعيل عليه السلام، ولكن لم يحدث أن اعترضت أي قبيلة من القبائل الأخرى على دعوى قریش.

(٣) في سفر التكوين ٢٠:١٧ وعد الله تعالى أن يبارك إسماعيل عليه السلام، وأن يكثر سلالاته، وأن يجعله أمة عظيمة، وأن يجعله أبا لاثني عشر رئيساً. فإذا لم تكن القبائل التي تعيش في بلاد العرب من سلالاته، فأين هي هذه الأمة الموعودة؟ إن قبائل بني إسماعيل العربية هي وحدها صاحبة الحق في بلاد العرب.

(٤) حسب ما هو مذكور في سفر التكوين ٢١:٨-١٤، كان على هاجر أن تغادر منزل إبراهيم عليه السلام بسبب غيرة سارة، فإن لم تذهب إلى الحجاز فأين يعيش نسلها، وأين كان المكان الذي استقرت فيه؟

(٥) يقول الكتاب المقدس إن هاجر بعد نفيتها استقرت في برية فاران (التكوين ٢١:٢١). وقد حاول الكتاب المسيحيون إثبات أن برية فاران هي وادي فيران بجوار جبل سربال في شبه جزيرة سيناء. ولكن الإنجليزي العظيم شارح التوراة الدكتور S.R. Driver الذي كرس حياته لدراسة الكتاب المقدس، اضطر إلى الاعتراف بقوله: «إن مكان فاران الذي سُميت البرية باسمه غير معروف» (التثنية ص ٤). وعلى النقيض من هذا، نجد أن الجغرافيين العرب جميعاً متفقون على أن فاران اسم لتلال الحجاز (معجم البلدان).

(٦) يخبرنا الكتاب المقدس أن ذرية إسماعيل عليه السلام قد «سكنوا من حويلة إلى شور» (التكوين ١٨:٢٥). ويطلق اسم «من حويلة إلى شور» على الجزء المقابل لمصر من الجزيرة العربية (دائرة معارف الكتاب المقدس، Bib. Cyc. by J.Eadie (London 1862

(٧) يصف الكتاب المقدس إسماعيل عليه السلام بأنه «رجل وحشي» (تكوين ١٦:١٢)، وكلمة أعراي، أي «ساكن الصحراء» تعطي نفس المفهوم في اللغة العبرية.

(٨) وحتى بولس الرسول اعترف بعلاقة هاجر بالجزيرة العربية (غلاطية ٤:٢٥).

(٩) إن قيثار هو أحد أبناء إسماعيل عليه السلام، ومن المعترف به أن سلالة قد سكنت

في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية (Bib. Cyc. London).

(١٠) يقول البروفيسور C.C. Torrey «إن العرب هم سلالة إسماعيل حسب

الروايات العبرية، فالرؤساء الإثنا عشر المذكورون في (التكوين ١٧: ٢) والذين

جاء ذكرهم في (التكوين ٢٥: ١٣)، يمثلون القبائل العربية أو المقاطعات العربية؛

ويلاحظ على وجه الخصوص اسم قيثار ودومة (دومة الجندل) وتيماء. إن هذه

الأمة العظيمة هي أصل بلاد العرب» (الأساس اليهودي للإسلام ص ٨٣).

(١١) كذلك فإن العلماء الذين وضعوا دائرة معارف أدب الكتاب المقدس (نيويورك

ص ٦٨٥ عام ١٨٧٧) اعترفوا بما يلي: «إن العرب من ناحية سماتهم الطبيعية،

واللغة، والتقاليد الوطنية، وشهادة الكتاب المقدس هم في حقيقة الأمر سلالة

إسماعيل».

(١٢) وأخيراً هناك رأي نرساي، وهو كان سورياً عاش قبل مائة عام من مولد

الرسول ﷺ. وقد ذكر الدكتور مينجانا ما قاله نرساي: «إن الغارة التي شنّها

أبناء هاجر كانت أشد قسوة من المجاعة، وكانت الضربة التي وجهوها أسوأ من

المرض، وكان الجرح الذي تلقاه أبناء إبراهيم مثل سم الثعبان، وربما يكون هناك

ترياق لسم العقارب والثعابين، ولكن ليس لهؤلاء (يقصد أبناء هاجر)، وعلينا

دائماً أن نلقي باللوم على الرغبات البشعة لأبناء هاجر، وخاصة على أهل قبيلة

قريش الذين هم كالحيوانات».

Leaves from the Ancient Qur'ans, edited by Rev. A. Mingana D.D.)

(Intro xiii)

وفي مواجهة هذه الأدلة الدامغة، ينهار على الأرض كل من الاعتراضين المذكورين،

وهما أولاً: إن العهد الذي أبرمه الله تعالى مع إبراهيم عليه السلام لم يشمل إسماعيل عليه السلام؛

وثانياً: إن إسماعيل عليه السلام لم يستقر في الجزيرة العربية أو إن رسول الإسلام ﷺ ليس

من نسل إسماعيل عليه السلام.

وقبل أن تنتقل إلى الآية التالية يجدر بنا أن نذكر باختصار بعض الأمور عن السيدة هاجر أم إسماعيل عليها السلام. إذ يقول C.J. Ellicott, Lord Bishop of Gloucester في شرحه للكتاب المقدس إن «هاجر لم تكن سُريّة من سراري إبراهيم، ولكنها كانت زوجته» (الجزء الأول ص ٦٩). ويخبرنا Targums of Onkelos and Jonathan ben Uzziel أن «سارة أخذت هاجر ومنحتها حريتها ثم أعطتها لزوجها كزوجة» (Translation by J.W. Etheridge, London 1862, p. 205) لا يعني أنها كانت مولودة جارية. فإن سير ليونارد وولي يقول إنها كانت «إنسانة متحضرة نشأت في المركز الثاني للحضارة في العالم القديم» (Abraham, London 1936, p.144) وتقول وثيقة أخرى: «حسب الميديرش، لقد أعطى والد هاجر، الذي كان فرعوناً لمصر، ابنته إلى إبراهيم قائلاً: إنه من الخير لابنتي أن تكون جارية في بيت إبراهيم عن أن تكون سيدة في أي بيت آخر».

(Translation of the Targums by J.W. Etheridge, note 8 on page 204)

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ
نَفْسَهُ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ
لِمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣١﴾

شرح الكلمات:

يَرْغَبُ: مشتقة من رَغِبَ. رَغِبَ في: أراد به بالحرص عليه وأحبه. أمّا رَغِبَ عنه أي أعرض عنه ولم يردّه وزهد فيه وتركه (أقرب الموارد).

سَفِهَ نَفْسَهُ: هناك ثلاثة صيغ لكلمة سفه: (١) سَفِهَ، (٢) سَفَّهَ، (٣) سَفَّهَ. وكل منها له معنى مختلف. والصيغة الأولى هي التي استخدمها الله تعالى في الآية التي نحن بصددّها، في قول الله تعالى: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي استمهنها وأذلّها واستخفّ بها؛

كان عديم الحلم؛ تصرف بجهل؛ كان رديء الخلق؛ أهلك نفسه (أقرب الموارد ولسان العرب ومعجم لين).

اصْطَفَيْنَاهُ: مشتقة من صفا أي صار نقيًا خالصًا، نقيض كدر. أصفاه بكذا أي أثره به واختصّه. اصطفاه: أخذه صفوة واختاره دون غيره (أقرب الموارد).

التفسير:

تلقت الآية نظر اليهود والنصارى إلى أنه لما ثبت أن رسولاً سوف يظهر من ذرية إسماعيل عليه السلام بناء على دعاء إبراهيم عليه السلام، وأن هذا الرسول قد ظهر بالفعل، فقد صار لزماً عليهم أن يتفكروا في دعواه، وألا يبادروا بتكذيب دعاء إبراهيم عليه السلام، ويتصرفوا بما يتناقض مع دينهم نفسه. وتؤكد الآية الكريمة حقيقة أن من يرغب عن سنة إبراهيم عليه السلام من بين أهل الكتاب، فإنه يخون ذكاه ويهلك نفسه. إن اتباع ملة إبراهيم عليه السلام يؤدي إلى النجاة، بينما البعد عنها يؤدي إلى الضلال والهلاك.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾

شرح الكلمات:

أَسْلِمَ: من أسلم أي انقاد؛ تدبّن بدين الإسلام؛ سلّم أمره لله. لمزيد من شرح الكلمة راجع «شرح الكلمات» في الآية ١١٣ من نفس السورة.

التفسير:

تخبر الآية اليهود أن عظمة أبيهم إبراهيم عليه السلام هي في أنه كان دائماً على استعداد لأن يخضع تماماً لإرادة الله تعالى، ويتوكّل عليه توكلًا كاملاً. فإن كانوا يريدون أن ينالوا

عِظَمَةُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَعَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنْ يَخْضَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ يَطِيعُوا أَوَامِرَهُ، وَأَنْ يَقْبَلُوا رَسُولَهُ ﷺ.

وَالْآيَةُ تَصِفُ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَفًا جَمِيلًا، فَحِينَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْخُضُوعِ لِأَمْرِهِ خَضَعَ لَهُ عَلَى الْفَوْرِ وَقَالَ: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وَتَشِيرُ إِجَابَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ إِلَى أَمْرَيْنِ يُمْكِنُ اسْتِنْبَاطُهُمَا:

(١) أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقُلْ «سَوْفَ أَسْلَمُ» أَوْ حَتَّى «إِنِّي أَسْلَمُ» بَلْ قَالَ: ﴿أَسْلَمْتُ﴾، مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُ كَانَ يَتَلَهَّفُ لَطَاعَةِ رَبِّهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْرَقْ وَقْتًا فِي الْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى، كَمَا لَوْ أَنَّ فِعْلَ الْخُضُوعِ قَدْ تَمَّ وَحْدَهُ فَعَلًّا.

(٢) أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقُلْ فَقَطْ: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ بَلْ أَضَافَ قَوْلَهُ: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ خُضُوعَهُ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ أَى دَوَافِعِ خَفِيَّةٍ، وَإِنَّمَا بِسَبَبِ حَقِيقَةِ أَنَّ «الْكَائِنَ» الَّذِي يَخْضَعُ لَهُ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَمَالِكُ الْكَوْنِ، وَلِذَا فَإِنَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْخُضُوعَ لَهُ.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ
اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

شرح الكلمات:

وَصَّى: وصى فلانًا بكذا: عَهِدَ إِلَيْهِ. وصى عليه بالصلاة: أمره بالصلاة. وصى له بماله: جعله له ؛ ملكه إياه بعد موته (أقرب الموارد).

التفسير:

لم يُخضع إبراهيم عليه السلام نفسه لله تعالى فقط، وإنما كان شديد الحرص على تنبيه أبنائه كذلك لكي يضعوا في نفوسهم روح الخضوع لله تعالى، وأن يعيشوا حياة تتميز بالإذعان لإرادته سبحانه. وقد أضيف ذكر يعقوب عليه السلام (حفيد إبراهيم عليه السلام) وهو إسرائيل، وذلك لبيان أنه لما كان يعقوب عليه السلام قد أوصى أولاده بوصية مشابهة، يكون لزماً على اليهود أن يخضعوا لإرادة الله تعالى، وعليهم أن يقبلوا الرسول الذي جاء بمهمة خاصة وهي «الإسلام»، أي الخضوع لإرادة الله تعالى.

وتبين كلمات الآية ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ بشكل رائع أن أحداً لا يعلم موعد وفاته، ولذلك على المرء دائماً أن يحيا حياة الخضوع لإرادة الله تعالى، حتى إذا جاء الموت لا يجد الإنسان إلّا في حالة خضوع لله تعالى. ويمكن أن تعني الكلمات أيضاً أن المؤمن الحقيقي يجب أن يكون في حالة خضوع كامل لإرادة الله تعالى، وأن يحرص دائماً على نوال رضاه، وذلك حتى يقدر سبحانه بخالص فضله العميم أن لا يأتيه الموت إلّا وهو في حالة خضوع تام لإرادة الله تعالى.

إن هذه الآية، ومعها الآية السابقة، تبين بقوة أهمية أن الإسلام يعني بالفعل الطاعة المطلقة والخضوع التام لإرادة الله تعالى. فالمسلم الحقيقي هو الذي يدعن تماماً لإرادة الله، وعلى هذا فإن كل دين، جاء قبل الإسلام، وحرص على خلق روح الخضوع لله تعالى، يمكن أن يطلق عليه من منطلق هذا المعنى للكلمة، اسم «الإسلام»، لأنه قبل مجيء الدين الذي دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أتباع الإسلام يعني الخضوع لإرادة الله تعالى وطاعته في ذلك الوقت، أو بمعنى آخر، طاعة الوحي الذي كان يتنزل من لدن الله تعالى في ذلك الوقت. إن الفرق بين الدين الذي أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم وبين تلك الأديان الصادقة التي سبقتة، رغم أنها «إسلام» في جوهرها، لأن أتباعها يخضعون لإرادة الله تعالى، إلّا أن اسم «الإسلام» لم يُطلق على أي منها. والسبب في ذلك أن تلك الأديان لم تكن دائماً الكمال، وكان من المقدّر لها أن تُستبدل بدين آخر

يأتي بعدها. وعلى هذا، لو كانت كل هذه الأديان قد سُمّيت باسم «الإسلام»، لكان هذا سبباً في خلق حالة من الفوضى والتشويش. ولذلك فإن اسم «الإسلام» لم يُطلق على أي دين سوى على الدين الذي بلغ الكمال من جميع النواحي، وكان ديناً للعالم أجمع، وكان من المقدّر له أن يبقى الدين الصحيح إلى الأبد، وذلك حتى يبين اسمه حقيقة صفاته وفحواه. واسم «الإسلام» هو «الاسم الجديد» المشار إليه في نبوءة سفر أشعياء ٦٢: ٢، والتي تقول: «وتسمّين باسم جديد يعينه فم الرب».

وحين يصف القرآن المجيد الأنبياء السابقين ﷺ بالـ «مسلمين» فلا يعني هذا بالطبع أنهم كانوا يتبعون التعاليم القرآنية، وإنما المقصود، كما سبق بيانه عاليه، أنهم اتّبعوا الدين الصحيح في زمانهم، وأنهم في سلوكهم قد أظهروا روح الخضوع لإرادة الله تعالى.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ
إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا
نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٤﴾

شرح الكلمات:

إِلَهٌ: مشتقة من إله أي عَبْدَ. الإله: المعبود مطلقاً بحقٍ أو بباطل (أقرب الموارد).

التفسير:

إن يعقوب ﷺ، أي إسرائيل، كان ابن إسحاق ﷺ، الذي كان ابن إبراهيم ﷺ، وبالتالي فإن إسماعيل ﷺ كان عم يعقوب ﷺ، ومع ذلك فإن بني يعقوب في هذه الآية يذكرون إسماعيل ﷺ بين «آبائهم» مما يثبت أمرين، أولاً: أن كلمة «أب»

تستعمل أيضاً للدلالة على العم؛ ثانياً: أنه إلى زمن يعقوب عليه السلام كان إسماعيل عليه السلام يلقي الاحترام والتقدير من بني إسرائيل، بل إن بني إسرائيل ذكروا اسم إسماعيل عليه السلام قبل أن يذكروا اسم جدّهم إسحاق عليه السلام، ولم يذكروا اسم أي ابن آخر لإبراهيم عليه السلام.

وتعني الكلمات الآية ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أن مبدأ الخضوع لإرادة الله تعالى لم يكن أمراً ابتدعه الإسلام، بل إن الصالحين والأتقياء من الناس كانوا يلتزمون بذلك المبدأ في جميع الأزمان، وحتى إسرائيل عليه السلام، الذي أسس القبائل اليهودية، قد اتّبع نفس هذا المبدأ بحرص شديد، حتى إن الفكرة الوحيدة التي خطرت بباله وهو على سرير الموت هي أن يحث أبناءه على الالتزام بهذا المبدأ النبيل. ولما كان إسرائيل عليه السلام يتمنى أن يكون أولاده مسلمين، أفلا ينتهز اليهود الذين كانوا يعيشون في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة وجوده ويتبعوه ليكونوا مسلمين حقيقيين؟.

وتأييداً لما ذكره القرآن المجيد عن وصيّة يعقوب عليه السلام لأبنائه يذكر رودويل المقتبس التالي من ميدراش رياه: «عندما جاء زمن مغادرة الأب يعقوب لهذه الدنيا، جمع أبناءه الإثني عشر وقال لهم اسمعوا جيداً لأبيكم إسرائيل (تكوين ٤٩: ٢). هل لديكم أي شك في القدوس تعالى؟ فقالوا: اسمع يا إسرائيل أبانا، كما أنه لا يوجد أي شك في قلبك كذلك لا يوجد أي شك في قلوبنا».

(Midrash Rabbah on Genesis Par. 98 and on Deut. Par 2)

تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا
كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٥﴾

التفسير:

هذه الآية تحذّر أهل الكتاب من أن كونهم سلاله أنبياء الله تعالى لن ينفعهم بشيء. إن آباءهم جنوا ثمرة أعمالهم الطيبة ونالوا أفضال الله تعالى عليهم، فإذا كان أهل

الكتاب يريدون أن تتنزل عليهم أيضاً هذه الأفضال، فعليهم أن يؤدّوا نفس تلك الأعمال الطيبة، وأن يكونوا مطيعين لأوامر الله تعالى خاضعين لإرادته ﷻ. وكونهم سلالة الأنبياء والصالحين يجعلهم أكثر مسؤولية.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا
قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٦﴾

شرح الكلمات:

حَنِيفًا: مشتقة من حَنِفَ أي مال وتعني: (١) مال عن الضلال إلى الاستقامة (مفردات الراغب)؛ (٢) تبع الطريق الصحيح ولم يحده عنه أبداً؛ (٣) الصحيح الميل إلى الإسلام والثابت عليه (معجم لين)؛ (٤) من كان على دين إبراهيم (أقرب الموارد).

التفسير:

هناك مفهوم شائع بين أتباع كل دين من الأديان المختلفة أنه لا نجاة لأحد إلا باتباع ذلك الدين الذي يؤمن به أولئك الأتباع. ولا شك أن هذا مفهوم خاطئ، لأن النجاة تتوقف على فضل الله تعالى ورحمته والخضوع لإرادته. فإذا كان الدين يتضمن أن يُسلم الإنسان لله تعالى ويخضع لإرادته، فلا شك أن النجاة في هذا الدين، ولكن حين يفقد الدين هذا الإسلام لله، فلا يمكن أن يمنح هذا الدين النجاة لأحد. وإن المسيحيين يخطئون حين يزعمون أن مجرد الدخول في المسيحية هو الضمان للنجاة. وفي هذه الآية يبين الله تعالى أن الأمر ليس كذلك، بل إن النجاة الحقيقية هي في ما كان إبراهيم عليه السلام يعلمه للناس، أي الخضوع المطلق لإرادة الله تعالى، فإبراهيم عليه السلام كان على هدى من ربه، وقد كان مثلاً لتطبيق وتعليم روح الإسلام.

وكلمات الآية ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لم تأت لتزيل أي سوء فهم عن إبراهيم عليه السلام، وإنما لتبين لأهل الكتاب أنه بينما كان جدّهم الأكبر إبراهيم عليه السلام إنساناً لا يشرك بالله أحداً، فإنهم هم أنفسهم راحوا يقيمون لله تعالى أنداداً. فهم في الظاهر يزعمون الإيمان بالله واحد، بينما قلوبهم مملوءة بالآلهة التي يحبونها ويقدّسونها الحب والتقديس الواجبين لله تعالى وحده.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ
النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾

شرح الكلمات:

أَسْبَاط: مشتقة من سَبَط. يُقال سَبَطَ الشَّعْرُ أي سهل واسترسل وهو ضد جَعَد. سبط المطر: كثر واتسع. السَّبَط: الزيادة في كل شيء. شَعْرٌ سَبَط: شعر طويل غير جعد. سبط الكفين: ممتدّهما، ويعبّر به عن الكرم والجود. والسَّبَط ولد الولد، كأنه امتداد الفروع (أقرب الموارد ومفردات الراغب). وكلمة «الأسباط» هنا تشير إلى قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة والتي سُميت كل قبيلة منها باسم أحد أبناء يعقوب عليه السلام (إسرائيل) الاثني عشر وهم: راويين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون ويوسف وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير (راجع سفر التكوين ٣٥: ٢٣-٢٦ و ٤٩: ٢٨).

تخاطب الآية المسلمين الذي أمروا أن يردّوا على اليهود والنصارى، فيقولوا إن جوهر الدين هو الإيمان بالله تعالى والخضوع لإرادته، وعلى هذا فإن كل ما ينبثق عن الله تعالى، وما يأتي من لدنه لا بد وأن يُقبل ولا يُنكر، ومن حماقة القول بأن القوم الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ليسوا في حاجة إلى الإيمان ببقية الأنبياء الآخرين، إذ لا بد من قبول جميع الأنبياء، والإيمان بكل الوحي الذي نزل من عند الله تعالى، دون أية تفرقة في الإيمان بين هذا النبي وذاك، أو بين هذا الوحي وذاك. إن أحد الأنبياء قد يكون أعلى مقامًا من غيره، وما احتواه وحيه قد يكون أكثر أهمية من غيره، ولكن لا بد من قبولهم جميعًا ودون أي تفرقة. وقد جاءت الكلمات ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ كدليل يؤكد على أهمية ما ذكرناه عاليه من الخضوع لإرادة الله تعالى. فحينما نسلم لله تعالى ونخضع له، لا بد من قبول كل ما يأتي وكل من يأتي من لدنه تعالى.

ولا شك أنها من المزايا العظمى للإسلام، أنه الدين الوحيد الذي يعترف بجميع الأنبياء الذين جاؤوا لكل الأمم وجميع البلاد، بينما تحصر جميع الأديان الأخرى الإيمان في الأنبياء الخاصين بأديانهم وحدهم. ومن الطبيعي أن يذكر القرآن المجيد أسماء بعض أولئك الأنبياء، الذين كانوا معروفين لدى العرب الذين كانوا أول من تلقوا رسالة الإسلام، ولكن القرآن المجيد يشير بوضوح إلى أنه ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٥).

وكما سبق ذكره، يجب ألا تُفهم هذه الآية على أنها تضع جميع الأنبياء في درجة واحدة، إذ إن القرآن المجيد يذكر بوضوح أن مختلف الأنبياء يتمتعون بدرجات مختلفة. فقد فضّل الله تعالى بعضهم على بعض كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، وأما الكلمات التي جاءت في الآية التي نحن بصددناها وهي ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ فتعني أن المسلم لا يُفرّق في الاعتراف بنبوة أحد من الأنبياء.

وقد اعترض بعض الكتاب المسيحيين على هذه الآية، وطالبوا بدليل على نبوة إسماعيل عليه السلام الذي جاء ذكره في الآية. ولكن يمكن الرد عليهم بسؤال آخر وهو: ما هو الدليل على نبوة إسحاق عليه السلام الذي جاء ذكره أيضاً في الآية؟ فإذا كان الكتاب المقدس يشهد على نبوة إسحاق عليه السلام، فإن القرآن المجيد يشهد على نبوة إسماعيل عليه السلام. فإن لم تكن شهادة القرآن المجيد مقبولة، فليس هناك من دليل مادّي على وجه الأرض يضطرنا لقبول شهادة الكتاب المقدس على نبوة إسحاق عليه السلام. كما أن الكتاب المقدس نفسه يشهد على أن الله تعالى قد قطع وعوداً كثيرة لإبراهيم عليه السلام فيما يختص بعظمة إسماعيل عليه السلام وذريته (انظر شرح الآية ١٣٠ من سورة البقرة).

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٨﴾

شرح الكلمات:

شِقَاقٍ: من شاق المشتقة من شقَّ أي صدَّعه وفَرَّقه. شقَّ عصا القوم: فرَّق جمعهم وكلمتهم. شقَّ النبات: طلع وذلك في أول ما تنفطر عنه الأرض. الشَّق: الجانب أو الناحية من الشيء. شاقَّه: خالفه وعاداه. والشِقَاق: المعارضة؛ العداء؛ الفرقة؛ البعد (أقرب الموارد). على أي حال كلمة «شقاق» لا تستخدم في وصف الجانب الذي على الحق والصواب (البحر المحيط).

التفسير:

تخبر الآية المسلمين أنه إذا اتَّفَق معهم اليهود والنصارى على أن الدين ليس أمراً موروثاً، ولكنه يتوقف على قبول كل الهدي الإلهي، فإنهم بذلك يكونون على اتفاق معهم؛ وإلا فإنهم سيكونون في شقاق، تفصل بينهم هوة واسعة. وحينئذ سوف

تقع مسؤولية ذلك الشقاق والعداوة الناتجة عن ذلك على اليهود والنصارى، وليس على المسلمين.

وفي هذه الحالة يجب على المسلمين ألا يخشوا اليهود ولا النصارى، فإن الله تعالى يقف إلى جانبهم، وهو سبحانه ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. فإذا ما دعوه فإنه سبحانه يسمع أَدْعِيَتَهُمْ ويستجيب لها، وحتى إذا لم يدعوه فإنه ليس فقط ﴿السَّمِيعُ﴾ وإنما هو أيضاً ﴿الْعَلِيمُ﴾. والآية تشير أيضاً في قوله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى الحماية الربانية الخاصة التي وعد الله بها رسوله ﷺ وجاء ذكرها في الآية ٦٨ من سورة المائدة ﴿وَاللَّهُ يَعَصَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وذلك في ضوء المحاولات التي قام بها اليهود للقضاء على الرسول ﷺ.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٩﴾

شرح الكلمات:

صِبْغَةً: مشتقة من صَبَغَ. صَبَغَهُ: لَوَّنَهُ. صبغ يده في الماء: غمسها فيه. صبغ يده بالعمل: اشتغل به. اصطبغ بكذا: تلون به. صِبْغَةُ: اللون أو الصباغ؛ النوع؛ الدين؛ الملة؛ المعمودية. صبغة الله: دينه؛ فطرته التي فطر الناس عليها. وسُمي الدين صبغة لأن أثره يظهر على الشخص كظهور الصبغ على المصبوغ (أقرب الموارد).

التفسير:

إن كلمة ﴿صِبْغَةً﴾ التي وردت في هذه الآية جاءت مفعولاً به منصوباً والفاعل مفهوم ضمني. فحسب القواعد العربية أحياناً حينما يُراد دفع المراء بشدة لعمل شيء ما، فإن الفعل يُحذف بينما يُذكر المفعول به فقط. وعلى ذلك يمكن أن يُفهم الفعل «خذوا» أو «اتَّبِعُوا» على أنه يسبق ضمناً قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾، وحينئذ

تكون الجملة: «خذوا دين الله أو اتبعوا دين الله الذي يريدكم أن تتبعوه» ويمكن أن يكون الفعل المحذوف هو «نأخذ» أو «نتبع»، وفي هذه الحالة تعني الآية: «نأخذ أو نتبع دين الله». إن هذا هو «التعميد» الحقيقي الذي يمكن الإنسان من أن يتخلّق بأخلاق الله تعالى، وأن يكون مثلاً حياً تتجلى فيه صفاته سبحانه. وليقارن المرء بين هذا وبين عملية التعميد المسيحي، التي تهدف إلى تحقيق غفران ذنوب الإنسان ومنحه الحياة الأبدية، لمجرد غمسه في الماء أو رش الماء عليه، عندما يقوم القس بتعميده.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ
لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٤٠﴾

شرح الكلمات:

مُخْلِصُونَ: مشتقة من خَلَصَ أي صار صافياً. أخلص في الطاعة: ترك الرياء. أخلص له الحب: خلصه من الغش (أقرب الموارد). أخلص لله: أصبح صادق الطاعة لله أو طهر علاقته مع الله من كل رياء (معجم لين ومفردات الراغب).

التفسير:

في هذه الآية يؤمر الرسول ﷺ أن يقول لأهل الكتاب إن الله تعالى هو الذي أنزل عليه وحيه، وعليهم ألا يعترضوا على إرادة الله ﷻ، لأنه سبحانه كما أنه إلههم فهو أيضاً إله المسلمين، وهو العليم بأعمال كل منهم. إنه خالق الجميع، وفضله ليس مقصوراً على قبيلة ولا على بلد بعينه. فإذا كان الله تعالى قد اختار بني إسماعيل لبركات النبوة، واختار العرب لينالوا هذا الفضل العظيم، فعلى أهل الكتاب ألا يرفضوه لذلك. إن الأساس في كل دين هو الله ﷻ، وإذا كان المرء مخلصاً في علاقته

بالله تبارك وتعالى، فيجب ألا يتردد مطلقاً في قبول أي شيء يأتي من لدنه. إن السؤال الحقيقي هو ما إذا كان الله تعالى قد اختار محمداً ﷺ ليكون رسولاً له فعلاً، فإذا كانت إجابة هذا السؤال بالإيجاب، فيجب ألا يمنع المرء شيء من قبول الإسلام؛ فإذا رفض الإسلام فإنه يكون قد اتخذ موقفاً معادياً لله تعالى، سواء كان يهودياً أو نصرانياً أو هندوسياً أو من أتباع أي دين آخر.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى
قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

التفسير:

إن الآية تسأل اليهود والنصارى بطريق غير مباشر عن وضع إبراهيم عليه السلام وأبنائه إذا كانت النجاة حكراً على اليهود. فإذا كانت إجابتهم أن هؤلاء الأبرار الصالحين كانوا أيضاً يهوداً أو نصارى، فستكون إجابتهم هذه ضد جميع حقائق التاريخ، لأن أولئك الأنبياء الكرام كانوا ينتمون إلى عهد ما قبل زمن التوراة، حين لم تكن هناك ديانة يهودية أو مسيحية.

إن بعض قصار النظر من الناس يولون أهمية كبيرة لأرائهم الخاصة، حتى إنهم ينسبونها لكل عبد من عباد الله الصالحين. وفي هذا المجال، زعم اليهود والنصارى أن أسلافهم القدما، الذين عاشوا قبل أن يكون لأديانهم وجود، كانوا أتباعاً لأديانهم هذه.

إن هذا المسلك ليس مقصوداً على الجهلة من عامة الناس وحدهم، وإنما حتى ذوي العلم قد سقطوا أيضاً فريسة لهذا الوهم الخادع. فإن الكثيرين ممن هم على جانب كبير من العلم، يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن حتى أولئك الأنبياء والصلحاء من الناس، الذين عاشوا قبل المسيح، قد نالوا النجاة بواسطة موته المزعوم على الصليب. ومثل هؤلاء الناس يجب أن يحترزوا من عقاب الله تعالى، لأنه سبحانه ليس بغافل عما يعملون.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا
كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٢﴾

التفسير:

مرة أخرى تحذّر الآية اليهود والنصارى من الاعتماد على أن أسلافهم وأجدادهم كانوا من بين أولئك الأنبياء والصلحاء الذين اكتسبوا رضوان الله تعالى عليهم بأعمالهم الطيبة. أما هؤلاء اليهود والنصارى، فإن أعمالهم الخاصة هي التي يمكن أن تنقذهم، وليس أعمال أولئك الأسلاف والصلحاء. إن أعمالهم الصالحة هي التي يمكن أن تنجيهم بفضل الله تعالى، وليس لأنهم ذرية إبراهيم ويعقوب وموسى وعيسى عليهم السلام. ويقول القرآن المجيد في ذلك: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٥).

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ
عَنْ قِبَلَتِهِمْ أَلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ
الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾

شرح الكلمات:

قِبْلَتِهِمْ: كلمة «قِبْلَة» مشتقة من قَبَلَ. يُقال «قبل فلانٌ على الشيء» أي لزمه وأخذ فيه. «قبل المكان»: استقبله. أقبل عليه: نقيض أدبر عنه. أقبل فلانًا الشيء: جعله يلي قبالة. قِبْلَة تعني: (١) الجهة؛ (٢) الجهة التي يصلي نحوها؛ (٣) كل ما يُستقبل من شيء؛ (٤) الكعبة المُشرقة التي يتجه إليها المسلمون عند الصلاة (أقرب الموارد).

التفسير:

في الآيات السابقة تحدث القرآن المجيد عن الناس الذين خلوا من قبل، مع الإشارة في نفس الوقت إلى الفرق بين أعمالهم وأعمال المسلمين. وفي هذه الآية جاء ذكر موضوع يختلف فيه المسلمون عن غيرهم من أهل الكتاب، أي موضوع «القِبْلَة». إن من عادة القرآن المجيد أنه لا يُعطي أمرًا أو تعليمًا جديدًا بشكل مفاجئ أو بدون مقدّمات، فيكون من الصعب على الناس أن يتبعوه. وهو في أمور العبادة يبدأ بشكل عام في تمهيد السبيل لقبول الأمر الجديد، وذلك بإيراد بعض الدلائل التي تدعّم ذلك الأمر، ويفنّد بعض الاعتراضات التي يمكن أن توجّه ضده. انظر الآيتين ١٨٤، ١٨٥ من سورة البقرة.

وكذلك الحال هنا، فلما كان الحكم بتغيير القِبْلَة يمكن أن يكون حجر عثرة لبعض الناس، بدأ القرآن المجيد بالتمهيد له، وذلك بذكر أمر عام وهو أن اختيار اتجاه معين لا يهم في حقيقة الأمر، فالمهم هو روح الطاعة لله تعالى من جانب، وروح الوحدة بين المسلمين من جانب آخر. وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يعني أن اختيار الشرق أو الغرب ليس هو المهم، بل المهم هو ذات الله سبحانه وتعالى. إن الغرض من اختيار القِبْلَة في المقام الأول هو تحقيق الوحدة بين المؤمنين، غير أن الاتجاه يجب أن يكون طيبًا أيضًا. واعتراض بعض الناس على ذلك إنما يدل على سفاهة عقولهم وتفاهة أفكارهم.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
 شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ
 شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا
 لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى
 عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
 هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ
 إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٤﴾

شرح الكلمات:

وَسَطًا: مشتقة من وَسَطَ أي بين شيئين. يُقال «وَسَطَ أو وَسَطَ الرجل في حَسْبِهِ»: صار شريفًا وحسيبًا. «الوسط»: (١) المعتدل أي بين الجيد والردى؛ (٢) الحسن يقال «رجل وسط» أي حَسَن (أقرب الموارد). وهنا كلمة «الوسط» تعني الأعلى والأفضل، يتضح هذا المعنى من قول الله تعالى عن المسلمين: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١١)، أي أنكم خير الأمم التي خلقت لفائدة الناس، ولذلك يكون معنى «الوسط» الأعلى والأكمل.

لِنَعْلَمَ: أي لكي ندرك ونعرف. إن الله تعالى هو العليم في واقع الأمر ويعلم كل شيء، وليس بحاجة للعلم أو معرفة شيء لأن كل شيء معلوم ومعروف لديه ﷻ. ولقد استخدمت هذه الكلمة بهذا المعنى في الآية ٥١ من سورة الأحزاب. إن استخدام كلمة «ممن» بعد كلمة «لنعلم» في قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ يبين هنا أن كلمة «لنعلم» تعني لكي يعرف الناس ويميزوا، أي لإظهار هذا الأمر للناس وكشفه لهم.

يرتبط قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ بالجملة الأخيرة من الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. والمقصود من ذلك أنه مهما كان الهدى الذي ينزله الله تعالى على المسلمين، وأن بواسطة هداية ﷺ قدر الله لهم أن يكونوا أمة مجيدة، لذلك ينبغي عليهم في موضوع القبلة أيضاً أن يكونوا على استعداد لقبول هداية الذي فيه صالحهم، وهذا ما سيجعلهم ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ويجعل الرسول ﷺ شهيداً على المسلمين.

والآية تقول للمسلمين إن الله تعالى قدر لهم أن يكونوا قادة العالم، وأن ينالوا رضوان الله تعالى عليهم، وذلك بسبب أعمالهم الطيبة. وأنهم لذلك يتلقون أنعم الله تعالى، وتنهل عليهم أفضاله، حتى إن الآخرين سوف يدركون قريباً أن المسلمين يتبعون فعلاً الدين الحق. وبهذا يكون المسلمون شهداء على صدق الإسلام، كما كان الرسول ﷺ شهيداً أيضاً على صدق الإسلام.

ويحمل قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ معنى آخر، وهو أن على كل جيل من أجيال المسلمين أن يكون حارساً يعتني دائماً بالجيل التالي. فكونهم أمة وسطاً، أي أمة مجيدة عظيمة، يقتضي منهم أن يكونوا دوماً على حذر من السقوط من ذلك المستوى الرفيع الذي بلغوه، وأن يعملوا على أن يكون الجيل التالي مُتَّبِعاً لنفس المفاهيم التي اتبعتها أولئك الذين تمتعوا بالصحبة الشريفة للرسول ﷺ. وعلى هذا يكون الرسول ﷺ هو الوصي الشهيد على الجيل الأول من أتباعه، بينما يكون هؤلاء الأتباع هم الأوصياء والشهداء على الجيل التالي لهم، وهكذا.

وحينما نأخذ الحرف «على» في قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بمعنى «ضد»، وكلمة «شاهد» بمعنى «الشخص الذي يشهد على غيره»، كما تفهم بهذا المعنى غالباً، فإن الجملة تعني حينئذ «لكي تكونوا شهداء ضد الناس ويكون الرسول شهيداً ضدكم»، أي يكون الرسول ﷺ كالمراة للمسلمين، حين ينظرون فيها يستطيعون

أن يروا عيوبهم ونقائصهم، وتكون حياة المسلمين الصالحين مثلاً للناس من الأقوام الأخرى، الذين حين يقارنون حياتهم بحياة أولئك الصالحين من المسلمين، سوف يرون عيوب أنفسهم، ويدركون نقائصهم فيعملوا على إصلاحها. ويمكن أن يكون المسلمون مثلاً لغيرهم إذا اتبعوا أوامر الله تعالى، بما فيها الأمر الإلهي الخاص بالقبلة، التي ستكون بمنزلة نقطة تجمع للمجتمع الإسلامي الجديد.

والجدير بالذكر، كما تومئ كلمات الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أن الرسول ﷺ اتخذ قبلة بيت المقدس بناء على أمر الله تعالى، ولكن لما كانت تلك القبلة مؤقتة، وسوف تُستبدل بالكعبة المشرفة التي سوف تكون القبلة الإسلامية الدائمة على مر الزمن، فإن القرآن المجيد لم يتضمن الأمر الإلهي باتخاذ القبلة المؤقتة. وهذا يُبين أن جميع الأوامر التي كان من المقدّر لها أن تكون مؤقتة لم يتضمنها القرآن المجيد؛ الذي احتوى على الأوامر والتعاليم التي لها صفة الدوام. وعلى هذا، فإن النظرية التي تقول بأن القرآن المجيد يحتوي على بعض الآيات المنسوخة، ليس لها أساس من الصحة.

لقد كان العرب متعلقين بشدة بالكعبة الشريفة، فهي بيت العبادة العتيق في مكة، وهي المعبد الذي آل إليهم منذ عهد إبراهيم عليه السلام، ولذلك فقد كانت فتنة شديدة وامتحان عسير لهم، وهم بمكة في بداية عهد الإسلام، أن يتخلوا عن الكعبة ويتخذوا بيت المقدس قبلة لهم، وهي التي كانت قبلة لأهل الكتاب. وفيما بعد، عندما تغيرت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، كان في ذلك امتحان عسير لكل من اليهود والنصارى، فقد كان من الصعب عليهم أن يتحولوا عن قبلتهم التي كانوا عليها، إلى قبلة كان الوثنيون العرب يعتبرونها مقدّسة. وبهذا فقد ابتلى الله تعالى كلاً من أهل الكتاب والمشرّكين من أهل مكة.

إن رسول الله ﷺ لم يتخذ معبد سليمان في بيت المقدس قبلة لكي يُرضي يهود المدينة كما يقول بذلك Sale والمستشرقون المسيحيون الآخرون، وذلك لأن اتخاذ

بيت المقدس قبله لم يحدث في المدينة، بل كانت هي بالفعل قبله المسلمين وهم لا يزالون بمكة، حيث لا يوجد هناك سكان من اليهود أو النصارى، يحرص الرسول ﷺ على كسب رضاهم (البخاري وابن جرير). ولو كان الرسول ﷺ يريد أن يكسب رضا أحد باتخاذ قبله معيّنة، لكان من الطبيعي أن يتخذ الكعبة قبله أثناء وجوده في مكة، ثم يتحوّل إلى بيت المقدس بعد هجرته إلى المدينة، ولكن ما حدث كان هو العكس تماماً. كما أن القرآن المجيد يؤكد على أن اختيار قبله بعينها لم يكن هدفه كسب رضا أحد، وإنما كان المقصود به هو الامتحان، للتفريق بين المؤمنين المخلصين ومن هم ليسوا كذلك.

ولقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ معنيان.

(١) أن تغيير القبلة هذا لم يكن يهدف أبداً إلى أن يؤثر سلباً في إيمان المسلمين، بل يؤدي إلى تقوية إيمانهم وتثبيتته.

(٢) إن لم يؤمر المسلمون بالتوجّه إلى الكعبة، فإنهم ما كانوا ليرثوا البركات التي جاءت في دعاء إبراهيم عليه السلام عندما كان يرفع قواعدها (انظر الآية ١٣٠ من سورة البقرة).

ولقد كان من المستحيل على صحابة الرسول ﷺ، الذين أظهروا ثباتاً فائقاً، وإخلاصاً صادقاً، وولاءً عظيماً لمعتقداتهم النبيلة، ألا يكونوا هم ورثة تلك الأدعية التي دعا بها إبراهيم عليه السلام، وألا يكونوا هم صحابة ذلك الرسول الموعود الذي دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعثه في ذريته. لقد كان من المحتم أن يضيع إيمان المسلمين لو ظلوا منفصلين عن الكعبة ولم يرثوا بركاتهما.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ
قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾

شرح الكلمات:

قَدْ: تأتي بمعنى الآن؛ أحياناً؛ طالماً؛ كثيراً ما؛ حقّاً؛ بالفعل ... إلخ (معجم لين).

تَقَلَّبَ: مشتقة من قَلَبَ. يُقال «قَلَبَ الشيء»: (١) حَوَّلَهُ عن وجهه أو حالته؛ (٢) جعل أعلاه أسفله؛ (٣) جعل باطنه ظاهره. كلمة «قَلَبَ» تفيد نفس معاني قَلَبَ مع المبالغة والتشديد. «تَقَلَّبَ الشيء»: تَحَوَّلَ عن وجهه مراراً وتكراراً (أقرب الموارد). لذا فالتعبير «تَقَلَّبَ وجهك» يعني تلهفك وقلقك انتظاراً لاستقبال الأمر.

فَلَنُؤَلِّيكَ: مشتقة من وَلَّى المشتقة من وَلِيَ. والتعبير «وَلَّاهُ الأمر» له معنيان مختلفان: (١) جعله والياً وسيداً على الأمر؛ (٢) جعله يغير اتجاهه أو وَجْهَهُ نحو شيء أو صرفه عن شيء (أقرب الموارد).

الْحَرَامَ: مشتقة من حَرَّمَ أي صار ممنوعاً أو محظوراً أو غير شرعي إمّا من أجل الطهارة أو لأن هذا الأمر فيه ضررٌ. حَرَّمَهُ الشيء: منعه إياه. لذا فكلمة «حَرَامَ» تعني: (١) ضد الحلال؛ (٢) الشيء المقدس أو ما لا يحل انتهاكه. و«المسجد الحرام» يشير إلى الكعبة المشرفة (أقرب الموارد).

التفسير:

عندما كان الرسول ﷺ بمكة، تلقى أمراً من الله تعالى أن يتوجه في الصلاة إلى بيت المقدس. وبالطبع فقد أطاع الرسول ﷺ الأمر الإلهي. ولما كان يتمنى في أعماق قلبه أن تكون الكعبة هي قبلته، وكان يخامرُه إحساس بأنه في القريب سوف يتلقى أمراً بالتوجه إليها، لذلك فقد اختار مكاناً للصلاة بحيث تكون كل من الكعبة وبيت المقدس أمامه. غير أنه لما هاجر ﷺ إلى المدينة، كان من المستحيل عليه أن يُولِي

وجهه نحو كلا المكانين في آن واحد. وطاعة لأمر الله تعالى اضطر إلى أن يولي وجهه شطربيت المقدس وحده. وكان من الطبيعي بعد هذا التغيير أن تنمو وتشتد الرغبة التي كانت كامنة في نفسه بالتحوّل إلى الكعبة. ومع ذلك، فإنه حرصاً على الحفاظ على أمر الله تعالى، لم يدع الله بالتغيير، ولكنه كان ينظر إلى السماء بشوق وتلهف في انتظار نزول ذلك الأمر. وعلى ذلك، فإن الآية ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ هي جملة مدح وثناء على الرسول ﷺ، كما أنها تشير أيضاً إلى عدة أمور:

(١) أن الرسول ﷺ كان لديه بصيرة عميقة في الأمور الروحية، حتى إنه بالرغم من الأمر المرحلي بالتوجه في الصلاة إلى بيت المقدس، فإنه كان يعلم أن الأمر بالتوجه شطر المسجد الحرام سوف يأتي عاجلاً أم آجلاً.

(٢) أنه رغم الرغبة الشديدة التي كانت تحتلج في نفسه بأن تكون الكعبة هي قبلة المسلمين، إلا أنه كان حريصاً بشكل بالغ على احترام أوامره، حتى إنه امتنع عن دعاء الله تعالى لتحقيق رغبته.

(٣) أن الله العلي الكبير يحب رسوله ﷺ حباً عظيماً، حتى إنه بفضله تعالى عجل بإنزال الأمر بتحويل القبلة، مشيراً إلى تقلب وجه الرسول ﷺ في السماء، ومضيفاً قوله عز وجل بكل ود ومحبة: ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾.

إن الرسول ﷺ كان له مقام كبير عند الله تعالى، حتى إنه لم يأمره فقط بأن يولي وجهه شطر القبلة التي يرضاها، وإنما ألمح إلى أنه سيجعله سيدها ووليها. وكما جاء في شرح الكلمات، فإن كلمة «نوليّنك» تعني «لنجعلنك سيّداً وولياً». وحقاً صدقت السيدة عائشة رضي الله عنها عندما قالت لزوجها الكريم العظيم ﷺ: «مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ». (البخاري كتاب التفسير).

بعد هذه المقدّمة المذكورة عليه، يأتي الأمر بتحويل القبلة في هذه الكلمات: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. وقد جاء هذا الأمر بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وبقائه فيها مدة ستة عشر شهراً.

وتعبير ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لا يعني مجرد التحول إلى الكعبة الشريفة، وإنما يشرح حقيقة التغير الذي أمر الله به، وهو أن يعود المسجد ليكون حرماً مقدساً كما كان في السابق، خالياً من الأصنام، تملؤه البركات، ويصير مركزاً آمناً للمؤمنين. وقد أضيفت الكلمات ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ لتحقيق ثلاثة أغراض:

(١) لتوضيح أن الأمر لا يختص بأهل المدينة وحدهم، وإنما يعم المسلمين جميعاً حيثما كانوا.

(٢) لبيان أن أحد أسباب الأمر بتغيير القبلة هو تحقيق التوافق والوحدة بين جميع المسلمين حيثما كانوا.

(٣) لتبيان أن الأمر لا يختص بالرسول ﷺ وحده، بل يشمل جميع المسلمين. فالجملتان السابقتان لها تقول: ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ﴾، ولذا جاءت الجملة التالية لها لتقول: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾.

وأما كلمات الآية ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فتعني أن اليهود والنصارى كانوا على قناعة بأن تغيير الأمر من التوجه إلى بيت المقدس إلى التوجه إلى الكعبة، هو بالفعل أمر الله تعالى، وذلك على أساس النبوءات التي احتوتها كتبهم المقدسة، التي تشير بشكل خاص إلى الكعبة والرسول ﷺ (راجع سفر أشعيا ٤٥: ١٣-١٤؛ إنجيل يوحنا ٤: ٢١؛ سفر التثنية ٣٣: ٢؛ سفر التكوين ٢١: ٢١). إن مكة تقع فيما هو معروف ببرية فاران المذكورة في بعض المراجع المشار إليها في الكتاب المقدس، وعلى هذا فإن اليهود يعلمون أن تلك النبوءات تنطبق على الكعبة وعلى الرسول ﷺ.

والجدير بالملاحظة أنه على الرغم من أنه ينبغي على المسلمين في الظروف العادية أن يولّوا وجوههم في الصلاة نحو الكعبة الشريفة، إلا أن الاتجاه في ذاته لا يأتي في المقام الأول من الأهمية. فإن الإسلام يأمر الإنسان بأن يؤدي صلاته في أي اتجاه يراه مناسباً إذا صعب عليه أن يولي وجهه شطر الكعبة الشريفة في بعض الظروف غير

العادية. فمثلاً، حين لا يعرف المرء الاتجاه الصحيح للكعبة، أو خلال السفر ليلاً في قطار مثلاً، أو عندما يمتطي ظهر بعيره إلخ. وكذلك يمكن للشخص المريض أن يصلي راقداً في سريره في أي اتجاه يكون مناسباً له.

وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ
آيَةٍ مَّا تَتَّبِعُوا قِبَلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتَهُمْ
وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ أَتَّبَعْتَ
أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ
إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾

التفسير:

هذه الآية تشير إلى عداة اليهود والنصارى، ليس فقط للإسلام، ولكن أيضاً بعضهم بعض. فاليهود كانت قبلتهم هي بيت المقدس (انظر سفر الملوك الأول ٨: ٢٢-٣٠؛ ودانيل ١٠: ٦؛ والمزمير ٧: ٥؛ ويونا ٢: ٤)، بينما كان السامريون، وهم فئة من اليهود غير معترف بها مع أنهم كانوا يتبعون الشريعة الموسوية، اتخذوا جبلاً في فلسطين اسمه جرزيم قبلة لهم (انظر إنجيل يوحنا ٤: ٢٠ وشرح العهد الجديد للقس دابليو ولشام هاود. د. الذي نشرته جمعية نشر المعارف المسيحية في لندن، في شرح هذه الفقرة). وأما فيما يتعلق بالمسيحيين الأوائل فقد اتبعوا قبلة اليهود (سفر أعمال الرسل ١٣: ١؛ ودائرة المعارف البريطانية الطبعة ١٤ ص ٦٧٦؛ ودائرة المعارف اليهودية ج ٦ ص ٥٣). ولكننا نعلم من مصادر وثيقة أنه لما جاء وفد نصارى نجران لزيارة المدينة، وعقدوا مباحثة مع الرسول ﷺ عن بعض أمور العقيدة، وأقاموا صلواتهم في مسجد الرسول ﷺ، كانوا يتجهون نحو الشرق (الزرقاني ج ٤ ص ٤١). وعلى هذا، كان كل من اليهود والسامريين والنصارى يتخذ قبلة مختلفة، وذلك بسبب الغيرة

والعداوة المتبادلة بينهم. وفي هذه الظروف، كان من العَبَث أن يُتوقع منهم اتباع قبلة المسلمين، ولما ترفض الأديان التي انقضى زمنها أن تتبع القبلة الصحيحة، فكيف يمكن للمؤمن الصادق أن يتبع قبلة انتهى زمنها وصارت بغير قيمة؟.

والجزء الأخير من الآية يصف أعمال أهل الكتاب هذه بأنها «أهواء»، ليس لأنها لم تكن في الأصل قائمة على الوحي الإلهي، ولكن لأنها كانت تعارض الوحي الإلهي الجديد الذي جعل الكعبة هي القبلة. إن من يصّر على اتباع أمر لم يعد قائماً، فإنه في الواقع يتبع أهواء نفسه.

ومن الواضح أن الكلمات ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ليست مُوجَّهة لشخص الرسول ﷺ، وذلك للأسباب التالية:

- (١) أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يعصي أوامر الله تعالى.
- (٢) أن الجزء السابق في نفس الآية يقول: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ﴾.
- (٣) لقد جاء في الآية السابقة بوضوح أنه ﷺ كان يحب أن يولي وجهه شطر الكعبة، وكان ينتظر بشوق نزول الأمر بذلك. ولذا فليس من المعقول أن يتخلى عن القبلة التي يحبها ويشتاق إليها. إن هذه الكلمات تتعلق بكل وضوح إما بالقارئ بوجه عام، أو بكل فرد من المسلمين الذين اتبعوا الرسول ﷺ.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٧﴾

شرح الكلمات:

يَعْرِفُونَ: مشتقة من عَرَفَ بمعنى علم أو أدرك أو فهم (أقرب الموارد). المعرفة والعرافان: إدراك الشيء بتفكيرٍ وتدبرٍ لأثره وهو أخص من العلم، يُقال فلانٌ يعرف الله ولا يقال يعلم الله (مفردات الراغب).

التفسير:

إن ضمير «الهاء» في كلمة ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يمكن أن يعود إلى الرسول ﷺ كما يمكن أن يعود إلى أمر تغيير القبلة. وتعني الجملة أن أهل الكتاب يعرفون بناء على ما يجدونه مكتوباً عندهم من نبوءات في كتبهم المقدسة، أن نبياً عظيماً سوف يظهر بين العرب، وأنه سيكون مرتبطاً بالكعبة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يُؤمى إلى ذوي العلم بين اليهود الذين كانوا على دراية بما احتوته كتبهم المقدسة عن مجيء رسول الإسلام ﷺ، ولكنهم تعمّدوا إخفاء تلك الأمور عن الناس.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُتَمَتِّرِينَ ﴿١٤٨﴾

شرح الكلمات:

الْحَقُّ: يعني: (١) صدق الحديث؛ (٢) الأمر المقضي؛ (٣) العدل؛ (٤) ضد الباطل؛ (٥) الموجود الثابت؛ (٦) اليقين بعد الشك (أقرب الموارد).

الْمُتَمَتِّرِينَ: جمع المتمترى المشتقة من امترى وهي مشتقة من مَرَى. يُقال «مرى حقه» أي جحد حقه. امترى تعني: (١) شك فيه؛ (٢) اعترض عليه. المتمرتّن: (١) المترددين المتشككين؛ (٢) المعترضين (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

تتعلق هذه الآية بمستقبل الإسلام. فإن الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ جاء ليبقى على الدوام، وجميع العقبات التي وقفت في طريقه مآلها إلى الزوال. إن هذا هو الحق الذي قدّره الله تعالى، الذي بيده مصير الإنسان، وهو حق لا مرأى فيه، فيا أيها القارئ لا تُضَيِّع جهدك في الشك أو الاعتراض على أمر لا بد أن يظهر وينتصر.

وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ
أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٩﴾

شرح الكلمات:

وِجْهَةٌ: مشتقة من وجه والوجه هو أول ما يبدو للناظر من البدن. وجهة تعني: (١) كل موضع استقبلته وتوجهت إليه؛ (٢) الهدف والغاية (أقرب الموارد).

اسْتَبِقُوا: من استبق المشتقة من سَبَقَ وتعني تقدّمه وجازه وخلفه. استبق تعني: (١) أراد أن يتقدم على الآخرين وصولاً إلى الهدف؛ (٢) سَخَّرَ كل طاقاته وإمكانياته للوصول إلى أو تحقيق مأربه (أقرب الموارد ومعجم لين).

الْخَيْرَاتِ: جمع خَيْرَةٍ وتعني: (١) حصول الشيء على كماله؛ (٢) الكثيرة الخير الفاضلة من كل شيء (أقرب الموارد).

التفسير:

إن هذه الآية الكريمة تحتوي، في كلمات قليلة، درساً عظيماً عن الكيفية التي يمكن بها للمسلمين أن ينالوا الفوز والنجاح في الحياة. أولاً: يجب أن يجعلوا لأنفسهم هدفاً ووجهة في الحياة، وهذا الهدف يجب ألا يكون الوصول إلى شيء طيّب فحسب،

بل الوصول إلى كل ما هو خير. لا، بل عليهم أن يصل طموحهم إلى أكثر من ذلك. فعليهم أن يعملوا على تحقيق الخيرات العظيمة الطيبة التي تفوق ما سواها. ومرة أخرى، عليهم ألا يسعوا لتحقيق هذه الأمور بأسلوب عشوائي أو بمنهج غير متقن، بل عليهم أن يهتّبوا ويسرعوا لتحقيقها، حتى إنهم ليتسابقون معاً في روح طيبة من التنافس ليصلوا إلى ذلك الهدف الجليل قبل غيرهم.

إن تعبير ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ الذي جاء في صيغة الجمع، يشير حقيقة إلى أن المسلمين حين يتسابقون على فعل كل ما هو خير، عليهم أن يعاونوا أولئك الضعفاء ويساعدوهم للوصول إلى الفضيلة. إن المسلم الحقيقي يجب ألا يجاهد ليكون إنساناً فاضلاً وحده، ولكن عليه أيضاً أن يدعو الآخرين إلى نفس الدرجة من الفضيلة التي وصل هو إليها. وبذلك يكون هذا التسابق المذكور في هذه الآية تسابقاً فريداً في أن المنافسين لا يتسابقون فقط بعضهم مع بعض، وإنما ينظر كل منهم إلى زملائه، ويُعين من يسقط منهم في الطريق، أو يتأخر قليلاً عن اللحاق بالركب.

وبعني قوله تعالى: ﴿أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أن المسلم يجب ألا يفكر في التسابق فقط مع أولئك الذين هم حوله مباشرة، وبذلك يُرضي نفسه بالتفوّق عليهم، بل عليه أن يتذكر حقيقة أن في أماكن بعيدة عنه، قد يكون هناك من المتسابقين من هم أسرع جرياً من هؤلاء الذين يراهم حوله. ولما كان الله تعالى سوف يحكم على الجميع سوياً، فعلى المسلم ألا ينسى أولئك المتسابقين المجهولين، وإنما عليه أن يبذل جميع طاقاته إلى أقصى حد ممكن، حتى يمكن له أن يكون على رأس قائمة الفائزين.

ويمكن أن يكون لهذه الجملة معنى آخر أيضاً. فإن من طبيعة الإنسان أنه عندما يعرف أن نتائج أعماله سوف تُعلن على الملأ، فإنه يبذل جهداً أكبر ليتفوّق على الآخرين في أداء مسؤولياته. ولذلك، فإن الله تعالى يدعو المسلمين أن يضعوا في اعتبارهم أنه في يوم معين سوف يأت الله تعالى بالناس جميعاً، من كل الأعمار، وسوف تُعلن نتيجة أعمالهم أمام ذلك الجمع الغفير، فعليهم أن يبذلوا كل جهدهم لذلك.

والغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذكير الإنسان بأنه ليس هناك من حدود على رقي وتقدم الإنسان الروحي، فالإنسان يمكن له أن يصل إلى مرحلة عظيمة من الرقي والتقدم. والله تعالى، الذي هو على كل شيء قدير، يستطيع أن يُعينه ويهديه للوصول إلى المستويات الأعلى والأرقى.

وأما التعبير ﴿هُوَ مُؤَلِّيَهَا﴾ التي تعني حرفياً أنه يجعل لها سلطاناً عليه، بمعنى أن الإنسان يبدأ أولاً بأن يحدد لنفسه هدفاً، ثم يجعل لهذا الهدف سلطاناً على حياته. والتعبير ﴿هُوَ مُؤَلِّيَهَا﴾ يعني أيضاً الجهة التي يولي وجهه شطرها. والمعنى المشترك بين هذين المعنيين هو الإخلاص والتفاني للوصول إلى الهدف.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾

شرح الكلمات:

خَرَجْتَ: مشتقة من خَرَجَ وتعني: (١) جاء فصاعداً؛ (٢) ذهب فصاعداً؛ (٣) جاء أو ذهب فصاعداً للقتال (أقرب الموارد).

التفسير:

والآن، بعد أن تم تعيين الكعبة الشريفة لتكون قبلة للمسلمين، أصبح من الواجب أن تكون مكة المكرمة تحت سلطانهم. وتشير الآية إلى هذا المعنى حيث تحض المسلمين من الآن فصاعداً على توجيه كل طاقاتهم وجهودهم لفتح مكة. وقد أمر الرسول ﷺ أن يضع تحقيق ذلك الأمر نصب عينيه في كل الغزوات التي خرج إليها، وذلك حسب التوجيه الذي جاء في هذه الآية الكريمة وفي كلمة ﴿خَرَجْتَ﴾ التي يمكن أن تعني «حيث خرجت للقتال». وعلى هذا، فإن كلمة ﴿خَرَجْتَ﴾ لا تتعلق

بالاتجاه إلى الكعبة في الصلاة، لأن الصلاة لا تؤدى أثناء المشي، فمن الواضح أن الأمر لا يعني أنك إذا خرجت فعليك أن تصلي أثناء سيرك بينما يكون وجهك في اتجاه القبلة.

وكلمات الآية ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ توحي إلى أن مكة لا بد أن تفتح يوماً ما على أيدي الرسول ﷺ. وبالنظر إلى حالة المسلمين في ذلك الوقت الذين لم يكن لهم من حول ولا قوة، فإن هذا الهدف كان يبدو مستحيل التحقيق، ولذلك فقد أعطى الله تعالى رسوله ﷺ هذا الوعد، ووصفه بأنه حق لا ريب فيه، وأن تحقيقه حقيقة أكيدة.

وبين التعبير ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ السبب لهذا الوعد المذكور آنفاً. إن الله تعالى عليم بأعمال المسلمين، ويعلم تماماً مدى جهادهم في سبيل الحصول على رضاه وفضله، ولذلك فإنه لم يكن ليترك عملهم يضيع عبثاً بدون جزاء. وكما حقق سبحانه رابطتهم بالكعبة الشريفة روحياً عن طريق جعلها كعبتهم التي يتجهون إليها، فإنه سبحانه سيجعلهم سادتها عما قريب.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥١﴾

التفسير:

ضمير المفرد المخاطب في كلمة ﴿خَرَجْتَ﴾ قد استعمل هنا للتأكيد على أن فتح مكة هو المسؤولية الشخصية للرسول ﷺ. فإن استطاع أن يقنع المسلمين الآخرين بأن يعاونوه في ذلك فيها ونعمت، وإلا فإنه هو وحده المسؤول أمام الله تعالى، وهي مسؤولية عظيمة حقًا. وهذا يحطم الأساس الذي يقوم عليه الاعتراض القائل بأن الإسلام أخرج نزول الأمر بالحرب الدفاعية إلى أن قوي ساعد المسلمين واستطاعوا أن يردوا العدوان.

أما ضمير الجمع في قوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ فقد جاء ليشمل جميع المسلمين في كل مكان. فبعد رسول الله ﷺ هم أيضًا مأمورون بأن يجعلوا نفس الهدف، أي فتح مكة، نصب أعينهم. غير أن هذه الآية الكريمة والسابقة لها يجب ألا يُستنبط منهما أن الإسلام يحض أتباعه على شن حرب عدوانية، فإن التاريخ يشهد بأنه حينما نزلت هذه الآيات كانت الحرب قد بدأت بالفعل مع أهل مكة، وكانوا هم الذين فرضوها على المسلمين الذين لم يكونوا يرغبون في الحرب، كما يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وبعني قوله تعالى: ﴿لَّئَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أن المسلمين إذا فشلوا في فتح مكة، فإن الاعتراض يمكن أن يُقام من أعداء الإسلام بأن النبي ﷺ لم يحقق في شخصه الدعاء الإبراهيمي المذكور في الآية ١٣٠ من سورة البقرة، وبالتالي، فليس له أن يعلن بأنه هو النبي الموعود. وبالإضافة إلى ذلك، إن البيت العتيق الذي أمر المسلمون أن يولوا وجوههم شطره في الصلاة، كان مملوءًا بالأصنام حين كان تحت إمرة المشركين العرب. فإذا استمر وجود الأصنام في الكعبة، فمن الممكن اتهام المسلمين بأنهم يعبدون تلك الأصنام بطريق غير مباشر. غير أن هذا الاعتراض يمكن رده إذا تم إزالة الأصنام من البيت العتيق الذي بُني وكُرس لعبادة الله الواحد الأحد.

ومن ثم فإن الأمر باستبدال بيت المقدس بالكعبة المشرفة لتكون هي قبلة المسلمين، كان من الطبيعي أن يتبعه الأمر بفتح مكة.

ويمكن إضافة القول هنا أن فتح مكة بأيدي المسلمين قد تنبأ به القرآن الكريم في الآية ٨٦ من سورة القصص، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، والآية ٨١ من سورة الإسراء ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾. والنبوءة المذكورة في سفر التثنية ٢:٣٣ تحققت أيضاً حين دخل الرسول ﷺ مكة فاتحاً على رأس عشرة آلاف من المسلمين.

وتُقدّم الآية ﴿وَلَأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ دليلاً آخر في جانب الأمر بفتح مكة. إذ يبين الله تعالى أنه بفتح مكة سوف يبدأ إتمام أنعم الله تعالى، لأن فتح مكة يعني انضواء كل الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، ودخول الألو ف من الناس في الإسلام. وقد بيّنت النتائج صدق هذه النبوءة، لأن دخول الناس في دين الله أفواجاً قد تبع فتح مكة، فدخل في الإسلام الألو ف من العرب. لقد كان أغلب العرب يميلون بقلوبهم نحو الإسلام، ولكنهم أخّروا دخولهم في الدين الجديد إلى حين يتم حل أمر النزاع بين المسلمين وأهل مكة، فلما تم ذلك جاء كل هؤلاء ليدخلوا في دين الله أفواجاً.

وهناك سبب آخر يشرح لماذا أدّى فتح مكة إلى دخول جميع قبائل العرب بشكل عام في الإسلام، وهو أنه رغم أن العرب لم يكونوا أهل كتاب سماوي، إلا أن نبوءة إبراهيم ﷺ كانت معروفة لديهم، وهي أن مكة لن تقع تحت نفوذ أي نبي كذاب، وأنه إذا حاول مثل ذلك المدّعي، أو أي قوم آخر أن يغزوا مكة، فإنهم سوف يلقون الدمار والهلاك. وها قد رأوا بأعينهم حديثاً كيف تحققت هذه النبوءة حين تم هلاك أبرهة الحبشي الذي حاول أن يغزو مكة المكرومة بجيشه القوي العظيم. لذا، عندما تم فتح مكة على أيدي الرسول ﷺ، اقتنعوا فوراً بصدقه، وأسرع الألو ف منهم إلى اعتناق الإسلام.

إن الأمر بالاتجاه إلى الكعبة قد جاء مرتين في هذه الآية، كما جاء في الآيتين ١٤٥ و ١٥٠. وليس هذا مجرد تكرار للأمر الإلهي، لأن الأمر الأول الذي جاء في الآية ١٤٥ ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يختص بتعيين القبلة، بينما الأمر الثاني والثالث ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في الآية ١٥٠ و ١٥١ يختص بفتح مكة. ولكن، هنا أيضاً لا يوجد تكرار، لأن الأمر بفتح مكة في كل من الآيتين كان له غرض يختلف عن الآخر. ففي الآية ١٥٠ أمر المسلمون أن يعملوا على فتح مكة، لأن الله تعالى يريد ذلك. فكان عليهم أن يطيعوا أمر الله تعالى دون خوف من هزيمة أو فشل. بينما في الآية الحالية رقم ١٥١، جاء ذكر النتائج التي ستعود على المسلمين بالفائدة من تنفيذهم أمر الله بفتح مكة. ويمكن تلخيص هذه الفائدة بأنها: (١) دحض حجة الأعداء. (٢) دخول مئات الألوف من العرب في الإسلام بما فيهم أهل المسلمين وأقاربهم. (٣) توسيع القوة السياسية للمسلمين ونفوذ الإسلام السياسي.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا
عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٢﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿كَمَا﴾ قد جاءت هنا لتربط هذه الآية بالآية السابقة، وذلك بتبيان أن الله تعالى سوف يفيض على المؤمنين بالنعم التي ذكرها في الآية السابقة، تماماً كما أنعم عليهم بإرسال رسول منهم.

وبتغيير طفيف في ترتيب بعض كلمات هذه الآية، تشير الآية إلى مهمة الرسول ﷺ بنفس الترتيب تماماً الذي ورد في الكلمات التي دعا بها إبراهيم عليه السلام لظهور نبي في أهل

مكة (البقرة: ١٣٠)، مما يبين أن دعاء إبراهيم عليه السلام قد تحقق في شخص الرسول ﷺ. فمهمة الرسول ﷺ في الآية ١٣٠ تقول: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ومهمة الرسول ﷺ في الآية الحالية هي: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. ومن الواضح أن الآية الحالية تذكر التزكية قبل تعليم الكتاب والحكمة، وذلك لأنه من الناحية النظرية، فإن تعليم الكتاب والحكمة يأتي أولاً، غير أنه من الناحية العملية، فإن التزكية أهم من تعليم الكتاب والحكمة. فإن التزكية هي الهدف، وتعليم الكتاب والحكمة ليس إلا وسيلة لبلوغ ذلك الهدف.

وهناك اختلاف آخر أيضاً بين الآيتين. فبينما تنتهي الآية ١٣٩ بالكلمات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، تنتهي الآية الحالية بالكلمات ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. والسبب في هذا الاختلاف ليس عسيراً على الفهم. فقد استعمل إبراهيم عليه السلام في دعائه الكلمات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ليعني أنه لكون الله تعالى عزيزاً، فلن يصعب عليه قبول هذا الدعاء، ولكونه حكيماً فإنه خير من يعلم ما تحتاجه ذريته من هداية. ولكن حين ذكر الله تعالى التحقق الفعلي لهذا الدعاء، لم يكن من الضروري تكرار نفس الكلمات مرة أخرى. وعوضاً عن ذلك أضيفت الكلمات ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ لتعني أولاً: أنه عندما استجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام فإنه أعطى أكثر مما طلب إبراهيم عليه السلام؛ وثانياً: أن التعاليم التي أتى بها الرسول ﷺ كانت أكثر تقدماً ورقياً من تعاليم الأنبياء السابقين، وكان العالم في حاجة إليها ولكنه لم يكن يعرفها بعد، مما جعل هناك حاجة لمجيء نبي عظيم يعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون.

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي
وَلَا تَكْفُرُوا ۝١٥٢

شرح الكلمات:

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ: الفعل «ذَكَرَهُ» يعني: حفظه في ذهنه؛ تَذَكَّرَهُ؛ قال أو تكلم عنه. ذَكَرَ الله: مَجَّدَهُ وَسَبَّحَهُ؛ صَلَّى اللهُ تَعَالَى. ذَكَرَهُ اللهُ: أُنْعِمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِأَفْضَالِهِ؛ دَعَا اللهُ تَعَالَى لِحَبَابِهِ لِيُثَرِّفَهُ. و«ذَكَرَ» تعني: التَّلَفُّظُ بشيء؛ إِحْضَارُهُ فِي الذَّهْنِ بحيث لَا يَغِيبُ عَنْهُ؛ الصِّيتُ؛ الثَّنَاءُ؛ الشَّرَفُ وَالسُّمُو وَالْعِلَاءُ؛ الصَّلَاةُ لِلَّهِ تَعَالَى وَالِدَعَاءُ (أَقْرَبُ الْمَوَارِدِ وَمُفْرَدَاتِ الرَّاعِبِ وَمَعْجَمِ لَيْن).

اشْكُرُوا: مشتقة من شَكَرَ. شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ أَيِ أَثْنَى عَلَيْهِ لَمَّا أَوْلَاهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ. شَكَرَ اللهُ: اعْتَرَفَ وَأَقَرَّ بِنِعْمِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ مِمَّا جَعَلَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ وَمُبْتَعِدًا عَنْ مَعْصِيَتِهِ (مَعْجَمِ لَيْن).

التفسير:

إن المقصود من ذكر الله تعالى هو أن يذكر الإنسان الله تعالى بحبة وإخلاص، وأن يطيع أوامره وتعاليمه، وأن يضع في ذهنه صفاته وأسماءه عز وجل، وأن يعظمه ويقيم الصلاة لذكره. والمقصود من أن الله تعالى يذكر الإنسان هو أن يقرب الله تعالى الإنسان إليه، ويؤضي عليه من فضله، ويرزقه ما هو خير له. والآية تخبرنا بأننا إذا أردنا القرب من الله تعالى، فإنه سبحانه سوف يقربنا إليه حتمًا. وحسب المعنى الآخر لكلمة «ذَكَرَ» الذي يعني السمو والعلاء والشرف، فالآية تعني أنه إذا ذكر المسلمون الله تعالى فإنه سيجعلهم أصحاب شرف وسمو وعلاء في العالم.

والتعبير «اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» يمكن أن يعني أيضًا أن الإنسان الذي يحب الله ﷻ حبًّا صادقًا حقيقيًّا، فإنه في نهاية الأمر سوف يجذب حب الله تعالى له. إن الذكر يولد المحبة، وإلى حد ما فإن الذكر والمحبة صنوان. وحقًّا لا يستطيع أحد أن يتذكر شيئًا أكثر من المحب الذي يذكر محبوبه في كل آن.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٤﴾

شرح الكلمات:

الصَّبْرُ: الصبر في الأصل هو الكف والإمساك ويعني أيضاً: (١) الثبات والصمود على فعل الشيء؛ (٢) حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع؛ (٣) تحمّل الابتلاء بالثبات وبدون الشكوى لغير الله؛ (٤) اجتناب ما حرّم الله تعالى والبعد عن السيئات (مفردات الراغب).

التفسير:

تحتوي هذه الآية الكريمة على قاعدة ذهبية للنجاح. أولاً: على الإنسان أن يظل مداوماً في مسعاه، فلا يترأخى في سعيه، ولا يتكاسل في بذل جهده، ولا يفقد الأمل أبداً؛ وفي نفس الوقت عليه أن يتجنّب كل ما يضرّه، ويلتزم بشدة بكل ما فيه الخير له؛ ثانياً: عليه أن يدعو الله تعالى دائماً من أجل نوال النجاح، لأنه هو وحده سبحانه مصدر كل ما هو خير وطيب. وقد جاءت كلمة «الصبر» قبل كلمة «الصلاة» في الآية للتأكيد على أهمية الحفاظ على اتباع القوانين الإلهية التي قد يستخف المرء بها أحياناً لجهله. وفي العادة يكون للصلاة أثر إذا صاحبها استعمال جميع الوسائل الضرورية التي أوجدها الله تعالى لتحقيق غرض ما. وهذه الحقيقة لا تقلل من أهمية الصلاة، ولا هي تضع حداً على قدرة الله تعالى. إذ إن الصلاة يمكن أن تحقق المعجزات، حتى وإن فشل استخدام الوسائل المادية في تحقيقها، وذلك إذا أرادت المشيئة الإلهية أن تحققها.

إن الإسلام لا يحضّ على الاعتماد المجرّد والأعمى على الوسائل المادية وحدها، فالإنسان ليس عليمًا بكل شيء ولا هو على كل شيء قدير، وإن لم يلجأ إلى الاستعانة بالهدي الإلهي، فإنه لا يمكن أن يرى كل الخير، ولا يستطيع أن يضمّنه لنفسه.

وكما جاء تحت شرح الكلمات، فإن الصبر يعني احتمال البلاء والأحزان، والثبات والجلد رغم الآلام، بدون شكوى ولا تبرّم. ومن هذه الزاوية تعني الآية أن الوقت الحاضر هو وقت الحروب والكروب وبذل الدماء، وعلى المسلمين أن يتحملوا هذه الشدائد بصبر كامل وجلد متصل، فإذا فعلوا هذا فإن الله تعالى سوف يضمن لهم النجاح في تلك الابتلاءات.

ويبدو أن الجزء الأخير من الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ قد اقتصر على عنصر الصبر فقط تاركاً عنصر الصلاة. ولكن الأمر ليس كذلك في الحقيقة، لأن الصبر في معناه الواسع يتضمّن الصلاة أيضاً. فالمعنى هو أن الله تعالى مع أولئك الذين هم صابرون على فعل جميع ما يسعون إلى تحقيقه، كما أنهم صابرون أيضاً على إقامة الصلاة. وهذا المبدأ يقدم المفتاح لكل نجاح في الحياة الدنيا والآخرة.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٥﴾

شرح الكلمات:

أَحْيَاءٌ: جمع حي ويعني: (١) الذي لم يذهب سعيه في الدنيا سُدىً؛ (٢) الميت الذي أخذ بثأره. ذلك لأن العرب كانوا إذا ما قُتل أحد وأخذ ثأره سموه حياً، أما القتل الذي لا يؤخذ ثأره فكانوا يسمونهم أمواتاً. قال الشاعر الجاهلي الحارث بن حِزّة صاحب المعلّقة السابعة:

إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةٍ فَالْصَّابِرِ فِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاءُ

يخاطب الشاعر القبيلة المعادية له ويقول: تحسبون أنفسكم سادة شرفاء، وهذا غير صحيح. اذهبوا إلى هذا المكان بين ملحّة والصاقب حيث دارت بيننا وبينكم المعارك، تجدوا هناك قبوراً للقتلى، منهم الأموات ومنهم الأحياء. يريد أن الأموات

هم قتلاكم الذين لم تستطيعوا الثأر لهم منا، والأحياء هم قتلانا الذين ثأرنا لهم وقتلنا منكم كثيرين مكان الواحد منا.

التفسير:

من الطبيعي أن الحِصَّ على الصبر يرتبط بالحديث عن التضحيات التي كان على المسلمين تقديمها من أجل الإسلام. ولذلك فمن المناسب أن يذكر القرآن المجيد هنا موضوع الشهداء. إن الموت ليس نهاية الحياة، وفي هذا يتساوى المؤمنون وغير المؤمنين، ولا يشدُّ عنهم الشهداء أيضاً. وليس من الخطأ اعتبار الشهداء أموات من حيث المعنى الحرفي لكلمة أموات، غير أن كلمة «أحياء» جاءت هنا لإعطاء معنى خاص عن الشهداء.

فكما جاء في شرح الكلمات، تنطبق كلمة «حي» أيضاً على من يظل عمله، أو بشكل أدق، على من يظل الغرض الذي قدّم حياته من أجله قائماً ولم ينته بموته. فالآية على ذلك تشير إلى أن أولئك الذين يضحّون بحياتهم ويبدلون أرواحهم من أجل الإسلام، يجب ألا يُعتبروا أمواتاً، لأن الهدف الذي قدّموا حياتهم من أجله لا يزال قائماً وموجوداً، ويعمل من أجله الآخرون الذين حلوا محل أولئك الذين ضحوا بحياتهم.

وأيضاً حسب التعبيرات العربية، فإن الحيّ هو الشخص الذي لم يذهب دمه هدراً وإنما تم القصاص له. ومن هذه الزاوية، تعني الآية أنه لما تم الثأر لدماء المسلمين الذين قُتلوا في سبيل الله، ليس فقط بأن عدد الذين قُتلوا من الأعداء في الحروب كانت أكبر بكثير من أعداد القتلى من المسلمين، بل لأن أعداداً من الناس دخلوا في الإسلام تزيد كثيراً عن أعداد الذين فقدهم الإسلام في الحروب التي فُرضت عليه، وعلى هذا فإن الشهداء المسلمين يُعتبرون أحياء.

ولكلمة «حيّ» معنى آخر أيضاً. وكقاعدة عامة، لا تبدأ الحياة بشكل كامل في الحال بعد الموت. فإن النفس الإنسانية تظل في حالة ركود لفترة من الوقت بعد الموت. ويختلف طول هذه الفترة من شخص لآخر حسب نوعية الطهارة النفسية التي

يتمتع بها. ولما كان الشهداء قد ضحوا بأرواحهم في سبيل الله تعالى، فإن أرواحهم لا تبقى طويلاً في حالة الركود هذه، ولكنها تتقلب بسرعة في حياة جديدة. وهذا أحد الأسباب التي من أجلها يُعتبر الشهداء أحياء وليسوا أمواتاً.

وتحتوي الآية الكريمة على حقيقة نفسية عظيمة ولها أهمية عظمى وأثر كبير على حياة الأمم. فإن المجتمع الذي لا يقدم التكريم الواجب لأفراده الذين يضحون بحياتهم في سبيل المبادئ التي يؤمن بها ذلك المجتمع، فإنه في الحقيقة يغرس بنفسه بذور دماره وانهاره. وأيضاً فإن المجتمع الذي لا يعمل على إزالة الخوف من نفوس أفراده، يحكم على نفسه بالهلاك. والآية التي نحن بصددتها تقدم صمام أمان ضد هذين الخطرين.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾

شرح الكلمات:

لَنَبْلُوَنَّكُمْ: مشتقة من بلاء. يُقال بلاءه أي: (١) اختبره أو امتحنه بالخير أو بالشر لمعرفة حالته وقدره؛ (٢) إظهار الخير أو الشر في شيء بتجريبه وامتحانه. ابتلاء: التجربة أو الاختبار التي يتعرض لها الإنسان فيعرف بها حقيقته (أقرب الموارد ومعجم لين). راجع أيضاً الآية ٥٠ من نفس السورة.

التفسير:

تأتي هذه الآية كتابعة مناسبة للآية السابقة. فعلى المسلمين أن يكونوا متأهبين ليس فقط للتضحية بأرواحهم في سبيل الإسلام، وإنما لتحمل أنواع من المعاناة والابتلاءات التي تُفرض عليهم على سبيل الاختبار. وحسب القرآن المجيد، هناك

سببان من أجل الكشف عن حقيقة صفات الناس عن طريق الابتلاء. فالله تعالى يكشف عن صفات أولئك الذين بلغوا مرتبة عالية من الرقي الروحي، كما كان الحال مع إبراهيم عليه السلام (انظر البقرة: ١٢٥)، كما أنه يختبر أيضاً، أي يكشف عن صفات أولئك الذين لم يبلغوا بعد هذه المرتبة، كما يقول سبحانه: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ٣). والهدف الإلهي من الكشف عن صفات الفريق الأول من الناس هو أن يضعهم سبحانه في دائرة الضوء أمام الناس، وأن يجعل منهم منارات تشع بالنور، فيكونوا مثلاً سامية للطهر والفضيلة وحسن الخلق. بينما الغرض من الكشف عن صفات النوع الثاني هولفت أنظارهم إلى مواطن الضعف لديهم، لكي يعملوا على تقويتها وإصلاحها. ورغم أن المصاعب والابتلاءات تحتوي على إحساس بالألم، إلا أنها توفر أيضاً فرصة طيبة لتطهير النفس وتركيتها. وعلى هذا، فإن للمصائب والابتلاءات استخداماتها الخاصة، فهي تساعد على تقوية الإيمان. وأولئك الذين يتمسكون بالصبر عند الابتلاء، فإنهم رغم ما يعانونه من شدائد، ينالون من الله تعالى جزاءً عظيماً. وأحياناً أيضاً يكون الاختبار وسيلة لكشف ضعف المرء وسقوطه من منزلة رفيعة؛ فالابتلاء نوع من الامتحان، ورغم أنه يحدث من أجل تقدم الإنسان ورفع منزلته، فإنه أحياناً يؤدي إلى فشله (انظر الأعراف: ١٧٧).

والامتحانات التي يكشف الله تعالى بها عن صفات المؤمنين، كما جاءت في هذه الآية الكريمة هي:

- (١) الخوف، أي الحالة أو الظروف التي يغلب فيها الخوف عليهم، فيحيطهم العدو من كل ناحية مهدداً بأخطار عديدة.
- (٢) الجوع، أي نقص الطعام، إذ لم يكتف العدو بقطع وسائل الاتصال، وإنما سيقاطعهم تماماً ويعزلهم أيضاً تاركاً إياهم بغير مؤونة أو طعام. ويمكن أن تعني أيضاً كلمة «الجوع» وقوع المجاعة.

(٣) فقدان الثروة والممتلكات، أي أن العدو سوف يغير مراراً على المسلمين ويتسبب لهم في خسائر باهظة.

(٤) فقدان الحياة، أي أن الحرب القاسية التي فرضها عليهم عدوهم سوف تتسبب في فقدان الحياة.

(٥) فقدان الثمرات، أي أن أثر الأعداء لن يظل محصوراً في فقدان الثروات وفقدان الحياة فقط، وإنما سوف يؤدي أيضاً إلى فقدان محاصيلهم. وكما أن كلمة «ثمرة» تعني أيضاً ثمرات أعمال المرء أو الربح الذي يعود إليه من مصادر مختلفة، فإن النقص في الثمرات يعني أيضاً اضطراب وسائل التجارة والصناعة.

إن جميع هذه الخسائر حين تأتي سويةً فإنها بلا شك تكون حملاً ثقيلاً، غير أن المسلمين تحمّلوا عناء جميع هذه الخسائر بصبر عجيب، وجلد قوي، بشكل لا يدانيهم فيه أحد في التاريخ. لقد امتحنهم الله تعالى، وكشف عن صفاتهم، وتبين أنهم حقاً من الصابرين الصادقين.

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا
إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾

التفسير:

تقدّم هذه الآية الكريمة تعريفاً صادقاً للشخص الصابر كما هو مذكور في الجزء الأخير من الآية السابقة، فالشخص الصابر الذي ينال البشري في الآية السابقة هو الذي يتحمّل جميع أنواع المصائب والكوارث بثبات وجلد، ودون أن ينطق بكلمة من شكوى أو اعتراض أو تبرّم، وإنما يقول بإخلاص: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. وتحتوي هذه الجملة على صيغة ينبغي على كل مسلم أن يرددها حين تحل به أية كارثة تتعلق بالحياة أو الممتلكات أو غيرها.

إن الله تعالى هو المالك الحقيقي لكل ما لدينا بما فيه أنفسنا وقوانا وأرواحنا. فإذا أراد المالك سبحانه بحكمته التي لا حدود لها أن يستردّ متاً شيئاً مما يملكه، فليس من حقنا أن نتذمّر أو نتبرّم. إن علينا أن نشعر بالعرفان والشكر لما نلناه من الله تعالى، ولكن ليس من حقنا أن نتذمّر إذا ما فقدناه، فليس لنا أي حق في الاحتفاظ بأي عطية من عطايا الله تعالى.

وجملة ﴿إِنَّا لِلّٰهِ﴾ تعلمنا حقيقة روحية عظمى، وهي أنه ليس لنا ارتباط حقيقي بأمور هذه الدنيا، وعلى ذلك فإن فقدان تلك الأمور يجب ألا يكون سبباً للحزن العميق. وكذلك الجزء الثاني من الصيغة المذكورة، أي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يحتوي أيضاً على مبدأ عظيم. لقد جئنا من لدن الله تعالى، ولا بد أن نعود إليه مرة أخرى، وذلك حين يتحمّم علينا أن نقدّم حساباً بكل ما فعلناه في الدنيا. ولهذا فإن كل محنة تحلّ بنا يجب أن تكون حافزاً لنا يدفعنا إلى بذل المزيد من الجهد لتحقيق نتائج أفضل في هذه الحياة، بدلاً من الاستسلام لحالة من الحزن والإحباط. وعلى هذا فإن الصيغة الموجودة في هذه الآية الكريمة ليست مجرد تعويذة يرددها الإنسان، وإنما هي نصيحة عظيمة، وتنطوي على تحذير كبير أيضاً. فعندما يردّد المرء هذه الصيغة بإخلاص حين تنتابه ضائقة أو يعاني من خسارة أو حزن أو وفاة الأحباب، فإن المعنى العميق الذي تحتويه هذه العبارة سوف يجعل في قلبه تأثيراً يمكن المرء من تحمّل الشدائد عند وقوع المحنة ونزول البلاء. لا، بل إن لها أثراً أكبر وأعظم، إذ أنها تقوّي من صلته ورابطته بخالقه، إذ أنه يجعل الله سبحانه مركز كل فكره، وهدف جميع أعماله.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

التفسير:

تحدث هذه الآية الكريمة عن الأجر العظيم لأولئك الذين يثبتون على الصبر. وهي في الحقيقة تفسير لقوله تعالى: ﴿وَتَشَرِّ الصَّابِرِينَ﴾ الذي جاء في الآية ١٥٦ السابقة. حقاً، إن الصابرين الصادقين الذين ثبتوا في صلاتهم وعلاقاتهم بالله تعالى، والذين ترفع كل محنة وكل ابتلاء من روحانيتهم، فإنهم يرثون ثلاثة أمور: (١) صلوات من ربهم، أي أنهم ينالون البركات من ربهم؛ (٢) وينالون منه رحمة؛ (٣) ويتلقون منه الهدى. إن الله تعالى سوف يباركهم في كل مجال، وسوف يشملهم برحمته ومغفرته، وسوف يعتني بهم ويقدم لهم الهدى كلما احتاجوا لهدايته. إنه سبحانه يصير صديقاً وولياً للمؤمنين، يهرع إلى عونهم في جميع الظروف وكل الأحوال.

إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ
الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ
بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾

شرح الكلمات:

الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ: مرتفعان عند الكعبة المشرفة بمكة، والصفاء أقرب للكعبة من المروة. يرتبط هذان المرتفعان سواء من زاوية التاريخ العربي أو من وجهة النظر الإسلامية بذكرى السيدة هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام، عندما أمر سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يأخذ زوجته هاجر مع ابنهما إسماعيل عليه السلام ويتركهما في بركة العرب حيث لا زرع فيها ولا ماء. فنفذ إبراهيم عليه السلام أمر الله تعالى وتركهما في واد غير ذي زرع ولا ماء عند الموضع الذي فيه الكعبة الآن. وعندما نفذت المؤونة البسيطة من الماء التي كانت معها واشتد عطش الطفل وبدأ يضطرب لشدة الظمأ، لم تتحمل الأم رؤية ذلك. فأخذت تجري هنا وهناك بحثاً عن الماء، فصعدت مرتفع الصفا علها ترى أحداً تستقي منه،

ولكنها لم تر أحداً. فأسرعت إلى الجهة الأخرى وصعدت مرتفع المروة. ونظرت فلم تر أحداً. فرجعت إلى الصفا، ثم إلى المروة مرة أخرى، وتكرر منها هذا السعي سبعة أشواط. وفي الجولة الأخيرة عند المروة سمعت هاتفاً، وكان هذا الصوت لملاك مرسل من لدن الله تعالى. فقال: يا هاجر، اذهبي وانظري، فقد فجر الله تعالى عيناً تحت أقدام إسماعيل عليه السلام. فرجعت إلى ابنها فوجدت عين ماء بجوار إسماعيل عليه السلام (البخاري- كتاب أحاديث الأنبياء). لذا فالصفا والمروة أصبحتا من شعائر الله تعالى، أي من الرموز والعلامات الإلهية التي يجب أن تحظى بالاحترام والتوقير الكبير من قِبَل المؤمنين الصادقين.

ولقد جاء ذكر «المروة» في التوراة أيضاً ولكن بصورة مختلفة إلى حدٍ ما (سفر التكوين ٢٢: ٢؛ ودائرة معارف التوراة تحت كلمة «مورياه») فيما يتعلق بتضحية ابن إبراهيم عليه السلام.

شَعَائِر: جمع شعيرة، وهي مشتقة من شَعَرَ وتعني عِلِمَ أو فَطَنَ أو أَحَسَّ. شعيرة: (١) العلامة؛ (٢) منسك من مناسك الحج وأعماله ومعالمه؛ (٣) أي شيء بواسطته يُعرف شيء آخر؛ (٤) كل شيء أو عمل يدل على الخضوع لله تعالى (أقرب الموارد).

حَجَّ: يعني: (١) قصد أو ذهب تجاه شيء أو شخص؛ (٢) ذهب مرةً بعد أخرى؛ (٣) زار مكاناً مقدساً؛ (٤) زيارة بيت الله الحرام وأداء مناسك خاصة هناك؛ (٥) غلب بالحجة والبرهان (أقرب الموارد).

اعْتَمَرَ: مشتقة من عَمَرَ. يُقال «عَمَرَ المنزل» أي كان مسكوناً بهم؛ ويُقال عَمَرَ فلان ربّه أي عبده وصلّى له. اعتمر: قصد المكان وزاره. العُمرة: القصد إلى مكان عامر أو الزيارة التي فيها عمارة الود؛ وشرعاً هي أفعال مخصوصة تُسمّى بالحج الأصغر - لأن بعض مناسك الحج الأكبر لا تُؤدّى - وأفعالها أربعة، الإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة والحلق (أقرب الموارد).

تَطَوَّعَ: مشتقة من طاع أي انقاد أو أذعن بإرادته وبدون إكراه. والمصدر «الطوع» يعني: (١) الإذعان أو الامتثال؛ (٢) فعل الشيء إرادياً دون إلزام أو فرض. **تَطَوَّعَ**: فعل شيئاً باذلاً الجهد باختياره وإرادته. **تَطَوَّعَ** خيراً: عمل عملاً طيباً لم يكن مُلْزَماً به (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

إن من يقرأ هذه الآية بشكل سطحي قد يبدو له للوهلة الأولى أنه لا توجد هناك من علاقة بين موضوع الحج والآيات السابقة التي كانت تتحدث عن الابتلاءات والتضحيات، ولكن الدراسة العميقة سوف تكشف على الفور عن علاقة قوية، وتبين صلة متينة بين الإثنين. فالآيات السابقة كانت تلفت أنظار المسلمين إلى أنه ينبغي عليهم أن يكونوا على استعداد لتقديم التضحيات، وقدّمت لهم البشرى بأنهم إذا قاموا طواعية وصبراً بتقديم التضحيات المطلوبة، فإن الله تعالى سوف يباركهم ببركات عظيمة، وسوف يرحمهم برحمة خاصة، ويذكرهم بالخير فيقدم لهم الهدى كلما كانوا في حاجة إليه. والآن، ولكي يذكرهم الله تعالى بصدق وعده، فإنه يلفت أنظارهم إلى التضحية العظيمة التي قدمها إبراهيم عليه السلام بالقرب من الصفا والمروة. لقد أطاع إبراهيم عليه السلام ربه، وترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام بالقرب من هذين التلّين في مكة، حين كانت مكاناً قفرًا لا زرع فيه ولا ماء. لقد زرع إبراهيم عليه السلام بذوره في تربة كانت جدداء قاحلة، ولكن ما أروع نمو تلك البذور وما أجمل تكاثرها! إن الله تعالى هو حقاً المحب الودود الذي يفي بالعهود، ويذكر عبده المخلصين إبراهيم وإسماعيل عليه السلام بمعزة خاصة، حتى بعد انقضاء ٢٥٠٠ عام. ويمكن للمسلمين أن يتوقّعوا نفس الحب ونفس الإخلاص منه سبحانه وتعالى، إذا هم أحبّوه أيضاً وأطاعوه.

إن الصفا والمروة، كما جاء في شرح الكلمات، تلّان يقفان شاهدان لذكرى الصبر العظيم الذي أبدته السيدة هاجر، ولولائها الفائق وطاعتها لله تبارك وتعالى من

جانب، وللمعاملة الخاصة التي عاملها الله تعالى بها هي وابنها من جانب آخر. وزيارة الحاج لهذين التلّين يجعل في النفس انطباعاً يدفع إلى محبة الله تعالى وإكبار وفائه وقدرته جل وعلا.

ويجب ألاّ تفهم الآية ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ على أن السعي بين الصفا والمروة أمر اختياري وليس فرضاً. لقد استعمل هذا الأسلوب لكي يزيل من نفوس البعض شعور الكراهية تجاه هذين التلّين، لأن المشركين العرب وضعوا صنماً فوق كل منهما (صحيح مسلم). وقد أزال الله تعالى هذا الشعور الخاطئ بقوله إنه لا مانع من السعي بين الصفا والمروة التي بسبب تضحيات إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام من ناحية، وبسبب نزول أفضل الله تعالى وبركاته من ناحية أخرى، قد أصبحت ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾. ويتبين من السُنّة العملية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتعليمه لأتباعه (البخاري، كتاب الحج) أن السعي بين الصفا والمروة فرض في كل من الحج والعمرة.

ولا تنطبق كلمات الآية ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ على الحجّ الذي هو فرض على كل مسلم قادر مرة واحدة في العمر، ولكنها تنطبق على النوافل التي يؤدّيها المرء تطوّعاً. ويمكن أن تنطبق هذه الكلمات أيضاً على الحجّ التطوّعي الذي يمكن أن يؤدّيه المسلم بعد أن يكون قد أدّى فريضة الحج.

وحيث إن الآية الكريمة تذكر موضوع الحجّ هنا كأمر عابر بالنسبة لموضوع التضحيات الذي يتناوله سياق الآيات، لذا فإن الآية لم تذكر هنا شرح شعائر الحج ولا فلسفته التي سوف يأتي ذكرها في الآيات المقبلة الخاصة بهذا الموضوع.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ

لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٦٠﴾

شرح الكلمات:

يَلْعَنُهُمُ: لشرح كلمة «لعن» انظر شرح كلمات الآية ٨٩ من نفس السورة.

التفسير:

يمكن أن تنطبق هذه الآية على المسلمين واليهود. وفي حالة المسلمين فإنها تعني لفت أنظارهم لكي يكونوا على حذر، فلا يتهاونوا في تبليغ الحق والتبشير بالإسلام، وألا يخفوا حقائقه أو يهملوها، وإنما عليهم أن يكونوا دائماً على استعداد لإعلانها مهما كانت مرارة المعارضة لها. فإن فشلوا في ذلك فلن يفقدوا القرب من الله تعالى فقط، وإنما سوف يُبعدون عنه فتصيبهم لعنته تعالى. وفي حالة انطباق الآية على اليهود، وهو الصحيح، فمن السهل رؤية العلاقة بينها وبين الآية السابقة التي ذكرت الصفا والمروة. فقد ترك إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام عند هذين الجبلين خضوعاً لأمر الله تعالى، وعند هذين الجبلين أعاد بناء الكعبة الشريفة مع ابنه إسماعيل عليه السلام، ودعيا الله تعالى أن يرسل في ذريتهما رسلاً. والقرآن المجيد يشير هنا إلى اليهود الذين كانوا يخفون النبوءات التي تحتويها صحفهم المقدسة عن ظهور الرسول ﷺ. والآية تحذر اليهود من أنهم إذا أخفوا هذه النبوءات عن النبي العربي، رغم أن القرآن المجيد قد أعاد تذكيرهم بها ولفت أنظارهم إليها، فإن الله تعالى سوف يُبعدهم عنه ويحرمهم من رحمته ويلقي بهم ملعونين في جهنم. والآية تحذر اليهود أيضاً من أنه لما كان الله تعالى هو إله الكون، فإن لعنته لن تصيبهم وحدها، وإنما سوف تصحبها لعنة كل ما هو تحت سلطان الله تعالى من ملائكة وأناس وظواهر وقوانين طبيعية وكل شيء.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦١﴾

شرح الكلمات:

أَصْلَحُوا: مشتقة من صَلَحَ أي زال عنه الفساد، ضد فسد. أصلح: أقام أو عدَّل أو نَقَّح أو أحسن. أصلح بين أو أصلح بينهم: وُقِّع بينهم أي أنهى ما بينهم من نزاع أو خلاف (أقرب الموارد).

التفسير:

إن الله تعالى لا تسيطر عليه روح الانتقام، ولذلك فهو دائماً وأبداً على استعداد لأن يغفر ويتوب على أولئك الذين يتوبون ويصلحون أخطاءهم. غير أنه ينبغي أن تكون التوبة حقيقية وبإخلاص، إذ لا يكفي مجرد التفوُّه ببضع كلمات تعبيراً عن التوبة. إذ ينبغي على فاعل الإثم أن يحاول جهده في إصلاح خطاياہ التي ارتكبها، وأن يعد بأن يحقق في نفسه تغييراً حقيقياً في المستقبل. ولن ينال الخاطئ المغفرة إلا بعد أن يحقق في نفسه التغيير الحقيقي المطلوب. وأما بالنسبة لليهود الذين يكتُمون ما أنزله الله تعالى من نبوءات عن ظهور الرسول ﷺ فإن القرآن المجيد يضع ثلاثة شروط كبرهان للتوبة الحقيقية؛ أولاً: عليهم أن يعلنوا توبتهم ويرجعوا عن طريقهم الخاطئ؛ ثانياً: عليهم تحقيق إصلاح عملي، ليس فقط بإصلاح أنفسهم، ولكن بإصلاح أولئك الذين تسببوا هم في سوء توجيههم؛ ثالثاً: عليهم أن يبينوا الحقائق التي كانوا يكتُمونها عن النبوءات التي جاءت في صحفهم المقدسة. فإذا حققوا هذه الشروط الثلاثة، فحينئذ سيجدون الله تَوَّاباً رحيمًا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ
عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٢﴾

التفسير:

إن كلمة «الناس» هنا يمكن أن تعني «جميع الناس» أو «الصلحاء الأبرار من الناس»، أي أولئك الذين يستحقون أن يُعتبروا أناسًا بمعنى الكلمة. وهذا التقسيم ليس عشوائيًا، لأن هناك فئة من الناس يصفها القرآن المجيد بأنها: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف: ١٨٠).

إن لعنة الملائكة والصلحاء من الناس تعني أنه لما كان الملائكة وصلحاء الناس خاضعين لطاعة ربهم، ولا يحدون أبدًا عن إرادته ﷻ، كان من الطبيعي أنهم يقطعون جميع صلاتهم بالكافرين، أي اليهود، حينما يرون أن الله تعالى يفعل ذلك. فالملائكة، الذين من مهامهم مساعدة الصالحين وإنزال العقاب بالأشرار، سوف يكونون ضدهم، وكذلك جميع الأبرار من الناس سوف يبذلون جهدهم للقضاء على أعمالهم الشريرة. وباختصار، فإنهم سيجدون جميع القوى الإلهية مصطفة ضدهم.

أما إذا أخذنا كلمة «الناس» لتعني جميع الناس، فإن الجملة تعني أن جميع الناس تحت سلطان الله تعالى، وأنه سبحانه يقدر الأمور بحيث لا يستطيع أحد مساعدتهم ضد ما قضى به الله جل وعلا.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا
هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٣﴾

شرح الكلمات:

يُنْظَرُونَ: مشتقة من نَظَرَ وتعني: (١) أبصر؛ (٢) تأنى وأرجأ. يُقال نظر فلاناً الدين: أمهله في سداد الدين (أقرب الموارد).

التفسير:

إن الله تعالى بطيء في إنزال العقاب، ولكن إذا امتلأت كأس القوم الكافرين إلى حافتها بشروهم وظلمهم، ولم يعد التحذير من أثر عليهم، فإن العقاب الوبيل والعذاب الشديد يحل بهم، ولا ينالون مهلة ولا تأجيلاً، إلى أن يتم اجتزاز جذور جميع الأمراض الروحية.

وَالِهَٰكُمُ ۤإِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
الرَّحْمٰنُ الرَّحِیْمُ ﴿١٦٤﴾

التفسير:

لما كانت جميع الذنوب تنشأ من ضعف الإيمان بالله تعالى، فإن هذه الآية التي تبرز وحدانية الله تعني أنه إذا آمن الناس حقاً بوحداية الله ﷻ وامتنعوا عن اتخاذ آلهة زائفة، فإنهم لن ينحرفوا أبداً عن الطريق المستقيم. ويجب ألا نفهم أن عبادة الأصنام تعني عبادة الصور والتماثيل فقط، فإن كل من يحب أحداً سوى الله ﷻ الحب الذي ينبغي لله، أو يخشى أحداً كما ينبغي أن يخشى الله، أو من يثق في أحد ويتكل عليه كما ينبغي أن يثق في الله تعالى ويتكل عليه، فإنه في الحقيقة يعبد الأصنام، ولا بد له أن يتحمل نتيجة ذلك. إن الغاية الأولى والعظمى للدين هي إرساء قواعد وحدانية الله تعالى، وقد عالج القرآن المجيد هذا الموضوع بعمق، ولمدى لا مثيل له في أي كتاب آخر. إن الإسلام يرفض ويدين بشدة وحسم كلاً من الشرك الجليّ والشرك الخفيّ.

ويمكن أن تعني الآية أيضاً أنه بقدم الإسلام، فإن الله تعالى، خالق السماوات والأرض، لم يعد إلهاً لهذا القوم أو ذاك، ولكنه صار إله الناس ورب العالمين. إن كلمة «الرَّحْمَنُ» التي جاءت في الآية؛ والتي تعني أنه سبحانه هو الذي يعطي جميع الناس من فضله، تشير إلى هذه الحقيقة. ومن هذه الزاوية ترتبط الآية بالآية رقم ١٥٩ التي جاء فيها ذكر الصفا والمروة، واعتبار أنهما قد صاراً من شعائر الله تعالى، وبذلك فهما يشيران إلى مهمة رسول الإسلام ﷺ الموجهة للعالم بأجمعه.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٥﴾

شرح الكلمات:

اختلاف: مشتقة من خَلَفَ. يُقال خَلَفَهُ أي كان خليفته. خَلَفَ الرجل: بقي بعده. اختلفه: جاء بعده كخليفة له. اختلفوا أي (١) جاؤوا واحداً تلو الآخر؛ (٢) لم يتفقوا (أقرب الموارد).

الْفُلْكَ: مشتقة من الفعل «فَلَكَ» أي صار مستديراً. الْفُلْكَ: السفينة وُسِّمَتْ هكذا ربما لأنها تبدو مستديرة لا ملامح لها عند مشاهدتها في البحر من مسافة كبيرة.

و«الْفُلْكَ» يُؤْتَتْ وَيُدَكَّر، وتستخدم للواحد أو للجمع. الْفَلَكَ: مدار النجوم وأيضاً سُمِّي هكذا لاستدارة السماء ظاهرياً (أقرب الموارد ومفردات الراغب ومعجم لين).

دَابَّة: اسم فاعل من الفعل «دَبَّ» ويعني مشى على هيئة كمشي الطفل أو النملة أو المريض. الدابة: كل ما دبَّ من الحيوان ويغلب على ما يُركب ويُحمل عليه الأحمال كالخيل والبغال والحمير، إلخ. ويقع على المذكر والهاء فيها للواحدة كما في «الحمامة» والجمع: دواب (أقرب الموارد ومعجم لين). وتستخدم كلمة دابة لكل حيوان متحرك، صغيراً كان أم كبيراً، سواء يمشي على رجلين أو أربع أو يزحف على بطنه، إلخ (سورة النور، الآية ٤٦).

المُسَخَّر: اسم مفعول من الفعل سَخَّر. يُقال سَخَّرَهُ أو سَخَّرَهُ أَي: (١) كَلَّفَهُ أو حَمَلَهُ عملاً بلا أجر؛ (٢) ذَلَّلَهُ وجعله مقهوراً خاضعاً له. لذا فكلمة «مُسَخَّر» تعني كل ما هو مقهور لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر (أقرب الموارد).

التفسير:

لهذه الآية معنيان، أحدهما حرفي والآخر مجازي. فمن الناحية الحرفية تقدم الآية دليلاً يؤيد وجود الله تعالى ووحدانيته التي ذكرتها الآية السابقة. فلا شك أن الدراسة العميقة لهذا الكون تشير إلى وجود خالق قدير، ومن ناحية أخرى تشير إلى أن الإنسان قد خُلِق من أجل غرض معين. كذلك فهي تبين أن الله تعالى بعد أن خلق هذا الكون الرحيب لم يتركه وشأنه، وإنما استمر في رعايته وتسيير أموره، وأنه سبحانه هو العلة الأولى لكل معلول، وهو المسبب وراء كل تغيير وكل حادث في هذا الكون. إن السماء والأرض، والليل والنهار مع تعاقب النور والظلام، وتدير الأرزاق ونزول المطر وقدرته على بعث الحياة في الأرض أو تدميرها، ووسائل الاتصال وهبوب الرياح والظل والحرور، كلها تشير إلى مهيمن واحد، هو الله ﷻ، خالق السماوات والأرض. وإذا كان الله تعالى قد جعل كل هذا، وسَخَّره من أجل توفير الحاجات المادية للإنسان، فلا يمكن تصوُّر أنه سبحانه قد أهمل حاجاته الروحية التي

هي أكثر أهمية من الحاجات المادية. وليتفكر في ذلك جميع عقلاء العالم وحكمائه، ثم ليعاودوا التأمل والتفكير.

إن القرآن المجيد يأخذ الكون ككل ليبرز المعنى المطلوب. فإن عناصر الطبيعة، إذا أخذنا كلاً منها على حدة، قد لا تكفي وحدها برهاناً حاسماً على وجود الله تعالى، كما لو أخذنا الكون كله بجميع عناصره. فمن الممكن مثلاً القول بأن السبب في وجود الأرض هو التقاء حشد من الذرات بطريق الصدفة، كما يمكن تقديم سبب مماثل لوجود الشمس أو القمر وهكذا. ولكن حين يؤخذ في الاعتبار هذا الكون بأكمله، والنظام الدقيق الذي يكتنفه، يصبح من المستحيل الهرب من النتيجة المحتمة، وهي أن هذا الكون لم يحدث بطريقة عشوائية بمحض الصدفة. والواقع أن التوافق البالغ الذي يسيطر على كل مكان في الكون، يدل بقوة على حقيقة أن هذا النظام بأكمله قد خُلق بواسطة كائن عاقل، وأن ذلك الكائن القوي القدير العليم هو ﷻ الذي يتولى تدبير أموره وتنظيم شؤونه.

وأما إذا اخترنا المعنى المجازي للآية، فإن الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس يمكن أن ترمز للأنبياء ﷺ الذين هم عون للناس على عبور بحر الشهوات والرغبات المادية التي تفصل بين الله تعالى والإنسان، وأما ما ينزل من السماء من ماء ليحيي به الله تعالى الأرض بعد موتها، فهو كناية عن الوحي الإلهي الذي ينزل من السماء كالمطر ويعطي الحياة الروحية للعالم بعد أن يكون الموت قد أصابه. إن السحاب المسحّر بين السماء والأرض لا يأتي إلى الأرض بماء جديد، وإنما الماء موجود بالفعل في بحار الأرض ومحيطاتها الواسعة، غير أن الناس لا تستطيع الاستفادة منه لأنه غير نقي. فالله تعالى ينقيّه بأن يحوله إلى سحاب، ثم يرسل الماء مطراً نقياً مرة أخرى إلى الأرض. وبالمثل، عندما يرسل الله تعالى وحياً جديداً فإنه ينقي المعتقدات التي تكون بمضي الزمن قد اختلطت بالآراء الخاطئة والأفكار الخرافية. إنه لمن غير المعقول، ولا يمكن تصوّر أن الله تعالى الذي يُزود الإنسان بماء المطر النقي، قد أهمل تزويده بالماء السماوي الضروري لحفظ حياته الروحية. وبالمثل، فإن الليل والنهار يرمزان

لتعاقب أزمنة النور والظلام، وهذا يومئ إلى أن مجيء الرسول ﷺ مبشراً بانبثاق فجر يوم جديد.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن التأكيد على أهمية التفكير في ظواهر الطبيعة في هذه الآية، يلفت أيضاً أنظار الكفار إلى حقيقة أنهم لا يمكن أن يأملوا في تحقيق أي نجاح في تدابيرهم ضد الرسول ﷺ، لأن الكون كله تحت سلطان الله ﷻ، وهو يعمل في جانب رسوله ﷺ ولتحقيق أهدافه.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا
يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا
لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ
أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٦﴾

شرح الكلمات:

دُون: مشتقة من دان بمعنى صار دوناً أي خسيساً أو ضعيفاً. «دون» كصفة تستخدم نقيض فوق، تقول دونه أي أخط منه رتبة، وتأتي أيضاً بمعنى فوق أو الشريف. إذا استخدمت فوق كحرف جر كما هو الحال في الآية التي نحن بصدد تفسيرها فتعني: (١) أسفل كما في قول: هذا دون ذاك أي مُتَسَفِّل عنه، أو بمعنى وراء كما في قول: قعد دونه أي وراءه؛ (٢) فوق؛ (٣) غير (أقرب الموارد).

أَنْدَاد: انظر الآية ٢٣ من نفس السورة.

التفسير:

عند تناول موضوع عبادة الأصنام، استعمل القرآن المجيد أربع كلمات، وهي: الند، والشريك، والإله، والرب. وبينما تستخدم الكلمتان الأولى والثانية للتعبير عن

الأشياء التي تُعبد من دون الله تعالى، فإن الكلمتين الثالثة والرابعة تستخدمان في التعبير عن الله تعالى أيضاً. إن كلمة «ند» التي تعني «مثيلاً أو مساوياً»، والتي جاءت في هذه الآية، تشير إلى تلك الأشياء التي تُعبد من دون الله تعالى، ويُعتقد أنها مثل الله أو مساوية له، بينما هي تعارضة وتضاده. ومن بين أولئك الذين اتخذوا من دون الله تعالى أنداداً، يمكن ذكر أتباع الديانة الزرداشتية الذين يؤمنون بوجود إلهين مستقلين: «أورمازد» إله النور، و«أهريمان» إله الظلام.

إن حب الله تعالى هو جوهر كل دين، وهو يشكل في الإسلام المركز الذي تدور حوله جميع التعاليم الإسلامية. ولا يوجد دين من الأديان جعل لحب الله تعالى أهمية عظمى كما فعل الإسلام. وقد كان الرسول ﷺ منغمساً بكل كيانه في حب الله ﷻ حتى إن الوثنيين العرب كانوا يقولون عنه إنه هام بحب ربه كما يهيم العاشق حباً بمحبوبه. ولم يتناول القرآن المجيد موضوعاً بشكل كامل ومتكرر، كما تناول موضوع جمال الله وجلاله وحسن صفاته بشكل يخلق في النفس الإنسانية حباً لا يقاوم، وشوقاً لوصال مولاه وسيده الذي وصفه القرآن المجيد باسم «الودود»، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩١)، وأيضاً قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (البروج: ١٥). ومع ذلك فإن بعض الكتاب المسيحيين يتهمون الإسلام بأنه دين بارد خال من محبة الله تعالى. فهل يمكن أن يكون شيء أبعد عن الحقيقة من هذا الافتراء الباطل؟

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا
الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٧﴾

شرح الكلمات:

تَبَرَّأَ: مشتقة من برئ. يُقال برئ من العيب أو الدين أي تخلص وسَلِمَ منه. بارأً شريكه: فارقته وفاضله. تبرأً من فلان: انفصل عنه؛ تخلص منه؛ أعلن أنه لا علاقة بينه وبين هذا الشخص؛ أنكره وتخلَّى عنه (أقرب الموارد).

الْأَسْبَابُ: جمع سبب ومعناه: (١) الحبل لأنه يتوصل به إلى الماء؛ (٢) الذريعة وما يُتوصل به إلى غيره؛ (٣) الطريق؛ (٤) المودة وعلاقة القرابة (أقرب الموارد).

التفسير:

تصف هذه الآية الكريمة بشكل حيٍّ منظر أولئك المشركين من عبّاد الأصنام حين يُدعون لكي يُحاسبوا عن معتقداتهم الباطلة وأعمالهم السيئة، وسوف يطلبون العون والهدى من قادتهم، ولكن هؤلاء القادة سوف يتبرأون منهم، وسوف تنقطع بينهم كل صلات المحبة والقرابة، وسوف تضيع كل وسائل العون والنجاة. والآية عبارة عن تحذير شديد لأولئك الذين يتبعون قادتهم اتّباعاً أعمى، وبسبب سوء توجيههم فإنهم يرفضون الإيمان يرسل الله تعالى.

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَ لَنَا كَرَّةٌ
فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ
يُريهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ
بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٨﴾

شرح الكلمات:

كَرَّةٌ: صيغة المصدر من كَرَّ. يُقال كَرَّ الفارس أي فَرَّ للجولان ثم عاد للقتال. فعله كَرَّةً بعد كَرَّةً: فعله مرة بعد أخرى. لذا فكلمة «الكَرَّة» تعني: (١) معاودة الهجوم؛ (٢) العودة للحالة الأصلية؛ (٣) المَرَّة (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

حَسَرَات: جمع حسرة المشتقة من حَسَرَ. يُقال حَسَرَ البحر أي تراجع عن شاطئه فكشفه. حسر الرجل تعني: (١) صار مُتضجرًا ومُتعبًا؛ (٢) أصبح نادمًا وحزينًا. الحَسْرَةُ تعني: (١) شعور الإنسان بالِمْ وكرٍ شديدٍ لفقد شيء أو لضرر أَلَمَّ به؛ (٢) الأسف والندم؛ (٣) الحزن على شيء فاتته (أقرب الموارد وتاج العروس).

التفسير:

بعد أن يؤس الأتباع الكافرون من الحصول على أي عون من قادتهم، فسوف يتمنى هؤلاء الأتباع يوم القيامة لو أنهم عادوا مرة أخرى إلى الدنيا حتى يُعلنوا إدانتهم لأولئك القادة في الدنيا، وليتبرأوا منهم كما تبرأوا هم منهم في الآخرة. ولكن هذه الأمنية لن تكون سوى رغبة لا طائل من ورائها، ومصيرها النهاية والفناء دون أن تتحقق. لا، بل إن هذه الرغبة ذاتها ستكون مصدرًا للألم المبرح وعقابًا لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ لا يعني أن العقاب في جهنم لن ينتهي، فإن الإسلام لا يقول بأزلية جهنم. فبينما يذكر القرآن المجيد أن نعيم الجنة بلا نهاية، فإنه لا يذكر نفس الشيء عن عقاب جهنم، وإنما يذكر أنه سيكون طويلًا (انظر سورة هود: ١٠٩، ١١٠). وأقوال الرسول ﷺ تؤيد أيضًا هذه الحقيقة، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "يأتي على جهنم يوم ما فيها من بني آدم أحد تخفق أبوابها". (كنز العمال - ذكر النار ووصفتها - الحديث رقم ٣٩٥٠٦)

والآية التي نحن بصددھا تعني فقط أن أصحاب النار حين يكابدون شدة العقاب فيها، يتمنون لو أنهم تمكّنوا من الخروج من جهنم، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك إلى أن تنتهي مدة عقابهم، كما يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا

أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿السجدة: ٢١﴾. كذلك فإن كلمة ﴿النَّارِ﴾ التي جاءت في هذه الآية يمكن أن تعني أيضاً نار الألم والكرب التي يحترقون فيها بسبب فشل تدابيرهم، ولأن آمالهم قد خابت، وضاعت كالفقاعات في الهواء.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا
طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٩﴾

شرح الكلمات:

حلال: صيغة المصدر من الفعل حَلَّ ولها معانٍ عديدة. يُقال حَلَّ العقدة أي نقضها وفتحها. حَلَّ بالمكان: نزل به. حَلَّ عليه غضب الله تعالى: نزل عليه أو ألمَّ به عقاب الله تعالى. حَلَّ الشيء: كان حلالاً. حَلَّ اليمين: برَّ به. لذا فكلمة «حلال» تعني: ما أباحه الله تعالى وسُمي حلال لانحلال عقدة الحظر عنه؛ ضد الحرام (أقرب الموارد).
طَيِّبًا: مشتقة من طاب أي حَسُنَ. طاب الشيء: لَدَّ وزكا وحَسَنَ وحلا وجلَّ وجاد. لذا «الطيب» تعني الأفضل من كل شيء؛ الطاهر؛ المناسب؛ المفيد (أقرب الموارد).
خُطَوَات: جمع خطوة المشتقة من خطا وتعني مشى أو أسرع في السير. الخُطْوَة: المسافة ما بين القدمين أثناء المشي. والتعبير «لا تتبعوا خطوات الشيطان» يعني لا تتبعوا طريقه وسبله (أقرب الموارد).

مُبِينٌ: مشتقة من بَانَ وتعني: (١) اتضح؛ أو (٢) انقطع أو انفصل. أبان الشيء يعني: (١) أَوْضَحَهُ وَأظْهَرَهُ؛ (٢) قَطَعَ الشيء فجعله أجزاءً، أو فصله وفرّقه. تبيّن الشيء: ظهر ووضح. لذا فكلمة «مبين» تعني: (١) الشيء الواضح الجلي؛ (٢) الذي

يجعل أموراً أخرى أكثر وضوحاً وجلاءً؛ (٣) الذي يقطع الشيء أو يفصله ويُفرِّقه (أقرب الموارد).

التفسير:

إن الأعمال الطيبة يجب أن تصاحب الإيمان الصحيح. ولذلك، بهذه الآية يبدأ الجزء الثاني من دعاء إبراهيم عليه السلام الذي يتعلق بعمل ومهمة الرسول الموعود، وهو تعليم قوانين الشريعة والحكمة من ورائها. ومن الآن فصاعداً سيأتي ذكر القوانين الخاصة بالصلاة والصيام والزكاة والحج، وأيضاً القوانين المتعلقة بالأمور الاجتماعية. ولما كانت الأطعمة تؤثر على أخلاق الإنسان، جاء أولاً ذكر التعاليم الخاصة بها. والإسلام يؤكد على أن الطعام: (١) يجب أن يكون حلالاً؛ أي أن الشريعة تسمح به؛ (٢) يجب أن يكون طيباً؛ أي أنه جيد وطاهر ومستساغ وصحّي. وحسب هذا الشرط الثاني يحدث أحياناً أن تكون الأطعمة الحلال ممنوعة. فمثلاً، أكل لحم الماعز حلال، ولكن إذا فسد اللحم وأنتن فلا يكون طيباً للأكل ولا يصحّ أكله. إن التمييز بين الطعام الحلال والطيب لا يوجد في أي تعاليم سوى تعاليم الإسلام. وتعليم الإسلام عن هذا الموضوع تعليم شامل واسع، ولا يضع فقط الشروط التي بسببها يصير الحلال ممنوعاً، وإنما يبين أيضاً الظروف التي يصير فيها الطعام غير الحلال مسموحاً به. (انظر البقرة: ١٧٤؛ والمائدة: ٤؛ والأنعام: ١٢٠، ١٤٦؛ والنحل: ١١٦).

والنهي عن اتباع خطوات الشيطان، الذي جاء مباشرة بعد الأمر الخاص بالطعام، يرمي إلى تأثير الأعمال الجسمانية على الأحوال الأخلاقية والروحية للإنسان. إن استعمال الأطعمة غير الحلال وغير الصحية يمكن أن تفسد القوى الأخلاقية والروحية، بينما تساعد الأطعمة الحلال والصحية على تقوية قوانا الروحية والأخلاقية. وقد عولج هذا الموضوع أيضاً في الآية ٥٢ من سورة «المؤمنون».

وكما جاء في شرح الكلمات، فإن كلمة «مبين» لها معان ثلاثة، وبالتالي فإن قوله تعالى: ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يمكن أن يعني: (١) أن الشيطان عدوّ واضح وظاهر للإنسان؛

(٢) أن الشيطان ليس ظاهراً في ذاته، وإنما يجعل علاقاته بالإنسان ظاهرة، حيث إنه يترك أثراً مشهوداً من فسادهِ حيثما سار وخطا؛ (٣) أنه يحاول دائماً أن يخلق الخلاف والشقاق بين المؤمنين، وأن يقطع ما أمر الله به أن يوصل من علاقات. وفي هذا الموضوع يمكن مراجعة شرح الآية ٢٨ من سورة البقرة.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

شرح الكلمات:

السُّوء: صيغة المصدر من الفعل ساءَ ويعني صار قبيحاً وفاسداً. ساء الأمر فلاناً أي أحزنه أو فعل به ما يكرهه. كلمة «السوء» تعني: (١) الفساد؛ (٢) كل ما يَغُمُّ الإنسان من الأمور؛ (٣) كل ما قبح من فعل وقول (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

الْفَحْشَاءُ: مشتقة من فَحَشَ أي جاوز الحد أو أفرط؛ أصبح في غاية القبح والفساد والشر وغير مقبول تماماً. لذا فكلمة «فحشاء» تعني: (١) كل ما كان مفرط الفساد والسوء؛ (٢) كل ما نهى الله عنه؛ (٣) القول أو الفعل الشنيع؛ (٤) الزنا (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تحدّث الآية الكريمة عن الطرق الخفيّة التي يستخدمها الشيطان من أجل غواية الإنسان. فهو يبدأ أولاً بحضّ الإنسان على ارتكاب الأعمال التي لا تبدو ظاهرة الفساد، ولا تؤثر إلّا على من ارتكبها وحده. وبعد ذلك، خطوة بعد خطوة، يدفعه إلى ارتكاب الذنوب حتى ينغمس فيها تماماً إلى أن يفقد كل إحساس بالحياء أو الخوف من فعل الإثم، فيصل به في النهاية إلى أن يجعله يبتدع أموراً في الدين بغير علم ودون سلطان. ولما كانت الدوافع الشيطانية لا تقوم أبداً على العلم والعرفان، فإن النتائج الطبيعية

التي تترتب على اتباعه هي أن أولئك الذين يتبعونه يبدؤون في التقول على الله تعالى بأشياء دون أي سلطان لهم بذلك، فتقوم نظرياتهم على جهل وليس على معرفة. وفي الحقيقة، إن المعرفة لا تتحقق إلا بالملاحظة، والملاحظة لا تتحقق إلا بالاقتراب من الشيء المراد معرفته. لذا، فإنه من العبث أن نتوقع الحصول على المعرفة الوثيقة الصحيحة عن الله تعالى من هؤلاء الذين هم بعيدون عنه.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ
تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧١﴾

التفسير:

إنه من الغريب حقاً، رغم أنه أمر واقع، أن الإنسان يتبع غالباً آباءه وأسلافه اتباعاً أعمى في الأمور الدينية التي تهم الإنسان بشكل كبير، ولا يأبه كثيراً بأن يتأكد مما إن كان أولئك الآباء على علم أو على عقل أو حكمة أو هوى. ومن ناحية أخرى نجد أنه في الأمور المادية التي تتعلق بشؤون الدنيا، نراه دائماً يكون شديد الحرص على أن يتيقن من أنه يتخذ المنهج الصحيح والقرار الصائب، وأنه لا يتبع الآخرين اتباعاً أعمى.

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمْى فَهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٢﴾

شرح الكلمات:

يَنْعَقُ: مشتقة من نَعَقَ أي صاح بشدة. يُقال نعق الراعي بغنمه أي صاح بها وزجرها. نعق المؤذن: رفع صوته بالأذان (أقرب الموارد).

دُعَاء: دعاه أي ناداه وصاح به (أقرب الموارد).

نِدَاء: تعني: (١) الصوت العالي أو الصراخ؛ (٢) الصياح دون أن يقصد به النداء على شخص معين (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تذكر هذه الآية الكريمة أن الرسول ﷺ مثل الراعي الذي ينادي على قطيعه، ولكن تلك البهائم لا تسمع شيئاً من ندائه، وإنما تسمع صوته فحسب، لأنها لا تستطيع أن تفهم شيئاً مما يقول. وبالمثل، فإن القوم الذين يخاطبهم الرسول ﷺ ولا يؤمنون به، يشبهون قطيع الحيوانات الذين لا يستطيعون أن يفهموا قوله. ولذا، يمكن فهم كلمات الآية بأنها تعني «مثل الذين كفروا كمثل أصحاب الذي ينعق... إلخ». لقد بلغ الرسول ﷺ الرسالة الربانية للكافرين والمشركين، وقد سمعوا صوته، ولكنهم لم يبذلوا جهداً لاستيعاب معنى رسالته، وكأن كلماته قد وقعت على آذان صمّاء. وكان من نتيجة ذلك أن وهن وضعف ما بقي من قدرات روحية لدى أولئك الكافرين إلى أن فسدت، فأنحدروا إلى مستوى الأنعام والبهائم (انظر الأعراف: ١٨٠؛ الفرقان: ٤٥).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ
مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٣﴾

التفسير:

إن الأمر الذي ينطوي عليه قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ هو أنه من غير المسموح للمسلمين أن يتناولوا الأطعمة التي يمكن أن يكون فيها إيذاء لصحة الإنسان الجسدية أو الأخلاقية أو الروحية، حتى ولو كانت هذه الأشياء حلالاً تسمح بها الشريعة. وقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يتضمّن إضافة أنه من غير المسموح به أيضاً للمسلمين أن يتناولوا شيئاً تم الحصول عليه بطرق غير مشروعة. فما يمكن تناوله هو الأشياء التي هي من رزق الله تعالى، أي أن الأشياء التي تم الحصول عليها بطرق مشروعة هي فقط التي يمكن تناولها.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٤﴾

شرح الكلمات:

الْمَيْتَةُ: مشتقة من مات أي فارق الحياة. المَيْتَةُ: (١) الحيوان الذي يموت حتف أنفه (أقرب الموارد)؛ (٢) الحيوان الذي أزهقت روحه بغير تذكية أي من غير الطريق الذي بيّنته الشريعة (مفردات الراغب ومعجم لين).

الْخِنْزِير: هناك اختلاف بين المراجع عن أصل كلمة خنزير، هناك من يرى أنها مشتقة من خنزُر، وآخرون يرون أنها مشتقة من خزر. وكلمة «الخنزرة» تعني: الغِلْظُ (الأرض الوعرة) أو الفأس الغليظة. خزرت العين أي ضاقت وصغرت. خزر الرجل أي نظر بمؤخر أو بطرف عينه؛ أو به حول في إحدى عينيه. تقول العرب «كل خنزير أخزر» أي أقبلت حدقتاه إلى أنفه. خَزَرَ المرء: تدهى أي تكلف وادّعى الدهاء (لسان

العرب). الخنزير: حيوان معروف بدناءته وخسّته، ويُقال إن جميع الأنبياء ﷺ حرّموا أكل لحمه (معجم لين).

ولقد كتب سيدنا الإمام المهدي ﷺ مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية في كتابه الشهير (فلسفة تعاليم الإسلام) حول حرمة لحم الخنزير فقال:

«هنا حكمة جديرة بالذكر، وهي أن الله تعالى عندما حرّم الخنزير جعل في اسمه ما يشير إلى تحريمه أصلاً وقد ضَمَّن اسمه الإشارة إلى تحريمه منذ البداية، فلفظ خنزير مركب من كلمتين: «خنز» ومعناها فاسد جداً، و«أر» أي أرى، فيكون المعنى المركب «أراه فاسداً جداً». فحتى الاسم الذي أطلقه الله تعالى على هذا الحيوان منذ الابتداء يدل على خبثه. ومن الاتفاق العجيب أن اسمه في الهندية «سور» وهذا أيضاً مركب من كلمتين: «سوء» و«أر» أي أراه سوءاً.

وأما معنى الاسم فاسد جداً فهو لا يحتاج للشرح. من ذا الذي لا يدري أن هذا الحيوان أشد حرصاً على أكل النجاسات، وأنه فوق ذلك عديم الغيرة ديوث؟ والعلة في تحريمه ظاهرة من أن قانون الفطرة يقضي بأنه لا يكون تأثير لحم هذا الحيوان النجس الخبيث في الجسم والروح إلا خبيثاً» (فلسفة تعاليم الإسلام).

أَهْلٌ: مشتقة من هَلَّ. يُقال هَلَّ الهلال أي ظهر، وهَلَّ الرجل أي فرح وصاح. أَهْلٌ بالتسمية على الذبيحة: رفع صوته بالتسمية على الذبيحة أي قال «بسم الله». أَهْلٌ السيف بفلان أي قطع فيه (أقرب الموارد). كلمة «إهلال»: صيغة المصدر من أَهْلٌ وتعني رفع الصوت بالهتاف عند رؤية الهلال (مفردات الراغب). أَهْلٌ به لغير الله تعالى: ما ذَكَرَ أو نُودِيَ عليه بغير اسم الله تعالى عند ذبحه (أقرب الموارد).

اضْطَرَّ: مشتقة من ضَرَّ، ضد نفع أي تسبب في الأذى. ضَرَّه إلى كذا أي ألجأه إليه. اضطَرَّه إلى كذا: أحوجه وألجأه إلى أمرٍ ضد رغبته (أقرب الموارد).

بَاغٍ: مشتقة من بَغَى أي: عصى؛ تَمَرَّدَ؛ ظَلَمَ؛ ارتكب جُرمًا. وكلمة «بَاغٍ» هي في الأصل «باغي» وهي اسم فاعل من بَغَى وتعني: الظالم؛ العاصي لله والناس (أقرب الموارد).

عَادٍ: اسم فاعل من عدا أي الذي تجاوز الحدود الصحيحة أو المسموح بها. عدى عليه: ظلمه وأخطأ في حقه. وكلمة «عَادٍ» هي في الأصل «عادي» أي الذي يعتدي ويتجاوز الحدود (أقرب الموارد).

إِثْمٌ: الفعل أَثَمَ أي ارتكب مُحَرَّمًا؛ أو عمل عملاً يستوجب العقوبة. وكلمة «إِثْمٌ» تعني: (١) كل ما هو مُحَرَّم أو غير شرعي؛ (٢) كل ما يستوجب العقاب؛ (٣) الأفعال المبطئة عن الثواب (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

تحدث هذه الآية الكريمة عن الأطعمة المحرّمة، ولا تذكر شيئاً عن الطيبات التي جاء ذكرها في الآية السابقة. ويجب أن يكون مفهوماً أن الأمور الأربعة المذكورة هنا ليست هي وحدها فقط الأشياء المحرّمة في الإسلام. وفي الواقع، إن الإسلام يمنع عدة أشياء، ولكنها مقسّمة إلى درجات أو فئات، فبعضها حرام وبعضها ممنوع. والآية الحالية تذكر فقط الفئة الأولى المحرّمة، وأما الأشياء الممنوعة فقد ذكرها الرسول ﷺ، وهي مذكورة في الأحاديث الشريفة. وينبغي على المؤمنين ألا يستعملوا الأشياء الممنوعة، ولكن لا يمكن وصفها بأنها محرّمة، فهناك فرق كبير بين ما هو حرام وما هو ممنوع، والإسلام يميّز الفرق في الأهمية بين مختلف الأشياء، وبالتالي لا يمكن أن توضع الممنوعات كلها في مرتبة واحدة. إن للشئ المحرّم تأثير كبير ومباشر على الرقي الأخلاقي والروحاني للإنسان، ولكن الحال ليس كذلك مع ما هو ممنوع، والذي هو على درجة أقل من الأهمية، رغم أن كلاهما ممنوع.

ومن بين الأشياء المحرّمة في هذه الآية الضرر الذي يسببه تناول الدم ولحم الحيوان الميت. وقد اعترفت أكثر السلطات الطبيّة بهذه الأضرار. كذلك فقد ثبت أن تناول لحم الخنزير لا يضر فقط بالصحة الجسمية للإنسان، وإنما يضر أيضاً بالصحة الأخلاقية والنفسية. فالخنزير يأكل الأوساخ ويعيش في الأماكن القذرة. كذلك فإن له عادات بذيئة، ويميل إلى ممارسات جنسية منحرفة، ومن المعروف أن أمراض

السرطان والدودة الشريطية ودودة الترخينة المتحوصلة (دودة صغيرة رفيعة تعيش في أمعاء الإنسان وبعض الحيوانات) منتشرة بين الأقوام التي تتناول لحم الخنزير، كذلك فإن أكل هذا اللحم يسبب داء الترخينة، وهو داء ينشأ عن وجود الترخينات في الأمعاء والأنسجة العضلية.

والمقصود بكلمات الآية ﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لَعَيْرِ اللَّهِ﴾ هو تلك الحيوانات التي ذكر عند ذبحها اسم إله غير الله تعالى، أو تلك التي تُذبح بنية نوال رضا صنم أو قدّيس أو غيره، حتى ولو كان اسم الله تعالى قد ذكر عند ذبحها. وعلى هذا، فكل الحيوانات التي تُقدّم قرباناً من أجل استرضاء أحد القديسين أو الأولياء، أو إله غير الله تعالى، أو أي طعام تم إعداده ليكون قرباناً لأحد من الأموات؛ كلها محرّمة، وكلها ضارّة روحياً. إن الدافع وراء هذه القرايين هو الشرك، والشرك يعادل التمرد على الله تعالى.

ورغم أن الآية الكريمة تعتبر جميع الأشياء المذكورة عاليه محرّمة، إلّا أنها تضيف أنه إذا تعرّضت حياة إنسان للخطر بسبب نقص الطعام، مما قد يؤدّي إلى القضاء على الحياة نفسها، فإن اعتبارات حفظ الحياة الإنسانية يجب أن تغلب على الاعتبارات الأخرى. وهذه حالة من حالات اختيار أهون الشرّين. ولذلك، فإن الآية بلغت من الحكمة أنها قد وضعت استثناء في حالة الضرورة الطارئة، حين لا يتوفّر أيّ طعام آخر، ويصبح الإنسان في خطر حقيقي من أن يفقد حياته إن لم يتناول هذا الطعام المحرّم. وفي حقيقة الأمر، إن الأنواع الثلاثة الأولى من بين المحرمات الأربع المذكورة في الآية، قد حرّمت باعتبار أنها مضرّة بالصحة الجسدية والأخلاقية، ولا شك أنه من الحكمة أن يُسمح بتناولها في الضرورة القصوى عندما يكون هناك خطر حقيقي على الحياة. أما بالنسبة للنوع الرابع، أي الأطعمة التي أهلت لغير الله، فمن الواضح أنها غير ضارّة حقيقة، وإنما هي ضارّة فقط من وجهة نظر الإيمان. وعلى هذا، إذا استعملت هذه الأشياء فقط من أجل إنقاذ الحياة التي يمكن أن تُستخدم في خدمة الدين، فلا يكون هناك اعتراض على تناولها في الظروف القصوى، لأن هذا العمل

يكون شديد الندرة، ولا يمكن اعتباره إشاراً بالله، خاصة وأنه يُؤدَّى بإذن من الله تعالى.

غير أن الإذن الإلهي بتناول هذه الأطعمة المحرّمة يرتبط بشرطين: (١) أن من يلجأ للاستفادة من هذا الإذن يجب أن يكون مضطراً غير «بَاغٍ»، أي أن لا يكون عاصياً لله تعالى متمرداً على أوامره. إذ يجب أن تكون الظروف التي أدت إلى ذلك حقيقية، وأن تتوافر الشروط الصحيحة، وأن لا يشوب ذلك أي شائبة من تدبير أو اختيار؛ (٢) أن من يتناول هذه الأطعمة المحرّمة في الظروف الاستثنائية يجب أن يكون أيضاً مضطراً غير «عَادٍ»، أي أنه لا يتجاوز الحدود، وإنما يقتصر على تناول الكمية التي تكون ضرورة مطلقة لإنقاذ الحياة. وعلى ذلك، فإن الاستعمال الاستثنائي لهذه المحرّمات يكون مسموحاً به في الأحوال القصوى، عندما يكون المرء في خطر حقيقي، وأن يقتصر فقط على الكمية التي لا بد منها لحفظ الحياة.

ورغم أن الآية تعلن أنه لا إثم على من يتناول هذه الأطعمة المحرّمة، ما دام الإنسان غير باغ ولا عاد، إلّا أن الإنسان قد يخطئ أحياناً في تحديد ما هو بُغِي وما هو ليس كذلك، وبهذا يكون قد عصى أمر الله تعالى ولو بدون قصد. ولذا، جاءت الكلمات «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» لتعني أن الخطأ غير المقصود يمكن أن يغفره الله الرحيم. وأيضاً تنبّه هذه الكلمات الإنسان المسلم إلى أنه رغم السماح له بتناول هذه الأطعمة المحرّمة، في الظروف الاستثنائية المشار إليها، إلّا أن هذه الظروف التي أُلْمِت به قد تكون نتيجة لأخطائه وسوء تصرفه، ولذلك عليه أن يسأل ربه المغفرة، وأنه إذا فعل ذلك فسيجد الله غفوراً رحيمًا. انظر أيضاً المائدة: ٤؛ والأنعام: ١٤٦؛ والنحل: ١١٦.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٥﴾

شرح الكلمات:

يُزَكِّيهِمْ: مشتقة من «زكى» أي نقاه وطهره؛ رفع مقامه (أقرب الموارد). انظر أيضاً الآية ١٣٠ من نفس السورة.

التفسير:

إن الإثم بوجه عام ينبع من الحب المفرط للدنيا. ولكن الدنيا أصغر من أن تُقارن بالآخرة (انظر الآية ٣٨ من سورة التوبة). وأولئك الذين يتخلون عن الحق أو يكتُمونه من أجل المكاسب المادية في هذه الدنيا فإنهم لا يأكلون إلا النار، التي سوف تلتهم أجسادهم في النهاية. وتومئ الآية بشكل جميل إلى أن أمور هذه الدنيا التي تتناقض مع البركات الروحية، تماثل نار الدار الآخرة. إن الطعام يعمل على تكوين أنسجة الجسم، وكذلك فإن جسم من يعارض الحق الذي يأكل النار، سوف يصير كتلة مشتعلة من النار. وتعني الآية أيضاً أنه كما أن النار لا يمكن أن تُطفئ غلواء الجوع والعطش، بل تزيدهما اشتعالاً، كذلك فإن أمور هذه الدنيا لا يمكن أن تحقق الرضا وطمأنينة القلب، وإنما تعمل على عكس ذلك. وتُشكل الآية أيضاً تحذيراً شديداً لأولئك الدعاة الذين لا يذكرون الحق، وإنما يتهادنون مع آراء مستمعيهم من أجل الحصول على مكاسب دنيوية. والكلمات ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا تعني أن الله تعالى سوف يمتنع تماماً عن الكلام معهم؛ لأن الله تعالى الذي هو رب العالمين ومالك يوم الدين، سوف يتكلم حتى مع العصاة والمذنبين يوم القيامة، ولكن هذا الكلام سيكون مثل كلام القاضي الذي يحكم بإدانة المجرم وتوقيع العقوبة عليه. فالمقصود هو أن الله تعالى لن يكلمهم بودٍّ ومحبة.

وقوله ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ تعني أنه تعالى لن يحكم بطهارتهم، وإنما سيعلن أنهم نجس آثمون، ويمكن أن تعني هذه الكلمات أيضاً أن الله تعالى لن يرفعهم يوم القيامة، ولن يقرّبهم إليه، وإنما سيتركهم محقرين منبوذين. وأيضاً، كما أن هؤلاء الناس قد عارضوا الحق من أجل المكاسب الدنيوية، فسيكون لهم على النقيض عقاب أليم يوم القيامة، وسوف يجرمون من كل متعة في الحياة الآخرة (انظر شرح كلمات الآية ٨ من نفس السورة).

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى
وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٦﴾

التفسير:

كلمات الآية ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ والتعبيرات المشابهة تُستعمل في اللغة العربية للتعبير عن التعجب من جانب الناظر، وللتعبير عن غرابة وشدة الشيء المثير للعجب. وعلى هذا فإن معنى الجملة هو رغم أنه من المؤكد أن أعمال الكافرين سوف تؤدّي بهم حقاً إلى عذاب النار، فإنهم يصرون بعناد شديد على الاستمرار في أعمالهم الخبيثة، كما لو أنه قد تكوّنت لديهم قوّة شديدة في الصبر على تحمّل العذاب.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي
شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٧﴾

التفسير:

إن بُعد الكافرين عن الحق، وارتباطهم الطويل بالباطل، قد أمت قلوبهم، وجعل أفئدتهم قاسية، حتى إنهم لم يعودوا قادرين على معرفة حقيقة الوحي القرآني وقبوله. وكما أن الشخص المريض يفقد أحياناً حاسة التذوق، وبالتالي يرفض تناول الأطعمة الطيبة، كذلك الحال مع هؤلاء الناس الذين ابتعدوا طويلاً عن الحق، فإنهم يرفضون أيضاً قبول كلام الله تعالى. إنهم يُفَضِّلون المكاسب الدنيوية القليلة على المكاسب الروحية والمادية العظيمة، التي سوف تقول إليهم حقاً لو أنهم قبلوا الحق. والكلمات ﴿فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ تعني أنه قد أصبح بينهم وبين الحق فجوة كبيرة وسد منيع.

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى
الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي
الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾

شرح الكلمات:

الْبِرُّ: مشتقة من بَرَّ. يُقال بَرَّ والده أي أحسن الطاعة إليه ورفق به. بَرَّ الله: أطاع الله. بَرَّ في قوله: صدق فيما قال. برت الصلاة: قُبِلَتْ. لذا فكلمة «الْبِرُّ» تعني: (١) الصلاة؛ (٢) الطاعة؛ (٣) الصدق؛ (٤) الهبة أو العطية (أقرب الموارد). (٥) والْبِرُّ أيضاً يعني التوسع في فعل الخير (مفردات الراغب). و«الْبِرُّ»: الذي يصنع الخير للآخرين؛ وهو من أسماء الله تعالى الحسنى (أقرب الموارد).

ابن السَّبِيل: حرفياً تعني ابن الطريق وتعني: (١) الذي يسافر كثيراً (معجم لين)؛ (٢) المسافر البعيد عن منزله (مفردات الراغب)؛ (٣) المسافر بوجه عام؛ (٤) المسافر الذي انقطع به الطريق (أقرب الموارد).

الرَّقَاب: جمع رقبة المشتقة من رَقَب. يُقال رَقَبَهُ أي انتظره؛ حرسه؛ حاذره؛ جعل الحبل في رقبته. وكلمة «الرقبة» تعني: (١) العنق؛ (٢) مؤخرة العنق؛ (٣) الشخص؛ (٤) العبد المملوك. والتعبير «في الرقاب» يعني إنفاق المال من أجل تحرير العبيد أو الأسرى، إلخ. (أقرب الموارد ومفردات الراغب ومعجم لين).

البَأْسَاء: والبأس كلاهما مشتق من بَأَس أو بَوَس وتعني: (١) اشتد وشجع في الحرب أو القتال؛ (٢) اشتدت حاجته وافتقر. البَأْسَاء: (١) الشِدَّة؛ (٢) الفقر؛ (٣) الكرب؛ (٤) البليَّة؛ (٥) الفاجعة؛ (٦) الحرب. أمَّا كلمة «البأس» تعني: (١) القوة في الحرب أو القتال؛ (٢) الشجاعة والإقدام؛ (٣) الحرب أو القتال؛ (٤) الخوف؛ (٥) العذاب؛ (٦) الأذى أو الضرر، كما في قولهم «لا بأس به» أي أنه بخير لم يصبه أذى أو ضرر (أقرب الموارد ومعجم لين). انظر أيضاً ما بعده.

الضَّرَاء: مشتقة من ضَرَّ ضد نفع أي تسبب في خسارة أو إصابة. الضَّرَاء تعني: (١) تَقَلُّبُ الزمن؛ (٢) المشقة؛ (٣) النقص في الأنفس والأموال؛ (٤) البلوى؛ (٥) القحط أو المجاعة (أقرب الموارد). ويستخدم لفظ «الضَّرَاء» للتعبير عن البلوى أو الأذى

الذي يقع على الشخص نفسه كالمرض وغيره. أمّا «البأساء» فيستخدم للدلالة على ما يصيب الممتلكات كالفقير وغيره (معجم لين).

التفسير:

تشير الآية الكريمة إلى مبدأ هام يتعلق بالشكل والروح. فكل أمر من الأوامر الإلهية لا بد أن يكون له نص أو شكل ظاهري، كما أنه يتضمّن معنى وروحاً. والمقصود هو اتباع روح الأمر وليس نصّه أو حرفه الذي يشابه الصّدفة الخارجية التي تحتوي على الجوهر. ولتوضيح هذا المبدأ، تشير الآية إلى الأمر الخاص بالاتجاه إلى ناحية معيّنة عند أداء الصلاة. فالآية تبين أن الإسلام لم يأمر المؤمنين أن يتّجهوا إلى ناحية معيّنة في صلاتهم لأنه يعتبر أن الاتجاه في ذاته له فضل خاص. فالمقصود من تحديد اتجاه معين هو مجرّد تحقيق التوافق العام، بينما المهم في الأمر هو الهدف من وراء الأمر الإلهي، وهو تكامل الإيمان والعمل. ويستطرد القرآن المجيد فيوضح بإيجاز التعاليم الإسلامية التي تحقق هذا التكامل.

إن المعنى الحرفي لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾ أن من آمن يكون هو البر الحقيقي، وهذا غير صحيح بالطبع. ولذلك، لا بد من وجود كلمة أو كلمات تُفهم ضمناً. وحسب ما قاله «سيبويه» وهو عالم كبير وضع أساس قواعد اللغة العربية، تسمح هذه القواعد أحياناً بحذف كلمة من أجل الاختصار، أو للتأكيد على شيء أو لتحقيق سلاسة في الكلام. وحسب هذه القاعدة، يجب أن تكون الجملة المذكورة على النحو التالي: «ولكن البرّ من آمن». وهناك الكثير من الأمثلة في اللغة على مثل هذا الحذف (راجع سيبويه ج ١ ص ١٠٩).

وحسب قاعدة أخرى من قواعد اللغة العربية يمكن أحياناً استعمال المصدر مكان اسم الفاعل من أجل التشديد على معنى معين. وعلى هذا يكون المقصود من كلمة «البر» في الآية هو «البر الكامل» أو «البر الحقيقي»، وحينئذ يكون معنى الآية «ولكن البر الحقيقي هو في الإيمان بالله تعالى ... وإلخ».

والضمير في كلمة ﴿حُبِّهِ﴾ يمكن أن يعود على الله تعالى، وفي هذه الحالة يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أنه أنفق المال من أجل حب الله تعالى؛ كما يمكن أن يعود ضمير «الهاء» على المال، وفي هذه الحالة يكون معنى الجملة أنه أنفق المال من أجل حب إنفاقه. وكل هذه المعاني صحيحة ويمكن تطبيقها على الآية. والحق إنها لإحدى مزايا الأسلوب القرآني أنه يستعمل الكلمات والتراكيب البليغة التي تحمل الكثير من المعاني في أقصر التعبيرات.

وتقدم الآية مثلاً آخر في هذا الصدد في تعبير «ابن السبيل»، فكما جاء تحت شرح الكلمات، يمكن أن يكون لهذا التعبير أربعة معان:

(١) إنفاق المال من أجل تشجيع السفر الذي يكون وسيلة لزيادة المعرفة وتقوية الصلات الاجتماعية.

(٢) مساعدة المسافرين الذين يكونون في رحلة طويلة بعيدين عن أوطانهم.

(٣) مساعدة المسافرين بوجه عام.

(٤) مساعدة المسافرين الذين تنقطع عنهم وسائل السفر. وهذا مثال رائع يجمع بين اختصار الكلام وشمول المعنى.

وتلقي الآية أيضاً بعض الضوء على تعليم الإسلام فيما يختص بالعبيد. فإن إنفاق المال من أجل تحرير العبيد يُعتبر في الإسلام عملاً يدل على الإيمان الحقيقي والتقوى الكاملة. لا، بل حتى أولئك الذين وقعوا في الأسر، عندما اعتدوا على المسلمين بالحرب بنية القضاء عليهم، يجب أيضاً أن تنالهم رحمة المسلمين، فيستردوا حريتهم بدفع فديتهم من الأموال التي يدفعها المسلمون أنفسهم. وللمزيد من التفصيل عن تعاليم الإسلام فيما يختص بموضوع العبيد يمكن الرجوع إلى شرح الآية ٣٤ من سورة النور.

وتأتي كلمة ﴿الصَّابِرِينَ﴾ في الآية منصوبة، بينما حسب القواعد العربية كان ينبغي أن تأتي في حالة رفع كالكلمة السابقة لها ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. وهذا التغيير ليس بغير غرض،

وإنما لإعطاء أهمية كبيرة للكلمة. وفي رأي «أبي علي»، وهو أحد علماء القواعد العربية البارزين، عندما تحتوي جملة على عدة أسماء للمدح أو للذم، فيمكن تغيير حركة الاسم للتشديد على أهميته (المحيط الجزء الثاني).

وكما سبق ذكره في البداية، تتضمن هذه الآية ملخصاً لتعاليم الإسلام. فهي تبدأ بالعقائد والتعاليم الأساسية للإسلام التي هي أصل ومصدر جميع الأعمال، والتي تتوقف سلامتها وصحتها على سلامة وصحة تلك العقائد. وأهم هذه العقائد هو الإيمان بالله تعالى الذي يُعتبر المحور الرئيس لجميع الأديان. وفي المرتبة الثانية من الأهمية يأتي الإيمان باليوم الآخر، أو يوم القيامة، الذي يتوقف على فهمه الفهم الصحيح صحة الاتجاه الذي تسير فيه أعمال الإنسان في هذه الحياة. ثم يأتي بعد ذلك الإيمان بالملائكة الذين هم بمنزلة وسائط بين الله تعالى وخلقه. ثم هناك الإيمان بالكتب المقدسة التي تحتوي على الوحي الإلهي الذي يحدد الطريق الذي ينبغي على المرء أن يسير عليه للحصول على رضا الله تعالى وتطهير الروح الإنسانية وتركيتها. وأخيراً يأتي الإيمان بالأنبياء الذين يتلقون الوحي الإلهي، فيتلون على الناس آيات ربهم، وينقلون إليهم إرادته ﷻ، ويكونون لهم أمثلة يحتذون بها. هذه الدعائم الخمس من دعائم الإيمان جاء ذكرها هنا حسب ترتيبها الطبيعي وليس بالضرورة حسب أهمية ترتيبها.

بعد ذكر الأغراض الأساسية للإيمان، تستطرد الآية فتذكر بعض القوانين ذات الأهمية الكبرى في أعمال الإنسان. ويأتي في مقدّماتها الإحسان، الذي يعني أن لا يُعطي الإنسان مسوقاً بما هو واجب مفروض عليه، وإنما مسوق بالمحبة والغاية الكبرى والمشاركة الوجدانية تجاه أقاربه وبني جنسه، أو مدفوعاً بحبه للإنسانية عامة. ثم تأتي بعد ذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة التي تساعد المرء على تقوية صلته بالله تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى تساعد على تنظيم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان. وفي النهاية، يتم إقامة حصنَيْن من الأخلاق والفضائل، هما الوفاء بالعهود والوعود، والصبر والجلد والثبات وقت المحن والشدائد. والحصن الأول هو أحد

القواعد العامة التي يُبنى عليها الوفاق العام بين الناس. والحصن الثاني هو الوسيلة المثلّي للوصول بالأول إلى الكمال.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ
فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى
بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ
بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بِكَ بَعْدَ ذَلِكَ
فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾

شرح الكلمات:

الْقِصَاصُ: مشتقة من قَصَّ. يُقَالُ قَصَّهُ أَي: (١) قَطَعَهُ (مثل قص أو جَزَّ شعره.. إلخ)؛ (٢) تتبعه شيئاً بعد شيء؛ (٣) حَدَّثَ به أو حكى عنه. قاصَّ الرجل: أوقع به القصاص أي جازاه وفعل به مثل ما فعل. «أَقَصَّ الأمير زيداً من بكر»: انتقم له منه. لذا كلمة «قصاص» تعني: الجزاء على الذنب أو أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل (أقرب الموارد). القصاص: تتبع الجريمة للثأر من الجاني أو معاقبته (مفردات الراغب).

الْقَتْلَى: جمع قتيل بمعنى مقتول وهو من مات بضربة أو سم أو غيره (أقرب الموارد).

الْحُرُّ: مشتقة من حرَّ. و«الحرّ» تعني: (١) ولد حُرّاً؛ (٢) من أصل طيب وشريف. حُرَّ الأرض: أفضل جزء فيها. لذا فكلمة «الحرّ» تعني: (١) خلاف العبد أو الأسير؛ (٢) الشخص النبيل الشريف؛ (٣) الجزء الطيب النقي من الشيء (أقرب الموارد).

التفسير:

تحتوي هذه الآية على مبدأ في غاية الأهمية يختص بالقانون المدني، وهو مبدأ المساواة بين الناس، وضرورة توقيع العقوبة بما يتناسب مع الجرم دون أي تحيز، إلا إذا عفا أهل الضحية عن المجرم، تحت ظروف يمكن أن تؤدي إلى تقدم الأحوال والعلاقات وتحسنها.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُم﴾ يبين أن الاقتصاص للقتيل من المجرم القاتل ليس مسموحاً به فحسب، بل هو أمر واجب الاتباع. وإن لم تُوقع العقوبة المذكورة على الجاني حسب متطلبات الشريعة، فسوف يُعتبر هذا عصيانياً للأمر الإلهي. غير أن واجب توقيع العقوبة على الجاني لا تقع على عاتق أهل الضحية، ولكن كما تبين كلمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في صيغة الجمع، يقع هذا الواجب على عاتق السلطة المسؤولة عن حفظ الأمن والنظام. ولكن استعمال صيغة المفرد في كلمة ﴿أَخِيهِ﴾ يبين أن الفرد، وليس المجتمع، له حق العفو. وعلى هذا فالجملة تعني أنه من ناحية يتحتم على السلطات المسؤولة أن تُعاقب الجاني بحسب متطلبات القانون، وليس لتلك السلطات الحق في اختيار العفو عن الجاني، ومن ناحية أخرى ليس من حق أهل الضحية أن يتولوا تطبيق القانون وتنفيذ العقوبة في الجاني بأنفسهم.

والآية التي نحن بصدددها لا تفرق بين الطبقات المختلفة من الناس فيما يتعلق بقانون القصاص. والكلمات المستعملة في الآية كلمات عامة وتنطبق على جميع الجناة الذين ارتكبوا جريمة القتل مهما كان مقامهم أو منزلتهم في الحياة، أو إلى أي دين ينتمون. فمن يرتكب جريمة القتل يجب أن يُنقذ فيه حكم الإعدام مهما كان جنسه أو عرقه أو دينه، إلا إذا عفا عنه أهل الضحية، ووافقت السلطات المختصة على هذا العفو، فإن أحاديث الرسول ﷺ بهذا الشأن واضحة وقاطعة (ابن ماجه، كتاب الدية).

وهناك أحد الأحاديث الشريفة ينص على عدم قتل المسلم الذي يقتل كافراً، ولكن هذا النص حين يُقرأ مع الأحاديث الأخرى التي تتعلق بالموضوع، ويُفهم في ضوء

الآيات القرآنية الخاصة بهذا الموضوع، نجد أن كلمة «الكافر» في الحديث المذكور ليست عامة في معناها، وإنما تعني فقط الكافر المحارب، أي الكافر الذي ينتمي إلى قوم يكونون في حرب مع المسلمين، أو بمعنى آخر، الكافر الذي من قوات الأعداء المحاربة. وقد أجمع صحابة الرسول ﷺ على تنفيذ حكم الإعدام في المسلم الذي يقتل كافرًا غير محارب (الطبري ج ٥ ص ٤٤). وقد أمر الرسول ﷺ بقتل مسلم لقتله كافرًا غير محارب (الدارقطني)، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قتل رسول الله ﷺ مسلماً بكافراً وقال «أنا أولى من وفي بدمته» (فتح الباري - ابن حجر العسقلاني).

ولا تعني كلمات الآية ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أن الحر لا يعاقب إذا قتل عبداً، أو أن الأنثى لا تعاقب إذا قتلت رجلاً، فإن الآيات القرآنية الأخرى وأقوال الرسول ﷺ وسنته العملية، تبين بوضوح أن الطبقة التي ينتمي إليها الجاني أو جنسه، لم تكن أبداً سبباً في عدم تنفيذ هذا القانون. وقد استعمل هنا هذا التركيب الخاص «الحر بالحر.. إلخ» للإشارة إلى عادة خاصة كان العرب يتبعونها في الجاهلية، وبالتالي إبطال هذه العادة، وهي أنهم عند تطبيق العقوبة كانوا يأخذون في الاعتبار الطبقة الاجتماعية لكل من القاتل والمقتول. فكان من المتبع أنه إذا حدث أن قتل أحد الأفراد الذين ينتمون إلى طبقة عالية في المجتمع رجلاً ينتمي إلى طبقة دنيا، أو إذا قتل عبد يملكه رجل عظيم عبداً يملكه رجل بسيط، أو إذا حدث أن قتلت امرأة من طبقة نبيلة امرأة أخرى من طبقة وضعية، إلخ، فإن القاتل في جميع هذه الحالات لم يكن يعاقب بالإعدام، وإنما كان يتلقى الكثير من الرأفة والتخفيف في الحكم بوسائل عدة. ويهدف الأمر الإلهي في هذه الآية الكريمة إلى القضاء على هذه العادة الذميمة التي كانت منتشرة بين العرب، كما يعلن بشكل واضح وحاسم أن منزلة القاتل يجب ألا يكون لها أي اعتبار عند تطبيق قوانين القصاص.

وفي الحقيقة، إن قانون القصاص المذكور في هذه الآية ينحصر في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾، وهي جملة كاملة في ذاتها وتعطي معنى كاملاً للحكم. وأما قوله: ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ فهو إضافة على الجملة وليس

جزءاً من الحكم. وهو يهدف إلى القضاء على العادة التي كانت متبعة عند العرب، وبين إعطاء أمثلة ثلاثة كيفية وجوب تطبيق القانون. وهذا التعبير يُعرف في قواعد اللغة العربية بأنه جملة استئنافية أو جملة مستأنفة، وقد أضيفت بغرض إجابة سؤال فرضته الجملة السابقة التي أضيف إليها التعبير بدون حرف رابط بين الجملتين. والسؤال الذي تمت الإجابة عليه في الجملة المستأنفة يفهم ضمناً ولا يذكر بحرفه (المختصر).

وتؤيد أحاديث الرسول ﷺ وسنته العملية الشرح المذكور، فقد ثبت عنه ﷺ أنه أمر بقتل امرأة قتلت رجلاً (صحيح مسلم)، وفي حالة أخرى أمر بقتل رجل حر قتل عبداً. وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلَنَاهُ وَمَنْ جَدَعَهُ جَدَعْنَاهُ». (ابن ماجه - كتاب الديات). وفي مكان آخر قال ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» (أبو داود - كتاب الجهاد).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يبين أنه ليس من المحتم تطبيق حكم الإعدام في جميع الأحوال؛ لأنه في بعض الظروف الخاصة يمكن أن يعفو أهل القتل عن تطبيق الحد الأقصى من العقوبة. وهذا العفو، الذي يُعتبر عفواً جزئياً كما تبينه كلمة «شيء»، يعني أن من حق أهل القتل أن يتنازلوا عن حقهم في توقيع عقوبة القتل على القاتل، وذلك في مقابل أن يدفع لهم القاتل دية لدم القتل. أو كما أوضح ذلك الرسول ﷺ، يمكن لأهل القتل في بعض الظروف الخاصة، وبموافقة من السلطة الحاكمة، أن يعفوا عفواً كاملاً عن القاتل، وأن يتنازلوا أيضاً عن دية القتل (مسند أحمد بن حنبل والبيهقي).

ومن الجدير بالذكر أن القرآن المجيد حين يذكر موضوع التنازل عن عقوبة القتل يستخدم لفظ ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ بدلاً من ذكر «ورثة القتل»، وذلك لكي يومئ لأهل القتل أن يميلوا إلى الرأفة كلما كان ذلك ممكناً. ومن ناحية أخرى تحض هذه

الكلمة القاتل على الإسراع بدفع دية القتل دون بخس وبغير تأخير، وهو ما تعبر عنه الكلمات: ﴿فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾.

والغرض من الجملة الأخيرة في الآية ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الإشارة إلى أنه إذا تم الاتفاق على تسوية الأمر بطريقة ودّية، وتم تنازل أهل القتل عن قتل الجاني مقابل تسلم الدية، فإذا بيّت أهل القتل الانتقام من القاتل بقتله بعد ذلك، فلن ينالوا أي رحمة، وسيطبق فيهم حكم الإعدام. وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذه الدية» (تفسير الطبري لابن جرير).

إن قانون القصاص الإسلامي كما سبق بيانه، يقدم الوسيلة المثلى والعملية للحد من جرائم القتل وحفظ الحياة الإنسانية. فالشخص الذي لا يحترم حق الآخر في الحياة، يفقد حقه هو في الحياة ضمن المجتمع الإنساني. أما خيار العفو الذي لأهل القتل، فيجب ألا يؤخذ على أنه يشجع على ارتكاب جرائم القتل، لأن هذا الخيار لا يعني العفو العام عن الجاني، حيث إن القاتل الذي يعفو عنه أهل القتل، لا يزال مُطالبًا بدفع دية القتل. وكذلك، إن من ينوي ارتكاب جريمة القتل، لا يعرف مقدّمًا ما إذا كان من الممكن إقناع أهل القتل بالعفو عنه وقبول الدية، وعلى ذلك سوف يظل الخوف من تطبيق حكم الإعدام عليه يحول دون انخراطه في ارتكاب جريمة القتل. وأيضًا، إن العفو أو اللين يُسمح به فقط في بعض الظروف التي يمكن أن يؤدي فيها العفو أو اللين إلى نتائج طيّبة لجميع الأطراف، كما يأمر بذلك القرآن المجيد (راجع الآية ٤١ من سورة الشورى). وعلى هذا، بينما يقدم الإسلام من ناحية، العلاج المناسب للحد من الجريمة، فإنه من ناحية أخرى يفتح الباب لظهور المشاعر النبيلة من رحمة ونزوع لعمل الخير.

إن الأسلوب الذي حافظ به القرآن المجيد على تطبيق عقوبة الإعدام في الضرورة القصوى أمر يستحق العناية والدراسة. ففي زمن نزول القرآن المجيد، كان الناس يثأرون لكل أذى أو ضرر يلحق بهم بروح من الانتقام. ولم يكونوا يكتفون بقتل

القاتل، فكيف بالعفو عنه. ولم يكونوا في حاجة إلى التشجيع على الانتقام، بل إنهم كانوا يبالغون في ذلك. وفي الواقع، عند النظر إلى قانون القصاص الإسلامي، في ضوء الأحوال السائدة عند نزوله، يتبين أنه يتضمّن نبوءة عن أن زمناً سوف يأتي حين يتحوّل الناس فيه إلى تطرّف مضاد، فيعملون على إلغاء حكم الإعدام كليّة. لذلك، فقد أرسى الإله العليم الحكيم قواعد القصاص التي تحفظ الحياة الإنسانية بالحدّ من وقوع الجريمة، وأيضاً تعمل على نشر روح الوفاق والخير في المجتمع.

لقد أراد الإسلام أن يمنع الجريمة، فعمل على منع أسبابها. لقد أراد أن يمنع الأسباب الجذرية لجميع أنواع الجريمة بأن قدّم نظاماً أخلاقياً متكاملًا لإصلاح الإنسان، ولكنه لم يكتف بذلك، بل سن أيضاً القوانين التي تحول دون ارتكاب الجريمة، وتتفق مع ما يملّيه العقل والعدل والإنسانية. والواقع الذي نراه أمامنا اليوم، أنه رغم بذل الجهود لمنع تطبيع عقوبة الإعدام، إلّا أن هذه العقوبة لا تزال موجودة في قوانين أغلب الدول، مما يشكل دليلاً كافياً على حكمة تعاليم الإسلام. وفي الحقيقة، إن أكثر المتحمّسين دفاعاً عن إلغاء عقوبة الإعدام، لم يستطع أن يقدّم بديلاً عنها. وقد اعترف الكثيرون أن السجن لمدة طويلة بديل «فضيع» و«ليس بديل مثالي» (حكم الإعدام في القرن العشرين، روي كالفرت، بتنام، لندن، ١٩٣٠). إن قوانين القصاص الإسلامية لا تزال هي التي تحدّ من ارتكاب الجريمة، وتؤدّي في نفس الوقت إلى التصالح بين الجاني وأهل الضحيّة.

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٠﴾

شرح الكلمات:

أُولَى الْأَلْبَابِ: ذوو الأبواب، والأبواب جمع لُب المشتقة من لَبَّ وتعني صار أو كان له لُب أي فُهِم وإدراك وذكاء. لَبَّ بالمكان: أقام فيه. لَبَّ اللوز: كسرها واستخرج لُبُّها. لذا فكلمة «لُب» تعني: (١) المختار الخالص من كل شيء؛ (٢) النواة أو البذرة؛ (٣) الثمرة؛ (٤) القلب (٤) الرأي؛ (٥) العقل؛ (٦) الفهم والإدراك والذكاء لأن هذه الأشياء هي أفضل ما في الإنسان؛ (٧) جوهر الشيء (معجم لين). لذا فـ «اللُب» هو أعلى من العقل فهو العقل الخالص من الشوائب أو ما ذكا من العقل، فكل لُبٍّ عَقْلٌ وليس كل عَقْلٍ لُبًّا (مفردات الراغب). لذا فاللُبُّ يُطلق على ما يملكه الإنسان من خصائص وصفات تُميّزه عن الحيوانات الأخرى وتجعله كائنًا عاقلًا.

التفسير:

إن هذه الآية الكريمة صغيرة في الحجم، ولكنها كبيرة بما فيها من المعاني، وهي تشير إلى الحكمة التي يتضمّننها قانون القصاص. والكلمات التي جاءت في الآية من أجل وأبلغ الكلمات. إن كلمة «قصاص» تعني قتل الجاني بسبب جريمته، ولكن ما أجل التعبير «ولكم في الموت» حياة يا أولي الأبواب» وما أُرهبه في نفس الوقت، ولكن ما أصدقه أيضًا! إن الحقيقة التي لا مرأى فيها هي أن المجتمع لا يمكن أن يحقق أمنه الاجتماعي بغير التطبيق السريع لحكم الإعدام على أولئك الذين لا يُقدّرون قيمة الحياة الإنسانية.

ولقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ معنى أوسع وأشمل من مجرد تطبيق العقوبة على الجاني. فقد عانى المسلمون لزمن طويل على أيدي الكافرين من أنواع الإهانات والاضطهاد والتعذيب والقتل، وتحملوا كل ذلك في صمت وبصبر وثبات. ولكن حين امتلأت كأس مظالم أعداء الحق إلى حافتها وفاضت، صارت سياسة عدم المقاومة تعادل الاستسلام للباطل، وينتج عن هذا الاستسلام فساد خُلِق الضحايا باستساغهم الذل وفقدانهم لكرامة الإنسان، مما يؤدي إلى موتهم من الناحية

الإنسانية. ولذلك جاءهم الأمر برفع السلاح في وجوه المعتدين، وأُمرُوا بأن يذيقوهم مرارة نفس الكأس التي شربوها لزمان طويل. ولا شك أن في قانون القصاص هذا يكمن سر الحياة للفرد والمجتمع. إما أنك تقتص وتحيأ، أو أنك لا تقتص وتموت موتاً حقيراً وضيعاً. هذا هو القانون الطبيعي الثابت الذي لا يتغير، والذي عبرت عنه الآية التي نحن بصددتها أجمل تعبير.

وقد جاءت الكلمات ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لتخاطب النخوة في نفس الإنسان، تلك التي تجعل منه كائنًا عاقلًا يختلف عن المخلوقات الأخرى. والقرآن المجيد يستعمل هذا التعبير عندما يريد أن يخاطب العقل في الإنسان العاقل، وكأن الله تعالى يقول له: «لقد خلقناك لتكون أشرف المخلوقات، وأنعمنا عليك بنعمة الفهم والذكاء والعقل كما لم ننعم بها على أحد سواك، أفلا تكون حكيماً إذن وتفهم هذه الأمور؟»

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ
إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨١﴾

شرح الكلمات:

خَيْرٌ: يعني: (١) ما هو ضد الشر؛ (٢) الثروة التي حُصل عليها بطريقٍ طيب ومشروع؛ (٣) المال الكثير أو الوفير؛ (٤) ما يرغب فيه الكل؛ (٥) العدل والفضل والشيء النافع (مفردات الراغب)؛ (٦) وجدان الشيء على كماله اللاتقة؛ (٧) الخيل،.. إلخ (أقرب الموارد).

حَقًّا: مشتقة من حقٍّ ولقد جاءت منصوبة في الآية الكريمة للدلالة على شيء يُفهم ضمناً قبلها، كأن الجملة كاملة هي: «حقٌّ ذلك حقًّا» (الكشاف). الحق يعني: (١) العدل والإنصاف؛ (٢) العمل على الوجه الصحيح؛ (٣) الأمر الواجب والمقضي؛

(٤) الدّين أو كل ما يُقترض؛ (٥) كل ما يحقق متطلبات العدالة والصدق والواجب واليقين، ... إلخ (معجم لين). انظر أيضاً الآية ١٤٨ من نفس السورة.

التفسير:

لما كان من الممكن أن تؤدّي المنازعات حول الإرث إلى الشجار والاختلاف والقتل أحياناً، تحوّل القرآن المجيد من معالجة موضوع القصاص إلى موضوع الميراث. والكلمة التي جاءت في الآية تعبيراً عن الثروة هي «خير»، وليس كلمة «مال» التي تستعمل عادة. إن كلمة «خير» تعني «الثروة التي اكتسبت بوسائل مشروعة». وعلى هذا، باختيار كلمة «خير» بدلاً من كلمة «مال»، يؤكد القرآن المجيد أيضاً على ضرورة الحرص الشديد عند اقتناء الثروة، أن تكون بوسائل سليمة وطرق مشروعة. ولذلك فقد جاءت الإشارة إلى أنه ليس من المسموح به للمسلم أن يجعل في وصيّته ثروة اقتناها بطريق غير مشروع؛ لأن مثل هذه الثروة ليست ملكه.

وقد حدّد القرآن المجيد في الآيتين ١٢، ١٣ من سورة النساء نصيب الورثة من ثروة المتوفّي، حسب قوانين الميراث الإسلامية، وهؤلاء في المقام الأول هم الوالدان والأبناء والزوج أو الزوجة. وفي وجود قانون الميراث هذا، يبدو أن الأمر الذي جاء في هذه الآية لا ضرورة له. وفي الحقيقة، إن أولئك الذين يؤمنون بنظرية وجود النسخ في القرآن المجيد، يدّعون في الواقع أن هذه الآية منسوخة بواسطة الآيات المشار إليها في سورة النساء. ولكنهم على خطأ فادح؛ لأن الآية الحالية ذكرت فقرة إضافية ومهمة تختص بالميراث. فليس من النادر أن يتقدم بعض الناس ويدّعون أن الشخص المتوفّي كان قد أوصى لهم بكذا وكذا من ثروته، وليس من العسير عليهم أيضاً إحضار الشهود ليشهدوا بصحة دعاوهم. ومن الطبيعي أن يشك الورثة الشرعيون في تلك الادّعاءات، وتكون النتيجة شجار وتخاصم ومحاكمات. ولذلك ينبغي على كل مسلم أن يترك وصيّة يحدد فيها كيفية تقسيم ثروته بين الورثة، أي والديه وأولاده وزوجه إلخ، حسب نصيبهم الشرعي طبقاً للشريعة الإسلامية، وله أن يذكر أيضاً في وصيّته

اسم ونصيب أي شخص آخر لا يكون ضمن الورثة الشرعيين، ولكنه يريد أن يعطيه جزءاً من تركته. والغرض من هذه الوصية التي تتم بعلم ورثته وأقاربه، هو منع ذلك الشقاق والدعاوى أمام القضاء. وتزداد أهمية هذه الوصية كلما ازداد حجم تركة المتوفى.

والآية تومئ أيضاً بأن على المسلم أن يوصي بجزء من تركته لا يزيد على الثلث، لأقاربه المحرومين بحكم القانون من المشاركة في الميراث. فمثلاً الأقارب البعيدين الذين يحتاجون إلى المساعدة، والوالدين غير المسلمين، والأبناء غير المسلمين إلخ، وفي مثل هذه الأحوال يذهب الثلثان للورثة الشرعيين. وفيما يتعلق بتحديد الثلث الذي يمكن التوصية به، فإن الرسول ﷺ قد بيّن بشكل واضح أنه لا يصح للموصي أن يوصي بأكثر من الثلث للآخرين من غير ورثته الشرعيين. ويجب على الأقل أن يحصل الورثة على ثلثي التركة (البخاري).

إن الإسلام يستثني الأقارب غير المسلمين من الميراث، وذلك من أجل تفادي المشاكل، فمثلاً يمكن أن ينتمي ورثة المتوفى الأقربون إلى قوم في حالة حرب مع المسلمين أو أنهم يقاتلون المسلمين بالفعل. وفي هذه الحالة، يؤدي وضع الثروة في أيديهم إلى الضرر بالإسلام، وبالتالي ضرر الإنسان نفسه. ولذلك كان استثناء الأقارب غير المسلمين من الميراث، حتى لا يطالبوا بنصيبهم منه كحق لهم. غير أن القرآن المجيد يحضّ المسلم على أن يترك لهم جزءاً من ماله عن طريق الوصية، إذا علم أن ماله لن يُستخدم ضد مصالح الإسلام، وبذلك يمكن للمسلم أن يقوم بواجبه تجاه أهله أو أقاربه من غير المسلمين. كذلك فإن أحد أسباب حرمان غير المسلمين من أن يكونوا ضمن الورثة الشرعيين هو أن غير المسلمين لا يورثون أقاربهم المسلمين، لذلك لا يكون من الحكمة أن تتدفق الأموال إلى غير المسلمين بغير أن تتدفق في الاتجاه الآخر.

وللآية أيضاً غرض آخر، فحسب قوانين الشريعة الإسلامية، إن الحفيد الذي مات أبوه لا يرث جدّه إذا مات الجدّ بعد الأب. ولذلك يحضّ القرآن المجيد على أن يترك المسلم جزءاً من تركته لأحفاده الذين مات أبوهم، وذلك عن طريق الوصية. ويجب ألاّ تفهم الآية على أنها تصرّح بإعطاء الورثة الذين تحدّدت أنصبتهم شيئاً يزيد عن هذا النصيب المحدّد، وقد منع الرسول ﷺ هذا منعاً واضحاً حيث قال: "لا وصيّة لوارث" (الترمذي - كتاب الوصايا).

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ
يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٢﴾

التفسير:

إذا ترك أحد وصيّة تتفق مع ما أمر به الإسلام، ولكن ورثته وجدوا أنها تضرّ بمصالحهم فغيروا فيها أو عطلّوا تنفيذها، فإن اللوم والمسؤولية تكون على أولئك الذين عبثوا بالوصية، وليس على الشخص الذي ترك الوصية. وللوهلة الأولى قد تبدو الآية أنها تحصيل حاصل أو بلا أهمية، لأن ما تقوله أمر بديهي، إذ إن مسؤولية أي تغيير في الوصيّة لا يمكن أن تقع على صاحب الوصيّة. ولكن الدراسة العميقة لهذه الآية تكشف سطحيّة هذه الفكرة. وفي الواقع، إن هذه الآية تخدم أغراضاً ثلاثة؛ أولاً: إنها تُطمئن الموصي بأن الخوف من حدوث أيّ تغيير في وصيّته يجب ألا يمنع من عمل الوصيّة؛ ثانياً: إن عليه أن يتصرّف بعقل وحكمة، وعليه أن يتوقع ما يمكن أن يقوم به ورثته من سوء تصرّف، فيضمن وصيّته ما يمنع ذلك؛ ثالثاً: تحذّر الآية الورثة وأصدقاءهم من أن أيّ تغيير يقومون به في الوصيّة سوف يؤدّي بهم إلى غضب الله تعالى الذي هو ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾

شرح الكلمات:

جَنَفَ: صيغة المصدر من جَنَفَ. يُقال جَنَفَ عن الطريق أي حاد عن الصواب. جَنَفَ في وصيته: مال عن الحق وجار فيها. جانف أهله أي انفصل عنهم على بغضٍ. تجانف لإثم أي مال إليه. لذا فكلمة «جَنَفَ» تعني: (١) الميل للإثم؛ (٢) البعد عن الطريق الصحيح؛ (٣) الجور والظلم؛ (٤) الميل عن الحق (أقرب الموارد).

التفسير:

إذا خشي أحد أن ينحاز الموصي لمصلحة أحد الورثة على حساب الآخرين، أو أنه قد يتصرف بما ينافي التشريع الإسلامي، فلا ضير عليه أن يعمل على التوفيق بين جميع الأطراف. وذلك بإزالة أسباب الخلاف بين الموصي وورثته، وبذلك يقنع الموصي بتغيير الوصية لتتفق مع متطلبات العدل والشرعية الإسلامية. والكلمات ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ لا تعني أن هذا التدخل الكريم عمل سلبى. لقد جاء هذا التعبير في الآية لكي لا يحدث، بسبب ما جاء في الآية السابقة من الإثم الذي يرتكبه من يبدل الوصية، أن بعض الناس يكونون شديدي الحرص أكثر مما ينبغي، فيحجمون عن التدخل لإجراء التعديل، حتى إذا رأوا أن الموصي يميل إلى الظلم في وصيته. وعلى هذا، فالآية تبين أنه فضلاً عن أن هذا التدخل لا يُعتبر إثماً، فإنه يعتبر عملاً فاضلاً من المؤكد أن يستدرّ رحمة الله تعالى.

والجملة الأخيرة في الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تُذكر الموصي بأن الله تعالى غفور رحيم، بمعنى أنه إذا غيّر الخطأ الذي كان في وصيته فإنه سبحانه سوف يغفر له ذلك الخطأ. وتقرير الآية بأن الله تعالى رحيم يشجع المسلمين الآخرين على التدخل إذا وجدوا من الموصي انحيازاً تجاه فريق من الورثة على حساب الفريق الآخر. ففي

هذه الحالة عليهم أن يتدخلوا لتصحيح الخطأ، ومن أجل ذلك فإن الله الرحيم سوف يشملهم برحمته. وعلى هذا، فإن كلمة ﴿عَفْوٌ﴾ تتعلق بالموصي الذي يرجع عن خطئه إذا ذكره الآخرون بذلك. وكلمة ﴿رَحِيمٌ﴾ تتعلق بأولئك الذين ينجحون في إقناع الموصي الذي أخطأ في وصيته بالعدول عن خطئه والرجوع إلى طريق الحق والعدل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ
كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٤﴾

شرح الكلمات:

الصِّيَامُ: مشتقة من صام وتعني الإمساك عن الطعام والشراب والكلام والسير .. إلخ. تقول العرب: صامت الريح أي ركدت، و«فرسٌ صائمٌ» أي مُنِعَ عنها علفها أو حُجبت ولم تترك لتمشي أو لتشارك في السباق. لذا فكلمة «الصيام» تعني: (١) الامتناع عن الفعل؛ (٢) الإمساك عن الأكل والشرب .. إلخ؛ (٣) كما هو في شرع الإسلام: الإمساك عن الطعام والشراب والزوجة من الفجر إلى غروب الشمس. الصائم: اسم فاعل من صام وهو الشخص الذي يصوم (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

من الأمور الشيقة في اللغة العربية ما نلاحظه عند دراسة كلمة أخرى هي «صُلمات»، فرغم أنها مشتقة من مصدر مختلف عن كلمة «صيام» إلا لأنها تشترك معها في حرفين - الصاد والميم - لذا نجد أنها تعطي معنى قريب من «الصيام». فكلمة «الصيام» تعني الإمساك عن الطعام والشراب والكلام وغيره، وكلمة «صُلمات» تعني: (١) الامتناع عن الكلام؛ (٢) شدة العطش الناتجة من الامتناع عن الشرب (أقرب الموارد).

لما كانت الآيات السابقة تتحدث عن الصبر عند الابتلاء، وتقديم التضحيات، والامتناع عن المنازعات والمغريات، كان من المناسب هنا أن يتحوّل القرآن المجيد إلى موضوع الصيام الذي هو من أكثر الوسائل فاعلية لتحقيق السيطرة على النفس. إن الأمر بالصيام، مهما كانت تفاصيله، موجود في جميع الأديان بشكل أو بآخر. فقد كان «بوذا» يصوم ويؤدّي الصلوات (انظر لاليتفيسيتارا وبودهاثشاريتا)، وهناك صيام موسى عليه السلام قبل تسلمه الوصايا العشر من الله تعالى (سفر الخروج ٢٨:٣٤ والثنية ٩:٩)، وأيضاً صيام المسيح عليه السلام قبل أن يتسلم التكليف الإلهي (إنجيل متى ٤:٢)، وكل هذا يشهد بأهمية هذا التشريع. وفي الواقع، إن الصيام نوع من العبادة والسيطرة على النفس التي يميل إليها الإنسان بشكل طبيعي. وتقول دائرة المعارف البريطانية: «إن الصيام مفروض بواسطة عدد كبير من الأديان، والصيام موجود في الحضارات الدنيا والمتوسطة والعليا على السواء، وحين لا يكون مفروضاً، فإن الناس يمارسونه مدفوعين بدافع طبيعي». والآية التي نحن بصددّها لا تعني بطبيعة الحال أن الصيام قد فُرض على المسلمين بنفس الشكل الذي فُرض به في الأديان السابقة. فقد أضفى الإسلام على هذه الشعيرة الكثير من الروحانية بأن ألحق به عدداً من الأوامر والموانع الهامة.

وتشرح كلمات آية ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الفلسفة العميقة في فرض الصيام. وإنها سمة خاصة من سمات القرآن المجيد أنه حين يأمر بأمر هام فإنه لا يفرضه بشكل تحكّمي، وإنما يشرح فائدته حتى يقتنع القارئ أو السامع بالحكمة التي يتضمّنّها ذلك الأمر. والغرض من الصيام كما هو مذكور في هذه الآية هو الحصول على التقوى.

وكما سبق شرحه في الآية الثالثة من سورة البقرة، فإن كلمة «تقوى» أو «اتقاء» التي اشتقت منها كلمة ﴿تَتَّقُونَ﴾ الواردة في الآية تعني حماية النفس ضد: (١) الأذى

والمعانة؛ (٢) الشرور والذنوب. أي أن الآية تقرر أن الغرض من الصيام هو أولاً: سلامة الإنسان من الأذى والمعانة؛ وثانياً: نجاته من الشرور والذنوب.

ويمكن أن يتحقق الغرض الأول من الصيام عن طريقين:

(١) عندما يرتكب الإنسان بعض الآثام، ويصير لذلك مستحقاً للعقاب من الله تعالى، ولكنه فيما بعد يشعر بالحنج من تلك الآثام، فإن الصيام يصير تكفيراً عن تلك الآثام.

(٢) إن الصيام لا يجعل المرء قادراً فقط على تحمّل المصاعب والمشاق فحسب، بل يجعله يدرك أيضاً معاناة إخوانه الذين هم في كرب وعوز، فيشعر بالتعاطف معهم. وهكذا يؤدي الصيام إلى إزالة آلام ومعاناة الإنسانية أو التقليل منها.

وأما الغرض الثاني، وهو النجاة من الشرور والذنوب، فيمكن تحقيقه بواسطة الصيام، وذلك لأن المطلوب من الإنسان في الصيام ليس الامتناع عن الطعام والشراب فحسب، وإنما عليه أن يبتعد أيضاً إلى حد ما عن التعلقات الدنيوية، وأن يمتنع عن الانغماس في رغباته مما يؤدي إلى أن تميل أفكاره بشكل طبيعي إلى الأمور الروحية. إن الأشخاص الذين هم على درجة عالية من الروحية في جميع الأديان يشهدون بالإجماع، على أساس من تجاربهم الشخصية، أن الانقطاع إلى حد ما عن العلاقات الجنسية والصلوات الدنيوية أمر ضروري وجوهري من أجل تحقيق التقدم الروحي، كما أن له تأثير قوي يعمل على نقاء القلب والعقل. ومن ناحية أخرى، لا يمكن إنكار أن الانخراط المبالغ فيه في هذا الانقطاع يؤدي يقيناً إلى ضعف الجسد إلى حد كبير مما يجعل المرء لا يقوى على أداء واجباته الدينية، وأيضاً لا يستطيع أن يحفظ نفسه من المغريات التي تتطلب وجود بعض القوى في الإنسان. لذلك، فإن الإسلام ينهج النهج الذهبي وهو النهج الأوسط. فبينما يفرض الإسلام درجة معينة من الانقطاع عن الملذات المادية، فإنه لا يسمح بإضعاف الجسد إلى الحد الذي يعجز فيه عن أداء وظائفه العادية. ولذلك فقد منع الرسول ﷺ من مواصلة الصيام

فقال: «...إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِصَيفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» (الترمذي - كتاب الزهد). وفي مناسبة أخرى قال ﷺ: «...وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» (البخاري - كتاب النكاح).

والصيام يعتبر أيضاً رمزاً للتضحية الكاملة. فإن الصائم لا يمتنع فقط عن الطعام والشراب، وهما الوسيلة الرئيسة للغذاء، وبغيرها لا يستطيع الإنسان الحياة؛ وإنما يمتنع الصائم أيضاً عن ممارسة العلاقة الزوجية التي يتوقف عليها أمر وجود الأجيال المستقبلية. وعلى هذا فإن الصائم في الواقع يعبر عن استعدادده، إذا اقتضى الأمر، أن يُضحي بكل شيء من أجل الحق. ولا شك أن الصيام يُتيح للإنسان فرصة رائعة للتدريب.

ولا بد أن يُذكر هنا أن هذه الآية الكريمة لا تحتوي على أمر فعلي بالصيام، فهذا سيأتي فيما بعد، إنها تهییء المسلم لاستقبال أمر الصيام الذي لم يكن شيئاً مبتدعاً، وإنما نزل أيضاً للأمم التي كانت من قبل، وأن هذا الصيام شيء مفيد يعود على الصائم بنفع كبير. وسوف يتبين أن القرآن المجيد لا يعطي الأمر هكذا بطريقة مفاجئة، وإنما يمهد السبيل له بإعطاء بعض الملاحظات الهامة. وفي هذا الشأن انظر الآيات ١٤٣-١٤٥ من سورة البقرة، حيث جاء التمهيد أيضاً قبل فرض الأمر الإلهي.

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا
أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ
خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾

شرح الكلمات:

يُطِيقُونَهُ: مشتقة من طاق. يقولون طاق الشيء أو أطاق الشيء أي قدر عليه (أقرب الموارد). أمّا كلمة «طاقة» فلا تعني القوة والقدرة بصفة عامة، إنما تعني ما يمكن للإنسان أن يفعله ولكن بمشقة وصعوبة بالغة (مفردات الراغب ومعجم لين). لذا فكلمة «طاقة» لا تستخدم أبداً للتعبير عن القدرة أو القوة الإلهية، حيث إن القدرة والقوة تشيران إلى تمام الصفة وكمالها في حين أن الطاقة تشير إلى أدناها وأقلها. لقد استخدم القرآن الكريم كلمة «طاقة» في موضعين فقط وفيهما تعطي المعنى الذي أشرنا إليه، في سورة البقرة الآية ٢٥٠: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي لا نملك القدرة على هذه المواجهة؛ وفي سورة البقرة أيضاً الآية ٢٨٧: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي ما يصعب علينا عمله. لذا فقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي أولئك الذين يقدرّون على الصيام ولكن بصعوبة ومشقة كبيرة. طَوْقُهُ: ألبسه طوقاً حول عنقه أو كلفه بما هو شاق وصعب عليه. و«طاقة» تعني أيضاً الخيط المنفرد الذي مع غيره من الخيوط يكوّن الحبل (معجم لين)، أي أنه بمفرده لا يتحمل الشد والحمل.

فِدْيَةٌ: مشتقة من فدى. يُقال فدى الرجل: استنقذه بمالٍ من الأسر.. إلخ. و«الفدية» ما يُعطى من المال عوض المفديّ؛ البديل الذي يتخلّص به المُكَلَّف عن مكروه توجه إليه.. إلخ (أقرب الموارد).

التفسير:

تمتنع هذه الآية أيضاً عن إصدار الأمر بالصيام، وإنما تمهّد السبيل لذلك بالإشارة إلى أن الصيام الذي على وشك أن يُفرض ليس لجميع الأيام، ولكنه لعدّة أيام فقط. وأيضاً إن الأمر القادم بالصيام لا يجب أن يُتبع في جميع الأحوال والظروف، وإنما يُستثنى من ذلك الذين يعانون من المرض أو الذين يكونون في سفر. والواقع إن الإسلام دين عملي، ولذلك فهو لا يأمر بأمر لا يمكن اتّباعه، وحين يذكر قواعد الصيام

يُبين القرآن المجيد بوضوح أنّ من كان مريضاً أو على سفر فيجب عليه ألا يصوم، وإنما يصوم فيما بعد نفس عدد الأيام التي لم يصُم فيها، وذلك عندما يذهب عنه المرض أو عندما ينتهي سفره.

وتعود كلمة ﴿الَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ إلى أولئك الذين يستطيعون الصيام ولكن لا يقدرّون عليه إلّا بمشقة كبيرة. وهذا التفسير تؤيّدّه قراءة أخرى للآية تحل فيه كلمة «يطوقونه» محل كلمة «يطيقونه» (ابن جرير). وكلمة «يطوقونه» تعني أولئك الذين يكون الصيام بالنسبة لهم بمثابة الطوق الذي يكبل رقابهم، أي أولئك الذين ليسوا مرّضى بالفعل، ولكن حالتهم الجسمانية أو صحتهم العامّة في حالة لا تسمح لهم بالصيام إلّا إذا عرّضوا أنفسهم للأذى وصحتهم للخطر. وهؤلاء الناس، الذين يكون منهم كبار السن، أو الصغار الذين لم يصلب عودهم بعد، أو الحوامل من النساء، أو الأمهات اللاتي يرضعن أولادهن، كل هؤلاء لهم ألا يصوموا، ولكن عليهم أن يُقدّموا فدية عن كل يوم من الأيام التي كان ينبغي الصيام فيها، وذلك بإطعام مسكين حسب المستوى الذي يطعمون به أنفسهم. كذلك هناك قراءة أخرى أيضاً لكلمة «يطيقونه» وهي «يطوّقونه» (جرير)، وتعني هؤلاء الذين يستطيعون الصيام ولكن بمشقة كبرى، وهي تحمل أيضاً نفس المعنى السابق. وعلى ذلك فإن الآية تذكر ثلاثة أنواع من المؤمنين الذين يُسمح لهم بعدم الصوم، وهم: (١) المرضى؛ (٢) الذين هم على سفر؛ (٣) أولئك الذين ليسوا مرضى ولا على سفر ولكنهم أضعف من أن يصوموا بغير أن تتعرّض صحتهم للخطر.

وبعض المفسرين لا يعتبرون الفئة الثالثة فئة منفصلة ومستقلة عن الفئتين الأولى والثانية، وإنما يعتبرون أنها استثناء منهما. وفي هذه الحالة تعني الآية أنّ من كان مريضاً أو على سفر ويستطيع أن يطعم مسكيناً فعليه أن يفعل ذلك، بالإضافة إلى صيام أيام بديلة بعد الشفاء من المرض أو بعد الانتهاء من السفر.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى
لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ
فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن
كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ
أُخْرٍ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ
وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمُ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٦﴾

شرح الكلمات:

رَمَضَانُ: هو الشهر التاسع من شهور السنة القمرية، وكلمة «رمضان» مشتقة من الفعل رَمَضَ. يُقال رَمَضَ النهار أي اشتدَّ حرُّه. رَمَضَ الرجل أي أحرقت قدميه الأرض الحارة الحامية من شِدَّةِ الشمس. رَمَضَ الصائم: احترق جوفه من شدة العطش. ارتمض من الحزن أي احترق من شدة الحزن. الرَمَض: حرقه الغيظ؛ المطر يأتي قبل الخريف فيجد الأرض حارةً محترقة (أقرب الموارد ومعجم لين). ولقد سُمي شهر «رمضان» بهذا الاسم لأن: (١) الصيام في هذا الشهر يسبب الحروا احترق الجوف من شدة العطش؛ (٢) العبادة والأعمال الصالحة في هذا الشهر ترمض الذنوب أي تحرقها، كما تؤيد ذلك المعنى الأحاديث النبوية الشريفة (عساكر والموارد كما جاء في فتح القدير)؛ (٣) الإخلاص في العبادة خلال هذا الشهر تولد في قلب العبد حرارة الحب لخالقه وللآخرين. ومما هو جدير بالذكر أن (رمضان) اسم إسلامي لهذا الشهر، أما اسمه في زمن الجاهلية فهو النائق (المحيط والموارد كما جاء في فتح القدير).

الْقُرْآنُ: هو الاسم الذي سمي به الله تعالى بنفسه الكتاب الذي أنزله على رسول الإسلام ﷺ متضمنًا الشريعة الخاتمة والأخيرة للبشر. وكلمة «قرآن» مشتقة من

«قرأ». يقولون قرأ الكتاب أي: (١) ألقى النظر عليه ولم يجهر بالكلام؛ (٢) نطق بالمكتوب فيه فأسمع غيره؛ وتعني كلمة «قرأ» أيضاً أبلغ أو نقل أو حمل رسالة.. إلخ، كما يقولون «اقرأ عليه السلام» أي بَلِّغْ سلامي له؛ (٣) قرأ الشيء: جمعه وضمه بعضه إلى بعض؛ (٤) قرأت المرأة: أصبحت حاملاً (أقرب الموارد ومعجم لين). لذا فكلمة «قرآن» تعني: (١) الكتاب الذي يُعنى بقراءته. وفي الحقيقة أن القرآن المجيد هو أكثر كتاب يُقرأ في العالم (دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١١، مقالة مكتوبة عن القرآن بقلم نولدكيه)؛ (٢) الكتاب أو الرسالة المرسلة للآخرين. وحقيقة أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لم تتقيد رسالته أو تتحدد، فالكتب الأخرى قد جاءت لزمانٍ بعينه أو لأقوامٍ معينين، بينما القرآن الكريم جاء صالحاً لكل زمان ولكل الناس (سورة سبأ: ٢٩، والبخاري)؛ (٣) الكتاب الجامع بين دفتيه لكل الصدق والحق؛ فالقرآن الكريم في واقع الأمر كنزٌ من المعارف لا يحتوي فقط على الحقائق الأبدية الواردة في الكتب السابقة (سورة البينة: ٤)، بل يحتوي على كل الحقائق التي يمكن أن يحتاجها البشر في أي وقت وفي أي ظروف وأحوال (الكهف: ٥٠)؛ (٤) الكتاب الذي لا يحتوي فقط على الحقائق البينة التي يمكن أن يراها ويشعر بها الجميع، بل - كالمراة التي تحمل في أحشائها الجنين - يحتوي على الحقائق المخفية عن عيون معظم الناس، وفقط عندما يحين الوقت المناسب يخرج ذلك الجنين للنور (سورة الحجر: ٢٢). إن كل هذه المعاني لا تقتصر فقط على وصف الوضع الحالي للأمور التي يتناولها القرآن الكريم، بل تشير أيضاً إلى تلك النبوءات العظيمة التي يقف تحققها شاهداً ودليلاً على صدق القرآن الكريم عبر مر الأزمنة والعصور.

التفسير:

بعد أن تم تمهيد السبيل بالشكل المناسب في الآيتين السابقتين، يأتي في هذه الآية الأمر بالصيام. ولكن حتى هنا يسبق الأمر وصفٌ لشهر رمضان الذي فُرض فيه الصيام. فلم يتم اختيار شهر رمضان بشكل عشوائي، ولكن تم اختيار هذا الشهر

ليكون شهر الصيام لأنه شهر مبارك نزل فيه القرآن الكريم، والقرآن الكريم ليس كتاباً عادياً، وإنما هو كتاب مملوء بالهدى والآيات البينات التي تساعد على التفرقة بين الحق والباطل. إن هذه المقدمة السامية التي جاءت قبل الأمر بالصيام تنطوي على سؤال ضمني وهو: ألا تصوم الآن بعد أن عرفت أن الصيام أمر سبقك إليه الآخرون من الأمم السابقة، وهو أمر شديد النفع، وهو يستمر لعدة أيام فقط، وحتى في هذه الأيام المعدودة تُتاح لك وسائل الطعام والشراب والعلاقات الزوجية خلال جزء من اليوم، وأخيراً، عندما تكون هذه الأيام المعدودات قد جاءت في شهر يفيض بالبركات؟.

وكما أشير إليه عاليه، تذكر هذه الآية السبب الذي من أجله تم اختيار شهر رمضان ليكون شهر الصيام، فقد نزل القرآن المجيد في هذا الشهر المبارك. ونزول القرآن المجيد في شهر رمضان يمكن أن يعني أمرين: (١) أن نزول الكتاب العزيز قد بدأ في شهر رمضان، حيث إنه من المعروف أن الرسول ﷺ قد استقبل الآيات الأولى من القرآن المجيد في ٢٤ من شهر رمضان (المسند وجريز)؛ (٢) أن الوحي القرآني كان يتكرر نزوله على الرسول ﷺ كل عام في شهر رمضان. فمن المعروف أيضاً أن جبريل عليه السلام كان في كل عام من شهر رمضان يكرر على مسامع الرسول ﷺ جميع الأجزاء التي نزلت من القرآن المجيد، وظل يفعل هذا إلى العام الذي توفي فيه النبي ﷺ (البخاري كتاب المناقب). وعلى هذا، يمكن أن يُقال إن القرآن المجيد بأجمعه قد نزل في شهر رمضان. وتشير الكلمات «بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» إلى أن القرآن الكريم ليس مجرد كتاب يقدم مزاعم ودعوى، وإنما يؤيد كل دعوى يُقدمها بالدلائل والبراهين اللازمة، التي هي أيضاً واضحة ومقنعة، كما يقدم الآيات والبيّنات السماوية التي تُفرّق بين الحق والباطل بشكل جلي لا يترك مجالاً للشك. والقرآن المجيد ينفرد بهذا التميز. ولا شك أن الصحف المقدسة الأخرى قد وُصفت بأنها «هُدًى ونور»، ولكن لم يُذكر في حق أيٍّ منها أنها بيّنات من الهدى والفرقان، أي لم توصف بأنها تقدم الدلائل البينة والآيات التي تُفرّق بين الحق والباطل.

ورغم أن الأنبياء السابقين ﷺ قد أوتوا أيضاً من الآيات حتى تعلم أقوامهم أنهم مُرسلون حقاً من عند الله تعالى، غير أن الصحف التي جاؤوا بها لم تحتو شيئاً يدل على صدقهم. إنه القرآن المجيد وحده الذي يحتوي على جميع أنواع الدلائل والبيّنات العقلية والمنطقية والسمائية لإظهار حقيقة تعاليمه، حتى تكون هي نفسها دليل صدقها، وأن لا تقتصر كل محتوياته على مجموعة من القصص والأساطير، كما هو الحال مع الكتب المقدسة الأخرى.

وتعني كلمة ﴿فَلْيُصُمْهُ﴾ أنه من الضروري صيام جميع أيام شهر رمضان؛ ولن يكفي صيام أيام معدودة من الشهر، وإنما ينبغي تخصيص شهر من كل عام، هو شهر رمضان، ليكون شهر التفاني في عبادة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يبدو للوهلة الأولى كأنه إعادة زائدة لما سبق ذكره في الآية السابقة بكلمات مماثلة. ولكنها في الحقيقة ليست كذلك. ففي الآية السابقة كانت هذه الجملة جزءاً من الآية التي تمهد السبيل للحكم الإلهي بالصيام، وأما في هذه الآية فهي جزء من الحكم الإلهي نفسه. وتعني الجملة أنه إذا حدث أن مرض المرء خلال شهر رمضان، أو كان على سفر، فيجب عليه ألا يصوم، نظراً للمشقة الإضافية للصيام، وإنما عليه أن يصوم فيما بعد أياماً تساوي عدد الأيام التي لم يصمها خلال شهر رمضان، وذلك حين يتم شفاؤه من مرضه أو عودته من سفره. وقد امتنع القرآن المجيد بحكمة عن تحديد معنى «المرض» أو «السفر»، تاركاً ذلك لتحديد الناس لما يتعارفون على معناه لكل منهما.

ويشير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ إلى مبدأ بالغ الأهمية، وهو أن الأوامر الإلهية لا تهدف إلى خلق المتاعب والمضايقات، وإنما تهدف إلى تحقيق وتوفير السهولة واليسر. والجدير بالذكر هنا أن بولس الرسول كان يعتبر الشريعة كأنها طوق من «نير العبودية» إن لم تكن لعنة في الحقيقة (سفر غلاطية ٣، ٥). ولكنه ينسى أن الحرية الحقيقية، وبالتالي السعادة الحقيقية، هي في الطاعة النابعة من

النفس، للقانون الإلهي الذي يهدف إلى الخير والتقوى. إن الشريعة الإسلامية، حتى فيما ذكره الكتاب المقدس مما يختص «باللحوم والمشروبات والغسل والقوانين التي تنظم العلاقات الجنسية»، تساعد المرء وتهديه ولا تعوقه أو تستعبده.

وجملة ﴿وَلْتَكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ تبين غرض الله تعالى من تحديد عدد معين من الأيام، وهو أن يتمكن المؤمنون من إكمال العدد الذي يرى سبحانه أنه ضروري لرفيتهم الروحي. وكان من الضروري تحديد العدد، وإلا فإن البعض من الناس كان من الممكن أن يفشل في صيام العدد الأدنى، بينما يتعرض الآخرون للعناء بسبب عدم معرفتهم ما إذا كانوا قد أكملوا العدد المطلوب، رغم أنهم يكونون قد تجاوزوه منذ زمن طويل.

وقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ﴾ يشير إلى غرض آخر يتضمنه الأمر الإلهي بالصيام. إن هذه التعبيرات التي تتضمن تعظيم الله تعالى وتكبيره أو الثناء عليه، تعني أمرين: (١) أن على الإنسان لكونه من مخلوقات الله تعالى، أن يداوم على ذكره وتعظيمه في كل مناسبة، مع ذكر الصفات الإلهية المناسبة التي تتفق مع المناسبة التي يذكره ويعظمه فيها؛ (٢) على الإنسان أن يحاول قدر جهده أن يعمل على أن تتجلى في نفسه الصفات الربانية التي يذكرها المرء ويثني بها على الله تعالى. إن «التكبير» لا يعني فقط تعظيم الله تعالى وذكره والثناء عليه، بل يعني تكبير المرء المؤمن نفسه وتعظيمها، وذلك عندما يتخلق بالأخلاق الربانية. إن الله ﷻ ليس في حاجة إلى أي تعظيم أو تكبير، إنه سبحانه هو كما هو، سواء كبرناه أو لم نكبره. وفي حقيقة الأمر، إن كل شيء خلق أو شرع إنما هو لمصلحة الإنسان نفسه، ومن أجل تعظيمه أخلاقياً وروحياً، وأيضاً جسمانياً.

والجملة الأخيرة في الآية الكريمة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تتضمن أيضاً الكثير من المعاني العميقة. إن الله تبارك وتعالى ليس فظاً غليظاً ولا قاسياً، وإنما يأخذ ضعفنا بعين الاعتبار، وهو لا يضعنا في مشقة أو عناء بغير داع؛ وما يكلفنا به مما يبدو أن فيه مشقة، إنما هو لأجل نفعنا ومصلحتنا. إن هذا الأسلوب الذي يتّصف بالودّ

والعطف تجاهنا، يجب أن يثير فينا شعوراً مقابلاً بالحب لله تعالى، يفعم قلوبنا ويملاً أفئدتنا بمشاعر الامتنان والعرفان لربه وعطفه علينا.

ولعل لغة القرآن الكريم، التي جاءت في هذه الآية الكريمة، تبدو عند القراءة السطحية غير مترابطة، وكأنها تتكون من مجموعة من الجمل المتجاورة. غير أن الدراسة المتأنية لهذه الآية تبين الترتيب الجميل الذي يجمع بين أجزائها. وفي الواقع، إن الجمل الأربع في الجزء الأخير من الآية تمثل أربعة أسباب للأربعة أوامر التي جاءت في الجزء الأول من الآية، بحيث جاءت الأسباب في ترتيب عكسي للأوامر التي سبقتها بشكل طبيعي للغاية. فالسبب الأول للصيام الذي تذكره الآية الكريمة يأتي في جملة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ورغم أن كلمات هذا الجزء تبدو مختلفة بعض الشيء عن الجمل الثلاث التالية لها، فإنها في الواقع تمثل أحد الأسباب التي تقدمها الآية، وهي تعني «لأن الله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر». والأمر المقابل لهذا السبب هو الأمر الرابع في الآية وهو ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. والسبب الثاني الذي جاء بالآية هو ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾، وهذا السبب يقابله الأمر الثالث في الآية وهو ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، مما يشير إلى أن الله تعالى يريد من المسلمين أن يصوموا الشهر بأكمله. والسبب الثالث الذي ذكرته الآية هو ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم﴾. يناظر الأمر الثاني في الآية وهو ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾. وأخيراً يأتي السبب الرابع والأخير وهو ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهو يناظر قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾. وفي هذا إيماء إلى أن الله تعالى الحكيم قد اختار أكثر شهور السنة بركة وفضلاً لكي يكون شهر الصيام، حتى يكون الانتفاع به مزدوجاً. وفي اللغة العربية، يُعرف هذا الأسلوب الذي تتناظر فيه أجزاء من الجملة تناظراً عكسياً مع أجزاء أخرى في نفس الجملة بأنه «لف ونشر معكوس» (المطوّل).

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا
بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٧﴾

شرح الكلمات:

أُجِيبُ/فليستجيبوا: مشتقتان من نفس المصدر جَابَ. يُقَالُ جَابَ الثوبُ أي قطعه. أجابه أي ردَّ له الجواب. أجابت الأرض: أنبتت. استجابه: رد عليه. استجاب له أي أطاعه أو أذعن لرغبته (أقرب الموارد ومعجم لين).

يَرْشُدُونَ: مشتقة من رَشَدَ أي اهتدى واستقام. «رُشد» و«رُشاد» تعني: الهداية؛ ضد النُجْي؛ الاستقامة على طريق الحق مع تصلُّب فيه؛ صواب الرأي؛ نضج العقل. «رُشيد» و«راشد»: ذو الرُّشد؛ الهادي؛ المهتدي. و«رُشيد» أعلى من «راشد» وتستخدم في حق الله تعالى بمعنى: «الهادي إلى سواء السبيل؛ والذي كل أحكامه وقراراته صائبة» (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

لما علم المؤمنون ببركات شهر رمضان والصيام فيه، كان من الطبيعي أن تشتد رغبتهم في الاستفادة من هذه البركات. وكان من الطبيعي أيضاً أن يسألوا الرسول ﷺ عن الله تعالى وما يفعله سبحانه في هذا الشهر المبارك، أي ما إذا كان يتقرب بفضله ورحمته إلى عباده في هذا الشهر الكريم، وما إذا كان يتقبل أيضاً أدعيتهم فيه، وما شابه ذلك. وتقدّم الآية إجابة شافية لهذه التساؤلات.

ومن الواضح أن كلمة ﴿عِبَادِي﴾ لا تنطبق على جميع الناس بمفهومها العام، ولكنها تعني المؤمنين من الناس الذين يؤمنون بالله تعالى ولديهم الرغبة المخلصة لطاعته، وخاصة أولئك المسلمين الذين يتبعون أوامره الخاصّة بالصلاة والصيام وغيرها. وفي

الواقع، إن كلمة ﴿عِبَادِي﴾ لم تأت أبداً في القرآن المجيد لتصف الوثنيين أو العصاة المتمردين من الناس.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي قَرِيبٌ﴾ لا يعني، ولا يمكن أن يكون المقصود منه، القرب الجسماني. لقد أخبرتنا الآيات السابقة أن الغرض من الأمر الإلهي بالصيام هو أن نتحلّى بالتقوى، وأن الله تعالى بذلك يريد لنا اليسر والفائدة، ولا يريد لنا العسر والمعاناة. ومن الطبيعي أن هذا الإله الودود الشفوق يخلق في نفوس الناس الرغبة في القرب منه روحياً. وعلى ذلك، فإن الآية الحالية تقدّم البشرى بأن الوصول إلى الله تعالى ليس أمراً مستحيلاً، وأنّ قربه ليس حكراً على قوم دون غيرهم. إن وصاله ﷻ في مقدور كل إنسان، رجل كان أو امرأة، وباب رحمته وفضله مفتوح أيضاً للجميع.

وتشير كلمات الآية ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ إلى حقيقة أن الله تعالى لا يجيب دعوة المؤمنين والمتقين فقط، وإنما يقبل أدعية الجميع. وفي الواقع، إن استجابة الدعاء تعبر عن فضل الله تعالى ورحمته التي تشمل المسلمين وغير المسلمين، وإنه لمن الخطأ الظن بأن الله تعالى، الذي هو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يستجيب دعوة المسلمين وحدهم. غير أنه من المنطقي طبعاً أن يتجلى بفضل أعظم على أولئك الذين يطيعونه بإخلاص، ويتمسكون بالحق، ويعملون الصالحات. ولذلك، فإنه سبحانه يستجيب لدعائهم أكثر من غيرهم، وهو يقيناً لا يستجيب للأدعية التي تكون ضد أحبائه، ولا يسمع أيضاً لتلك الأدعية التي تريد تحقيق أمور تعوق الحق أو تسيء إلى أهدافه، ومع ذلك فهو ربّ الجميع ويسمع أدعيتهم جميعاً.

وبعني قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أنه ينبغي عليهم أن يؤمنوا بالله تعالى وأن يطيعوه، لأنه بدون الإيمان بالله تعالى لن يسمعو لأوامر الله ﷻ ولن يستجيبوا لها. لقد وعد الله تعالى «عباده» أن يستجيب لدعائهم، ولكنه يريد من خلقه أن يؤمنوا به ويطيعوا أمره، فإن هذا سيجعل أدعيتهم أقرب لأن تُستجاب.

والكلمات ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ لا تشير هنا إلى الإيمان بوجود الله تعالى، فإن الإيمان بوجود الله تعالى تتضمنه الكلمات السابقة ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾، ومن المستحيل أن يستجيب أحد لله تعالى ويطيع أوامرهم بغير أن يكون مؤمناً به ﷻ. وعلى هذا فإن الكلمات ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ تشير هنا إلى قدرة الله تعالى على استجابة الدعاء، والإيمان بحقيقة أننا إذا التجأنا إليه بالدعاء، فإنه حتماً سوف يأتي إلى عوننا.

والجملة الأخيرة في الآية الكريمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ تعني أنه إذا اتبع الناس الهدى الذي يتضمنه الأمر الإلهي فإنهم سوف: (١) ينالون القرب من الله تعالى؛ (٢) ويجدون الله ﷻ أكثر استجابة لأدعيتهم.

ولكن، كما هو الحال في جميع الأمور الأخرى، هناك حدود وشروط تتعلق باستجابة الدعاء أيضاً، وقد أشارت الآية التي نحن بصددناها إلى بعض منها، ويمكن تلخيصها فيما يلي: (١) أن يصير المرء عبداً لله تعالى، فيخضع نفسه له ويعبده وحده، كما تعبر عن ذلك كلمة ﴿عِبَادِي﴾. (٢) أن على المرء التوجه إلى الله وحده بالسؤال والدعاء طلباً لعونه ﷻ، وعليه ألا يتوجه إلى كائن آخر أو إلى شيء آخر يعارض الله تعالى، كما تبين ذلك جملة ﴿إِذَا دَعَا﴾. إن هناك الكثيرين ممن يبدو أنهم يدعون الله تعالى بينما هم في الواقع يضعون ثقتهم الحقيقية في أشياء أخرى، بل أحياناً يتوجهون بالدعاء إلى آلهة مزيفة طلباً للعون. ويجب ألا يتوقع هؤلاء الناس أن تستجاب أدعيتهم. (٣) أن على المرء أن يستجيب لدعوة الله تعالى، أي لا يؤمن به فحسب، بل يطيع أوامره أيضاً، ويقبل جميع رسله، وأن تكون أعماله مبنية على أساس من التقوى حسب شرعه سبحانه، وذلك كما تشير الكلمات ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾. (٤) أن على المرء أن يؤمن إيماناً راسخاً بأن الله تعالى ليس بقادر فقط على استجابة دعائه، وإنما يؤمن يقيناً بأنه ﷻ سوف يستجيب بالفعل لدعائه إذا واصل الدعاء بعزم وإصرار، وذلك ما تعنيه الكلمات ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾. إن هناك الكثيرين ممن يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء، ثم بعد فترة ينال منهم التعب فيتوقفون عن الدعاء. وهؤلاء لا يؤمنون في الحقيقة، لأنهم لو كانوا يؤمنون حقيقة لانتظروا بصبر ورحابة صدر

استجابة أدعيتهم. ويقول الرسول ﷺ في هذا الصدد: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي» (صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء). (٥) إن أولئك العصاة المتمردين على الله تعالى، الذين يرفضون الخضوع لإرادته ويعصون أوامره، فلن يقبل أدعيتهم، وخاصة تلك الأدعية التي يطلبون فيها شيئاً يتعارض مع إرادته ﷻ أو يضر بأحد من أحبائه المخلصين. إذ يقول تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (غافر: ٥١).

ويشرح سيدنا رسول الله ﷺ في أحد أحاديثه الشريفة بشكل جميل فلسفة الدعاء، فقد روي عنه أنه ﷺ قال: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِنِّمِ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ»، أي حينما لا يكون ضد إرادة الله تعالى، ولا ضد أوامره ونواهيه ومنهجه، أو إذا كان يحتوي ظلماً أو إساءة لقريب. واستجابة الدعاء قد تأخذ ثلاثة أشكال: (١) إما أن يحقق الله تعالى طلب عبده في هذه الدنيا؛ (٢) وإما أن يحفظ له ما يدعو من أجله للدار الآخرة؛ (٣) أو يدفع عنه أذى مماثل لما يدعو به (البخاري).

ويقول حضرة مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام ما تعريبه: «إن الله تعالى يعامل عباده كالأصدقاء. وقد يحدث أحياناً أن يقبل الصديق رجاء صديقه، وأحياناً يتوقع منه أن يقبل مشيئته. وهكذا يفعل الله تعالى. ولكن حتى عندما يبدو أن الله تعالى لم يستجب لدعاء عبده المؤمن، فإنه غالباً ما يفعل ذلك لأن فيه خيره». (حقيقة الوحي).

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ
هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ
اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ
الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ
وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٨﴾

شرح الكلمات:

الرَّفَثُ: لها العديد من المعاني: كلمات الغرام وكل ما يُستقبح ذكره من أمور الجماع ودواعيه، وجعل كناية عن الجماع (المفردات). كذلك تعني كلمة «رفث»: الكلام الوقح أو القذر أو الخليع (معجم لين).

تَخْتَانُونَ: مشتقة من خان. يُقال خانه أي أؤتمن فلم ينصح؛ لم يحفظ الثقة التي أُعطيت له ولم يؤدِّ حقَّها. اختانه مثل خانه وتعطي نفس المعنى أي هضم حقه وظلمه وجار عليه. تقول العرب خانه خاتته رجلاه أي لم تحمله فلم يستطع المشي. لذا فقول الله تعالى: ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني لم تؤدوا لأنفسكم حقَّها لأنكم: (١) منعت أنفسكم من أداء حقوق الله؛ أو (٢) رفضتم أن ترضوا أنفسكم بإعطائها رغباتها الطبيعية المشروعة. إن العمل الأول إثم ومعصية، بينما العمل الثاني مع أنه ليس إثماً، إلا أنه يمكن أن يضر بصحة الإنسان أو يحرمه فقط من السعادة. ولقد استعملت هذه الكلمة بكل من المعنيين السابقين في القرآن الكريم، ففي سورة النساء: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (الآية ١٠٨) جاءت كلمة تختانون بمعنى الإثم، بينما في الآية التي نحن بصددتها جاءت الكلمة بالمعنى الثاني أي بمعنى حرمان النفس وعدم إرضاء رغباتها الطبيعية المشروعة.

عَفَا عَنْكُمْ: كلمة «عفا» لها العديد من المعاني (انظر الآية ٥٣ من نفس السورة). والتعبير «عفا الله عن فلان» يستخدم أحياناً فيما لم يسبق به ذنب ولا يُتصور منه ارتكاب الذنب، كما ببساطة يعني محو الأخطاء أو سوء الفهم أو يعني الدعاء للشخص بأن يصلحه الله ويعزه (أقرب الموارد). أيضاً يعني التعبير «عفا الله عن فلان»: سهّل الله أموره (البحر المحيط).

بَاشِرُوهُمْ: مشتقة من بَشَرَ ومنها أيضاً تشتق كلمة «بشارة» أو «بشرى» وتعني الفرح. التعبير «بشر به» يعني: سُرّ به واستبشر منه. بشر الجلد: قشّره. البشرة: ظاهر الجلد، أو ما يظهر من الوجه والجسم. باشر زوجته: أفضى بشرته إلى بشرتها وكُني به الجماع. وسميت البشري بهذا الاسم لأن الخبر المفرح يغير لون وجهه من يتلقاه. البَشَر: الإنسان ذكراً وأنثى، واحداً وجمعاً، وسمي بهذا الاسم لأن جلده مرئي وليس مختفياً كالحيوانات تحت الشعر (أقرب الموارد ومفردات الراغب ومعجم لين).

التفسير:

كان من عادة بني إسرائيل أن يمتنعوا عن تناول جميع أنواع الطعام من مساء اليوم إلى مساء اليوم التالي، وذلك عند صيام يوم الكفارة، وهو الصيام الوحيد الذي أمر به موسى ﷺ قومه. ولما جاء الأمر للمسلمين بأن الصيام قد كُتب عليهم، ولم تكن تفاصيل الأمر قد نزلت بعد، ظنوا أن عليهم أيضاً مثل اليهود أن يصوموا لمدة ٢٤ ساعة تتوسطها وجبة خفيفة. وعلى ذلك فقد ظنوا بحسب اجتهادهم الخاص أنه من المسموح به لهم أن يأكلوا ويشربوا ويباشروا أزواجهم طالما أنهم لم يخلدوا إلى النوم في الليل، ولكن بعد أن يخلدوا إلى النوم، ظنوا أنه من غير المسموح به أن يأكلوا أو يشربوا أو يعاشروا أزواجهم حتى مساء اليوم التالي. وقد رُوِيَ عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَحَضَرَ الْإِفْطَارُ فَتَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ حَتَّى يُمِيسِيَ. وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا أَعِنْدِكَ طَعَامٌ؟ قَالَتْ لَا، وَلَكِنْ أَتُطْلِقُ فَأُطْلَبُ لَكَ. وَكَانَ يَوْمُهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ خَيْبَةٌ لَكَ.

فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غَشِيَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا وَنَزَلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ (البخاري - كتاب الصوم).
 وبين هذا الحديث والأحاديث ذات المعنى نفسه، أن امتناع الصحابة عن معاشره زوجاتهم بعد خلودهم إلى النوم في المساء، لم يكن طاعة لأمر إلهي ولا لتوجيه من الرسول ﷺ، وإنما كان ذلك بسبب تقليدهم لعادة مماثلة كانت منتشرة بين أهل الكتاب، فرضوا فيها بعض القيود على أنفسهم. ولما كانت هذه القيود لا تتفق مع المشيئة الإلهية، فقد نزل الوحي يسمح للمؤمنين أن يأكلوا ويشربوا ويعاشروا أزواجهم كما يشاءون خلال الليل، ولكن عليهم أن يمتنعوا عن ذلك خلال النهار.
 وقد فهم بعض المفسرين من كلمات الآية ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَنَّ صحابة الرسول ﷺ لم يستطيعوا أن يطيعوا أمر الله تعالى بالامتناع عن معاشره أزواجهم خلال ليالي الصيام، وأنهم كثيراً ما كانوا يضطرون لعصيان الأمر الإلهي بسبب ذلك. ولكن من الواضح أن هذا الفهم خاطئ تماماً لسبب وجيه، وهو أنه لم يكن هناك أمر إلهي في هذا الشأن. وبالإضافة، فإن كلمات الآية ﴿فَالَاَنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ تُكَذِّبُ أيضاً هذا التفسير الخاطئ، لأن كلمة ﴿فَالَاَنَ﴾ تبين بوضوح أن الصحابة الكرام قد أخطأوا بسبب الامتناع وليس بسبب انغماسهم الشديد في علاقاتهم الزوجية. ومن الواضح أن القرآن المجيد ما كان ليقول ﴿فَالَاَنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ لأناس هم منغمسون فعلاً في مباشرة أزواجهم.

وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ يبين بشكل جميل الغرض من الزواج. إذ تشير الآية إلى أن الهدف من الزواج ليس مجرد إشباع الرغبات الجنسية، وإنما الهدف الحقيقي هو توفير الراحة والحماية والزينة لكل من الزوجين، فهذا ما يحققه اللباس كما جاء في الآية ٢٧ من سورة الأعراف، والآية ٨٢ من سورة النحل. وهكذا، بكلمات قليلة مختصرة يصف القرآن المجيد الرابطة الحقيقية التي يجب أن تكون بين الزوج وزوجه، وهو وصف لا تكاد تجد له مثيلاً في الصحف المقدسة الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ لا يشير إلى خيط من غزل، وإنما يعني شعاع الضوء الذي يظهر في الجهة الشرقية عند بداية انبثاق الفجر. وتأمّر الآية المسلمين أن يمتنعوا عن الأكل والشرب والعلاقة الزوجية خلال صيامهم من وقت انبثاق الفجر إلى غروب الشمس، ولكن من حقهم أن يمارسوا كل هذه الأمور بين غروب الشمس وحلول الفجر. وفي المناطق التي يطول فيها النهار بشكل غير عادي، أي بالقرب من المناطق القطبية، فيجب أن يتم حساب طول الليل والنهار حسب المتوسط، أي أنه في هذه الحالة يكون طول كل من الليل والنهار ١٢ ساعة، وذلك من أجل تحديد الفترة الواجب صيامها في اليوم (صحيح مسلم كتاب أشرط الساعة).

وتشير كلمات الآية ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ إلى مزاولة الاعتكاف الذي يمارس بالبقاء في المسجد ليلاً ونهاراً في العشر الأواخر من رمضان. فخلال هذه المدة، يقضي المعتكف كل وقته في المسجد، ولا يغادره إلا لتلبية الضرورات البشرية، أي لتلبية نداء الطبيعة. ويدخل المعتكف المسجد صباح اليوم العشرين من رمضان، ويبقى به إلى نهاية شهر رمضان، صائماً من بزوغ الفجر إلى غروب الشمس، وشاغلاً نفسه بالصلاة وتلاوة القرآن المجيد، أو ينشغل بالدراسة الدينية وذكر الله تعالى. وخلال الاعتكاف الذي يُعتبر إكمالاً لروح الصيام، لا يجوز له أن يمارس العلاقة الزوجية أو مقدّماتها مع زوجته، حتى خلال الليل.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ يشير إلى مبدأ بالغ الأهمية، وهو أن الإنسان يمكن أن يصل إلى أعلى درجات التقوى، وذلك إذا امتنع عن مجرد «الاقتراب» من الأمور التي حرّمها الله تعالى. ويقول الرسول ﷺ: «الْحُلَالُ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَعَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحْرَمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (البخاري - كتاب الإيمان). وهذه

وصية جلية تقطع جذور انتهاك جميع المحرمات. إن أولئك الذين يتعدون عن جميع الأشياء المحرمة هم فقط الذين يستطيعون حماية أنفسهم من ارتكاب الذنوب. والجملة الأخيرة في الآية الكريمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ تكرر الهدف الذي ذكرته الآية ١٨٤ السابقة التي قدّمت موضوع الصيام لأول مرة. وكان الغرض من الصيام في كلتا الآيتين هو تحقيق التقوى، أي طاعة الله تعالى وحماية النفس من الشرور. ويمكن للقارئ أن يقارن بين هذا الهدف من الأوامر الإلهية الذي يقرره القرآن المجيد، وما يعتقدّه المسيحيون عن الشريعة التي يعتبرونها لعنة (غلاطية ٣: ١٠-١٣).

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا
بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ
النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٩﴾

شرح الكلمات:

تُدْلُوا: مشتقة من أدلى المشتقة من دلا. يُقال دلا الدلو أي أرسل الدلو في البئر أو رفعه منه. أدلى أي أنزل الدلو في البئر. أدلى إليه بماله: دفعه إليه (أقرب الموارد).

التفسير:

إن الأمر بالصيام فَرَضَ على المسلمين الامتناع عن تناول الطعام والشراب الحلال خلال الفترات المحددة، وذلك بغرض الحصول على التقوى والصلاح والاستقامة. وبالتالي فإن هذه هي أكثر المناسبات ملائمة لتذكير الناس بأن أكل الحرام، أي اقتناء الثروة بطرق غير مشروعة، يجب أن يُجتنب بشدة وعزم وتصميم.

لا شك أن أحد أكبر الشرور البارزة في العالم هو أكل أموال الناس بطريق الغش والخداع والاحتيال، أو عن طريق التقاضي المبني على الزور. والكثير من الذنوب

ليست سوى نبتة تنبت من هذا الفساد. ويدين الإسلام كل تصرف يؤدي إلى استيلاء الإنسان على ممتلكات غيره بدون علمه أو بغير رضاه. كذلك فإنه من غير المسموح به الاستيلاء على ممتلكات الغير عن طريق استصدار أمر من القضاء بوسائل غير مشروعة. فإذا استولى أحد بدون وجه حق على ممتلكات ليست له، حتى ولو كان هذا الاستيلاء نتيجة لصدور حكم قضائي يقرر حقه فيها، فإن هذا الاستيلاء سوف يؤدي إلى هلاك ذلك الشخص. وفي ذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ يُحْجَتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ" (البخاري- كتاب الأحكام).

والآية تسدد ضربة تجز جذور هذا الفساد الذي انتشر ظهوره في العصر الحاضر، حتى بين أولئك الذين يدعون الحضارة والتمدن، ولم يعد الناس يهتمون كثيراً بما هو حق، فكل ما يهمهم هو ماذا يقرره القاضي. فإذا حكم القاضي لصالح أحد بحقه في مال أو عقار ليس له، فإنه يستولي عليه دون أي إحساس بندم أو بوخز من ضمير، حتى وهو يعلم أن ذلك المال أو العقار ليس من حقه. ولا يخطر بباله أبداً أنه أمام الله تعالى يُعتبر مغتصباً لحق غيره، ولا يقل في ذلك عمن يغتصب بالقوة ما يمتلكه غيره. وبالمناسبة، فإن الآية الكريمة تدين بشدة أيضاً ممارسة إعطاء الرشوة أو أخذها التي انتشرت بكل أسف هذه الأيام. وفي بعض البلاد صار من الممكن شراء ذمة القضاء. والأسوأ من ذلك أن باب العدالة قد أوصد في وجه صاحب الحق الشرعي بسبب هذا الفساد. وهذه الممارسات موجودة حتى في بعض الدول الغربية المتقدمة، ويقال إنها منتشرة على نطاق واسع في العالم الجديد. وقد أدان بشدة الرسول ﷺ هذه الممارسات فقال ﷺ: "لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي" (ابن ماجه - كتاب الأحكام).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ
لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ
اتَّقَى وَآتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩٠﴾

شرح الكلمات:

الْأَهْلَةُ: جمع هلال وهو غرة القمر. وبصفة عامة تستخدم كلمة «هلال» لوصف القمر في أول ليلتين أو ثلاث. أمّا في الليالي الأخرى يُسمى قمراً (أقرب الموارد).

مَوَاقِيتُ: جمع ميقات المشتقة من وقت أي الزمن أو الأوان. لذا فكلمة «ميقات» تعني: (١) الوقت؛ (٢) الوقت المحدد لشيء بعينه؛ (٣) الموعد الذي جعل له وقت؛ (٤) الموضع الذي جعل وقتاً للشيء (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

عندما سمع صحابة الرسول ﷺ عن البركات العظيمة لشهر رمضان، كان من الطبيعي أن تثور في نفوسهم الرغبة في معرفة بركات الشهور الأخرى. وقد بين سؤالهم هذا مدى حرصهم على نوال تلك البركات الربّانية والظفر بقرب الله تعالى.

ويجب ألا يُساء فهم قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ فيُظن أن الإسلام يأخذ القمر وحده في الاعتبار عند قياس الزمن، ففي أماكن أخرى نجد أن القرآن المجيد يذكر الشمس أيضاً في هذا المضمار (انظر الأنعام: ٩٧، والإسراء: ١٣). وفي الواقع، إن الإسلام استعمل كلاً من الشمس والقمر لقياس الزمن. فمن أجل تحديد مواعيد العبادة في الفترات المختلفة من اليوم، فإن النظام الشمسي لتحديد الزمن هو الذي

يؤخذ في الاعتبار، كما هو الحال مثلاً في تحديد مواعيد الصلوات الخمس اليومية، أو تحديد موعد الإفطار والإمساك في أيام الصيام. وحينما تتعلق العبادة بشهر معين أو بجزء من الشهر، فإن النظام القمري لتحديد الزمن هو الذي يؤخذ في الاعتبار، كما هو الحال عند تحديد شهر الصيام وتعيين أيام الحج. وفي الحقيقة، لما كانت الأوامر الإلهية تتعلق بالناس عامة، فإن نظام تحديد الزمن الذي يستعمل يكون هو النظام الذي يفهمه عامة الناس بسهولة. ولذلك فإن جميع الأوامر التي ترتبط بزمن محدد تتوقف على الجزء الذي تسهل رؤيته في النظام الشمسي أو القمري حسبما يقتضي الأمر. فالتغيير في موقع الشمس خلال النهار يمكن ملاحظته، ولكن بداية الشهر الشمسي لا يمكن مشاهدتها، بينما تسهل رؤية بداية الشهر القمري. ولذلك فقد استعمل الإسلام كلا النظامين؛ والنظام الشمسي ليس أقل أهمية من النظام القمري.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ يشير إلى مبدأ بالغ الأهمية، وهو أن الغرض الحقيقي من تعيين مختلف أنواع العبادة هو تحقيق الفائدة الحقيقية لهذه العبادات، وليس في وجوب تحديد عبادة معينة مع كل تغيير في الوقت. ولذلك فإن السؤال الذي صدر من المؤمنين نتيجة شوقهم الزائد لمعرفة ما إذا كانت هناك شهور أخرى غير شهر الصيام، ترتبط بها عبادات أخرى، كان مثل دخول البيوت من ظهورها وليس من أبوابها. فالمهم في الأمر هو العبادة، وأما الزمن أو الوقت فهو أمر ثانوي. غير أن أولئك الذين قدّموا السؤال كانوا يضعون الزمن في المرتبة الأولى والعبادة في مرتبة ثانوية، وهذا كأنه وضع للعربة أمام الحصان.

وتعني الجملة أيضاً أنّ على المرء أن يتّخذ الأسلوب الأنسب للوصول إلى هدفه. وكل غاية يمكن تحقيقها باتخاذ وسائل معينة. كذلك فإن الله تعالى قد حدّد وسائل معينة لكسب رضاه ونوال قربه، وعلى الناس أن يلتزموا بتلك الوسائل ولا يبتدعوا وسائل من عند أنفسهم، إذ أنهم بذلك سوف يكابدون العناء ولن يحققوا شيئاً في النهاية.

وقد جاء في المرويات أن المشركين العرب كانوا إذا غادروا بيوتهم بنية حج البيت، ثم اقتضاهم داع أن يعودوا إلى بيوتهم لشأن من الشؤون، فإنهم ما كانوا يدخلون بيوتهم من أبوابها، ولكنهم كانوا يدخلونها بتسلق الجدران الخلفية (البخاري كتاب التفسير). والإسلام لا يؤيد مثل هذه الأساليب التي لا معنى لها.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

سَبِيلِ اللَّهِ: حرفياً تعني: طريق الله. إن أي عمل يُعمل من أجل إزالة العقبات التي تمنع الناس من الوصول إلى الله أو قبول دين الله، يُسمى «في سبيل الله» أي من أجل الله تعالى؛ وكذلك كل ما يُقصد به وجه الله تعالى أو كل ما يُعمل طاعةً لأوامر الله تعالى. لذا فالحرب الدينية والدعوة إلى الله تعالى والحج وطلب العلم.. إلخ، وفي الواقع كل عمل يهدف إلى إرساء الحق والخير كما أمر الله تعالى هو «في سبيل الله».

التفسير:

إن الموضوع المتعلق بنوال الصلاح والتقوى، والذكر العابر أيضاً لموضوع الحج، كان من الطبيعي أن يلفت نظر المرء إلى العقبات التي وضعها المشركون في طريق المسلمين، وقد جعلوا منهم ضحية لجميع أنواع المظالم، بل إنهم منعوهم حتى من الاقتراب من قبلتهم في مكة. لذلك كان من المناسب أن يتناول القرآن المجيد هنا موضوع الحروب الدينية.

وتتضمن الآية الكريمة شروط الحرب الدينية التي كانت مفروضة على المسلمين. والشروط التي جاء ذكرها في الآية أربعة هي: (١) أن تكون الحرب في سبيل الله تعالى حقيقة، أي أن الغرض منها إزالة العقبات التي وُضعت أمام دين الله. وأي حرب

ليست في سبيل الله تعالى فهي ليست في الحقيقة حرباً دينية ولا يُسمح بها. (٢) إن الحرب المسموح بها تكون فقط ضد أولئك الذين يرفعون السلاح ضد المسلمين، كما تبين ذلك الكلمات ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾. (٣) لا بد من الحرص الشديد على المحافظة على أرواح النساء والأطفال وكبار السن الذين لم يشتركوا اشتراكاً فعلياً في الحرب ضد المسلمين، لأن الحرب الدينية يُسمح بها فقط ضد أولئك ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾. أما إذا اشتركت امرأة أو اشترك عجزوز في القتال، فإن مسؤولية ذلك تقع على تلك المرأة أو ذلك الرجل، وفي تلك الحالة فإن هؤلاء يفقدون حقهم هذا. وفي هذا يقول سيد الخلق ﷺ: "انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخاً قَانِياً وَلَا طِفْلاً وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا تَغْلُوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (أبو داود - كتاب الجهاد). (٤) على المسلمين أن ينتهوا عن القتال فوراً إذا توقف العدو عن القتال، لأنه من غير المسموح به في هذه الحالة الاستمرار في القتال، حسب كلمات الآية ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. فما أعد لها وما أنبلها هذه التعاليم، وما أجمل الأسلوب الجامع المانع الذي عبر عنها!

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ
حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا
تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ
فِيهِ فَإِنِ قَاتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ
جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٢﴾

شرح الكلمات:

ثَقِفْتُمُوهُمْ: مشتقة من ثَقَفَ. يُقَالُ ثَقَفَهُ أَي: (١) صادفه أو قابله؛ (٢) أخذه أو ظفر به؛ (٣) أدركه (أقرب الموارد).

الفِتْنَةُ: مشتقة من فَتَنَ. يقولون فَتَنَ فلانًا أي أضلَّهُ؛ اختبره أو امتحنه. فَتَنَ فلانًا عن رأيه: صدَّه. فَتَنَ الصائغ الذهب: أذابَه بالبوتقة وأحرقه بالنار ليبين الجيد من الرديء ويعلم أنه خالص أو مشوب. فَتَنَ: اختبره أو أضلَّهُ أو اضطهده. لذا فكل كلمة «فتنة» تعني: (١) الخبرة والابتلاء؛ (٢) العذاب والاضطهاد؛ (٣) اختلاف الناس في الآراء وما يقع بينهم من القتال (أقرب الموارد). انظر أيضًا الآية ١٠٣ من نفس السورة.

التفسير:

تتعلق الآية بالظروف التي تكون الحرب فيها قد بدأت بالفعل. ومن الواضح أن الآية لا تنطبق على جميع الكافرين، فهي تقول ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ﴾ ولا تقول «واقتلوا الكافرين». ويتّضح من الضمير «هم» أنه يعود على ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة. وتدعو الآية المسلمين أن يقاتلوا أولئك الكفار الذين رفعوا السلاح ضدّهم، ولا تدعوهم لأن يقتلوا كل فرد من الكافرين في أي مكان يجدونهم فيه. ولا شك أن الآية تُعتبر مثالاً يبين كيف يقوم أعداء الإسلام بتشويه وتحريف المعاني الواضحة لكلمات القرآن المجيد.

وتشير الكلمات ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ إلى ذلك الوقت حين أُجْبِرَ أعداء الإسلام في مكة الرسول ﷺ وصحابته الكرام على الخروج من مكة. والآية تحضّ المسلمين على أن يضعوا في اعتبارهم أن عليهم في القريب أن يفتحوا مكة التي هي مركز الإسلام وأقدس مكان في الأرض، ولن يُسمح بالبقاء فيها لأي شخص من غير المسلمين بعد ذلك.

وتقدّم الجملة ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ دليلاً على ضرورة الحرب الدفاعية. لقد كان الكفار يضطهدون المسلمين ويعذبونهم بطرق شتى محاولين بذلك أن يصرفوهم عن دينهم، وكانوا أيضًا يخلقون الفساد في الأرض ويعتدون على المسلمين. وكان لا بد من وضع نهاية لهذا العدوان والفساد بقتال المعتدين، وألا يسمح لهم بالتمادي في ذلك

الفساد والعدوان. ولا شك أن هناك ظروفًا معيّنة حين يرى فيها كل عاقل أن الحرب تكون ضرورة.

ويمكن تفسير كلمة «الفتنة» وكلمة «القتل» بطريق آخر. فكلمة «الفتنة» تعني «اضطهاد الناس وشن الحرب عليهم بغرض تحويلهم عن دينهم بالقوة»، بينما معنى «القتل» هو «شن الحرب العادية التي لا علاقة لها بالدين». وبهذا المعنى تفيد الآية بأن «الفتنة» أي الحرب الدينية، أشد من الحرب العادية، وذلك لأن؛ أولاً: إن الأمور الدنيوية لا تُعد شيئاً عند مقارنتها بالأمور الدينية؛ وثانياً: أن الحروب الدينية تكون عادة أشد وطأة وأكثر مرارة وقسوة من الحروب العادية، ونادراً ما تنتهي مثل هذه الحروب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ يتضمن مبدأً هاماً. فحتى بعد إعلان الحرب، هناك بعض القيود والحدود التي يجب مراعاتها، ويتحتم على المسلمين ألا يكونوا هم البادئين بتجاوز هذه الحدود. فيجب احترام حرمة الأرض المقدسة التي حول الكعبة المشرفة حتى في زمن الحرب. أما إذا لم يصن المعتدون حرمة المسجد الحرام فحينئذ يجب على المسلمين أن يقاتلوهم ليردّوا إليهم عقولهم.

فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٣﴾

التفسير:

تحدّث الآية الكريمة عن مدى رحمة تعاليم الإسلام. فحتى بعد الاضطهاد الفظيع الذي قام به المشركون ضد المسلمين، وبعد التعذيب البشع الذي عانى منه المسلمون على أيدي أولئك المشركين الظالمين، وبعد أن طُرد المسلمون من ديارهم وأرضهم، وبعد أن جعل أولئك المشركون حياة المسلمين قطعة من العذاب بإثارتهم الفساد في الأرض وتأليب القبائل الأخرى عليهم، غير أنه رغم كل هذا فعلى المسلمين أن يغفروا

لهم كل ما فعلوه، ويعاملوهم بالرحمة إذا هم توقفوا عن القتال. لا، بل إن الله تعالى نفسه يعدهم بالمغفرة والرحمة إذا هم توقفوا عن قتال المسلمين.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ
إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾

شرح الكلمات:

الدِّينُ: لها العديد من المعاني: (١) المِلَّة والمذهب؛ (٢) السلطان والمُلْك والحُكْم (أقرب الموارد). انظر أيضاً الآية ٤ من سورة الفاتحة.

عُدْوَان: مشتقة من عدا. يُقال عداه أي تجاوزه. عدا عليه: ظلمه أو تجاوز الحد معه. عاداه: خاصمه وصار له عدواً. لذا فكلمة «عدوان» تعني: (١) الظلم الصراح؛ (٢) السوء من قولٍ أو فعلٍ أو حالٍ؛ (٣) الجزاء أو العقاب على فعلٍ ظالمٍ (المنجد ومفردات الراغب ومعجم لين).

التفسير:

كثيراً ما يستشهد أعداء الإسلام بهذه الآية الكريمة مدّعين أن الإسلام يحضّ على شنّ الحرب على الكافرين، وعلى استمرار هذه الحرب إلى أن تتم إزالة كل أثر للأديان الفاسدة من الأرض، وإلى أن يعتنق العالم كله الإسلام. غير أن هذا الادّعاء خاطئ تماماً. فالكلمة التي تلقي ضوءاً على المعنى الحقيقي لهذه الآية الكريمة هي كلمة «فتنة» التي تعني الاضطهاد، والتي جاء شرحها في الآية السابقة بأنها تعني «الاضطهاد الديني». فهذه الآية تحضّ المسلمين على القتال فقط إلى أن ينتهي ذلك الاضطهاد الديني. وقد جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه سُئل أثناء الحرب بين عليّ ومعاوية رضي الله عنه عن السبب في عدم اشتراكه في تلك الحرب، بينما يحض القرآن الكريم على القتال إلى أن

تنتهي الفتنة، فقال: «فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا فَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ إِمَّا قَتَلُوهُ وَإِمَّا يُعَدِّبُونَهُ حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً» (البخاري، كتاب التفسير). ولا تترك كلمات عبد الله بن عمر رضي الله عنهما هذه أي شك في أن معنى كلمة «فتنة» هو الاضطهاد الذي تعرّض له المسلمون بسبب دينهم وليس أي شيء آخر. فالمسلمون أمروا بالقتال إلى أن تنتهي حالة الاضطهاد الديني.

وعلى هذا، فإن الكلمات التي جاءت بعد ذلك ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ تعني أن على المسلمين أن يستمروا في قتال المعتدين لكي لا يكون اختيار الدين بسبب الخوف من الناس، بل يكون اختيار الدين من أجل الله تعالى فقط وليس بسبب الخوف من أحد. ويؤيد هذا التفسير أن الرسول ﷺ قد عقد عدة معاهدات مع الكافرين، وهو ما كان ليفعل ذلك إذا كانت هذه الآية تحض على استمرار القتال إلى أن يعتنق الجميع الإسلام. إن الغرض من «الجهاد»، أي الحرب الدينية، التي فرضت على الرسول ﷺ جاء مشروحاً في الآيات ٤٠ إلى ٤٢ من سورة الحج، وهي الآيات الأولى التي جاء فيها الإذن للمسلمين بالقتال، وزادت الآيات ١٩١، ١٩٣ السابقة في سورة البقرة الأمر وضوحاً وتفصيلاً. ويمكن للقارئ الرجوع إلى العديد من الآيات الأخرى التي تلقي ضوءاً على هذا الموضوع: (البقرة: ١٩٥، ٢١٨، ٢٥٧)؛ (آل عمران: ١٣٥)؛ (النساء: ٩١، ٩٢)؛ (المائدة: ٣، ٩، ٣٣)؛ (الأنفال: ٣٩، ٦٢، ٦٣)؛ (التوبة: ٦، ٨، ١٠، ١٣)؛ (الحج: ٤٠، ٤١)؛ (فصلت: ٣٥)؛ (الشورى: ٤٩)؛ (ق: ٤٦)؛ (المتحنة: ٩، ١٠).

والجزء الأخير من الآية ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يؤيد أيضاً التفسير الذي قدّمناه عليه. فإن كان الإسلام يحضّ على مواصلة القتال إلى أن يعتنقه العالم كله، فلا معنى بتاتاً لأن يأمر القرآن الكريم بالامتناع عن القتال إذا توقّف المعتدون عن القتال، فكما بيّنت الآية أن القتال لا يجوز إلا على المعتدين الذين يظلمون الناس باعتبارهم عليهم.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٥﴾

شرح الكلمات:

الشَّهْرُ الْحَرَامُ: منذ القدم وقبل ظهور الإسلام، هناك أربعة أشهر من شهور السنة القمرية تعتبر من الأشهر الحُرُم (سورة التوبة: ٣٦) أي التي يحرم فيها القتال وغيره وفيها يسافر الناس في سلامٍ وأمنٍ تامٍ، وهذه الشهور الحُرُم هي: (١) ذو القعدة. (٢) ذو الحجة. (٣) المحرم. (٤) رجب، الشهور الثلاثة الأولى متتابعة أمّا شهر رجب فهو منفصل عنها. ولأن فريضة الحج تؤدي في شهر ذي الحجة، لذا فالشهور الثلاثة المتتالية تُعامل على أنها شهور سلام وأمن للمسافرين سواء في طريق ذهابهم أو عودتهم من الحج. أمّا شهر رجب فهو معني بصفة عامة بالعمرة. هذا النظام لم يوضع قبل الإسلام بواسطة العرب الوثنيين، إنّما صار دارجاً بإقامة فريضة الحج الذي وضع أساسه سيدنا إبراهيم عليه السلام امتثالاً لأمر الله تعالى (سورة الحج: ٢٧، ٢٨). ولأن الإسلام احتفظ بفريضة الحج، كان من الطبيعي أن يؤيد حرمة هذه الأشهر الحُرُم أيضاً، حتى إن القبائل المتحاربة كانت تكف عن القتال عند اقتراب الشهر الحرام وحينئذٍ تتلاشى تماماً إراقة الدماء في البلد (البخاري والقسطلاني والزرقاني وتاج العروس)

فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ: حرفياً تعني «تجاوزوا الحد معه»، ولكن لأن الذي يثار أو ينتقم من اعتداء وقع عليه هو ليس معتدياً في واقع الأمر، بل يعاقب المعتدي على خطيئته، لذا فمعنى الآية الكريمة ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾: قابلوه بحسب اعتدائه، وتجاوزوا إليه بمثل ما تجاوزوه. من المعروف في قواعد اللغة العربية أنهم يستخدمون الفعل كجزاء على فعل سابق، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: ١٦). وهنا أيضاً يشير قول الله تعالى: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ إلى الجزاء على نفس الجريمة، وليس المعنى أن يعتدوا على الآخرين وإنما أن يعاقبوهم على جريمة عدوانهم.

التفسير:

تضع هذه الآية الكريمة قاعدة هامة. فإذا حدث أن خرق العدو حرمة الشهر الحرام، واستمر في عدوانه على المسلمين، فعلى المسلمين ألا يقفوا مكتوفي الأيدي ويدعوا المعتدين يواصلون عدوانهم، بل عليهم أن يردّوا العدوان، لأن في ذلك حماية لحرمة كل حرام، وإلا فإنّ عدم ردّ العدوان في الشهر الحرام يعني تشجيع العدو على عدوانه وتدنيس المقدّسات.

ولكن، لما كان القتال في الشهر الحرام يُعدّ أمراً كبيراً (البقرة: ٢١٨)، ولما كان هناك أيضاً احتمال تعديّ الحدود في عقاب المعتدي، وأن سوء التقدير من جانب المسلمين يجعلهم خطاة عند الله تعالى، لذلك كان من المناسب أن يحذّر الجزء الأخير من الآية المسلمين ويأمرهم بتقوى الله تعالى حتى لا يحيدوا عن حدوده ولا يخرجوا على أوامره، ولذلك ينبغي عليهم أن يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا
بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٦﴾

التفسير:

لما كان الاستعداد للحرب وتجهيز المقاتلين يحتاج إلى المال، تحضّ الآية الكريمة المسلمين على الإنفاق في سبيل الله تعالى، وذلك حتى يمكنهم أن يدفعوا عن أنفسهم الحرب التي فُرضت عليهم.

ولا تعني الكلمات ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كما ظنَّ بعض الجهلة أنَّ على المسلمين ألا يفعلوا شيئاً يعرّض حياتهم للخطر حال وقوع العدوان عليهم. بل على العكس من هذا، إنَّ الآية تفيد بأنَّه إنَّ لم يُنفق المسلمون بسخاء لمواجهة نفقات الحرب، فإنهم بذلك يُلقون بأيديهم إلى التهلكة. ففي هذه الحالة سوف يستمر العدو في اضطهادهم لهم، وسوف يقضي عليهم تماماً يوماً ما. وهناك بعض الأقوال لصحابة الرسول ﷺ تؤيد هذا التفسير (أبو داود، الترمذي، ابن جرير الطبري).

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قد يحمل أربعة معان: (١) فهو قد يعني أن لا تكتفوا أنتم بإنفاق الأموال في سبيل الله تعالى للإعداد للقتال، ولكن إعطوا المال أيضاً لإخوانكم الفقراء ليشتركوا هم أيضاً في القتال. (٢) ويمكن أن يعني أيضاً أن عليكم أن تلتزموا بالعدل وتجنبوا القسوة تجاه عدوكم عندما تحرصون على إنهاء الحرب بسرعة، فالله تعالى يحب أولئك الذين يحسنون إلى الآخرين. وفي مكان آخر من القرآن المجيد يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٩٠)؛ (٣) ويمكن أن تعني الآية أيضاً أحسنوا الظن بالله تعالى، ولا تظنوا أنكم إذا أنفقت أموالكم في سبيله فإنه سوف يترككم عرضة للهلاك؛ (٤) يمكن أن تعني أيضاً أن عليكم أن تؤدّوا واجبكم خير أداء وتوفوا بمسؤولياتكم خير وفاء وبشكل كامل. وهناك من أقوال الصحابة الكرام ما يؤيد المعنيين الأخيرين (ابن جرير).

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا
أَسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا
أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ

صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ
إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ
يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ
تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ
حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٧﴾

التفسير:

تبدأ بهذه الآية الكريمة التعاليم التي تختص بأداء فريضة الحج. وتؤدي فريضة الحج بالأسلوب التالي: يبدأ من يعزم على أداء هذه الفريضة بالدخول في حالة الإحرام، وذلك عندما يصل إلى الميقات أو قبله، والميقات عبارة عن أمكنة تختلف في المسافة حسب الاتجاهات المختلفة، غير أنها في جميع الأحوال تقع خارج المنطقة الحرام. وخلال فترة الإحرام، يحرم على الحاج ممارسة العلاقة الجنسية واستعمال العطر والزيوت المعطرة، ولبس الملابس المخيطة، وصيد البر وما إلى ذلك. والحاج الذكر يخلع عنه الملابس العادية ويستعمل ثوبين أبيضين من قماش غير مخيط، ويترك رأسه بغير غطاء. وأما الأنثى فلها أن تستخدم ملابسها العادية بشرط أن تكون ملابس بسيطة متواضعة، وعليها أن تغطي وجهها بغير غطاء. وينبغي على الحاج (ذكرًا أو أنثى) أن يبدأ بالتلبية، وهي ترديد صيغة من الكلمات وتكرارها ما استطاع، وهي: «لَبَّيْكَ اللهم لبَّيْكَ، لبَّيْكَ لا شريك لك لبَّيْكَ، إن الحمد والنعمة لك والمملك، لا شريك لك». وعند وصول الحاج إلى مكة، يكون أول عمل يقوم به، ويُفَضَّل أن يكون ذلك بعد أن يستحم، هو الطواف حول الكعبة سبع مرات، ثم يسعى بعد ذلك (أي يمشي مشيًا حثيثًا) بين الصفا والمروة (البقرة: ١٥٩). وفي اليوم الثامن من شهر ذي الحجة، وهو

شهر الحج، ينتقل الحاج من مكة إلى منى، وهي على بعد ثلاثة أميال من مكة، حيث يتوقف هناك ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها بادئاً بصلاة الظهر، وفي الصباح (أي في اليوم التاسع) يغادر منى ماراً بالمشعر الحرام، وهو يبعد حوالي ستة أميال من مكة، ثم يواصل الانتقال بعد ذلك إلى منطقة عرفات التي تبعد ثلاثة أميال أخرى، حيث يصلي الظهر والعصر قبل دخوله إلى عرفات؛ وعندما يتم دخول جميع الحجاج إلى منطقة عرفات، يقوم الإمام بإلقاء خطبة، بينما لا يفعل الحاج شيئاً سوى الإنصات والدعاء بصوت خافت. وبعد ذلك، يعود الحاج بعد غروب الشمس إلى المزدلفة أو المشعر الحرام، حيث يؤدّي صلاتي المغرب والعشاء جمعاً، ويقضي وقته في الذكر والدعاء. وفي اليوم التالي (اليوم العاشر) بعد أداء صلاة الصبح عند المشعر الحرام، يبدأ العودة مبكراً إلى منى، حيث يلقي الجمرات (وعدها سبع جمرات) في كل موضع من المواضع الثلاثة المخصصة لرمي الجمرات، بادئاً بجمرة العقبة، ويكرر ذلك في كل يوم يقضيه في منى. وفي نفس اليوم، أي اليوم العاشر، يضحي بقربانه (شاة أو خروف أو كبش أو بقرة أو جمل إلخ)، ثم يتحلل من إحرامه بأن يحلق رأسه، ويستحم ثم يرتدي ملابسه العادية. وبعد ذلك يذهب إلى مكة، وهناك يقوم بطواف الكعبة سبعة أشواط، ثم يعود بعدها إلى منى إذا أراد. والمدة التي يقضيها في منى يمكن أن تتراوح بين جزء من اليوم إلى ثلاثة أو أربعة أيام، وهي التي تُعرف باسم «أيام معدودات»، وبها تكتمل شعائر الحج. وخلال كل هذا الوقت ينبغي على الحاج أن يردّد صيغة التلبية المذكورة عليه.

أما العمرة، أو الحج الأصغر، فشعائره هي الدخول في حالة الإحرام، كما تم ذكره فيما سبق، والطواف بالكعبة المشرفة سبع مرات، أما السعي أو الهرولة بين الصفا والمروة، وتقديم الأضحية، فهي من الأمور التطوعية. ويمكن أداء العمرة في أي وقت من السنة، بينما يؤدّي الحج الأكبر في شهر ذي الحجة فقط. ولشرح معنى كلمتي «الحج» و«العمرة» يمكن مراجعة شرح الآية ١٥٩ من سورة البقرة.

وقوله: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ يشير إلى الأحوال التي يُمنع فيها الحاج أو المعتمر، بعد إحرامه، لسبب أو لآخر من زيارة الكعبة المشرفة، لاستكمال أداء مناسك الحج أو العمرة. وقد يكون هذا المانع مرضاً أو اندلاع الحرب أو أي مانع آخر. وعلى الحاج أو المعتمر في هذه الحالة أن يمتنع عن مواصلة تأدية بقيّة الشعائر، ويقوم بتقديم أضحيته أو ﴿مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي من شاة أو كبش أو جمل أو غيره. ولكن عليه ألاّ يخلق رأسه ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾، والمقصود أنه يظل في حالة الإحرام إلى أن يبلغ الهدي إلى منى، وهو المكان المقصود للهدي. أما إذا لم يكن من الممكن إيصال الهدي إلى منى فيمكن التضحية به في المكان الذي أُخْصِر فيه الحاج، وله أن يأكل من لحم الأضحية أو يوزّع اللحم بين أصحابه وأقاربه وجيرانه وغيرهم. والجدير بالذكر أن تقديم الأضحية واجب على من يُحصر فلا يستطيع إكمال شعائر الحج أو العمرة. وفي الظروف العادية، عندما يؤدي الحاج شعائر الحج وحده أو شعائر العمرة وحدها، فإن تقديم الأضحية يكون أمراً تطوعياً، ولكن إذا قرن المرء بين الحج والعمرة، يصبح من الواجب تقديم أضحية.

وتتعلق آية ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بأولئك الذين لا يستطيعون أن يحلقوا رؤوسهم بسبب مرض أو أذى. والبدائل المذكورة جاءت لتناسب قدرات الطوائف المختلفة من الحجاج. فالصيام يناسب الفقراء من الناس؛ والصدقات أو إطعام الفقراء يناسب الطبقة المتوسطة من الناس؛ وتقديم النُّسك أي الأضحية فهو للأغنياء. ولم تحدّد الآية عدد الأيام التي يجب صيامها، ولا عدد الفقراء الذين يجب إطعامهم، أو نوع الحيوان الذي يجب تقديمه كأضحية. وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه قال: "صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ بَيْنَ سِتَّةٍ أَوْ انْسُكُ بِمَا تَيْسَرُ" (البخاري - كتاب الحج).

وبعني قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي إذا وضعت الحرب أوزارها، وإذا زالت العقوبات التي كانت المانع من إكمال شعائر الحج بعد الدخول في حالة الإحرام، وفي هذه الحالة يمكن للشخص أن يستكمل سفره إلى مكة بنيّة أداء شعائر العمرة، ثم يبقى بها لأداء

شعائر الحج في شهر ذي الحجة التالي. وهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

ويمكن قران الحج بالعمرة بأحد طريقين؛ أولاً: يمكن أن يقوم الشخص الذي ينوي الحج بأن يعقد عزمه على أداء العمرة أولاً، وذلك بأن يدخل في حالة الإحرام بنية أداء العمرة فقط، ثم يقوم بأداء شعائرها، وينتهي منها بالتحلل من الإحرام. وفي اليوم الثامن لذي الحجة، يدخل مرة أخرى في حالة الإحرام بنية أداء شعائر الحج. وحين يقرن الحاج بين العمرة والحج بهذا الشكل، يسمى هذا من الناحية الفقهية «تمتعاً»، وتعني الكلمة حرفياً «الاستفادة من شيء ما».

والطريق الثاني أن يعزم الحاج على أداء شعائر العمرة والحج في نفس الوقت. وفي هذه الحال يتحتم على الحاج أن يبدأ إحرامه بهذه النية، ويظل في حالة الإحرام بعد أن ينتهي من أداء شعائر العمرة إلى أن ينتهي من أداء شعائر الحج. وهذا الجمع بين العمرة والحج بإحرام واحد يسمى «قران»، وتعني الكلمة حرفياً «الجمع بين شيئين». وفي كل من حالة «التمتع» و«القران»، يفرض على الممتع أو القارن أن يقدم أضحية، بينما لا يكون تقديم الأضحية فرضاً عند أداء الحج فقط أو أداء العمرة فقط. وفي الآية الحالية، لم تستعمل كلمة «تمتع» بمعناها اللفظي، وإنما جاءت لتعني القران أيضاً.

والصيام المذكور في قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ يختلف عن الصيام المذكور عليه. فالصيام الذي جاء ذكره أولاً هو لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحلقوا رؤوسهم، بينما الصيام هنا لأولئك الذين لا يستطيعون تقديم أضحية في حالة التمتع. ومن المفضل أن تكون أيام الصيام هي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، ويمكن تأخير الأيام السبعة الباقية التي يجب صيامها إلى حين عودة الحاج إلى داره.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني أن الإذن بالجمع بين العمرة والحج هو لغير المقيمين في مكة، أي لأولئك الذين يأتون من الخارج. وفي رأي البعض، أن تعبير ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يشمل المنطقة الحرام كلها حول مكة.

والجملة الأخيرة في الآية الكريمة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لها معنيان: (١) أن على المسلمين ألا يظنوا بأن هذه الأمور مجرد تفاصيل بسيطة لبعض الشعائر الظاهرية، فلا يحافظون على الالتزام بأدائها، لأن جميع هذه الأمور التي فرضها الله تعالى العليم بكل شيء على المؤمنين، مهمة وضرورية في نظره، وقد فرضها لمصلحتهم. وعلى هذا، فإن من يهمل في أداء هذه التفاصيل لا يستجلب على نفسه غضب الله تعالى فحسب، بل إنه يعرقل تقدّمه ورفقته الروحي؛ (٢) أن أداء شعائر الحج يجب ألا يملأ قلب الحاج بالغرور (الذي كثيراً ما يحدث للأسف هذه الأيام) لأن هذا يتنافى مع الغرض الأساس للحج وهو الحصول على التقوى. وفي هذه الحالة لن يشعر مثل ذلك الشخص بالقرب من الله تعالى، وإنما سوف يرى عقابه الذي سوف يصيبه.

والجدير بالذكر فيما يختص بهذه الآية، بالإضافة إلى أنها تعطي شرحاً عاماً لشعائر الحج، فإنها تشير أيضاً إلى حادثة معينة في التاريخ الإسلامي، وهي واقعة صلح الحديبية. لقد نزلت هذه الآية قبل واقعة الحديبية، وكانت تومئ إلى أن زمناً سوف يأتي حين يخرج المسلمون متوجهين إلى مكة بنية أداء شعائر الحج، ولكنهم سوف «يُحْصَرُونَ» بواسطة المشركين الذين سوف يمنعونهم من ذلك. غير أن الله تعالى سوف يمنحهم النصر على المشركين، وبذلك سوف «يأمنون» لأداء شعائر الحج في سلام. فما أصدقها من صورة لما كان يبدو أنها نكسة في الحديبية، ثم ما تبع ذلك من فتح مكة على أيدي الرسول ﷺ.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ
فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا
تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ
الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٨﴾

شرح الكلمات:

رَفَثٌ: الفُحْش من القول، والرَفَث أيضاً الكلام المتضمن لما يُستقبح ذكره من الجماع ودواعيه، وجُعِل كناية عن الجماع (مفردات الراغب ومعجم لين). انظر أيضاً الآية ١٨٨ من نفس السورة.

فُسُوقٌ: نفس معنى فسق، لمزيد من الشرح انظر الآية ٢٧ من نفس السورة.

جِدَالٌ: مشتقة من جدل. يُقال جَدَلَ الحبل أي فتله فتلاً محكماً. وجَدَلَ الرجل أي اشتدت خصومته. جادله: خاصمه شديداً. لذا فكلمة «جدال» تعني: الخصومة أو النزاع أو استخدام الكلمات الحادة الغليظة (أقرب الموارد).

تَزَوَّدُوا: و«الزاد» كلاهما مشتق من زاد، مصدرها زود. يقولون زَادَ الرجل أي جَهَّز الزاد. تزوَّد: اتخذ الزاد. تزوَّد من الأمير كتاباً إلى عامله أي حمّله منه إليه ليستعين به على شأنه. الزاد: طعام يُتَّخَذ للسفر (أقرب الموارد). وتستخدم كلمة «الزاد» أيضاً بمعنى: المُدخِر الزائد عن الحاجة لاستخدامه في المستقبل عند الحاجة إليه (مفردات الراغب).

التفسير:

قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ يبيّن أنّ القرآن المجيد لم يذكر أمراً جديداً لتغيير المواعيد التي كانت معروفة قبل الإسلام لمواقيت الحج، فالمواعيد التي كانت

سائدة بين العرب هي المواعيد الصحيحة التي حافظ عليها العرب منذ زمان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. والشهور القمرية الثلاثة التي يمكن للمرء أن يبدأ فيها رحلة الحج والدخول في حالة الإحرام هي شهر شوال، وذو القعدة، والأيام العشر الأوائل من ذي الحجة (البخاري).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ لا يعني أن هذه الأمور مسموح بها في غير وقت الحج، ولكن تعني أن الالتزام بهذه الأمور ضروري لاكتمال أداء الحج، الذي سوف يكون كالجسد بلا روح إذا انغمس المرء في هذه الأمور أثناء تأدية شعائر الحج. وهناك سبب آخر لهذه التعاليم، وهو أن على المرء أن يمتنع عن الانخراط في هذه الأمور خلال فترة الحج، وذلك حتى يسهل عليه أن ينأى بنفسه عن الانغماس فيها في الأوقات الأخرى. والمفاسد الثلاث التي جاء ذكرها هي التي يجب تجنبها بدقة في اجتماع ديني مثل اجتماع الحج. فالرفث يشمل كل قول بذيء أو كلام فاحش، وأيضاً الأفعال المتعلقة بالجنس. والفسوق يعني التعدي على أوامر الله تعالى، ومعصية السلطة الشرعية، سواء كانت روحية أو دنيوية. والجدال هو النزاع والشقاق والمشاجرات مع المسافرين أو الرفقاء أو الجيران.

وكلمة ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ لا تشير فقط إلى الاستعدادات التي يقوم بها المرء عند القيام برحلة، وهي هامة وضرورية بالطبع، ولكن تشير الكلمة أيضاً إلى الاستعدادات اللازمة للقيام برحلة روحية. ومن هذه الوجهة تعني الكلمة «زودوا أنفسكم بالصّلاح والتقوى». ومن أجل التأكيد على أهمية هذا النوع من الزاد، كان من المناسب أن تضيف الآية هذه الكلمات ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. غير أن الزاد المادي أيضاً مهم، لأنه إذا لم يتزود المرء لرحلته، فإنه سوف يكابد الكثير من المصاعب في الطريق، وقد يضطر إلى طلب المعونة من الآخرين، وهذه الأمور تضرّ بالغرض النبيل والمقصد الروحي وراء رحلة الحج.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن
رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ
عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ
وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِّينَ ﴿١٩٩﴾

شرح الكلمات:

فَضْلًا: انظر شرح الآية ٦٥ من سورة البقرة.

أَفَضْتُمْ: مشتقة من أفاض المشتقة من فاض. يُقال فاض السيل أي كثر وسال من ضفة الوادي. فاضت عيناه: امتلأت عينه بالدموع فسالت بكثرة. أفاض: فعلٌ مُتَعَدٌّ ولازمٌ أيضًا. يُقال أنه أفاض الماء أي أفرغ الماء، ويُقال أفاض القوم من المكان أي اندفعوا ورجعوا وتفرقوا أو أسرعوا منه إلى مكان آخر. فيّاض: الذي تتدفق حسناته تدفق الماء (أقرب الموارد).

عَرَفَات: هو الاسم الذي يُطلق على السهل أو الوادي الذي يقف فيه الحجاج في آخر اليوم التاسع من شهر ذي الحجة. وهو تقريباً على شكل دائرة قطرها ميل ونصف الميل ذو جوانب منحدرّة ويرتفع عن السهل المجاور له بحوالي مائتي قدم. يقع هذا المكان على بعد تسعة أميال من مكة والوقوف به يُعتبر الركن الأساس في الحج. وكلمة «عرفات» مشتقة من عرف أي عَلِمَ أو مَيَّزَ أو تعرّف.

الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ: هو الاسم الذي يُطلق على تلٍ صغير في «المزدلفة» بين مكة وعرفات، حيث صلى الرسول ﷺ صلاتي المغرب والعشاء ودعا فيه كذلك دعاءً خاصاً قبل شروق الشمس. لذا فلهذا الموضوع أهمية خاصة فيما يتعلق بالصلاة والدعاء أثناء الحج. يقع هذا المكان على بعد ستة أميال من مكة تقريباً. و«المشعر الحرام» تتكون

من كلمتين: «مشعر» (من شعر) وتعني المكان أو الوسيلة التي يُدرك بها أمر أو المعرفة؛ وكلمة «الحرام» (من حرم) أي المقدس.

التفسير:

لما كان أحد أغراض الحج أن يشترك فيه أكبر عدد من المسلمين، لذلك فقد أباح القرآن المجيد أن ينخرط الناس في التجارة والتبادل الفكري والثقافي. وهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يحملوا سيولة نقدية معهم، يمكن لهم أن يحملوا بضائع لبيعها وتأمين نفقات الرحلة، وهذا ما تومئ إليه كلمات الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وقد سُمح بهذا أيضاً لأولئك الذين يجتمعون لأداء صلاة الجمعة (سورة الجمعة: ١١).

غير أن أمور التجارة يجب ألا تعزقل أمور العبادة والقيام بأداء شعائر الحج وإقامة الصلاة. يقول تعالى: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ﴾. وقد كان الرسول ﷺ يذكر الله تعالى ويكثر من الدعاء عند المشعر الحرام، وقد نُهي المؤمنون عن الاشتغال بالتجارة أو بأي أمر من الأمور الدنيوية حتى لا يضيع منهم الهدف الحقيقي للحج. ولكلمة ﴿أَقَضْتُمْ﴾ معنى مجازي أيضاً، وهو أنكم حين تعودون من عرفات يجب ألا تعودوا وأنتم خاوو الوفاض، وإنما تعودون كالإناء الذي امتلأ إلى حافته حتى فاض بالبركات والمعارف الروحية.

ولعل القارئ قد لاحظ أن كلاً من «عرفات» و«المشعر الحرام» اسم صفة، ولكنهما استُعْمِلَا هنا على أنهما اسمي علم، وذلك لتنبيه الحاج إلى أن الحج ينبغي أن يكون مصدراً للمعرفة والروحانية، وليس مجرد شعائر ظاهرية تؤدي بلا روح. وتومئ كلمة ﴿عَرَفَاتٍ﴾ أيضاً إلى تبادل التعارف بين المسلمين الذين يأتون من مختلف أنحاء الدنيا.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

اسْتَغْفِرُوا: مشتقة من غفر، للشرح انظر الآية ٥٩ من نفس السورة. استغفر تعني اطلب من الله تعالى المغفرة بكل معانيها أي: ستر الأخطاء والذنوب، العفو، الوقاية من الزلل، صون العبد من عقوبته على ذنوبه، إلخ. والاستغفار لا يعني طلب المغفرة بالكلام فقط، بل يمتد ويشمل تغير المستغفر تغيراً حقيقياً للأفضل. فالاستغفار هو طلب المغفرة ليس باللسان فقط بل باللسان وبالفعل (مفردات الراغب).

التفسير:

إن الحرف «ثم» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أثار الآراء العديدة بين المفسرين. فإذا كان حرف «ثم» يعني «بعد ذلك» فلا بد أنها تعني تعاقب أحداث، وفي هذه الحالة تعني الآية: «بعد أن تكونوا قد عُذتم من عرفات إلى المشعر الحرام (كما سبق ذكره في الآية السابقة) يجب أن تعودوا إلى منى من المشعر الحرام (أي المزدلفة) التي يعود منها الناس». ولكن من الواضح أن هذا تحصيل حاصل، لأن أحداً لم يختلف على وجوب الذهاب إلى المشعر الحرام والعودة من هناك مع الناس. وإنما الاختلاف يختص بالذهاب إلى عرفات والعودة منه؛ فبينما كان أفراد قبيلة قريش وكنانة يقفون عند المشعر الحرام، وهو مكان يقع داخل المنطقة الحرام، ولا يذهبون إلى عرفات الذي يقع خارج المنطقة الحرام، فإن بقيّة الحجاج كانوا يذهبون إلى عرفات. وعلى ذلك، إذا كان للأمر الإلهي ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي ضرورة، وكانت الضرورة تقضي بارتباط ذلك الأمر بعرفات وليس بالمشعر الحرام؛ غير أن الآية الحالية تبدو أنها تتعلق بالمشعر الحرام، مما جعل بعض المفسرين يقولون إن حرف «ثم» لا يعني «بعد» ولكن يعني «واو العطف»، وهو

أمر تسمح به الاصطلاحات العربية (معجم لين). وقد فسّر أولئك المفسرون قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ ليس بما يعني «وبعد ذلك أفيضوا»، وإنما باستخدام واو العطف بمعنى «وأفيضوا». وفي هذه الحالة ترتبط الإفاضة بعرفات وليس بالمشعر الحرام كما يبدو أن هذا ما تعنيه الجملة. ولا شك أن هذا التفسير لا يتعارض مع قواعد اللغة العربية، ولكن من الممكن تقديم تفسير آخر يحفظ معنى كلمة «ثم» لتعني «بعد ذلك». ويمكن شرح ذلك كما يلي: إن الآية السابقة تحدثت عن الإفاضة من عرفات، وهي بذلك تبين بوضوح أنّ الذهاب إلى عرفات أمر ضروري، وبهذا يتم أمر الذهاب إلى عرفات والعودة منه. وأمّا الآية الحالية، فتأخذنا خطوة أخرى، حيث إنها تحدثت عن العودة من المشعر الحرام وليس من عرفات، وبذلك يظل معنى الحرف «ثم» هو «بعد ذلك»، إذ من الواضح أنّ العودة من المشعر الحرام تحدث «بعد» العودة من عرفات. وفي هذه الحالة فإنّ الكلمات ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ جاءت لتشير إلى أنّه بينما كان التصرف الصحيح هو الذهاب إلى عرفات، فإنّ العودة من المشعر الحرام كانت عامة بين الناس، بما فيهم قبيلتا قريش وكنانة اللتان كانتا تقفان عند المشعر الحرام، ولا تذهبان إلى أبعد من ذلك، أي إلى عرفات. وما يؤيد ذلك أنه بينما جاءت كلمة ﴿أَفْضُتُمْ﴾ لتعبر عن العودة من عرفات كما قال تعالى في الآية السابقة: ﴿فَإِذَا أَفْضُتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾، فالآية الحالية تقول: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي من حيث يعود جميع الناس من المشعر الحرام الذي كان يذهب إليه جميع الناس في ذلك الوقت قبل الإسلام. وعلى هذا، فإنّ مدلول كلمة «الناس» سوف يتغير أيضاً بتغيير مدلول كلمة «ثم». فإذا أخذنا حرف «ثم» ليعني العطف، وأنّ الإفاضة، أي العودة، التي تذكرها الآية الحالية، هي عودة من عرفات، فإنّ كلمة «الناس» في هذه الحالة سوف تعني «بقية الناس». أما إذا أخذنا الحرف «ثم» ليعني «بعد»، والإفاضة لتعني العودة من المشعر الحرام، فإنّ كلمة «الناس» في هذه الحالة سوف تعني «جميع الناس»، وكل من هذين التفسيرين يتفق مع قواعد اللغة العربية واصطلاحاتها.

وباختصار، قبل نزول الإسلام لم يكن أفراد قبيلتي بني كنانة وقرئش يذهبون مع بقيّة الحجاج إلى عرفات، ولكن كانوا يتوقفون عند المشعر الحرام، وينتظرون عودة بقيّة الناس من عرفات. وهذه الآية وسابقتها تأمران بعدم الاكتفاء بالذهاب إلى المشعر الحرام، وإنما ينبغي الذهاب إلى عرفات كما كان يفعل بقيّة الناس. وبعد العودة من عرفات إلى المشعر الحرام، ينبغي على الحجاج أن يتوجّهوا إلى منى حيث تقديم الضحايا، وتنتهي بذلك حالة الإحرام.

ويشير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ إلى أنه لما كان أداء فريضة الحج ينطوي على تأدية العديد من الشعائر، فمن المحتمل أن لا يفهم بعض الناس معنى هذه الشعائر، والروح التي ينبغي أن تؤدّى بها والهدف من ورائها. وحيث إنه ينبغي القيام بالكثير من الشعائر في زمن قصير، فهناك دائماً احتمال أن يغفل بعض الناس عن تأدية بعض الشعائر، أو قد يسيئون القيام بها حسب الترتيب الواجب لها، ولذلك تحضّ الآية الحجاج على اللجوء إلى الاستغفار؛ أي طلب المغفرة من الله تعالى وطلب حمايته سبحانه من الوقوع في الخطأ وما يترتب عليه.

إن كلمة «استغفار» تعني: «الدعاء لله تعالى للعفو عن الذنوب والخطايا وطلب الحماية»، أي أن الاستغفار يعني مغفرة الخطايا السابقة، وطلب الحماية من ارتكابها في المستقبل. وعلى ذلك، حين يستغفر الحاجّ ربّه فإنه لا يطلب فقط مغفرة ما مضى من خطاياهم، وإنما يطلب أيضاً الحماية من الله تعالى، حتى لا يقع في الخطأ فيما يتعلق بتأدية شعائر الحجّ، وأيضاً أن يحفظه الله تعالى من المعاصي والذنوب في المستقبل أيضاً.

ومن الجدير ذكره هنا هو أنّ الاستغفار ليس ضرورياً فقط لعامة الناس وحسب، بل إنّ الأولياء والأبرار من الناس أيضاً يلجأون إليه. فإنّ عامّة الناس يستغفرون ربهم كي يحفظهم من أثر الذنوب التي ارتكبوها في الماضي، بينما يستغفر الأولياء والأبرار ربهم كي يحفظهم من الضعف البشري، ومن العجز الذي يمكن أن يعرقل عملهم وتقدّمهم.

إن الأبرار من الناس هم بشر على أي حال، ورغم أنهم لا يرتكبون أي ذنب أو إثم، إلا أنهم يتوقون دائماً إلى نوال عون الله تعالى ومساعدته على التغلب على الضعف البشري. لا، بل إنهم يلجأون للاستغفار أكثر من عامة الناس، لأنهم يكونون في كل أعمالهم مثلاً علياً يحتذي بها الآخرون، كما أن واجباتهم ومسؤولياتهم أكبر وأشمل أيضاً من الآخرين من عامة الناس.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ
كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴿٢٠١﴾

شرح الكلمات:

فَاذْكُرُوا: مشتقة من ذكر وتعني: (١) تكلم عنه بإطراء ومدح؛ (٢) حفظه في ذهنه أو في قلبه (أقرب الموارد ومفردات الراغب). انظر أيضاً الآية ٤١ و ١٥٣ من نفس السورة.

أَوْ: حرف عطف يُعطي كثيراً من المعاني: (١) التخيير؛ (٢) الجمع؛ (٣) كلاً، لا، بل؛ (٤) إلا إذا، ما لم؛ (٥) إلى، حتى (أقرب الموارد ومعجم لين).

خلاق: تعني: النصيب الوافر من الخير (أقرب الموارد).

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ يشير إلى تقليد كان سائداً بين العرب الوثنيين، الذين كانوا يتجمعون في مكان معين من مَنى أثناء تأدية شعائر الحج، لكي يُعظّموا آباءهم بإنشاد الأشعار في الثناء عليهم. والآية تحث المسلمين على تعظيم الله تعالى بدلاً من ذلك، وأن يعظّموه سبحانه كما كانوا يعظّمون آباءهم، بل أكثر

من تعظيمهم لأبائهم، كما تشير إلى ذلك الكلمات ﴿أَوْ أَشَدُّ ذِكْرًا﴾، التي أضيفت للتأكيد على أن تعظيم الله تعالى يجب أن يفوق كل شيء آخر، فإن الحرف ﴿أَوْ﴾ يعني «بل». ومن الممكن أيضاً أن حرف كاف التشبيه في كلمة ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ قد استعمل أيضاً ليعني المماثلة العامة بدون الارتباط بالدرجة، والحرف ﴿أَوْ﴾ يعني العطف. وفي هذه الحالة تعني الآية أنه رغم أن ذكركم الله تعالى يماثل بشكل عام ذكركم لأبائكم، إلا أنه من حيث درجة الذكر، فينبغي أن يكون ذكر الله تعالى أشد وأكبر وأعظم وأسمى من ذكركم لأبائكم. وهذا يقدم لنا أحد الأمثلة على أن القرآن المجيد حين يحفظ عادة قديمة فإنه يطورها ويحسنها ويضيف عليها روحانية لتكون في خدمة مقاصد الإسلام.

ولقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ معنى آخر. فإن كلمة «ذکر» تعني أيضاً التذكر، وكلمة «آباء» تعني أيضاً الوالدين (يوسف: ١٠١)، وعلى هذا فإن الجملة يمكن أن تعني أيضاً أنه إذا تم تأدية مناسك الحج كما ينبغي، بالروح الصحيحة المطلوبة، فإنها سوف تملأ قلب الإنسان بمحبة الله تعالى، حتى إنه يتذكر ربه كالطفل الذي يشاق إلى والديه، ولذلك جاء حرف «ف» في كلمة ﴿فَاذْكُرُوا﴾ ليشير إلى أنه نتيجة لأداء مناسك الحج، فإن الحاج يذكر ربه بشوق ولهفة كلهفة الطفل عند رؤية أبويه، غير أن هذه هي المرحلة الأولى فقط، لأن محبة الأبرار لله تعالى تكون أكبر وأشد من ذلك، كما تشير كلمات الآية ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. ويقول سيدنا رسول الله ﷺ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا» (البخاري - كتاب الأدب).

ويشير الجزء الأخير من الآية ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ إلى حقيقة أن الحاج إذا اقتصر على تعظيم آباءه وغفل عن تعظيم خالقه، فإنه سيكون مثل الشخص الذي يصرف جميع جهده في الحصول على فئات هذه الدنيا، وحتى جميع أدميته سوف تكون محصورة في الحصول على ذلك الفئات، وليس لمثل هذا الشخص أي حق في نوال طيبات الحياة الآخرة. والجدير بالذكر أن

الآية الكريمة لم تقل «آتينا في الدنيا حسنة»، بل اقتصرت على قوله تعالى: ﴿آتَيْنَا فِي الدُّنْيَا﴾، وهي تومئ بذلك إلى أنّ مثل هؤلاء لا يهتمون عادة بالتفريق بين ما هو حسن وما هو سيئ في هذه الدنيا، وإنما كلّ همّهم أن ينالوا المكاسب الدنيويّة، سواء كانت حسنة أو سيئة.

وكما جاء في شرح الكلمات، فإنّ كلمة ﴿خَلَقَ﴾ (أي نصيب) التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ تعني في الحقيقة: وما له في الآخرة من نصيب عظيم فيما هو خير. غير أنّ الآية لا تعني أنّ مثل هذا الشخص سوف يحصل على نصيب قليل فقط من الخير في الآخرة، وإنما تعني أن الشخص الذي ينجس في أمور الدنيا، ولا يهتمّ بغيرها، سوف يحرم نفسه من نصيب عظيم، فلن يحصل على شيء بتاتاً في الآخرة. ولما كان القرآن الكريم يعالج موضوعات واسعة في مساحة صغيرة، فإنّه يعتمد إلى استخدام الكلمات والتعبيرات المختصرة، ولكنها في نفس الوقت تحمل الكثير من المعاني.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٢﴾

التفسير:

يذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة تلك الفئة من الناس التي لا ينحصر جهدها وعملها في الحصول على الأمور الدنيويّة فقط، وهؤلاء هم من (١) يطلبون النعم الدنيوية؛ (٢) ويطلبون أيضاً نعم الآخرة؛ (٣) ويعملون على النجاة من النار التي ليست هي نار جهنم فقط، وإنما تعني كل شيء مؤلم يسبب اشتعال القلب حسرةً وألماً. والجدير بالذكر هنا أنّه على عكس الآية السابقة، فإنّ الآية الحالية تذكر كلمة ﴿حَسَنَةً﴾ في وصف أمور الدنيا التي يطلبها هؤلاء، مما يعني أنّ الفضلاء من

الناس يمكن أن يطلبوا أمور الدنيا أيضاً، ولكن هذه الأمور يجب أن تكون دائماً طيبة وليست سيئة.

إنّ الدعاء المذكور في هذه الآية الكريمة دعاء شامل بحق، ويمكن أن يدعو به الناس من جميع الفئات في أمورهم التي تتعلق بالدنيا والآخرة. وقد رُوي أن الرسول ﷺ كان كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء (مسلم كتاب الذكر)، وذلك لكي يُعلّم صحابته أنهم إذا أرادوا أن يطلبوا نعيم الدنيا والآخرة، فعليهم أن يدعوا الله تعالى بهذا الدعاء.

وللدعاء معنى آخر أيضاً، إنّ حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، المذكورة في هذه الآية، يمكن أن تعني أيضاً البركات الروحية. فحسنة الدنيا تعني البركات الروحية التي ينالها الإنسان الصالح في هذه الحياة الدنيا. وحسنة الآخرة تعني بالطبع بركات الآخرة. وفي الحقيقة، إنّ كلمات الآية نفسها تشير إلى هذا المعنى، لأنّ التعبير القرآني ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لا يعني «الأمور الطيبة في هذه الدنيا»، ولكنه يعني ببساطة «الحسن في هذه الدنيا». وفي هذه الحالة فإن «النار» لا تعني نار جهنم، لأن ذلك متضمّن في حسنة الآخرة، وإنما المقصود من «النار» هنا هو نار المحن والابتلاءات والشدائد، التي قد يجابهها المرء في هذه الدنيا عند نضاله وكفاحه من أجل الحصول على التقدم والرفق الروحي، أو في بذل جهده لخير الآخرين. وبهذا المعنى كان الرسول ﷺ يدعو لنفسه بهذا الدعاء؛ لأنه شخصياً لم يكن يسعى أبداً للحصول على أي شيء من هذه الدنيا، ولا حتى من خيراتها الطيبة، رغم أنه كان يطلب دائماً «حسنة» هذه الدنيا.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٣﴾

شرح الكلمات:

نَصِيبٌ: مشتقة من نَصَب. يُقال نَصَبَهُ أي أقامه. وعلى ذلك فكلمة «نصيب» تعني الجزء المحدد (معجم لين).

التفسير:

إِنَّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَنْشُدُونَ طَيِّبَاتِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَطَيِّبَاتِ الْآخِرَةِ (البقرة: ٢٠٢) سينالون نصيبهم من الله تعالى حسبما يستحقّون. وتتضمّن آية ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ تحذيراً للناس، حيث إنّ بعض جهودهم سوف تُصرف في السّعي وراء أمور هذه الدنيا، فعليهم أن يكونوا على حذر حتى لا يتسبّب أي ضعف أو خطأ من جانبهم في جلب غضب الله تعالى عليهم. وتشير الجملة أيضاً إلى حقيقة هامة، وهي أن الله تعالى قد قدّر أن كل حدث في الطبيعة تتبعه نتائجه مباشرة، كذلك فإنّ الأعمال تترك انطباعاتاً على الإنسان، وبذلك فإنها تظل محفوظة. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكُتُهُ سَوْدَاءً فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبُهُ ذَلِكَ الرَّيْنُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» (مسند أحمد بن حنبل). وهذا في الواقع هو الناتج الذي يتبع مباشرة أعمال الإنسان. وفي الحقيقة، إنه الحساب الذي يصاحب جميع أعمال الإنسان.

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٤﴾

التفسير:

إن ذكر الله تعالى وتكبيره والتغني بحامده وثنائه الذي كانت تحت عليه الآيات السابقة، يجب أن يتم في الأيام المحدودة التي يقضيها الحاج في منى بعد انتهاء مراسم الحج. وهذه الأيام هي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة. وينبغي على الحاج خلالها، ما أمكن له ذلك، أن يقيم في منى، ويقضي أيامه في ذكر الله تعالى. كذلك ينبغي على الحاج في هذه الأيام، رمزاً لطرد الشيطان، أن يلقي بالجمرات يومياً عند الأعمدة الثلاثة، وتسمى هذه الأيام «أيام التشريق»، أي أنها أيام الجمال والصفاء والنور.

ويشير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى البقاء في منى. فإذا غادر الحاج منى مبكراً يومين أو إذا تأخر فيها يومين إضافيين، فلا إثم عليه، طالما أن كان صادق النية في كل ما يفعله، وكان يتصرف بتقوى الله تعالى وخشيته.

وتنتهي الآية الكريمة بالجملة: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وذلك لتذكير القارئ أو الحاج بأن الغرض من وراء الحج هو التقوى، وهي نفس الكلمة التي جاءت في الآية الأولى عن مناسك الحج (البقرة: ١٩٧)، وبذلك يؤكد القرآن المجيد على أن تأدية بعض الشعائر الخارجية ليس بشيء، ما لم يكن مصحوباً بتقوى الله تعالى، أو روح البر والصلاح، التي يجب أن تميز جميع أعمال الإنسان.

وجاءت كلمات الآية ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لتبين أن الغرض من اجتماع الحج ليس مجرد تأدية بعض المناسك والشعائر، وإنما هو اجتماع للقاء الله تعالى. وكأن الجملة تقول «واعلموا أنكم في الحج تحشرون إلى الله تعالى»، ولذلك عليكم أن تتصرفوا على هذا الأساس. إن حشد الحجاج في الحج في الحقيقة يشبه يوم الحشر في يوم القيامة العظيم.

والآن، بعد أن انتهى وصف الحج الذي جاء في هذه الآيات، فإنه من المناسب تقديم ملخص واف عن حكمة هذه الفريضة والعبادة وقيمتها. إن الحج في الحقيقة

فريضة روحية عظيمة. والكعبة المشرفة، حسب ما ذكر القرآن المجيد، هي أول بيت وُضع للناس (آل عمران: ٩٧)، كما جاء وصفها أيضاً في القرآن المجيد بأنها «البيت العتيق» (الحج: ٣٠، ٣٤). وهناك رواية من الأدبيات اليهودية تذكر أنّ إبراهيم عليه السلام قد بنى «المعبد الذي بناه آدم عليه السلام»، الذي كان قد دُمّر بسبب مياه الفيضان، والذي أعاد نوح عليه السلام بناءه، ثم دُمّر بعد ذلك في زمن الانقسامات (طرجومات أونكيلوس وجوناثان بن عزّيل، ترجمه ج. دابليو. إثيريدج، لندن ١٨٦٢ ص ٢٢٦). والكعبة هي المعبد الوحيد الذي يناسب هذا الوصف؛ فليس هناك من مكان قديم يناظرها. وكان التقدير الإلهي أن يجتمع الناس من جميع الأنحاء في هذا البيت المركزي، وبذلك يدركون أنهم جميعاً شركاء في الإنسانية، ويفهمون أهميّة علاقتهم المشتركة مع رب العالمين، وبذلك يمكن تناسي الخلافات التي تفصل بين الأمم، ويتقارب الجميع في رابطة مشتركة. إنّ الحجّ يتيح للحجّيج القادمين من بلاد مختلفة، ومن جنسيات متعددة، فرصة عظيمة للتعارف وتنمية العلاقات فيما بينهم، وبحث الأمور ذات الفائدة المشتركة. ويمكن تحقيق هذا الهدف خلال أيام الحجّ، والأيام التالية له، في رحاب منى والمزدلفة وعرفات، ثم العودة إلى منى، بدلاً من البقاء محصورين في جنبات مكة.

والأماكن والأغراض التي لها دور هام في الحجّ تسمى «شعائر الله» (البقرة: ١٥٩؛ المائدة: ٣؛ الحج: ٣٣) مما يبين أنّ الله تعالى قد قصد بها أن تكون رموزاً، تؤثر معانيها وقيمتها الروحية على قلوب الحجّاج.

فالكعبة الشريفة التي هي بيت الله تعالى، وأوّل بيت وضع لعبادة الله ﷻ، والتي يطوف حولها الألوف من الحجّاج، والتي يتّجه إليها الجميع في الصلاة حيثما كانوا، تُذكر الحجّاج بوحدانية الله وسلطانه ﷻ، فهو سبحانه وحده الذي يعتمد عليه كلّ الخلائق. كما ترمز الكعبة أيضاً إلى وحدة البشر جميعاً.

والسعي الحثيث بين الصفا والمروة، يعيد إلى الذاكرة قصّة الظروف الصّعبة التي قاستها السيدة هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام، وتذكّر الحاجّ كيف يُعين الله تعالى عباده ويُزوّدهم بفضلِهِ حتى ولو كانوا وسط صحراء قاحلة.

ومنى، اسم مشتق من كلمة «أمنية» التي تعني «غرض» أو «رغبة». وهذا يُذكّر الحاج بأنّه يذهب إلى ذلك المكان بغرض أو برغبة لقاء الله تعالى. ومن منى يواصل سيره إلى المزدلفة، ويعني اسم ذلك المكان «القرب»، مما يُذكّر الحاج أنّ الغرض الذي خرج من أجله قد «اقترّب». ومن المزدلفة يواصل الحاجّ تقدّمه إلى عرفات، والأصل المشتق منه هذا الاسم هو «المعرفة»، مما يُذكّر الحاجّ بأنّه قد وصل الآن إلى مرحلة «المعرفة» بالله تعالى، حيث «عرف» أن له ربّاً واحداً وقد جاء للقاءه. وأيضاً، إنّ المكان الذي اختاره الله تعالى ليجتمع فيه المؤمنون هذا الاجتماع العظيم، هو واد قفر لا زرع فيه كما يذكر القرآن المجيد (إبراهيم: ٣٨). وكلّ ما يراه الإنسان في ذلك الوادي هو الرمال والحصى والصخور والتلال الوعرة. وقد اختار الله تعالى هذا المكان ليبين لنا أنه مكان ليس به شيء يجذب الأنظار، ولا يستحقّ مطلقاً أن يأتي السياح لزيارته. إنّ الشيء الوحيد الموجود فيه، والذي يستحقّ أن يشدّ الإنسان إليه الرحال، هو الله تعالى وحده. ولذلك، فإنّ الآية الحالية تقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَهِهُ تُخْشَرُونَ﴾. أي أنكم تجتمعون هنا لا لأيّ غرض دنيويّ، ولا لأيّ كسب ماديّ، وإنما للقاء الله تعالى فقط.

والإحرام يُذكّر المرء بيوم البعث. فكما يُغطى جسم الميت بالأكفان، يغطي الحاجّ نفسه بقطعتين من القماش غير مخيط، يستعمل أحدهما لستر الجزء الأسفل من جسمه، والآخر لستر الجزء الأعلى؛ كما أنه يترك رأسه بغير غطاء. وهذه الحالة تُذكّر الحاجّ بأنّه هنا قد بُعث من الموت. إنّ اجتماع الحجيج في عرفة يمثل حقيقةً منظراً من يوم البعث، وكأنّ الناس قد قاموا فجأة من الموت في أكفانهم البيضاء، واجتمعوا جميعاً في حضرة ربهم.

ورُمي الجمرات في منى عند الأعمدة الثلاثة المخصصة لذلك، والمعروفة باسم «الدنيا» و«الوسطى» و«العقبة»، لها أيضاً رمز جميل. فهي تُذكر الإنسان بالمراحل الثلاث التي يمر بها الإنسان، والتي ذكر القرآن المجيد أنّ الإنسان لا بدّ له أن يمرّ بهذه المراحل الثلاث. (١) المرحلة الأولى هي مرحلة الحياة «الدنيا»، والتي يرمز لها العمود الأول الذي يُسمّى أيضاً «الجمرة الدنيا»؛ (٢) المرحلة الثانية هي مرحلة القبر، أو المرحلة المتوسطة التي تتوسط بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. والعمود الذي يمثل هذه المرحلة يُسمّى «الجمرة الوسطى»؛ (٣) المرحلة الثالثة هي الحياة الآخرة التي تسمّى أيضاً «العقبى»، ويرمز لها العمود الثالث الذي يُسمّى «الجمرة العقبة»، ويعني الاسم: الأكمة التي تلي السابقتين. ورُمي الجمرات نفسه يرمز لرحم الشيطان، إذ يجب طرد الأفكار الشريرة من نفس الإنسان، كما طرد الله تعالى الشيطان وجعله رجيمًا. والتضحية بالقرايين تذكر الحاج بالتضحية الكبرى التي قدّمها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتُعلم الحاج بلغة الرمز أنّ الإنسان يجب أن يكون على استعداد دوماً ليس فقط بالتضحية بنفسه، بل بالتضحية بماله وثروته وحتى أولاده، في سبيل الله تعالى وحباً له.

ويؤدّي الحاج سبعة أشواط من الطواف حول الكعبة، كما يسعى في سبعة أشواط أخرى بين الصفا والمروة، وأيضاً يلقي بسبع جمرات عند كل عمود في منى. وعند العرب يرمز الرقم «سبعة» للكمال (أقرب الموارد). وهذا يُذكر الحاج بأنّ عليه أن ينشد الكمال في أداء مراسم الحجّ، وفي أداء كل عمل يقوم به، فلا يكفي بأنصاف الحلول، بل يصبو دائماً إلى الكمال ويحققه. ولعله ليس من الغريب أن تكون مراحل بلوغ الكمال المذكورة في سورة «المؤمنون» (الآيات ٢-١٢) هي أيضاً سبع مراحل. وباختصار، إن جميع مناسك الحجّ، وكلّ شعائره وأغراضه، إنما هي جميعها رمزية، تفيض بالمعاني العميقة، والدروس الهامة، ولكن فقط لأولئك الذين يتفكرون ويعقلون.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٥﴾

شرح الكلمات:

يُعْجِبُكَ: مشتقة من عجب. عَجِبَ من الأمر وله أي أخذه العَجَبُ منه، وَعَجِبَ إليه أي أَحَبَّه. أعجبه: حمّله على العجب وسرّ منه (أقرب الموارد).

أَلَدُّ: مشتقة من لَدَّ. يُقَالُ لَدَّهُ أي شدد خصومته. لذا فكلمة «أَلَدُّ» - اسم تفضيل من لَدَّ - تعني: الخصم الأشد في خصومته. وجمع «أَلَدُّ»: لُدْدٌ (أقرب الموارد).

الْخِصَامُ: جمع خصم. يُقَالُ خَاصَمَهُ أي جادله ونازعه. خصم وخصيم ومخاصم كلها تعطي نفس المعنى: المنازع أو المشاجر أو المجادل. وكلمة «الخصام» تستخدم أيضاً بصيغة المصدر وتعني: النزاع والشجار والجدال (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

ذكرت الآيتان السابقتان حتى الآن نوعين من الناس: (١) أولئك الذين يسعون لنوال أمور هذه الدنيا (البقرة: ٢٠١)؛ (٢) أولئك الذين يسعون لنوال طيبات هذه الدنيا وطيبات الآخرة (البقرة: ٢٠٢). والآية الحالية والتي تليها، تذكران فئتين من الناس تنتمي كل فئة منهما إلى نوع من النوعين السابقين من الناس. وتذكر الآية الحالية الفئة الأولى التي تنتمي إلى النوع الأول من الناس، وهم أولئك الذين يحسنون الحديث بكلام بليغ مؤثر عن أمور هذه الدنيا، فتراهم يدافعون عن ضرورة تحسين أحوال الحياة للناس، ويشهدون الله تعالى على إخلاصهم. غير أنّ حديثهم البليغ حديث خادع، وحبّهم الذي يبدو في الظاهر أنه لتحقيق مصلحة إخوانهم في الإنسانية هو حبّ زائف، فهم لا يبتغون في الحقيقة سوى خدمة مصالحهم الخاصة، وإذا

مسَّ أحدٌ، من قريب أو بعيد، حقاً من أقل أو أصغر حقوقهم، تراهم ينخرطون في جدال عنيف دفاعاً عن حقوقهم، وتختفي على الفور روح الإيثار والتضحية التي كانوا يتشدّقون بها، ويقولون أنها ضرورة من أجل تحقيق التقدم الإنساني. إنهم ينظرون إلى تحقيق مصالحهم الخاصّة أولاً، أو مصالح أسرهم أو مصالح مجتمعاتهم أو مصالح بلادهم فقط، دون أي اعتبار للتضحية بأي شيء من أجل الآخرين، أو حتى الالتزام بالعدالة في معاملة الآخرين.

وقوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يبين أن أولئك الناس يزعمون من الناحية الظاهرية أنهم يؤمنون بالله تعالى، ولكن قلوبهم تخلو تماماً من عاطفة المحبة للإنسانية عامة، والتي لا بدّ من وجودها فيمن يؤمن حقيقةً برب العالمين.

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٦﴾

شرح الكلمات:

تَوَلَّى: مشتقة من ولي. تولى تعني: (١) أدبر؛ (٢) تقلّد الأمر أو أصبح حاكماً؛ أو والياً (أقرب الموارد وتاج العروس).

سَعَى: تعني: (١) مشى وعدا؛ (٢) عمل أو قصد أمراً واهتم بتحصيله (أقرب الموارد).

الْحَرْث: صيغة المصدر من حَرَثَ وتعني: جرف أو أفلح الأرض؛ بذر البذور في الأرض؛ كسب المال وجمعه؛ عمل من أجل خير العالم. حَرَثَ تعني: (١) الأرض المُعدّة للزرع أو الأرض التي تم زراعتها بالفعل؛ (٢) ما يُستتبت بالبذر والنوى والغرس؛ (٣) المكسب أو الربح؛ (٤) المكافأة أو الجزاء؛ (٥) خير الدنيا؛ (٦) الزوجة لأنها كالأرض

لزارعيها تنبت الأطفال؛ (٧) الأرض المكدودة بالحوافر أي التي يكثر المشي عليها (معجم لين).

النَّسْلُ: نَسَلَ الولد أي وَلَدَهُ. نَسَلَ الرجل: كثر ولده. النسل: (١) الخلق؛ (٢) الأولاد؛ (٣) الذُرِّيَّة (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تستطرد هذه الآية فتذكر تفصيل ما جاء في الآية السابقة، فتصف الشخص الذي يتحدث بطلاقة عن تحسين أمور هذا العالم، ولكنه في الحقيقة لا يبتغي سوى خدمة مصالحه الشخصية، فتقول إنه إذا حدث أن تولى السلطة، أو صار له نفوذ على الآخرين، يسقط من على وجهه القناع الزائف. وكذلك إذا تولى ليدخل إلى أعوانه أو رفاقه، إذا به يبدو على حقيقته الأنانية. وعلى ذلك، فإن المعنيين لكلمة ﴿تَوَلَّى﴾ كما جاء في شرح الكلمات، يمكن استعمالهما في هذه الآية. (١) فإذا كان مثل هذا الشخص في معية الناس المخلصين فعلاً في حبهم للإنسانية، تراه يتفوّه بالحلو من الكلام، ولكنه إذا تولى عنهم واختل برفاقه أو بأعوانه، تراه يعمل على خلق الفساد في الأرض. (٢) كذلك إذا حدث أن تولى مثل هذا الشخص زمام السلطة، إذا بكل الكلام المعسول يتبحّر في الهواء، وكل الوعود التي أطلقها تتلاشى مثل فقاعات الهواء، وبدلاً من أن يعمل على تحسين وتطوير الظروف المعيشية للناس، إذا به يتحوّل هو ليكون مصدراً للفساد وسوء الأحوال للناس.

وقوله تعالى: ﴿وَيْهْلِكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ﴾ يعني أنّ جميع جهوده موجّهة إلى إيذاء الناس والإضرار بمصالحهم. إن لكلمتي «الحَرْث» و«النسل» العديد من المعاني، وكلها تنطبق هنا، وجميعها تشير إلى الإضرار بالمال والنفس.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ يأتي رداً مناسباً على الجملة التي جاءت في الآية السابقة وهي: ﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾. فمن الواضح أن الله تعالى يُعادي مثل هذا الشخص لأنّه سبحانه لا يحبّ الفساد.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ
جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٧﴾

شرح الكلمات:

أَخَذَتْهُ: مشتقة من أخذ وتعني: تناول؛ حاز؛ استولى على؛ عاقب؛ إلخ (أقرب الموارد).
أخذته بكذا: حملته عليه (الكشاف). أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالْإِثْمِ يعني أيضاً طَوَّقَتْهُ عِزَّتُهُ بالذنوب (البحر المحيط)؛ استولت عليه العِزَّةُ بسبب ذنوبه (فتح البيان).

الْعِزَّةُ: مشتقة من عَزَّ أي أصبح عظيماً ونبيلاً وشريفاً. عَزَّ الشيء: صَعُبَ فكاد لا يُقْوَى عليه أو صار نادراً. العِزَّةُ: (١) القوة والقدرة؛ (٢) المقام العالي؛ (٣) الشرف؛ (٤) الفخر (معجم لين)؛ (٥) معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها ووضعها في منزلتها؛ (٦) الكبرياء؛ (٧) الغرور (أقرب الموارد).

جَهَنَّمُ: اختلف أصحاب المعاجم في أصل هذه الكلمة، ولكنهم عموماً اتفقوا على أن مصدرها هو نفس الكلمة «جهنم»، ويعني المكان الذي جُعل لعقاب الأشرار في الآخرة. من المحتمل أن تكون كلمة «جهنم» مشتقة من «جهم» وتعني: عبس أو تجهم أو قبح وجهه. جهمة تعني: منتصف الليل أو أظلم جزء فيه. جهام: السحاب الذي لا مطر فيه (معجم لين). وعليه فإن النون في كلمة «جهنم» زائدة كما في كلمة «ألندد» المشتقة من «ألد» وتعني الشديد الخصومة (البحر المحيط). لذا «جهنم» تعني: دار العقاب المظلمة التي ليس فيها ماء والتي تجعل وجوه من فيها عابسة ومتجهة وقبيحة.

التفسير:

يستمر في هذه الآية وصف الفئة من الناس التي ذكرتها الآية رقم ٢٠٥، فإن الشخص الذي ينتمي إلى هذه الفئة من الناس حين يتولى السلطة، ويتبع الأساليب الفاسدة،

ويسلك طرق الفساد، إذا به يصمّ أذنيه عن سماع أي نصيحة تهدف إلى الإصلاح. لا، بل إذا تجرّأ أحد على توجيه كلمة نصح أو مشورة إصلاح، إذا به يشتعل غيظاً، ويزداد عناداً وإصراراً على التمادي في الفساد، وينتابه إحساس كاذب بالكرامة بالمزيفة، يمنعه من الرجوع عن الخطأ. ويدفعه غروره إلى اقتراف المزيد من الإثم، إلى أن يحيط به كبرياؤه من كل جانب، فيغشي بصيرته تماماً عن رؤية الحق. ومثل ذلك الشخص يمهّد بنفسه طريقه إلى جهنّم، وما أسوأها من مقر ينتهي إليه الإنسان! وكلمة «حسب» في قوله تعالى: ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ تشير إلى أن مثل ذلك الإنسان لا يقنع أبداً بما لديه، وإنما يظل دائماً يتطلع إلى المزيد من الثروة والمزيد من السلطة والمزيد من الهيمنة والتسلط على الآخرين، ولن يكفيه شيء في هذه الحياة، وإنما نار جهنم هي وحدها فقط التي تكفيه. كذلك فإن كلمة ﴿مهّاد﴾ (أي مكان الخلود إلى الراحة) تشير إلى أنّ الإنسان الذي يتعدّى على حقوق الآخرين كي يحقق الراحة لنفسه، لن يجد الراحة التي يصبو إليها في هذه الحياة، وإنما سينتهي به الأمر إلى أن يجد ماله إلى جهنم.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٨﴾

شرح الكلمات:

رَؤُوفٌ: مشتقة من رَأَف. يُقال رَأَفَ به أي رحمه أو أشفق عليه. «الرأفة» مثل «الرحمة» ولكن بحنانٍ وحبٍ أكبر، ولكن «الرحمة» أوسع وأشمل. رؤوف تعني: رحيم أو شفيق، وهي من الأسماء الحسنى لله تعالى ولأنها مثل «رحيم» فإنه يمكن استعمالها في حق البشر كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) (معجم لين).

بعد إتمام وصف الفئة المتطرفة من النوع الأول من الناس، أي أولئك الذين يسعون فقط لنوال أمور هذه الدنيا، يذكر القرآن المجيد الآن فئة أخرى تنتمي إلى النوع الثاني من الناس، أي أولئك الذين يطلبون طيبات الدنيا والآخرة. ومن هؤلاء يفرد القرآن المجيد ذكر أكثر الناس ثبلاً، وهم أولئك الذين يسعون لكسب مرضاة الله تعالى وحده. وبالنسبة لهؤلاء، فإن طيبات الدنيا تعني فقط تلك البركات الروحية التي يُنعم بها الله تعالى على عباده في هذه الحياة الدنيا، أو ما يؤدي إلى نوال تلك البركات (البقرة: ٢٠٢). إنَّ همَّهم الوحيد، وغرضهم الفريد، هو أن يحصلوا على مرضاة ربهم، كما لو أنهم قد باعوا أنفسهم من أجل الحصول على رضا الله تعالى. إنهم يستعملون ما في هذه الدنيا من أشياء مادية، ليس لأنهم يجدون فيها متعة أو سعادة، وإنما لأن الله تعالى قضى بأن تكون هذه الأمور أسباباً للحياة التي يجدون سعادتهم في أن يكرسوها ويبدلوها في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته وكسب مرضاته. فهم يستخدمون أمور الدنيا، ليس بشكل مباشر، وإنما من خلال الله تعالى، والله جلَّ جلاله رؤوف بهؤلاء العباد، عطوف عليهم، شفيق رحيم بهم، وتمتج شفقتة عليهم برحمة وودٍّ ومحبة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ
كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٩﴾

شرح الكلمات:

السَّلَمُ: مشتقة من سَلَمَ أي نجا وبرأ من الخطر أو المرض أو العيوب،... إلخ. سالمه: صالحه. أسلم: تدين بالإسلام. لذا فكلمة «السِّلَم» تعني: (١) الصلح؛ (٢) السلام؛ (٣) الإسلام (أقرب الموارد).

كَافَّةً: مشتقة من كَفَّ. يُقال كَفَّ الإناء أي مَلأه مَلأً مفرطاً. كَفَّ الشيء: جمعه وضمه. «كَفَّه عن الأمر فكفَّ» أي دفعه وصرفه ومنعه فاندفع وانصرف وامتنع. لذا فالفعل «كَفَّ» مُتَعَدٍ ولازِمٌ (غير مُتَعَدٍ). كلمة «كَافَّةً» مؤنث «كاف» وتعني: (١) الجماعة لا يتخلف عنها أحد (أقرب الموارد)؛ (٢) جميعاً أو تماماً أو كليةً (معجم لين)؛ ومعنى «كَفَّ»: (١) صد العدو وردَّه من حيث أتى؛ (٢) كبَح النفس أو صد الناس عن الذنوب والآثام (مفردات الراغب).

التفسير:

بعد استكمال ذكر هذين النوعين من الناس، بما يحتوياه من أسوأ فئة وأنبَل فئة من البشر، يوجّه القرآن المجيد حديثه إلى المؤمنين عامّة، ولا يغفل عن ضعفاء الإيمان خاصّة، ويهيب بهم أن يبذلوا جهدهم ليكونوا من أفضل وأنبَل فئات الناس. وللوصول إلى ذلك الهدف عليهم أن يحققوا أمرين، أحدهما إيجابي والآخر سلبي: (١) ينبغي عليهم أن يُسلموا ويخضعوا أنفسهم لله تعالى، أو بمعنى آخر، عليهم أن يدخلوا في الإسلام بكليّتهم وبجميع قواهم. إنّ الخضوع الجزئي والطاعة المتذبذبة لا تنفع؛ بل عليهم جميعاً أن يخضعوا لله سويّاً، ولا يتركوا أحداً منهم يشذّ عن ذلك؛ (٢) ينبغي عليهم ألا يتّبعوا خطوات الشيطان، ولا يسيروا على دربه، فهو عدوّ مبين للإسلام، ويعمل على قطع صِلات الإنسان بالله تعالى (البقرة: ١٦٩).

وبالإضافة إلى المعنيين المذكورين عليه، فإن قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ يمكن أن يحمل معنى آخر. فلمّا كانت كلمة «كَافَّةً» تعني أيضاً كَفَّ المرء وردَّه على أعقابهِ، فيمكن فهم الجملة على أنها تعني «اخضعوا جميعاً لله تعالى، وردّوا كل

الأبواب التي يمكن أن ينفذ الإثم منها». إنها في الحقيقة لنصيحة جامعة يمكن أن تنقذ الكثير من النفوس، لو اهتم الناس فقط بالعمل بها.

وكلمة ﴿خُطُواتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ تبدو وكأنها كلمة زائدة، لأن جملة «ولا تتبعوا الشيطان» تعطي نفس المعنى. ولكن الحقيقة أن كلمة ﴿خُطُواتٍ﴾ قد أُضيفت بحكمة، لتبين أن أولئك الذين يتبعون الشيطان إنما يفعلون ذلك بخنوع وتقليد أعمى، تمامًا كالشخص الذي لا يستطيع أن يرى طريقه بنفسه، فيجد أنه من السهل عليه أن يضع يده في يد أحد المارة، وينساق وراءه ويتبع خطواته اتباعًا أعمى.

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١٠﴾

التفسير:

كانت الآية السابقة تحضّ المؤمنين، وخاصّة ضعاف الإيمان، على أن يكونوا مسلمين كاملين، وبيّنت لهم كيفية بلوغ ذلك السبيل. وأما الآية الحالية، فتبيّن لهم أنهم إذا زلّوا بعد هذا التحذير، وبعد أن جاءتهم البيّنات من الله «العزیز الحكيم»، فإنهم في هذه الحالة سوف يستحقّون عقاب الله تعالى لأنه ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي أنه قادر على إنزال العقاب المناسب.

وتشير كلمة ﴿حَكِيمٌ﴾ أيضًا إلى أنّ من يزلّ، ينبغي ألاّ يتأبّه اليأس، لأن الله الحكيم قد أبقى الباب مفتوحًا لهم لعودتهم إلى الدّين الصحيح. وفي الواقع، إن تعرّض الإنسان للوقوع في الخطأ ليس بغير حكمة، فقد جعل الله تعالى بحكمته البالغة الإنسان حرّاً، لديه القدرة على الزلل والخطأ، وذلك حتى يدفعه السقوط لأن يعمل على النهوض مرة أخرى، وأن يضاعف جهده للوصول إلى هدفه وغايته.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ: تعبير مجازي يعني أن يُنزل الله تعالى بهم العقاب. لقد جاء تعبير «إتيان الله» في مواضع أخرى أيضًا في القرآن الكريم (سورة النحل: ٢٧، وسورة الحشر: ٣). وعلى النقيض من هذا المعنى، استخدم القرآن الكريم التعبير «توب الله» أي رجوع الله تعالى بالرحمة على عبده (سورة البقرة: ٣٨، وسورة التوبة: ١١٧). وبالمثل فإن «إتيان الملائكة» يعني نزولهم بالعذاب.

ظُلَلٍ: جمع ظُلة المشتقة من ظَلَّ وأظَلَّ، وفعل «أظَلَّ» يعني: صار ذا ظِلٍّ. أمَّا كلمة «ظِلٍّ» فجمعها «ظلال» أو «أظلال». ظُلة: جمعها ظُلل وتعني الشيء الذي يرمي بظله أو له ظِلٌّ (أقرب الموارد). وكلمة «ظُلة» أو «ظُلل» ترتبط عامةً بالعقاب أو العذاب (مفردات الراغب).

الْغَمَام: انظر الآية ٥٨ من نفس السورة. لقد استخدمت كلمة «الغمام» في القرآن الكريم للدلالة على الرحمة (سورة الأعراف: ١٦١)؛ وكذلك للإشارة إلى العذاب (سورة الفرقان: ٢٦).

التفسير:

تغيّرت صيغة الكلام هنا من صيغة المخاطب إلى صيغة الغائب. ومن الواضح أن الآية الحالية تتوجّه إلى الكافرين أو إلى المنافقين وضعاف الإيمان. فإذا اعتبرناها موجّهة إلى الكافرين، كما يدل على ذلك التغيير في استعمال ضمير المخاطب، فهي تعني أنهم بامتناعهم عن قبول الإيمان، فإنهم يتصرّفون كما لو أنهم كانوا ينتظرون

نزول العقاب الإلهي عليهم، وتشير الآية إلى أن العقاب الموعود لهم سوف يأتيهم من خلال سحب المطر. وفي هذا إشارة إلى غزوة بدر، عندما أعان الله تعالى المؤمنين بإنزال الملائكة وإرسال سحب المطر (البخاري). وقد ورد أن بعض الكفار قد شاهد الملائكة التي أنزلها الله تعالى (الأنفال: ١٠) لتبشّر المؤمنين وتربط على قلوبهم، وتلقي في قلوب الذين كفروا الرعب (الزرقاني). وقد ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لأنّ في ذلك اليوم التاريخي الحاسم، قُتل جميع زعماء قريش، وظفر المسلمون بنصر مبين قصم ظهر عدوهم وبدد قوّته. ويشير مجيء الله تعالى في ﴿ظُلِّلَ مِنَ الْغَمَامِ﴾ إلى نزول المطر الذي كان مصدر بركة للمسلمين في غزوة بدر، فقد ثبّت الأرض تحت أقدام المسلمين، بينما كانت الأرض طينية تحت أقدام الكافرين، فتحوّلت إلى أرض زلقة بسبب هطول الأمطار.

وإذا أخذنا الآية لتنطبق على المنافقين أو ضعاف الإيمان، كما كانتا الآيتان السابقتان، فإن قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ يعني أنهم إن لم يصلحوا من أنفسهم، فإن الله تعالى سوف يأتيهم بعقابه حتى ولو كانوا، كما يبدو حالهم، يقفون في ظلل من الدين، الذي شُبّه هنا بالغمام. وكما جاء في شرح الكلمات، فإن كلمة ﴿الْغَمَامِ﴾ تستعمل أحياناً للتعبير عن رحمة الله تعالى (الأعراف: ١٦١).

سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ
وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١٦﴾

التفسير:

كانت الآيات السابقة تتعلق بضعاف الإيمان الذين لم «يدخلوا في السلم كافة»، أي لم يدخلوا في الإسلام بكل قلوبهم، ولم يخضعوا لله بجميع قواهم (الآية ٢٠٩). وموقف هؤلاء أنهم تلقوا نعمة من الله تعالى، ولكنهم سعوا لتبديلها وتغييرها. لقد أرادوا أن يعرف الناس أنهم مسلمون، ولكنهم أرادوا في نفس الوقت أن يظلوا أحراراً، يعيشون كما يشاؤون، دون الالتزام بقوانين شريعة الإسلام. وهذا بالضبط كان مسلك بني إسرائيل من قبل. ولذلك كان من المناسب أن يتحول القرآن المجيد هنا لتذكير بني إسرائيل، الذين كانوا بمنزلة درس عملي يتعظ منه المسلمون. ولذلك طلب من النبي ﷺ ومن كل قارئ للقرآن المجيد أن يسأل بني إسرائيل كم آتاهم الله تعالى من آيات بينات أنعم بها عليهم، وكيف كان إصرارهم وصفاقتهم على رفضهم الإيمان برسله، وعدم اكتراثهم بتعاليمه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ يبدو غريباً، غير أن كلمة ﴿يُبَدِّلُ﴾ تحمل العديد من المدلولات بحسب انطباقها. فبالنسبة لضعاف الإيمان تعني الكلمة قبول تعاليم النبي ﷺ من الناحية النظرية، ورفضها من الناحية العملية. فهم يتلقون فضلاً أو نعمة من الله تعالى، ولكنهم بامتناعهم عن العمل بتعاليم الدين، فإنهم يعرضون أنفسهم لغضب الله تعالى عليهم، وهم بذلك «يبدلون» نعمة الله تعالى إلى غضبه. وأما بالنسبة للكافرين، فإن «تبديل النعمة» يعني تحويل النبي من كونه «بشيراً» ليكون «نذيراً». فالقرآن المجيد يعتبر إرسال الأنبياء ﷺ نعمة من الله تعالى (المائدة: ٢١)، كما أن مهمة كل نبي ذات طابع مزدوج. فهو «مبشّر» لأولئك الذين يقبلونه ويتبعونه، و«منذر» بالعقاب لأولئك الذين يرفضونه ويكذبونه (الكهف: ٥٧). والآن وقد أرسل الله تعالى رسولاً، فإنه سبحانه يريد أن يقبله الناس بصفته «بشيراً» فقط، ولكن الناس أنفسهم هم الذين يبدلون ذلك الوضع بتكذيبهم له، وبهذا يتحول النبي من كونه «بشيراً» ليكون «نذيراً».

وأيضاً بالنسبة لبني إسرائيل، تعني آية ﴿يُبَدِّلُ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أنهم كانوا يعلمون أن كتبهم المقدسة تحتوي كلمة الله تعالى، وكانت هذه نعمة الله تعالى عليهم، ومع ذلك فإنهم راحوا يبدّلون نعمة الله هذه، وذلك بأنهم أخذوا يحرفون كلام الله تعالى عن مواضعه، خدمة لأغراضهم الخاصة (المائدة: ١٤).

ويمكن أن يكون لهذه الجملة مدلول آخر أيضاً. فإنّ الشريعة الإلهية التي تبغي هداية الناس، إنما هي فضل من الله تعالى ورحمة منه، فهي نعمة من لدن الله تعالى (المائدة: ٤؛ الأنعام: ١٥٥-١٥٦). غير أن المسيحيين الذين هم فرع خرج من شجرة بني إسرائيل، بدّلوا هذه النعمة وجعلوها «لعنة» (سفر غلاطية ٣: ١٣).

كذلك فإن ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ يمكن أن تشير إلى النعم العديدة، والأفضال الكثيرة المتنوعة، التي من الله تعالى بها على بني إسرائيل في شكل أنبياء، وما حملوه إليهم من إرشاد وتعاليم نبيلة. ولكنهم «بدّلوا» نعمة الله تعالى بتكذيبهم الأنبياء وعصيان تعاليمهم. وتنطبق الجملة أيضاً على الرسول ﷺ والدين الذي جاء به، وهذه أعظم نعم الله تعالى قاطبة للناس كافة. ومن يرفض الإسلام، إما بتكذيبه أو بمعصية تعاليمه، فإنه يستحق عقاب الله تعالى. وفي جميع الأحوال، فإنّ الآية تنذر المنافقين وضعاف الإيمان من بين المسلمين، أنهم إذا آمنوا بالرسول ﷺ ظاهرياً، ولكن رفضته قلوبهم، أو إذا آمنوا بتعاليمه باعتبار أنها من لدن الله تعالى، ثم لم يعملوا بمقتضاها، فإنهم بذلك «يبدّلون» نعمة الله عليهم باستجلاب غضب الله عليهم.

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ
مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٣﴾

شرح الكلمات:

زَيْنٌ: فعل مبني للمجهول من زَيْن المشتقة من زان. يُقال زان الشيء أو زين الشيء أي حسّنه وزخرفه وجملّه (أقرب الموارد).

يَسْخَرُونَ: مشتقة من سخر. يُقال سخر منه أو سخر به أي: (١) هَزَيَّ به (٢) جعل منه دعاية أو مزحة؛ (٣) اعتبره جاهلاً (أقرب الموارد ومعجم لين).

فَوْقَهُمْ: كلمة فوق هي المصدر من فاق. يُقال فاقه أي علاه منزلةً أو شرفاً أو علماً أو فضلاً أو كل ما هو صفة طيبة؛ رجحت كفته عليه (أقرب الموارد ومعجم لين).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ: تعبير مركب من كلمتين: «يوم» و«القيامة». تستخدم كلمة «يوم» للدلالة أيضاً إلى الوقت بصفة عامة، كما سبق بيانه في تفسير الآية ٤ من سورة الفاتحة. «القيامة» مشتقة من قام وتعني: (١) وقف؛ (٢) انتصب. «قامت الساعة» أي أن الوقت المحدد أو وقت البعث قد حان. لذا فلكلمة «القيامة» تعني يوم البعث من الأحداث (أقرب الموارد). تستعمل كلمة «القيامة» أيضاً للدلالة على تلك المواقف التي يترك الناس فيها البيوت ويتجمعوا في مكانٍ تلبيةً لنداء ماء، كما في صلاة الجمعة (تاج العروس). لذا فلكلمة «القيامة» تعني مجازياً تلك الحالة الفريدة من الحياة والنشاط التي تلي حالة الموت والخنول. كلمة «القيامة» هي حقيقةً «القيام»- المصدر من الفعل قام- وأصلها ما يكون من الإنسان من القيام، وأُدْخِلَ فيها «الهاء» تنبيهاً على وقوعها دُفْعَةً (مفردات الراغب).

التفسير:

لما كانت الآية السابقة تتحدث عن تبديل نعمة الله تعالى، وذلك برفضها، أو برفض العمل بمقتضاها، كان من المناسب أن تقدّم الآية الحالية أسباب رفض نعمة الله تعالى. إنّ كلّ اهتمام أولئك الناس منحصر في أمور هذه الدنيا، التي تبدو جذّابة في أعينهم، حتى إنها لا تترك في قلوبهم مكاناً لله ﷻ ولرسوله ﷺ. إنّ فاعل الفعل المبني للمجهول ﴿زَيْنٌ﴾ محذوف، ولكن يذكر القرآن المجيد في مكان آخر أنّه الشيطان الذي يُزَيِّن أمور الدنيا في عيون الكافرين، كما يذكر الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي

لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٤٠)، وذلك هو ما يُغرق هؤلاء في خضمّ أمور الدنيا.

لهذا، فإن الذين كفروا، والمنافقين الذين يفخرون بما حصّلوه من مُتّع الدنيا، وبما حققوه من مكاسب ماديّة، وبما جمعوه من أموال وثروات، ينظرون إلى المؤمنين نظرة دونيّة، ويأنفون منهم بسبب أوضاعهم المادية المتواضعة، ويسخرون منهم لما يسمعون من وعود بالنصر والعظمة والرقى الذي ينتظرهم في المستقبل. ونظراً لما يرونه من حالة الضعف الشديد التي يعاني منها المسلمون في الوقت الحالي، فإنّ أولئك الكافرين لا يستطيعون تصوّر أنّ المؤمنين يمكن أن يكونوا فعلاً ورثة المجد والنعم والعظمة التي وعدهم الله تعالى بها. ولذلك فهم يسخرون من هذه الوعود، وينظرون إليها بازدراء. غير أنّ الحق ينتصر دائماً، ويعلو على الباطل في النهاية. إن تاريخ كل الأديان، وبالذات الإسلام، يشهد بذلك ويختم على هذه الحقيقة.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أنّ النصر الموعود به للمؤمنين على الكافرين سيكون قاصراً على يوم القيامة فقط، وإنما جاء ذكر يوم القيامة في الآية لبيان أنّ الوعود بالنصر والرقى للمؤمنين في هذه الدنيا، كما شهدت بذلك وقائع التاريخ، سوف تتحقق أيضاً يوم القيامة، وسيكون هذا الفوز والفلاح كاملاً ودائماً بغير انقطاع. ويمكن أيضاً أن تشير هذه الكلمات، حسب الاصطلاح العربي، إلى زمن زوال قوة الكافرين وغروب شمسهم، وظهور المسلمين وإشراق شمس مجدهم في هذه الدنيا، وهو ما عبّرت الآية عنه بكلمتي «يوم القيامة»، وكأن الآية تقول: «انتظروا قليلاً، فإن يوم الوقت الموعود ليس ببعيد، حين ينتصر المسلمون على أعدائهم، ويصيرون فوقهم في كل مجال من مجالات الحياة»؛ أي في المعرفة والثروة والقوّة وغيرها، وهي حقيقة يشهد بها تاريخ الإسلام في المدينة، وفي دمشق، وفي بغداد، وفي مصر، وفي إسبانيا وغيرها. ويمكن الاستشهاد هنا بمقتبس واحد فقط، للدلالة على أن المسلمين الأوائل قد صاروا فعلاً فوق الجميع تقدّماً في العلوم، حيث يقول روبرت برينولت: «إن الدّين الذي تديّن به علومنا للعرب، لا ينحصر فقط في الاكتشافات

المذهلة، أو في النظريات التي أدت إلى ثورة في العلوم، بل إن العلم يدين بالكثير للثقافة العربية، إنه يدين لها بوجوده» (صنع الإنسانية).

ولعله من الجدير بالملاحظة أن الآية حين ذكرت المؤمنين، ذكرتهم فيما يتعلق بسخرية الذين كفروا منهم، كما يقول تعالى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ولكنها حين ذكرت وعْد النصر والرفي والتفوق على الذين كفروا، لم تقل «والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة»، بل قالت: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وذلك للتأكيد على المسلمين أن يحققوا في أنفسهم تغييراً شاملاً بالوصول إلى تقوى الله تعالى، أي محبة الله تعالى والخشية من فقدان هذه المحبة. وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يمكن أن يحمل ثلاثة معان:

(١) أن نعم الله تعالى وأفضاله ستكون بغير حدود وبلا نهاية، فإن الشيء الذي لا نهاية له لا يمكن أن يكون له حساب.

(٢) أن الله تعالى يُنعم على المؤمنين بفضله، ويغمرهم بنعمه، بشكل يبدو أكثر مما يستحقونه، وذلك لأن المؤمنين قد أنفقوا في سبيل الله تعالى بأقصى طاقاتهم، دون أن يحتفظوا بسجل يحسبون فيه ما أنفقوه، لذلك فإن الله ﷻ سوف يغمرهم أيضاً بنعمته وفضله بغير حساب.

(٣) أن الله تعالى يعامل المؤمنين كأصدقائه وأوليائه؛ ولما كان الناس لا يحتفظون بسجل يحسبون فيه ما أدّوه لأصدقائهم من خدمات أو من مساعدات، فإن الله تعالى أيضاً سوف يعطي أولياءه المؤمنين بغير حساب.

أما عن أهمية هذه الجملة بالنسبة لسابقتها، فيمكن ملاحظة أن الله تعالى قد وعد المؤمنين بنصر حاسم ورفي عظيم «فوق» الذين كفروا يوم القيامة؛ أي في اليوم الذي يسقط فيه الكافرون ويقوم المؤمنون وينهضون فيه إلى نصر عظيم. والسؤال الذي ينشأ هنا بطبيعة الحال هو: كيف يمكن لحفنة من المؤمنين أن يحققوا ذلك النصر العظيم، الذي لا يتناسب بتاتا مع مجهوداتهم وإمكاناتهم؟ وللجواب على هذا

السؤال الضمني يقول القرآن المجيد إنه ينبغي ألا يشك الناس في تحقق هذه النبوءة؛ لأن الأمر لا يقوم على أساس القوانين الطبيعية من علة ومعلول أو حدث ونتيجة، بل إنها تتعلق بالحقيقة التي شهد التاريخ بصحتها، وهي أن الله تعالى ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وفي هذا الشأن يمكن أن نذكر ما قاله كارلايل حين تحدّث عن نهوض الإسلام المذهل إلى القوّة والتفوّق: «هؤلاء العرب ومحمد الرجل الذي كان ومضة من ضوء في عالم كان يبدو أنّه يتكون من رمل أسود لا يأبه به أحد، ولكن ويا للعجب، لقد أثبت الرمل أنه بارود متفجّر، اشتعل فأضاء عنان السماء، من دلهي إلى غرناطة!» (عن الأبطال وعبادة الأبطال).

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ
وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٤﴾

التفسير:

تحدّث الآيات السابقة عن أنواع الناس المختلفة من مؤمنين وكافرين، والفئات التي يحتويها كل نوع. والآية الحالية لا تبين بداية هذه الأنواع فحسب، بل إنها تومئ للمسلمين أنه كما بدأ العالم كله بجميع الناس من مجتمع واحد، فإنّ الله تعالى يريد

الآن أن يعود العالم مرة أخرى ليكون مجتمعاً واحداً، وذلك بواسطة الرسول ﷺ الذي جاء برسالته للعالم أجمع، على عكس الأنبياء السابقين.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يمكن أن يعني: (١) أن العالم، أي الإنسانية برمتها، كانت في الأصل أمة واحدة؛ (٢) أن الكافرين جميعاً كانوا أمة واحدة. وفي الحالة الأولى تعني الآية أنه عند بداية العالم، كان الناس جميعاً أمة واحدة، ولم يكن لديهم أي قواعد اجتماعية ولا نظام للحكم ولا قوانين مدنية. وبمرور الوقت، بدأت الخلافات تدبّ بينهم فيما يتعلق بهذه الأمور، فأرسل الله تعالى إليهم رُسلاً لهدايتهم، ولكي يبينوا لهم كيف يعيشون حياة طيبة وسعيدة.

وفي الحالة الثانية، يكون معنى الجملة، أنه قبل مجيء أي نبي، يكون الناس كلهم كالأمة الواحدة لأنهم جميعاً يكونون في جانب الكفر، فيظهر الفساد في البر والبحر، وينتشر الخلاف والعدوان في الأرض. ولكن بعد أن يظهر النبي، يقف الناس جميعاً ضده جبهة واحدة متّحدة، وذلك برغم وجود الخلافات والنزاعات المتبادلة بينهم. وهذا المعنى يتفق تماماً مع قول الرسول ﷺ: «الكفر ملّة واحدة»، أي أن الكافرين جميعاً يشكلون أمة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ لا يعني أنه سبحانه يُنزل كتاباً جديداً مع كل نبي. ولعله في هذه الحالة كان من الأولى استخدام كلمة «الكتب» بدلاً من كلمة «الكتاب». وفي الواقع، إنّ «إنزال الكتاب» مع نبي لا يعني دائماً أن يُنزل الوحي فعلاً بالكتاب إلى ذلك النبي. وقد جاء في القرآن المجيد كلمات مشابهة عن أنبياء لم يتلقوا فعلاً كتباً منزلة. (راجع آل عمران: ٧٣، ٢٠٠؛ (الأنعام: ١١٥، ١٥٧، ١٥٨)؛ (الأنبياء: ١١)؛ (العنكبوت: ٤٦). وعلى هذا فإنّ الجملة تعني فقط أنّ كلّ نبي قد تلقى كتاباً من الله تعالى، سواء أكان قد تلقاه من الله تعالى مباشرة، أو أن نبياً سابقاً قد تلقاه، وأنّ الله تعالى قد بعث النبي التالي لإحياء دعوة النبي السابق.

والاختلاف المذكور في الآية مرتين في قوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وقوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يشير إلى نوعين من الاختلاف. فقبل بعثة النبي يختلف الناس حول العقائد الزائفة، والممارسات التي يشوبها الشرك بالله تعالى. أما بعد أن يأتي النبي بالحق من الله تعالى، يبدأ الخلاف بين الناس على الحق نفسه. إن مجيء النبي في ذاته لا يخلق خلافاً كما يخطئ البعض في ظنّه، فالاختلاف موجود بالفعل، ولكنه يأخذ شكلاً آخر فقط. ولكن، رغم أن الناس قبل بعثة النبي يبدون كأنهم أمة واحدة، رغم ما بينهم من خلاف، فإنهم بعد بعثة النبي ينقسمون إلى فريقين مختلفين تماماً، مؤمنين وكافرين.

والمقصود بقوله تعالى: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ بيان حقيقة هامة، وهي أن السبب في رفض الناس قبول النبي المبعوث من لدن الله تعالى، هو دائماً الغيرة والحق. فالكفار لا يستطيعون تصوّر قبول فكرة أن رجلاً من بينهم، يكون عادة أقل من الكثير منهم في الجاه والثروة والسلطان، يمكن أن يكون قائداً ومُعلماً لهم. كذلك فإن الكافرين يرون أنه مما يحطّ من شأنهم، ويضع من منزلتهم، أن يقيموا أيّ علاقة أو رابطة مع مجتمع المؤمنين، الذي تكون الأغلبية العظمى من أفراده من أصول متواضعة (من الفقراء والعبيد)، كما هو الحال دائماً مع الأتباع الأوائل لكل نبي.

ويشير قوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ إلى مجيء الرسول ﷺ الذي بعثه الله تعالى بالحق للناس كافة، لكي يزيل الخلاف من جميع أهل الأرض. وكلمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ تعني أيضاً «حسب قضائه» سبحانه. فمنذ بداية الخلق، قضت مشيئة الله تعالى أن يأتي رسول يؤتیه الله تعالى شريعة عالمية، يكون في ذاته سنام وقمة النبوة. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النَّبُوءَةُ قَالَ: "وَأَدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ" (الترمذي - كتاب المناقب).

وعند إلقاء نظرة عامة على الآية الكريمة، نجد أنها تصف خمس مراحل تمر بها الإنسانية:

- (١) عندما تكون هناك وحدة بين الناس، حيث يشكّل الجميع جماعة واحدة، وكان ذلك عند بداية الجنس البشري.
- (٢) عندما يزيد عدد الناس وتتعدّد المصالح وتتعدّد المشاكل التي تواجه الإنسان، فيبدأ ظهور الخلاف بين الناس.
- (٣) عندما يبعث الله تعالى نبياً بين مختلف الأقوام وإلى مختلف البلدان لهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وتبليغ إرادة الله تعالى إلى مختلف فئات الناس.
- (٤) عندما يجعل أهل سوء رسالة الله تعالى التي جاءت لتزيل الخلاف من بين الناس، سبباً لاحتدام الخلاف بين الناس.
- (٥) عندما بعث الله تعالى في النهاية رسوله الأكرم ﷺ بكتابه الأخير إلى الناس كافة، داعياً الناس جميعاً إلى الانضواء تحت لوائه. وهكذا تنتهي دورة كاملة للعالم الذي بدأ بوحدة بين أفرادهِ، وينتهي أيضاً بهذه الوحدة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ
مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ
الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٥﴾

شرح الكلمات:

زُلْزِلُوا: مشتقة من زلزل أو زلّ. يُقال زلزل الله الأرض أي أرجفها. زلزله: خوّفه وحذّره.

الزّلزلة: صيغة المصدر من زلزل وتعني: (١) الرجفة أو الاضطراب الشديد؛ (٢) ارتجاف الأرض. وتستخدم هذه الكلمة أيضاً - في صيغة الجمع خاصة - للإشارة إلى البلايا والشقاء والمحن (أقرب الموارد ومعجم لين).

وعد الله تعالى المؤمنين في الآيتين السابقتين أن يرزقهم بغير حساب، ودعاهم إلى بذل الجهد لكي يجمعوا الناس كافة تحت لواء الإسلام ليكونوا أمة واحدة. ويقتضي تحقيق هذا العمل العظيم، والوصول إلى هذا الهدف النبيل، بذل الكثير من التضحيات غير العادية من جانب المؤمنين، الذين تُلِفَت الآية الحالية أنظارهم إليها.

إن قبول الدعوة الإسلامية لم يكن طريقاً مفروشاً بالورود. ولذلك، فالآية تحبر المؤمنين بأن عليهم أن يخوضوا غمار المحن والابتلاءات، قبل أن يأملوا في تحقيق هدفهم النبيل. وهي تجربهم أيضاً بأن ما تحمّلوه حتى الآن من عذاب واضطهاد ومعاناة، ليس بشيء عند المقارنة بما ينتظرهم من محن وابتلاء. وبذلك فإن الآية تهيئهم نفسياً لمواجهة العاصفة التي كانت تتجمع في مكة، والتي وصلت إلى عنفوانها في غزوة الخندق.

وكلمة ﴿الْجَنَّةِ﴾ التي جاءت في هذه الآية، والتي تعني حرفياً «الحديقة» أو «البستان»، لا تعني بالضرورة الجنة التي وعد الله تعالى بها المؤمنين في الآخرة. إذ تُستعمل الكلمة للتعبير عن النجاح والازدهار في هذه الحياة الدنيا أيضاً، كما يقول تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (الرحمن: ٤٧). وكذلك يمكن تأويل كلمة ﴿الْجَنَّةِ﴾ في هذه الآية لتعني النجاح والازدهار الذي وُعد بهما المؤمنون في الآيات السابقة.

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ يمكن أيضاً أن تعني «إلى أن» أو «لكي». وبهذا المعنى تعني الآية أن الله تعالى يُظهر مدى إخلاص نبيه وإخلاص المؤمنين عن طريق المحن والمصاعب، ويؤخر عنهم نصره كي يستنزّلوا هم ذلك النصر عن طريق الدعاء الذي يتوجّهون به إليه سبحانه وتعالى. وهذه طريقة جميلة يُظهر الله تعالى بها حبه ومودته لرسوله وللمؤمنين. فهو يعاملهم بحبّة كما يعامل الأب الشفوق أطفاله الصغار، وهو يريد منهم أن يسألوه لكي يعطيهم، فيشعرون بسعادة تحقق الرجاء.

وصيحة الرجاء التي تعبر عنها كلمات الآية ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ لا تعبر عن اليأس، لأنه لا يمكن أن يتغلب الإحساس باليأس على الرسول ﷺ أو على أتباعه الكرام، فإن اليأس يتعارض تماماً مع الإيمان الصادق كما جاء في القرآن المجيد: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٨). إن صيحة الرجاء هذه دُعاء يعبر عن رغبة في أن يسرع الله تعالى بإنزال نصره، وليس صرخة يأس تعبر عن الإحباط. والجواب الذي ذكره الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ يؤيد أيضاً المعنى الذي ذكرناه. إذ لو كانت كلمات المؤمنين هذه تعبر عن اليأس لما استجاب الله تعالى لها بهذه المحبة البالغة، بل لاستنكر منهم هذا المسلك.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ
مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى
وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٦﴾

شرح الكلمات:

خَيْرٌ: انظر الآية ١٨١ من نفس السورة.

الْأَقْرَبِينَ: جمع «أقرب»، مشتقة من «قريب». الأقرب: اسم تفضيل من القرب، وأقرباء الشخص هم: من يكونون بالقرب منه؛ أو ذوو العشيرة أي الأقارب من أسرته (أقرب الموارد).

التفسير:

عندما قيل للمؤمنين أنهم لن ينالوا مرضاة الله تعالى، ولن يدخلوا الجنة إلا بعد أن يجتازوا ألواناً من المعاناة والمحن، كما حدث مع الذين خلوا من قبلهم، أعلنوا على

الفور استعدادهم للتضحية بأموالهم وما يملكون في سبيل الله تعالى لينالوا الجنة الموعودة. لقد كانوا يثوقون إلى نوال مرضاة ربهم وتحقيق الرقي الروحاني حتى إنهم لم ينتظروا إلى حين وقوع تلك المحن والابتلاءات التي تحدثت عنها الآية السابقة، بل كانوا على استعداد للقيام بكافة التضحيات مقدّماً، وأرادوا فقط أن يعرفوا أيّ التضحيات ينبغي أن يقوموا بها.

وقد أجاب الله تعالى على سؤالهم التّوّاق للمعرفة، بجواب يحمل الكثير من المعرفة، وكأنه سبحانه يريد أن يبلغهم بالأمر الإلهي بتفصيله، دون انتظار لسؤال آخر من جانبهم. فبينما كان سؤالهم ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ ذهب الله تعالى خطوة أخرى ليبين لهم «على من ينفقون». وأمّا عن سؤال ﴿مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ فجاءت إجابته في قوله تعالى: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ لتومئ للمؤمنين أنّ ما ينفقونه يجب أن يكون كما تدل على ذلك كلمة ﴿خَيْرٍ﴾: (١) قد اكتسب بطريق مشروع وطيب؛ (٢) أن يكون كثيراً. ففي الظروف التي تتطلب الإنفاق من أجل تحقيق الأهداف العليا، ينعدم كل أمل في تحقيق هذه الأهداف إلّا إذا أنفق الناس بسخاء وكرم. ولكن، لما كان الإنفاق بسخاء وكرم ينطوي أيضاً على خطر، وهو أن يقدم بعض ضعاف النفوس على كسب المال بطرق غير صالحة، لذلك جاء الشرط الذي يحدّد أن يكون الإنفاق مما هو «خير».

وأمّا عن الجزء الآخر من السؤال، وهو على من يجب الإنفاق، يقول القرآن المجيد أنّ الإنفاق يكون: ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالتَّيَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾. وتجمع هذه الفئات الخمس كلّ الأشخاص الذين يكونون في حاجة إلى المعونة بوجه عام. والفئة الأولى والثانية، تشمّلان الأقربين من أفراد العائلة من الأقارب أو الجيران أو الأصدقاء، وهؤلاء يشكلون أقرب الناس للإنسان، ويجب أن تكون الأولوية في اهتمامه لما تفرضه علاقة القرب هذه، سواء كانت علاقة شخصية أو علاقة اتّصال. ثم تأتي بعد ذلك الفئة الثالثة والرابعة ممن يستحقون المعونة نظراً لظروفهم الخاصة، إذ لا يوجد أحد ليعتني باليتامى والمساكين الذين لا يملكون وسائل المعيشة. وأخيراً

تأتي الفئة الخامسة وهي فئة أبناء السبيل، أو المسافرين الذين يكونون في غربة بغير صديق ولا قريب ولا معين.

وبتقديم هذه الفئات الخمس من الناس، يشير القرآن المجيد إلى أنه ما لم يعمل المجتمع بأكمله، بما فيهم أولئك المهاجرون الذين جاؤوا ليقيموا مؤقتاً معهم، على الاستعداد للقتال في سبيل الله، وما لم تساعد الفئات الغنية الفئات الفقيرة على الاستعداد لخوض المعارك المطلوبة، فإن المسلمين لن يكونوا جبهة متحدة، ولن تحقق جهودهم النتائج المطلوبة. فعلى كل مسلم أن يشمر عن ساعديه ليساهم بكل ما يستطيعه، وهؤلاء الذين لا يستطيعون المساهمة لافتقارهم إلى الوسائل، يجب أن يلقوا المساعدة من الآخرين القادرين على تقديم المساعدة.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٧﴾

شرح الكلمات:

كُرْهُ: صيغة المصدر من كره. كره تعني: الشيء الذي يبغضه الإنسان؛ ما أُكْرِهَ الإنسان عليه وضد رغبته (أقرب الموارد).

التفسير:

لقد لفت الله تعالى أنظار المسلمين في الآية ٢١٥ إلى أنه من المحتم أن تمسهم البأساء والضرراء وأن يُزلزلوا لكي يأتيهم نصر الله. وفي توافق مع محنة البأساء والفقراء، جاءت الآية ٢١٦ تحضهم على تقديم الكثير من التضحيات المالية. وفي الآية الحالية يتناول

الله تعالى محنتي الضراء والزلزلة، وذلك بلغت أنظار المسلمين إلى خطر الحرب الذي يحيط بهم. ولما كان المسلمون يكرهون الحرب، فإن الآية تحثهم على أن يضعوا ثقتهم الكاملة في الله تعالى، لأنه ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

غير أنّ كره صحابة الرسول ﷺ للحرب لم يكن بسبب جبنهم، ولا لأنهم كانوا يظنون أنهم قلة في العدد، أو لأنهم لا يملكون السلاح والعتاد الملائم لخوض الحرب. والتاريخ يكذب كل هذه الظنون. لقد كان المسلمون يكرهون الحرب لأنهم كانوا يكرهون سفك دماء البشر، وأيضاً لأنهم كانوا يرون أنّ حالة السلم أنسب لنشر الإسلام من حالة الحرب. إذ من الواضح أنّ حالة السلم تتيح للكفار فرصاً أنسب للتفكر بهدوء في التعاليم النبيلة التي أتى بها الإسلام.

ولكن، لقد سبق السيف العذل. فقد ذهب قادة الكفار إلى أبعد الحدود في تدابيرهم الشريرة ضد الإسلام، وانعقد عزمهم على استئصال الدين الجديد. وكان من الواضح أنّ الحرب التي تحتم عليهم خوض غمارها هي حرب دفاعية، ومن يتهرّب من الحرب دفاعاً عن النفس إنما يُقدّم على الانتحار (الحج: ٤٠-٤١). وعلى ذلك، فإن الآية تقدّم شهادة بليغة على حبّ صحابة الرسول ﷺ للسلام، كما أنها تدحض الادّعاء الفاسد الذي يتّهم المسلمين بشنّ الحرب من أجل الاستيلاء على الغنائم، أو من أجل نشر الدين بقوة السلاح.

وقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ يشير إلى مبدأ هام، وهو أن الخطأ في الحكم ينتج عن سببين: (١) إساءة استعمال عاطفة المحبة. (٢) إساءة استعمال عاطفة البغض أو الكراهية. ولذلك على المرء أن يكون على حذر حين يحكم على أمر ما، فلا تدفعه إحدى العاطفتين لأن يميل عن الحق، فهما يُعكّران صفو هدوء التفكير أكثر من أي شيء آخر. وفي مكان آخر يحذّر القرآن المجيد من سوء التأثير بعاطفة المحبة أو الكراهية (راجع المائدة: ٩؛ والتغابن: ١٥-١٦).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ
قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ
بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقَاتِلُونَكَ حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ
إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ
فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٨﴾

شرح الكلمات:

كَبِيرٌ: تعني هنا: ذنب كبير أي إثم كبير. وكلمة «أكبر» صيغة تفضيل وتعني هنا إثم أكبر.. إلخ.

صَدٌّ: صيغة المصدر من صَدَّ. يُقال صَدَّه أي منعه وصرفه. صَدَّ عنه أو منه: أعرض عنه. لذا فالفعل مُتَعَدٍ ولازِمٌ (غير مُتَعَدٍ) أيضاً. لذلك كلمة «الصدَّ» تعني: (١) المنع أو الإعراض؛ (٢) العائق؛ (٣) الجبل أو الحائط.. إلخ (أقرب الموارد).

يَرْدُّوكُمْ: ويرتد كلاهما مشتق من رَدَّ. يُقال رَدَّه أي أعاده أو أرجعه؛ وارتد رجع أو عاد هو بنفسه. ارتد عن الإسلام أي رجع عن الإسلام إلى سابق عهده من الكفر. مُرْتَدٌ تعني: الشخص التارك لدينه وخاصة الإسلام؛ أي الشخص الذي يرتد (تاج العروس).

حَبِطَتْ: حبط البعير أي انتفخ بطنه من أكل الطعام الفاسد. حبط عمله أي: (١) فسد وصار شراً؛ (٢) هدر وأصبح بلا قيمة أو نفع. حبط دمه أي هدر ولم يُثأر له. حبط ماء البئر: ذهب ذهاباً لا يعود كما كان (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

إن كلمة «الكفر» في قوله تعالى: ﴿كُفِّرْ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني عدم شكر الله ﷻ، وبذلك يكون معنى الجملة «عقوق لله وعرقلة الناس عن المسجد الحرام».

وقد ذكر القرآن المجيد من قبل أنه إذا انتهك المشركون حرمة المسجد الحرام، فعلى المسلمين أن يقاتلوه فيه، لأن هذا هو السبيل لحفظ حرمة المسجد الحرام (البقرة: ١٩٥).

والآية الحالية تقدّم سبباً آخر للدفاع عن الإسلام في الشهر الحرام، إذا اقتضت الضرورة ذلك. فإن المشركين، وخاصة أهل مكة، انتهكوا حرمة أشياء أكثر حرمة من الشهر الحرام، إذ أنهم كانوا يحاولون صدّ الناس عن سبيل الله؛ وكانوا يمنعون الناس من الاقتراب من المسجد الحرام. ودفعوا المسلمين الذين كانوا من أهل المسجد الحرام إلى الخروج من مكة والهجرة بعيداً عنها. إنّ كل هذا الاضطهاد وهذه الفتنة لهي بلا شك أسوأ من انتهاك حرمة الشهر الحرام.

ويذكر المفسرون، كما تقول بعض الروايات أيضاً، أن الرسول ﷺ كان قد أرسل أحد صحابته؛ واسمه عبد الله بن جحش رضي الله عنه، ليرصد قريش ويجمع الأخبار، وعندما وصل مع زملائه إلى مكان يقال له نخلة، مرّت بهم قافلة صغيرة كانت في طريقها إلى مكة، وقد هاجم عبد الله ﷺ القافلة دون أن يكون لديه إذن بذلك من الرسول ﷺ، وقتل أحد أفرادها وأسراثنين منها. وكان التاريخ الذي وقعت فيه هذه الحادثة مشكوكاً فيه حيث يقول البعض إنه كان في آخر يوم من أيام شهر رجب، بينما يرى البعض الآخر أنّ شهر رجب كان قد انتهى. وحين وصلت الأنباء إلى مكة، انتهزت قريش فرصة ما خالط الواقعة من شك في التاريخ، وأشاعت بصخب أن

المسلمين انتهكوا حرمة الشهر الحرام. وقد نزلت هذه الآية بهذه المناسبة (الطبري، ابن هشام، الزرقاني).

وتعترف الآية الكريمة بجرمة الأشهر الحرم، وتعتبر أنّ تعمّد القتال فيها إثم كبير، وصدّ عن سبيل الله، وانتهاك حرمة هذه الأشهر الحرم، ولكنّ الآية في نفس الوقت تشير بقوة إلى أنّ الحرمات التي ينتهكها المشركون، أكثر أهميّة وأولى بالمحافظة على حرمتها. فقد كان المشركون يمنعون الناس بالقوة من قبول الإسلام، وكانوا لا يمعنون المسلمين من الاقتراب من المسجد الحرام فحسب، بل إنهم أخرجوا الرسول ﷺ وأتباعه من بيوتهم بغير رحمة.

ويجب ألاّ تفهم الآية بأنها تومئ بأن المسلمين قد بدأوا قتالاً في الشهر الحرام، بل إنها تبين للمشركين في ضوء إصرارهم المتواصل على انتهاك حرمت أشياء أكثر أهمية، أنه لا حق لهم في أن يتهموا المسلمين بانتهاك حرمة الشهر الحرام.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أنّ كل عمل يقوم به الكافر أو المرتدّ عن الإسلام سوف يضيع هباءً، ولن تكون له أيّ نتيجة. وإنما تعني هذه الجملة أن أعمال هؤلاء التي تهدف إلى إضعاف الإسلام في هذه الدنيا، وأيضاً أعمالهم التي يقومون بها في معارضة الإسلام، ظانّين بذلك أنهم يبتغون مرضاة الله، سوف تكون في الآخرة هباءً منشوراً. وعلى ذلك، فإن الجملة لا تنطبق على الأعمال الحسنة التي يقوم بها الشخص الكافر، لأنّ القرآن المجيد يقول بكل وضوح إنّ من يعمل مثقال ذرة من خير يره (الزلزلة: ٨)، ويمكن أن تكون نتيجة العمل الحسن الذي يقوم به الكافر في الدنيا هو دخوله في الإسلام، أما في الآخرة فيمكن أن تكون نتيجة العمل الحسن الذي يقوم به الكافر في الدنيا هو التخفيف من عقابه. ويروى عن الرسول ﷺ أنه ذكر عن عمّه أبي طالب أنّ العقاب سيخفف عنه في الآخرة، فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنّه قال لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمَلِكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحْطُوكَ وَيَغْضَبُ لَكَ. قَالَ ﷺ: "هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ (موقع لا عمق له) مِنْ نَارٍ وَلَوْ لَا أَنَا

لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ“. (البخاري - كتاب المناقب). وفي مناسبة أخرى سأل حكيم بن حزام، ابن أخي السيدة خديجة عليها السلام، الرسول ﷺ عما إذا كان سوف ينال أجراً من الله تعالى على أعماله الحسنة التي أداها قبل الإسلام، فأخبره ﷺ أن هدايته للإسلام هي أجره عن ذلك، فَعَنْ عُرْوَةَ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّنُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ عَتَاقَةٍ وَصَلَةٍ رَحِمَ فَهَلْ فِيهَا مِنْ أَجْرٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ”أَسَلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ“. (البخاري - كتاب الزكاة).

ويمكن أن يكون لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ معنى آخر، وهو أنه لو لم يرتد أولئك الناس عن الإسلام، لكانت أعمالهم قد آتت لهم بأكملها التي وعدت للمسلمين في الدنيا والآخرة، ولكنهم بارتدادهم عن الإسلام، حرموا أنفسهم من هذا الجزاء المزدوج.

وأخيراً، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ يُلقِي ضوءاً على موقف الكافرين تجاه المسلمين. فهم لم يكونوا فقط البادئين بالعدوان، بل إنهم أقسموا على ألا يتوقفوا عن القتال إلى أن يتم محو الإسلام من الجزيرة العربية، وألا يبقى فيها فرد واحد يعتبر نفسه مسلماً، ولا شك أن شهادة القرآن الكريم هذه تدل على كذب اتهام المسلمين بكونهم المعتدين في صراعهم مع الكافرين. وتأتي الكلمات ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ في محل مدح وثناء على صحابة الرسول ﷺ. فليفعل المشركون ما يستطيعون، فلن يتمكنوا من أن يردوا المسلمين عن دينهم. إن حبههم للإسلام أعمق من أن يقتلعه الاضطهاد مهما اشتد، وهو أقوى من أن يؤثر فيه الاضطهاد مهما كانت ضراوته ومرارته.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٩﴾

شرح الكلمات:

هَاجَرُوا: مشتقة من هجر. يُقال هجر الشيء أي: (١) تركه وأعرض عنه؛ (٢) صرمه وقطعه. هاجر: خرج من بلده إلى بلد آخر (أقرب الموارد). وتستخدم هذه الكلمة خاصةً في حق من يترك المكان الذي يُضطهد فيه بسبب عقيدته إلى مكان آخر لا يلتقى فيه هذا الاضطهاد حيث تتوافر الأسباب التي تخدم الإيمان وتدعمه. إن المسلمين الأوائل الذين هاجروا من مكة إلى المدينة سُموا «المهاجرين» أي أولئك الذين غادروا وطنهم مكة واستقروا بالمدينة من أجل الإسلام.

جَاهَدُوا: مشتقة من جهد أي ناضل وكافح وتحمل المزيد من الألم. جهد في الأمر: جدّ وتعب فيه بأقصى ما يمكنه. جاهد العدو: قاتله بكل ما أوتي من قوة. جهاد تعني بذل أقصى ما يمكن أن يبذله الإنسان في نضاله ضد قوى تعاديه، وهو على ثلاثة أنواع: (١) ضد عدو يراه؛ (٢) مجاهدة الشيطان؛ (٣) مجاهدة النفس (معجم لين).

يَرْجُونَ: مشتقة من رجا ولها معنيان. يُقال رجا الشيء أي: (١) أمل به؛ (٢) خافه (أقرب الموارد). وعندما تستخدم بمعنى الأمل في شيء، فإنها تستخدم فقط لشيء يُظن فيه الحصول على مسرّة (مفردات الراغب).

التفسير:

تعد الآية المسلمين الذين يعتقد رجاؤهم بالأمل، رغم ما هم فيه الآن من عناء شديد ومصاعب جمّة، أنّ الوقت يقترب سريعاً حين يختفي كل العناء، وتتلاشى جميع المصاعب، فيرثون رحمة الله تعالى في كلّ من الدارين.

وكما تذكر الآية، فإن الكلمات ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تشير إلى المؤمنين من أهل المدينة الذين لم يهاجروا، فالآية تذكر فريقين من المؤمنين يأملان في نوال رحمة الله تعالى: (١) المؤمنون المقيمون في المدينة، أي الأنصار الذين جاهدوا في سبيل الله ضد قوى الشيطان؛ (٢) المهاجرون من مكة الذين كانوا يجاهدون أيضاً في سبيل الله. وقد جاءت الكلمات ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لتبين أن الله تعالى سوف يغفر ذنوب وأخطاء الفريقين من المؤمنين المذكورين في الآية، ولن تكون هذه الذنوب والأخطاء عقبة تمنع نوالهم رحمة ربهم، على أن يظلوا مخلصين في إيمانهم، ومستمرّين في جهادهم في سبيل الله، فقد ذكر القرآن المجيد في مكان آخر أن الحسنات يُذهبن السيئات (هود: ١١٥).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا
إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ
مِّن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ
أَلَعَفَوْا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢٠﴾

شرح الكلمات:

الْخَمْرُ: صيغة المصدر من خَمَرَ. يُقال خمر الشيء أي حجه أو غَطَّاه. خمر الشهادة أي كتمها. خَمَّرَ العجين: جعل فيه الخمير وتركه حتى يختمر. خامره أي خالطه أو داخله. الحجاب الذي ترتديه المرأة يُسمى «خمار» لأنه يغطي رأسها ووجهها. الْخَمْرُ: اسم كل مسكر خامر العقل أي غَطَّاه (أقرب الموارد ومعجم لين).

الْمَيْسِرُ: مشتقة من يَسَرَ أي لان وانقاد. يَسَرَّتْ المرأة أي سهلت عليها الولادة. أيسر الرجل: صار ذا غنى. يسر فلان أي قامر أو راهن. الميسر: هو لعب قمار أو كل ما

شابهه، وُسِّمِي هكذا لأن الناس يريدون من هذا اللعب أن يجمعوا الكثير من الأموال بسرعة وسهولة من غير العمل والكد. لذا فكلمة الميسر تعني: (١) كل لعب فيه رهان أو قمار أو حظ؛ (٢) اللعب بالقداح كما كان العرب يفعلون؛ (٣) اللعب بالسهام والرهان عليها (لسان العرب ومفردات الراغب).

إِثْمٌ: صيغة المصدر من أِثْمَ أي عمل ما لا يحلّ. كلمة «إِثْمٌ» تعني: (١) كل ما هو مُحَرَّم أو غير شرعي (أقرب الموارد)؛ (٢) كل ما يبطل أو يعوق عن الخير (مفردات الراغب)؛ (٣) العقوبة والأذى (معجم لين).

الْعَفْوُ: مشتقة من عفا. يُقال عفا الشيء أي كثر وطال. عفو تعني: (١) ما يفضل عن النفقة ولا عسر على صاحبه في إعطائه؛ (٢) خيار الشيء وأجوده (أقرب الموارد).

التفسير:

بينما يتناول القرآن المجيد موضوع الحرب، كان من المناسب أن يتحوّل إلى موضوع الخمر والميسر، لما لهما من تأثير على الحروب.

فقد كان من عادة العرب في زمن الحرب أن يقترعوا بين بعض الأغنياء، ومن ترسو عليه القرعة، يكون ملزماً بإطعام الجيش وتزويده بالخمر. وهكذا كان العرب يدبرون أمر نفقات الحرب للجيش. ولما دُعي المسلمون للحرب دفاعاً عن أنفسهم، كان من الطبيعي أن يسألوا الرسول ﷺ عن مشروعية هذا التقليد، الذي كان سائداً بين العرب لتوفير نفقات الحرب، وعن استعمال الخمر في الحرب، حيث إن شرب الخمر كان يُعتبر ضرورة أثناء الحرب، لما تخلقه الخمر في نفوس المحاربين من إحساس زائف بالشجاعة الفائقة، التي تعمي المقاتل عن جميع نتائج الانخراط في القتال. وقد أعلن الإسلام تحريم كل من الخمر والميسر، لأنّ ضررهما أكبر من نفعهما. فقد أودع الإسلام في قلوب المقاتلين المؤمنين من مُثُل الشجاعة الكثير مما يفوق ذلك الإحساس الزائف بالجرأة الذي تسببه الخمر. وأيضاً كانت نفقات الحرب في الإسلام

تُجمع بطريقة أكثر عدلاً وأشدّ نبلاً من طريقة القرعة العشوائية، فالنفقات يتحملها الجميع، كل حسب طاقته، وينبغي أن تأتي برضا ورغبة المتبرعين من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ ينطوي على مبدأ هام، وهو أن الشيء لا يُستخدم لمجرد أن له بعض الفوائد، كما أنه لا يُدان لأن له بعض الأضرار. بل على العكس من ذلك، يجب أن تُوزن المزايا والعيوب، فيُدان الشيء إذا ما ظهر أن عيوبه ومضاره تفوق مزاياه. وإنها لإحدى المميّزات التي يتّسم بها الإسلام أنه لا يدين شيئاً من الموجودات كلية، وإنما يعترف بوضوح بما يكون فيه من المميّزات مهما صغرت. إن الإسلام لا يحرم استعمال بعض الأشياء في الأكل أو الشرب كونها تخلو من كل فائدة؛ إذ لا يوجد شيء في الدنيا يخلو تماماً من كل فائدة. ولذلك حين حرم الإسلام الخمر والميسر بسبب ضررهما البالغ، فإنه لم يُغفل الاعتراف بأنّ فيهما أيضاً بعض المنافع.

ومما هو جدير بالذكر أنّ الإسلام، هو الدين الوحيد من بين الأديان جميعاً، الذي حرم شرب الخمر. ففي الهندوسية، يشكل شرب الخمر جزءاً هاماً من بعض الطقوس الدينية. ولا يبدو أن شرب الخمر محرم في الديانة اليهودية، حيث لا يوجد شيء في التوراة يمنع شربها، بينما يذكر الإنجيل أنّ أوّل معجزة قام بها يسوع، كانت تحويل الماء إلى خمر في أحد الأعراس (إنجيل يوحنا ٢: ٧-٩).

وقد قامت الكثير من المحاولات عبر الزمان، بواسطة بعض المصلحين الاجتماعيين، وحتى بتأييد من القانون في بعض البلاد، لمنع شرب الخمر. ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل. وكانت التجربة الوحيدة التي تكلّت بالنجاح في هذا الشأن، هي تلك التي حدثت في الجزيرة العربية، قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان. فإنّ مجتمعاً بأسره، كان غارقاً في شرب الخمر، صار عزوفاً تماماً عن شرب الخمر، بمجرد أن أعلن الله تعالى ورسوله ﷺ تحريم شربها. وليست هذه شهادة

بسيطة على مدى التأثير البالغ للإسلام على قلوب وعقول أولئك الأميين من العرب، والتحوّل العظيم في حياتهم الذي جاء به الإسلام.

وحسب معنى كلمة «خمر»، كما جاء في شرح الكلمات، يجب ألا يفهم أنّ الإسلام يحرم فقط شرب كمية الخمر التي تُسكر المرء، فقد بيّن الرسول ﷺ بكل وضوح أنّ ما يسكر كثيره فقليله حرام (الترمذي).

ولما تمّ تحريم الوسيلة الرئيسة لتمويل الحرب، أي عن طريق إجراء القرعة العشوائية، كان من الطبيعي أن ينشأ سؤال عن كيفية جمع نفقات الحرب. ولما أدرك المؤمنون أن عليهم أن يتحمّلوا هذه النفقات، أسرعوا بسؤال الرسول ﷺ عما ينبغي عليهم إنفاقه لتوفير النفقات المطلوبة للحرب. وكانت الإجابة على سؤالهم هي «العفو»، أي ما زاد على نفقاتهم التي لا بدّ منها لمقابلة نفقات الحياة. إنّ كلمة «عفو» حسب معناها المزدوج المذكور في شرح الكلمات، تنطبق على فريقين من الناس. فعامة المؤمنين مطالبون بإنفاق ما يزيد عن حاجاتهم الضرورية، بينما ينبغي على الخاصة من المؤمنين أن ينفقوا أفضل ما يملكون. أمّا إذا كانت الجملة تنطبق على جميع المؤمنين، فهي تعني أنّ عليهم في زمن الحرب أن يُبقوا لأنفسهم ما يكفي فقط لضرورات الحياة، وأن ينفقوا الباقي كله في سبيل الله تعالى، وهذا ما يريد الله عز وجل منهم أن يفعلوه. وفي الواقع، إنّ بعض الصحابة الكرام أنفقوا أكثر من هذا. فمثلاً، حينما ناشد الرسول ﷺ المسلمين أن يقدّموا النفقات المطلوبة لتجهيز الجيش لغزوة تبوك، أحضر أبو بكر ﷺ كلّ ما يملك وألقى به تحت أقدام سيده ﷺ. ولما سأله الرسول ﷺ عمّا أنفقه وعما أبقاه لنفسه ولأهله، أجاب أبو بكر ﷺ أنه أحضر كل ما يملك، ولم يُبق شيئاً له ولأهله سوى الله ورسوله (الترمذي كتاب المناقب، والزرقاني).

وأخيراً، لا بدّ من كلمة عن الإثم أو الضرر الذي تذكره الآية الكريمة عن الخمر والميسر. ورغم أن الإسلام قد تولى المبادرة في تحريم الخمر والميسر، فإن العالم الآن يبدو أنه قد أدرك أخطار هذين الشرّين التي انطبعت بآثارها العميقة السيئة، ليس فقط على

حالة الإنسان الجسدية، بل على حالته الأخلاقية أيضاً. وفيما يلي بعض المقتبسات لكتاب غير مسلمين، يذكرون فيها بقوة أضرار الخمر:

(١) إن الكحوليات عامل هام يسبب الأمراض. وعند انتشار الأوبئة تكون نسبة الوفيات بين شاربي الخمر عالية للغاية، وتقل المقاومة العامة بالنسبة للأمراض والتئام الجروح والشعور بالإجهاد. والمسكرات تقلل من فرص الحياة، وقد وجدت شركات التأمين على الحياة البريطانية أنّ فرص الحياة لدى العزوفين عن الكحوليات يبلغ ضعف أولئك الذين يعاقرون الخمر. والعلاقة القويّة بين الكحوليات والجريمة أمر معروف؛ وتبين إحصاءات «بيروكوريا وجالافارين وسيكارت» أن ٢٥٪ إلى ٨٥٪ من المنحرفين مدمنون. ويتباين معدّل الانتحار حسب معدّل شرب الخمر في مختلف البلاد. إن الآثار السيئة للإدمان تظهر في الذرية... الصرع، والجنون، والبله، والأشكال المختلفة للتشوّه الجسدي والذهني والأخلاقي شائعة بشكل كبير بين أبناء المدمنين» (دائرة المعارف اليهودية، ج ١، ص ٣٣٣-٣٣٤).

(٢) إن تأثير معاقرة الخمر يعود كله إلى ما تفعله الخمر في الجهاز العصبي. ولذلك فإنّ الإحساس المباشر بالبهجة يعود إلى تهيج الجلد مما يُحمد مؤقتاً الإحساس بالبرودة ويعطل الإحساس بالضيق والآلام البسيطة، بينما يحدث مع الجرعات الكبيرة، أن تلاشى القدرة على السيطرة على النفس، وينتفي الإحساس بالمسؤولية، مما يسبّب الزيادة في الإحساس بالإثارة. وفي المرحلة الثانية، تتأثر قوة الحواس (السمع، اللمس، التذوّق، الرؤية) مما يسبّب تزايد عدم القدرة على السيطرة على حركات الجسم وتعبيرات الوجه. وفي المرحلة المتقدّمة من الثمالة، تتعطل العملية الفكرية والقدرة على سداد الحكم (دائرة المعارف البريطانية، ط ١٤، ج ١، ص ٢٤).

(٣) إن الكحول سمّ للبروتوبلازم، وهو المادة اللدنة الرقيقة التي تعتبر أحد المقوّمات الهامة في كل خلية من الخلايا الدقيقة التي تكوّن الأجسام الحيّة، سواء كانت

في الحيوان أو في النبات. ويمكن تبين تأثيرها السام على الكائنات الحية، حتى وهي في محاليل مخففة للغاية. إن الخلايا العصبية في المخ، وهي أدق الأنسجة وأكثرها تنظيماً، يظهر عليها أثر الكحول في وقت مبكر. وقد أقرّ الكثير من كبار الباحثين من أمثال «هلمهوكس وهكسلي» بالأثر السيئ على المخ لكميات ضئيلة جداً من الكحول، كما شاهدوا ذلك الأثر على أنشطتهم الذهنية. ويبدو أن التأثير «المنشط» يرجع في الحقيقة إلى الشلل الذي يصيب المراكز العصبية، حتى إن المرء يسيطر عليه الإحساس بالانقباض والظرف والطيّش. وقد أثبت عدد كبير من التجارب الدقيقة لقياس سرعة العمليات الذهنية ودقّتها، أنّ وجود كميات صغيرة من الكحول فيما يتناوله الإنسان، له تأثير يسبب شللاً في عمل المخ. وقد أصاب بعض العمليات الذهنية النشاط لفترة قصيرة، ثم ظهر بعدها إعاقة طويلة أبطلت هذه النتيجة المفيدة. وهناك إقرار عام بوجود صلة قريبة بين كثرة شرب الخمر وبين خرق القانون الأخلاقي وقانون الدولة. وهذا نتيجة مباشرة للشلل الذي يصيب القدرات الذهنية العليا، الفكرية والأخلاقية، وانطلاق الميول المنحطة (دائرة معارف الأديان، ج ١، ص ٢٩٩-٢٠١).

وبالنسبة لبيان أضرار الميسر، يكفي أن نسوق المقتبس التالي:

«إن الميل الفظيع نحو الميسر لم يكن أبداً محل شك. وقد تحدّث عن ذلك اللورد «بيكونز فيلد» فذكر أنه 'آلية واسعة لنشر الفساد في البلاد'. وخلال اثني عشر عاماً، كانت هناك ١٥٦ حالة انتحار أو محاولة للانتحار في إنجلترا بسبب الميسر، وأيضاً ٧١٩ حالة من السرقة أو الاختلاس، و٤٤٢ حالة إفلاس. وفي ضوء هذه الحقائق، لم يكن من الغريب أن يخضع الميسر للكثير من القوانين في الدول المتحضّرة. وكما قال «هربرت سبنسر»، إنّ الميسر وسيلة للحصول على البهجة لشخص، على حساب شخص آخر. إن سعادة الراجح تقوم على تعاسة الخاسر.

ولذلك فإنّ هذه الوسيلة ضدّ مصلحة المجتمع. إنها تنسف الشعور بالتعاطف بين الناس، وتزرع الشعور بالأنانية القاسية، وبالتالي تتسبب في انهيار عام للأخلاق. إنها في حقيقتها عادة همجية، ولا يمكن أن يوجد أيّ شكل من أشكال الميسر في جوّ من الشعور بالأخوة. ويمكن النظر في الفساد الأخلاقي الناتج عن ممارسة الميسر من زاوية أسمى من مجرد الفرح بتحقيق المكسب:

(أ) إن الميسر يتضمّن انتقال الأموال بشكل أو بآخر. وعندما يُسأل المقامر لماذا يغامر بأمواله في لعبة أو في سباق، تكون الإجابة: «لإضافة الإثارة على اللعبة». إنّ هذه الإثارة في الحقيقة هي ثمن المكسب. إذ لو كان الهدف حقيقة كما يُقال أنّه مجرد اللهو أو الإثارة، لاستعمل الناس أوراق النقد المستخدمة في اللعب، أو لاتفق الناس على التبرّع بالمكسب للأعمال الخيرية العامة. ولكن ليس هذا ما يحدث. إنّ انتقال الأموال بشكل أو بآخر جزء هام من الفعل. وهناك ثلاث وسائل للحصول على المال، وهي عن طريق الهدية، أو العمل، أو بالتبادل عن طريق البيع والشراء. والميسر يقف خارج هذه الوسائل الثلاث.

(ب) إنّ الدافع وراء الميسر في الواقع هو شهوة الاستيلاء على ما لدى الغير. إنه محاولة لامتلاك شيء بغير دفع ثمنه. إنه خرق لقانون التكافؤ. إنه نوع من السرقة بالاتفاق المتبادل، ولكنها سرقة على أي حال، كما أن المباراة، التي هي قتل بالاتفاق المتبادل، لا يزال اقترافها يعتبر جريمة قتل. إن الميسر وليد شهوة التملك ويؤدّي إلى البطالة.

(ج) وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الميسر اتّكال على الحظ، وجعل الحظ حكماً على السلوك يعتبر تدميرًا للنظام الأخلاقي وللاستقرار الحياة.

(د) إنّ الميسر يركز على المال، وصرف الاهتمام عن أهداف أهمّ وأولى في الحياة (دائرة المعارف الدينية، ج ٦، ص ١٦٥-١٦٦).

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى
قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ
فَأَخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ
شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢١﴾

شرح الكلمات:

الْيَتَامَى: جمع يتيم المشتقة من «يَتَمَ» أي قَصَرَ وفتر وأعيا؛ أو فقد والده وهو صغير. لذا فكلمة «يتيم» تعني: من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال أي لم يبلغ سن الثامنة عشرة بحسب الشرع الإسلامي. تستخدم أيضاً كلمة «يتيم» بمعنى: المفرد من كل شيء (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

تُخَالِطُوهُمْ: مشتقة من خلط. يُقال خلط الشيء بالشيء أي مزجهما معاً. خالطه أي مزجه وداخله؛ عاشره؛ انضم إليه. خالط قلبه هم أي عمَّ قلبه الهم (أقرب الموارد ومعجم لين).

أَعْنَتَكُمْ: مشتقة من عنت وتعني دخل عليه المشقة ووقع في أمر شاق. أعنته أي شدد عليه وألزمه ما يصعب عليه (أقرب الموارد).

التفسير:

الكلمات الأولى في هذه الآية، أي ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تبدو وكأنها جاءت في غير موضعها، لأنها لا ترتبط بما يليها من كلمات، وإنما ترتبط بكلمات الآية السابقة. وبذلك تكون الجملة الكاملة كما يلي: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». وإذا قرأنا الآية بهذا الشكل يكون معناها أَنَّ اللَّهَ تعالى امتنع عن إصدار أمر محدّد فيما يتعلق بنفقات الحرب، وأمركم أن تُبْقُوا لأنفسكم من أموالكم ما تتطلبه شؤون الحياة، وتنفقوا الباقي من أجل الدين، حتى يمكن لكم أن

تتفكروا وتقارنوا بين أمور هذه الدنيا وأمور الآخرة. وقد تم فصل الكلمات ﴿في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ عن كلمات الآية السابقة، لتكون هناك وقفة تهدف إلى إبراز أهمية الأمر على ذهن السامع أو القارئ.

ولما كانت آيات القرآن المجيد تتبّع ترتيباً طبيعياً، يتّفق مع طبيعة المتلقي، لذلك جاءت هذه الآية بعد الآيات التي كانت تتعلق بالحرب. فلما كانت الحرب تخلف وراءها الكثير من اليتامى، جاءت هذه الآية لتضع القواعد الأساسية لمعاملة اليتامى والعناية بهم. والآية تحبّر المسلمين أنّ تربية اليتامى أمر يتطلب الكياسة، وهو واجب اجتماعي على جانب كبير من الأهمية. إذ يجب تربية اليتامى بالشكل الذي يعمل على تنمية قدراتهم الجسدية والأخلاقية والروحية. ويجب معاملتهم كما يُعامل المرء أفراد أسرته، كما لا بدّ من العناية بممتلكاتهم وضرورة اتخاذ الخطوات اللازمة لتنميتها. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ لا يعطي الإذن فقط بالمخالطة بل يحضّ عليها، وذلك كما تدل عليه كلمة «إخوانكم» التي تحضّ المسلمين على أن يعيش اليتامى مع المسلمين كما يعيش أفراد الأسرة الواحدة، وليس هذا أمر تحتّمه الحكمة والإنسانية فحسب، وإنما تحتّمه أيضاً ظروف تسهيل المعيشة. فلو كان من المفروض أن يُعزل اليتامى، وأن تدبّر أمور ممتلكاتهم على أساس قانوني بحت، لأدّى ذلك في معظم الأحوال إلى الكثير من المصاعب والمتاعب، التي لا داعي لها لكل من الطرفين.

ويتضمّن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ تحذيراً شديداً لمن يتولى أمور اليتامى. فكل ما يقومون به يعلمه الله تعالى جيداً، بل إنه سبحانه يعلم الخفايا التي في قلب الإنسان، ولذلك ينبغي عليهم أن يحذروا من ارتكاب الفساد تحت رداء الإصلاح.

وجاءت صفتا الله تعالى ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في نهاية الآية، لتلفت أنظار من يتولى أمور اليتامى، إلى أن يكونوا على حرص شديد عند تعاملهم مع اليتامى. فيجب ألاّ

يخدعوا أنفسهم بأنّ اليتامى ضعفاء، ولا يستطيعون إدراك حقيقة الأمور، فيظنّوا بذلك أنهم تحت رحمتهم وتحت سلطانهم، فيعاملونهم كما يشاؤون. فإن لم يكن اليتيم قوياً فالله ﴿عَزِيزٌ﴾ أي يجمع بين القوة والقدرة، وإن لم يكن اليتيم حكيماً فالله ﴿حَكِيمٌ﴾، وهو سبحانه سوف يحاسب من يتولى أمور اليتامى حساباً عسيراً، إذا هم تصرفوا بغير شفقة نحو أولئك اليتامى، أو إذا تصرفوا بأسلوب خادع مضلل تجاه هؤلاء الصغار الضعاف، الذين لا صديق لهم من خلق الله تعالى. وبذكر الصفتين الإلهيتين «العزیز» و«الحكيم» يحضّ القرآن المجيد المسلمين على رعاية اليتامى، وحسن تربيتهم، وتعليمهم من العلوم ما يؤهلهم لينشأوا أعزّاء في حياتهم، حكماء في تصرفاتهم، فيكونوا من أفراد المجتمع النافعين.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَآمَةٌ
مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا
تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ
مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ
أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى
الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢٢﴾

شرح الكلمات:

لَا تَنْكِحُوا: ولا تُنكِحوا كلاهما مشتق من نكح. يُقال نكح المطر الأرض أي اختلط بثراها. نكح امرأة: تزوّجها. نكح زوجته أي جامعها. أنكح المرأة «زيداً» أي زوجها

إياه. لذا فكلمة «نكاح» تعني: (١) الزواج؛ (٢) المعاشرة الزوجية (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

مُشْرِك: مشتقة من شَرِك. يُقال شرَكَه فيه أي صار شريكه. أشركه في الأمر: جعله شريكاً له فيه. أشرك إليه أي عقد معه شركة. شريك تعني: المشارك أو الرفيق أو الزميل. لذا فكلمة «مُشرك» تعني: الذي يجعل مع الله تعالى شريكاً أو يعزو إلى غير الله كل صفاته تعالى أو بعضها. «شَرِك» تعني: أن تجعل شريكاً لله (معجم لين). والشَرِك شَرِكَان: شَرِك أكبر وهو أن يُتخذ أحد أو شيء شريكاً لله؛ وشَرِك أصغر وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق (مفردات الراغب). هناك أيضاً: شَرِكٌ جلي أي واضح وظاهر؛ وشَرِكٌ خفي؛ وشَرِكٌ في الذات أي أن يُشرك بذات الله أحد آخر؛ وشَرِكٌ في الصفات بمعنى أن يوصف أحد بما لله من صفات. وكلمة «المشركين» تُطلق بصفة عامة على أولئك الذين يُشركون مع الله إلهاً آخر ولا يؤمنون بأي كتاب أنزل من الله تعالى.

التفسير:

إن موضوع الزواج من مشركات يرتبط ارتباطاً دقيقاً بموضوع الحرب، لأنّ المسلمين يكونون خلال الحرب بعيداً عن بيوتهم لزمان طويل، مما قد يدفعهم إلى الزواج من النساء المشركات. وهذا ما يحرمه القرآن المجيد بحسم في هذه الآية الكريمة، كما يحرم أيضاً تزويج النساء المؤمنات من رجال المشركين. ويقوم التحريم على أسس دينية، كما يقوم أيضاً على أسس أخلاقية واجتماعية. فالزوج المشرك لن يتوانى عن فرض تأثيره الضار والمفسد، ليس على زوجته المؤمنة فحسب، وإنما على أولاده كذلك، بينما من المؤكّد أن تُفسد الزوجة المشتركة التربية التي يجب أن ينشأ عليها الأولاد المسلمون. وبالإضافة إلى ذلك، حين يتزوَّج رجل مؤمن من امرأة مشركة أو العكس، فإن أفكارهما ومعتقداتهما وثقافتهما ومبادئهما ونظرتيهما للحياة تختلف اختلافاً واسعاً، حتى إنه من العسير أن يستمر التفاهم والاتفاق بينهما، مما يؤدي إلى أن تتحوّل

حياتهما إلى بؤس وشقاء. كذلك فإنّ الإسلام (أي الخضوع لله تعالى) والشرك (أي عبادة أشياء أو أشخاص آخرين بجانب الله تعالى) يبعد كل منهما عن الآخر بُعد المشرق عن المغرب، فلا يمكن أن يكون بين الاثنين تفاهم حقيقي، ولا يمكن أن تقوم علاقة مستمرة بين الطرفين. وفي هذا الخصوص، يجدر ذكر أنّ الإسلام يسمح بزواج المسلم من امرأة من أهل الكتاب، تكون قد اقتربت من الإسلام (المائدة: ٦)، رغم أنه من المؤكد أنه لا يشجع ذلك. وسوف نتحدث عن هذا الموضوع عندما نتناول شرح الآيات التي تتعلق به.

وقد يبدو للوهلة الأولى، أنّ كلمتي: ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ زائدتين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾. فمن الواضح أنه إذا كان زواج المشركين محرماً، فمن الجليّ أنّ هذا التحريم سوف ينتهي إذا دخل المشرك في الإسلام. ولكن التدبر العميق في الآية يبين أنّ الكلمتين ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ قد جاءتا في المكان المناسب تماماً. فهما تُذكران المسلمين بواجبهم في العمل على تحويل المشركين إلى الإسلام. كذلك فإن في هاتين الكلمتين نبوءة مستترة، تشير إلى أن الوقت يقترب سريعاً، حينما يختفي الشرك تماماً وينتهي من الجزيرة العربية.

وأما كلمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ حينما تتعلق بعمل يفعله الله تبارك وتعالى، فإنها تعني حسب الاصطلاح القرآني، أن الله تعالى قضى أن يُهيئ وسائل خاصة وغير عادية لتحقيق الفعل المذكور. وفي هذه الحالة، تكون كلمات الآية ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ ليست مجرد إعلان أجوف، وإنما تعني أنه سبحانه قد هياً الأسباب لتحقيق الغاية المطلوبة. ولعل من المناسب أيضاً بيان أن كلمتي ﴿الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ تحملان معنى تغطية شيء ما، والمعنى المقصود هو أن أفضل الله تعالى ومغفرته ستكون شاملة وافرة سخية، حتى إنها سوف تشمل المؤمنين وتفيض عليهم.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى
فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ
حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ
حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ
وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

شرح الكلمات:

الْمَحِيضُ: مشتقة من حاض. يُقال حاضت المرأة أي خرج منها دمٌ في وقت مخصوص على وجه مخصوص. لذا فكلمة «المحيض» تعني: (١) الحيض؛ (٢) وقت الحيض؛ (٣) موضع الحيض (معجم لين ومفردات الراغب). يرى البعض أن كلمة «حوض» - مجتمع الماء - مشتقة أيضاً من نفس المصدر مع أن الحرف الأوسط في المصدر مختلف (ومعجم لين).

أَذَى: صيغة المصدر من أذى وهو الضرر أو الإزعاج. أذى تعني تسبب في ضرر. أذى: الشيء الضار؛ الشيء الكريه؛ الإزعاج؛ الألم؛ الشيء القدر؛ الشيء الرديء ولكنه أقل شدة وإيذاءً مما يُسمى «ضرر» (تاج العروس).

اعْتَزِلُوا: مشتقة من عَزَلَ. عزل عنه أي نحاه عنه جانباً وأفرزه. اعتزل الشيء وعنه: تنحى وابتعد عنه (أقرب الموارد).

يَطْهَرْنَ: وتَطَهَّرْنَ والمتطهرين مشتقة من طَهَّرَ أي أصبح نظيفاً وخالياً من الأوساخ والأدران .. إلخ؛ أو صار صافياً وخالصاً. طهرت المرأة: انقطع دمها أي انتهت دورة حيضها. تطهرت المرأة: اغتسلت. «اطَّهَّر» مثل «تَطَهَّر» وتعني: تنزَّه عن الأذناس وكفَّ عن الإثم (أقرب الموارد).

التفسير:

بعد ذكر بعض قواعد الزواج باختصار، يصبح من الضروري الحديث عن العلاقات والواجبات الزوجية. وتوضح الآية الحالية أن ممارسة العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته، غير مسموح بها في الفترة التي تحيض فيها المرأة، إذ إن هذه الممارسة تضر بكل منهما. ولا مانع من استئناف هذه الممارسة بعد انقطاع الحيض، ولكن على الزوج، كإجراء احتياطي، أن ينتظر إلى أن تغتسل المرأة من طمثها.

والأمر الإلهي الذي جاء في الكلمات: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يتضمنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٨). وهو يشير إلى أن ممارسة الجنس بين الزوجين يجب أن تتم بحيث ينتج عنه حفظ النوع.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أن على الزوج أن يتعد عن زوجته تماماً ولا يقترب منها بأي حال من الأحوال. فإن أقوال الرسول ﷺ وسنته العملية تكذب هذا الرأي. إن المقصود من هذا التعبير هو الممارسة الجنسية فقط، وليس أي تصرف آخر يعبر عن عاطفة الود والمحبة.

وكلمة ﴿الْمُطَهَّرِينَ﴾ التي تنتهي بها الآية الكريمة، والتي تعني حرفياً «أولئك الذين يحرصون على طهارة أنفسهم»، قد جاءت في صيغة المذكر لعدة أسباب؛ أولاً: أن استعمال صيغة المذكر تتضمن عادة الإشارة إلى الرجال والنساء على السواء؛ وثانياً: باستعمال هذه الكلمة يومئ القرآن المجيد إلى أنه إذا جامع الرجال زوجاتهم وهن غير خاليات من التلوث والقذر الذي يصحب الحيض، فمن المؤكد أن يصيبهم أيضاً هذا التلوث والقذر؛ وثالثاً: توهم هذه الكلمة أيضاً إلى أنه من المسموح به للزوج أن يجمع زوجته بعد توقف طمثها وانتهاء دورتها الشهرية، إلا أنه من الأفضل أن ينتظر الزوج إلى أن تغتسل الزوجة، لأن الله تعالى يحب أولئك الذين يحرصون على النظافة والطهارة.

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ
وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ
مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٤﴾

شرح الكلمات:

حَرْثٌ: انظر الآية ٢٠٦ من نفس السورة.

أَنَّى: أي متى، كيف، أين (أقرب الموارد).

قَدِّمُوا: مشتقة من قَدَّمَ أي أتى أو خطى للأمام. قَدَّمَ تعني بَعَثَ أو عَرَضَ أو قَرَّبَ. قَدَّمَ لنفسه: قام إمَّا بفعل الخير أو الشر بما سوف يعود عليه في المستقبل إمَّا بالخير أو بالسوء. قَدَّمَهُ على غيره أي فَضَّلَهُ عليهم. قَدَّمَ له الثمن: دفعه مُقَدِّمًا (أقرب الموارد). يستخدم القرآن الكريم هذا التعبير ليشير إلى أن كل ما يبذره الإنسان من أعمال الخير أو الشر سوف يجني ثماره لاحقًا، فليس هناك من عملٍ يضيع أبدًا.

الْمُؤْمِنِينَ: مشتقة من آمن وتعني: (١) صدَّق ووثق؛ (٢) أطاع (أقرب الموارد). والمعنى الثاني هو المقصود في هذه الآية الكريمة. لمزيد من الشرح انظر الآية ٤ من نفس السورة.

التفسير:

تقدّم هذه الآية الكريمة شهادة على الأسلوب الفريد الفذ الذي يستخدمه القرآن المجيد، واللغة الشريفة الطاهرة التي يستعملها. فقد عالج القرآن المجيد موضوعًا بالغ الحساسية، بأسلوب مهذب متحفّظ ومحتشم، وبكلمات لائقة مع تلخيص كل من فلسفة الزواج والعلاقات الزوجية في جملة واحدة هي قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾. فالمرأة شُبِّهَتْ بالحرث، أو التربة التي تُزْرَع فيها بذرة الذرّة. ولهذا التعبير معنيان يتوقفان على معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ﴾. فإذا اعتبرنا أنّ

المقصود من قوله تعالى: ﴿فَاتُّوا حَرْثَكُمْ أُنَى شَيْئُمْ﴾ هو الجماع بين الزوجين، فإن هذا يعني (١) أن على الزوج أن يقرب زوجته بالأسلوب الذي يناسبها وحسب قدرتها، كما يفعل الزارع مع تربته، وليس بأي شكل آخر؛ (٢) أن على كل من الزوج والزوجة أن يعمل على تطهير قلبه في وقت الجماع، حتى يشارك الناتج أيضاً في هذه الطهارة. يقول الرسول ﷺ: "لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا" (مسلم، كتاب النكاح).

وعلى العكس، إذا كان إيتاء الحرث يعني التعامل مع الزوجة، يكون المقصود من قوله تعالى: ﴿فَاتُّوا حَرْثَكُمْ أُنَى شَيْئُمْ﴾: (١) أن يختار الرجل زوجته كأحسن ما يختار التربة الصالحة؛ أي (أ) أن تكون الزوجة ولوداً، وليست عاقراً كالأرض البور التي لا تصلح للزراعة؛ (ب) أن تكون الزوجة بصحة جيدة، قادرة على أن تنجب أطفالاً أصحاء؛ (ج) أن تصلح الزوجة لتربية الأولاد تربية صالحة؛ (د) أن تكون الزوجة ودوداً محبة، لكي يسود البيت جو من المحبة والسلام، ويستفيد الأولاد أيضاً من ذلك. (٢) أن يقوم الرجل بأمور زوجته ويحسن معاملتها، كي تكون سعيدة في حياتها وراضية عنها، فتحسن بدورها تربية الأولاد تربية صالحة؛ (٣) أن يبقى الزوج في حالة جيّدة من الصحة البدنية والأخلاقية، حتى تكون لبذوره في حرثه صحة جيّدة أيضاً من جميع النواحي.

إن الزارع الحكيم يختار التربة الصالحة، ويتعهدها بالرعاية لتكون صالحة لاستقبال البذور، ثم يحصل على أحسن البذور لزرعها، ويختار الوقت المناسب والأسلوب الملائم لزراعتها. وكذلك ينبغي عليكم أن تفعلوا لأنّ الحصاد الذي تجنونه لا يتوقف عليه مستقبلكم فقط، وإنما يتوقف عليه مستقبل المجتمع بأكمله. ومن أجل هذه الحقيقة السامية، جاء قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾. وباختصار، إنّ تشبيه المرأة بالحرث يلقي فيوضاً من الأضواء على أخلاقيات التناسل والجنس. غير أن الأساس الحقيقي لكل سعادة وتقدم هو تقوى الله ﷻ، إذ يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا

أَنْتُمْ مُلَاقُوهُ، وهذا تحذير للمؤمنين ألا يغفلوا أبداً عن الغرض الحقيقي من الزواج، حتى وهم في معترك مشاعر الجماع، لأنَّ أساس هذه العاطفة هو مصدر النسل واستمرار الحياة على الأرض.

وأخيراً يأتي قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي بشر أولئك الذين يطيعون هذه الأوامر الإلهية، فهي لن تمنحهم حياة في قمة السعادة فحسب، بل ستزوّدهم أيضاً بأفضل ذرية على مدى الدهر.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا
وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

شرح الكلمات:

عُرْضَةٌ: مشتقة من عَرَضَ. يُقال عرض الشيء أي أظهره. عرض لي عارض: أصابني. لذا فكلمة «عُرْضَةٌ» تعني: (١) العقبة أو المانع الذي يعترض طريق أحد؛ (٢) الشيء أو الشخص الذي يتعرض إلى أو يواجه شيئاً أو شخصاً؛ (٣) الهدف أو المرمى؛ على سبيل المجاز كأن يُقال عن أحد «لا تجعلوه هدفاً للومكم»؛ (٤) القصد؛ (٥) العذر أو الذريعة (أقرب الموارد وتاج العروس).

إِيمَان: جمع يمين المشتقة من يَمَنَ. يُقال يَمَنَ الرجل أي جاء عن يمينه. يَمَنَ اللهُ فلائلاً: جعله مباركاً. كلمة «يمين» تعني: (١) الجهة اليمنى؛ (٢) اليد اليمنى؛ (٣) البركة والقوة؛ (٤) القَسَم (أقرب الموارد).

التفسير:

لما كان هناك بين بعض الرجال من قد يغفل عن حقيقة أنَّ زوجته حرث له من الله تعالى، وعلى ذلك فإنه يتحتم عليه أن يعاملها معاملة طيبة، ليس من أجلها فقط، ولكن من أجل الأطفال أيضاً؛ لذا يحدث أحياناً أن يشتعل بعض الأزواج غضباً لأقل

الأسباب، ويُقسمون بالله على أنهم لن يحسنوا معاملة زوجاتهم ولا أقربائهن. ولذلك يشير القرآن المجيد هنا إلى مثل هؤلاء الناس، وينهى عن جعل الله تعالى عرضة لهذه الأيمانات التي تنتج عنها المظالم والأخطاء. وتعتبر الآية الحالية والآية التالية لها مقدمة للآية ٢٢٧ التي تعالج موضوع الحلف، الذي يقسم به الزوج على أن يهجر زوجته. إن اسم الله تعالى أقدم من كل مقدّس، ويجب ألا يُستعمل ليكون عقبة في طريق البر والإحسان إلى الآخرين.

وكلمة ﴿عُرْضَةً﴾ التي تعني هدف أو عقبة، كان من المناسب جداً أن تأتي لتبين أن أولئك الذين يقسمون بالله تعالى أن يمتنعوا عن فعل الأعمال الطيبة، فإنهم في الحقيقة لم يفهموا ولم يقدّروا عظمة الله ﷻ ولا مقامه الأسمى. إنه عمل أشبه بالكفر، أن يستعمل الإنسان اسم الله تعالى، الذي هو مصدر كل خير لكي يحيد عن طريق الخير، وأيضاً إنه اعتداء على قدسية الله تعالى وانتهاك حرمة أن يكون اسمه هدفاً لقسَمٍ مهين.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ
وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

شرح الكلمات:

يُؤَاخِذُكُمْ: مشتقة من أخذ. أخذه تعني: تناوله أو أمسكه. أخذه: حاسبه أو عاقبه (أقرب الموارد).

اللغو: مشتقة من لغا. يُقال لغا بكلمة أي تكلم بها. لغا الشيء: بطل. لغا عن الطريق: حاد عنه. لغا في قوله: أخطأ وتكلم من غير روية وتفكر. لذا فكلمة «اللغو» تعني: ما لا يُعتدُّ به من كلام وغيره. ويعني أيضاً نباح الكلب (أقرب الموارد). لاغاه: هازله أو مازحه أو

داعبه (معجم لين). اللغو يعني أيضاً ما يقوله الشخص من كلامٍ دون أن يعنيه جدياً (البحر المحيط).

حليم: مشتقة من حَلَمَ وتعني: صبر ورَّحِم؛ صفح وتغاضى عن إساءة الآخرين؛ مَلَكَ نفسه عند الغضب؛ كان رزيناً هادئاً وعاقلاً غير متسرع في عقاب الآخرين أو الانتقام منهم. لذا فكلمة «حليم» - وهي اسم من أسماء الله الحسنى - تعني: الذي يصفح ويعفو، الذي يضبط نفسه وطبعه عن هيجان الغضب؛ الذي يُسرّع بعفوه ويمهل في عقابه؛ وتعني أيضاً العاقل (أقرب الموارد ومعجم لين ومفردات الراغب).

التفسير:

إِنَّ الْقَسَمَ أمر جاد، كما جاء في الآية السابقة، ولكن بعض الناس تعودوا على أن يقسموا بالله تعالى بغير أن يعنوا شيئاً في نيتهم. والقسم الذي تشير إليه هذه الآية الكريمة هو ذلك القسم، الذي يقسم به المرء بلا اهتمام وبحكم العادة، أو ذلك القسم الذي يلجأ إليه المرء في ثورة غضب. ولما كان هذا النوع من القسم يُعتبر لغواً، فإن المرء لا يُعاقب عليه، غير أن هذا لا يعني أَنَّ الآية تقرر أَنَّ الانغماس فيه أمر مباح، وإنما تبين الآية فقط أَنَّهُ لما كان القسم غير مقصود، فإن مثل ذلك القسم لا يُعتدُّ به من الناحية القانونية، ولكن صاحب القسم سوف يُسأل عن انخراطه في أمور اللغو. فَإِنَّ المؤمن مأمور بالإعراض عن كل ما هو لغو، لا هدف له ولا فائدة من ورائه. إذ يصف القرآن المجيد المؤمنين بأنهم ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني أن المرء سوف يُحاسب عن القسم الذي يُقسم به عن قصد وإدراك. وتشير الكلمات ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ إلى أن الله تعالى لا يحاسب الإنسان على الأفكار العابرة التي تراوده فجأة ثم تختفي. وإنما الأفكار التي يُحاسب عليها المرء هي تلك التي «اكتسبتها القلوب» أي التي يُضمهرها في نفسه ويُبقيها في ذهنه.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ تعني أن الله يعلم ضعف الإنسان، ولذلك فهو يعامله بحلم ولا يحاسبه على الأعمال التي يكون قد ارتكبها بغير أن يقصدها.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ
فَإِنْ فَأَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

شرح الكلمات:

يُؤْلُونَ: مشتقة من المصدر ألا، يُقال «ألا في الأمر» أي قَصَّر فيه وأبطأ. آلى تعني أقسم. آليت على الشيء أي أقسمت على فعله. آليت لا أفعل كذا: أقسمت ألا أعمله. آلى من زوجه شهراً أي أقسم ألا يعاشرها لمدة شهر. اتلى تعطى نفس معنى آلى أي أقسم كما في سورة النور الآية ٢٣. «إيلاء» تعني القسم أو اليمين ويُقصد به اليمين أو الحلف المانع من جماع المرأة وهجرها (أقرب الموارد ومعجم لين).

تَرَبُّصٌ: مشتقة من رَبَصَ. يُقال رَبَصَ به أي انتظر به خيراً أو شراً يحلّ به. تَرَبَّصَ: انتظر أو لبث أو ترقب. تَرَبَّصَ عن الأمر: توقف عن فعله (أقرب الموارد).

التفسير:

بعد الآيتين اللتين كانتا بمنزلة مقدمة لموضوع القسم، يعود القرآن المجيد إلى معالجة الموضوع الحالي وهو العلاقات الزوجية. وتحدث الآية الحالية عن أولئك الذين يُقسمون على هجر زوجاتهم بغير أن يطلقوهن بالفعل. ولعل ما هو جدير بالذكر هنا أنه عند الاقتراب من معالجة موضوع الطلاق الذي يفصل بين الزوجين، والذي سوف تعالجه الآيات التالية، فإنّ القرآن المجيد بدأ بذكر موضوع الحيض (الآية ٢٢٣) الذي يُعتبر سبباً لنوع من الانفصال بين الزوجين، ولو أنه ليس انفصالاً حقيقياً. ثم يتحدث القرآن المجيد (في الآية الحالية) عن نوع من الانفصال الحقيقي، رغم أنه غير محدد. ثم في الآية التالية، يتحدث عن الانفصال الذي يسببه الطلاق

الرجعي. ثم أخيراً في الآية ٢٣١ يتحدّث عن الانفصال النهائي الذي يسببه الطلاق البائن الذي لا رجعة فيه. ولا شك أن هذا تسلسل رائع في عرض الموضوع، الذي يهدف به إلى وضع العراقيل أمام الطلاق، الذي يعترف به الإسلام باعتباره أبغض الحلال عند الله تعالى.

وكما هو واضح تماماً في الآية الحالية، يعطي الإسلام الشخص الذي يُقسم على الانفصال عن زوجته، مدّة أربعة أشهر على أكبر تقدير. وخلال هذه المدّة ينبغي على الزوج أن يسوّي الخلاف بينه وبين زوجته، ويعاود استئناف العلاقة الزوجية معها، وألا يقع الانفصال حقيقة بينهما. فالإسلام لا يسمح بوجود حالة الانفصال غير المحدود بين الزوجين مع استمرار وجود الزواج، مما يتسبّب في أن تظل المرأة كالمعلّقة.

وبين قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أنّ القسم بالانعزال عن الزوجة أمر مستنكر ومكروه عند الله تعالى، الذي يحبّ أن يرى علاقات المحبة والمودة بين الزوجين. وعلى هذا فإنّ الآية حرّمت موضوع «الإيلاء» الذي كان منتشرًا بين العرب قبل مجيء الإسلام، والذي كان الغرض منه حرمان المرأة من حقوقها الزوجية لفترات طويلة غير محدودة.

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

شرح الكلمات:

الطَّلَاقُ: مشتقة من طَلَّقَ. يُقال طَلَّقَتِ الناقة أي انحَلَّت من عِقَالِها. طَلَّقَتِ المرأة من زوجها أي بانَّت نفسها منه وحلَّت عقد رباطها معه. طَلَّقَ المرأة زوجها أي خلاها عن قيد الزواج. لذا فكلّمة «الطلاق» تعني: حلّ عقد الزواج وانفصال الزوجين (أقرب الموارد).

عَزَمُوا: عزم الأمر تعني عقد ضميره على فعله وقطع عليه وأمضاه من دون تردد فيه (أقرب الموارد).

التفسير:

إذا حدث أن أقسم الزوج على هجران زوجته، بمعنى أنه قرر الانفصال عنها بالطلاق، فله أن يسلك هذا الطريق. ولكن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يحذره ألا يظلم زوجته بذلك، فلا يظن أنه يستطيع أن يفلت من عقاب الله تعالى، لأنه سبحانه موجود، وهو ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع دعاء الزوجة. وحتى لو لم تدع أو لم تتمكن من الدعاء، فإنه أيضاً ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء.

وبهذه الآية تبدأ معالجة التشريع الإسلامي لموضوع الطلاق. وحسب هذا التشريع، يحق للزوج أن يطلق زوجته إذا كانت هناك أسباب حقيقية تضطره إلى ذلك. غير أن هذا الحق ينبغي ألا يُستخدم إلا في مناسبات نادرة، وفي ظروف استثنائية.

وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٩﴾

شرح الكلمات:

قُرُوء: مشتقة من قرء المشتقة من قرأ، يُقال قرأ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض. قرأت الناقة: حملت. قرأت الحامل أي ولدت. قرأت أو أقرأت المرأة: طهرت.

وأيضاً أقرأت المرأة أي حاضت وبذلك يكون للكلمة معنيان متضادان. قُرء أو قَرء تعني: (١) الوقت، وهذا هو المعنى الأساس للكلمة، كما نقول: هبَّت الريح لقرئها أي في وقتها المحدد؛ (٢) الحيض؛ (٣) فترة الطهارة التي تسبق أو تلي خروج الحيض أو بمعنى آخر الفترة بين حيضين، لذا فالكلمة جامعة للأمرين، الحيض والَطهر؛ (٤) نهاية الحيض (أقرب الموارد ومعجم لين). أيضاً تستخدم كلمة «قرء» للإشارة إلى فترة الحيض والَطهر معاً أي كل الشهر (البحر المحيط). أمّا (الراغب) في مفرداته، فإنه يرى أن كلمة «قرء»: اسم للدخول في الحيض عن طهر.

أَرْحَامٌ: جمع رَحِمٍ أو رَحِمٍ من الفعل رَحِمَ. يُقال رحمه بمعنى رَقٍّ له وشفق عليه وتعطف وغفر له. رَحِمَت المرأة أي شكت رحمها بعد الولادة. رَحِمَ أو رَحِمَ تعني: (١) مستودع الجنين في أحشاء الحبل؛ (٢) القرابة خاصةً من جهة المرأة. والتعبير «أولو الأرحام» أو «ذوو الأرحام» يعني الأقارب أو الأنساب. هذا التعبير في الشرع الإسلامي يُقصد به أولئك الأقارب الذين لا حق مباشر لهم في الميراث (معجم لين).

بُعُولَةٌ: مثل بعول وهي جمع بعل. يُقال بعل الرجل أي صار زوجاً. بعلت المرأة: تزوجت وأصبح لها زوج. بَعْلٌ: مثل زوج وتستخدم لكليهما، أي الزوج أو الزوجة ولكن تستخدم أكثر في حق الزوج. أيضاً كلمة «بَعْلٌ» تعني أيضاً: الرَّب والسيد ومالك الشيء؛ أو الشخص المسؤول. وأحياناً يطلق العرب كلمة «بعل» على أوثانهم (معجم لين ومفردات الراغب).

المَعْرُوف: من الكلمات العربية الشهيرة ولقد استخدمت بكثرة في القرآن الكريم والحديث الشريف أيضاً. وهي مشتقة من عَرَفَ. يقولون عرفه بمعنى: عَلِمَهُ إمّا بواسطة حواسه الخمس أو بالإدراك عن طريق التفكير أو التقدير؛ أو ميّزه. المعروف يعني: (١) المشهور؛ (٢) العمل أو الشيء الذي يُعلم خيره بالعقل؛ (٣) العمل أو الشيء الذي يُقرُّ الشرع خيره؛ (٤) الخير والشفقة والإحسان؛ (٥) التسامح المقترن بالاعتدال؛ (٦) الصحبة الطيبة والرفق بالأهل والآخرين؛ (٧) النصيحة المخلصة الآمنة،..

إلخ (معجم لين). ومما هو جدير بالملاحظة أنه عند أخذ عهد البيعة ممن يريدون الدخول في الإسلام، كان الرسول الكريم ﷺ يستخدم كلمة «المعروف» وذلك بأن يطيعوه في كل ما يأمرهم به من معروف. وذلك يعني أن عليهم طاعته ليس فقط في الأوامر الإلهية التي تُقام عليها الشريعة، بل فيما يراه هو ﷺ أيضاً من الخير.

درَجَة: تعني: (١) السُّلَم أي ما يُتخطى عليه من الأدنى إلى الأعلى في الصعود؛ (٢) المنزل في الشرف؛ (٣) السمو؛ (٤) الطبقة من المراتب (أقرب الموارد).

التفسير:

نظراً لأن أبغض الحلال عند الله الطلاق (أبو داود)، فقد أحيط الطلاق بالكثير من القيود والحدود. وأحد هذه القيود هو أن الرجل لا يستطيع أن يطلق زوجته إلا إذا كانت قد تطهرت بعد انتهاء الحيض، ولم يحدث له أن يكون قد عاشرها في فترة طهرها. وبعد أن ينطق الزوج بالطلاق، تنتظر الزوجة ثلاث حيضات، أي ما يقرب من ثلاثة أشهر، وتُعرف هذه المدة باسم «العدة»، أي مرحلة الانتظار. وهذا قيد آخر على الطلاق، لأن مرحلة الانتظار هذه تعطي الفرصة للزوج أن يعاود التفكير في الإيجابيات والسلبيات لقراره وعمله، كما أنها تتيح لمشاعر الحب بينهما أن تتأكد، إذا كان في مكان ما من قلبه جذوة من حب لا تزال مشتعلة. والقيد الثالث المذكور في هذه الآية، هو أن المرأة المطلقة إذا كانت حاملاً، فلا يصح لها أن تكتم هذه الحقيقة عن زوجها، لأن لمولد الطفل المرتقب أثر كبير في تحقيق الصلح بين الزوجين. والقيد الرابع المذكور في الآية التالية، هو أن الطلاق النهائي الذي لا رجعة فيه، لا يقع إلا بعد وقوع الطلاق الرجعي ثلاث مرات. فبعد وقوع الطلاق الأول والطلاق الثاني وقبل انقضاء مرحلة الانتظار، يمكن للزوج أن يراجع زوجته إذا أراد. وحتى بعد انقضاء العدة أو مرحلة الانتظار، يمكن للزوجين أن يتراجعا بعد وقوع الطلاق الأول والطلاق الثاني، وذلك بتجديد عقد الزواج.

وتضيف الآية أنه فيما يتعلق بالحقوق الشخصية، يقف الزوج والزوجة على قدم المساواة. وأمّا في المسائل التنظيمية، يكون للزوج الحق على الزوجة؛ كما في حالة وقوع خلاف بين الزوجين مثلاً، فتكون الكلمة الأخيرة للزوج. وقد جاءت الأسباب في ذلك في الآية ٣٥ من سورة النساء.

وقد جاءت صفة الله تعالى «العزیز» في نهاية الآية، لتكون تذكراً ونذيراً للزوج، أنه ينبغي ألا يسيء استخدام سلطته في بيت الزوجية، لأنّ هناك إلهاً عزيزاً فوق رأسه، ولأنّه مسؤول عن كل أعماله أمامه ﷻ. وصفة «العزیز» التي تعني القوي القدير، تشير أيضاً إلى السبب في إعطاء السلطة للزوج، الذي هو الطرف الأقوى بين الزوجين. وصفة «الحكيم» جاءت لتبين للزوج أنّ منحه حقّ الكلمة الأخيرة في شؤون الأسرة، إنما كانت لاعتبارات حكيمة وعادلة، لأنه حينما يقيم شخصان أو أكثر سوياً، فلا بدّ أن يُعين الأكثر حكمة بينهم ليكون أميراً، وذلك لضمان كفاءة إدارة الأمور، واستمرار توافق أعمالهم.

ويحسن أن نذكر هنا شيئاً عما تعنيه كلمة «قرء» وجمعها ﴿قُرُوءٌ﴾. فكما جاء في شرح هذه الكلمة تحت «شرح الكلمات»، هناك معنيان مختلفان ومتضادان لهذه الكلمة؛ إذ أنها تعني: (١) فترة الحيض؛ (٢) فترة الطهارة من الحيض. وقد أدّى ذلك إلى كثير من الاختلاف بين آراء علماء الفقه المسلمين. فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، من بين صحابة الرسول ﷺ، وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل، من بين أئمة المذاهب الفقهية، يرون أن كلمة «قرء» في القرآن المجيد تعني «فترة الحيض». وعلى العكس من ذلك، فإن السيدة عائشة وابن عمر رضي الله عنهما، من بين الصحابة، ومالك والشافعي، من بين أئمة الفقه، كانوا يرون الرأي الآخر (البحر المحيط). ولما كانت الآراء متعادلة بهذا الشكل، فيمكن للمسلم أن يأخذ بأحد الرأيين. غير أنّ الدراسة المستفيضة للموضوع وللأدلة المرتبطة به، والتي لا يمكن ذكرها هنا، تُبين أنّ الرأي الأول ربما يكون أقرب للصحة. وإذا أراد المرء أن يكون على يقين من سلامة التصرف، فعليه أن يأخذ كلمة «قرء» لتعني فترة الحيض وفترة الطهارة معاً، أي الشهر بأكمله.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا
بِمِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا
حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣٠﴾

شرح الكلمات:

إِمْسَاكٌ: مشتقة من أمسك المشتقة من مَسَكَ. يقولون أمسك به أي اعتصم به. و«أمسك» فعلٌ مُتَعَدٍّ ولازِمٌ أيضاً. أمسكه: قبضه وحبسه ومنعه. أمسك عن الكلام أي سكت. إمساك تعني: (١) القبض أو المنع أو الحبس؛ (٢) الإحجام والامتناع (أقرب الموارد).

تَسْرِيحٌ: صيغة المصدر من سَرَحَ المشتقة من سَرَحَ. يُقال سرحت المواشي أي ذهبت ترحى. سرح السيل: جرى جرياً سهلاً. سَرَّحه: أرسله وأطلقه. سَرَّح فلان زوجته أي طلقها (أقرب الموارد).

حُدُود: جمع حدّ. حدّه أي دفعه ومنعه. حدّ الشيء عن الشيء: ميّزه عنه. الحدّ تعني: (١) الحاجز بين شيئين؛ (٢) منتهى الشيء؛ (٣) تعريف الشيء الجامع لكل أفرادها والمانع لكل ما ليس منه؛ (٤) العقوبة على ذنب أو جرم. «حدود الله» أي أحكامه الشرعية (أقرب الموارد).

التفسير:

تحتوي هذه الآية الكريمة على القيد الخامس من القيود المفروضة على الطلاق. فإذا أراد الرجل أن يطلق زوجته طلاقاً بائناً، أي لا رجعة فيه، فعليه أن يطلقها ثلاث مرات، وفي كل مرة ينبغي أن تكون الزوجة في مرحلة طهرها، ولا يكون الزوج قد جامعها في تلك المرحلة. ومجرد التفوّه بالطلاق مرتين أو ثلاث مرات في نفس الوقت، ليس مسموحاً به، كما تبين كلمة ﴿مَرَّتَانِ﴾ التي تعني حدوث الشيء مرتين في مناسبتين منفصلتين، وليس تكرار الشيء مرتين في نفس الوقت. وقد اعتبر الرسول ﷺ هذا التفوّه المتكرر بالطلاق، مهما كان عدد مرّاته، طلاقاً واحداً (الترمذي وأبو داود). ويذكر النسائي أن الرسول ﷺ غضب غضباً شديداً حين علم أن أحد الأشخاص قد نطق بالطلاق ثلاث مرات في نفس الوقت وقال ﷺ: "أَيُّلَعْبُ يَكْتَابُ اللَّهُ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ" (كتاب الطلاق).

بعد الطلقتين الأولى والثانية، يمكن للزوج أن يراجع زوجته خلال العدة، أي في مرحلة الانتظار، سواء كان ذلك بموافقتها أو بغير موافقتها. أما إذا انقضت عدتها فلا يستطيع أن يراجعها إلا بموافقتها، أي بعد إعادة عقد زواجها. أما بعد الطلاق الثالث فإن الزوج يفقد هذا الحق، ويقع الانفصال نهائياً بين الزوجين. وقد حدث أن سأل أحد الصحابة الرسول ﷺ قائلاً: «إن القرآن يذكر أن الطلاق هنا مرتان فقط، فأين جاء الطلاق الثالث؟» فأجاب الرسول ﷺ قائلاً: "﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحِي بِإِحْسَانٍ﴾"، فبذلك بين حضرته ﷺ أن الثالثة إنما هي قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِحِي بِإِحْسَانٍ﴾. مما يعني أن بعد وقوع الطلاق مرتين يكون من حق الزوج أن يراجع زوجته إذا شاء. أما إذا أراد أن انفصل عنها انفصلاً دائماً فعليه أن «يسرحها» أي يطلقها للمرة الثالثة. (جرير ومسند ابن حنبل). والآية التالية تزيد الموضوع وضوحاً، وعلى ذلك فإن كلمة ﴿تَسْرِحِي﴾ تعني الطلاق.

وتبين الآية الحالية أيضاً أنه إذا طلق الرجل زوجته، فإنه يفقد حقه في استرداد المهر الذي دفعه لها. وإن طلق الرجل زوجته ولم يكن قد دفع لها كل المهر الذي اتفق الطرفان عليه، فيتعين عليه أن يدفع لها بقية المهر قبل أن يقع الطلاق. وكذلك ليس

من حق الزوج أن يسترد شيئاً من الهدايا أو الهبات التي يكون قد أعطاها لزوجته، كما تقول الآية ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾.

أما إذا كانت الزوجة هي التي تطلب الانفصال عن الزوج، وهو ما يعرف باسم «الخلع»، فلها أن تحصل عليه من خلال القاضي، كما تشير بذلك كلمة «خِفْتُمْ» التي جاءت في صيغة الجمع. وفي هذه الحالة يتحتم عليها أن تتنازل عن جميع مهرها أو على جزء منه، وكذلك عن الهدايا التي تكون قد تسلمتها من زوجها؛ وذلك حسب ما يتفق عليه الطرفان، أو ما يحكم به القاضي. وتقدم حالة «جميلة» زوجة «قيس بن ثابت» مثلاً على حق المرأة في هذا الخلع. فقد طلبت جميلة الانفصال عن زوجها بغير جريرة منه، سوى أنها لم تستطع الاستمرار في الزواج منه. وقد قضى النبي ﷺ بأن تحتلع منه، على أن ترد له الحديقة التي كان قد أعطاها إياها مهرًا (البخاري). غير أن هذا الحق يجب ألا يمارس باندفاع أو بغير اكتراث. لقد استنكر الرسول ﷺ تصرف المرأة التي تطلب الانفصال عن زوجها بغير سبب معقول، كما أدان أيضاً تصرف الرجل الذي يطلق امرأته دونما سبب يضطره لذلك. فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَأْحَةُ الْجَنَّةِ» (أبو داود والترمذي). وهذا هو ما تشير إليه الآية الكريمة في نهايتها، أي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فهي تحذر كلاً من الزوج والزوجة أن يتقيا الله تعالى، ولا يتعديا حدود الله التي وضعها سبحانه لما فيه خيرهما.

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ
زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ
يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

يَتَرَجَعًا: مشتقة من رجع بمعنى عاد. وتفيد هذه الكلمة هنا عودة الناس لبعضهم بعضًا بعد تفرقهم، كما يُقال تراجع القوم أي رجعوا إلى مواضعهم من حيث تركوها (أقرب الموارد).

يُقِيمًا: مشتقة من أقام بمعنى عدّله وأصلح ميله؛ أطاع أو نفّذ الواجبات والأوامر الدينية كما ينبغي،.. إلخ (معجم لين). انظر أيضًا الآية ٤ من نفس السورة.

تَنْكِحَ: مشتقة من نَكَحَ. يُقال نَكَحَ أو نَكَحت بمعنى: (١) الزواج وهو المعنى الأصلي؛ (٢) الجماع. وفي الآية التي نحن بصددّها، المعنى الثاني هو المقصود. انظر أيضًا الآية ٢٢٢ من نفس السورة.

التفسير:

تتعلق هذه الآية الكريمة بالطلاق الثالث، الذي يفقد الرجل بعده جميع حقوقه في مراجعة زوجته، ما لم تتزوج المرأة المطلقة من رجل آخر، وتمارس معه العلاقة الزوجية، ثم يتم طلاقها من بعد ذلك، أو يموت الزوج ويتركها لتتزوج رجلًا آخر. وبهذا الإجراء، فقد حفظ الإسلام قدسية الزواج، وحرّم التقليد الفاسد باستعمال «المحلل»، وأتاح في نفس الوقت الفرصة للرجل والمرأة اللذين كانا يعيشان يومًا ما كزوج وزوجة، أن يستأنفا حياتهما معا إذا أرادا ذلك. وتقليد «المحلل» المشار إليه فيما سبق، هو أنّ المرأة التي تم طلاقها ثلاث مرات، تتزوَّج رجلًا بنية أن يطلقها، لكي تتمكن من الزواج من زوجها السابق. والإسلام يدين هذا التقليد باعتباره ملعونًا. فلقد ورد أن رسول الله ﷺ: «لَعَنَ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ» (الترمذي - النكاح). ويأمر الإسلام أن يكون الزواج برجل آخر زواجًا حقيقيًا.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا
آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
يَعْظُمُ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣٦﴾

شرح الكلمات:

بَلُغْنَ: مشتقة من بلغ وتعني: وصل إليه؛ أو شارف عليه أو منه؛ أو قاربه؛ أو أدركه (أقرب الموارد ومعجم لين).

أَجَل: صيغة المصدر من الفعل أَجَلَ أي تأخَّر. أَجَلَ الشيء أي ضرب له أجلاً. لذا فكلمة «أجل» تعني: مدة الشيء ووقته الذي يحلُّ فيه؛ غاية الوقت ونهايته. ويسمى الموت «الأجل» لأن لكل حياة هناك وقت محدد لا بد أن تنتهي عنده (أقرب الموارد ومعجم لين).

يَعْظُمُ: يعظ مشتقة من وعظ. وعظه تعني: نصحه وذكره ما يُلِّين قلبه من الثواب والعقاب (أقرب الموارد).

التفسير:

تحتوي هذه الآية الكريمة على توجيه عام فيما يختص بمعاملة المطلقات من النساء. وكما يبدو جلياً من السياق، فإنّ الطلاق المذكور هنا هو الطلاق الرجعي. وبعد وقوع هذا الطلاق، هناك طريقان فقط يمكن أن ينتهجهما الزوج؛ إمّا أن يُبقي على الزوجة ويعاملها بالمعروف، وإمّا أن ينفصل عنها بإحسان. ومن غير المسموح به للزوج أن يسيء معاملة زوجته، أو أن يبقّيها عدواناً كالمعلقة. والجزء الأخير من الآية يحذّر الزوج من الاستخفاف بأوامر الله تعالى التي تختصّ بحقوق النساء، كما أنه يُذكر ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي يعلم النيات التي في القلوب، كما يعلم ما يكيده الإنسان سرّاً.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبُغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا
تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا
تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ
مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَُمُ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٣﴾

شرح الكلمات:

تَعْضُلُوهُنَّ: مشتقة من عَضَلَ. يُقال عَضَلَهَا أي منعها وحرّمها من الزواج. الفعل «عضل» يشير إلى: المنع أو الحظر أو التضيق أو الحرمان. عَضَلَ عليه تعني: ضَيّق عليه ومنعه من ما يريد (تاج العروس).

تَرَاضَوْا: مشتقة من رضي بمعنى سُرَّ أو قَنِعَ أو قَبِلَ. تراضى القوم أي قبلوا ما اتفقوا عليه فيما بينهم أو توصلوا إلى اتفاق مشترك (أقرب الموارد).

أَزْكَى: مشتقة من زكا وتعني: نما وزاد؛ باركه الله وطهره؛ صار زكياً أي طاهراً. لذا فكلمة «أزكى» تعني: أكثر بركةً وأنفع وأطهر (أقرب الموارد).

التفسير:

إن كلمة ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ التي جاءت في هذه الآية، يمكن أن تنطبق على الأزواج السابقين أو على أزواج المستقبل. وفي الحالة الأولى يعود قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ إلى الطلاق الأول أو الثاني. إذ يحدث في بعض الأحوال، أن يريد الرجل مراجعة زوجته قبل الطلاق البائن الثالث، ولكن أقاربها الذين يشعرون بالمهانة، يرفضون أن تعود ابنتهم لزوجها، ولذلك يعملون على منع زواجها منه، والآية الكريمة تدين هذا التصرف. أمّا إذا كانت كلمة ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ تتعلق بأزواج المستقبل، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، يعود إلى الطلاق البائن الذي لا رجعة فيه، وهو الطلاق الثالث. ويحدث أيضاً أنّ بعض الرجال الذين يطلقون زوجاتهم طلاقاً بائناً، لا يحبّون أن تتزوج المرأة المطلقة من بعدهم شخصاً آخر، فيعملون على منع زواجها، والآية الكريمة تدين أيضاً هذا التصرف. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. وإذا منع الولي امرأة من أن تتزوج من زوجها السابق، أو إذا منعها الزوج السابق من أن تتزوج زوجاً آخر، فلها أن تتزوج بإذن من القاضي. والآية تستنكر أيضاً المسلك الفاسد الذي يتبعه بعض الناس بنطق الطلاق ثلاث مرات في نفس الوقت، فلو كان مسموحاً بمثل هذا التصرف لما كان هناك فرصة للزوجة أن تتزوج زوجها السابق كما تذكر الآية.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ
كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَ وَعَلَى

الْمَوْلُودَ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا
تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا
وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا
أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

شرح الكلمات:

يُرْضَعْنَ: مشتقة من رضع أي امتص الثدي والمصدر «رضاعة». أرضعت: أعطت ثديها للطفل ليرضع. استرضع: طلب مُرْضِعَةً. يقال: «هذا أخي من الرضاعة» أي الذي رضع من ثدي نفس المرأة التي رضعت أنا منها (أقرب الموارد ومعجم لين).

حَوْلَيْنِ: مثنى حَوْل أي سنة. وكلمة «حَوْل» هي صيغة المصدر من الفعل حال بمعنى: مضى وتمّ؛ أو تغير من الاستواء إلى العوج. وتُسمى السنة «حول» لأنها تُحَوِّلُ أي تمضي. و«حول» تعني أيضاً: القوة والقدرة على التصرف كما في القول المعروف «لا حول ولا قوة إلا بالله» (أقرب الموارد).

وُسْعَهَا: مشتقة من وَسَعَ بمعنى كثر حتى وُفِّي. «وَسَّعت رحمة الله كل شيء» أي أحاطت رحمته بكل شيء. الوُسْع تعني القدرة أو الطاقة، والمصدر: «السعة» وتعني الاتساع؛ الجِدَّة؛ الطاقة. «ذو سعة» أي رجل ذو مقدرة أو ذوق قوة (أقرب الموارد).

تَكَلَّفَ: مشتقة من كَلَفَ. يُقال كَلَّفَهُ أَمْرًا بمعنى حَمَلَهُ أو أَلْزَمَهُ بِهِ. وتعني أيضًا أمره بشيء شاقٍ عليه (معجم لين).

فِصَال: مشتقة من فَصَلَ وهو فعلٌ مُتَعَدٍّ ولازمٌ أيضًا ويعني قطع وأبان أو أفرز وماز؛ أو تميز أو انفصل أو انقسم. فصلت المرأة رضيعها أي فطمته. «هذا يوم الفصل» أي هذا اليوم الذي يُفصل فيه بين الفريقين أي بين الذين عملوا الصالحات وأولئك الذين اقترفوا السيئات. «فصال»: فطم الولد (تاج العروس).

تَشَاوَرُ: مشتقة من شار. يُقال شار العسل أي استخرج العسل من الوقبة. شار الدابة: ركبها عند العرض على مشترئها واختبرها وقلَّبها. «أشار» بالإضافة إلى أنها تعطي نفس معاني «شار»، إلا أنها تعني أيضًا جعل الشيء معروفًا؛ أو أومأ إلى الشيء؛ أو أمره بشيء وارتآه له ويُنَّ له وجه المصلحة ودلَّه على الصواب. شاوره: طلب منه المشورة. تشاورا: استشار أحدهما الآخر. «مشورة» و«شورى» تفيد نفس الشيء أي التشاور (أقرب الموارد).

التفسير:

إذا طُلِّقَت امرأة وهي حامل، فمن الطبيعي أن يثور موضوع رضاعة المولود ونفقات تربيته. وتقدّم الآية الحالية الإجابة على هذه التساؤلات. وهي تشير إلى أنّ رضاع الطفل يجب أن يستمر سنتين على أقصى تقدير، ولكن من الممكن أن يتوقّف الرضاع قبل انتهاء هذه المدة، إذا وافق كلّ من الأم والأب. والآية تومئ أيضًا إلى أن الطفل يجب ألا يُفطم قبل انتهاء مدة السنتين إلا بموافقة أمه.

وكلمة ﴿لَا تُضَارَّ﴾ جاءت في صيغة تفيد المبني للمعلوم والمبني للمجهول. وعلى ذلك، فإنّ قوله تعالى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا﴾ يمكن أن يعني: (١) أنّ الأم لا تتسبّب في الإضرار بالأب بسبب الطفل؛ (٢) أنّ لا تُضار الأم بسبب وليدها. وكل من المعنيين صحيح وسليم. وقد جاء قوله تعالى: ﴿مَوْلُودٌ لَهُ﴾ وهو يعني الشخص الذي

وُلِدَ له الوليد، بدلاً من استعمال الكلمة الأسهل وهي كلمة «والد»، وذلك لبيان حق الأب في ولده ومسؤوليته في الإنفاق عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ يشير إلى مبدأ اجتماعي هام. فإذا حدث أن تُوفي الوالد وترك طفلاً، فإن على الورثة أن يتولوا تربية الطفل والإنفاق عليه، إلى أن يبلغ الحُلُم. ويجب ألاّ يعتبر هؤلاء أنّ هذا العمل منّة يمتّون بها على الطفل، وإنما هو واجب عليهم. إنّ الشخص الذي يرث إنساناً تُوفي وترك ذريّة، يتعيّن عليه أن يتولى تربية هذه الذريّة. وكل من تلقى معونة من أحد، عليه أن يكون مستعداً لأن يردّ إليه تلك المعونة، إذا كان في حاجة إليها.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا
يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا
فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا
فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٥﴾

شرح الكلمات:

يُتَوَفَّوْنَ: مشتقة من تَوَفَّى المشتقة من وفى. يُقال وفى بالعهد أي أتمّه وحافظ عليه. وفى فلاناً حقه: أعطاه إياه وافيّاً تامّاً. «أوفى» تفيد نفس معنى «وفى» و«وفى». تَوَفَّى: أخذه كاملاً تامّاً، كما يُقال تَوَفَّى حقه أي أخذه وافيّاً. تَوَفَّى الله زيداً: قبض روحه. تُوفِّي فلان: قُبِضَتْ روحه ومات، فالله المتوفّي والعبد المتوفّي. الوفاة تعني: الموت (أقرب الموارد). يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ (سورة الزمر: ٤٣). إن قواعد اللغة العربية - مدعومة ومؤيدة بما جاء في القرآن

الكريم - قد بينت بلا أدنى شك أنه حيثما كان الله تعالى هو الفاعل والمفعول به أي كائن به روح، فإن كلمة «توفى» لا معنى لها إلا قبض الروح أي الموت.

التفسير:

بعد تناول موضوع زواج السيدات المطلقات، يتناول القرآن المجيد في هذه الآية موضوع الأرمال. إنَّ عدّة الأرملة أربعة أشهر وعشرة أيام، وهي تساوي تقريباً أربعة مراحل من الحيض والطهارة مجتمعة. وقد حدّد الإسلام مدة أطول للعدة بالنسبة للأرملة، وذلك احتراماً لمشاعرها نحو زوجها المتوفى، وبذلك يكون الإسلام قد أكد على كرامة ووقسية رباط الزواج.

وتدين الآية أيضاً موقف أولئك الذين يستنكرون الزواج من أرملة أو من أرملة، ظانين أنّ في مثل هذا الزواج إهانة للعائلة، أو انتهاكاً لكرامة المرأة الأرملة. وكلمة ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ تدلّ على أنّ زواج الأرملة ليس مسموحاً به فقط، وإنما من الأفضل ومن المستحسن أن تتزوج. فمن الواضح أنّ الكلمات ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ تشير إلى الزواج. وفي مكان آخر يحضّ القرآن المجيد على تزويج الأرمال فيقول: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ (النور: ٣٣).

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ
النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ
سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا
أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ
حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٦﴾

شرح الكلمات:

عَرَضْتُمْ: مشتقة من عَرَضَ. عَرَضَ شيئاً أي: أبداه وأظهره. عَرَضَ أمراً أي: ذكره بطريقة تحمل معانٍ مختلفة؛ أو ذكره بطريقة مستترة غير صريحة؛ أو استخدم كلمات للتعبير عن شيء لا تعبر عنه هذه الكلمات بدقة ووضوح (معجم لين).

خُطْبَةٌ: مشتقة من خَطَبَ وتعني ألقى خطبةً أو وعظ. خَطَبَ المرأة: دعاها إلى التزوّج. خُطْبَةٌ: ما يُخْطَبُ به من الكلام. خُطْبَةٌ: طلب المرأة للزواج (أقرب الموارد).

أَكْنَنْتُمْ: مشتقة من كَنَ. يُقَالُ كَنَ الشيء أو أَكْنَنَ الشيء: ستره وغطاه وأخفاه. الْكِنان: وقاء كل شيءٍ وستره، و«مكنون» أي مستور أو مخفي (أقرب الموارد).

عُقْدَةٌ: صيغة المصدر من عَقَدَ أي: أحكم وشدّ. عَقَدَ الحبل: شدّه وأحكمه وهو نقيض حلّه. «عُقْدَةٌ»: الرباط، أي العهد الذي يربط أو يصل بين اثنين؛ أو عقد الزواج (أقرب الموارد).

التفسير:

حسب هذه الآية، لا يصحّ للمرء أن يتقدّم للزواج من أرملة أثناء فترة عدّتها، بل على من يرغب في الزواج من أرملة أن يكتُم رغبته عنها. ولا مانع من أن يذكر بطرف خفي عابر، وبشكل غير مباشر، مجرد إيماءة تدل على نيّته، ولكن لا يصح له بأي حال أن يذكر علانية أو يفتّح الأرملة أو حتى يسرّ إليها برغبته في الزواج. وإذا حدث هذا، فمن الواجب على الأرملة أن تمتنع عن إعطاء الإجابة على طلب الزواج خلال فترة عدّتها، بل عليها أن تظل صابرة لمدة أربعة أشهر وعشرة أيام إلى أن تنقضي عدّتها،

وذلك احتراماً لذكرى زوجها الراحل، وحتى يتبين ويظهر حملها إن كانت حاملاً، لأنَّ الأرملة الحامل لا يجوز لها أن تتزوج إلى أن تلد طفلها.

وكلمة ﴿فَاخْذِرُوهُ﴾ تفيد تحذير الناس من معصية هذه الأوامر الإلهية، التي تهدف إلى خيرهم. وإن لم يضع الله تعالى هذه القواعد، لانهارت كل قواعد النظام الاجتماعي.

وفي نهاية الآية الكريمة جاء وصف الله تعالى بأنه ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾. غير أن هذا لا يعني أن من يتجاوز هذه الحدود فسيجد أن الله ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، وإنما مقتضيات الظروف كانت تتطلب قواعد وروابط أشدَّ صرامة، ولكن الله تعالى عليم بالضعف الإنساني، ولذلك فلا بد من اتباع هذه القواعد التي وضعها الله تعالى، بأمانة وشرف ودون أي تقصير.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ
تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ
عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٧﴾

شرح الكلمات:

مَتِّعُوهُنَّ: مشتقة من مَتَعَ. يُقال مَتَعَ الشيء أي طال. مَتَعَ الرجل: جاد وظرف. مَتَعَ الله فلاناً: أطال عمره. مَتَعَ المرأة المطلقة: أعطاهها متعة، أي ما يلزمها من تكاليف الحياة. استمتع أو تمتع به أو منه: انتفع به أو منه زماناً طويلاً. المتاع: كل ما ينتفع به من عروض الدنيا بدون بذخ؛ أو كل ما ينتفع به من الحوائج كالطعام وأثاث البيت والأدوات والسلع والملابس،.. إلخ (أقرب الموارد ومعجم لين).

الْمُقْتَر: مشتقة من قَتَرَ. يقولون قَتَرَ على عياله أي ضيق عليهم في النفقة. أقتر الرجل: قلَّ ماله وافتقر. المقتر: الفقير أو من ضاق عليه الحال (أقرب الموارد).

التفسير:

يحدث أحياناً أن يرغب الرجل في أن يطلق زوجته قبل الدخول بها، وأحياناً قبل تحديد المهر، أو قد تضطره ظروف معينة لذلك. والآية تسمح بهذا الإجراء، ولكن في هذه الحالة يتعين على الزوج أن يدفع للزوجة المطلقة فريضة مالية حسب قدرته. وعلى هذا فإن الإسلام لا يعمل فقط على تعويض الزوجة المطلقة، وإنما يعمل أيضاً على إزالة أي أثر للمرارة التي تنتج دائماً بسبب انهيار الزواج. وكلمة ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، أي أولئك الذين يتصرفون بإحسان، تحت الزوج على التصرف بإحسان نحو زوجته المطلقة، لأن ذلك يجلب مرضاة الله تعالى.

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ
وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا
أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ
وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ
بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٨﴾

شرح الكلمات:

يَعْفُو: مشتقة من عفا وتعني: (١) أعطى أكثر مما هو واجب عليه؛ (٢) تنازل عن حقه كله أو جزء منه (تاج العروس). انظر أيضاً الآية ٢٢٠ من نفس السورة.

التفسير:

وإذا حدث أن وقع الطلاق قبل الدخول بالزوجة ولكن بعد أن تحدّدت قيمة المهر، فينبغي على الزوج أن يدفع لزوجته المطلقة نصف المهر. ويعود قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْقُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ على الزوج أو على وليّ الزوجة المطلقة. لأن بعد الزواج تكون عقدة الزواج في يد الزوج، بينما تكون في يد وليّ المرأة قبل الزواج. وفي الحالة الأولى تعني كلمة ﴿يَعْقُوَ﴾ أنه ينبغي على الزوج أن يحاول دائماً إعطاء زوجته ما يزيد على نصف مهرها، وإن كان قد دفع المهر بأكمله لزوجته فمن الأفضل ألا يطالب باسترداد نصفه. أما إذا اعتبرنا أن قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْقُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ يعود على وليّ الزوجة، فإن كلمة ﴿يَعْقُوَ﴾ تعني أنه ينبغي عليه أن يحاول أن يتنازل عن حق الزوجة المطلقة في نصف المهر المقرر لها. غير أن الله تعالى يحب أن يتّصف الزوج بالكرم أكثر من غيره.

هذا هو ما يحثّ عليه القرآن المجيد كلّ طرف على أن يتنافس في التصرف بكرم نحو الطرف الآخر، فهو يحثّ الزوج على أن يدفع أكثر مما هو مفروض عليه، ويحثّ الزوجة أو وليّها على التنازل عن الحق المقدّر لها. وإذا طبّق الناس بإخلاص هذه الروح، لتحوّلت الأرض إلى جنة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ينطبق على الأزواج على وجه الخصوص، ولكن يمكن أن ينطبق على الجميع أيضاً: الزوج والزوجة والولي، بشكل عام.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى
وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٩﴾

شرح الكلمات:

حَافِظُوا: مشتقة من حَفِظَ. يُقال حَفِظَهُ أي منعه من الضياع والتلف. حَفِظَ القرآن: استظهره

أي حفظه عن ظهر قلب. حافظ على الأمر: راقبه وراعاه؛ واطب عليه (تاج العروس)

قَانِتِينَ: مشتقة من قَنَتَ (راجع الآية ١١٧ من نفس السورة). وكلمة «قَنَتَ» - بالإضافة

لمعانيها الأخرى - لها ثلاثة معانٍ مهمة أخرى: (١) وقف ثابتاً بلا حراك؛ (٢) أمسك

عن الكلام؛ (٣) خضع وأذعن (معجم لين). تنطبق كل هذه المعاني على الآية التي نحن

بصددها.

التفسير:

للوهلة الأولى تبدو هذه الآية في غير محلها، حيث إنها جاءت وسط الآيات التي

تتحدث عن العلاقات الزوجية، رغم أنها تتحدث عن أهمية تأدية الصلوات.

ولكن السياق نفسه يكشف عن فلسفة عميقة لهذه الآية الكريمة. فبعد الزواج،

يحدث أن يميل المرء قليلاً إلى التساهل في تأدية الصلوات، وخاصة أداء صلاة

التهجد التي تؤدى في الثلث الأخير من الليل. وبالإضافة لذلك، فإن الحياة الأسرية

تضاعف من اهتمامات كل من الرجل والمرأة. ومن هنا كانت ضرورة حث الأزواج

على أداء الصلوات بحرص وفي أوقاتها.

وهناك الكثير من التفاسير لشرح المقصود من «الصلاة الوسطى». فيرى بعض المفسرين

أنَّ المقصود بالصلاة الوسطى هو صلاة التهجد، بينما يرى البعض الآخر أنها صلاة

الصبح، ويرى آخرون أيضاً أنها صلاة العصر. وهناك بعض الأحاديث الشريفة تؤيد أنها

صلاة العصر. فقد ورد أنه لما فات الرسول ﷺ أداء صلاة العصر عندما كان منشغلاً في

صد الهجمات المتوالية للعدو في غزوة الخندق، فاضطر أن يؤدي صلاة العصر مع صلاة

المغرب، فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَلَأَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ

نَارًا كَمَا سَعَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ». (البخاري - كتاب المغازي).

وفي الواقع، إن الصلاة الوسطى هي الصلاة التي تتوسط وقت انشغال الإنسان. وفي

الحديث المذكور، اعتبر الرسول ﷺ صلاة العصر هي الصلاة الوسطى لأن صلاة العصر هي التي كانت تتوسط وقت انشغاله الشديد. وقد ذكر القرآن المجيد هذه الآية في هذا الموضوع لسببين؛ أولاً: أن الحياة الزوجية، أو أية حياة مهما كانت مشاغلاً، يجب ألا تدفع المرء إلى التراخي في أداء الصلوات؛ وثانياً: كما هو الحال مع هذه الآية، الصلاة الوسطى هي الصلاة التي تتوسط أموراً لا تتعلق بأداء الصلاة. إن القرآن المجيد فريد في استخدام هذا الأسلوب، غير أنه أسلوب طبيعي.

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ بالإضافة إلى أنه يحث المرء على التركيز في أداء الصلاة، فإنه يحثه أيضاً على أن يراعي أموراً ثلاثة: (١) أن يمتنع عن الكلام؛ (٢) أن يقف ثابتاً ويمتنع عن أداء أي حركات؛ (٣) أن يكون مظهره العام في قنوت وخضوع لله تعالى. وإن فقدان هذه الأمور يؤثر تأثيراً عكسياً على تركيز المرء في أداء الصلاة، ويُنقص من قدسية تأدية العبادة.

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ
تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤٠﴾

شرح الكلمات:

رِجَالٌ: جمع راجل (الذي يمشي على قدميه) مشتقة من رَجَلَ أي مشي. ورجل تعني قدم. رَجُلٌ: خلاف المرأة، وسمي هكذا لأنه يمشي على رجليه فقط وليس على يديه ورجليه كذوات الأربع (معجم لين).

رُكْبَانٌ: جمع راكب المشتقة من رَكَب أي علا المطية أو ما يحمله. ركبت الفرس أي امتطيته. ركب الرجل البحر: سافر فيه. ركب ذنباً: اقتطفه (معجم لين).

التفسير:

إن الصلوات الخمس تُشكل أهم عبادة في الإسلام، ولا توجد أي ظروف تسمح للمسلم أن يترك تأدية الصلاة طالما أنه كان عاقلًا ومُدركًا. حتى ولو كان المرء يتحرك تحت ظروف شديدة من الخوف والرعب، فينبغي عليه ألاَّ يهمل أداء الصلاة، كما يجب عليه أن يؤدّيها وهو على صهوة حصانه أو إذا كان واقفًا على قدميه، سواء كان يجري أو كان جالسًا أو كان راقداً، مهما كانت الحال.

وفي ضوء الأهمية العظمى لهذه الصلاة، لا يليق بالزوجين التهاون في أدائها. والكيفية التي تُؤدّى فيها الصلاة في ظروف الخوف أو الخطر مذكورة في سورة النساء في الآية ١٠٢-١٠٣، غير أن الآية الحالية تتناول حالة الخوف القصوى، عندما لا يستطيع الإنسان أداء صلاة الخوف المذكورة في سورة النساء.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن الأمر الخاص بأداء الصلاة على الأقدام أو أثناء الركوب، يتعلق بظروف خاصة جداً. وحالما تتغير هذه الظروف الطارئة وتعود الظروف العادية، ينبغي على المرء أن يعود إلى تأدية الصلاة بالشكل الذي ذكرته الآية السابقة، أي أن يقوم الناس لله تعالى قانتين.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا
وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْخُلُوفِ غَيْرَ
إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤﴾

التفسير:

بعد أن انتهت هذه الآيات التي توسّطت الموضوع الذي يعالجه القرآن المجيد، كما تتوسّط الصلاة الوسطى وقت انشغال الإنسان، عاد القرآن المجيد لمعالجة الموضوع الجاري عن العلاقات الزوجية. ويعتقد البعض بطريق الخطأ أنّ الآية الحالية منسوخة بالآية ٢٣٥ من سورة البقرة والآية ١٣ من سورة النساء. وبصرف النظر عن أنّ نظرية النسخ تقوم على نقص في فهم المعنى الحقيقي للآيات القرآنية، فليس في الآيات المشار إليها عاليه ما يتناقض مع ما جاء في هذه الآية حتى يقال إنها نسختها. فزمن العدة المذكور في الآية ٢٣٥ من سورة البقرة هو أربعة أشهر وعشرة أيام. ومن حقها خلال هذه المدة أن تطالب بحق الإيواء والنفقة من ورثة الزوج. أما فترة ﴿الْحَوْل﴾، أي العام، المذكورة في هذه الآية، فلا علاقة بينها وبين فترة العدة، كما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا مِنْ مَّعْرُوفٍ﴾. فالآية الحالية تقدّم خدمة أو معروفاً للأرملة، بالإضافة إلى حقها في الإقامة والنفقة المذكور في الآية ٢٣٥. إنّ فترة السنة هي الفترة المناسبة للأرملة لتدبر شؤون معيشتها في المستقبل. وهي أيضاً الفترة المناسبة للمرأة الحامل لتضع وليدها وتتعافى من آثار الولادة. كذلك فليس لهذه الآية من علاقة بنصيب الزوجة في ميراث زوجها الذي نصّت عليه الآية ١٣ من سورة النساء. فإنّ المعروف الخاص بالإقامة والنفقة المذكور في هذه الآية، لا يشكل أيّ جزء من نصيبها في تركة زوجها، فهذه الآية لا تحتوي على أمر مفروض، ولكن على إضافة تحضّ الورثة على أن يكونوا أكثر كرمًا ورحمة بالأرملة لمدة عام، تمامًا كما تحتوي الآية التالية حضًّا على الإحسان إلى المرأة المطلقة.

وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا
عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤٦﴾

التفسير:

فكما أضفت الآية السابقة فضلاً إضافياً على الأرملة، كذلك تُضفي الآية الحالية فضلاً على المرأة المطلقة. وهذا التوجيه على قدر كبير من الأهمية وخاصة للمطلقات، لأنه في اللحظات المرة، التي لا بد أن تلي ظروف إنهاء الرابطة الزوجية، يميل الناس إلى الظلم والقسوة تجاه أزواجهم السابقات. والآية تحذّر هؤلاء، لئلا تعى بصائرهم عن أمر الله تعالى في مثل تلك الظروف، إذ عليهم ألا يتصرفوا تجاه زوجاتهم المطلقات بالعدل والإنصاف فقط، وإنما بالمعروف والإحسان والكرم.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

شرح الكلمات:

تَعْقِلُونَ: مشتقة من عَقَلَ (راجع الآية ٤٥ من نفس السورة). أيضاً تعني كلمة «عَقْل»: القدرة على ربط الأمور ببعضها وكبح جماح النفس.

التفسير:

تشير هذه الآية الكريمة إلى الأوامر التي جاءت فيما سبق، والتي جاءت لتعلم الناس أن يتصرفوا بحكمة، وأن يكبحوا جماح أنفسهم، ويمتنعوا عن عقوق أوامر الله تبارك وتعالى.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ
أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ

أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٤﴾

التفسير:

إنَّ موضوع العلاقات الزوجية جاء ذكره كفرع لموضوع الجهاد الذي تناولته الآية ٢١٧ والآيات التالية لها. ويعود القرآن المجيد الآن إلى الموضوع الأصلي، وذلك بإيراد مقدمة تذكر مثلاً لبني إسرائيل الذين خرجوا من أرض الفراعنة خوفاً من الموت. إذ تحت وطأة ذلك الفرعون المستبد، صار بنو إسرائيل في حالة شديدة من البؤس والذل. وقضى الله الحكيم العليم بحكمته اللانهائية أن يقضي بنو إسرائيل زمناً من التجارب والامتحانات في البرية، قبل أن يصلحوا للحياة في الأرض المقدسة. ويشير قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إلى حقيقة عظمى، وهي أَنَّ الحياة لا بدَّ أن يسبقها الموت، وهو الابتلاءات الكثيرة والتضحيات العظيمة.

وكما سبق ذكره، إنَّ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ يعود إلى بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر هرباً من اضطهاد فرعون. لقد كان الخوف من الموت هو الذي دفع بني إسرائيل للهجرة من مصر (البقرة: ٥٠). ويتعارض قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ مع ما جاء في الكتاب المقدس، الذي يذكر أنَّ الذين خرجوا من مصر كانوا ستمائة ألف. وقد رجّحت البحوث الحديثة وجهة نظر القرآن المجيد (انظر تاريخ بني إسرائيل، ص ١٤٥، إرنست رنان، لندن ١٨٨٨، وتاريخ فلسطين واليهود، ج ١، ص ١٧٤، جون كيتو، لندن ١٨٤٤). انظر أيضاً البقرة: ٥٥.

إنَّ قصة خروج بني إسرائيل من مصر باختصار كانت كما يلي: لما اشتدَّ اضطهاد فرعون لهم، خرجوا من مصر وعبروا إلى آسيا. وطلب منهم موسى عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله تعالى لهم، ولكنهم كانوا يخشون الناس المقيمين فيها، فرفضوا أن يدخلوها قائلين: ﴿إِنَّا لَنَنذُرُهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٥). وكانت النتيجة أنهم جلبوا على أنفسهم غضب الله تعالى، الذي قال عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (المائدة: ٢٧). وبذلك تأخر تحقيق وعد الدّخول إلى أرض الميعاد لمدة أربعين سنة، وراح بنو إسرائيل يجولون تائهين في الأرض، إلى أن هلك في الصحراء جميع أولئك الذين رفضوا القتال، ونشأ جيل جديد دخلوا الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون عليه السلام. وهكذا، فإنّ هذا الشعب الذي قضى الله تعالى عليه بالهلاك، قد نال حياة جديدة نفخها الله تعالى فيه. وهذا ما قصده الله تعالى بقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾. إنّ هذا نفسه، أي هلاك الجيل الذي تمرّد على أمر الله تعالى، وتدريب الجيل الجديد من خلال المحن والابتلاءات، قد ثبت أنه هو الموت الذي يسبق الحياة. وفي مكان آخر من القرآن المجيد يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْد مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٥٧).

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أنه ابتداءً من هذه الآية الكريمة، يبدأ القرآن المجيد في ذكر «التركية»، أو وسيلة التقدم والرقى القومي، التي ذكرتها الآية ١٣٠ من سورة البقرة. وقد سبق ذكر ما يتعلق «بالآيات» و«الكتاب» و«الحكمة».

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعُلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٥﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مُوجّه إلى المسلمين الذين وعوا تحذير القرآن المجيد من أن يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، عندما رفضوا أن يقاتلوا عدوّهم لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ذلك. والآية الكريمة في هذا السياق تقول للمسلمين، إنّ من يخاف الموت لا يستحق أن ينال الحياة. وهذا هو الدرس الأول الذي يحضّ عليه

القرآن المجيد لتحقيق الرقي القومي، أي أنه يمكن للناس أن يحيا ويتقدموا، إذا هم فقط نَحُوا جانباً الخوف من الموت، أما أولئك الذين يخشون الموت فسوف يصيبهم موت ذليل يشينهم.

وربما ليس من الضروري هنا ذكر تفاصيل كيف وعى المسلمون هذا الدرس وحفظوه في قلوبهم، ولكن يكفي القول بأنه حين جاءت من مكة قوة من قريش بعدتها وعتادها، للقضاء على الحفنة الضعيفة من مسلمي المدينة عند بدر، استشار الرسول ﷺ صحابته الكرام ليعلم ما إذا كانوا على استعداد لمواجهة العدو وقتاله، فأجابوه بأنهم لن يكونوا كبنى إسرائيل الذين قالوا لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إِنَّا ههنا قاعدون، بل قالوا له إنهم سوف يحاربون العدو عن يمينه وعن شماله، ومن أمامه ومن خلفه، وأن العدو لن يصل إليه إلا إذا اجتاز على جثثهم، وأنه لو أمرهم أن يخوضوا البحر بخيولهم لخاضوه. ويذكر الحديث الذي ذكر هذه الواقعة أن الرسول ﷺ عندما سمع هذه الكلمات من صحابته أضاء وجهه الكريم بالسرور والرضا وقال لهم: "سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم" (الطبري وابن هشام).

ويشير قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى أنه برغم أن المسلمين كانوا ضعفاء يفتقدون العتاد والسلاح اللازم للقتال، فإن الله تعالى كان معهم، فهو سبحانه ﴿سَمِيعٌ﴾ لأدعيتهم، و﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
فِيضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ
وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٦﴾

شرح الكلمات:

يُقْرِضُ: مشتقة من أقرض وهي مشتقة من قَرَضَ. يقولون قرض الشيء أي قطعه. أقرضه: أعطاه قرضًا. أقرض فلانًا: قطع له قطعةً يُجَازِي عليها أو عليه رَدَّها. القرض: إعطاء القرض؛ ما تعطيه غيرك من المال بشرط أن يعيده لك بعد أجل معلوم؛ ما قدمت من إحسانٍ أو إساءةٍ تستوجب المكافأة أو العقاب (معجم لين).

يَقْبِضُ: مشتقة من قَبَضَ. يُقال قَبَضَ الشيء أي تناوله بيده أو أمسكه وضم عليه يده. قبض يده عنه: امتنع عن إمساكه. قبض الله تعالى رزقه: ضيق عليه رزقه، خلاف بسطه ووسَّعه (أقرب الموارد).

التفسير:

تذكر هذه الآية الكريمة الوسيلة الثانية لرقِّي وتقدم الأمة، وهي الإنفاق بسخاء من أجل الحفاظ على بناء الأمة وأمنها. فإذا أرادت أمة أن تعلو وتزدهر، فلا بد لها أن تنفق بسخاء وكرم من أجل الأهداف القومية، التي تتضمن تقديم المعونة للفقراء والمساكين. ويذكر القرآن المجيد أنَّ إنفاق المال في سبيل الله تعالى بمنزلة إقراض الله تعالى، مما يعني أنَّ المال الذي يُنْفَق في هذا السبيل يجب ألا يُعتبر أنه مال ضائع أو مهدور، بل يُعتبر بمنزلة قرض لله تعالى، وأنه سبحانه سوف يرده للمُقْرِضِ أضعافاً مضاعفة. غير أنه من الضروري ألا يُساء فهم كلمة «قرض»، فالله ﷻ ليس بحاجة إلى أيِّ قرض، فهو ليس فقط القيوم الغني بذاته عن سواه، وإنما هو أيضاً المغني والرزاق الكريم، الذي يرزق من يشاء بغير حساب، وهو الذي يُزَوِّد كل الأحياء وكل الأشياء بما يحتاجونه. وقد استعمل الله تعالى لفظ «القرض» لكي يبين لمن ينفق في سبيله تعالى أنه سوف يتلقى من الله ﷻ الجزء الأوفى، وأن أمواله سوف تُرد إليه أضعافاً كثيرة.

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قد جاء ليبين أنَّ الإنفاق هنا عمل اختياري، وأنَّ المال قد أنفق بنفس راضية وقلب مطمئن.

ومما يجدر ذكره أنه بالإضافة إلى الإنفاق من أجل رقي الأمة، فإن الإنفاق من أجل مساعدة الفقراء والمساكين يُعتبر أيضاً بمنزلة تقديم قرض لله تعالى. فقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدِّي، قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعْمَتَكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي". (مسلم - كتاب البر والصلة). وهذا يدل على أن إنفاق المال على الفقراء والمساكين بمنزلة إعطاء المال لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يعني أنه سبحانه يقبض المال الذي يُنفق في سبيله، ويضاعفه أضعافاً كثيرة، حتى إن الجزء الذي يتلقاه الإنسان على إنفاقه، يزيد كثيراً عما أنفقه. وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ ليعين أنه رغم أن الكرام الفضلاء من الناس ينالون جزاءهم أيضاً في هذه الدنيا، إلا أن ما أعدّه الله تعالى لهم في الآخرة أكبر وأعظم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ
بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا
نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا
أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ

دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٧﴾

شرح الكلمات:

المَلَأَ: مشتقة من مَلَأَ. يقولون ملأ الإِناء بالماء أي وضع فيه قدر ما يأخذه. مُلِئَ رُعْبًا: تملَّكه الرعب. المَلَأَ تعني: (١) الجماعة من الناس؛ (٢) الأشراف والعلية من القوم، قيل سُمُوا بذلك لملاءتهم بما يُلْتَمَس عندهم من المعروف وجودة الرأي أو لأنهم يملأون العيون أبْهة والصدور هيبة. المَلَأَ الأعلى: جماعة الملائكة ذات المقام العالي (أقرب الموارد).

التفسير:

ينتقل القرآن المجيد ليقص علينا كيف أن قبائل بني إسرائيل المختلفة قد التحمت كلها واتحدت في أمة واحدة عظيمة، ولم يغفل ذكر الضعف الذي ظهر فيهم أيضاً، وذلك ليكونوا مثلاً يتعظ به المسلمون.

والواقعة المذكورة في هذه الآية الكريمة تدل على أن تحسناً قد طرأ على أحوال بني إسرائيل في الزمن الذي تتعلق به الآية، إذ أنهم صاروا أفضل مما كانوا عليه في زمن موسى عليه السلام نفسه. وفي المائدة: ٢٥، يذكر القرآن المجيد أنهم قالوا لموسى عليه السلام لما أمرهم بالقتال في سبيل الله تعالى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. ولكن على العكس من ذلك، نجد أنهم في هذه الآية يقولون: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا﴾. غير أن هذا التقدم كان شفهياً أكثر منه عملياً، إذ لما جاء وقت القتال فعلاً، إذا بالكثير منهم يتخاذل ويتولى عن القتال. والآية تقدم تحذيراً شديداً للمسلمين كي لا يسيروا على نفس هذا النهج الفاسد.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ
طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ
عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً
مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ أُصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ
وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي
مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٨﴾

شرح الكلمات:

طَالُوت: اسم صفة لملك إسرائيلي عاش قبل «داود عليه السلام» بحوالي مائتي سنة، وهو أيضاً جاء بعد «موسى عليه السلام» بنفس المدة تقريباً. إن غالبية المفسرين يرون اسم «طالوت» من أصل عبري ويعتبرونه مرادفاً لـ «شاول» (كتاب صموئيل الأول: ٩). وبما أن العبرية ما هي إلا فرع من اللغة العربية، فيبدو أن كلمة «طالوت» مشتقة من المصدر العربي «طال» بمعنى زاد طولاً أو علواً. وهذا الوصف ينطبق على الشخص الذي تحدث عنه الآية الكريمة التي نحن بصدددها، أي الشخص الذي زاده الله تعالى علماً وجسماً. إلا أنه ليس صحيحاً أن نُعرِّف «طالوت» بأنه هو «شاول»، فوصف القرآن الكريم ينطبق أكثر على «جدعون» (كتاب القضاة: ٦-٨) أكثر من «شاول». لقد عاش «جدعون» تقريباً في عام ١٢٥٠ قبل الميلاد وأسمته التوراة «جبار البأس» (القضاة: ٦: ١٢) وهو ما يماثل كلمة «طالوت».

التفسير:

هناك خلاف في الرأي حول شخصية الرجل الذي أطلق عليه اسم «طالوت». وحسب رأي العديد من المفسرين، ينطبق الاسم على شاول، كما تنطبق الآية على زمن حكمه. ولكن بعض المستشرقين المسيحيين لهم رأي آخر، فهم يرون أن

الأحداث المذكورة في هذه الآية تتعلق بفترتين من الزمان يفصل بينهما مرحلة تبلغ حوالي ٢٠٠ سنة. ويرى هؤلاء أن هذه الآية تمثل حالة من حالات الأخطاء التاريخية التي يزعمون أنها وقعت في القرآن المجيد. والآية تتعلق فعلاً بفترتين مختلفتين، ولكن لو فكّر هؤلاء النقاد المسيحيون في تاريخهم نفسه، لرأوا أنه ليس هناك أيّ خطأ تاريخي، لأن القرآن المجيد يشير هنا إلى كل من هاتين الفترتين. وكان الغرض من ذلك تبيان أنّ توحيد قبائل بني إسرائيل المختلفة، بدأ في زمن «جدعون» (أي طالوت) حوالي مائتي عام قبل زمن داود عليه السلام.

ولتحديد شخصية «طالوت»، دعونا نلقي نظرة على الأحداث المذكورة في الآيات من ٢٤٧ إلى ٢٥٢، وهي كما يلي:

(١) أن القوم الذي ينتمي إلى زمن طالوت أخرجوا هم وأبنائهم من ديارهم (الآية ٢٤٧). (٢) أن شخصاً لم يكن في الأصل ملكاً قد نُصّب ملكاً (الآية ٢٤٨). (٣) أن الله تعالى أعان أتباع ذلك الملك، وأعطاهم التابوت آية على أنه سبحانه قد اختار ذلك الملك (الآية ٢٤٩). (٤) أن الناس ابتلوا بالماء (الآية ٢٥٠). (٥) أن عدد هؤلاء كان قليلاً بالنسبة لأعدائهم، وأنّ الابتلاء الذي مرّوا به أدّى إلى زيادة نقص عددهم عمّا كانوا عليه (الآية ٢٥١). (٦) بالرغم من قلة عدد أتباع هذا الملك فقد انتصروا على أعدائهم (الآية ٢٥٢).

والآن، إنّ بعض هذه الأمور تنطبق فعلاً على شاؤول ولكن بعضها لا ينطبق. والكلمات التي هي بمنزلة مفتاح لمعرفة شخصية طالوت هي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ يدلّ على أنّ هذه الواقعة حدثت في مرحلة مبكرة، حين بدأ اليهود يتشكّلون في شكل أمة. وقد ظلت قبائل بني إسرائيل لمدة ٢٠٠ عام قبائل متفرقة، بغير ملك وبغير جيش محارب. ففي عام ١٢٦٠ ق.م. سلّط الله تعالى الميديانيين على بني إسرائيل بسبب ظلمهم وجورهم، فسلّبوهم ونهبوهم لمدة سبع سنوات طوال، حتى إنهم اضطروا إلى أن يلجأوا إلى الكهوف والمغارات

(سفر القضاة ٦: ١-٢). ولذلك فقد ذكر القرآن المجيد قولهم: ﴿وَقَدْ أَخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَيْنَا﴾. وجاء وصف ذلك في الكتاب المقدس كما يلي:

«وعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب فدفعهم الرب ليد ميديان سبع سنين. فاعتزت يد ميديان على إسرائيل، وبسبب الميديانيين عمل بنو إسرائيل لأنفسهم الكهوف التي في الجبال والمغائر والحصون. وإذا زرع إسرائيل كان يصعد الميديانيون والعمالقة وبنو المشرق يصعدون عليهم. وينزلون عليهم ويتلفون غلة الأرض إلى مجيئك إلى غرة، ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة ولا غنما ولا بقرا ولا حميرا. لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويحيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد، ودخلوا الأرض لكي يخربوها. فذل إسرائيل جدا من قبل الميديانيين وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب» (سفر القضاة ٦: ١-٦).

ولما صرخ بنو إسرائيل إلى ربهم بعث لهم نبياً، وظهر ملاك لجدعون فأقامه ملكاً، ووعدته بتأييد الله تعالى. وسأل جدعون الملاك: «فقال له أسألك يا سيدي بماذا أخلص إسرائيل؟ ها عشيرتي هي الذلي في منسى وأنا الأصغر في بيت أبي» (قضاة ٦: ١٥)، وهذا يتفق مع ما جاء في القرآن المجيد عن قول الملاك من بني إسرائيل حين استنكروا أن يملك عليهم مثل ذلك الملك الفقير الذي لا ينتمي إلى القبائل الرئيسة: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ (الآية ٢٤٨). وما يؤكد على أن طالوت هو جدعون حقيقة أن واقعة اختبار بني إسرائيل بالماء حدثت في زمن جدعون وليس في زمن شاؤول، وجاء وصف هذه المحنة في التوراة (القضاة ٧: ٤-٧)، وهو وصف يتفق مع ما جاء في القرآن المجيد.

ونعلم من سفر القضاة ٧: ٦-٧ أن بعد محنة الابتلاء بالماء بقي مع جدعون ٣٠٠ رجل فقط. ولعله من المثير للانتباه أن أحد صحابة الرسول ﷺ قال: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ بَدْرٍ يَوْمَ بَدْرِ كَعْدَةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا»

(الترمذي- كتاب السِّير). وعلى ذلك، فإن هذا الحديث يؤيد حقيقة أن طالوت لم يكن سوى جدعون.

وما يزيد في تأكيد حقيقة أن جدعون كان هو طالوت أن كلمة جدعون في اللغة العبرية تماثل معنى كلمة طالوت في اللغة العربية. فكلمة جدعون في اللغة العبرية مشتقة من مصدر معناه «يُسْقِط» (دائرة معارف الكتاب المقدس)، أو «يقطع» (دائرة المعارف اليهودية). وعلى هذا فإن اسم جدعون يعني «الشخص الذي يقطع عدوه ويُسقطه على الأرض». ويصف الكتاب المقدس جدعون بأنه «جَبَّارُ البأس» (القضاة ٦: ١٢). وقد رأينا أنَّ كلمة طالوت تعني في اللغة العربية الشخص الطويل الذي يعلو فوق الآخرين (انظر شرح الكلمات).

وبين قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ أن القوم ذكروا اعتراضين في حق طالوت: (١) أنه لا ينتمي إلى أسرة عريقة، ولذلك فليس من حقه أن ينال الملك؛ (٢) أنه لم يكن يملك الثروة التي تحوِّله أن يفرض نفوذه. وكلّ من هذه السببين يبدو معقولاً في نظر أهل الدنيا، غير أنَّ القوم الذي اختاره الله تعالى وكانت تهديهم إرادة الله العدل الحكيم، كان ينبغي أن يختلف تفكيرهم عن ذلك. إذ كان عليهم أن يدركوا أن الصفات الواجب توقُّرها في الملك، ليست هي مكانة العائلة أو مقدار الثروة، وإنما الصفات الشخصية للإنسان؛ ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾. إنَّ تفوُّق المرء في الصفات الجسدية والذهنية، مجتمعة بالعلم والمعرفة والشجاعة والبسالة، يجب أن تكون هي الأساس الذي يؤهل المرء للملك. وفي حالة طالوت اجتمعت فيه هذه الصفات، بالإضافة إلى أنه كان من اختيار الله تعالى، وهو سبحانه خير من يعلم من الذي يستحق الملك.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ
مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ
الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنَّ
كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٩﴾

شرح الكلمات:

التَّابُوتُ: مشتقة من تاب بمعنى رجع؛ عاد إلى ربه؛ رجع عن معصيته وندم عليها. التابوت تعني: (١) الخزانة أو الصندوق حيث يتكرر أخذ الأشياء منه وإعادةها إليه؛ (٢) النعش أو الكفن؛ (٣) الأضلاع وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما تشبيهاً بالصندوق الذي يحرز فيه المتاع (معجم لين)؛ (٤) الفؤاد حيث أنه هو مستودع المعرفة والحكمة والسلام (مفردات الراغب).

سَكِينَةٌ: مشتقة من سكن أي هدأ وقرّر. «السكينة» تعني: الطمأنينة؛ الهدوء؛ السلام؛ الأمان؛ الوداع؛ الوقار (أقرب الموارد ومعجم لين).

بَقِيَّةٌ: مشتقة من بقي أي دام وثبت. بقية تعني: ما يتركه الشخص أي الميراث أو التراث؛ ما يتبقى؛ آثار القوم؛ مخلفات؛ تذكّار؛ أفضل ما في الشيء حيث أن أفضل ما في الشيء هو عادةً ما يبقى منه. فلان بقية القوم أي: من خيارهم وأفضل من فيهم (معجم لين).

التفسير:

رغم أنّ المفسرين قد اختلفوا حول المقصود بكلمة «التابوت»، ورغم أنّ الكتاب المقدس يذكرها على أنها تعني «الصندوق» أو «الخزانة»، فإنّ الوصف الذي جاء به القرآن المجيد يدل على أنها تعني «القلب» أو «الصدر». يقول القرآن المجيد: ﴿إِنَّ

ءَايَةً مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، وهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على صندوق أو خزانة. وفضلاً عن أن ذلك الصندوق لم يأت بأي سَكِينَةٍ أو اطمئنان للآخرين، فإن ذلك الصندوق الذي يتحدث عنه الكتاب المقدس، لم يستطع أن يحمي بني إسرائيل من الهزيمة، بل إنه لم يفلح أيضاً في حماية نفسه حين سلبه الأعداء. وحتى شاوول الذي أخذ معه ذلك الصندوق أثناء الحرب التي خاضها هُزم شر هزيمة، حتى إن الأعداء أنفسهم أشفقوا عليه، وانتهت حياته نهاية ذليلة. فمثل هذا الصندوق لا يمكن أن يكون مصدر سَكِينَةٍ لبني إسرائيل. إنَّ ما أعطاهم الله تعالى كان قلباً مملوءاً بالسكينة نزلت بها الملائكة، وهو قلب أعانته الملائكة التي حرَّكت بني إسرائيل وملأت قلوبهم بالشجاعة والإصرار، حتى إنهم بهذه السكينة نجحوا في مقاومة هجمات الأعداء، وأوقعوا بهم هزائم ساحقة.

وهناك فضل آخر أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل، وذكره القرآن المجيد على أنه ﴿بَقِيَّةٌ﴾، أي ميراث مما تركه آل موسى وآل هارون كما جاء في الآية ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾. أي أن الله تعالى ملأ قلوبهم أيضاً بالصفات النبيلة، التي كانت تميّز أسلافهم العظام، أولئك الذين كانوا من آل موسى وآل هارون. إنَّ الميراث الذي تركه آل موسى وآل هارون لم يكن يتكوّن من أشياء مادية، وإنما كانت المثل العليا والصفات النبيلة التي تركها موسى وهارون عليهما السلام ميراثاً للأجيال التالية، فورثها هؤلاء عن أسلافهم. وكان ذلك الميراث هو نفسه الذي دعا زكريا عليه السلام ربّه ليهب له غلاماً ﴿يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالٍ يَعْقُوبُ﴾ (مريم: ٧). ومن الواضح أنه لم يكن ميراثاً مادياً، وإنما كان ميراثاً روحياً وأخلاقياً، ذلك الذي جاء ذكره في هذه الآية. كذلك فإن أتباع جدعون قد أُشْرِبُوا بِبَقِيَّةٍ رُوحِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ، أي بتلك الصفات النبيلة التي كانت لموسى وهارون عليهما السلام وذريتهما، والتي زوّدهم الله تعالى بها. وكانت هذه بحق آية من الله تعالى، تدل على أنه سبحانه هو الذي أقام جدعون ملكاً على قبائل بني إسرائيل، ليحميهم من السلب والنهب الذي وقعوا

ضحية له على أيدي أعدائهم، ولكي ينفخ فيهم روح الشجاعة والإقدام، وهو عمل بلغ كماله في زمن داود عليه السلام.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ
مُتَّبِلِكُمْ بِنَهْرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي
وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ
غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ
هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ
بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
مُتَّلَقُوا بِاللَّهِ كَم مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً
كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٥٥﴾

شرح الكلمات:

نَهْر: مشتقة من نَهَرَ أي اندفع بقوة. يُقال نهر الدم أي سال بقوة. نهر الماء: جرى في الأرض وجعل لنفسه نهراً. «النَّهْر» تعني: الماء الجاري المتسع؛ الأخدود الذي يجري فيه الماء. «النَّهَر» تعني: (١) السعة؛ (٢) مجرى النهر؛ (٣) النهر (أقرب الموارد).

الْجُنُود: جمع جند. يُقال جند الجنود أي جمعها. «الجند»: العسكر والأعوان (أقرب الموارد).

جَالُوت: مشتقة من جال بمعنى طاف بغير توقف. يُقال جال الفرس في الميدان أي قطع جوانبه. جال القوم جولة: انكشفوا ثم كروا. جال بعضهم على بعض أي أغار أو كَرَّ بعضهم على بعض (أقرب الموارد وتاج العروس). ومن ثم فإن كلمة «جالوت» قد

تكون اسم صفة أو لقب لشخص أو قومٍ شديدي المراس كثيري التجوال يهاجمون الناس ويعتدون عليهم. والاسم المقابل لـ«جالوت» في التوراة هو «جُلّيات» (سفر صموئيل الأول - ١٧: ٤)، ومعناها حسبما جاء في دائرة معارف الكتاب المقدس ودائرة المعارف اليهودية الأرواح العدّاءة المُدمّرة المُخرّبة. وقد أُطلقَ ذلك الاسم في الكتاب المقدس على شخصٍ معين، ولكن اللفظة تعني في الواقع جماعة من الناس غِلاظ القلوب ونهّابين، وإن كانت اللفظة قد تعني أيضاً أشخاصاً يمثلون هذه الصفات. ويبدو من الآية التي نحن بصدد تفسيرها أن اللفظة جاءت في القرآن الكريم متضمنةً كلا المفهومين.

التفسير:

إن الالتزام بالنظام والسيطرة على النفس، هما مفتاح لكثير من النجاحات، والتحليّ بهذه الخصال أمر لا بدّ منه للنجاح في اجتياز المحن التي يأتي بها الله تعالى. والآية الحالية تتحدّث عن محنة من تلك المحن. والغرض من الاستثناء ﴿إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ ذو شقين: (١) أن يزوّد القوة المحاربة بشيء من الراحة المادية التي لا بدّ منها، تسمح لهم بترطيب حلوّهم الجافة وألسنتهم العطشى، ولكن في نفس الوقت تمنعهم من الشرب كما يحلو لهم، مما يوهن قواهم ويثبّط من روحهم فيغفلون عن عدوّهم؛ (٢) أن يزيد من أثر الابتلاء، إذ في كثير من الأحيان يكون الامتناع تماماً عن شيء ما، أسهل من تناول جزء يسير منه. ويذكر الكتاب المقدس هذه الواقعة في سفر القضاة ٧: ٥-٦.

والجزء الأخير من الآية ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يتضمّن درساً يعطي الأمل للمتّقين. فحينما يشاء الله تعالى أمراً، لا تهمّ أبداً الكثرة العددية. ولقد شهد التاريخ على صحة هذه الكلمات خلال عصوره المتعاقبة.

وكلمة «جالوت» المذكورة في هذه الآية، لا تعني فرداً واحداً بل مجموعة من الناس، بينما تشير كلمة «جنود» إلى الرفقاء والمعاونين. والكتاب المقدس يبين أنّ المقصود

بكلمة «جالوت» هم الميديانيون الذين نهبوا بني إسرائيل، وسلبوا قطعانهم وماشييتهم، وأتلفوا أرضهم لعدة سنوات (قضاة ٦: ١-٦). وقد ساعد العمالقة والقبائل الشرقية أولئك الميديانيين في غاراتهم وهجماتهم على بني إسرائيل، وكوّتوا سوياً «الجنود» الذين تقصدهم الآية الكريمة (قضاة ٣: ٦).

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥١﴾

التفسير:

إنَّ ابتلاء الماء المذكور في الآية السابقة، والحقيقة المذكورة في نهايتها، وهي ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ملأت قلوب بني إسرائيل بالأمل والشجاعة. وبالتالي فإنَّ دعاءهم المذكور في الآية الحالية لا يُبنى عن روح انهزامية كما حدث فيما سبق، وإنما يكشف عن روح يملؤها الأمل والرجاء.

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ
اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ
اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ
وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥٢﴾

التفسير:

لقد استطاع «طالوت» أي جدعون، أن يهزم «جالوت» أي الميديانيين، وأن يحد من فسادهم المتزايد، غير أن القضاء التام الذي تُعبر عنه الآية الكريمة تجاه جالوت، قد تم في زمن داود عليه السلام، أي بعد حوالي ٢٠٠ سنة. وهذا هو السبب في استخدام لفظ ﴿فَهَرَمُوهُمْ﴾ للدلالة على انتصار جدعون على الميديانيين، أما القضاء التام على الميديانيين فقد عبّرت عنه الآية بلفظ ﴿قَتَلَ﴾. ويذكر الكتاب المقدس أن الرجل الذي قتله داود عليه السلام يسمى «جُليات» (سفر صمويل الأول ١٧: ٤)، وهو اسم يشابه لفظ «جالوت»، ولعله اسم الصفة الذي جاء في وصف الميديانيين، ثم أطلق أيضاً على اسم قائدهم في زمن داود عليه السلام.

والجزء الأخير من الآية ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ يلخص في جملة قصيرة فلسفة جميع الحروب التي تُشن من أجل الحق والعدل. فالحرب لا تكون إلا وسيلة لمنع الفساد وإقرار السلام. وتقدم الجملة أيضاً معياراً للتمييز بين المسلمين وخصومهم، وتشير بأسلوب جميل إلى الفريق الذي قدّر الله تعالى له النصر في نهاية النضال.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٣﴾

التفسير:

كان من المناسب أن تنتهي قصة طالوت وجالوت وداود بالآية الحالية، التي تبين أن القرآن المجيد لم يذكر تلك الوقائع على سبيل سرد قصة للتسلية، ولكنها ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾، يتلوها الله تعالى لكي يعلم النبي ﷺ، الذي هو أيضاً ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، أنه

سوف يلقي من الله تعالى نفس التأييد والعون الإلهي، الذي تلقاه المرسلون في الأيام الخالية، أو ما يزيد عليه.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
وَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ
مِنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ
وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ
مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّا اللَّهُ
يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٤﴾

شرح الكلمات:

أَقْتَلُوا: واقتتل مشتقة من قتل أي أُمات. اقتتلوا: تحاربوا وحاول كل منهم قتل الآخر (أقرب الموارد).

التفسير:

هذه الآية تقدم الجواب على اعتراض ضمني كان من الطبيعي أن ينشأ من الآية السابقة. فالأنبياء عليهم السلام الذين بعثهم الله تعالى قبل الإسلام جاؤوا إلى أقوام معيّنة، وكانت رسالاتهم مقصورة على أزمنة محدودة، ولكن الرسول ﷺ جاء إلى الناس كافة، ورسالته باقية إلى يوم القيامة. وعلى هذا، فمن الممكن أن يُقال إنه لا وجه للمشابهة بين داود عليه السلام أو غيره من الأنبياء عليهم السلام أو الزعماء الذين تعاملوا مع بعض القبائل

المعادية، وبين الرسول ﷺ. ويجب الله تعالى على هذا التساؤل الضمني بقوله إن الأنبياء السابقين ﷺ أيضاً لم يكونوا كلهم متشابهين، فالبعض منهم كانوا أعظم درجة من الآخر، كما أدى بعضهم أعمالاً تفوق ما قام به الآخرون. فإن داود ﷺ مثلاً، الذي جاء ذكره في الحلقة الأخيرة من سلسلة أنبياء وملوك بني إسرائيل الذين كان عليهم أن يواجهوا أعداءهم، قام بالكثير من الأعمال التي تفوق تلك التي قام بها من سبقوه من الأنبياء ﷺ. وعلى هذا، فإن النصر الموعود للرسول ﷺ يجب ألا يكون محل شك لدى الناس.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ لا يعني أن هناك أنبياء ﷺ لم يكلمهم الله تعالى أو لم يرفع درجاتهم، وإنما جاء هذا التعبير لبيان أن هناك نوعين من الأنبياء ﷺ: (١) أولئك الذين يأتون بشريعة من الله تعالى؛ أي أولئك الذين يتلقون من الله تعالى وحياً يحمل أوامر ونواهٍ وقواعد وقوانين؛ (٢) أولئك الذين لم يأتوا بدين جديد؛ أي أولئك الذين تكون نبوتهم عبارة عن درجة روحية رفيعة شرفهم الله تعالى بها. فالمقصود بكلمة ﴿كَلَّمَ﴾ هنا، نوع خاص من الكلام، أي الوحي الذي يأتي بشريعة جديدة ودين جديد. والرسل ﷺ الذين تذكر الآية أن الله عزوجل «كَلَّمَهُمْ» هم أولئك الأنبياء ﷺ الذين أعطاهم الله تعالى شريعة جديدة، بينما أولئك الذين تذكر الآية أن الله تعالى رفع درجاتهم، هم أولئك الأنبياء ﷺ الذين شرفهم الله تعالى بمقام النبوة، دون أن يعطيهم شريعة جديدة. ويقول القرآن المجيد عن موسى ﷺ، الذي أعطاه الله تعالى شريعة التوراة، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٥). ويتضح أيضاً من أحاديث الرسول ﷺ أن هناك نوعين من الأنبياء ﷺ: (١) مكلمون، أي أولئك الذين كَلَّمَهم الله تعالى بكلام خاص فأعطاهم شريعة جديدة؛ (٢) أنبياء ﷺ غير مكلمين، أي أولئك الذين لم يكلمهم الله تعالى بكلام خاص، فلم يعطهم شريعة جديدة. فمثلاً، حين سأل الصحابي أبو ذرٍّ رضي الله عنه الرسول ﷺ عما إذا كان آدم ﷺ نبياً، أجابه ﷺ قائلاً: «نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ» (مسند أحمد بن حنبل). وإضافة كلمة «مُكَلَّمٌ» إلى كلمة «نَبِيٌّ» يبين بوضوح أن هناك نوعين من

الأنبياء ﷺ: مكلّم أي يحمل شريعة، وغير مكلّم أي لا يحمل شريعة، وكان آدم ﷺ نبياً مشرعاً لأنه هو الذي أتى بأول شريعة وكانت بدائية.

وهناك معنى آخر أيضاً لقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾. فإذا أخذنا كلمة ﴿بَعْضَهُمْ﴾ بمعنى «أحدهم» فيمكن أن تعني العبارة: «منهم من كلمه الله ورفع أحدهم درجات». وفي هذه الحالة يكون المقصود بالرسول الذي كلمه الله تعالى هو موسى ﷺ، والمقصود بالرسول الذي رفعه درجات هو سيد الخلق محمد المصطفى ﷺ، الذي لم يكلمه سبحانه كما كلم الأنبياء من قبله فحسب، بل رفعه فوق جميع الرسل ﷺ الآخرين بدرجات كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ لا يعني أن الله تعالى لم يؤت الأنبياء ﷺ الآخرين البيّنات. فالواقع أن الله تعالى أتى البيّنات لجميع الرسل والأنبياء ﷺ، وأيدهم جميعاً بروح القدس. غير أن الله تعالى يذكر عيسى ابن مريم ﷺ بالذات لدحض افتراءات اليهود الذين ادّعوا أنه لم يؤت آية بيّنة، كما اتّهموه بأن روح الشيطان قد تملّكته (إنجيل لوقا ١١: ١٥، ١٦). والقرآن المجيد يؤكّد على أن عيسى ابن مريم ﷺ لم يكن مدّعيّاً كذاباً، بل كان نبياً صادقاً مؤيِّداً بالآيات الربّانيّة، كما أنه لم يكن به مسّ من الشيطان بل يؤيِّده الروح القدس، مثل جميع رجال الله الصالحين، وانظر أيضاً الآية ٨٨ من سورة البقرة.

ويخطئ البعض الذين يقولون إن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا﴾ يعني أن الله تعالى هو الذي يسبب الخلاف بين الناس. فإن التعبير ﴿لَوْ شَاءَ﴾ لا يعني «لو كان الله قد شاء»، ولكن يعني «لو كان الله قد فرض مشيئته». فقد أراد الله سبحانه ببالغ حكمته أن يجعل الإنسان حُرّاً، ليختار أو يرفض ما يريده. وما دام الأمر كذلك، فمن المؤكّد أن يقع الخلاف بين الناس. غير أن الله تعالى لا يظل كالمراقب الحيادي الذي يقف مكتوف اليدين، فعندما تتسع فجوة الخلافات بين الناس وترداد حدّتها، فإنه سبحانه يرسل مصلحاً من لدنه لكي يصلح الناس ويزيل الخلاف من بينهم. ولذلك،

عندما ظهرت الخلافات بين أتباع جميع الأنبياء السابقين ﷺ، بعث الله تعالى الرسول ﷺ حسب سُنَّته الأزلية.

والجزء الأخير من الآية الكريمة: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ يبين أن الله تعالى قضى بحكمته أن يكون الإنسان حراً، ولذلك فإنه ﷻ لا يُجبر أحداً على اتباع هذا السبيل أو ذاك. لقد أعطى سبحانه الإنسان القدرة على اختيار سبيل الخير أو سبيل الشر حسب اختياره، والله تعالى يجازيه كما يستحق. وما دام الله ﷻ لا يُجبر أحداً على قبول الحق، لذا ينبغي على المؤمنين ألا يُجبروا أحداً كذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٥﴾

شرح الكلمات:

بَيْعٌ: مشتقة من باع. يُقال باعه أي أعطاه المثلَّث وأخذ الثمن (أقرب الموارد).

خُلَّةٌ: مشتقة من خلّ. يُقال خلّ الشيء أي ثقبه ونفذه. خلّ في دعائه: خَصّ وهو ضد عمّ. خلّ إليه أي احتاج إليه. خالَهُ: صادقته وآخاه. لذا فكلمة «خُلَّةٌ» تعني المصادقة والإخاء. الخليل: الصديق المختص أو هو الذي صادقته بعد إذ جرّبته (أقرب الموارد). ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ». (البخاري، كتاب المناقب).

شَفَاعَةٌ: انظر شرح الآية ٤٩ من نفس السورة.

التفسير:

رغم أن الآيات القرآنية السابقة تؤكد على حتمية النصر الذي قدره الله تعالى للرسول ﷺ، إلا أن هذا لا يعني أن يتصور المسلمون أن طريقهم مفروش بالورود. إذ عليهم تقديم الكثير من التضحيات لكي يصلوا إلى الهدف. والآية الحالية تشير إلى هذه الحقيقة، مع التركيز على التضحيات المالية.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ﴾ أنه لن يكون في يوم القيامة بيع ولا شراء على الإطلاق، وإنما المعنى المقصود هو أن أحداً لن يستطيع أن يشتري الخلاص في ذلك اليوم، لأن الخلاص يتوقف على أعمال الإنسان مشفوعة بفضل الله تعالى. أما البيع والشراء الذي يمكن أن يفيد الإنسان في ذلك اليوم، فهو ما تم بالفعل في هذه الدنيا، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (التوبة: ١١١).

كذلك فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾، الذي معناه ولا صداقة، يعني أن أحداً لن يستطيع أن يعقد صداقة جديدة في ذلك اليوم. أما أولئك الذين اتخذوا الله تبارك وتعالى صديقاً وولياً وخليلاً أثناء حياتهم في هذه الأرض، فإنهم سوف ينتفعون حتماً من هذه الصداقة في ذلك اليوم. كذلك فإن الصداقات التي عُقدت في هذه الدنيا من أجل الله تعالى وفي سبيله، فإنها تظل قائمة بأواصرها القوية يوم القيامة. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٨). إن المتقين هم أخلاء الله تعالى، ولن تضيع خلتهم يوم القيامة، بل سوف تستمر وتشتد.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ
وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ
بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٦﴾

شرح الكلمات:

الْحَيُّ: مشتق من الفعل «حيي» أي عاش، ضد مات، و«الحي» اسمٌ من أسماء الله الحسنى ويعني أنه ﷻ موجودٌ بذاته دون مُوجد ولا يموت ولا يصح عليه الموت أي أنه أزلي ولا يحتاج إلى من يعاونه (مفردات الراغب ومعجم لين). هذا هو أصدق وأصح معنى لكلمة «الحياة»، ولا يصدق إلّا في حق الله ﷻ.

الْقَيُّومُ: اسمٌ أيضاً من أسماء الله الحسنى مشتقٌ من الفعل قام أي انتصب. القيوم: أي ليس فقط الذي لا بدء له، بل هو تعالى القائم الحافظ لكل شيء والمُعطي له ما به قوامه (مفردات الراغب وأقرب الموارد).

سِنَةٌ: المصدر من وَسَنَ أي أخذه ثقل النوم أو أوله أو النعاس أو كثر نعاسه. السِنَةُ: الغفوة والغفلة أو الفتور الذي يتقدم النوم (أقرب الموارد).

كُرْسِيُّ: مشتقة من كَرَسَ. يُقال كَرَسَ البناء أي أسَّسه. الكرسي: السرير؛ ما يقعد عليه؛ العلم؛ دعامَة الحائط؛ العرش؛ المُلك. لذا فكلمة «الكراسي» تعني أيضاً: العلماء (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تُعرف هذه الآية الكريمة باسم «آية الكرسي»، وتُعتبر واحدة من الآيات الهامة التي تصف وحدانية الله ﷻ، وتذكر صفاته العظيمة بأجمل ما يكون. وقد رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال عن آية الكرسي إنها أعظم آية في القرآن الكريم (مسلم). عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ قُلْتُ «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». (مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها)

وتقدّم هذه الآية الكريمة الإجابة على تساؤل ضمني، وهو حتى ولو قدّم المسلمون جميع التوضيحات المطلوبة منهم في الآية السابقة (٢٥٥)، فإن المهمة التي أمامهم مهمة ضخمة عظيمة، وبناءً على الحسابات الدنيوية، لا يبدو أن هناك أملاً في تحقيق النصر المطلوب، فكيف يمكن أن يتحقق وعد النصر؟ والآية الحالية تقدّم الإجابة على هذا التساؤل. إن لهذا الكون مولى وسيداً، ومصائر الناس الذين يعيشون في هذا العالم يحكمها ربّ عظيم لا حدود لقدرته، ويحيط علمه بكل شيء، وهو يقظ لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو الحارس الحفيظ الذي بيده مقاليد السماوات والأرض. فإذا كانت مشيئته ﷻ أن يهب النصر لأحد، فمن ذا الذي يستطيع أن يمنع تحقّق إرادته؟ إن النصر الموعود لا بد أن يتحقّق حتماً.

ولمعالجة تفصيلية لموضوع الشفاعة، يمكن مراجعة شرح الآية ٤٩ من سورة البقرة. والسبب في أن أحداً لن يشفع عند الله تعالى إلا بإذنه، هو أن أحداً لا يعلم خفايا النفوس ولا ما تنطوي عليه القلوب كي يشفع لغيره. إن الله تعالى وحده هو العليم بالسرائر، ولذلك لا يمكن أن تكون هناك شفاعة بغير إذنه، لأنه هو وحده الذي يعلم من يستحقّها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ يعني أن علم الله ﷻ غير محدود، بينما علم الآخرين محدود، مهما كانوا. حتى الأنبياء ﷺ، لا يعلمون إلا ما هو ظاهر من الأحوال الروحية لصحابتهم.

وكلمة «كرسي» إما تعني العلم أو القدرة، وكلاهما صحيح وكلاهما ينطبق هنا. فعلم الله تعالى لا حدود له، كما أن قدرته أيضاً لا حدود لها. والعلم والقدرة هما الدعامتان العظيمتان اللتان يقوم عليهما عرش الله تعالى.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ
فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٧﴾

شرح الكلمات:

الطَّاغُوتُ: مشتقة من طغا أي انتهك؛ جاوز الحد. لذا فـ«الطاغوت» هو كل من يتعدى الحدود المسموح بها له. إن الشيطان وكل من هم مثله من الناس ممن يصرف الآخرين عن طريق الخير يندرج تحت كلمة «الطاغوت». وتستعمل كلمة «الطاغوت» للمفرد كما في سورة النساء الآية ٦١، وللجمع كما في الآية ٢٥٨ من السورة التي نحن بصدددها.

الْعُرْوَةُ: المقبض، مشتقة من «عرا»، وتعني: (١) مقبض الدلو أو الإناء.. إلخ؛ (٢) الحلقة أو العماد الذي يُمسك به أو الشيء الذي يُرتكز عليه؛ (٣) الكلا الذي يظل خضراً حتى في زمن الجفاف، (٤) النفيس من المال والثروة (أقرب الموارد).

التفسير:

إن التعاليم الإلهية بتقديم التضحيات في سبيل الدين وقتال أعداء الإسلام الذين يعتدون على المؤمنين، قد يُساء فهمها على أنها تعني أن الله تعالى يريد من المسلمين استعمال القوة لنشر الدين. والآية الحالية تزيل سوء الفهم هذا. فالهدف الذي من أجله أمر الله تعالى المسلمين بقتال المشركين ليس من أجل تحويلهم بالقوة إلى الإسلام، وإنما لدفع سوء العدوان، ووضع نهاية للفتنة والاضطهاد. والآية الكريمة تحضّ المسلمين بكل وضوح وبأقوى الكلمات على عدم إكراه أحد على الدخول في الإسلام. ففي ضوء قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ يصبح من منتهى الظلم اتّهام الإسلام بأنه استعمال القوة لنشر تعاليمه.

والآية لا تحرم فقط إكراه أحد على قبول الإسلام، وإنما تقدّم أيضاً السبب في عدم استعمال الإكراه في أمور الدين فتقول: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، أي أنّ طريق الحق والرشد قد صار واضحاً متميّزاً عن طريق الشر والغي، ولذلك فليس هناك من سبب يدعو أبداً لاستعمال الإكراه. إنّ الإسلام هو الحق الواضح، فمن يريد أن يرى الحق، فالحق أمامه يستطيع أن يراه بسهولة، ولكن إذا كان هناك من لا يريد أن يرى الحق، فليس هناك من قوّة تجبره على ذلك. وكل ما يمكن أن نفعله هو أن نبين جمال الحق لغير المسلمين، ثم يعود الأمر إليهم في قبوله أو رفضه. إن الإيمان كما يُعرّفه الإسلام هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان. وليس هناك من قوّة على الأرض يمكن أن تُكره القلب على التصديق بشيء.

وتقرر الآية أن الشخص الذي يؤمن بدين الحق، ويتجنّب سبيل الطغاة والمفسدين ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾. والعروة، كما جاء في شرح الكلمات، لها العديد من المعاني. فإذا أخذناها بمعناها الأول، أي مقبض الإناء، نجد أن القرآن المجيد يقارن الإسلام بأكسير الحياة الطاهر الذي يحتويه الإناء. وإذا أخذناها بمعناها الثاني، أي الحلقة أو العماد الذي يُمسك به أو يُعتمد عليه، يكون الدين مشبّهاً بالعماد

الذي يمكن التشبث به والاعتماد عليه، فإن الإيمان الحقيقي يشبه الركيزة التي يرتكز المرء عليها ويعتمد عليها اعتماداً كاملاً في جميع الأحوال. فإذا استمسك بها تحاشى التعثر والسقوط. وإذا أخذنا المعنى الثالث، أي الكلاً الذي يظل خضراً حتى في زمن الجفاف، فإن الإسلام يشبه المرعى الذي يظل خضراً على الدوام. فلا يمكن أن تقع جماعة روحية في الإسلام. أما إذا أخذنا المعنى الأخير، فيكون الإسلام كالخزانة التي تحتوي على ثروة روحية لا تنقص ولا تتبدد.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٨﴾

التفسير:

تحدثت الآية السابقة عن الرشد الذي ينتج عن الإيمان بالله تعالى، والغى الذي ينتج عن الكفر به. والآية الحالية تزيد الموضوع شرحاً. وحسب الاستعمالات القرآنية، فإن التعبير القرآني: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني يقودهم إلى النجاح والسعادة، ليس من الناحية الروحية فحسب، بل من الناحية المادية أيضاً. والعكس من ذلك يعني القيادة إلى الفشل والشقاء.

وكلمة ﴿الظَّالِمُونَ﴾ التي جاء شرحها في الآية السابقة، تشير هنا بشكل عام إلى قادة السوء الذين يصرفون الناس عن الطريق المستقيم. فبسببهم ينقاد المكذبون إلى الفشل والشقاء، وبالتدرج يفقدون ما كان قد تبقي فيهم من آثار الإيمان الذي كان قبل بعثة النبي ﷺ. ورفضهم إياه جعلهم يتنكرون للكثير من الحقائق التي كانوا يعترفون بها من قبل. أضف إلى هذا أن حرمانهم من نور الدين الجديد جعل

الظلام يكتنفهم تماماً. إِنَّ الإسلام لا يأتي فقط لأتباعه بنور جديد، وإنما يأتي لهم أيضاً بالنجاح والسعادة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ
اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ
بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٩﴾

التفسير:

تحدثت الآيات السابقة عن النهضة العظيمة والنجاح الكبير الموعودين للمسلمين، بعد أن خرجوا من الظلمات إلى النور. والآن يُقدّم لنا القرآن المجيد مثلاً على النهضة والتقدم الموعود، فيأخذنا إلى الماضي السحيق، إلى أيام إبراهيم عليه السلام.

يذكر القرآن المجيد حادثة وقعت في زمن إبراهيم عليه السلام تبين حقيقة ما جاء في الآية السابقة، أي ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، فهو سبحانه صديق المؤمنين ووليهم، وهو الذي يعينهم على أعدائهم، وسيهديهم طرق النجاح والفلاح، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

كان إبراهيم عليه السلام يسكن في مدينة «أور» الكلدانية، وكان قومه يعبدون النجوم ويعتبرون أن الشمس هي الإله الأعظم، أما إلههم الأول فكان «ميري داك» الذي كان في الأصل إله الصباح وشمس الربيع. وكان يُدعى أيضاً «بل» (دائرة معارف الكتاب المقدس، ودائرة معارف الأديان ج ٢ ص ٢٩٦).

كان إبراهيم عليه السلام في عدااء شديد لعبادة الأصنام والآلهة الباطلة، وكان دائماً يدعو قومه ليصرفهم عن ذلك. ويُروى أنه أشعل النار في بيت يحتوي على أصنام خشبية، وفي مناسبة أخرى حطّم بعض الأصنام ثم أحرقها، ولذلك أحضروه ليمثل أمام الملك الذي كان اسمه «نمرود» (سفر التكوين ١٠: ٨-٩، ودائرة المعارف اليهودية تحت اسم «إبراهيم»)، وكان الناس يعبدون ذلك الملك باعتباره يمثل آلهتهم. ويبدو أن الملك هدّد إبراهيم عليه السلام بالموت والدمار، فأجاب إبراهيم عليه السلام بشجاعة وثبات أنه لا يستطيع أن يضّرّه شيء، لأن الله تعالى الذي هو ربّه، هو الذي يحيي ويميت. ولما كان الملك يدّعي لنفسه الألوهية، فقد اندفع بحق يدّعي أنه هو الذي يحيي ويميت. وكان إبراهيم عليه السلام يعلم أن «نمرود» وأفراد شعبه يؤمنون بأن جميع أنواع الحياة تعتمد على الشمس. وعلى ذلك إذا كان للملك حقاً قدرة السيطرة على الموت والحياة، فهذا يعني أنه حتى الشمس لا بد أن تكون تحت سيطرته، وبذلك تكون عقيدة الملك والشعب بأن الشمس هي القوّة العظمى التي تسبب الموت وتهب الحياة، هي عقيدة خاطئة. وعلى ذلك، فقد طلب إلى الملك أن يُظهر قوته وسيطرته على الشمس، فيجعلها تأتي من المغرب بدلاً من المشرق، وبهذا يتبين فعلاً أنه هو، وليس الشمس، الذي له السيطرة الحقيقية على الحياة والموت. وبُهِت الملك، فلم يستطع أن يقول إنه لا سلطان له على الشمس، فإن هذا سوف يُثبت عجزه أمام الناس، وفي نفس الوقت لم يستطع أن يدّعي بأنه هو الذي يأتي بالشمس من المشرق وهو الذي يجعلها تغرب في المغرب، فإن قومه كانوا يعتبرون أن الشمس هي الإله الأعظم، وهي أعظم من الملك نفسه، ولو ادّعى أن له سلطاناً على الشمس لكان من المؤكّد أن يثير هذا غضب قومه وتمردهم عليه. لذلك فقد بُهِت وانعقد لسانه ولم يعرف بماذا يجيب.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى
عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا

فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ
 قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ
 مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ
 وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ
 إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا
 فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦٠﴾

شرح الكلمات:

خَاوِيَةٌ: مشتقة من خوى. يُقال خوى البيت أي: (١) سقط وتهدم؛ (٢) خلا من أهله (أقرب الموارد).

عُرُوش: جمع عَرْش. يُقال عَرْشُ أي بنى بيتًا. عَرْشُ البيت: بناه ورفع سقفه. كلمة «عرش» تعني: (١) سقف البيت؛ (٢) كرسي أو سرير المَلِك؛ (٣) ركن الشيء وقوامه؛ (٤) العز؛ (٥) رؤساء وقادة القوم؛ (٦) المظلة أو الخيمة أو البيت الذي يُستظل به؛ (٧) ما يُدعّم الكرم من خشب (أقرب الموارد ومعجم لين).

يَتَسَنَّه: مشتقة من سَنَة وتعني: (١) أنت عليه السنون؛ (٢) دخل على الطعام أو ما شابهه التعفن أو تغيّر بمر السنين. و«تسنّه» تعطي نفس معنى «سنة» (أقرب الموارد).

التفسير:

قدّمت الآية السابقة مثالاً يبين كيف يُخرج الله تعالى أولياءه من الظلمات إلى النور. وكما تومئ بذلك الكلمات ﴿أَوْ كَالَّذِي﴾ تقدّم الآية الحالية مثالاً آخر يبين كيف ينفخ الله تعالى الحياة في قوم بعد أن يكونوا قد سقطوا في وهدة من الخزي والمهانة.

إن القرية التي تذكر الآية أنها أصبحت ﴿خَاوِيَةً عَلَىٰ عُرُوشَهَا﴾ هي أورشليم التي دمرها الملك نبوخذنصر، والشخص الذي مرّ على هذه القرية هو النبي حزقيال عليه السلام، أحد أنبياء بني إسرائيل. ويشير قوله تعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشَهَا﴾ إلى أن مرور حزقيال عليه السلام بأورشليم حدث بعد تدميرها على يد نبوخذنصر. وكان حزقيال عليه السلام بين الأسرى الإسرائيليين الذين حملهم نبوخذنصر إلى بابل. وكانت العادة المتبعة آنذاك أن المنتصر يجعل أسراه يمرّون أمام حطام مدينتهم لكي يشاهدوا بأعينهم كيف تحطمت مدينتهم وأصابها الدمار على يد الفاتح المنتصر. وقد شعر حزقيال عليه السلام بألم شديد عندما رأى حطام المدينة المقدسة، فقد كان بطبيعة الحال ممّن يرجون الخير لأمتّه. وقد سأل حزقيال عليه السلام الله تعالى متى تعود الحياة إلى هذه المدينة مرّة أخرى، أي متى يعود بنو إسرائيل لتعميرها والسكنى فيها مرّة أخرى. ويبدو أن الله تعالى استجاب لدعاء حزقيال عليه السلام، وأراه في رؤيا أن بعث الحياة في هذه المدينة سوف يحدث بعد مائة عام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تِلْكَ الْأُمَّةُ الَّتِي كَانَتْ يُدْعَوْنَ إِلَيْهَا لْيَسْمَعُوا فَتُلَاقُوا أَلَمًا لَّعِيمًا﴾ لا يعني أنه قد مات فعلاً ثم أعاده الله تعالى مرّة أخرى إلى الحياة. إن ما رآه حزقيال عليه السلام كان رؤيا فعلاً (سفر حزقيال ٣٧). والقرآن المجيد يذكر أحياناً بعض المشاهد التي شوهدت في الرؤيا، ولكنه يذكرها كما لو أنها قد حدثت حقيقة دون أن يذكر أنها قد حدثت في الرؤيا. كما ذكر القرآن المجيد على لسان يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٥). وما حدث أن حزقيال عليه السلام رأى أنه مات في الرؤيا لمدة مائة عام ثم عاد إلى الحياة مرّة أخرى. وحيث إنه كان نبياً، ويمكن أن يمثل النبي قومه في الرؤيا، لذلك فقد أخبره الله تعالى عن طريق الرؤيا أن بني إسرائيل سوف يظلون في حال موات في الأسر لمدة مائة عام، وبعد ذلك سوف تُبعث فيهم حياة جديدة ويعودون مرّة أخرى ليعيشوا في مدينتهم المقدسة. وقد تحقّق هذا الحلم بالفعل. فقد غزا نبوخذنصر أورشليم للمرّة الأولى عام ٥٩٧ ق.م، ومرّة أخرى عام ٥٨٧ ق.م.

وقد تمّ تدمير المدينة تماماً بعد حصار دام لمدة عام في ٥٨٦ ق.م. وأعيد بناء المدينة بعد حوالي مائة عام من تدميرها، وهكذا تحققت الرؤيا.

وإنه من الخطأ الظن بأن الله تعالى أمات حزقيال عليه السلام فعلاً، وأنه ظل ميتاً لمدة مائة عام، ثم عاد بعد ذلك إلى الحياة، فإن هذا لم يكن الجواب الذي طلبه في دعائه الذي لم يكن يتعلق بالموت والبعث من الموت لأي شخص، وإنما يتعلق بالمدينة التي كانت في حطام ودمار.

وحسب الاستعمال القرآني جاءت الكلمات ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لتبين عدم تحديد زمن معيّن، وأن حزقيال عليه السلام لم يكن يعلم كم من الزمن مرّ عليه وهو في تلك الحالة خلال الرؤيا. وقد جاء استعمال هذا الأسلوب في مكان آخر من القرآن المجيد أيضاً، إذ جاء على لسان أهل الكهف: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ (الكهف: ٢٠). وجاء أيضاً في مكان آخر: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ (المؤمنون: ١١٣-١١٤).

والواقع أن كلمة «يوم» هنا لا تعني يوماً يتكون من ١٢ ساعة (من شروق الشمس إلى غروبها) أو ٢٤ ساعة (نهاراً وليلاً)، وإنما يعني الزمن على الإطلاق، كما في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاحة: ٤). وعلى ذلك فإن قول حزقيال عليه السلام: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ يمكن أن يتعلق بالزمن الذي قضاه في نومه أو بالزمن الذي استغرقته الرؤيا. ومن الواضح أنه ظن السؤال يتعلق بالزمن الذي استغرقته الرؤيا.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ يبيّن أنه رغم بقاءه في الرؤيا في حالة الموت لمدة مائة عام، إلّا أن قوله بأنه بقي يوماً أو بعض يوم صحيح أيضاً، لأن الزمن الذي استغرقته الرؤيا كان بالطبع قصيراً جداً. ولكي يبيّن الله تعالى هذه الحقيقة لحزقيال عليه السلام، لفت نظره إلى طعامه وشرابه وحماره. وبقاء الطعام والشراب بغير أن يفسداً، وبقاء الحمار على قيد الحياة، يبيّن أنه بالفعل بقي لزمان قصير. وتبين الكلمات ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ أيضاً أن حزقيال عليه السلام رأى رؤياه وهو نائم في الحقل

بينما كان حماره يقف بجواره، إذ كان الأسرى من بني إسرائيل يعملون في الحقول خلال مدّة وجودهم في الأسر.

وبينّ قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أن حزقيال عليه السلام سيكون للناس آية فيما يتعلق بتحقيق رؤياه عن عودة بني إسرائيل ليعيشوا مرة أخرى في أورشليم. أما الكلمات ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ فهي تعبّر عن شعب بني إسرائيل الذين كانوا يشعرون أنهم قد صاروا مثل العظام النخرة، فلا أمل لهم في العودة إلى الحياة مرّة أخرى (حزقيال ١١: ٣٧-١٢). وتعني هذه الكلمات أن الله تعالى هو القادر على أن يكسو العظام لحماً وينفخ فيها حياة جديدة مرة أخرى. غير أنه ينبغي أولاً أن تتجمّع العظام، أي أن يعود بنو إسرائيل إلى مدينتهم أولاً، ثم يبدأ بعد ذلك كسو العظام لحماً، أي تبدأ عملية البناء لكي تدبّ الحياة في المدينة مرة أخرى.

وقد جاء ذكر رؤيا حزقيال عليه السلام في الكتاب المقدّس في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر حزقيال.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي
الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن
لِّيَظْمِنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ
فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ
مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ
أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦١﴾

شرح الكلمات:

تَحْيِي الْمَوْتَى: لشرح كلمات: حياة وموت وميت، راجع الآيات ٢٠، ٢٩، ٥٧، ٧٤ من نفس السورة.

يَطْمَئِنُّ: مشتقة من طمأن. يُقال طمأن ظهره أي حناه وخفضه. طمأن الشيء: سكّنه وهدّاه. اطمأن: سكن وأمن. المطمئن تعني: (١) الساكن الهادئ؛ (٢) «المطمئن من الأرض»: السهل المنخفض (أقرب الموارد).

صُرْهُنَّ إِلَيْكَ: صُرْهُنَّ مشتقة من صار حيث أن الحرف الأوسط لمصدر الكلمة هو الواو. يُقال صار الشيء إلى نفسه أي أماله. صار وجهه إليّ: أقبل بوجهه عليّ. صرت الغصن لأجتنى الثمر: أملتّه عليّ لأقطف ثمره. أمّا صار حيث أن الحرف الأوسط لمصدر الكلمة هو الياء فتعني: قطع وفصل (أقرب الموارد). لقد استخدم القرآن هنا كلمة «صار» التي حرف الوسط لمصدرها هو الواو كما هو واضح من الضمة التي على الصاد في «صُرْهُنَّ». وعلاوة على ذلك، فإن إلحاق حرف الجر «إلى» بكلمة «صُرْهُنَّ» في قول الله تعالى: ﴿صُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يدل على أن المقصود هو الإمالة أو الوصل وليس القطع.

جُزْء: مشتقة من جزأ. يقولون جزأ الشيء أي قسّمه وجعله أجزاء. لذا فكلمة «جزء» تعني نصيب أو قسم أو حصة من الشيء (معجم لين). وعلى ذلك لو كان الشيء مكوّنًا من مجموعة أو يحتوي على مجموعة من الأقسام أو الحصص أو الأجزاء، فإن كلمة «جزء» تعني الفرد الواحد منها.

التفسير:

تقدّم هذه الآية الكريمة مثالاً آخر لعملية الحياة والموت التي يقضي الله تعالى بحدوثها في هذه الحياة الدنيا، أي أنها تتحدّث عن قيام وانهايار الأمة. وقد سأل إبراهيم عليه السلام ربه ﷻ أن يُريه كيف تنهض الأمة وتحيا بعد أن كانت قد سقطت وأصابها الموت والانهايار.

إن الفرق بين الإيمان والاطمئنان هو أن الإيمان يعني أن يؤمن المرء بأن الله تعالى قادر على فعل شيء معين، كأن يؤمن مثلاً بأن الله تعالى قادر على مغفرة الذنوب؛ وأما الاطمئنان فهو اليقين بأن الله سوف يفعل ذلك الشيء في حق الشخص المطمئن، أي أن يطمئن المرء مثلاً بأن الله تعالى سوف يغفر ذنوبه. وقد كان إبراهيم عليه السلام يؤمن بأن الله تعالى قادر على أن يرّد الحياة إلى قوم أصابه الموت والخراب، ولكنه أراد أن يطمئن على أن الله تعالى سوف يعيد ذريته إلى الحياة إذا أصابهم الموت، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

بعد ذلك تصف الآية رؤيا لإبراهيم عليه السلام. ومعنى أن الله تعالى أمره أن يأخذ أربعة من الطير، هو أن ذريته سوف تمرّ بأربع مراحل من النهوض والانهياء، أو من الحياة والموت. وقد حدثت هذه النهضة والانهياء مرتين في تاريخ بني إسرائيل الذين كانوا من سلالة إبراهيم عليه السلام من خلال إسحاق عليه السلام، ثم تكررت نفس الظاهرة بين أتباع الرسول ﷺ الذين كانوا من سلالة إبراهيم عليه السلام من خلال إسماعيل عليه السلام.

لقد سحقت قوة بني إسرائيل مرتين، كانت أولاهما على يد نبوخذنصر ملك بابل، وكانت الثانية على يد تيطس القائد الروماني (انظر سورة الإسراء: ٥-٨؛ سفر أخبار الملوك الثاني إصحاح ٢٥؛ دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة «اليهود»). وبعد كل مرة كان الله تعالى يبعث فيهم الحياة. كانت المرة الأولى لبعث الحياة بعد أن أعان بنو إسرائيل الملك «كورش» ملك فارس ضد مملكة بابل، فكافأهم كورش بأن سمح لقبيلتين منهم بالعودة إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل. وأما المرة الثانية فكانت من نصيب الفئة التي آمنت بالمسيح ابن مريم بعد أن دخل الإمبراطور الروماني قسطنطين في المسيحية، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى في القرآن المجيد: ﴿فَأَمَّنتُ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتُ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف: ١٥). أما بالنسبة للأمة الإسلامية، فقد حدث الانهيار الأول عندما سقطت بغداد في أيدي التتار، ثم نهضت الأمة بعد ذلك واستطاعت أن ترح الغزاة الفاتحين من التتار إلى الإسلام. وأما الانهيار الثاني للأمة الإسلامية فهو

في العصر الحديث، حيث انهارت القوة الروحية والأخلاقية والسياسية للمسلمين. والنهوض النهائي للأمة هو ذلك الذي سوف يتم بواسطة الجماعة الإسلامية الأحمدية التي أسسها حضرة مرزا غلام أحمد الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام.

وقد علق الرسول ﷺ على الآية الحالية فقال: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام» (مسلم - كتاب الإيمان). وإن صحَّ هذا الحديث فإن كلمة «الشك» هنا ليست بمعنى الارتياب في حقيقة أمر ما، وإنما تعني رغبة مكنونة قويّة تنتظر في تلَهّف أن تتحقّق. فلم يحدث أبداً أن خامر الرسول ﷺ أيّ شكّ، وهذا يدل على أن إبراهيم عليه السلام لم يخامره أيّ شكّ أيضاً، وإنما كان الدافع وراء سؤاله هو الرغبة المتلهّفة. لقد كان على يقين أن الله قادر على أن يبعث الأُمّة إلى الحياة، ولكنه كان يريد أن يطمئن بأن الله تعالى القدير سوف يفعل ذلك في حق قومه أيضاً. فكلّمة «شك» هنا تعني فقط الإحساس المكنون باللهفة، أو حالة التوقان إلى حدوث شيء.

إن الانهيار المزدوج المتبوع ببعثِ لبني إسرائيل، وأيضاً الانهيار والنهوض المناظر لذلك في بني إسماعيل، يجعل عدد مرّات وقوع هذه الظاهرة أربع مرّات. ويمكن تفسير المرّات الأربع من منظور آخر. فإن أُمّة بني إسرائيل كانت أُمّة في حالة انحطاط وانهيار كامل قبل بعثة موسى عليه السلام، ثم بعث الله تعالى فيهم الحياة من خلاله عليه السلام. ثم سقطوا مرة أخرى في حالة مهينة من الانحطاط تحت حكم الرومان قبل بعثة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذي بعث فيهم الحياة مرة أخرى. وكذلك كان بنو إسماعيل في حالة من الظلام والجاهلية والانحطاط قبل بعثة الرسول ﷺ الذي نفخ فيهم حياة جديدة، ثم عادوا مرة أخرى الآن إلى ظلام الانحطاط، حيث قدّر الله تعالى أن يهبهم حياة جديدة على يد أحمد المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام.

وقد فسّر الكثير من المفسّرين كلمة «صُرهن» لتعني «قَطَّعن قطعاً صغيرة كاللحم المفروم». غير أن هذا التفسير ظاهر الخطأ، فكما جاء تحت شرح الكلمات، إن الفعل «صار، يصور» بحرف الواو هو الحرف المتوسط في الفعل الثلاثي يعني «قَرَّبَهْنَ

إليك» وليس «قَطَّعْن» خاصة إذا تبع الفعل حرف الجرّ «إلى». وعلى هذا فإن كلمة «صُرَهْنَ» تعني «قَرَّبَهْنَ إِيْلَكَ» حتى يرتبطن بك. وفي هذه الحالة يكون وضع جزء من الطيور الأربعة على كل جبل يعني وضع طير قائم بذاته على جبل قائم بذاته، ولا يعني وضع جزء من اللحم المفروم على كل جبل. وتعبير وضع كل من الطيور الأربعة على جبل منفصل عن الآخر يعني أن النهضة والسقوط في كل من الحالات الأربع سوف تقع في زمن بذاته يختلف عن الأزمنة الأخرى. وقد استعمل القرآن المجيد كلمة «جزء» بهذا المعنى في قوله تعالى عن جهنم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤٥).

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِّمَّةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٦﴾

التفسير:

بيّنت الآيات السابقة أن الله تعالى يقضي بمنح حياة جديدة للأمم التي تستحق الحياة، بعد أن تكون قد انحطت وانهارت وتحوّلت إلى حالة الموات، وقد ذكر الله تعالى حالة بني إسرائيل كمثال على ذلك. وقد بيّنت الآيات أيضاً أن سلالة إبراهيم عليه السلام سوف تُبعث فيها الحياة أربع مرات، مرتين ينهض فيهما بنو إسرائيل، ومرتين يبعث الله الحياة في بني إسماعيل. والآن، ومن أجل إعداد المسلمين للحياة المرتقبة والنهضة الموعودة، يذكر الله تعالى وسائل النهضة القومية، فيحض المؤمنين على الإنفاق بسخاء في سبيل الله تعالى، مشيراً إلى أنهم يماثلون الحبة التي تتضاعف ٧٠٠ مرة ويزيد. وعلى ذلك، فإن السبعمئة ضعف هو الحد الأدنى للجزاء الذي سوف

يناله المسلمون، ولكن لا حدود على ما يفيض الله تعالى به عليهم زيادة على ذلك. ويشهد التاريخ على أن هذا الوعد قد تحقق على أكمل وجه، فإن الجزاء الذي أنعم الله تعالى به على المسلمين الأوائل في هذه الدنيا، يفوق كثيراً عن ٧٠٠ ضعف لما أنفقوه في سبيل الله تعالى، ويزيد بشكل لا حصر له. وأما الجزاء في الدار الآخرة فلا شك أنه أكبر وأعظم.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا
يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٦﴾

شرح الكلمات:

مَنًّا: مشتقة من مَنَّ. يُقال مَنْ عَلَيْهِ أَي: (١) أنعم عليه به من غير تعب ولا نَصَبٍ واصطنع عنده صنيعَةً وإحساناً؛ (٢) عدَّ له ما فعله له من الصنائع (أقرب الموارد). وعلى ذلك فقد يراد بالْمَنَّ الإِنعام أو التفاخر والتعير.

التفسير:

إن كل شيء جيد يمكن أن يُساء استعماله، وإساءة الإنفاق في سبيل الله تعالى هي أن يُتبع المرء إنفاقه بـ«المن»، أي التباهي والفخر بالإنفاق، و«الأذى»، أي جرح مشاعر الآخرين أو إنزال الضرر بهم. إن الذين ينفقون ثرواتهم في سبيل الله تعالى، لا يجوز لهم أن يتحدثوا بلا داعٍ عن الأموال التي أنفقوها، أو الخدمات التي قدّموها للإسلام، لأن هذا أيضاً نوع من المن. وأيضاً ليس من حقهم أن يطالبوا بشيء مقابل ما أنفقوه أو ما أدّوه، لأن هذا يُعدّ نوعاً من الأذى. ويتوقع بعض الناس الحصول على بعض المنافع المادية، أو تحقيق بعض المصالح الدنيوية، في مقابل خدماتهم من أجل الدين، وإن لم تتحصّل هذه المنافع، أو إن لم تتحقق هذه المصالح، فإنهم يغضبون.

وأحياناً يحدث أن بعض الناس الذين يساعدون بأموالهم أولئك الذين يشتغلون بخدمة الدين، يرغبون في أن يستفيدوا منهم ببعض الخدمات مقابل مساعدتهم بأموالهم. وكل هذا يأتي تحت كلمة «أذى»، لأن هذه المطالب تسبب الكثير من الأضرار والمضايقات. والإسلام يدين «المن» و«الأذى» سواء كان ذلك في حق الفرد أو الجماعة. فإن الله تعالى يريد منا أن نقدّم الخدمة المطلوبة وننسى أننا قدّمنا شيئاً، وإلا فإن ذلك سوف يُفسد حسن العمل.

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٤﴾

شرح الكلمات:

غَنِيٌّ: مشتقة من الفعل غَنِيَ أي كثر ماله وكان ذا وفرة. و«غنيٌّ» تعني: أنه لا يحتاج لشيء؛ مكتفياً بذاته؛ قويٌّ. و«الغني» من أسماء الله الحسنى ويعني المكتفي بذاته والمستغني عن عداه (معجم لين).

التفسير:

تذكر الآية هنا صفة «الغني» لله تعالى لتبين أنه إذا كان إنفاق المال في سبيله تعالى سوف يتبعه جرح لمشاعر أحد، أو أذى لأحد، فمن الأفضل ألا يُنفق ذلك المال على الإطلاق، لأن الله تبارك وتعالى هو الغني، وهو ليس في حاجة إلى مال أحد. إن الأمر بالإنفاق في سبيل الله تعالى هو لمصلحة الشخص الذي يستجيب للأمر الإلهي وينفق في سبيله. فإذا تحوّل هذا الإنفاق ليكون مصدراً لفساد الأخلاق أو الإساءة إلى أحد، فإن الله تعالى لا يرضى عن هذا الإنفاق. وأما صفة «الحليم»، التي تعني أيضاً «ذو العقل والحكمة»، فهي تشير إلى أن الله تعالى ببالغ حكمته يعلم أن أوامره بالإنفاق في سبيله ﷻ ليست لأنه سبحانه في حاجة إلى المال من أحد، ولكن

لأنه بحكمته يعلم أنّ الإنفاق في سبيله يؤدي إلى تنمية المشاعر الطيبة في الإنسان نفسه؛ كما أنّ صفة «الحليم» تشير إلى أن الله تعالى رغم أنه بطيء في غضبه وإنزال عقابه، إلا أنه إذا استمر أولئك في إبطال الأثر الطيب لأعمالهم بإيذاء الآخرين أو جرح مشاعرهم، فإن عقابه سوف يحلّ بهم.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى﴾ يعني أنه من الأفضل الامتناع كلية عن الإنفاق إذا كان الإنفاق سوف يتبعه أذى. وفي هذه الحالة، ينبغي على الإنسان أن يقول «قولاً معروفاً»، أو كلمة عطف للشخص الذي يسأله المعونة، بدلاً من أن يعطيه المعونة ثم يتبع ذلك بما يؤذيه. وعلى المرء أيضاً أن يتبع أسلوب «المغفرة» التي تعني حرفياً «التغطية»؛ أي على المرء أن يغطي أو يخفي حالة العوز أو الحاجة التي يشعر بها الشخص الذي يسأله المعونة، فيمتنع عن الحديث عنها أمام الآخرين، حتى لا يشعره بالخجل. ويمكن أن تكون «المغفرة» من جانب الشخص الذي يطلب المعونة، إذ عليه أن يغفر للشخص الذي يعبر عن عدم استطاعته تقديم المعونة. أما إذا كان الإنفاق، أو كانت «الصدقة» المذكورة في هذه الآية من أجل الأهداف القومية، فإن «القول المعروف» يعني تقديم الرأي الأفضل والمشورة الجيدة. وإذا لم يستطع المرء أن يُنفق بغير أن يتبع ذلك بالأذى، أي بغير توجيه النقد والإساءة للمسؤولين عن الإنفاق العام، فالأفضل له ألا يُنفق شيئاً أصلاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ
وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ

صَلَدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٥﴾

شرح الكلمات:

رِئَاءً: مشتقة من رأى أي نظر بجاسة العين أو بالتخيّل أو بالفكر. «الرئاء»: التظاهر بخير دون حقيقة أو إظهار ما يخالف الباطن اجتلاباً للسمعة (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

صَفْوَانٌ: على وزن رحمان ومشتقة من صفا بمعنى صار خالصاً ونقيّاً من الشوائب، إلخ. صفوان: تستخدم للمفرد وأيضاً جمع لكلمة «صفاء» وتعني: الحجر الصلد الضخم (أقرب الموارد).

وَابِلٌ: مشتقة من وَبَلَ. يُقال وبله بالعصا أي ضربه بها ضرباً متتابعاً. وبلت السماء: أمطرت مطراً شديداً (أقرب الموارد).

صَلَدٌ: مشتقة من صَلَدَ. يُقال صَلَدَ الزند: صَوَّتَ ولم يُور. صلدت الأرض: صلبت. صلد السائل المسؤول: لم يعطه شيئاً. «الصلد»: الصلب الأملس من الحجارة أو الأرض الذي لا يُنبت شيئاً (أقرب الموارد).

التفسير:

توضّح الآية أن المؤمن الذي يُتبع صدقته بالمن والأذى، يُفسد عمله بنفسه ولا جزاء له عند الله تعالى. فمثله كمثل الكافر الذي ينفق ماله لكي يراه الناس ويثنون عليه. وقد أضيفت الكلمات ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لبيان أنه في بعض الأحيان يحدث أن يقوم المؤمن بأداء عمل ما لكي يراه الناس، ولكن عمله هذا يكون من أجل غرض شريف نافع. فمثلاً حدث مرّة أنّ أحد صحابة النبي ﷺ سار بخيلاء أمام نفر من قريش من أهل مكة، وحينما رأى الرسول ﷺ الرجل يتبختر في مشيته

قال: "إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الوطن". وفي الواقع، كانت الحمى قد تفشت بين المسلمين، مما جعلهم يشعرون بضعف شديد، ولكن الصحابي المذكور تعمّد أن يمشي بأنفة وخيلاء أمام أولئك الأعداء، ليضفي مظهرًا من القوة، حتى لا يظنّ العدو أنّ الحمى قد أضعفت المسلمين. وهذا ما أدّى إلى أن يتحوّل العمل الكريه الممتن إلى عمل يستحق الثناء. وفي مكان آخر يحضّ القرآن المجيد المسلمين على أن ينفقوا أموالهم سرًّا وعلانية (البقرة: ٢٧٥)، والغرض من ذلك أنّ الآخرين عندما يرون أخًا لهم ينفق في سبيل الله تعالى، فإن ذلك يحثهم ويشجعهم على اتباع أسوته الحسنة. ولكن الذي لا يؤمن بالله، فإنه غالبًا يُنفق أمام الناس بغرض كسب ثناء الناس عليه، ومثل هذا لا جزاء له عند الله تعالى.

والجزء الأخير من الآية الكريمة يشبّه الكافر بالصخر الأملس الصلد الذي لا يصلح لزراعة المحاصيل، ولكن يحدث أحيانًا أن تنمو عليه بعض النباتات إذا غطّته طبقة رقيقة من التراب، مما يعني أنه عندما تكون الظروف مواتية ويُقدم الإنسان على فعل عمل جيد حقًّا، فإنه يمكن أن ينال بعض النفع منه. ولكن حين ينفق المرء لمجرّد الظهور والرياء، فإن أعماله الطيبة تضيع هباء كما يزيل الوابل، أو المطر الغزير، طبقة التراب من على سطح الحجر الصلب الناعم، تاركًا إيّاه عاريًا لانتاج له.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ
 اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ
 أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ
 فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

تَثْبِيْتًا: مشتقة من ثَبَّتَ بمعنى: دام؛ استقر في مكانه؛ صار راسخًا. ثبت الأمر: تحقق وتأكد. أثبتته: جعله ثابتًا ومستقرًا؛ حبسه؛ جرحه جراحًا أقعدته وأعجزته. أثبت الحق: أكدّه بالبينة. ثَبَّتَهُ: أقره وقوّاه حتى جعله يتحمل الامتحان أو أي هزة (أقرب الموارد ومعجم لين).

رَبْوَةٌ: مشتقة من ربا. يُقال ربا المال أي زاد ونما. ربا الولد: نشأ وكبر. ربا فلان الرابية: علاها. «ربة» و «رابية»: ما ارتفع من الأرض (أقرب الموارد). «الربا»: من نفس المصدر وتعني الفائدة أو الربح الذي يتناوله المرابي من مدينه.

التفسير:

إن الإنفاق في سبيل الله تعالى يؤدي إلى تثبيت النفس، فإن المرء الذي يجاهد في الله تعالى بالإنفاق في سبيله يفرض على نفسه حملًا، مما يزيده ثباتًا ورسوخًا في إيمانه. وبالإضافة إلى ذلك، كما أنه يعين الآخرين بماله، فإن الله تعالى يعينه بفضله ويحفظه من السوء.

إنّ قلوب المؤمنين الذين ينفقون بسخاء في سبيل الله تعالى تماثل الأرض المرتفعة التي لا يصيبها المطر الغزير بضرر كما يصيب الأماكن المنخفضة، بل على العكس، إنّ الأرض المرتفعة تستفيد دائماً من المطر، سواء كان وابلًا غزيرًا أو خفيفًا من الطل. والصدقة في الآية الكريمة تشبه المطر. وأولئك الذين ينفقون أموالًا كثيرة في سبيل الله تشبّهم الآية بالوابل الغزير، وأمّا أولئك الذين لا يستطيعون إلا أن ينفقوا القليل من المال في سبيل الله تعالى، فالآية تشبّهم بالطل أو المطر الخفيف (انظر أيضًا التوبة: ٧٩). وكلا الفريقين من الناس يستفيد من ذلك بقدر ما يناله من قدرة تتزايد على فعل الطيّب من الأعمال، ومن تلقّي الجزاء الأوفى من الله تعالى. لأنه سبحانه لا ينظر إلى كمية المال التي أنفقها المرء، وإنما ينظر إلى النسبة بين ما أنفقه وما أبقاه لإنفاقه في أغراضه الدنيوية. إن كلمة «طلّ» تطلق على أخف كمية من المطر، وهي

تطلق أيضاً على الندى (معجم لين)، وقد جاءت في الآية لبيان أن أقل كمية من المال الذي يُنفق في سبيل الله عزوجل، له أيضاً جزاء عند الله تعالى.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ
نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ
وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ
فَأَحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٧﴾

شرح الكلمات:

ذُرِّيَّةٌ: مشتقة من ذرّ أو ذرأ. الفعل ذرّ يعني: فرّق ونثر. يُقال ذرّ الحبّ في الأرض أي بذره. ذرّ الأرض النبات: أطلّعه. وبالمثل فالفعل ذرأ يعني كثر الشيء إلخ؛ أو خلّق. يُقال ذرأ الله الخلق أي خلقهم. «الذرة» واحدة «الذرّ» وتعني: صغار النمل؛ الهباء المنتشر في الهواء. «ذُرِّيَّة» تعني: النسل. ذُرِّيَّة الرجل: أولاده (أقرب الموارد وتاج العروس).

التفسير:

إن التشبيه المذكور في هذه الآية الكريمة يذكر المؤمن بأن إنفاق ماله رياء الناس، أو إتباع صدقته بالمن والأذى، سوف يؤدي إلى فساد نفقته وضياع صدقته. وفي يوم القيامة لن يجد شيئاً صالحاً في انتظاره، فمثله كمثل العجوز الضعيف الذي يمتلك ثروة كبيرة وله أطفال ضعفاء، ولكنه فقد كل ثروته فجأة نتيجة حادث دمّر تلك الثروة، وتركه خالي الوفاض، غير قادر على إطعام نفسه، فضلاً عن إطعام أطفاله الصغار. وإذا كان الإنسان لا يتحمّل أن يرى نفسه عاجزاً عن إطعام نفسه وإطعام

صغاره في هذه الدنيا، التي هي على أي حال محدودة وقصيرة الزمن، فكيف يتحمل أن يرى عمله في سبيل الله تعالى، وهو ما أعدّه لنفسه لحياة أزلية في الدار الآخرة، ينهار ويحترق بسبب سوء فعله؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا
تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا
أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٨﴾

شرح الكلمات:

تَيَمَّمُوا: مشتقة من يَمَّ أو أَمَّ. يُقال يَمُّه أي قصده. يم فلاناً يرمح: توخاه وقصده دون سواه. تيمم الأمر: تعمَّده. تيمم للصلاة: مسح وجهه ويديه بالتراب (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

الْخَبِيثَ: مشتقة من خَبُث وتعني: صار رديئاً أو فاسداً أو سيئاً أو كريهاً أو بذيئاً أو شريراً، إلخ (معجم لين).

تُغْمِضُوا: مشتقة من أغمض المشتقة من غَمَضَ أي ذهب وغاب. غَمَضَ الكلام: خفي مأخذه ومعناه. أغمض: أطبق أو أغلق. أغمض عينه: أطبق جفنيه؛ تغاضى وتساهل في أمرٍ كأنه لا يراه أو كأنه غير موجود. أغمض في البيع: استحط من ثمن السلعة لرداءتها. أغمض عنه في البيع: تساهل معه (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

إن التوجيه الذي تتضمنه هذه الآية الكريمة هو أنه ينبغي على المؤمن أن ينفق في سبيل الله تعالى ما هو طيب وما هو جيّد، فحتى الأشياء التي اكتسبها المرء بطريق

شرعي، قد لا تكون أحياناً جيدة تصلح للإنفاق في سبيل الله تعالى. فلا يصح اختيار الأشياء عديمة النفع للتصدق بها. نعم يمكن التصديق على الفقراء بالأشياء القديمة أو المستعملة، ولكن يجب ألا يقتصر المرء على التصديق بهذه الأشياء أو اختيارها بالذات للصدقة. إن المؤمن يكون حقاً قد أدى واجبه في الإنفاق في سبيل الله عزوجل إذا أنفق فقط مما هو طيب وصالح للصدقة.

الشَّيَاطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ
بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٩﴾

شرح الكلمات:

الْفَقْرُ: الفعل فَقَرَ يعني: حَفَرَ أو ثَقَب. فَقَرَ: ذهب ماله. فَقَرَ: اشتكى فقره من كسرٍ أو مرض. «الفقر» يعني: ضد الغنى؛ العوز والحاجة؛ الهم. «فقير» الواحد من «فقراء» وهو: المحتاج المسكين الذي أدلّه الفقر؛ أو من يشكو ظهره من كسر أو مرض (أقرب الموارد).

التفسير:

إن السلاح الفعّال في يد الشيطان، هو أن يوسوس للناس أنهم إذا أنفقوا في سبيل الله، فسوف يصيبهم الفقر. غير أن هذا الرأي من أحق ما يكون، لأنه إذا أطاع الناس وساوس الشيطان ستكون النتيجة هي الفقر فعلاً، أي أن الموارد القومية سوف تنضب ويصيب الدولة فقر وعوز. وإذا حدث هذا فلا بد أن يتأثر الأفراد بذلك. وأيضاً إن لم يحرص القادرون من أعضاء المجتمع على تقديم المساعدة لمن هم أقلّ منهم حظاً، فإن هؤلاء قد يميلون إلى الفحشاء؛ أي اتباع الوسائل البذيئة والمخادعة من أجل الحصول على النفقة، وبذلك تتدهور أحوال المجتمع بوجه عام.

والكلمتان اللتان جاءتا في هذه الآية الكريمة، والترتيب الذي جاءتا به يتطلبان شيئاً من الشرح. فإن كلمة ﴿فَضْلاً﴾ تقابل كلمة ﴿الْفَقْرُ﴾، وكلمة ﴿مَغْفِرَةً﴾ تقابل كلمة ﴿الْفَحْشَاءَ﴾. وعلى حسب هذا التقابل كان ينبغي أن تأتي كلمة ﴿فَضْلاً﴾ قبل كلمة ﴿مَغْفِرَةً﴾، ولكن ليس هذا هو الترتيب الوارد في الآية، وذلك لأنه لما كانت نتيجة الاستجابة لوسوسة الشيطان هي الفقر ثم ارتكاب الفحشاء، كان من الطبيعي أن تكون المغفرة هي النتائج الأول للإنفاق في سبيل الله تعالى، ثم يأتي بعد ذلك الفضل من الله تعالى.

وهناك سبب آخر لهذا الترتيب، وهو أن الشخص الذي يقع فريسة للميول الشيطانية، يحرص على اقتناء الثروة أكثر من حرصه على الانصاف بالصفات الطيبة، ولذلك يأتي الخوف من الفقر بالنسبة له في المقام الأول قبل الفحشاء. أما بالنسبة للمؤمنين، فإنهم يهتمون أولاً بنوال المغفرة من الله تعالى، وبعد ذلك يأتي الفضل والمكاسب الدنيوية في المقام الثاني.

والمغفرة التي يعد الله عزوجل بها هنا تعني أنه سوف ينظر بعين العطف إلى أولئك الذين يُنفقون في سبيله. والناس أيضاً يتعاملون بعطف ورحابة صدر مع أولئك الذين يتصدقون بأموالهم، فإذا عُرف إنسان بأنه يساعد الفقير ويلبي حاجة المحتاج، فإن الناس عموماً يتجاوزون عن أخطائه. وكذلك فإن الله تعالى يتجاوز عن أخطاء الذين يتصدقون بأموالهم على الفقراء. لا، بل إنه ﷻ يفعل أكثر من هذا، فإنه يفيض عليه بفضله ورزقه، ويجعله يثرى ويزدهر نتيجة لصدقته. والآية تومئ أيضاً إلى أننا إذا لم نستجب لدعوة الشيطان، فأنفقنا أموالنا لصالح الإنسانية، فإننا لن نثرى ونزدهر كأفراد فحسب، وإنما سوف نتقدم ونزدهر كأمة أيضاً.

وأخيراً، إن الله تعالى ﴿وَاسِعٌ﴾، أي أنه صاحب الفضل العظيم، وبذلك فإن فضله لا حدود له. وهو كذلك ﴿عَلِيمٌ﴾، ولذا فإنه سبحانه سوف يؤتي المؤمنين من فضله بطرق تفوق كل خيالهم وجميع توقعاتهم.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٧٠﴾

التفسير:

تشير الآية الكريمة إلى أنّ الأمر بإنفاق المال والتصدق به في سبيل الله عزوجل هو سرّ تقدّم الأمة، وهو أيضاً يقوم على ﴿الْحِكْمَةِ﴾. وتومئ كلمة ﴿الْحِكْمَةِ﴾ أيضاً إلى تحقق دعاء إبراهيم عليه السلام الذي توجه به إلى الله تعالى لكي يبعث رسولاً في أهل مكة ليعلمهم الكتاب والحكمة (البقرة: ١٣٠). ومن ينال الحكمة فقد نال خيراً كثيراً. وهم بذلك سوف يحققون حتماً نجاحاً كبيراً وازدهاراً عظيماً إذا هم عملوا بها.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧١﴾

شرح الكلمات:

نَذَرْتُمْ: مشتقة من نَذَرَ أي أوجب على نفسه ما ليس بواجب؛ وهب ابنه لخدمة الدين. «النذر»: ما يوجبه الشخص على نفسه تبرعاً من عبادة أو صدقة أو لحدوث أمرٍ وقيل ما كان وعداً على شرط (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

هناك حديث للرسول ﷺ يبين أنه لا يجب أن ينذر المؤمن نذراً مشروطاً لأداء أعمال الخير التطوعية، ولكن إذا فعل أحد ذلك يكون فرضاً عليه أن يفي بنذره.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ يعني أنه إذا أنفق أحد في سبيل الله تعالى، فإنه سبحانه يعلم ذلك ويقدره، وذلك بأن يتبعه بنتائج طيبة.

أما بالنسبة لأولئك الذين لا ينفقون، أو الذين لا يوفون بندورهم، فإن عقاب الله تعالى سوف يحل بهم، ولن ينفعهم حينئذ صديق ولا نصير ولا معين. كما لن يعين الله عز وجل مثل هؤلاء، ولا الملائكة أيضاً، ولن يعينهم الأنبياء ﷺ والصلحاء من الناس بشفاعتهم لهم.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا
وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ
مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧٢﴾

شرح الكلمات:

يُكَفِّرُ: مشتقة من كَفَّرَ المشتقة من كَفَرَ - راجع الآية ٧ من نفس السورة. يُقال كَفَرَ عنه سيئاته أي أن الله تعالى ستر أو غفر أو محأ أو عفا عن ذنوبه (معجم لين).

التفسير:

كان الإسلام من الحكمة أن يوصي بالتباعد كلتا الوسيلتين في إنفاق الصدقات؛ أي الإنفاق في السروفي العلن. فإذا تصدق المرء في العلن فإنه يكون مثلاً صالحاً لغيره، وبأخذ الكثيرون في التأسي به. والإنفاق في السر يكون أفضل في حالات كثيرة، لأن المرء بذلك يخفي حالة الفقر التي يعاني منها من تلقى منه الصدقة، وكذلك هناك إحساس بالرضا حين ينفق المرء سراً. وما يجدر ملاحظته هنا أن كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ تأتي في الآية مرتبطة بكلمة ﴿لَكُمْ﴾، ولكن كلمة ﴿نِعَمًا﴾ جاءت بغير أن ترتبط بشيء، مما يعني أنه بينما يكون الإنفاق في السر أفضل للمنفق، فإن الإنفاق في العلن يؤدي أحياناً إلى التشجيع على فعل الخير للمجتمع بوجه عام.

وحسب قواعد اللغة العربية، فإنَّ حرف ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مَنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، إما أن يُعتبر حرفاً زائداً يفيد تأكيد المعنى، أو أنه يعني «الكثير» من سيئاتكم، أو «البعض» من سيئاتكم. وعندما نأخذ هذه المعاني في الاعتبار، وأيضاً نضع في اعتبارنا المعاني المختلفة للكلمة ﴿يَكْفُرُ﴾ فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مَنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يمكن أن يكون له أربعة معان:

- (١) أنه من المؤكّد أن الله تعالى سوف يخفي جميع سيئاتكم.
 - (٢) أن الله تعالى سوف يخفي الكثير من سيئاتكم أو بعضها منها.
 - (٣) أن الله تعالى سوف يزيل ويمحو الكثير من سيئاتكم أو بعضاً منها.
 - (٤) أنه من المؤكّد أن الله تعالى سوف يزيل ويمحو جميع سيئاتكم وما يترتب عليها.
- وقد جاء الحرف ﴿مَنْ﴾ في المعنى الأول والرابع كحرف زائد يفيد التأكيد فقط، بينما جاء في المعنى الثاني والثالث بمعنى «الكثير من» أو «البعض من».

والسبب في أن الله تعالى يخفي الكثير من السيئات أو البعض منها، كما جاء في المعنى الثاني، هو أنه سبحانه يغفر تلك السيئات التي ارتكبتها في حقه هو ﷺ، أما تلك التي ارتكبتها في حق الناس، فلا يغفرها الله عزوجل إلّا بفعل الصالحات والفضائل من الأعمال الأخرى. والسبب في أنه يزيل ويمحو الكثير من السيئات أو البعض منها، كما جاء في المعنى الثالث، هو أنه لما كان الإحسان على الناس يتمّ بناءً على أمر الله تبارك وتعالى، فإنه سبحانه سيوجّه الأمور بحيث يحدث أن أولئك الذين أخطأ المحسن في حقّهم سوف يغفرون له ما ارتكب في حقهم من أخطاء. ولكن يحدث أحياناً بعد أن يغفر الله عزوجل سيئات المرء أن تظل هذه السيئات تعتمل في ذهنه، لذلك فقد وعد الله تعالى أن يُنعم بفضل آخر على أولئك الذين يحسنون إلى الناس، وهذا الوعد تتضمنه كلمة ﴿يَكْفُرُ﴾ التي جاءت لتبين أن الله تعالى سوف يجعلهم ينسون تلك السيئات التي لا تزال تقض مضجعهم. وهذه هي الفكرة التي

جاءت في المعنى الرابع. وبهذا فإن جملة قصيرة قد صيغت لتشمل كل أنواع المغفرة من أدناها إلى أعلاها وأشملها.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا
تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
يُؤَفَّفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴿٢٧٣﴾

التفسير:

لما كانت هذه الآية الكريمة تتعلق بالمؤمنين، فإن كلمة ﴿هُدَاهُمْ﴾ التي جاءت فيها لا تعني «أن تريهم» أو «أن تدلهم» على الطريق المستقيم، لأن المؤمنين قد قبلوا الهدى بالفعل، لذلك فالكلمة تعني «ليس عليك أن تجعلهم يستمرون على الطريق المستقيم». إن الله ﷻ وحده هو الذي يستطيع أن يمكن المؤمنين من مواصلة سيرهم على الطريق المستقيم، وهو سبحانه وحده الذي يحفظهم من أخطار الطريق. انظر أيضاً شرح الآية ٦ من نفس السورة.

وقد جاءت في هذه الآية كلمة ﴿خَيْرٍ﴾ للتعبير عن الثروة، ولم تُستخدم أية كلمة أخرى للتعبير عن الثروة مثل كلمة المال أو الممتلكات أو غيرها. فهذه الكلمة لا تعبر عن الثروة فحسب، بل تعني «الثروة التي تم اقتناؤها بوسائل مشروعة». لا، بل إن معناها أوسع وأشمل من ذلك، فهي تعني «أي شيء وكل شيء طيب». ولا شك أن اختيار هذه الكلمة يمد ويبسط معنى الإنفاق ولا يحصره في الثروة فقط، إذ أنه يشمل فعل الخير للإنسانية بأي شكل من الأشكال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ يحمل ثناءً بالغاً لصحابة الرسول ﷺ. فإنهم لم يؤمروا في الآية أن ينفقوا ابتغاء وجه الله عز وجل، وإنما يقول تعالى لهم

إنهم بالفعل يُنفقون ابتغاء وجه الله تعالى. وهذا أيضاً أسلوب من أساليب الحض على فعل الخير، ويُعتبر أشدّ أثراً عن الأمر المباشر بفعل شيء أو النهي عنه.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ
أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا
يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْثَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٤﴾

شرح الكلمات:

ضَرْبًا: مشتقة من ضرب. يُقال ضرب الشيء: مضى أو ذهب. ضربه: أصابه أو صدمه بيده أو بالعصا. ضرب في الأرض: خرج تاجراً أو غازياً أو أسرع أو ذهب (أقرب الموارد).

التَّعَفُّفِ: مشتقة من عَفَّ أي كفَّ عمّا لا يحلُّ ولا يَجْمَلُ قولاً أو فعلاً وامتنع. تعفف: تكلف العِفَّة. «العِفَّة»: مصدر عَفَّ وهي ترك الشهوات وكل ما لا يحل (أقرب الموارد).

سِيمَاهُمْ: مشتقة من سَوَّمَ المشتقة من سَام. يُقال سَوَّمَ الفرس أي أعلمه بسومة (علامة). «سيما» أو «سيمة» أو «سومة»: العلامة أو الهيئة (أقرب الموارد).

إِحْثَافًا: مشتقة من حَفَف. يُقال لحفه أو ألحفه أي غطاه بغطاء ونحوه. ألحف السائل أي ألحَّ في مطلبه (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

أحياناً تضطرّ الظروف بعض الناس أن يظلّوا محصورين في مكان معين، فلا يستطيعون كسب ما يلزم لمعيشتهم، وهؤلاء يستحقّون المعونة من أفراد المجتمع الموسرين. وهناك صنفان من الناس جاء ذكرهم في هذه الآية:

(١) أولئك الذين يبقون باختيارهم في مكان ما، مدفوعين بحبّهم لإنسان صالح مثلاً، فلا يريدون أن يغادروا صحبته لكي ينصتوا لكل ما يقوله، ويراقبوا كل ما يفعله، ثم ينقلون ما تعلموه للآخرين. وأحد الأمثلة على هذا الصنف من الناس هو أبو هريرة رضي الله عنه، الذي دخل الإسلام قبل ثلاث سنوات فقط من وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله، ومنذ قبوله الإسلام ظل ملازماً لمسجد الرسول صلّى الله عليه وآله في المدينة، وذلك لكي يبقى دائماً على اتصال مستمر بسيدّه الحبيب العزيز. وكانت النتيجة أنه روى للدنيا أعداداً من أحاديث سيده صلّى الله عليه وآله وأقواله تفوق ما رواه أولئك الذين دخلوا في الإسلام زماناً طويلاً من قبله.

(٢) أحياناً كان يحدث أن يُحصر أحد المسلمين في مكان ما بسبب عدوان المشركين، وبسبب وجود أولئك المعتدين حوله، كان عليه أن يبقى طويلاً محروماً من ضرورات الحياة. ومثل هؤلاء هم أحقّ الناس بأن تمتدّ إليه يد المعونة والمساعدة. إنّ الناس عامّة يتصدّقون على من يسألهم العطاء، ولكنهم يهملون الذي يمنعه الحياء من طلب المساعدة من الناس. والقرآن المجيد يحضّ الناس على ألاّ يُقصّروا صدقاتهم على أولئك الذين يستجدون الناس فقط، بل يبحثوا عن أولئك الذين يعانون الحاجة فعلاً، ولكنّ إحساسهم بالكرامة والحياء يمنعهم من الاستجداء.

وقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يتضمّن ثناءً على الرسول صلّى الله عليه وآله الذي تقرّر الآية الكريمة أنه قادر على التعرّف على أولئك الذين يعانون الحاجة، ولكنه يمتنع عن كشف عوزهم إلى الآخرين. والقرآن المجيد يحضّ على اتّباع المثل الكريم الذي يقدّمه الرسول صلّى الله عليه وآله في هذا المجال. ويحكى أبو هريرة رضي الله عنه حادثة وقعت له شخصياً،

تَوْضَح بِشَكْل جَمِيل هَذِهِ الصِّفَةُ الَّتِي كَانَ الرَّسُول ﷺ يَتَّصِفُ بِهَا. فَيَذْكُر أَنَّهُ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ كَانَ يَعْانِي مِنْ جُوعٍ شَدِيدٍ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ الْإِسْلَام لَا يُؤَيِّدُ أَنْ يَسْتَجِدِّي الْمُسْلِمُ مِنْ أَحَدٍ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنْ يَطْلُبَ مِنْ أَحَدٍ طَعَامًا، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ لَمْ يَكُنْ لِيَغَادِرَ مَسْجِدَ الرَّسُولِ ﷺ لِحِظَةِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يُحْرَمَ صُحْبَتَهُ. وَقَدْ حَدَّثَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ مَرَّ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بِالْمَسْجِدِ، وَأَرَادَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنْ يَلْفَتَ نَظْرَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ إِلَى حَالَةِ الْجُوعِ الشَّدِيدِ الَّتِي يَعْانِي مِنْهَا، فَسَأَلَهُ أَنْ يَفْسِّرَ لَهُ آيَةَ قُرْآنِيَّةٍ تَتَحَدَّثُ عَنْ إِطْعَامِ الْجَائِعِ. وَلَمْ يُدْرِكْ أَبُو بَكْرٍ ﷺ الْغُرْضَ الْحَقِيقِي وَرَاءَ سُؤَالِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، فَفَسَّرَ لَهُ الْآيَةَ ثُمَّ انْصَرَفَ. ثُمَّ حَدَّثَ أَنَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ، فَفَرَّحَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ وَقَدْ غَلَبَهُ الْجُوعُ يَسْأَلُهُ أَنْ يَفْسِّرَ لَهُ الْآيَةَ الْقُرْآنِيَّةَ. وَلَمْ يَسْتَطِعْ عُمَرُ ﷺ أَيْضًا أَنْ يَدْرِكَ الْغُرْضَ الْحَقِيقِي وَرَاءَ السُّؤَالِ، فَفَسَّرَ لَهُ الْآيَةَ ثُمَّ انْصَرَفَ. وَلَمَّا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَسْمَعُ مَا يَجْرِي مِنْ دَارِهِ الْمُلْتَصِقَةِ بِالْمَسْجِدِ، فَتَحَ النَّافِذَةَ وَهُوَ يَحْمِلُ إِنَاءً مِنَ اللَّبَنِ، وَسَأَلَ أَبَا هُرَيْرَةَ وَعَلَى ثَغْرِهِ ابْتِسَامَةً عَمَّا إِذَا كَانَ يَشْعُرُ بِالْجُوعِ. فَلَمَّا أَجَابَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ بِالْإِيجَابِ، سَأَلَهُ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ جَمِيعَ الْأَشْخَاصِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ تَصَادَفَ وَجُودُهُمْ أَيْضًا بِالْمَسْجِدِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَقَبْلَ أَنْ يُنَاقِلَ الرَّسُولُ ﷺ إِنَاءَ اللَّبَنِ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَعْطَاهُ إِلَى أَوْلَئِكَ الرِّجَالِ السَّبْعَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْانُونَ مِنَ الْجُوعِ أَيْضًا مِثْلَ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ. وَقَدْ شَرَبَ الرِّجَالُ السَّبْعَةُ مِنَ الْإِنَاءِ، وَلَكِنْ، يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ إِنَّ الْإِنَاءَ ظَلَّ مَلِيئًا بِاللَّبَنِ. فَأَعْطَاهُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ الَّذِي شَرَبَ مِنْهُ إِلَى أَنْ ارْتَوَى وَشَبِعَ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَشْرَبَ شَيْئًا أَزِيدَ مِمَّا شَرَبَهُ، وَحِينَئِذٍ أَخَذَ الرَّسُولُ ﷺ الْإِنَاءَ وَشَرَبَ مَا تَبَقِيَ مِنَ اللَّبَنِ (الترمذي - كتاب الزهد).

وبِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ، فَإِنَّ الْآيَةَ تُثْنِي عَلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنِ الْاسْتِجْدَاءِ، وَتُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَسْتَجِدِّي أَحَدًا، وَتُعَبِّرُ الْآيَةَ عَنْ ذَلِكَ بِوُضُوحٍ بِاسْتِخْدَامِ الْكَلِمَتَيْنِ ﴿التَّعَفُّفُ﴾ الَّتِي تَعْنِي الْامْتِنَاعَ عَنْ شَيْءٍ غَيْرِ لَاقٍ وَغَيْرِ مَشْرُوعٍ، وَكَلِمَةِ ﴿الْحَقَافَا﴾ الَّتِي تَعْنِي الْإِلْحَاحَ. وَقَدْ اسْتَنَكَرَ الرَّسُولُ ﷺ الْاسْتِجْدَاءَ، وَهَنَّاكَ الْكَثِيرَ مِنْ أَحَادِيثِهِ الشَّرِيفَةِ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا
وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٥﴾

شرح الكلمات:

عِنْدَ: وتعني: مع، فيما يتصل به، تبعاً له، عن، بسبب، من، على، ب.. إلخ. وأيضاً تأتي بمعنى الامتلاك أو الحيازة كأن تقول: عنده خير وفضل أي لديه الخير والفضل. «ملوك الأرض عند الله تراب» يعني: أن الملوك كالتراب بالقياس إلى الله تعالى. كذلك تعني أيضاً كلمة «عند» الاعتقاد، كأن تقول: عندي كذا أي اعتقادي كذا. وتأتي أيضاً بمعنى الحكم أو الرأي، كأن تقول: عندي هذا أفضل من هذا أي في حكمي أو في رأيي (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

إن التعاليم الإسلامية قد صيغت لتفي بجميع المتطلبات في كل الأزمنة وفي جميع العصور. فمثلاً جاء اختيار الشهور القمرية التي تتعاقب وتدور خلال العام لتحديد موعد الصيام وتأدية مراسم الحج، وذلك حتى يمكن للمسلمين أن يصوموا رمضان ويؤدّوا فريضة الحج في الصيف والشتاء وفي الربيع والخريف. وكذلك فإن الصلوات الخمس، والصلوات النافلتين في الليل وفي النهار، أي صلاة التهجد التي تُؤدّى في الثلث الأخير من الليل، وصلاة الضحى التي تُؤدّى قبل وقت الظهر، قد تحدّدت أوقاتها حتى يمكن للمسلم أن يؤدّي الصلاة في جميع أوقات النهار والليل، وبذلك فإن هذا العمل الطيب يغطّي كل ساعة من حياته. وبالمثل، فإن الصدقات يجب أن تُؤدّى خلال كل من الليل والنهار، حتى يغطّي ذلك العمل الطيب حياة المؤمن كلها.

وكلمة ﴿سِرًّا﴾ و﴿عَلَانِيَةً﴾ اللتان جاءتا في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ تقابل كلمة ﴿سِرًّا﴾ كلمة ﴿بِاللَّيْلِ﴾، كما تقابل كلمة ﴿عَلَانِيَةً﴾ كلمة ﴿النَّهَارِ﴾. وعلى ذلك، ينبغي على المسلم أن يُنفق ماله في سبيل الله تعالى، ليس فقط بالأسلوب وفي الوقت الذي يشجع الآخرون على اتباع أثره الطيب عندما يرون إحسانه، وإنما ينبغي عليه أيضاً أن يُنفق في الوقت وبالأسلوب الذي لا يعلم فيه المتلقي للصدقة من هو صاحبها.

ويجدر ملاحظة أن الصدقات نوعان: (١) مفروضة، وهي الزكاة؛ (٢) تطوعية، وهي الصدقة. والدولة هي التي تتولى جمع الزكاة من كل فرد، حسب النصاب المقرر من ثروته، ثم تتولى إنفاقها على الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل وأبناء السبيل وغيرهم. وفي هذه الحالة لا يعرف من يتلقى المعونة من الذي دفعها وقدمها، وبذلك يمكن لهم حفظ ماء الوجه واحترام النفس. ولكن لما كانت الدولة هي التي تجمع الزكاة، فإن الناس يعتبرونها ضريبة وليست صدقة. ولذلك أوجد الإسلام نظام الصدقات التطوعية، التي يعطيها المؤمن للأفراد بناء على رغبة نابعة من النفس لمساعدة الفقراء والمساكين. وهكذا تخلق الصدقة إحساساً بالتعاطف بين الأغنياء وإخوانهم، كما تخلق أيضاً إحساساً بالامتنان بين الفقراء تجاه أولئك الذين يحسنون إليهم. وأيضاً تُعتبر الصدقة معياراً للتفرقة بين المؤمنين المخلصين وغير المخلصين.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ
الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ

فَأَنْتَهِىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٦﴾

شرح الكلمات:

الرَّبَا: مشتقة من ربا. يُقال ربا المال أي زاد ونما. الربا: الفائدة أو الربح الذي يتناوله المراي من مدينه. وفي الحديث الشريف: "كل قرض جرَّ منفعةً فهو ربا" (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير).

يَتَخَبَّطُ: مشتقة من خَبَطَ. خبطه أي ضربه ضرباً شديداً. خبط الليل: سار فيه على غير هدى. تَخَبَّطَ الشيطان: مسه بأذى وأنهكه (أقرب الموارد ومعجم لين).

المَسَّ: مشتقة من مَسَّ. يُقال مَسَّه أي لمسه أو أفضى إليه بيده. مَسَّ المرض أو الكبر فلان: أصابه بهما. «مَسَّه الشيطان بُصِبَ وعذاب» أي أصابه الشيطان بالتعب والمرض. «المَسَّ»: كل ألم أو مشقة.. إلخ، تصيب الإنسان من الآخرين؛ وتعني أيضاً الجنون (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

إن الأمر بتحريم الإقراض بالربا الذي جاء في هذه الآية الكريمة، سبقته آيات عديدة تحمل نصائح كثيرة تحض على الإحسان وممارسة الصدق على الفقراء والمساكين. وحينما يتعوّد المرء على الإنفاق من ماله في الإحسان والصدقات، يكون من السهل عليه أن يُقرض المال بدون ربا.

إن القرآن المجيد يحرم جميع أنواع الربا. غير أنه في الأزمنة الحديثة صارت المشروعات التجارية والصناعية مرتبطة ارتباطاً لا انفصال فيه بالربا، حتى بات يبدو أنه من المستحيل تجنّب الربا كليّة. ولكن إذا حدث تغيير في النظم المتبعة وفي الظروف

المحيطة، فمن الممكن تحقيق الاستثمارات في المشروعات المختلفة بغير اللجوء إلى الربا، كما كان الحال عندما كان الإسلام يسود العالم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يعني كما أنّ الشخص المجنون لا يدرك النتائج المترتبة على أفعاله، فكذلك أولئك الذين يُقرضون أموالهم بالربا، فإنهم يغفلون عن إدراك نتائج أعمالهم. إنهم ينظرون فقط إلى مصالحهم الخاصة الحالية، ولا يهتمون بأي شيء آخر، ومع الوقت يصبحون غير قادرين على الاهتمام بالضرر الكبير الذي يسببونه للمجتمع وللعالم ككل. إن الربا يشجع أيضاً الأفراد والحكومات على الاستدانة أكثر مما تسمح به قدرة الفرد أو الحكومة، وبهذا فإنه يعميهم عن رؤية النتائج الوخيمة. وهناك طريق آخر يسبب به الربا نوعاً من الجنون، وهو إضعاف الشعور الطيب وفعل الخير في الإنسان، وذلك بأن يجعله مستغرقاً بكل قواه وجميع حواسه في جمع المال. والربا يؤدّي أيضاً إلى الحروب. فأولئك الذين يُقرضون المال بالربا يخلقون الظروف التي تؤدّي إلى النزاع والقتال بين أمة وأخرى، حتى تضطرّ هذه الأمم المتحاربة إلى اقتراض الأموال منهم. وكذلك يساعد الربا على إطالة مدة الحرب، وذلك بتشجيع الأمم المتحاربة على اقتراض الأموال فوق طاقاتهم. وأيضاً يساعد الربا على تجمع الثروة في أيدي قليلة، مما يتسبب في ضرر كبير في توزيع الثروة وتحقيق التوازن في المجتمع. ومثال آخر للجنون الذي يسببه الربا هو أن أولئك الذين يدفعون الربا ينخفض لديهم الإحساس بالكرامة بعد أن تتمكّن منهم عادة عدم الاكتراث والتسرّع، وبذلك يكتسبون مظهراً من مظاهر الجنون. انظر أيضاً شرح الآية ٢٨٠ فيما بعد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ يمثّل الحجة المفصلة لدى أولئك الذين يؤيدون النظام الربوي. فهم يقولون إنّ الربا ليس إلّا شكلاً من أشكال التجارة. فكما يحدث في التجارة أن يستثمر المرء أمواله بغرض تنميتها ومضاعفتها عن طريق تحقيق الأرباح، فكذلك يزعمون الحال مع إقراض المال بالربا. ولكن شيئاً من التفكير بعمق في هذا

الموضوع يكشف فرقاً شاسعاً بين الحالتين. فبينما يترتب على الربا كل هذه النتائج السيئة المذكورة عالياً، فإن التجارة لا تسبب هذه المضار.

وجملة ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ تعني إذا قبل أحدٌ أمر الله تعالى وانتهى عن تقاضي الربا من الناس في المستقبل، فإنه سبحانه سوف يغفر الماضي، كما أنه ﷺ سوف يعوّضه عن خسائره التي يمكن أن يتعرض لها بوسائل أخرى.

وجدير بالذكر أنّ أيّ مبلغ من المال يتقاضاه المرء زيادة على ما تم تسليمه بصفة قرض، فهو ربا؛ سواء كان التعامل المالي مع فرد أو بنك أو جمعية أو هيئة بريد أو أي مؤسسة أخرى. والربا ليس وقفاً على النقود فقط، بل ينطبق على أي شيء يُعطى على أنه قرض بشرط أن يُردّ ومعه زيادة معينة.

وأخيراً، فمن الجدير بالذكر أنه نظراً للظروف الخاصة في العصر الحديث، حيث توجد شبكة فطبيعة من نظام ربوي متحكّم في العالم، بينما الإسلام في حالة ضعف شديد، فإنّ حضرة مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام أعلن أنه إذا اضطرّ أحد إلى قبول الربا، فيمكن له ذلك، على أن ينفق هذا المال الناتج من الربا في أحد المصارف الآتية: (١) نشر وتبليغ الإسلام؛ (٢) دفع أي ربا يكون مضطراً أن يدفعه. وينبغي عليه أن يحرص بكل دقة على ألا ينفق شيئاً من هذا المال على نفسه أو على أهله أو بأي شكل من الأشكال (الفتاوى والفضل).

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا
يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٧﴾

شرح الكلمات:

يُمَحَّقُ: مشتقة مَحَقَّ أي أبطل ومحا واستأصل. محق الله الشيء: نقضه وذهب ببركته (أقرب الموارد).

يُرَبِّي: من نفس مصدر «ربا» - راجع الآية ٢٧٦ من نفس السورة.

التفسير:

هذه الآية الكريمة لا تشير فقط إلى أن الله تعالى يحرم الربا ويقرر أنه غير مشروع، بل تُبين أيضاً أنّ زمناً سوف يأتي حين يُمَحَّى الربا تماماً من الوجود، ويحلّ محله الصدقة والإحسان. وقد تحقّق هذا الوعد للمرة الأولى حين علا نجم الإسلام في الشرق والغرب. والآن، بعد مجيء الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، الذي سوف يعلو في زمنه الإسلام، فإنّ الوعد الذي تقدّمه هذه الآية سوف يتحقّق مع ظهور الإسلام وغلبته في أركان العالم أجمع.

وقوله تعالى: ﴿يُمَحِّقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ يتضمّن أيضاً سرّ الرخاء الاقتصادي في العالم. فإذا أرادت الأمم أن تزدهر فعليهم أن يتوقّفوا عن إعطاء الربا وعن تقاضيه، وأن يمارسوا الإحسان بدلاً من الربا. وما يشير الانتباه أنّ كلمة ﴿يُرَبِّي﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ مشتقة من نفس المصدر المشتقة منه كلمة «ربا». وعلى هذا، فإنّ الجملة تومئ بأسلوب جميل إلى أنه لما كان العالم يعتبر أنّ الربا وسيلة من وسائل جلب زيادة المال، فإنّ الوسيلة الحقيقية لتحقيق هذه الزيادة هي الإحسان. كذلك تعني هذه الكلمات أنّ الله تعالى، في تعامله مع الناس، سوف يعامل بإحسان أولئك الذين يحسنون بأموالهم على الناس، فتكون نتيجة إحسانهم أنهم سوف يزدادون غنى وازدهاراً، بينما أولئك الذين يدفعون الربا أو يتقاضونه، سوف ينالون عقابهم من الله تعالى.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٨﴾

التفسير:

تُبَيِّنُ الآيَةُ أَنَّ الامتناع عن الربا وإنفاق المال في الصدقة أمور صالحة، وأن الصالحاء لهم أجرهم عند الله تعالى. كذلك تُبَيِّنُ الآيَةُ الكريمة أنه للفوز بالنجاة ينبغي على المرء أن: (١) يؤمن إيماناً صادقاً حقيقياً؛ (٢) يعمل الصالحات. ومن بين الأعمال الصالحة، تُفَرِّدُ الآيَةُ ذكر اثنين من أهم الأعمال، وهما أولاً: إقامة الصلاة، التي تتعلق بحقوق الله عز وجل؛ وثانياً: إيتاء الزكاة، وهي تتعلق بحقوق العباد. إِنَّ الروح النبيلة وراء الأمر بإيتاء الزكاة تتعارض تماماً مع الروح الشريرة الفاسدة وراء ممارسة دفع الربا أو تقاضيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ
الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٩﴾

التفسير:

توَمِّى الآيَةُ إِلَى أَنَّ تقاضي الربا يتعارض مع خشية الله ﷻ. إِنَّ الخالق يحب عمل الخير والإحسان إلى الفقراء والمساكين، كما أنه يحب التوزيع العادل للثروة بين الناس توزيعاً يقوم على قواعد الإنصاف، ويجب أيضاً أن يسود السلام بين الأمم في العالم. غير أَنَّ النظام الربوي يهدم هذه المبادئ السامية من أساسها. ويبين الجزء الأخير من الآية: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَنَّ أخذ الربا يتناقض أيضاً مع الإيمان الصادق.

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِنْ تُبْتِئْهُ فَلَكُمْ رُؤُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا
تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

شرح الكلمات:

فَأْذَنُوا: مشتقة من أَذِنَ. يُقَالُ أَذِنَ لَهُ أَي أَباح أو سمح له. أَذِنَ بِالشَّيْءِ: عَلِمَ بِهِ. أَذَنَهُ بِالْأَمْرِ: أَعْلَمَهُ بِهِ. أَذَّنَ: أَعْلَنَ عَنِ الشَّيْءِ أَوْ دَعَا إِلَيْهِ، وَ «تَأَذَّنَ»: أَقْسَمَ (معجم لين).

حَرْبٍ: مشتقة حَرَبَ. يُقَالُ حَرَبَهُ أَي أَخَذَ مَالَهُ وَتَرَكَهُ بِلا شَيْءٍ. حَرِبَ: اشْتَدَّ غَضَبُهُ. الْحَرْبُ: الْمَقَاتِلَةُ وَالْمَنَازِلَةُ (أقرب الموارد).

رُؤُوسٌ أَمْوَالِكُمْ: رؤوس جمع رأس وتعني: (١) ما يلي الرقبة من أعلاها؛ (٢) أعلى كل شيء؛ (٣) سيد القوم. رأس الشهر: أول يوم منه. أيضاً كلمة «الرأس» تعني ذات الإنسان، يُقَالُ: هُوَ قِسْمٌ بِرَأْسِهِ أَي مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ. رأس المال: المال الأصلي بلا أرباح. تقول العرب: أَقْرَضَنِي عَشْرَةَ بَرُؤُوسِهَا أَي قَرْضًا لَا رِبْحَ فِيهِ، فَيُرَدُّ عَلَيْهِ رَأْسُ الْمَالِ (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تعلن هذه الآية الكريمة أنَّ أخذ الربا بمنزلة شنِّ الحرب على الله تعالى. ويمكن أن نستنتج من الآية أنه ينبغي على المسلمين أن يقاطعوا أولئك المسلمين الذين يأخذون الربا. ويبين التاريخ أنَّ الدول الإسلامية التي أقرضت بالربا أو التي اقترضت بالربا قد أصابها الفقر والإفلاس.

وكثيراً ما يُساق اعتراض بأنه لا يمكن الانخراط في التجارة وعقد الصفقات التجارية بدون الربا، ولكن هذا غير صحيح، فليس هناك من علاقة بين التجارة والربا. لقد أصبح الربا مرتبطاً بالشؤون التجارية عندما أسست الدول الغربية نظامها التجاري

على الائتمان أو الدّين، وإن لم يكن هذا قد حدث لما اعتمد النظام التجاري على الربا. فمنذ بضعة قرون فقط، كان المسلمون يسكون بعرى التجارة العالمية، ومع ذلك فقد كانوا يقومون بها بدون ربا. فقد كانوا يقترضون الأموال حتى من أفقر طبقات المجتمع، عن طريق قروض المشاركة، وقد ساهمت الأعمال التجارية التي قاموا بها مساهمة مباشرة في الانتعاش الاقتصادي لهذه الطبقات. إنّ الربا ليس عنصراً أساسياً على الإطلاق في المعاملات التجارية، ولكن لما صارت الشؤون التجارية الآن تقوم على أساس ربوي، فقد صار يبدو أنها بغير الربا سوف تتوقّف تماماً. ولا شك أنّ تغيير النظام سوف يسبّب في أوّل الأمر بعض الضيق أو الإزعاج، ولكن على أي حال، إنّ النظام التجاري القائم على الربا يمكن تغييره والاستغناء عنه.

إنّ الربا في الواقع مثل دودة العلقّة التي تمتص الدماء من الإنسانية، وخاصّة من الطبقات الدنيا والمتوسّطة. وحتى الطبقات العليا ليست في مأمن تماماً من سموم الربا، بل إنها تستمدّ منه مُتعة زائفة، كمثّل الفهد الغبي، الذي تروي قصته الحكايات فتقول إنّ ذلك الفهد فقد لسانه بسبب كثرة ما كان يلحق حجراً خشناً، ظناً منه أنه لحم ودم ضحيّة من الحيوانات. ومن سوء الحظ، أنّ أولئك الذين يريدون أن يتخلصوا من هذا النظام الربوي، هم أضعف من أن يواجهوا قوّة النظام الحالي.

إنّ نظام الائتمان السائد في الدول الغربية نظام مخزّب للسلام في العالم عن طريقين. فمن ناحية، يساعد هذا النظام على تجمّع الثروة في أيدي قليلة، ومن ناحية أخرى فإنه يسهّل الحرب، إذ لا تستطيع أي حكومة أن تدخل حرباً طويلة بدون حشد إمكانات مالية ضخمة عن طريق القروض الربوية، فإنّ الحروب الطويلة المدمّرة تصبح ممكنة فقط عن طريق المؤسسة الربوية. وإن لم تكن هذه القروض الربوية الضخمة متاحة، لامتنتع الكثير من الدول عن الدخول فيما يبدو أنه حرب طويلة؛ وإذا حدث أن دخلت هذه الدول في مثل تلك الحروب، فإنها تسرع بالانسحاب منها، لأنّ خزائنها سوف تخلو وتفرغ، وسوف تتمرّد شعوبها وتعترض على الإهدار الإجرامي للأرواح والأموال. ولكن نظام ما يبدو أنه قروض سهلة، تتيح لهذه الحكومات أن تستمر

في صراعها المدمر، طالما أنها قادرة على الحصول على مصادر التمويل للحرب دون أن تضطر إلى رفع الضرائب. والشعوب في الدول المتحاربة لا تشعر في ذلك الوقت بثقل الحمل الذي وُضع فوق ظهورهم، ولكن بعد انتهاء الحرب، فإنّ ظهورهم تنحني بشكل مضاعف تحت وطأة الثقل المذهل للديون القومية، وتضطر أجيال المستقبل أن تنشغل طويلاً بتخفيف هذا الثقل. وخذ مثلاً حالة الحرب العالمية، لو لم تكن القروض الضخمة متاحة، فإنّ نتيجة الحرب كانت ستظل كما هي بالنسبة للمنتصر والمهزوم، ولكان الخراب الشامل والديون الثقيلة للدول المختلفة من الممكن تلافيه. لا، بل لعله كان من الممكن تلافي الحرب نفسها؛ وحتى لو كانت الحرب قد وقعت بالفعل، لكانت الدول المتحاربة قد استنفدت مواردها، ولوقّعت معاهدات السلام خلال عام واحد، ثم لاستمر العالم في تقدّمه إلى الأمام.

وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ
تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

التفسير:

الآية السابقة تأمر باسترداد رؤوس الأموال المقرضة فقط بغير أي زيادة، والآية الحالية تحضّ المسلمين على التقدّم خطوة أخرى، فتحتّ الدائن على إمهال المدين في ردّ دينه إذا أصابته ظروف صعبة.

إنّ على الدائنين أن يتعاملوا بعطف وإحسان تجاه إخوانهم، لكي يعاملهم الله تعالى أيضاً برحمة وإحسان. وعليهم أن يتذكروا أنهم إذا كانوا قد أقرضوا الآخرين قروضاً، فإنّ الله تعالى أقرضهم الكثير أيضاً، بإضافته عليهم العديد من نعمه وبركاته؛ وإذا كان من حقّهم أن يتقاضوا أموالاً ربوية زيادة على ما أقرضوه، فمن حقّ الله تعالى

أن يثقل كاهلهم بمطالب كثيرة، ولكنه سبحانه لا يفعل ذلك. وإن فعل، فماذا يكون مصير الإنسان؟

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ
ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٢﴾

التفسير:

تُنهي هذه الآية موضوع أخذ الربا بتحذير الناس من أنهم سيقفون يوماً ما أمام خالقهم، وسيقدمون حساباً عن أعمالهم. وعليهم أن يتذكروا المبدأ القائل «عامل الناس كما تحب أن يعاملوك»، وقد رُوِيَ عن الرسول ﷺ أنه قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (البخاري ومسلم).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ
مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ
بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا
عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ
وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ
كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا
يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَأَ هُوَ فَلْيُمْلَأْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ
وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِنْ

لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ
 تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا
 فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا
 مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَمُوا أَنْ تَكْتُوبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا
 إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ
 وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً
 تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا
 تَكْتُوبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
 وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا
 اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

شرح الكلمات:

وَلِيَّهُ: الولي: المُحِبُّ، الصديق؛ النصير؛ الحافظ (أقرب الموارد). انظر أيضاً الآية ١٠٨ من نفس السورة.

التفسير:

لما كانت الآيات السابقة تحرم الرِّبَا وتحصّ على ردّ رأس المال المقترض فقط إلى الدائن، كان من المناسب أن يعالج القرآن المجيد في هذه الآية موضوع القروض غير الربويّة. فالآية تقرّر ضرورة تدوين جميع المعاملات المالية الخاصّة بالقروض. وإنه لمن المدهش حقاً، كما أنه لأزوع دليل على أن هذا الكتاب العزيز هو بالفعل من وحي

الله تعالى، أنّ القرآن المجيد الذي نزل منذ ١٣٥٠ عاماً عندما كانت الكتابة لا تزال في مهدها، قد أولى هذا الاهتمام البالغ بكتابة جميع القروض المالية.

وينبغي ألاّ تُفهم الآية على أنها تُقصر الكتابة على القروض محدودة الأجل فقط. فالآية عامّة في مدلولها، وهي تهدف إلى تحاشي وقوع المنازعات بتسجيل ما إذا كان قد تم الاتفاق بالفعل بين الطرفين على القرض وقيّمته. وجاءت الكلمات ﴿إلى أجل مُّسمًّى﴾ للتأكيد على ضرورة تحديد الأجل في جميع القروض. وبالإضافة إلى ذلك، تحضّ الآية أيضاً على أنه في حالة القرض، ينبغي أن يتولى طرف ثالث كتابة الاتفاق، وذلك للإقلال والحدّ من الخداع والاحتيال مما يسبب النزاع بين الطرفين.

وعلى المقترض، وليس المقرض، أن يُملي اتفاق القرض، وذلك لأن:

(١) المقرض هو الذي يتحمّل مسؤولية القرض، وتقتضي العدالة أن لا يكون المقرض على دراية تامة بشروط القرض فحسب، بل أن يتولى هو بنفسه اختيار الكلمات التي تصف هذه الشروط.

(٢) أن تُحفظ وثيقة القرض مع المقرض وليس مع المقترض. ولذلك ينبغي على المقرض أن يملي شروط القرض ليكون ذلك دليلاً على قيمة القرض وجميع الشروط المتعلقة به، ولا يكون له أيّ حق في إنكار أيّ منها.

وجاءت كلمات الآية ﴿وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لتبيّن أن للقروض أنواعاً كثيرة، فليست جميع القروض في صورة سيولة نقدية، وقد يكون بعضها لآمد طويلة، كما يمكن أن تكون هناك بعض الشروط المتعلقة بها أيضاً. وقد يحدث أحياناً في مثل هذه الظروف، أن يلجأ بعض الناس إلى اختيار الكلمات غير الواضحة، أو التي تحتمل أكثر من معنى. ولذلك فالآية تحذّر المقرض (الذي يتولى عملية إملاء وثيقة القرض) أن يتقي الله ربه ولا يتبع هذه الوسائل الخسيسة الفاسدة، بل ينبغي عليه أن يخشى الله عزوجل ويُملي بأمانة وعدل.

وجاءت كلمة ﴿رَجَالِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ﴾ لتبين بحكمة بالغة أنّ الشهود يجب ألا يكونوا غرباء، بل يكونوا من المقيمين في نفس المكان، وذلك حتى إذا تطلب الأمر، يمكن استدعاؤهم للشهادة. وتشير الآية أيضاً إلى ضرورة أن يكون الشهود ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ﴾، سواء كانوا من الرجال أو النساء، أي ينبغي أن يكونوا من الأشخاص الذين يثق فيهم الطرفان.

وبعني قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أنه إذا كان الكاتب رجلاً من المهنيين المتخصصين، فيجب أن يدفع له شيئاً نظير خدمته، وإلا فإنه يكون قد أصيب بضرر في كسب معيشته. كذلك، يجب على قدر الإمكان ألا يكره أحد على الشهادة، إذا كانت شهادته يمكن أن تسبب له ضرراً ما، وأيضاً يجب أن يدفع للكاتب والشهود النفقات التي لا بد أن يتحملوها إذا استدعى الأمر طلبهم للمثول أمام القضاء. وتشير الكلمات أيضاً إلى أنه ينبغي عدم الضغط على الكاتب أو الشهود، أو تهديدهم أو رشوتهم، أو التأثير عليهم بأي حال من الأحوال، لإخفاء الحقيقة أو لشهادة الزور عندما يطلب منهم أداء الشهادة.

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا
فَرِهَاتٍ مُّقْبُوْصَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا
فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا
تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمَ قَلْبُهُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٤﴾

شرح الكلمات:

رِهَانٌ: مشتقة من رَهَنَ. يُقال رهن الشيء فلاناً أو عند فلانٍ أي جعله رهناً. الراهن: الذي يقدم الرهن، والمرتهن: الذي يأخذه. رهين ومرهون: كل ما حُبس

به الشيء فهو رهينة. «رِهَان» صيغة المصدر من «راهن»، و«رَهْن» صيغة المصدر من «رَهَن»: وهما عملية الرهان نفسها أو الشيء المرهون. و«رِهَان» جمع «رَهْن» (أقرب الموارد ومعجم لين).

أمانة: واؤتمن وأمن كلها مشتقة من نفس المصدر. أَمِنَ تعني: اطمأنَّ. ائتمن فلاناً على كذا: عدّه أميناً واتخذهُ أميناً؛ أَمَنَهُ على الشيء. أمانة: ضدّ الخيانة؛ كل ما استودع عند الشخص ليحافظ عليه ويرعاه؛ الصدق؛ الإخلاص؛ الجدارة بالثقة؛ الوفاء (أقرب الموارد).

التفسير:

في حال تعذرّ وجود الكاتب، يمكن تسليم القرض للمقترض مقابل رهان يتسلّمه المقرض من المقرض. وتذكر الآية الكريمة أنّ هذا الرهن يظل أمانة أو وديعة عند صاحب القرض. وبذلك فإنّ الآية تومئ بأنّ القرض يجب أن يُرد إلى صاحب القرض باعتباره أمانة لدى المقرض، تماماً كما ينبغي على صاحب القرض أن يردّ الأمانة المرهونة عنده إلى المقرض، عندما يدفع ما عليه لصاحب القرض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ إمّا يشير إلى شهادة الشهود الذين يكونون حاضرين عند تسليم القرض إلى المقرض وتسليم الشيء المرهون إلى صاحب القرض، وإمّا يشير إلى طرفي الاتفاق، أي صاحب القرض والمقترض. فإذا تعذرّ وجود الشهود، يكون طرفا الاتفاق هما الشاهدين اللذين يجب أن يُدليا بشهادتهما عند استدعائهما لذلك بحلف اليمين.

وبعني قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ أنّ من يكتم الشهادة يرتكب إثماً لا يكون أثره عابراً على النفس، وإنما يُفسد أثره أعماق وجنّات قلبه. لا، بل إنّ كتمان الشهادة يكون دليلاً على أنّ قلبه قد أصابه الفساد بالفعل.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ
تُبدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ
اللَّهُ فَيُغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٥﴾

التفسير:

بهذه الآية الكريمة والآيتين التاليتين لها في نهاية سورة البقرة، يتم موضوع التزكية الذي جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام (البقرة: ١٣٠). فالآية تذكّرنا بأن كلّ ما في السماوات والأرض هو لله سبحانه وتعالى، وبذلك يعلمنا القرآن المجيد درساً بليغاً، مفاده أنه ما دام كلّ شيء ملكٌ لله تعالى، فعلياً أن نتجنّب كلّ ما يريد سبحانه ممّا أن نتجنّبه، وأن نفعل كلّ ما يريد سبحانه ممّا أن نفعله. فإذا أطعنا أوامر الله تعالى، التي تهدف إلى مصلحتنا في المقام الأول، فإنه سبحانه سوف يفيض علينا بفضله، ويرزقنا من نعيمه لكي نتقدّم ونزدهر، لأنه جلّ جلاله هو الموجه لكل حادث والمسبّب لكل سبب.

إنّ الآية الكريمة تحتوي على السرّ العظيم لتحقيق الطهر والتزكية، وهذا السرّ هو أنكم إذا أردتم أن تكونوا أطهاراً فعليكم أن تبدأوا من الأصل والجوهر، أي أنّ عليكم أن تطهروا قلوبكم. ويقول الرسول صلّى الله عليه وآله: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (البخاري - كتاب الإيمان).

إن حرف «الباء» في قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ﴾ يعني: (١) يحاسبكم على أساسه؛ (٢) يحاسبكم بسببه. وحسب المعنى الأول، تعني الآية أنّ الله تعالى سوف يحاسبكم طبقاً لما في قلوبكم، وأنّ أعمالكم سوف تُقيّم وتوزن بناء على الدوافع والنيّات التي في أعماق قلوبكم. وهذا تعبير آخر لقول الرسول صلّى الله عليه وآله: «إنما الأعمال بالنيّات» (البخاري)، أي أن الأعمال سوف تُقيّم على أساس النيّات التي دفعت المرء لعملها.

وحسب المعنى الثاني، تعني الآية أنّ الله تعالى سوف يحاسبكم بسبب ما في قلوبكم، أي أنّ كل شاردة أو واردة تخطر على قلب الإنسان لن تضيع، مهما كانت مخفية في أعماق القلب أو في أغوار النفس، وسوف يجازي الله عز وجل الإنسان عليها أو يغفرها كما يشاء تبارك وتعالى.

وفيما يتعلق بقوله تعالى: ﴿أَوْ تُخْفَوْا﴾، فينبغي أن ندرك أنّ الله تعالى لن يحاسب الإنسان على خواطر الإنسان العابرة، التي تكون خارجة عن إرادته. ففي الآية ٢٨٧ نقرأ قوله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وليس في وسع الإنسان بطبيعة الحال أن يتجنّب الخواطر التي تطرأ فجأة على نفسه. وإنما أفكار السوء التي تبقى في الذهن وتستقرّ في القلب، مثل مشاعر الحقد والحسد وغيرها، والتدابير الذميمة الشريرة التي يعقد المرء العزم على تنفيذها، هي التي سوف يُحاسب عليها. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا فَإِنْ تَرَكَهَا وَرَبَّمَا قَالَ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً" (الترمذي - كتاب تفسير القرآن).

والمشيئة الإلهية التي يعبر عنها قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ لا تعني أن الله ﷻ يتصرف عشوائياً بغير قواعد ولا هدف. فإن المشيئة الإلهية في المصطلح القرآني تعني أن الله تعالى وضع قانوناً عاماً يبينه قوله ﷻ: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧). ولما كانت القوانين التي وضعها الله تبارك وتعالى هي التي تعبر عن مشيئته، فإن القرآن المجيد يستعمل اصطلاح «المشيئة» لبيان: (١) أن الله تعالى هو السُّلطة العليا في الكون؛ (٢) أن مشيئة الله تعني قانون الله؛ (٣) أن مشيئته ﷻ تتجلى وتظهر على أساس من العدل والفضل والكرم والإحسان، ﴿قُلْهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ كما يذكر ذلك القرآن المجيد (الإسراء: ١١١).

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ
رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٦﴾

شرح الكلمات:

غُفْرَانَكَ: «غُفْرَان» المصدر من غَفَرَ - راجع الآيتين ٥٩ و ٢٠٠ من نفس السورة. ومن معاني الغفران ستر الإنسان بفضل الله تعالى والعفو عنه والتجاوز عن عقابه على ما ارتكب من ذنب. وقد استعملت صيغة المصدر في الآية للتوكيد، وهو ما يشير إلى كلمة مضمرة، أي كأن المقصود: «نرجو غفرانك».

التفسير:

إن ذكر المؤمنين على قدم واحدة مع الرسول ﷺ في هذه الآية الكريمة له معنى خاص، وهو أن تزكية الرسول ﷺ قد أوجدت فئة من الناس، أي المؤمنين، الذين صاروا أطهاراً في إيمانهم وفي أعمالهم، وبذلك فقد حققوا الهدف من بعث الرسول ﷺ الذي دعا إبراهيم عليه السلام أن يبعثه الله تعالى في ذريته.

إن الأعمال الصالحة هي حقاً الوسيلة المثلى لبلوغ الطهر والتزكية، ولكن أساس هذه الأعمال الصالحة يضمّر في طهارة القلب التي لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال الإيمان بالعقائد الصحيحة. ولذلك، فإن الآية تعدّد تفاصيل الدعائم الأساسية للإيمان الصحيح، التي علمها الرسول ﷺ لأتباعه، وهي: الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله. ومن دعائم الإيمان المفصلة هنا هي أن يقول المؤمنون حقاً: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾. وهذا يعني أنه ينبغي على المؤمنين حقاً أن يقبلوا ويصدقوا جميع المرسلين

بلا استثناء، ولا يفرّقوا بينهم بقبول البعض وتكذيب البعض الآخر. وليتدبر ذلك أولئك المسلمون الذين يرفضون قبول الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام، مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، الذي بعثه الله تعالى تحقيقاً للنبوءات التي ذكرها الرسول ﷺ، والذي جاء ليبين صدق الإسلام بدلائل مفحة وآيات بيّنة.

وهناك وسيلة أخرى، على جانب كبير من الأهمية، لبلوغ تطهير النفس وتحقيق تزكية القلب، وهي الدعاء. فالآية تبين أنّ المؤمنين هنا يدعون الله تعالى بهذه الكلمات النبيلة العظيمة: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. ويتضمّن هذا الدعاء أربعة عناصر أساسية لتزكية النفس: (١) على الإنسان أن يكون دائماً على استعداد لسماع أوامر الله تعالى ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾؛ (٢) أن يكون على استعداد لطاعة أوامر الله تعالى مهما كانت الظروف ﴿وَأَطَعْنَا﴾؛ (٣) أن يظل دائماً يطلب العفو والمغفرة من الله تعالى على ذنوبه ومعاصيه ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾؛ (٤) ألا ينسى أبداً أنّ مصيره إلى الله تعالى، وأنه سيقف أمام خالقه للحساب عن جميع أعماله ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا
أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ
عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ
لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا
فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٧﴾

شرح الكلمات:

إِضْرَ: مشتقة من أَصَرَ. يُقال أَصَرَ الشيء أي كسره. أَصَرَه: حبسه أو قيَّده أو حجزه أو أعاقه أو منعه، إلخ. أَصَرَ الخيمة: جعل لها إصاراً أي وتدّاً أو حبلاً ليربطها. «إِضْرَ» أو «أَصْرَ» أو «أُضِرَ» تعني: (١) العبء أو المسؤولية التي تثقل صاحبها وتمنعه من التقدم؛ (٢) العهد الثقيل الذي يُجَازَى من يخالفه بالعقاب الشديد؛ (٣) الذنب أو الإثم؛ (٤) العقاب الأليم على الذنوب (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يُعْتَبَرُ تَفْنِيدًا قَوِيًّا لِعَقِيدَةِ الْكُفَّارَةِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ. فَالآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَتَضَمَّنُ مَبْدَأَيْنِ أَسَاسِيَيْنِ:

(١) أَنَّ الْأَوَامِرَ الْإِلَهِيَّةَ تَضَعُ فِي الْإِعْتِبَارِ دَائِمًا قُدْرَاتِ الْإِنْسَانِ وَمَوَاطِنَ الضَّعْفِ لَدَيْهِ.

(٢) أَنَّ تَزَكِيَةَ النَّفْسِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَا تَعْنِي بِالضَّرُورَةِ الْخُلُوقَ التَّامَّ وَالتَّحَرُّرَ الْكَامِلَ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الضَّعْفِ وَالْعُيُوبِ.

وَكُلُّ مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَحَاوِلَ بِإِخْلَاصٍ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَأَنْ يَتَجَنَّبَ بِقُدْرِ طَاقَتِهِ ارْتِكَابَ السَّيِّئَاتِ، وَأَمَّا الْبَاقِي، فَإِنَّ اللَّهَ الرَّحِيمَ سَوْفَ يَشْمَلُهُ بِرَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ. وَعَلَى هَذَا فَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ حَاجَةٍ إِلَى كُفَّارَةٍ كَمَا يَعْتَقِدُ الْمَسِيحِيُّونَ الْيَوْمَ.

وَقَدْ جَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿كَسَبَتْ﴾ لَتَعْبُرَ عَمَّا فَعَلَتْهُ النَّفْسُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، بَيْنَمَا جَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿اُكْتَسَبَتْ﴾ لَتَعْبُرَ عَمَّا فَعَلَتْهُ النَّفْسُ مِنْ سُوءِ الْأَعْمَالِ. وَكِلَا الْكَلِمَتَيْنِ مُشْتَقَّانِ مِنْ نَفْسِ الْمَصْدَرِ، وَلَكِنْ تَفْنِيدُ كَلِمَةُ ﴿اُكْتَسَبَتْ﴾ بِذَلِكَ جَهْدٍ أَكْبَرَ. وَعَلَى هَذَا، فَالْكَلِمَتَانِ تَدْلَانِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ سَوْفَ يُكَافَأُ عَلَى أَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ حَتَّى وَلَوْ أَنَّهُ فَعَلَهَا بِطَرِيقٍ عَابِرٍ وَدُونَ جَهْدٍ مَبْذُولٍ، بَيْنَمَا لَا يُعَاقَبُ الْإِنْسَانُ عَلَى أَعْمَالِهِ السَّيِّئَةِ إِلَّا تِلْكَ الَّتِي ارْتَكَبَهَا بِتَعَمُّدٍ وَبِذَلِكَ فِي ارْتِكَابِهَا جَهْدًا مَرْكَزًا.

وفي الظروف العادية، لا يعاقب الله تعالى على الأعمال التي ارتكبتها الإنسان بطريق النسيان أو الخطأ غير المقصود، وذلك لانتفاء عنصر التعمد، وعدم وجود القصد لارتكاب الفعل، وهي أمور ينبغي وجودها لإيقاع العقاب. غير أن الخطأ والنسيان المذكوران في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ يفيدان الخطأ والنسيان اللذان كان من الممكن تلافيهما إذا كان الإنسان أكثر حرصاً وانتباهاً.

وكما جاء في شرح الكلمات، فإن كلمة ﴿إِصْرًا﴾ التي تعني «المسؤولية» يمكن أن تفيد العديد من المعاني، وكلها يمكن أن تنطبق هنا. وعلى ذلك، يمكن أن تعني الآية: (أ) لا تجعل علينا ذنباً؛ أي أعطنا القدرة على اجتناب الذنوب، واحفظنا من اقتراف الأعمال التي تؤدي بنا إلى السقوط في هوة المعاصي؛ (ب) لا تعاقبنا إذا اقترطنا بعض الذنوب، أو أخلفنا بعض العهود؛ (ج) إذا أخذنا كلمات الدعاء ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ بمعناها الحرفي، أي لا تجعل الإصر يركبنا، فإن الجملة تعني لا تجعل مسؤولية التعاليم والعهود الإلهية تتركبنا كما ركبت على الذين من قبلنا. والتشبيه جميل ورائع. فإن الغرض من التعاليم الربانية هو أن تحمل الناس في طريق تقدّمهم. ولكن أحياناً، بسبب الظلم والفساد، أو بسبب خيانة العهود، تصير هذه التعاليم حملاً ثقيلاً، وبدلاً من أن تكون كالركوبة التي تحمل الإنسان إلى الأمام، تصير هي حمولة ينوء بحملها الإنسان. والآية تحضّ المسلمين على دعاء الله تعالى ضدّ هذا الاحتمال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ لا تعني أنّ الآية تحضّ المسلمين على الدعاء لكي يحملهم الله تعالى مسؤولية أخفّ من تلك التي حملها الأمم التي كانت من قبلهم، فإنّ حقائق التاريخ تكذب هذا الاستنتاج. إنّ الكلمات تعني فقط دعاء الله تعالى لكي يعين المسلمين على الوفاء بمسؤولياتهم، وأن يتجنّبوا اقتراف الذنوب وما يترتب على ذلك من نتائج. لقد حمّلت الأقسام السابقة بعض المسؤوليات، وأمرهم الله تعالى ببعض الأوامر التي كانت كلها تهدف لصالحهم وخيرهم، ولكنهم أخفقوا في الوفاء بمسؤولياتهم، وعصوا أمر ربهم، وأيضاً رفضوا قبول الإسلام الذي دعاهم الله إليه. وبذلك فقد حولوا هدى الله عزوجل الذي

فيه سعادتهم إلى وسيلة فعالة لاستجلاب غضبه ومقتته، فأصبحوا بذلك حقيقة تحت «إصر» أو مسؤولية مرهقة على كاهلهم. ولما كان المسلمون هم حملة الشريعة العالمية الأخيرة، تحثهم الآية على أن يكونوا مثلاً أفضل، فيدعون الله تبارك وتعالى أن ينجحوا في مهمتهم العظمى، وأن يؤدّوا حقّ مسؤولياتهم الجسام. وتنسب الآية وضع الإصر أو المسؤولية المرهقة على كاهل الأمم السابقة إلى الله تعالى، وذلك كما ينسب القرآن المجيد أحياناً إلى الله ﷻ إضلال الناس، كما جاء في الآية ٧ من نفس السورة التي نحن بصدددها.

كذلك فإنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يشير إلى المسيحيين، وبالدّات إلى أولئك الذين بقولهم إنّ الشريعة أصبحت لعنة، قد حوّلوا الرحمة الإلهية لتكون «إصرًا»؛ أي حملاً ثقيلاً وعقاباً. لذلك تحضّ الآية الكريمة المسلمين على أن يدعوا الله أن تكون الشريعة دائماً بالنسبة لهم مصدر رحمة. وبهذا تأتي الآية كمقدمة مناسبة وتمهيد ملائم يتوافق مع السورة التالية، أي سورة آل عمران، التي تتناول الشؤون المسيحية كأحد موضوعاتها.

وقوله تعالى: ﴿وَاغْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ يتضمّن ثلاثة أدعية هامة في تسلسل منظم ورائع. وهي تناظر أيضاً الأدعية الثلاثة السابقة، كما أنها تعبير تام وكامل عن الأسلوب الكامل الذي يعامل به الخالق ﷻ عباده المخلصين. فالدعاء الأول ﴿وَاغْفُ عَنَّا﴾ يعني سؤال الله تعالى أن يمحو ذنوبنا ولا يجعل لها أثراً يمكن أن يراه الناس. والدعاء الثاني ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ يطلب ألا يمحو الله تعالى ذنوبنا فقط، بل يشملنا بمغفرته سبحانه حتى إنه هو نفسه ﷻ يعتبر أن لا وجود بعد لتلك الذنوب. والدعاء الثالث ﴿وَارْحَمْنَا﴾ يريد ألا يمحو الله تعالى الذنوب فقط، وألا يغفرها فحسب، بل أن يتفضل علينا أيضاً فيشملنا برحمته.

والدعاء الأخير ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يقدّم النهاية المناسبة لهذه السورة العظيمة. فالمسلمون ينتظروهم صراع طويل ونضال مرير، فعالم الكفر بأكمله يصطف

ضدّهم، ومجالات العمل التي تضمّنها دعاء إبراهيم عليه السلام في الآية ١٣٠ تمتدّ أمامهم واسعة، منبسطة رحيبة، لتشمل (١) الآيات السماوية؛ (٢) القوانين والعهود؛ (٣) الحكمة والفلسفة؛ (٤) الأخلاق والروحانية؛ (٥) التقدّم والازدهار العام. لقد كانت مهمّة مذهلة عظيمة، وما لم يأت الله تعالى ليكون سبحانه هو المعين لهذه الحفنة القليلة الصغيرة الضعيفة من جماعة المسلمين، فلا أمل على الإطلاق أمام أولئك الذين كانوا يحاولون أن يخرجوا إلى الوجود، كما يحاول الفرخ الضعيف الخروج من بيضته. غير أنّ الله جلّ جلاله جاء إليهم بالفعل ليكون لهم سنداً ومعيناً ونصيراً.



(٣)

﴿سورة آل عمران﴾

(مدنية)

صلتها بالسورة السابقة:

لهذه السورة صلة مزدوجة بسورة البقرة التي تسبقها، فهناك رابطة بين آل عمران في مجملها، مع البقرة في مجملها أيضاً، وهناك رابطة بين خاتمة البقرة وفتحة آل عمران. والحقيقة أن ترتيب سور القرآن على نوعين: إما أن يُستكمل في السورة التالية الموضوع الذي حُتمت به السورة السابقة، أو أن يتم تناول موضوع السورة السابقة بمجمله في السورة التالية. وكلتا الرابطين موجودتان بين البقرة وآل عمران.

أما وجه الارتباط بين المضمون العام لسورة آل عمران والمضمون العام لسورة البقرة فيمكن أساساً في بيان الأسباب التي أدت إلى انتقال النبوة من الأمة الموسوية إلى الأمة الإسلامية، وقد كان هذا هو الموضوع الرئيس في سورة البقرة. ولشرحه، تناولت سورة البقرة ظروف فساد اليهود بشيء من الإسهاب، غير أنها لم تسلط إلا قدراً يسيراً من الضوء على المسيحية التي تمثل ذروة الأمة الموسوية. وقد يثير هذا بعض الشكوك في عقول البعض، فيظنون أن اليهودية التي هي الشق الأول من الأمة الموسوية قد فسدت، وأن العقيدة المسيحية وهي أوج الموسوية، لا تزال نقية؛ ومن ثم فلا ضرورة للإسلام كدين جديد. ولإزالة هذا الشك الذي قد يبدو منطقياً، عرضت سورة آل عمران تهافت المعتقدات المسيحية الجارية عرضاً كاملاً. ولكن المسيحية تحاول إقامة تفوقها على أساس سمو تعاليمها العملية، وامتياز أفكارها وعقائدها، لذلك تناولت سورة النساء بعد آل عمران هذا الموضوع، كما سنبين ذلك في موضعه.

على أية حال، بعد أن تثبت سورة آل عمران بطلان العقائد المسيحية، فإنها تمضي في تبيان أن العقيدة المسيحية التي كانت تهدف لإصلاح اليهود وإحياء إيمانهم، قد فسدت بدورها وأصابها الانحلال. وبالتالي لم يعد وجودها عائقاً أمام مجيء ديانة أحدث وأفضل؛ بل على النقيض، فإنها شاهد قوي على شدة الحاجة إلى تشريع جديد. وبسبب ذلك افتتحت سورة آل عمران عن قصد بذكر الصفتين القدستين لله تعالى: «الحي القيوم»، اللتين تؤكدان إبطال التعاليم المسيحية، فإن الله تعالى وحده هو الحي وليس حيٍّ سواه، وهو وحده الذي يقوم على حفظ الأفلاك والموجودات دون شريك كابن مريم أو غيره.

وأما الرابطة الثانية بين خاتمة سورة البقرة وفاتحة آل عمران، فتظهر جلياً في أن سورة البقرة قد انتهت بدعاء لإصلاح شأن الإسلام وانتصاره على أعدائه، وجاءت صفتا «الحي القيوم» في مستهل آل عمران لتؤكد للمسلمين أن الله تعالى سيكون في عونهم، وأن النصر لا يتحقق إلا بتأييده، لأنه سبحانه حي قائم بذاته، قيوم على كل شيء، وقوته لا تعرف الضعف أبداً. ثم تؤكد الآية الخامسة من السورة أن العقاب الأليم سيكون مصير من يكذبون بآيات الله، وأن الله ﷻ قادر على الانتقام منهم، وفي هذا إشارة إلى قبول الله تعالى للدعاء الوارد في خاتمة البقرة ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

اسم السورة وزمن نزولها:

أطلقت الأحاديث النبوية على هذه السورة أسماء عديدة. فهي كالبقرة تُدعى (الزهراء)، مما يدل على الشبه القوي بين مباحث السورتين وموضوعهما. وكذلك تُسمى (الأمان) و(الكنز) و(المعينة)، و(المجادلة) أي الدفاع بالحجج، و(الاستغفار) و(الطيبة). وقد نزلت سورة آل عمران في المدينة.

١. لورود أكثر من ثمانين آية فيها في ذكر مجادلة النبي ﷺ لوفد نصارى نجران. (الناشر)

موضوع السورة:

بدأت السورة كسابقتها بالأحرف المقطعة «الم» أي: أنا الله أعلم، وذلك للفت الانتباه إلى صفة العلم الإلهي؛ ثم ذكرت صفتا «الحياة» و«القيومية» لتشير إلى أن العلم الإلهي متحقق لأن الله تعالى هو الحي القيوم. والواقع أن الحياة والقيومية دليل على كمال علم الله ﷻ؛ لأن الموت والضعف يتولدان من الجهل. إن من هو «حي قيوم» يلزم بالضرورة أن يكون «عليما»، لأنه لو كان هناك «عليم» غيره لكان قادراً على توفير الوسائل اللازمة لبقائه حياً إلى الأبد (آل عمران: ٢-٣). ثم تستمر السورة لتبين:

(أ) أنه رغم أن التوراة والإنجيل من مصدر سماوي إلا أن أتباع الكتابين من اليهود والمسيحيين قد ضلوا عن طريق الحق في معتقداتهم وأفعالهم.
(ب) أنهم استحقوا لذلك عقاب الله.

(ج) أن الأمل في النجاة من عقاب الله بالانتساب إلى هذين الكتابين أمل باطل، لأن الكتابين وقد نُسخا، لم يعودا كافيين لاحتياجات العصر ومتطلباته (الآية الرابعة إلى السابعة من السورة).

ثم تقول السورة إن نوعاً من المساجلة الروحانية سوف ينشأ بين القرآن المجيد وهذين الكتابين، وسوف تكون الغلبة والسيادة للقرآن عند هذه المواجهة، لما يتضمنه من تعاليم يفتقر إليها الكتابان الآخران (الآيات ٨ إلى ١٢).

ثم تخبر السورة المسلمين أن عليهم ألا يخالجهم أدنى شك في أنهم سينالون السيادة والغلبة، ويجب ألا ينتابهم أي خوف من كثرة أعداد اليهود والنصارى أو وفرة إمكانياتهم ووسائلهم؛ فقد أيدهم الله تعالى بنصره من قبل على أعداء أشد منهم قوة وأكثر عدداً؛ ولسوف تتكرر الظاهرة نفسها الآن. ويضيف الله تعالى قائلاً إن الانتصارات لا تبني على الوسائل المادية، وإنما على التفوق الأخلاقي، ومن ثم فإن النصر النهائي سيكون حليف المسلمين، لأنهم وإن افتقروا إلى الوسائل المادية، فإنهم يملكون رصيداً غنياً من التفوق الأخلاقي (الآيات ١٣ إلى ١٨). ثم يقول القرآن المجيد إن الإيمان بوحداية الله تعالى من

أهم أسباب النصر، وأن المسلمين قد نالوا هذه البركة بفضل الله تعالى. وما دام المسلمون متمسكين بالدين الحق، فلن تستطيع قوة على الأرض هزيمتهم (الآيتان ١٩ و ٢٠). وتستمر السورة في موضوع أن أحداً لا يمكن أن يتغلب على الله ورسله، لأن معارضتهم وقوف في وجه الحق، والحق لا يمكن أن يهزم أبداً (الآيات ٢١ إلى ٢٣).

ثم تبين السورة أن أعداء الإسلام يتوهمون أن عاداتهم وتقاليدهم أرقى من تلك التي لدى المسلمين. ويبدو أنهم يتغافلون عن حقيقة أنه لا مفر لأحد في هذه الدنيا من قانون السبب والنتيجة، ولا أمل لهم في النجاح ما داموا يستهينون به (الآيات ٢٤ إلى ٢٨). وتقول السورة بوجود فارق كبير بين أخلاق المسلمين الحميدة وأخلاق الكافرين السيئة؛ وبالتالي، على المسلمين أن يكونوا على حذر دائم من التأثير بفساد الآخرين، لئلا يحل عليهم غضب الله تعالى (الآيتان ٢٩-٣١). ثم تستمر السورة في توضيح هذا الأمر حيث تبين أن السبيل لتقدم وازدهار المسلمين لا يكمن في تقليد الأقوام الأخرى؛ إنما هو بالاتباع التام للإسلام وللرسول ﷺ (الآيتان ٣٢ و ٣٣). والإعلان السابق ليس تأكيداً فارغاً، لأن التاريخ شاهد على أن النصر كان دائماً حليف أتباع رسل الله تعالى (الآيتان ٣٤ و ٣٥). ثم يلي ذلك عرض واف وواضح للموضوع الأصلي مع إشارة موجزة إلى نشأة المسيحية، بينما دحضها هو المبحث الرئيس هنا (الآيات من ٣٦ إلى ٦٤). ثم نبّه القرآن المجيد أهل الكتاب إلى أن المسلمين يؤمنون بصدق مصادر إيمان أهل الكتاب وكتبهم ومنابعها الأولى، فلا داعي إذن لقتالهم، بل الأحرى بهم أن يشتركوا معاً في دعوة الكفار إلى تعاليم وحدانية الله التي يتفقان عليها سوياً (الآية ٦٥). ثم ألقت السورة بعض الضوء على النتائج السيئة المترتبة على الفرقة والعداوة التي لا تقوم على أساس. وأوضح سبحانه وتعالى أن مثل هذه العداوة تعود إلى معتقدات حمقاء، وتؤدي إلى تبليد العقل وفقدان الصلاح (الآيات ٦٦ إلى ٨١). ثم يقول القرآن المجيد إن لكل نبي ميثاقاً على أتباعه، بسبب ما أنعم الله عليهم به من «الكتاب والحكمة»، فعليهم أيضاً أن يقبلوا الحق الذي يأتيهم من بعده مصداقاً لما معهم، فالتخلي عن ذلك يُنزل بهم عقاب الله تعالى (الآيات ٨٢ إلى ٩٠)؛ وتنذر السورة المسيحيين أن لا يأملوا في البقاء «شعب الله المختار»، ولا أن ينالوا

حُبّه إن هم رفضوا الحق الجديد، أما المسلمون فإنهم يتمسكون بهذا التعليم ويؤمنون بجميع رسل الله، والحقيقة أنه ما من سبيل غير ذلك يقبله الله تعالى.

وتتساءل السورة في تعجب كيف يمكن لمن آمن بأن الحق قد أوحى به دائماً من لدن الله تعالى، أن ينكر هذا المبدأ اليوم؟ وما حجته في هذا؟ وتؤكد السورة أن من يفعل ذلك يعرض نفسه لغضب الله تعالى وعقابه (الآيتان ٩١ و٩٢). ثم تستمر في بيان أن الخير الحق هو في التضحية بكل عزيز في سبيل الله ﷻ، وأن التضحية الحقة هي التضحية بالمشاعر والعادات والمعتقدات البالية المتوارثة (الآية ٩٣). ثم تقول إن المسائل التي يختلف فيها أهل الكتاب ويتشاجرون مع المسلمين بسببها لا وزن لها، لأن آباءهم أنفسهم قد أباحوا بعضها من قبل. وإذا كان هؤلاء قد نجحوا في نيل الخلاص بالرغم منها فلم لا يستطيع ذلك المسلمون؟ (الآيات ٩٤ إلى ٩٦). ويزداد تصعيد الموضوع حيث يقول الله تعالى إن المسلمين واليهود يلتقون عند إبراهيم عليه السلام؛ ولما كان إبراهيم عليه السلام هو الذي وضع أساس الكعبة، فلماذا يتشاجرون بنو إسرائيل مع المسلمين على خلافات ليست حقيقية ولا جوهرية، ولماذا يفضلون الخداع والطغيان لطمس الحق والصد عنه؟ (الآيات ٩٧ إلى ١٠٠). ثم يلي ذلك تحذير إلى المسلمين بأن أهل الكتاب قد شطّوا بعيداً في معارضتهم، وأن المسلمين إذا انقادوا لهم فسوف يقودونهم بالتأكيد إلى الضلال. ولكن المسلمين لا يمكن أن يضلوا لأنهم من تلقى الوحي الإلهي الجديد، لذلك نصحهم الله ﷻ بأن يقابلوا بالصبر كل معارضة واستفزاز، وأن يقوّوا صلتهم بالله ﷻ، وأن يقيموا علاقاتهم المتبادلة على أسس ثابتة، إذ إنهم سيكونون في حاجة شديدة إلى جبهة متحدة متماسكة عند مواجهة الهجوم العنيف من قبل المسيحيين (الآيات ١٠١ إلى ١١٠). ثم أخبر المسلمون أن عليهم قبل حلول ذلك الوقت أن يقوّوا صفوفهم بتوصيل رسالة الإسلام إلى أكبر عدد ممكن من الأقوام، ويجب أداء ذلك بطريقتين: (أ) يجب أن تكون هناك جماعة خاصة من الدعاة بين المسلمين، ينذرون حياتهم لنشر الإسلام. (ب) يجب على المسلمين أن يدعوا إلى دينهم بأحسن ما في وسعهم. وفي هذا يكمن نجاح الإسلام (الآية ١١١). ثم حذّر المسلمون من توهّم نوال أي عون من اليهود عندما يقاتلون المسيحيين. بل على العكس،

لن يدّخر اليهود جهداً في مضايقة المسلمين والاعتداء عليهم، ولكنهم سيفشلون في إلحاق أي أذى أو ضرر حقيقي بهم، وسوف يلاقون المهانة والذلة أنفسهم. (الآيتان ١١٢ و ١١٣). ولا يتردد القرآن الكريم في الاعتراف بوجود الخير حيثما وجد، فيقول إن أهل الكتاب ليسوا جميعاً فاسدين، فمنهم الصالحون الذين سينالون أجرهم عند الله تعالى (الآيات ١١٤ إلى ١١٦). أما أصحاب الطباع السيئة فسينالهم سوء والتحقير. ونُبّه المسلمون بالأشأن لهم مع أمثال هؤلاء القوم، لئلا يتأثروا بسوء أخلاقهم. ومع ذلك فينبغي ألا يخشوهم، لأنهم لن يتمكنوا من إلحاق أي ضرر يذكر بهم (الآيات ١١٧ إلى ١٢١). وبعد ذلك تأتي إشارة موجزة إلى موقعة بدر، ويخبر الله تعالى المسلمين أنه كما حماهم وساعدهم على كفار مكة في ظروف بالغة الصعوبة يوم بدر، ووهبهم نصراً مبيئاً عليهم، فلسوف يحدث مثل ذلك في مواجهة أهل الكتاب. وستكون رحمة الله ومغفرته مصاحبة للمسلمين، بينما سيحل عقابه تعالى على رؤوس أعدائهم (الآيات ١٢٢ إلى ١٣٠). ثم تخبر السورة المسلمين بأن اليهود والمسيحيين يعتمدون على الربا لحشد قواتهم وقدراتهم، ولكن المعاملة بالربا أخذاً أو عطاءً تناقض الخلق الطيب، فعلى المسلمين إذن أن يستمدوا قوتهم من أعمالهم الصالحة ومساعدة الفقراء (الآيات ١٣١ إلى ١٣٣). ثم إن المسيحيين يعتمدون في خلاصهم على عقيدة الفداء، وهي عقيدة قامت على الظن بأن التوبة لن تقبل. وبناء على هذا، فإن أهل الكتاب بأخذهم الربا يظلمون عباد الله تعالى ولا يتسامحون معهم؛ وباعتناقهم فكرة رفض الغفران ينسبون إلى الله تعالى القسوة كما هو دأبهم. وأمر الله تعالى المسلمين باجتناّب تلك العقيدة وحضهم على طلب المغفرة من الله ﷻ إذا ما وقعوا في معصية (الآيات ١٣٤ إلى ١٣٧).

ثم قدمت السورة للمسلمين السلوى والتشجيع بتعريفهم أن الله ﷻ يدمّر أعداء أنبيائه دائماً. فعلى المسلمين أن يؤدوا واجباتهم، ويقدموا التضحيات اللازمة، وأن يستخدموا الوسائل المادية التي تحت أيديهم، ثم يفوضوا الأمر لله تعالى، ولسوف يدبر سبحانه أمر انتصارهم؛ وما عليهم إلا بذل ما في وسعهم بياناً لإخلاصهم وعمق إيمانهم (الآيات ١٣٨ إلى ١٤٤). ثم يقول الله تعالى إن الرسول ﷺ ما هو إلا حلقة في سلسلة طويلة من

حملة الحق، وإذا حدث أن مات أو قتل في المعركة - علماً بأن الله تعالى وعده وعداً أكيداً بعصمته من القتل - فلا ينبغي للمسلمين أن يفقدوا الشجاعة أو يصابوا باليأس، فالمؤمنون على مر العصور قد حاربوا أعداء الحق في ظروف عصيبة، وكانت عاقبة أمرهم دائماً بلوغ النجاح والازدهار الدنيوي والروحاني (الآيات ١٤٥ إلى ١٥٢). ثم ذكرت السورة واقعة أحد، وأبرزت ما فيها من عبرة للمسلمين، وكيف أن إظهار قدرٍ صغيرٍ من الضعف يؤدي أحياناً إلى عواقب وخيمة (الآيات ١٥٣ إلى ١٥٦)، ثم نهت المسلمين إلى ضرورة تجنب تبادل الاتهامات وإلقاء اللوم في مثل هذه الظروف الحرجة لأن ذلك يُضعف روح الأمة؛ ومن يفعل ذلك منهم ليس مخلصاً لجماعته (الآيات ١٥٧ إلى ١٥٩). وهناك قاعدة سلوكية أخرى ينبغي مراعاتها، وهي أن على القادة في أوقات الحرب أن يتحلوا بتسامحٍ يفوق المعتاد تجاه أتباعهم، وأن يُبدوا قدراً أكبر من المراجعة لمشاعرهم، حتى لا يجد العدو ثغرة لإثارة التنافر والانقسام في صفوفهم. كما يجب اتباع مبدأ التشاور في كل الأمور (الآية ١٦٠). ثم تعود السورة للتأكيد على المبدأ السابق: لا فلاح إلا بعون الله تعالى، لذا لا يجوز التهاون في الالتزام الديني والأخلاقي طمعاً في مكاسب دنيوية زائلة (الآيات ١٦١ إلى ١٦٤). ثم يُذكر الله تعالى المسلمين بالنعمة العظيمة التي أنعم عليهم بها، إذ بعث فيهم من أنفسهم رسولاً على مرتبة عالية من الكمال؛ فعليهم، حتى ينالوا الفلاح، اتباع هذا النبي وتجنب السبل التي تعكر صفو السلام (الآيات ١٦٥ إلى ١٦٩). ثم يضع القرآن المجيد مبدأً عظيماً، وهو أن الذين يبذلون حياتهم في المعركة في سبيل الحق، يحظون بمنزلة خاصة واحترام بالغ، فهم الذين ينالون الحياة الأبدية، وهم الذين يظهرون من الخلق القويم ما يمنح الحياة لمجتمعهم (الآيات ١٧٠ إلى ١٧٣). ثم نخبرنا السورة أنه في كل جماعة يوجد بعض ضعاف النفوس، فلا ينبغي التخوف من وجودهم بين صفوفنا (الآيات ١٧٤ إلى ١٨٠). ثم تعود السورة إلى ذكر أهل الكتاب، فتخبرنا أن حالتهم العقائدية قد فسدت إلى درجة أنهم يزعمون بأنهم شعب الله المختار، ثم يترددون في إنفاق أموالهم في سبيل الله. وعلى المسلمين أن يستفيدوا من هذا الدرس (الآيات ١٨١ إلى ١٨٣). ثم قارنت السورة بين فساد هؤلاء القوم وادعائهم أنهم

أمروا بالولاء للرسول الذي يطالبهم بأعظم التضحيات. ويقول الله تعالى إن رسلهم قد جاءتهم بمثل هذا ولكنهم كذبوهم (الآيتان ١٨٤ إلى ١٨٥). ثم توضح السورة أهمية مبدأ التضحية، حيث يقول الله تعالى إن الخوف من بذل التضحيات في سبيل الأمة حماقة؛ إذ إن الموت الذي هو أعظم التضحيات أمر محتوم على كل إنسان، والفارق بين الموت في سبيل الله تعالى وغيره، أن الصالحين يستمرون في التقدم حتى بعد الموت. فلم يخشونه إذن؟ (الآية ١٨٦). وتحذر السورة المسلمين من أنهم سوف يُواجهون الابتلاءات، وينبغي ألا يخامرهم ظن في أن نيلهم الفلاح سيكون دون المرور بالتجارب والابتلاءات (الآية ١٨٧). ثم يقول الله تعالى إنه قد أمر أهل الكتاب بالعمل بتلك التعاليم ونشرها، ولكنهم أنفسهم أغفلوها، فأنى لهم أن ينشروها بين غيرهم؟ إنهم يريدون أن ينالوا الثناء على أعمال لم يفعلوها، ولكنهم بدلاً من ذلك سيلقون العار والدمار، لأن من لا يؤدي واجبه لا يستحق أن ينال التكريم (الآيات ١٨٨ إلى ١٩٠). وجاء في الآيات القلائل التالية وصف للخصائص والصفات المميزة للمؤمنين الصادقين، ثم تم تعليم المسلمين أدعية خاصة ليرددوها لأنها ضرورية لنجاحهم وسعادتهم (الآيات ١٩١ إلى ١٩٥). وإذا ما دعوا بها مخلصين، فإن الله ﷻ سوف يستجيب لهم، وبعونه تعالى سوف يهزمون أعداءهم، ويضعفونهم مهما كانوا أقوىاء (الآيات ١٩٦ إلى ١٩٩). ولكن يجب أن يضعوا في اعتبارهم أن أهل الكتاب ليسوا سواء، فمع أن الغالبية العظمى منهم سيئة، إلا أن فيهم أناساً صالحين، وهؤلاء سينالون أجرهم من الله تعالى (الآية ٢٠٠). وتنتهي السورة بقواعد السلوك التي يجب على المسلمين مراعاتها ليصلوا إلى الفلاح والغلبة (الآية ٢٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

التفسير:

راجع تفسير البسملة في سورة الفاتحة.

الْم ﴿٢﴾

التفسير:

راجع تفسير الآية الثانية من سورة البقرة.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الْحَيُّ: المتصف بالحياة الأزلية الباقية.

الْقَيُّومُ: القائم بنفسه ويقوم غيره به. (انظر شرح كلمات الآية ٢٥٦ من سورة البقرة).

التفسير:

تتضمن الآية على تفنيد قوي لدعوى ألوهية المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام. ولما كانت هذه العقيدة إحدى المباحث الرئيسة في هذه السورة، لذلك بدأت السورة بذكر المناسب من صفات الله تعالى التي تجتث جذور تلك العقيدة، وهما الصفتان الإلهيتان: (أ) ﴿الْحَيُّ﴾ أي الأبدى الأزلي، (ب) ﴿الْقَيُّومُ﴾ أي القائم بذاته، القيام على كل الوجود، وهما تثبتان أن المتصف بهما لا يحتاج شريكاً أو مساعداً. ثم إن عيسى عليه السلام الخاضع لشرعة المولد والوفاة، والذي ليس قائماً بذاته ولا قَيَّاماً على الوجود، لا يمكن أن يكون متصفاً بالألوهية.

وتثبت هاتان الصفتان أيضاً فراغ عقيدة الكفارة المترتبة على العقيدة السابقة. إذ يُقال إن عيسى عليه السلام قد مات ليُكفَّر عن خطايا البشر. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يمكن أن يكون إلهاً، لأن الله ﴿الْحَيُّ﴾ لا يذوق الموت، دائماً كان أم مؤقتاً.

ولا قيمة للقول بأن موت المسيح لا يعني إلا مفارقة المسيح «الإله» للجسد المادي. إن طبيعة الصلة بين لاهوت عيسى وجسده المادي في اعتقاد المسيحيين صلة

مؤقتة، وكان من المحتم أن ينفصلاً يوماً ما وإن لم يمت عيسى على الصليب. إذن فإن مجرد انفصال الطبيعتين لا يمكن أن يحقق غرضاً مفيداً. لا بد أنه موت من نوع آخر، ذلك الذي يفتردي أتباعه العصاة. وهذا الموت قد أصاب عيسى طبقاً لرأي المسيحيين أنفسهم، إذ إنه بعد صلبه نزل في الهاوية والجحيم (سفر الأعمال ٣١:٢ وكتاب الصلوات الشائعة، مقالة عن الدين ص ١١١). إذن، خلافاً لكونه معصوماً من الموت، وهي صفة استأثر بها الله تعالى تماماً، فإن المسيح ﷺ ذاق الموت بمعناه الحرفي والمجازي. إنه لم يمت فحسب، وإنما نزل إلى الهاوية؛ ولم يقاس الأسى والألم فحسب، وإنما عانى من التحقير والإذلال أيضاً في الجحيم.

وبالمثل، فإن اسم «القيوم» يثبت بطلان العقيدة المسيحية. فالله ﷻ هو الذي يقوم بنفسه، ويقوم به الكل أيضاً ويستمدون منه العون. ولكن لا يمكن إثبات هذه الصفات للمسيح. فهو مثل كل من كُتب عليه الموت والهلاك، ولدته امرأة، وعاش على الطعام والشراب، وذاق الألم والإذلال، وطلب من غيره الدعاء له لتخفيف آلامه، وفي النهاية، كما يقول المسيحيون، مات على الصليب. وفي أسفار العهد الجديد شهادة كافية لكل هذه الوقائع التي تدل على النقص البشري. ولكن الله تعالى «الحي القيوم» مُنَزَّه عن كل ذلك.

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

بِالْحَقِّ: مشتقة من حقّ: أي كان أو صار حقاً، مناسباً، صحيحاً، صادقاً، موثقاً، أصيلاً، فعلاً، واقعاً؛ كان أو صار حقيقة أو واقعاً ثابتاً أو مؤكداً؛ أو صار ملزماً، مفيداً، واجباً. إذن فمعنى حق: الصدق؛ واقع مؤكداً؛ نصيب ثابت؛ مساواة وعدل؛ قَدَرٌ

مقرر؛ ما يناسب الحكمة والعدالة والصدق والواجب للشيء. والحق من أسماء الله تعالى ويعني الإله الموجود فعلاً، أو الخالق حسب أصول الحكمة والعدالة والواجب. ويوصف بها القرآن المجيد، كما توصف بها عقيدة الإسلام أيضاً (معجم لين). راجع أيضاً الآية ١٨١ من سورة البقرة.

التَّوْرَة: يُعتقد أنها كلمة عبرية. وفي اللغة العربية يقال إنها مشتقة من «وَرَى»، يُقال «وَرى النار» أي أشعل النار، «وَرَى الزَّند» أي أشعل النار من الزند. «وَرَى الخبر» أي أخفاه. «وَرَى عن كذا» أي استعمل التورية، أي استخدم أسلوباً يجعل السامع يفهم خلاف ما يعنيه القائل (أقرب الموارد). وعلى ضوء هذه الدلالات فإن كلمة «التَّوْرَة» قد يكون القصد منها أنها وقت أن كانت نقية، أشعلت قلب قارئها والعامل بما فيها بحسب الله تعالى. ويمكن أن تكون التسمية إشارة إلى ما تحويه من نبوءات وضاعة عن مجيء النبي الكريم ﷺ بالشرعة الخاتمة. إن أساس الكلمة في اللغة العبرية يعني (يعلم) وعلى هذا تعني كلمة التوراة التعليم أو الإدراك أو الشرعة (Gesenius). والتوراة اسم يطلق على أسفار موسى عليه السلام الخمسة: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والثنية. وربما يرجع أصل الاسم إلى المعتقد اليهودي الشائع بأن الأسفار الخمسة، كشأن كل شيء سماوي، يتكون من النار لأنها كتبت بأحرف من اللهب على قاعدة بيضاء من النار (دائرة المعارف اليهودية ج ١٢ ص ١٩٧). ويستخدم الاسم أحياناً للدلالة على الوصايا العشر.

الإنجيل: (البشارات) ويحتمل أن تكون الكلمة يونانية الأصل (اشتقت منها كلمة أناجيل الإنجيلية ومعناها الأخبار الطيبة) وكان الإنجيل يسمى أيضاً بالإنجيلية Evangel ثم تقادم عليها العهد. ويُقال في العربية «نَجَلَه أبوه» أي أنجبه. «نَجَل الشيء»: وضعه عارياً أو كشفه. «نَجَل الأرض»: حرثها وفتحها لبذر البذور. «نَجَل الرجل»: أي كان ذا عيون واسعة جميلة. وكلمة (إنجيل) عند صاحب أقرب الموارد يونانية ليس لها أصل عربي، وتعني البشارة.

مُصَدِّقًا: محققًا. (راجع شرح الآية ٤٢ من سورة البقرة).

الْفُرْقَانُ: التفرقة والتمييز بين الحق والباطل. (راجع الآية ٥٤ من سورة البقرة).

التفسير:

قوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني:

(١) أن القرآن المجيد يشتمل على تعاليم صادقة، مبنية على الصدق الأبدي، ولا يمكن النجاح في الهجوم عليها.

(٢) أن القرآن المجيد أرسل للقوم المناسب، أي أنهم أكثر الناس ملاءمةً لذلك.

(٣) أنه نزل عند تمام الوقت وتحقيقًا لحاجات مُلِحَّة.

(٤) أنه نزل ليكون حقيقة واقعة، ولن يتمكن أعداؤه من النجاح في محاولتهم القضاء عليه أو العبث به (راجع معاني المفردات).

وتعني كلمة ﴿الْإِنْجِيل﴾ البشارات، لأنه احتوى على بشارات لمن يؤمن بعيسى عليه السلام، وأيضا احتوى على نبوءات عن مجيء أعظم الأنبياء عليه السلام، الذي عبّر المسيح عن مجيئه بمجيء الرب (متى ٢١: ٤٠) أو مجيء ملكوت الرب (مرقس ١: ١٥). وتنبأ أيضاً بمجيء مثل المسيح في آخر الزمان، أي المسيح الموعود عليه السلام.

ولفظه ﴿الْإِنْجِيل﴾ في الآية لا تشير إلى الأناجيل الأربعة الحالية التي كتبها أتباع عيسى عليه السلام بعد حادثة الصلب بفترة طويلة، والتي سردت قصة حياته وتعاليمه فحسب، ولكنها تشير أيضاً إلى الوحي الحقيقي الذي تلقاه عيسى عليه السلام من الله تعالى. والحق أن الأناجيل الحالية تحتوي على جزء من ذلك الوحي، غير أن كلمات الله عزوجل اختلطت فيها بأقوال عيسى نفسه، بحيث يصعب التمييز بينهما في كثير من الحالات. وتحتوي الأناجيل على قدر كبير معترف به بأنه ليس من مصدر إلهي. وقول الرسول ﷺ عن أصحابه أن "صدورهم أناجيلهم" (اللسان)، أي أن صدور أصحاب الرسول ﷺ كالأناجيل، وهذا يلقي الضوء على أهمية الإنجيل ومنزته.

فصدور الصحابة مستودع لسيرته الشريفة وتعاليمه، وهذا إنجيل عظيم حقاً. ويمكن أن يُستنتج من ذلك أن منزلة الأنجيل الحالية تماثل موسوعات «الحديث» كالبخاري ومسلم وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾، يعني قبل نزول القرآن المجيد تزود الناس من التوراة والإنجيل بالهداية الروحانية، ثم أخذ القرآن المجيد مكانهما وصار هداية لكل الناس إلى أبد الدهر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ في آخر الآية إشارة إلى القرآن المجيد، الذي ذكرت الآية نزوله في مطلعها. والفكرة وراء تكرار الإشارة إليه في الآية هي إبراز أن القرآن الكريم قد جاء ليأخذ مكان الكتب السابقة جميعها. وكلمة ﴿الْفُرْقَان﴾ تشير إلى نفس الحقيقة. ويمكن أن تكون اللفظة إشارة إلى الآيات السماوية الموهوبة للإسلام تدعيماً للحق.

ولبيان تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ راجع الآية ٤٢ من سورة البقرة.

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

ذُو انتِقَامٍ: انتقام مصدر من نقم. نقم منه أو انتقم منه: ثأر منه؛ عاقبه؛ أوقع عليه الجزاء لما فعله. نقمة وانتقام، بمعنى الثأر والجزاء والعقاب (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

بعد أن جاء القرآن الكريم فرقاناً ومصدقاً لما في الكتب المخالفة كما ذكرت الآية السابقة، فإن الإصرار على تكذيب الرسول ﷺ يُعد بحق عملاً يستحق العقوبة الشديدة. وتشير الآية إلى أن رب الإسلام ﴿عَزِيزٌ﴾ ذو مقدرة على المعاقبة، والذين رفضوا الحق وعادوه لا بد لهم من انتظار العقاب الإلهي.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا
فِي السَّمَاءِ ⑤

التفسير:

ليس الله سبحانه عزيزاً وقادراً على الانتقام فحسب، بل هو أيضاً عليم بكل شيء، وهذه صفة جوهرية لا غنى عنها لنجاح استعمال القوة وإنزال العقاب. وهكذا تسوق الآية حجة أخرى مضادة للاهوت المسيح المزعوم. فما من شيء يخفى على الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، أما المسيح، فباعترافه - يجهل الكثير من الأمور، (مرقس ١٢: ١١ و ١٣)، فهو لا يعلم ميقات يوم الدينونة (متى ٢٤: ٣٦). وواضح أن مثل هذا النقص في المعرفة لا يتفق وجلال الألوهية.

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ
يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑥

شرح الكلمات:

يُصَوِّرُ: مشتقة من صار. صار الشيء: (١) استماله. (٢) قطعه أجزاء. صوره: شكله أو حجمه؛ أعطاه هيئة. صوره تصويراً: حجمه وأعطاه شكلاً محدداً. الصورة: الهيئة أو الشكل والمظهر الذي يتميز به من بين الأشياء الأخرى (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

التصوير والخلق شيان مختلفان، كما يتضح من (سورة الأعراف: ١٢ والانفطار: ٨ و ٩). والخلق الذي يقع قبل التصوير يعني خلق الشيء وإعطائه شكلاً مادياً، والتصوير يعني التشكيل والتفصيل ومنح الطفل قدرات أخلاقية وروحانية. فلخلق والتصوير علاقة متبادلة كالجسد والروح. ولقد أظهرت الأبحاث الطبية أن هناك علاقة لطيفة بين الملامح الجسمية وأخلاق الإنسان. فقلوه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ﴾ يعني بعد أن يوجد الله تعالى الجسد في الرحم، يُوضَع أساس مستقبل الإنسان، وإلى هذه الحقيقة يشير الرسول ﷺ في قوله إنه عند تشكل الجنين في رحم أمه تسأل الملائكة: أنكتبه سعيداً أم شقيماً؟ (البخاري).

ولما كان تشكل الطفل يحدث في رحم أمه، فمن الطبيعي إذن أن يتأثر بمحيطه؛ أي حالة الأم الجسمية والأخلاقية. ولما كان عيسى عليه السلام ذا جسد تكوّن في رحم أمه، مثله في ذلك كمثل غيره من البشر، فلا يمكنه الإفلات من التأثير بالعجز والضعف الكامن في الأم. وكتاب المسيحيين المقدس يرى أن المرأة دون الرجل من الناحية الأخلاقية، لأن الشيطان خدع آدم من خلال حواء (سفر التكوين ٣: ١٢ و ١٣)، فلا يملك عيسى إلا أن يشاطر أمه ضعفها وعجزها. ولهذا أشار الرسول ﷺ بوضوح إلى مولد عيسى عليه السلام كحجة تدحض ألوهيته أثناء حوارهِ مع نصارى نجران. فقد روي عنه عليه السلام أنه قال لهم: ألا تعلمون أن امرأة حملت بعيسى كما تحمل المرأة بطفل؛ وأنها وضعتة كما تضع المرأة طفلها؟ (ابن جرير ج ٣ ص ١٠١).

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جاء في موضعه كنتيجة طبيعية للعبارة السابقة. فلما كان الله تعالى هو مصوّر الأجنة في أرحام الأمهات، فلا يجوز لطفل مولود من أم أن يدعي الألوهية، أو يدعيها له غيره.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ
مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ
مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ
آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا
أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

مُحْكَمَاتٌ: من أحكم وحكم التي تعني قرر أو قضى؛ منع أو كبح أو حجز. أحكمه: ثبته أي جعله ثابتاً، راسخاً، مصوناً، كبحه. فالمُحْكَمُ إذن يعني: (١) ما جعل مصوناً من التحوّل والتغيير. (٢) ما ليس فيه غموض أو احتمال شك. (٣) واضح في معناه قاطع في دلالاته (أقرب الموارد، مفردات الراغب، معجم لين).

أُمُّ: مصدر من أَمَّ: استهدف أو قصد أو اهتم بأمر. أُمٌّ: لها معانٍ عديدة منها: الوالدة، أصل الشيء أو أساسه أو مصدره، دعامه الشيء ووسيلة تعضيده أو إصلاحه أو تصحيحه، الشيء الذي يربط بين ما حوله من أشياء (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

مُتَشَابِهَاتٌ: جمع متشابه المشتقة من شَبَّه. يقال شبهه به: جعله مثله؛ مثله به. شُبِّه عليه الأمر: جعله ملتبساً أو غامضاً أو محيراً له. تشابه الرجلان: تماثلاً بحيث يصعب التمييز بينهما. متشابه: يماثل بعضه بعضاً. والمقصود بكلمة (متشابهة) العبارة أو الجملة أو الآية التي تحتل تفسيرات مختلفة لكنها مناسبة. أو ما كانت أجزاؤه يماثل أو يُوافق بعضها بعضاً؛ أو ما كانت دلالاته الحقيقية تحتل معنى آخر غير مراد؛ أو ما لا يعرف معناه الصحيح إلا بالرجوع إلى المحكم؛ أو ما لا يفهم فهما صحيحاً إلا بالتمعن والاعتبار المتكرر (أقرب الموارد، معجم لين، مفردات الراغب).

زَيْغٌ: مصدر زاغ أي مال أو حاد، خرج عن الطريق الصحيح. زيع تعني: الحيدان عن الحق أو الصواب، الاعوجاج؛ الريب. أزاعه جعله يحيد عن الطريق الصحيح (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

تَأْوِيلٌ: مصدر من أَوَّل المشتقة من آل أي أدار أو رجع. أوله: أرجعه أو حرّفه. أَوَّل الكلام: فسرهُ أو بيّنه. أَوَّل الرؤيا: فسرّها. تأويل: تفسير أو شرح، تخمين المعنى، حرّف القول بعيداً عن معناه الصحيح؛ تفسير الرؤيا، نهاية أو نتيجة أو عاقبة الشيء (معجم لين وأقرب الموارد). وكلمة (تأويل) وردت في الآية مرتين: الأولى بالمعنى الثاني أو الثالث (أي تخمين أو صرّفه عن معناه الحقيقي)، والثانية بالمعنى الخامس (أي نتيجة).

الرَّاسِخُونَ: جمع راسخ، وهذه مشتقة من رسخ أي ثبت، وطد. رسخ الشيء: ثبت أو صار موطداً. رسخ العلم في قلبه: ثبت أو صار في أعماق قلبه. الراسخ في العلم: ذو المعرفة الواسعة العميقة، القائمة على أسس ثابتة وطيدة (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

التفسير:

نزلت هذه الآية في وفد نجران من المسيحيين الذين زاروا الرسول ﷺ في المدينة (ابن جرير). وتهدف الآية إلى أربعة أغراض:

(١) تبين كيف نشأت التعاليم المسيحية المتأخرة، وتشرح كيف فسدت التعاليم الأصلية.

(٢) تخبر كيف أن نُقَّاد الإسلام، وخاصة المسيحيين، يلوون التعاليم الإسلامية الصحيحة ليبرروا هجومهم على الإسلام.

(٣) تُنبه المسلمين ليأخذوا عبرة من تاريخ المسيحيين.

(٤) تقدم مبدأً جديرًا بالثقة في كيفية تفسير الكتب السماوية، وكذلك أي كتاب أو قول، بالطريقة الصحيحة.

إن ما أدى إلى ضلال المسيحيين وانحرافهم هو تلك التعبيرات مثل «ابن الله» وغيرها التي وردت بالمعنى المجازي فأخذوها بمعناها الحرفي، وتغاضوا تمامًا عن عقيدة المسيح ﷺ المستقيمة السهلة. لقد أحلوا المتشابه محل المحكم.

ومن الثابت أن الوفد المسيحي المشار إليه آنفًا، جاء إلى الرسول ﷺ وتباحث أفراداه معه حول ألوهية عيسى ﷺ، وكانوا كدأب المجادل الماهر الذي يقطع جزءًا من سياقه، يناسب أغراضه، ويقيم عليه حججه، فسألوا الرسول ﷺ عما إذا كان القرآن الكريم قد تحدث في شأن المسيح ﷺ بأنه (كلمة الله وروح منه) ولما كان جوابه بالإيجاب، هللو فرحًا بأن لاهوت عيسى قد ثبت إذن. لم يهتموا بتدبر معنى هذه العبارات في النص القرآني، وهو لا يحمل المعنى الذي ظنوه أبدًا. وتشير الآية التي نحن بصددنا إلى مثل هذه الأساليب المعيبة، وتشترع قاعدة ذهبية مؤداها أنه لفهم مسألة موضع نقاش، يجب أن تؤخذ العبارات الحاسمة الواضحة في الكتاب بالاعتبار التام. وإذا حدث أنه قد تعارض مدلول تلك العبارات مع تركيب ورد في فقرة غامضة سيقت تدعيمًا لحجة ما، فلا بد من نبذ هذا التفسير، ثم تفسير الفقرة تفسيرًا يتفق مع العبارات القطعية الواضحة الواردة في الكتاب. ومن الضروري أن تُراعَى هذه القاعدة الذهبية كلما تطلب الأمر تفسير أو شرح فقرة تحتل عدة تفسيرات ولا يسهل فهمها. وينبغي مراعاة هذه القاعدة دائمًا عند تفسير نص يصعب فهمه أو يحتمل تأويلات متعددة، وتزداد ضرورة مراعاتها عند شرح آية من القرآن المجيد، قد

يبدو أنها صعبة أو معقدة. فأني تفسير يصطدم مع آيات قرآنية أخرى، ويتعارض مع العبارات القطعية الواضحة، لا بد من نبذه. أما التفسير الوحيد المقبول فهو الذي يتفق مع القواعد الرئيسية.

ووفقاً لما جاء في الآية، يحتوي القرآن المجيد على نوعين من الآيات. بعضها محكم أي قطعي الدلالة، والآخر متشابه أي يحتمل عدة تفسيرات. والطريقة الصحيحة لتفسير المتشابه هي التي يتفق بها مفهوم الآية مع غيرها من الآيات المحكمات، وغير ذلك لا اعتبار له. وروى عن الرسول ﷺ أنه سمع ذات يوم قوماً يتنازعون حول تفسير بعض آيات القرآن المجيد، فقال غاضباً ما معناه (هكذا هلك الذين من قبلكم. أولوا كتبهم فتعارض بعضها مع بعضها الآخر. ولقد نزل القرآن بحيث يؤيد بعضه بعضاً. فلا تضيعوا الحق بجعل بعضه يعارض بعضه الآخر. اتبعوا منه ما فهمتموه، واعرضوا ما لم تفهموه على من يعرفونه ويفهمونه (المسند)^٢.

ويدحض الحديث السابق أيضاً نظرية «النسخ في القرآن»، إذ يتحدث فيه الرسول ﷺ عن القرآن المجيد ككتاب واحد تؤيد بعض آياته بعضها الآخر، ويدين الحديث من يظن أن بعضها يتعارض مع غيرها. ويرجع الفضل في سف نظرية النسخ المزعومة هذه إلى أحمد بن حنبل، المؤسس الكريم للجماعة الإسلامية الأحمدية. لقد قدم هو وتلامذته شروحات مقنعة لكل تلك الآيات التي زعموا أنها قد نسخت.

٢. نص الحديث: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِي بِهِ مِحْرَ التَّعَمُّ أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي وَإِذَا مَشِيخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ فَجَلَسْنَا حَجْرَةً إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ازْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغَضَّبًا قَدْ احْمَرَّتْ وَجْهُهُ يَزِمُهُمْ بِالْتَّرَابِ وَيَقُولُ: «مَهْلًا يَا قَوْمَ بِهِذَا أَهْلَكْتَ الْأُمَّةَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ» (مسند أحمد).

ويمكن الإشارة هاهنا إلى أن القرآن المجيد كله متشابه، وفقاً للآية ٢٤ من سورة الزمر^٣، وكل آيات القرآن المجيد محكمة وفقاً للآية الثانية من سورة هود^٤. ويجب ألا يفهم من ذلك وجود تعارض بين هاتين الآيتين والآية الحالية هذه التي تنص على أن من آيات القرآن ما هو محكم ومنها ما هو متشابه، إذ من اليسير توضيحهما. فمن حيث الدلالة الحقيقية للآيات القرآنية، يكون القرآن المجيد كله محكماً، حيث إن كل آياته تحوي حقائق قطعية سرمدية. ويكون القرآن المجيد جميعه متشابهاً، بمعنى أن آياته قد صيغت بحيث تعطي معان متعددة، كلها في الوقت ذاته حسنة وصحيحة. والقرآن المجيد أيضاً متشابه بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً، فلا تعارض ولا تناقض فيه، بل تحمل آياته التعضيد لبعضها. ولكن هناك بالتأكيد آيات محكمة وأخرى متشابهة بالنسبة للقارئ، حسب قدراته الفكرية والروحية، وإلى هذا تشير الآية الحالية.

وفيما يتعلق بالنبوءات، فإن ما ورد منها في عبارة بسيطة واضحة مباشرة، لا تحتمل سوى معنى واحد، يعد من المحكمات. أما ما جاء في أسلوب مجازي أو تمثيلي فيعد من المتشابهات. فمن الضروري إذن أن يكون تفسير النبوءات المتشابهة على ضوء النبوءات المحكمة التي تحققت حرفياً، وعلى ضوء المبادئ الأساسية الرئيسة للإسلام. ومن أمثلة المحكم من النبوءات ما ورد في الآية ٢٢ من سورة المجادلة^٥، ومن النبوءات المتشابهة تلك التي وردت في الآية ٨٦ من سورة القصص^٦.

٣. {اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (الزمر: ٢٤).

٤. {الرِّكَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} (هود: ٢).

٥. {كَتَبَ اللَّهُ لِلْعَلِيِّينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (المجادلة: ٢٢).

٦. {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (القصص: ٨٦).

ويمكن انطباق كلمة محكم كصفة لتلك الآيات التي تشتمل على أوامر تامة كاملة؛ بينما تكون المتشابهة هي التي تتضمن جزءاً من هذه الأوامر. ويلزم قراءتها مع آيات أخرى للوصول إلى معرفة كاملة عن الأمر.

ثم إن المحكمات من الآيات تتناول بصفة عامة مسائل التشريع وتعاليم الدين، بينما تتناول المتشابهات بشكل عام موضوعات ذات أهمية ثانوية، أو تصف أحداثاً تاريخية جرت في حياة الأنبياء أو الأقوام؛ وأثناء ذلك ترد في هذه الآيات أحياناً بعض التراكيب أو العبارات التي قد تحمل عدة معانٍ. ويجب ألا تُفسر هذه الآيات بما يتعارض ومبادئ الدين الصريحة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ يمكن فهمه بطريقتين: إما أن يكون الوقف بعد لفظ الجلالة أو بعد كلمة ﴿الْعِلْمِ﴾، فإذا كان بعد كلمة ﴿الْعِلْمِ﴾، تنعطف الراسخون على لفظ الجلالة (الله ﷻ) الذي هو فاعل لفعل ﴿يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾؛ ويكون المقصود من كلمة ﴿مُتَشَابِهَاتٍ﴾ عندئذ وصف الآيات التي تتعلق بأحداث الماضي، أو الآيات التي تحوي وعظاً وإرشاداً عاماً. وإذا كان الوقف بعد كلمة ﴿الله﴾، فإن المتشابهات إذن هي الآيات التي تتناول نبوءات غيبية لا يعلم تفسيرها الحق سوى الله ﷻ. ويكون معنى الآية في هذه الحالة أن أحداً لا يعلم تفسيرها الحقيقي سوى الله ﷻ، وأما الراسخون في العلم فيقولون نحن نؤمن بها لأنها كلها من عند ربنا. وكلا التركيبين صحيح من ناحية قواعد اللغة العربية.

وأخيراً، يمكن الإشارة إلى أن استعمال لغة المجاز، وهي أساس الآيات المتشابهات، في الكتب السماوية لازم لتحقيق مايلي: (١) كثرة المعنى مع قلة اللفظ. (٢) إضافة المزيد من الجمال والرشاقة إلى الأسلوب. (٣) ابتلاء الناس الذي بدونه لا يمكنهم تحقيق الرقي والكمال الروحاني.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

الْوَهَّابُ: مشتق من وهب: أعطى أو منح. وهب له مالا: أعطاه أو خلع عليه ثروة. هبة، مصدر من وهب وتعني: العطاء من دون مقابل؛ الشيء الذي أعطى. الوهَّاب: صيغة مبالغة من واهب أي مُعْطٍ، وتعني: ذو العطاء العظيم الوافر (أقرب الموارد). والكلمة من صفات الله تعالى، لأنه يعطي لكل فرد من مخلوقاته وفق ما يستحق، ولا يهمل أحداً (مفردات الراغب).

التفسير:

في الآية دعاء عظيم الأهمية، يأتي كتعقيب مناسب للآية السابقة. وتبرز الآية حقيقة عظيمة، وهي أن الناس كثيراً ما يَتَلَقَّونَ من الله تعالى فضلاً أو خيراً، ثم يكون ذلك في بعض الأحيان سبب عثرة لهم فيما بعد؛ إذ يسيئون استعمال فضل الله أو يسيئون فهم الهدى الإلهي، فيجلبون بذلك الدمار على أنفسهم، وهذا ما حدث للمسيحيين. ويوجه الله تعالى المسلمين إلى الاحتراز من مصادر الزلل، والدعاء الدائم إليه سبحانه أن يقيهم منها. راجع أيضاً شرح الآية الأخيرة من سورة الفاتحة.

وتلمح الآية إلى أن الخلاف والإعراض عن الحق سيصيب المسلمين إن هم جعلوا الآيات المحكمة تابعة للآيات المتشابهة، والموضوعات الأساسية تابعة للمسائل الثانوية. ولهذا السبب كان الرسول ﷺ يتلو هذا الدعاء بصفة مستمرة، وهذه حقيقة تتضمن تعليماً لأتباعه أن يفعلوا مثله. والواقع أنه ما من شيء أَدْعَى إلى الأسى من أن يضل قوم ويصبحوا هدفاً لغضب الله تعالى بعد أن عرفوا الطريق المستقيم وتلقَّوا أفضال الله ونعمه.

وتلفت الآية الانتباه إلى حقيقة أنه من الممكن تجنب الوقوع في خطأ تفسير المتشابهات بكيفية تخالف المحكمات، وذلك عن طريق تطهير القلب والدعاء. إن المعرفة الصحيحة للقرآن المجيد توهب فقط لذوي القلوب الطاهرة. وفي هذا الصدد راجع تفسير الآية الكريمة ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٨٠).

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

جامع: مشتق من جمع. جمع الشيء، ضمّ أجزاءه وربّبه. الله تعالى جامع الناس أي سوف يحشدهم جميعاً يوم الحساب ليجازي كلّاً منهم ما يستحق. والمسجد المركزي في البلدة يسمى الجامع، لأن الناس يحتشدون فيه للصلاة وخاصة صلاة يوم الجمعة، ويأتونه من الجهات المجاورة. واليوم الذي يجتمع فيه المسلمون للصلاة الأسبوعية يسمى يوم الجمعة (تاج العروس وأقرب الموارد).

الميعاد: مشتق من وعد وتكون للخير، وأوعد للشر أي هدّد. ميعاد: مكان الوعد أو زمانه، وتعني أيضاً الوعد (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تتضح أهمية الدعاء الوارد في الآية السابقة إذا علم الإنسان أنه من المحتمّ عليه أن يقدم حساباً عن أفعاله أمام الله ﷻ في يوم الحساب الذي يجمع الله تعالى فيه الناس من كل العصور ومن جميع الأوطان. إن عملية الامتحان صعبة جداً، ولكنها أكثر صعوبة حين تكون في حشد هائل يضم الجنس البشري كله.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

لَنْ تُغْنِيَ: مشتق من غني: تحرر من الحاجة، اكتفى، أثرى. أغناه: كفاه، سد عوزَه، جعله ثريًا. ما يغني عنك هذا: لا يكفيك أو يرضيك؛ لا يحزنك أو ينفعلك؛ لا يوقفك موقفًا حسنًا (تاج العروس).

التفسير:

لما كان في هذه الآية الكريمة إشارة خاصة إلى المسيحيين، فإن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تنطبق عليهم. وعلى ذلك فالآية تحوي نبوءة عظيمة، لأن المسيحيين لم يكونوا وقت نزول الآية يمتلكون القوة أو الكثرة، ولكن جاء الوقت الذي كان مُقَدَّرًا لهم أن يكونوا فيه أصحاب القوة والكثرة. لقد أصبحوا حقًا أغنى شعب على الأرض الآن، وانتشر نسلهم في كل القارات؛ ولكن ذلك لن يحميهم من عقاب الله تعالى. وإن ثروتهم وكثرتهم سوف تكون السبب في دمارهم، وكما تنبأت الآية فهم يعاقبون الآن بنار بنادقهم وقنابلهم الحارقة^٧. ويمكن أيضًا أن تكون الآية الكريمة إشارة إلى يوم الدين المذكور في الآية السابقة، عندئذ لا يجدي المسيحيين شيء في مواجهة العقاب الإلهي.

ويمكن أن تنطبق الآية كذلك على كفار مكة، الذين آلت إلى الفشل كل جهودهم في مواجهة الرسول ﷺ، وسقطت أموالهم في يد المسلمين. ودخل أولادهم الإسلام بأعداد

٧. أي في الحرب العالمية الثانية التي اندلعت أثناء كتابة هذا التفسير. (الناشر)

كبيرة. و﴿النَّار﴾ التي سوف يكونون وقودها في هذه الحالة هي إما نار جهنم، أو نار الحرب التي أثاروها بأنفسهم ضد الإسلام، وكانت عاقبتها دمارهم.

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

دَّابُّ: مصدر دأب. يقال دأب في العمل: (١) عمل وكافح بجد وأجهد نفسه في العمل؛ (٢) بقي مستمراً في العمل. دأب: عملٌ بجِد وثبات؛ عادة؛ سُنَّة أو كيفية؛ حالة، شأن أو ظرف (أقرب الموارد).

التفسير:

حذر الله تعالى الكافرين في الآية السابقة من عدم جدوى ثروتهم وكثرتهم أمام عقاب الله. وهنا تشير الآية إلى أن هذا ليس بتهديد أجوف، فقد لاقى المكذبون الأقدمون مصيراً مشابهاً. وكما باءت جهود فرعون ضد موسى عليه السلام وقومه بالفشل، ولم تنقذه قوته وكثرة ماله وتعداد جيشه من الدمار، كذلك سيكون الفشل عاقبة جهود المكذبين لرسول الله ﷺ، فلن يستطيعوا عرقلة تقدم الإسلام، بل سيمهدون طريق هلاكهم بأنفسهم.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

تُحْشَرُونَ: من حشر أي جمع. حشر الناس: جمعهم؛ أجبرهم على الهجرة، أي نفاهم أو طردهم أو أبعدهم. حَشَرَ الجمع: ساقهم من مكان لآخر. حُشِرَت الوحوش: جُمِعَت وأُدخلت؛ ماتت وهلكت. يوم الحشر: يوم الجمع أو يوم القيامة (أقرب الموارد).
المِهَادُ: من مهد. يقال مهد الفراش: فرشاه وسوّاه أي أعدّه للنوم. مهاده: فراشه؛ افترشه؛ أرض منخفضة (أقرب الموارد).

التفسير:

تحدث الآية الكريمة عن نهاية الكافرين. فلسوف ينتصر الإسلام عليهم في هذه الدنيا، وستكون جهنم مأواهم في الآخرة.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِي الثَّقَاتِ فِتْنَةً
تُفَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ
مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

عِبْرَةٌ: مصدر عبر. يُقال عَبَرَ إذا قطعه من جانب إلى آخر. اعتبر: حُدِّر؛ اتخذ مما رأى دليلاً على ما خفي. عبرة: تحذير أو نصح أو موعظة؛ عظة أو حافز للحدَر؛ شيء يتخذ المرء منه عظة أو تذكرة أو توجيهاً أو هداية (أقرب الموارد ومعجم لين).

تشير الآية إلى موقعة بدر، التي أوقع فيها ٣١٣ رجلاً من المسلمين، قليلي العدد والعتاد، هزيمة ساحقة بجيش كفار مكة الذي بلغ قوامه ألف مقاتل في كامل سلاحهم وعتادهم. ولقد تحققت نبوءتان في هذه الموقعة، وردت إحداهما في القرآن المجيد، ووردت الأخرى في الكتاب المقدس. تقول النبوة القرآنية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (القمر: ٤٥-٤٩).

وتقول نبوة الكتاب المقدس في سفر أشعيا ٢١: ١٣-١٧:

«في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدنانين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء، وافوا الهارب بنخبه. فانهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيد: في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجيد قي دار، وبقيّة عدد قسّي أبطال بني قيدار تقل، لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم».

ووفق هذه النبوة، بعد سنة من هجرة الرسول ﷺ من مكة، انكسرت قوة قي دار (وهو الجد الأكبر لقبائل مكة) في معركة بدر، وذهب عنهم مجدهم. وكذلك تحققت النبوة القرآنية بكل حرف فيها، فبعد هزيمة جيش مكة في بدر، تم أيضاً سحب جثث زعماء قريش الذين قتلوا في المعركة على الأرض، وألقوا في حفرة لتكون قبراً لهم. وفي هذه المناسبة، وجه الرسول ﷺ خطابه إلى أجساد قتلاهم قائلاً: «إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟» (البخاري). ويصف القرآن المجيد يوم بدر بأنه «يوم الفرقان» (الأنفال: ٤٢)، حيث تحققت فيه نبوة عظيمة في ظروف غير مواتية أبداً، وتمخضت أحداثها عن نتائج عظيمة. لقد كانت هزيمة الكفار كاملة وغير متوقعة، تماماً كما كان انتصار المسلمين كاملاً. إن موقعة

بدر جدرة حقاً بأن تُعرف كواحدة من أعظم المعارك في التاريخ، فقد حسمت مصير أهل مكة وشبه الجزيرة العربية بأكملها. لقد انكسرت شوكة قريش إلى الأبد، وارتفع الدين الجديد شامحاً قوياً في البلاد. وقد تم كل ذلك تماماً كما ورد في النبوة.

وتشير كلمات الآية ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ إلى أن جيش أهل مكة بدا أمام المسلمين أقل من قوته الفعلية، فلقد رآه المسلمون ضعفي عددهم فحسب، بينما كان يبلغ عدد الجيش المكي ثلاثة أضعافهم. وكان ذلك حسب الإرادة الإلهية التي شاءت أن يتم اللقاء بين المسلمين على قلة عددهم وسلاحهم مع الكفار، من دون أن تلقي كثرة العدو في قلوبهم الرهبة التي كانت لتنشأ لو رأوا قوتهم الفعلية، كما يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ (الأنفال: ٤٥). والذي حدث أن ثلث جيش مكة كان متمركزاً خلف مرتفع من الأرض، فلم ير المسلمون سوى ثلثي الجيش، أي زهاء ٦٠٠ مقاتل وهو ضعف عدد جيش المسلمين. وكان من الطبيعي أن يتشجع المسلمون على القتال لما رأوا أن جيش الكفار ضعفهم فحسب، واطمأنوا إلى النصر، تحقيقاً لوعده الله تعالى الذي وعدهم بالنصر إذا قابلوا عدواً يبلغ عدده ضعف عددهم، حيث قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٦٧).

ولقد جاءت الكلمتان ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ لتبَيِّنَا أن الأمر لم يكن حُلماً أو كشفاً عندما رأى المسلمون جيش الكفار أقل من عدده الفعلي، وإنما كان ذلك في لحظة واقعية. وقد ملأت هذه الرؤية قلوبهم شجاعة أكثر مما لو كان المشهد حُلماً أو رؤياً، لأن الرؤيا قد يكون لها تعبير مخالف لما يبدو فيها.

زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ
وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ

وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

الشَّهَوَاتُ: جمع شهوة المشتقة من شها. يقال شهاه: رغبه؛ رغبه بقوة وشغف، اشتاق وحن اليه. شهوة: رغبة، رغبة شديدة أو شوق للشيء. الشيء المرغوب، أو موضوع الرغبة. وأحياناً تستعمل الكلمة في معنى سيئ ويقصد بها رغبة رذيلة أو إشباع رغبة جنسية (أقرب الموارد ومعجم لين).

القَنَاطِيرُ: ﴿المُقَنْطَرَةُ﴾ أي المخزونة، كلاهما مشتق من قنطر. يقال قنطر الرجل: ملك أو امتلك ثروة عظيمة. قنطر الشيء: حزمه، كدسه. قناطر جمع قنطار، وتعني أموال مكدسة. وتعني أيضاً مقياس أو مكيال، تختلف قيمته حسب الأزمنة والبلاد. وإذا اقترنت الكلمتان: قناطر ومقنطرة فإن ذلك يشير إلى عظم الثروة المكدسة. وتعني أيضاً الثروة المجموعة المخزنة بما يفيد الكمال والتمام (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تُعد الآية بعض الأمور الدنيوية التي تجذب اهتمام الإنسان، وكثيراً ما تحيد به عن الله ﷻ، وهي تلك الأمور التي يستنفد الإنسان في طلبها كل وقته وطاقته، وعلى الأخص في البلاد المسيحية. وكما سبق بيانه، كان الخطاب مُوجَّهاً في هذه السورة إلى الأقوام المسيحية بصفة خاصة. والإسلام لا يحرم استعمال طيبات الدنيا ولا يمنع البحث عنها، ولكنه بالتأكيد يدين عمل أولئك الذين ينهمكون فيها، ويجعلون منها همَّ حياتهم. وفي موضع آخر يشير القرآن المجيد إلى الأقوام المسيحية بقوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٥).

وبالنسبة إلى التساؤل عمّن هو المُزَيّن في قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ﴾ يمكن ملاحظة أنه وإن كان ما في الأشياء من جمال طبيعي يأتي من لدن الله تعالى، إلا أن المُزَيّن في هذه الحالة هو الشيطان؛ ذلك لأن التزين المقصود في الآية ليس هو البسيط، ولكنه الحب التّهم للطيبات، فليست الرغبة البسيطة من طيبات الدنيا هي المدانة، وإنما الحب الزائد عن المعتاد لها؛ ومن المؤكد أن الشيطان هو الذي يخلع على أشياء الحياة الدنيا جمالاً يبعث على الجشع، ويخلق لها في قلوب الناس حباً شديداً من نوع خاص. والله تعالى هو وحده المُزَيّن للأفعال الطيبة، وهو الذي يخلق في قلوب الناس كراهية لأفعال الشر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات: ٨)، ويلاحظ أيضاً قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ (النحل: ٦٤).

قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَالِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

رِضْوَانٌ: من رضي: سرّ؛ اشتد سروره؛ قنع واكتفى؛ نظر إليه بنية طيبة ومعروف. رضوان مصدر من رضي وتعني: حالة السرور؛ الرضا؛ النية الحسنة (معجم لين). ولفظه «الرضوان» تفيد الوفرة في السرور، ولذلك استعملت في القرآن المجيد في حق الله تعالى وحده (مفردات الراغب). و«رضوان» اسم الملاك خازن الجنة (معجم لين).

التفسير:

رغم أن الإسلام لا يعارض اكتساب طيبات الدنيا، إلا أن طيبات الآخرة أعظم وأكرم للإنسان. أما مسرة الله تعالى ومحبه في الأعظم والأكرم، كما أشار القرآن المجيد إليها بأنها الفوز الأكبر في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢). وذلك لأن من يفلح في اكتساب رضوان الله تعالى، يصبح كل شيء حتى أشياء الدنيا، مصدراً لراحة باله. ولقد أفلح في ذلك صحابة الرسول ﷺ كما يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠)، ولذا كانوا جديرين بحق أن يكونوا خير أمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١١).

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

ذُنُوبٌ: جمع ذنب أي خطأ، وهي مشتقة من ذَنَبَ. يقال ذَنَبَهُ: سار في أثره؛ تبعه دون أن يدع سبيله. الذَّنْبُ هو الذيل، وفي الإنسان مؤخرته. ذَنَبٌ: الهفوة، الفعل السيئ، العدوان، ما يلام عليه الإنسان إذا تعمده. والذنب يختلف عن الإثم، إذ إن الذنب قد يكون عن عمد، أو سهواً، أما الإثم فهو الخطأ المقصود (معجم لين). ويرى صاحب (مفردات الراغب) أن الذنب يعني الأخطاء التي ينجم عنها الأذى ويتعرض المرء بسببها إلى الحساب. وتدل لفظة الذنب في الحقيقة على القصور والضعف المصاحبين للطبيعة البشرية، كما يصاحب الذيل الجسد.

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

الْأَسْحَارُ: جمع سَحَر وهو آخر الليل أو قبل الفجر. وتعني أيضاً جانب الشيء أو نهايته (أقرب الموارد).

التفسير:

تذكر الآية أربع صفات أو خلال للمؤمن الحق، تمثل أربع مراحل للرفق الروحاني وهي:

(١) عندما يعتنق المرء الدين الحق، فإنه غالباً ما يتعرض للإيذاء، ولذلك فإن المرحلة الأولى التي يمر بها هي الصبر والثبات.

(٢) وعندما يصل الإيذاء إلى نهايته، ويصبح المؤمن حراً في التصرف كما يشاء، فإنه يقوم بتطبيق تعاليم دينه التي لم يكن قادراً على تنفيذها. وبالتالي، فالمرحلة الثانية هي الحياة الصادقة أي التزام المؤمن بعقيدته.

(٣) ثم بعد أن يسير بصدق وفق وصايا الشريعة فإن المؤمن يكتسب القوة، ولكن التواضع لا يفارقه، فيستمر في حياة التواضع كما كان من قبل.

(٤) وكذلك لا يفارقه الشعور بالرغبة في خدمة خلق الله تعالى، بل يزداد في الواقع، فينفق مما أنعم الله عليه في خير الإنسانية. ولكن المؤمن، كما تشير نهاية الآية، لا يكف عن التضرع إلى الله تعالى في سكون الليل، سائلاً إياه المغفرة والصفح عن كل تقصير من جانبه في حق خدمة البشرية على النحو المثالي الذي يريجه.

والمتوقع من المسلم الحق أن يتصف بكل تلك الخلال. فعليه أن يُبدي صبراً وثباتاً لا نكوص فيهما مهما اشتد البلاء؛ وأن يحيا وفق إيمانه؛ عاملاً بمبادئه الدينية السامية حق العمل. ثم عليه أن ينفق مما وهبه الله تعالى من ثروة وعلم ونفوذ وغيرها في

سبيل خير البشرية، وعليه في نفس الوقت ألا يُقصر أو يتهاون في أداء واجباته التي عاهد عليها الله ﷻ. وعليه ألا يقصر في أداء الصلوات المفروضة وحدها، وإنما يجدر به أن يقضي جزءاً من الليل في الدعاء وعبادة الله مولاه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ (الإسراء: ٨٠)، وقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نَصَفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ٣-٧). وقد وردت كلمة ﴿الْأَسْحَارِ﴾ بصيغة الجمع للدلالة على أن المؤمن الحق لا يقنع بصلاة واحدة أو اثنتين في ليلة أو ليلتين، وإنما يجعل من ذلك عادة له، فيقوم آخر الليل لأداء صلاة التهجد بانتظام كل ليلة.

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ
قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾

التفسير:

إن وحدانية الله تعالى هي الحقيقة المركزية التي لا تمارى، وهي المبدأ الأساس لكل عقيدة دينية صادقة. إن الخلق بأجمعه، والنظام الجامع المتغلغل فيه، ليحمل شهادة لا تُنكر على تلك الحقيقة الأساسية. والملائكة، حملة الرسالات الربانية إلى رسله، وهؤلاء الرسل الذين ينشرون رسالات الله تعالى بين الناس، والأخيار من الناس الذين يتلقون العلم الرباني من رسل الله، فيتشربونه في عقولهم وقلوبهم، أولئك جميعاً يشهدون بما شهد به الله ﷻ. وبالمثل فإنهم جميعاً يشهدون بأن إقامة آلهة أخرى مع الله تعالى أمر باطل وزور، سواء أكان ذلك الشرك في صورة التعدد أو التثليث أو التثنية. فكل شهادة حقة لا بد وأن تشير إلى أن الله الخالق ﷻ واحد لا شريك له.

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

الإسلام: هو الخضوع الكامل، مشتق من أسلم، وهذه من سلم وتعني: (١) الخضوع الكامل لله تعالى. (٢) دين الإسلام، وهذا المعنى الأخير مبني على المعنى الأول (تاج العروس). راجع أيضاً الآية ١١٣ من سورة البقرة.

التفسير:

تلقي الآية ضوءاً على حقيقة مؤداها أنه رغم أن النظم الدينية الأخرى تدّعي بأنها توصي بوحداية الله تعالى والاستسلام لمشيئته، إلا أن الإسلام الذي جاء به النبي الكريم محمد ﷺ، هو الدين الوحيد الذي تتحقق به فكرة الاستسلام لله تعالى في أسمى مظاهرها وصورها. ذلك لأن الخضوع الكامل لله تعالى يستلزم التجلي الكامل لصفاته ﷻ، وفي الإسلام وحده يأتي هذا التجلي الكامل. ولذلك فالإسلام، من بين جميع الأديان، يستحق أن يدعى «دين الله» بالمعنى الحقيقي لهذه العبارة. والديانات الصحيحة كلها كانت حقاً إسلاماً بشكل أو بآخر، وكان أتباعها مسلمين بالمعنى الحرفي للكلمة؛ ولكن عندما اكتمل الدين من كل جوانبه لم تعد تلك الديانات تُدعى إسلاماً، ذلك الاسم الذي اختصّت به الديانة الكاملة التي جاء بها القرآن المجيد. وقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ تعني أن اليهود والنصارى لو كانوا حقاً خاضعين لمشيئة الله كما يدّعون، لما رفضوا الدخول في دين الإسلام، وهو التسليم للمشيئة الإلهية في أكمل صورة. لقد

جلبوا على أنفسهم الدمار برفضهم الإسلام، وحرموا أنفسهم من فضل الله ونعمه التي كان لهم نصيب وافر منها.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ
وَمَنْ أَتَّبَعَنْ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ
أَهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

الْأُمِّيِّينَ: غير المتعلمين. راجع تفسيرها في الآية ٧٩ من سورة البقرة.

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ: هم أهل الكتاب. وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ يشمل البشر جميعاً. والأميون هم الذين لا كتاب لهم، أما أهل الكتاب فهم الذين لهم كتاب، ويعترفون بأنه كتاب من الوحي الإلهي.

التفسير:

لو خضع أهل الكتاب والأميون الذين لا كتاب لهم لجلال الله تعالى، لآمنوا حتماً بالرسول الكريم ﷺ؛ واهتدوا الهداية الحقّة، فأهل الكتاب لديهم في كتبهم نبوءات واضحة بشأن الرسول ﷺ؛ وأما الأميون فسيهتدون نتيجة اجتماع شهادة الفطرة والضمير الإنساني والعقل السليم. إن التسليم والخضوع لجلال الله تعالى هو مصدر كل هداية حقّة. ويتعثر المرء ويضل عن الطريق المستقيم إذا حاد عن سبيل الخضوع لله ﷻ وأحنى رأسه إلى غير الله كائنًا من كان.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ
بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

يَقْتُلُونَ: يتحرّون القتل. انظر الآية ٦٢ من سورة البقرة.

بَشِّرْهُمْ: أعلن لهم. راجع الآية ٢٦ من سورة البقرة.

التفسير:

تسوق الآية تحذيراً إلى المكذبين أنهم إذا لم يقبلوا آيات الله تعالى، وأصروا على تكذيب رسله ومحاربتهم، وأبوا قبول ما يحكم به الوحي الإلهي والعقل، فلا مهرب لهم من عقاب الله ﷻ. فما من نبي من أنبياء الله فشل في رسالته مهما كانت الظروف التي واجهته، ولم تنجح أعمال الاضطهاد والتعذيب مهما تنوّعت، ولا محاولات القتل والاعتقال مهما تعدّدت، في إعاقة الأنبياء أو تأخيرهم عن تبليغ رسالتهم. إن تاريخ الديانات يقدّم شهادة راسخة تثبت هذه الحقيقة، وتشير الآية إلى أن نبي الإسلام ﷺ لن يُستثنى من هذه القاعدة وهو أعظم المرسلين جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تعني أعلمهم بالعذاب. وقد وردت لفظة «بَشِّرْهُمْ» في الإنذار بالعذاب لسببين: الأول للدلالة على أن العقاب المنتظر عظيم بدرجة غير عادية، ذلك لأن البشارة هي الخبر الذي يتغيرله لون بشرة السامع. الثاني: للدلالة على أن الكافرين قد حُرّموا من بركة عظيمة. لقد دُعوا إلى فضل الله تعالى الذي هو بحق بُشْرى طيبة، فلما رفضوه استنزّلوا غضب الله على أنفسهم، واستجلبوا عقابه على رؤوسهم.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٣﴾

التفسير:

لا يؤمن الكفار بالحساب في الحياة الآخرة؛ وتدليلاً على أن أعمالهم لن تنفعهم يوم القيامة، تخبرهم الآية أن جهودهم للقضاء على الإسلام ستؤول إلى الفشل الذريع في هذه الحياة الدنيا، وسيكون ذلك دليلاً على أن أعمالهم الدنيوية لن تُغني عنهم شيئاً يوم القيامة. ولقد أنبأت الآية بحقيقتين: إحداهما تتعلق بالحياة الدنيا، والثانية تتصل بالآخرة. وعندما تتحقق الأولى، فلا بد من اعتبار الثانية حقاً كذلك. ولا يفهم من ذلك أن كل ما يعلمه الكافرون مصيره إلى العدم، لأن القرآن المجيد يقول في موضع آخر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٨). ومن هذ يتضح أن الآية الحالية تشير فقط إلى تلك الأعمال التي تستهدف القضاء على الإسلام أو إضعاف شوكرته، أو التي يُقصد بها معارضة التعاليم القرآنية.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قد يشير إلى النبوءات التي يحويها الكتاب المقدس والتي تتعلق بالنبي الكريم ﷺ، وهذه النبوءات تُكوّن جزءاً من الكتاب. أو الجزء الحقيقي من الكتاب المقدس، ذلك لأن جزءاً فقط من هذا الكتاب هو الذي بقي سليماً من التحريف؛ وهذا الجزء وحده هو الذي يمكن أن يكون نصيباً من الكتاب الحقيقي. أو قد

تعني العبارة أن بالمقارنة مع القرآن الكريم الذي هو الكتاب الكامل الخالد، يعتبر الكتاب المقدس جزءاً من الكتاب. وعلى ضوء هذه التفسيرات المختلفة يمكن أن تعني الآية ما يلي:

(أ) عندما وُجّهت أنظار اليهود والمسيحيين إلى النبوءات الواردة في كتبهم رفضوا الانصياع إلى هديها.

(ب) إذا تمسك أهل الكتاب بالجزء الحقيقي من كتابهم لوجدوا فيه ما يهديهم إلى التعرف على صدق الأنبياء، ولأمنوا عندئذ بالنبى ﷺ.

(ج) لو سار أهل الكتاب على تعاليم أسفارهم بصدق وإيمان، وهي تحمل جزءاً من التعاليم القرآنية الكاملة الخالدة، لعرفوا الحقيقة وتبينوا صدق الدين الجديد.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا
أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٥﴾

التفسير:

لقد أقنع اليهود والمسيحيون أنفسهم بفكرة مؤداها أنهم ناجون من عقاب الآخرة. فاليهود يحسبون أنفسهم معصومون لأنهم شعب الله المختار، ولأنهم من نسل أنبياء الله. أما المسيحيون فيخدعون أنفسهم بفكرة أن عيسى عليه السلام هو ابن الله الذي غسل خطاياهم بموته المزعوم على الصليب. وسوف تؤدي بهم هاتان الفكرتان الباطلتان إلى الدمار.

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

التفسير:

تدعو الآية أهل الكتاب إلى تصوّر موقفهم وكيف سيتصرفون عندما سيطالبون بتقديم حساب عن أعمالهم أمام المولى ﷺ في يوم القيامة؛ وعندها سيجدون، ويأخزيهم يومئذ، أن كونهم من نسل الأنبياء أو إيمانهم بصلب المسيح ﷺ، لن يجديهم نفعاً أو ينجيهم من عذاب النار.

وتبين كلمات الآية ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أن الإشارة هنا إلى مختلعي الأكاذيب المذكورة في الآية السابقة، والمسيحيين منهم بوجه خاص. وتسوق الآية استنكاراً أكيداً في وجه عقيدة أن دم شخص آخر، وليس أعمال الشخص الطيبة، يمكن أن يكون وسيلة للخلاص.

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ
تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ
تَشَاءُ وَتُدْهِكُ مَنْ تَشَاءُ بِيدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٧﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية التالية.

تَوُجُّ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَتَوُجُّ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾

التفسير:

تشير الآيتان إلى سُنَّةِ الله تعالى التي لا تتغير بأن نهضة الأمم وسقوطها يتوقف على تمسكها أو تخليها لمشیئة الله ﷻ الذي هو مصدر كل قوة ومجد. وتشير الآيتان أيضاً إلى تحقق نبوءة عظيمة عن أمة تمتعت طويلاً بالسيادة الدنيوية والروحانية، توشك على السقوط بسبب إصرارها على خرق القانون الإلهي، وبسبب مواتها الروحي؛ لتأخذ مكانها أمة أخرى، لا تزال تبدو وضیعة بالمقياس الإنساني، غير أنها توشك على النهوض إلى أعلى ذرى القوة الدنيوية والروحانية. فالسيادة أو الملك المشار إليه في الآية الأولى يومئ إلى الملك الدنيوي والروحاني الذي وعد الله تعالى به بني إبراهيم، والذي استمتع به بنو إسرائيل لأجيال طويلة، وسوف ينتقل هذا الملك إلى بني إسماعيل، حيث يتجلى بأكمل صورة في مجيء الإسلام. إن أمة حية سوف تذوق الموت، وأخرى في حكم الميتة سوف تُبعث إلى الحياة.

ولفظه ﴿النَّهَارِ﴾ ترمز إلى الرخاء والقوة، كما أن كلمة ﴿اللَّيْلِ﴾ تعني فقدان القوة والانهلال والسقوط. ويلفت القرآن المجيد الانتباه، مستخدماً أسلوب التشبيه، إلى حقيقة أن على القوم الذين يودّون ألا يخيم عليهم ليل الآلام والتعاسة، وأن يدوم لهم الاستمتاع بنهار المجد والرخاء، أن يضعوا أنفسهم تحت وهج الشمس الإلهية ليستنبروا بنورها الذي يشع على الدوام. وبهذه المناسبة، يمكن الإشارة إلى أن التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿تَوُجُّ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوُجُّ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ لا يعني مجرد تعاقب الليل والنهار، وإنما يعني أيضاً تبدل جزء من النهار إلى ليل وبالعكس؛ وهكذا تلمح العبارة إلى استطالة أحدهما على حساب الآخر.

هذا، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وعد للمسلمين بأن مجد الإسلام سيكون بلا نظير، وأنه سيبقى إلى الأبد. فلن تأخذ ديانة أخرى مكان الإسلام، وسيبقى المسلمون إلى الأبد شعباً من أعظم شعوب الأرض إلى نهاية الزمن. لقد ظهر مرزا غلام أحمد، المسيح الموعود عليه السلام، في وقت هبطت فيه قوة المسلمين السياسية إلى الحد الأدنى لها، وفسدت لدى المسلمين الأنفس والأخلاق، فكان ظهوره المبارك تحقيقاً لهذا الوعد الإلهي. لقد وجد الإسلام عن طريقه حياةً جديدةً، وإنها اليوم تورق وتزهو إلى أن تظلل جميع الأمم، ويستعيد المسلمون مجدهم السالف، ويصبحوا أظهر الشعوب على وجه الأرض بإذن الله تعالى.

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ
مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً
وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

نَفْسُهُ: نفس مصدر نَفَسَ وتعني علا قدره أو صار محبوباً. نَفَسَ به: تمسك به أو بخل به. وهي تستعمل للدلالة على معانٍ كثيرة منها: النفس: الروح؛ العقل؛ الجسم، الشيء أو الكائن ذاته؛ ذات الشخص أو ذات الكائن؛ الأخ أو القريب أو الزميل في العقيدة؛ الغرض، الرغبة أو الإرادة؛ العقاب.. إلخ (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

عندما يحين زمن تحقق القوة السياسية للإسلام، طبقاً للوعد الوارد في الآيات السابقة، يصبح من اللازم للحكومة الإسلامية أن تكون طرفاً في معاهدات سياسية. وتقدم الآية الحالية مبدأ يرشد الحكومة المسلمة ألا ترتبط مع حكومة غير مسلمة بمعاهدة أو

اتفاقية يكون من شأنها أن تسبب ضرراً من أي وجه أو تتعارض مع مصالح حكومة مسلمة أخرى؛ إذ يجب أن تعلق مصلحة الإسلام فوق كل المصالح الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: (١) أنه يجب على المسلمين ألا يقيموا وشائج صداقة مع الكفار، مفضلين إياهم على المؤمنين، معرضين عن هؤلاء ومقبلين على أولئك. (٢) أنه يجب على المسلمين ألا يرتبطوا مع الكافرين بعلاقات بكيفية قد تحدث إضراراً بمصالح المسلمين. ثم فيما عدا ذلك فلهم مطلق الخيار في أن يقيموا علاقات الصداقة مع غير المسلمين حسب متطلبات الوقت والظروف. يقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المتحنة: ٩ و ١٠).

كما أن الآية تُعلِّم المسلمين بأن يكونوا على حذر من مؤامرات الكفار وخُدَعهم. ولا تشير الكلمات ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلى قوة العدو، وإنما إلى مكرهم الذي يجب على المسلمين الحذر الدائم منه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ قد يعني يحذركم عقابه، كما يعني أيضاً: يحذركم بشأن ذات سبحانه. والمقصود بذلك أنكم إذا لم تقبلوا على هدى الله بإخلاص، وتصادقتم مع الكفار مفضلين إياهم على المؤمنين، فإنكم تخسرون بذلك علاقتكم الطيبة مع الله ﷻ.

قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

التفسير:

الخطاب في هذه الآية والتي بعدها موجه إلى أعداء الإسلام، وينذرهم بأن جميع تدابيرهم، ما بدا منها أو استتر، مآلها الفشل. والسبب واضح، فالله تعالى القدير على كل شيء، والعالم بكل شيء، قد وعد بالحفاظ على الإسلام.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ
مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ
رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

رَءُوفٌ: صفة من صفات الله تعالى، مشتقة من رَأَف أي أشفق عليه، أشفق أو عطف عليه برقة أو بأعظم درجات الشفقة والعطف (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

راجع الآية السابقة في شرح قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾

التفسير:

الآية هذه على أعظم درجة من الأهمية، إذ أنها تتعلق باكتساب محبة الله تعالى التي يعتبرها الإسلام الهدف الأسمى في حياة الإنسان. وفيها تحد لا يضارع، وهو مفتوح لكل بني الإنسان، وخاصة المسيحيين منهم، إذ أنهم يدعون بأنهم تحت القيادة المباشرة لابن الله، ويعتبرون أنفسهم مع اليهود أبناء الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة: ١٩). وتؤكد الآية بشدة أن التوصل إلى محبة الله تعالى محال الآن إلا بالدخول في دين الإسلام واتباع النبي محمد ﷺ. وعلى أولئك الذين يتحرّون حب الله والتقرب إليه أن يتبعوا الهدى الإسلامي الذي جاء به نبي الإسلام، وبهذا فقط يمكنهم أن يكونوا أحباب الله تعالى. هذا هو الباب الوحيد المتاح الآن لبلوغ المحبة الإلهية. ولما كان الله ﷻ يحب الأنفس الطاهرة وحدها، فإن الذين يتبعون الإسلام مخلصين، ويسرون على هدى تعاليمه، هم الذين يطهرهم الله ويصفح عن أخطائهم.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾

التفسير:

على العكس من الآية السابقة، تُبين هذه الآية نهاية أولئك الذين لا يحبون الله تعالى ويرفضون الدخول في طاعته وطاعة رسوله ﷺ. إنهم كافرون محرومون من حب الله ﷻ.

إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

عِمْرَان: ربما يشير الاسم إلى شخصين: (١) عمرام، المذكور في التوراة. وكان ابن كوهات وحفيد لاوي، وهو والد موسى وهارون ومريم، وكان موسى أصغر الثلاثة (دائرة المعارف اليهودية تحت اسم «عمرام»، وسفر الخروج ٦: ١٨-٢٠. (٢) أو عمران والد مريم أم المسيح عيسى عليه السلام. وعمران هذا ابن يوشيم أو يوشهيم (تفسير ابن جرير وابن كثير).

التفسير:

يبدأ القرآن المجيد من هذه الآية وما بعدها في التركيز على قصة الأمة المسيحية بصفة خاصة. وهنا استهلال جميل بدأ بذكر آدم عليه السلام ثم انتهى بعائلة عمران. وعمران إما أن يكون والد موسى عليه السلام أو والد مريم أم المسيح عليه السلام. ولقد اختار القرآن المجيد هذا الاسم لهدفين: الأول، ليضم إلى موسى أخاه الأكبر هارون عليه السلام. والثاني ليكون مقدمة مناسبة لسرد قصة مريم أم المسيح، ومنها إلى قصة المسيح عليه السلام. وتكرار اسم (عمران) في الآية التالية يوحي بنفس الفكرة.

وإنه لأمر ذو مغزى أن يُذكر آدم ونوح عليهما السلام بصفتهما شخصين منفردين، ثم يذكر إبراهيم وعمران بصفتهما رأسي أسرتين. وفي هذا إشارة إلى أن المقصود هو التوجيه إلى أفراد معينين من بين نسلهما. فقوله ﴿آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يشير إلى إبراهيم عليه السلام شخصياً وإلى أبنائه وأحفاده إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، ويتضمن أيضاً نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام. وبالمثل فإن قوله ﴿آلِ عِمْرَانَ﴾ يشير إلى هارون وموسى وعيسى عليهم السلام؛ أما عمران نفسه فليس منهم لأنه لم يكن نبياً. (راجع أيضاً الآية رقم ٣٦ من نفس السورة).

وتساعد هذه الآية على توضيح المقصود من العبارات القرآنية التي يرد فيها أن الله تعالى اصطفى أو اختار أو فضل شخصاً أو قوماً على العالمين. فهنا قيل إن آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران قد اختيروا فوق كل الشعوب، ولما كان جميع هؤلاء لا يمكن

أن يكونوا فوق كل من سواهم، لمنع التعارض في معنى الآية، فإن المقصود من العبارة إذن أن الأفراد والعائلات المذكورة كانوا مفضلين على غيرهم ممن كانوا في زمنهم، وليس على جميع الناس في كل زمان.

وتشير الآية أيضاً إلى أنه كما أفلح آدم ونوح وإبراهيم وعمران عليهم السلام بالرغم من معارضة أقوامهم، كذلك سيفلح نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم بالرغم من عداوة أعداء الإسلام، وسيكون هو وصحابته شعب الله المختار.

ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ التي وردت في أول الجملة ليست مبتدأ ولكنها حال، فلا بد إذن من اعتبار هذه الآية تكملة للآية السابقة. ويكون المعنى أن الأفراد والأسر المذكورة في الآية السابقة كان اصطفاؤهم من الله تعالى بسبب انتمائهم جميعاً إلى نفس الفريق، أي فريق الصالحين الأتقياء الطيبين.

إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

مُحَرَّرٌ: مشتق من حرّ: سخن أو تحرر. حرّز: كتب؛ كتب كتابة حسنة رشيقة دقيقة. حرّ رقية: أعتقها أو أطلقها. حرّ ابنه: نذر أو خصّص ابنه لعبادة الله تعالى وخدمة المعبد؛ أو كرّسه لهذه المهمة ما دام حياً. محرر: مخلص من الرق؛ عتيق؛ طفل نذره

والده للخدمة في المعبد؛ شخص تحرر من كل شؤون الدنيا وتخصص للخدمة في المعبد (معجم لين، ومفردات الراغب، وابن جرير). وكان من عادة بني إسرائيل أن يبقى من يُنذر للخدمة في المعبد أعزب (إنجيل مريم ٦:٥، البیان ٣:٣٦).

امْرَأَة: مؤنث المرء وهو الرجل. مشتقة من مرأ الطعام أي صحَّ وأفاد. مرء أو امْرَأَة: رجل. امرأة أو امرأة: أنثى الرجل؛ أنثى كاملة، زوجة (معجم لين).

عِمْرَان: في هذه المناسبة إما أنها صورة مختصرة من «آل عمران»، وهي عائلة والد موسى ﷺ، كما يقال إسرائيل للدلالة على بني إسرائيل (كما في الآية ٤١ من سورة البقرة)، أو تشير إلى عمران أبي مريم. راجع الآية ٣٤ من نفس السورة.

التفسير:

سميت السيدة حنّة أم السيدة مريم باسم «امْرَأَة عمران» ودُعيت السيدة مريم نفسها في الآية ٢٩ من سورة مريم «أخت هارون». وعمران هو والد موسى، وهارون شقيق موسى ﷺ، وله أخت اسمها مريم كذلك. ولجهل الكتّاب المسيحيين بالتركيب العربية والأسلوب القرآني، ولأنهم ينسبون إلى الرسول ﷺ تأليف القرآن الكريم، فإنهم يظنون أن بسبب جهله، حاشاه ﷺ، خلط بين مريم أم عيسى ومريم أخت هارون. وتظاهروا بأنهم اكتشفوا خطأً تاريخياً خطيراً في القرآن المجيد؛ وهذه تهمة تبعث على السخرية وهي مجافية للواقع، لأن القرآن المجيد يحتوي عدداً من الآيات التي تبين أن موسى وعيسى ﷺ نبيان يفصل بينهما طابور طويل من الأنبياء. ومثلاً لذلك نسوق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٨٨)، وكذلك سورة المائدة: ٤٥ إلى ٤٧.

وليس هؤلاء الكتّاب المسيحيون هم أول من وصل إلى هذا الاكتشاف المزعوم، فالفضل في ذلك يرجع إلى نصارى نجران الذين قدّموا هذا الاعتراض منذ ١٣٥٠ عاماً، وتلقوا ردّاً مفصّلاً. فقد روي عن المغيّرة بن شعبة قال بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا لي ألسنتم تقرأون يا أخت هارون وقد كان بين عيسى وموسى ما

كَانَ فَلَمْ أَذِرْ مَا أُجِيبُهُمْ فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ». (رواه الترمذي) والحقيقة أن هذه العادة موجودة فعلاً بين بني إسرائيل حتى إن زوج السيدة حنة ووالد السيدة مريم، كان اسمه عمران، وكان اسم أبيه يوشع أو يوشيم (ابن جرير، ابن كثير). فعمران هذا إذن غير والد موسى عليه السلام الذي كان اسمه عمران بن قهات (الخروج ٦: ١٨-٢٠). وإن تسمية زوج السيدة حنة، أو والد السيدة مريم، بـ«جواشيم» في المخطوطات المسيحية (إنجيل ميلاد مريم، دائرة المعارف البريطانية تحت ماري)، لا يبعث على الحيرة، لأن كلمة جوشيم تماثل يوشيم الواردة في كتاب ابن جرير اسماً لوالد عمران. فالمخطوطات المسيحية أعطت اسم الجد بدلاً من الأب، وهذا ليس تقليداً غير شائع. ثم هناك أمثلة في الكتاب المقدس لتسمية شخص واحد باسمين مختلفين. ففي سفر القضاة: الإصحاح السابع سمي يَرْبَعُد باسم جدعون. ولذا فلا غرابة إذا كان الاسم الثاني ليوشيم هو عمران.

وإضافة إلى الأفراد، فإن العائلات تُسمى أحياناً أيضاً بأسماء أسلافها البارزين. ففي الكتاب المقدس يطلق اسم إسرائيل على الشعب الإسرائيلي، كما جاء في التثنية ٣: ٤٦، «فاسمع يا إسرائيل واحترز لتعمل لكي يكون لك خير وتكثر جداً كما كلمك الرب إله آبائك في أرض تفيض لبناً وعسلاً. اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد». ويطلق الكتاب المقدس اسم قيذار على بني إسماعيل، كما ورد في سفر إشعياء ١٦: ٢١؛ ٤٢: ١١ «فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيذار». وبالمثل سمي عيسى عليه السلام باسم «ابن داود» (متى ١: ١). وكذلك فإن قوله تعالى: ﴿أَمْرَأَةً عِمْرَانَ﴾ قد يعني أيضاً: امرأة من عائلة عمران. ويتقوى هذا المعنى إذا لاحظنا أن عبارة ﴿آلِ عِمْرَانَ﴾ قد وردت قبل ذلك بآيتين، فأسقطت كلمة (آل) لقرب ذكرها السابق. ومن المعترف به أن حنة أم السيدة مريم كانت ابنة خالة إليزابث أم يحيى عليه السلام، وكلاهما تنتميان إلى بيت هارون ابن عمران (لوقا ١: ٥ و٣٦).

ويبدو أن نذر أم السيدة مريم كان تحت تأثير جماعة من رجال الدين اليهود الذين كانت لهم منزلة عالية بين الشعب وقتذاك، وكانوا يمارسون حياة العزوبة ويستبعدون النساء من عضوية جماعتهم، وكرّسوا حياتهم لخدمة الدين وبني جلدتهم (دائرة معارف الكتاب المقدس، ودائرة المعارف اليهودية). ومن الجدير بالاعتبار أن تعاليم الأناجيل كانت تشترك مع الكثير من تعاليم الإيسينيين. ويتضح أيضاً من معنى لفظة «مُحَرَّرًا» أن أم مريم قد نذرت ما في بطنها ليقضي حياته عزباً في خدمة المعبد؛ فكانها بذلك عنت أن يكون وليدها من طبقة الكهنة رجال الدين. ولهذا السبب أشير إلى مريم في سورة مريم بأخت هارون وليس أخت موسى عليه السلام، مع أنهما كانا أخوين. ذلك لأن موسى عليه السلام كان مؤسس الشريعة اليهودية، بينما كان هارون رئيس طبقة الكهنة اليهود (دائرة معارف الكتاب المقدس، دائرة المعارف البريطانية تحت اسم هارون) وهكذا كانت السيدة مريم أم عيسى أخت هارون، بمعنى أنها مثل هارون عليه السلام تنتمي إلى نظام الكهنوت.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كٱلْأُنْثَىٰ
وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا
مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٧﴾

شرح الكلمات:

مَرْيَمَ: أم المسيح عليه السلام. وربما سميت باسم (مريام) أخت موسى وهارون عليهما السلام (ونطقها المتأخر ميريّام). ويحتمل أن الاسم يتكون من مقطعين: (مر)، (يم)؛ ويعني في العبرية عدداً من المعاني منها: البحر المر؛ قطرة من البحر؛ نجمة البحر؛ المارة؛ السيدة؛ الرئيسة.

وباشتقاقين آخرين يمكن أن يعني الاسم: «المتردة» أو «البدينة» (دائرة المعارف الكتابية تحت اسم ماري). وتعني اللفظة أيضاً «المعظمة» (فهرس كُروِدِن). وينسب علماء الأثر المسلمون إلى الكلمة معنى «العابدة الورعة» (الكشاف).

الرَّجِيمُ: اسم مفعول من رجم. رجمه: رماه بالحجارة؛ ضربه فقتله؛ طرده؛ لعنه؛ احتقره؛ هجره؛ ذمه. رَجِمَ الرجل: خَمَّن. رجم القبر: وضع عليه حجراً ليميزه. الرجيم تعني: (١) المطرود من حضرة الله ورحمته أي المنبوذ. (٢) الملعون من الله تعالى. (٣) المحروم والمهجور. (٤) المحسوب بالحجارة (أقرب الموارد، ومعجم لين). وتعني أيضاً المُبعد والمحروم من كل حُسن وفضيلة (مفردات الراغب).

التفسير:

لقد نذرت أم السيدة مريم نذرهما وهي تأمل أن يباركها الله تعالى بصبي تهبه لعبادة الله، ولكنها رُزقت بطفلة، فكان من الطبيعي أن تتحير في أمرها.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ جملة اعتراضية قالها الله ﷻ وجعلها في وسط حديث أم مريم، أما جملة ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ فيمكن أن تكون من قول الله تعالى أو من قول أم مريم. وأغلب الظن أنها من قول الله تعالى، ومعناها أن الذكر الذي كانت ترجو أن تُرزقه ليس كالأنثى التي جاءتها، فالله أعلم بأنها أفضل من الصبي الذي كانت تأمله. أما إذا فُهمت العبارة بأنها من قول أم مريم، فيكون معناها أن الفتاة الذي رُزقت بها لا تصلح للغرض الخاص الذي نذرت جنينها من أجله.

وعبارة ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ تتضمن دعاء أن تنشأ الطفلة فاضلة متديّنة كما أسمتها. أما قولها: ﴿وَإِنِّي أَعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ فإنه يحتاج إلى بعض التوضيح. إذا كانت أم مريم قد نذرت وليدتها لخدمة الرب، فلا بد وأنها تعلم أن ابنتها ستبقى حياتها عزباء، فما معنى دعائها إذن لذريتها؟ وأغلب الظن أن الله تعالى أخبرها في الكشف أن ابنتها ستكتمل أنوثتها وتُرزق طفلاً، ولذلك دعت الله تعالى أن يصون ابنتها وحفيدها من الشيطان الرجيم. ويبدو أنها، رغم هذا، فوّضت أمر مستقبل

ابنتها إلى رعاية الله تعالى، ووهبتها إلى المهمة التي نذرتها لها، أي لعبادة الله تعالى (راجع إنجيل ميلاد مريم ٣: ٣٨؛ ٣: ٤٥). ولا بد أن هذه كانت حالة استثنائية، لأن الأمر كان مخصصاً للصبيان وحدهم. وهناك في إنجيل مريم إشارة إلى الكشف الذي رآته أم مريم عن أن ابنتها سترزق مولوداً، وإن كان بصورة مختلفة.

وليس هناك غرابة في دعاء حنة، أم مريم، أن يحيي الله ابنتها وذريتها من تأثير الشيطان، فكل الآباء الصالحين يخالجهم نفس الشعور تجاه أبنائهم، ويدعون لهم بالنشأة الطيبة والحياة الفاضلة. وللأسف فإن بعض المسلمين قرنوا هذا الدعاء الطبيعي البسيط مع حديث ورد عن الرسول ﷺ بأن مريم وابنها عيسى ﷺ لا يمسهما الشيطان، وشاع بينهم فهم خاطئ للموضوع رغب به المسيحيون، وجعلوا منه ذريعة لمهاجمة الإسلام. اعتقد بعض المسلمين من المتأخرين أن عيسى ﷺ وأمه وحدهما، من بين جميع الرجال والنساء، بمنأى عن تأثير الشيطان. لقد بنوا هذا المفهوم، كما أشرنا، على قول الرسول ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُوْلَدُ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا». (البخاري، كتاب الأنبياء). وللأسف فإن هذا الحديث قد جُرد من معناه الصحيح وأسيء فهمه تماماً. إن قول الرسول ﷺ هذا لا يمكن حمله على مطلق المعنى اللفظي، لأنه يشير إلى مس الشيطان وقت ولادة المولود فقط، وليس بصفة مطلقة. ثم إنه قال ذلك رداً على اليهود الذين بسبب عداوتهم لعيسى ﷺ اتهموه وأمه بتهمتهم النكراء، فقالوا إنها حملت به سفاحاً والعياذ بالله. ولدحض هذا الفرية القذرة قال الرسول ﷺ مقالته المذكورة. فالقصد إذن من قوله ﷺ ليس المعنى المطلق، وإنما دلالة خاصة حول وضع معين. والواقع أن الحديث يذكر عيسى ومريم ﷺ لا على سبيل الحصر وإنما على سبيل المثال؛ والمراد أن كل مولود بشري مُعرض للوقوع تحت التأثيرات الشيطانية، إلا من ملك من الصفات الروحانية والأخلاقية ما ملكته مريم وابنها. واللغة العربية لا تعوزها الأمثلة على ذكر اسم شخص ما ويكون المقصود من ذلك جعله مثلاً لطبقة من الناس (الكشاف والمناوي). وقد اختير اسم مريم وابنها عن

قصد بسبب ما رماهما به شرار اليهود. كذلك يمكن أن يكون المراد من قوله ﷺ (ما من مولود) المواليد الذين ولدوا زمن عيسى ﷺ فقط وليس مطلق المواليد، وقد استثنى عيسى ﷺ لأن ظروف مولده تختلف عنهم. وللرسول ﷺ قول آخر يؤيد هذا المعنى حيث يقول «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يُنَصْرَانِهِ أَوْ يَمَجَّسَانِهِ» (البخاري). فقوله ﷺ «من الشيطان» لا يقصد به إطلاق المعنى، وإنما حمله على معنى محدد. وهناك الكثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ التي توضح أن عيسى ﷺ وأمه ليسا وحدهما المعصومين من مس الشيطان. ومثالاً لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٣)، وقول الرسول ﷺ: «أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ثُمَّ قَدَّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ أَوْ قُضِيَ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا» (البخاري، كتاب النكاح).

وأما بشأن الرسول ﷺ فقد ورد عنه أنه قال: «لَيْسَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ (أي يحاول إضلاله) قَالُوا وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ (أي صار مطيعاً خاضعاً)» (مسند أحمد)، وهذا يعني أنه لا وجود للشيطان بالنسبة للرسول ﷺ. ولا شك أن هذا وضع أسمى وأعظم من مجرد الوقاية من هجمات الشيطان. وحق للرسول ﷺ أن يقول «لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ لَمَا وَسَعَهُمَا إِلَّا اتِّبَاعِي» (ابن كثير).

وأخيراً، يمكن الإشارة هنا إلى أن الإسلام أعلن عصمة الأنبياء جميعاً من سلطان الشيطان، إلا أن الكتاب المقدس لم ينسب مثل هذه العصمة إلى عيسى ﷺ، فقد قرر الإنجيل صراحة في عدة مواضع أن الشيطان جرَّب عيسى لأكثر من أربعين يوماً. فمثلاً يقول إنجيل مرقس ١: ١٢ و ١٣: «وكان هناك في البرية أربعين يوماً يُجَرَّب من الشيطان».

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا
الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يُمَرِّمُ أُنَى لَكَ
هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَلَّهِ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

كَفَّلَهَا: من كفل، يقال كفله: كان مسؤولاً عنه، كان وصياً عليه. كفل خالدًا زيدًا: أي جعل زيدًا وصياً على خالد؛ أي وضع خالدًا في وصاية زيد (أقرب الموارد).

زَكَرِيَّا: اسم قديس من بني إسرائيل، ذكر القرآن المجيد أنه من الأنبياء ﴿وَزَكَرِيَّا وَالْيَسَعَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا... أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتَّوْبَةَ﴾ (الأنعام: ٨٦ إلى ٩٠)، ولكن الكتاب المقدس يذكره كواحد من الكهنة: «كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أביا» (لوقا ١: ٥). وقد ذكر الكتاب المقدس شخصاً آخر باسم زكريا باعتباره واحداً من الأنبياء (زكريا ١: ١) لم يشر القرآن المجيد إليه. وزكريا عليه السلام الوارد في القرآن الكريم هو والد يحيى ابن خالة عيسى عليه السلام.

الْمِحْرَاب: مشتق من حرب، راجع الآية ٢٨٠ من سورة البقرة. والمحراب غرفة في أعلى المخزن بالمنزل؛ غرفة عالية يُصعد إليها بسلم؛ الموضع الرئيس للجلوس في صدر من الغرفة أو المنزل؛ التجويف أو المكان الذي يقف فيه الإمام لإمامة الصلاة في المسجد؛ المسجد أو مكان العبادة (أقرب الموارد ومعجم لين). والمحراب هو غرفة للصلاة حيث يقف الإمام في المسجد، وربما أطلق عليها هذا الاسم لأنها المكان حيث يحارب المرء قوى الشر، وحيث يتعد الإنسان عن شؤون الدنيا، ذلك لأن لفظة حرب تعني القتال وتعني أيضاً الحرمان والسلب من كل ممتلكاته (معجم المفردات).

التفسير:

لقد نُسجت قصص خيالية كثيرة حول إجابة السيدة مريم على سؤال زكريا عليه السلام من أين جاءت تلك الهدايا التي كانت بجوارها. ومن الواضح أن تلك الهدايا قد أحضرها المصلون الذين يزورون المكان. وليس في الأمر شيء مخالف للمألوف في إجابتها بقولها إنها من الله تعالى، لأن كل ما هو طيب يجيء من عند الله حقاً، فهو المصدر الأول لكل خير. والواقع أن آية إجابة غير هذه تكون أمراً غريباً من فتاة مثل السيدة مريم التي نشأت نشأة دينية. أما ما ورد في القصص بأن الرزق كان فاكهة سماوية أحضرتها الملائكة، فليس إلا من خيال المفسرين، ولا سند له في القرآن المجيد أو في حديث الرسول ﷺ. هذا وقد أثرت هذه الإجابة المفعمة بالورع والصلاح على فؤاد زكريا عليه السلام، وأيقظت في أعماق نفسه تلك الرغبة العارمة في أن يكون له ولد يمثّلها في الفضل والصلاح.

ويغلب الظن أن تكون الكلمات ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من قول الله تعالى وليست من كلمات مريم. أما إذا اعتبرناها من قول مريم فإنها كانت تقصد بها أن يكون لردّها أثر قويّ، وهذا يبرز دعاء زكريا عليه السلام الوارد في الآية التالية.

هَٰذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي
مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾

التفسير:

عندما سمع زكريا عليه السلام إجابة مريم، الفتاة الصالحة الصغيرة، تحرك قلبه ودعا ربه أن ينعم عليه بولد في مثل صلاحها. ويبدو أنه ألحّ في الدعاء لفترة طويلة وبعبارات مختلفة وردت في القرآن المجيد (آل عمران: ٣٩، مريم: ٥-٧، الأنبياء: ٩٠). ويتأيد هذا من أن زكريا عليه السلام دعا ربه أول مرة عندما كانت مريم طفلة صغيرة، ورزقه الله تعالى

بالمولود فعلاً بعد أن صارت مريم امرأة ناضجة، وعلى هذا فقد كان يحيى وعيسى عليهما السلام في سن متقاربة. وما يمكن أن يكون قد حدث أيضاً أن الله تعالى قد استجاب لدعاء زكريا عليه السلام منذ البداية، وأنه سبحانه قد أبلغه باستجابة دعائه، ولكنه استمر في الدعاء، شأن الصالحين من الناس، إلى أن تفضل عليه سبحانه بالمولود الذي وعده به.

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ
أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ
اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

يَحْيَى: اسم نبي ظهر قبل المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام ليكون مُبَشِّراً بمجيئه، تحقيقاً للنبوءة التي جاءت في الكتاب المقدس (ملاخي ٣: ١؛ ٤: ٥): (ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم). والصورة العبرية لكلمة «يحيى» هي «يوحنا» وتعني «يرحمنا الرب» (راجع دائرة المعارف البريطانية). أما اسم يحيى فهو تسمية من الله تعالى نفسه، ويقصد به الإشارة إلى ميزة خاصة فيه (راجع تفسير الآية ٨ من سورة مريم). وفي اللغة العربية، تشتق كلمة يحيى من كلمة «حياة»، وتعني أنه سوف يعيش إلى سن الرجولة، وتكون حياته صلاحاً وورعاً. وحادثة قتل يحيى عليه السلام الواردة في سفر متى ١٠: ١٤ «فأرسل وقطع رأس يوحنا في السجن» تكشف عن مغزى ثانياً للاسم، أي أنه يموت ميتة الشهداء وبذلك يحيا حياة أبدية عند الله تعالى. يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٧٠).

ولعل يحيى عليه السلام كان هو النبي الإسرائيلي الوحيد الذي قُتِلَ فعلاً، وكما تلمح الآية القرآنية: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي مثلاً (مريم: ٨). وأيضاً جاء في (لوقا: ٦١) «فقالوا لها ليس أحد في عشيرتك تسمى بهذا الاسم».

حَصُورٌ: من حصر: أي سكت من الخجل أو غيره. حصر عنه: عَظَلَ وعجز عنه. حصر عن المرأة: امتنع أو مُنِعَ من مباشرتها. حصر السر: أخفاه وامتنع عن إفشائه. حصرة: منعه وقمعه. حصور تعني امتنع عن مباشرة النساء، مع القدرة عليه، بدافع من العفة والإعراض عن الملذات الدنيوية؛ المحروم من مباشرة النساء بسبب عجزه عن ذلك؛ الشخص الذي فقد الرغبة في النساء؛ الممتنع أو الممنوع من فعل شيء بسبب الخوف وغيره؛ الحافظ للأسرار؛ الممسك عن الانفعالات الشريرة والألعاب المستهترة (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

إن ما جاء في صفة يحيى عليه السلام في هذه الآية من كونه ﴿سَيِّدًا﴾ أي نبيلًا أو عظيمًا، ﴿وَحَصُورًا﴾ أي عفيفًا وممسكًا عن نزعات الشر، ﴿وَنَبِيًّا﴾ أي ممن اصطفاهم الله للرسالة، ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من الذين يسرون في الطريق المستقيم، يتفق مع ما ورد في لوقا ١: ١٣ إلى ١٧ «لأنه يكون عظيمًا أمام الرب، خمرًا ومسكرًا لا يشرب، ومن بطن أمه يمتلئ بالروح القدس... وأنت أيها الصبي نبي العلي تُدعى» ويصف أيضًا القرآن المجيد يحيى عليه السلام بأنه كان ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، أي أنه كان شاهداً على صدق كلام الله ﷻ. وقد جاء يحيى عليه السلام مصداقاً لنبوءة ملاخي تماماً: «ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف» (ملاخي ٤: ٥). والتعبير القرآني ﴿حَصُورًا﴾ بمعنى حافظاً للسر، وقد تشير إلى أن يحيى عليه السلام كان حامل النبأ عن مجيء عيسى المسيح عليه السلام.

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي
الْكِبَرُ وَأُمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ أَلَّهُ يَفْعَلُ
مَا يَشَاءُ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

غُلَامٌ: من غَلَمَ أي: أثارته الرغبة أو الشهوة الجنسية. اغتلم الشراب: اشتد أثره على الرأس.
غلام يعني: (١) الشاب من الرجال، الذي بدأ شاربه في النمو. (٢) الابن، (٣) الرجل
في أوسط العمر، (٤) الرفيق أو الخادم المذكر (معجم لين).

التفسير:

إن استفسار زكريا عليه السلام في قوله ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؟ لا يعني عدم إيمانه بوعده الله تعالى كما يقرر الكتاب المقدس في سفر لوقا ١: ٢٠ «لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته». إنما هو تعبير تلقائي عن الدهشة البريئة عندما تلقى الوعد الإلهي، كما يحوي دعاء مقنعا أن يمتد به العمر ليرى مولد هذا الطفل ويشهد غوه إلى أن يكون شابا. ولقد أشار زكريا عليه السلام إلى تقدمه في العمر وعقر زوجته ليستدر رحمة الله تعالى به فيعجل له الإجابة.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ يمكن أن يعني: (١) وهكذا يفعل الله تعالى ما يشاء. (٢) هذا صحيح، ولكن الله تعالى يفعل ما يشاء. (٣) هذه هي سنة الله، يفعل سبحانه ما يشاء.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرُّ رَبَّكَ
كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤٢﴾

التفسير:

يبدو من الكتاب المقدس أنّ بعض الآيات أو العلامات على تحقق نبوءات معينة كانت تحدد في الزمن القديم. فهناك بعض الظواهر الطبيعية المعيّنة كانت تحدد كأمارات لهذه النبوءات. فمثلا نجد في سفر التكوين (١٧:٩) أن قوس قزح تحدد أمارة لتحقيق وعود الله تعالى التي وعدها لإبراهيم عليه السلام ونسله (تكوين ١١:١٧). ثم كانت مراعاة السبب علامة على عهد الله عزوجل الذي جعله مع بني إسرائيل (سفر الخروج ١٣:٣١ إلى ١٧). وبالمثل، لما سأل زكريا عليه السلام ربه أن يجعل له علامة على تحقق وعده، طلب الله تعالى إليه أن يمتنع عن الكلام ثلاثة أيام فيتحقق وعد الله تعالى. إنه لم يُحرم من القدرة على الكلام عقابا له على عدم تصديقه لكلمات الله تعالى كما يقول لوقا في إنجيله (٢٠: ١ إلى ٢٢).

أما بالنسبة لمسألة جعل الصوم عن الكلام باللسان علامة محددة لزكريا عليه السلام، فيمكن إيجازها فيما يلي:

أولا: القصد من ذلك إتاحة الفرصة المناسبة لزكريا عليه السلام ليقضي وقته في التضرّع والدعاء، وهي حالة تساعد على استدرار رحمة الله وفضله.

ثانيا: إن الصوم عن الكلام يفيد في استعادة حيويته وصحته المفقودة، ويبدو أن هذا التقليد كان شائعا بين اليهود وقتئذ (كما فعلت السيدة مريم، راجع الآية ٢٧ من سورة مريم)، ولا يزال هذا التقليد موجودا بين بعض الشعوب كالهندوس وغيرهم.

والإسلام لا يعرف هذا الفعل لأنه يعطل نشاط الإنسان، وإن كان يحد من شره (الترمذي، كتاب البر والصلة).

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ
وَوَهَبَ لَكِ وَالِدًا عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾

التفسير:

لما كان يحى إرهاباً لعيسى عليه السلام، أي أنه جاء مبشراً بقدومه (ملاخي ١:٣ و ٥:٤) فقد بدأ القرآن الكريم بذكر النبوة المتعلقة بيحيى عليه السلام، ثم انتقل إلى سرد مفصل عن مولد عيسى عليه السلام ونبوته، مع إشارة موجزة إلى أمه السيدة مريم، التي جاء ذكرها كمقدمة للموضوع الأصلي. وقد جاء لفظ ﴿اصْطَفَاكِ﴾ في الآية مرتين، وقد قصد ذلك بالطبع لهدف معين. ففي المرة الأولى وردت الكلمة بالنسبة للسيدة مريم من دون الإشارة إلى شخص آخر، وفي هذا دلالة على سمو مكانتها بصفة مطلقة. وفي المرة الثانية وردت لبيان مكانتها الرفيعة بين نساء زمنها. وما من حاجة إلى القول بأن استعمال القرآن المجيد لكلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ لا يشير هنا إلى كل الناس في كل الأزمنة، وإنما يعني بذلك وقتاً محدداً هو زمن السيدة مريم، راجع أيضاً (البقرة: ٤٨).

وكلمة ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ التي جاءت في صيغة الجمع مقصودة أيضاً. لو كان الأمر مقصوراً على تبليغ رسالة ما، لكان في ملاك واحد الكفاية؛ فما الغرض إذن من أن يكلف الله تعالى عدداً من الملائكة ليكلموا السيدة مريم؟ في الأسلوب القرآني يدل استعمال الجمع أن الله تعالى أمر جميع الملائكة على اختلاف أنواعهم، كل فيما يخصه، للعمل على تنفيذ التغيرات التي سوف تحدث في مجالات شتى من العالم على يد ابنها المسيح عيسى عليه السلام. (راجع موضوع الملائكة في الآية ٣١ سورة البقرة)

يَمْرِيْمُ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

ارْكَعِي: اعبدى الله وحده. (راجع شرح الآية ٤٤ من سورة البقرة)

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا
كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

أَقْلَامَهُمْ: جمع قلم وهو السهم. قلم الشيء: قطعه. قلم الظفر: قصه (أقرب الموارد).
القلم: (١) عود من الغاب يستعمل للكتابة بعد شقه وإعداده للكتابة؛ قلم القصب.
(٢) سهم لا رأس له يُستعمل في سحب القرعة. (٣) سهم أو رمح (أقرب الموارد).
وكان من عادة العرب استعمال الأسهم في الاقتراع والميسر وغيره.

التفسير:

إن كثيرا من الحقائق التي جاء بها القرآن الكريم عن السيدة مريم لم ترد في المخطوطات القديمة؛ ومن ثم سميت في هذه الآية ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾. وكما ذكر في الآيات التالية... حملت السيدة مريم بطفلها أثناء خدمتها في المعبد بعد أن كانت قد أوقفت حياتها لذلك. وقد أصاب الكهنة القلق عندما علموا بالواقعة المفزعة؛ وخافوا من الفضيحة، وتنازعوا فيما بينهم، واقتنعوا ليقرروا من منهم يتحمل مسؤولية رعايتها وعمل الترتيبات اللازمة لتزويجها من شخص مناسب. وكما

ذُكر في الأناجيل أصابت القرعة شخصا يُدعى يوسف يعمل نجارا، وأقنعوه بتقبل ذلك الوضع المخرج. وطبيعي أن ذلك كله قد تم في السر، ولذلك كان من أمور الغيب التي كشف عنها القرآن المجيد.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ
بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

كَلِمَةٌ: لفظة؛ عبارة؛ اقتراح؛ قول؛ حجة؛ تأكيد؛ تعبير عن الرأي (معجم لين)؛ قرار، أمر أو وصية (مفردات الراغب)، راجع شرح الآية ٣٨ من سورة البقرة.

الْمَسِيحُ: من مسح، يقولون مسح الشيء: أزال ما عليه من الوسخ بيديه؛ مَرَّبِيده عليه. مسح الشيء بالماء: مَرَّبِيده المبتلة بالماء عليه. مسحه: دهنه بالزيت. مسح في الأرض: ارتحل في أرجائها. مسح البيت: طاف بيت الله. مسحه بالسيف. ضربه بالسيف فقتله. مسحه الله: خلقه الله مباركا طيبا، أو عكس ذلك. فالمسيح إذن يعني: (١) المدهون بالزيت أو ما شابه ذلك؛ (٢) ملك؛ (٣) جميل الوجه؛ (٤) كثير السفر والترحال؛ (٥) الصادق الأمين؛ (٦) كثير الخطأ؛ (٧) المبارك الطيب؛ (٨) الملعون الذميمة الرديء. المسيح الدجال: مضاد المسيح؛ كثير الخطأ ملعون رديء؛ كثير السفر ينشر المبادئ الباطلة. المسيح في اللغة العربية تقابل في العبرية لفظة (مشيا) أي الممسوح (دائرة معارف الكتاب المقدس ودائرة معارف الديانات والأخلاق).

عِيسَى: يحتمل أن يكون اسما عبريا أصله إيسوع أو يسوع التي تحولت في العربية إلى عيسى. ويمكن اعتبارها في اللغة العربية مشتقة من عيس أو عوس. والعيس هي الإبل البيضاء التي يمتزج بياض لونها بسواد، وتعتبر نوعا خاصا من الإبل الجيدة. عاس الرجل ماله: أدار

ممتلكاته جيداً. عاس معيشتة: حسنها ورفع مستواها (أقرب الموارد ولسان العرب). والصورة اليونانية لاسم عيسى هي جُوشوا أو جشوا (دائرة المعارف البريطانية).

ابن مريم: كنية عيسى عليه السلام. وربما كُني عيسى عليه السلام بها لأنه وُلد من غير اتصال أبوي، فلا يمكن أن يُنسب إلا لوالدته. ومريم هي أم عيسى المشار إليها في الآية ٤٣ آنفاً.

التفسير:

تحتاج لفظة ﴿كَلِمَةً﴾ إلى بعض الإيضاح، وخاصة أن البعثات التبشيرية المسيحية قد اقتسبت اللفظة لتدعم بها تلك الفكرة السخيفة عن اعتراف القرآن المجيد ببنوة عيسى عليه السلام الإلهية. وتُلقي المناسبة التي نزلت فيها الآية بعض الضوء على دلالة معنى «الكلمة». نزلت الآيات الثلاث والثمانون الأولى من هذه السورة عندما زار وفد نصارى نجران مدينة الرسول ﷺ وتناقشوا عن شخصية عيسى عليه السلام ومركزه. ولما أفحموا في كل ما أثاروه من مسائل، توجهوا إلى الرسول ﷺ سائلين عما إذا كان قد ورد في القرآن لفظ «الكلمة» بشأن عيسى عليه السلام. ولما تلقوا رداً بالإيجاب صاحوا صيحة الانتصار، وهموا بالانصراف دون أن ينتظروا توضيح هذه اللفظة التي أسيء فهمها كثيراً. فمناسبة النزول وظروفه تكشف عن أن هذه الآيات ليست سندا للعقيدة المسيحية عن لاهوت عيسى عليه السلام، وإنما هي لدحض عقيدتهم وإبطالها. إن لفظتي «كلمة» و«روح» المجتمعين في الآية ١٧٤ من سورة النساء، تجعل الأمر واضحاً دون أدنى شك في أنهما وردتا لهدم وإبطال تعاليم المسيحية عن ألوهية عيسى أو بنوته لله، لا لإقرارها. تقول الآية: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. والآية لا تحتاج إلى تفسير، ولا يمكن أن يُفهم منها أيّ تأييد لوجهة نظر المسيحيين.

ومن الغريب حقا أن بعض الكتاب المسيحيين يؤكدون بأن النبي ﷺ لم يفهم المغزى الحقيقي للفظه ﴿كَلِمَةً﴾. إنها لفظة عربية، ومن السخف الذي يبعث على السخرية القول بأن النبي العربي ﷺ لم يدرك معنى اللفظة ولم يفهم مغزاها. والواقع أنه لا النبي ﷺ ولا واحد من أتباعه قد حمل هذه اللفظة أي معنى غير عادي يمكن أن يسمو بعيسى عليه السلام عن غيره من البشر. لقد اعتنق الإسلام عدد كبير من المسيحيين في الماضي، ولا شك أنهم رأوا أثناء دراستهم للقرآن المجيد هذه الكلمة مرات عديدة، ولم يفهم أحد منهم المعنى الذي يدعي به النقاد المسيحيون اليوم؛ ولم يؤمن أحد منهم بالوهية عيسى عليه السلام بناء على هذا التعبير الوارد في القرآن المجيد.

يقول اللغوي الكبير صاحب معجم تاج العروس أن عيسى عليه السلام لقب بكلمة الله لأن كلماته كانت مُعَيَّنَةً في سبيل الدين. فكما يسمى من يعين بسيفه في سبيل الدين (سيف الله) أو (أسد الله) كذلك أيضا من يعين بكلماته يسمى (كلمة الله)، ويقول أيضا إنه سمي (كلمة الله) لأنه لم يولد بوساطة أب، وإنما بأمر مباشر من الله تعالى (مريم: ٢١ و ٢٢).

وبالإضافة إلى المعاني المذكورة سابقا فقد استعمل القرآن المجيد الكلمة في المعاني التالية:

- (١) آية، كقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾ (التحریم: ١٣)، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (الأنفال: ٨).
- (٢) عقاب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (يونس: ٩٧).
- (٣) خطة أو تدبير، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ (التوبة: ٤٠).
- (٤) البشري، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الأعراف: ١٣٨).

(٥) خَلَقُ الله، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان: ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

(٦) مجرد كلمة من الفم أو تأكيد، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ (المؤمنون: ١٠). وبأي معنى من المعاني السابقة، لا تخلع هذه اللفظة على عيسى عليه السلام أي مكانة يسمو بها على غيره من الأنبياء.

ثم إنه إذا كان عيسى عليه السلام قد سُمي ﴿كَلِمَةً﴾ في القرآن المجيد، فإن محمداً ﷺ سُمي ﴿ذِكْرًا﴾ أي كتاباً أو حديثاً طيباً، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ (الطلاق: ١١ و ١٢)، ومن الواضح أن هذا الذكر يتضمن كثيراً من الكلمات. والحقيقة إن ﴿كَلِمَةَ اللَّهِ﴾ إذا فُهمت بمعنى «كلمة الله» فإن أقصى ما يمكن قوله إن الله تعالى قد عبر عن نفسه من خلال عيسى عليه السلام كما عبر سبحانه عن نفسه من خلال الأنبياء الآخرين جميعاً. والكلمات ما هي إلا وسيلة للتعبير عن الأفكار، ولكنها لا تكون جزءاً من كياننا، ولا يمكن أن تتجسد.

وضمير الهاء في قوله ﴿اسْمُهُ﴾ مفرد مذكر، ولا يمكن أن يعود على لفظة ﴿كَلِمَةً﴾ لأنها مؤنث؛ ولكنها تعود على الشخص الذي تبشر به «الكلمة». ويمكن إذن أن تفهم العبارة على هذا النحو: «يا مريم إن الله يبشرك بوحي منه، سيكون اسمه المسيح عيسى ابن مريم». وقد سُمي عيسى عليه السلام باسم المسيح بمعنى أنه كثير الترحال، إذ كان من المقدّر له أن يرحل كثيراً. ولكن إذا أخذنا برواية الأناجيل، من أن مهمة المسيح لم تدم سوى ثلاثة أعوام فحسب، قضاها بين عدد قليل من مدن الشام وفلسطين، فلا تنطبق عليه التسمية حينئذ. وقد أثبتت الأبحاث التاريخية الحديثة حقيقة أن عيسى عليه السلام بعد أن شُفي من إصابته، و برأت الجروح التي أصابته في حادثة الصليب، فسافر سائحاً إلى مسافات بعيدة نحو المشرق، إلى أن وصل إقليم كشمير، وفي طريقه أبلغ رسالته إلى قبائل بني إسرائيل الضالة في تلك البلاد. وإلى ذلك يشير قول الله

تعالى: ﴿وَأَوَيُّنَاهُ وَأُمَّهُ إِلَى رَبُّوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنون: ٥١) وقد استقر به المقام في إقليم جبلي.

والمسيح أيضا هو المدهون بالزيت وغيره. ولما كانت ولادة عيسى عليه السلام ولادة شاذة، ومن المحتمل أن يعتبرها البعض ولادة غير شرعية، لذلك تحدث الله تعالى عنه بأنه ممسوح بصبغة الله ﷻ، شأنه في ذلك شأن جميع الأنبياء، وذلك ليرفع الله تعالى عنه مثل هذا الاتهام. وقد سُمي باسم المسيح أيضا لأنه ممسوح بزيت لا يبلله الماء، وهو أيضا لا ينفذ إليه ماء الخطايا. إنها إذا مست جلده لا تمكث هناك ولا تستطيع النفاذ إليه (راجع خطابه في إنجيل متى ١: ٤-١١).

وإذا ما قارنا هذا بما جاء في الحديث النبوي المشهور بأن مع كل إنسان شيطاناً ولكن الله تعالى أعانه عليه فأسلم فلا يأمره إلا بالخير، تبينت لنا تلك المنزلة الرفيعة التي تبوأها نبي الإسلام ﷺ، وكيف أنه ليس معصوماً من لمسات الشياطين فحسب، وإنما انعدم وجود الشياطين بالنسبة له (المسند ومسلم، كتاب صفة القيامة ج ٨)، بل ويتبين أيضاً أن للرسول ﷺ قوة روحية عظيمة تتحوّل معها همزات الشياطين إلى قوى دافعة إلى الخير فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ لا يرفع عيسى عليه السلام عن غيره من عباد الله الصالحين. لقد وُصف الذين تقدموا وساروا في طريق الصلاح والاستقامة بأنهم مقربون إلى الله، كما جاء في القرآن المجيد: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة: ١١ و ١٢).

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا
وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

المَهْد: مشتقة من مَهَدَ. يقال مهد المكان: سواه وبسطه ووطّأه لنفسه. مَهْد فراشا: نشر سريرًا لمنامه وبسطه ونعّمه، أي جعله ليّنا وثيرا. مَهْد لنفسه خيرا: أعدّ لنفسه خيرا. مَهْد له منزلة سامية: أعد أو جعل له مركزا عاليا. مَهْد لنفسه: اكتسب أو استحق خيرا. المهد: فراش الطفل؛ السرير؛ الفراش للرقاد والراحة؛ والجزء المستوي من الأرض (معجم لين وأقرب الموارد). والمهد يعني أيضا التسوية؛ الإعداد والتجهيز؛ كسب العيش أو الاكتساب.

كَهْلًا: من كَهَلَ، أي دخل في مرحلة منتصف العمر. اكتهل الرجل: مثل كهل. اكتهل النبات: طال واكتمل نموه وأزهر. الكهل: المرء في منتصف العمر؛ المرء يبلغ العمر الذي يختلط فيه الشيب بسواد الشعر؛ المرء بين الثلاثة أو الرابعة والثلاثين والواحدة والخمسين من سني حياته (معجم لين وأقرب الموارد)؛ المرء بين الأربعين والواحدة والخمسين من عمره (الثعالبي).

التفسير:

من الجلي أن القرآن المجيد لا يعني بقوله ﴿يَكَلِّمُ﴾ مجرد التفوه أو النطق العادي للكلمات، ذلك لأن هذا النوع من الكلام يتصف به جميع الأطفال والبالغين فيما عدا قلة من البكم. فالآية إذن تشير إلى نوع خاص من الكلام، وهو الكلام الحكيم. وبالمثل، فإن عبارة ﴿فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ تشير إلى فترتي الطفولة والرجولة اللتين سوف يتكلم فيهما عيسى عليه السلام كلمات الحكمة. وهكذا تلمح الآية بطريقة غير مباشرة إلى أن المسيح عليه السلام لن يموت شابا، وإنما سيعيش إلى سن النضج والكهولة. وعن العلامة الجليل، ابن القيم الجوزية، أن عددا من كبار العلماء أنكروا صلب عيسى عليه السلام وما يدّعون من قيامه وصعوده في سن الثلاثين أو الثلاثة والثلاثين، على أساس أن القرآن المجيد قال عنه إنه سيكلم الناس كَهْلًا، أي في منتصف العمر. وهذا يبين

أن هؤلاء العلماء يأخذون برأي الثعالبي، ويرونه التعريف الصحيح للكهولة، أي من سن ٤٠ إلى ٥١.

وليس من المعجزات ولا من قبيل خرق الطبيعة في شيء أن يتحدث عيسى عليه السلام بالحكمة في طفولته؛ فقد جرى مثل ذلك من أطفال يتصفون بالذكاء وحسن التربية، ويسوق لنا لوقا في إنجيله مثالا لبعض ما تحدث به عيسى عليه السلام في طفولته «وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في اورشليم ويوسف وأمه لم يعلما... وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالسا في وسط المعلمين يسمعون ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته» (لوقا ٤٣: ٢ إلى ٤٧).

ويمكن أن يفهم من الآية القرآنية أنها تشير إلى فترتين معينتين من حياة عيسى عليه السلام، يختلف حديثه في الأولى منهما عنه في الثانية؛ ففي الأخيرة سوف يتحدث إليهم حديث الأنبياء. وعلى ذلك فإن البشارة إلى مريم تكمن في أن عيسى سيكون طفلا نجيبا، وأيضا سيعيش إلى سن النضج ويكون عبدا صالحا من عباد الله.

وجدير بالذكر أن عبارة ﴿في المهد﴾ لا تعني بالضرورة فترة الطفولة. فلفظة ﴿المهد﴾ ذات دلالات واسعة، ليس أولها الفراش، وإنما هو معنى ثانوي. أما معناها الأساس فهو فترة الإعداد أو المرحلة الإعدادية، إذ يُعد المرء فيها ونهياً لواجبات سن النضوج. والواقع أن ذكر القرآن المجيد للمرحلتين ﴿في المهد﴾ و﴿كهنه﴾ مقترنتين يدل على تداخلهما وعدم وجود فاصل بينهما. فكل فترة ما قبل الكهولة هي المهد أو مرحلة الإعداد؛ ولولا ذلك لكانت العبارة ذمّاً أكثر منها مدحاً إذ تتضمن العبارة معنى أن عيسى عليه السلام لن يتكلم بالحكمة في الفترة بين الطفولة والكهولة.

هذا، وإن القرآن المجيد والحديث الصحيح يدلان على أن عيسى عليه السلام لم يمت على الصليب في سن الثالثة والثلاثين، ولكنه عاش إلى سن متقدمة جدا. وسنأتي إلى هذه الحقيقة في موضعها المناسب.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي
بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا
قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٨﴾

التفسير:

إن الإنباء بمولد طفل، رغم أنه نبأ سعيد في الظروف العادية، إلا أنه أدهش السيدة مريم التي لم تكن وقتذاك إلا فتاة عذراء لم تتزوج بعد، والتي كان ينبغي لها أن تبقى بدون زواج طيلة حياتها. والآية الكريمة تعكس دهشتها الصادقة والتي لها ما يبررها. وتبين الآية الكريمة أيضاً أن عيسى عليه السلام لم يكن له والد، كما نلمح من قولها: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾. كما أنها ما كان يصح لها أن تتزوج طبقاً للنذر الذي كرسه بسببه حياتها للعزوبة. ولو كان لها أن تتزوج في الوقت الملائم وتنجب طفلاً من هذا الزواج، لما كانت هناك مناسبة تظهر فيها دهشتها عندما أعلمتها الملائكة بذلك في الرؤيا. وما من فتاة عادية تصيبها الدهشة إذا أُخبرت في رؤيا بأنها ستنجب طفلاً، لأن هذا يجعلها تتوقع إنجاب الطفل عندما تتزوج. ونجد في إنجيل مريم إشارة واضحة إلى نذرها بحياة العزوبة. ففي الإصحاح الخامس من إنجيل مريم نقرأ أن كبير الكهنة أعلن على الملأ أمراً بأنه على جميع العذارى المقيمات في المعبد العودة إلى بيوتهن إذا بلغن الرابعة عشر من عمرهن. وقد رضخن جميعاً لهذا الأمر ما عدا مريم عذراء الرب التي أجابت بأنها لا تستطيع ذلك لأنها وأبويها قد نذروا حياتها لخدمة الرب، وأنها نذرت عذريتها للرب وصممت ألا تنكث بهذا النذر (إنجيل مريم ٥: ٤ إلى ٦).

وعلى هذا كان زواج السيدة مريم من يوسف النجار فيما بعد ضد نذرها، وكان يتعارض مع رغبتها الشخصية. ولكنها أُجبرت على الزواج تحت تأثير ظروفها بعد أن تبين أنها تحمل طفلاً في أحشائها. وكان على الكهنة أن يدبروا لها أمر زواجها بيوسف

النجار ليتجنبوا الفضيحة. ولا يظهر من الأناجيل كيف مارسوا الضغط على يوسف إلى أن وافق على الزواج، لأنه يبدو أنه كان يجهل موضوع حملها وقت الزواج (متى ١٨: ١ و ١٩). ويغلب الظن أنهم وجدوا لها عذرا مقبولا لتعدل عن نذرها.

ويتفق اليهود والمسيحيون على وجود أمر مخالف للعادة في مولد عيسى. إذ يعتقد المسيحيون أنها مسألة خارقة للطبيعة، بينما يعتقد اليهود أنها أمر غير شرعي (دائرة المعارف البريطانية). وحتى في سجل مواليد العائلة تم تسجيل المولود عيسى بأنه غير شرعي (التلمود). كفى بهذه الحقيقة دليلا على أن مولد عيسى عليه السلام كان مخالفا للعادة. ولكنه لم يكن خارقا للعادة ولم يكن غير شرعي. ولتقتبس ما جاء في واحدة فقط من المراجع الطبية: «إن رجال الطب لم يستقصوا تماما إمكان أن تنجب امرأة طفلا عن طريق التكاثر العذري الطبيعي بغير أي علاقة برجل. وقد يبدو هذا التصريح سخيفا لمن لم يدرس الموضوع. ولكن إمكان حدوث التكاثر العذري الطبيعي من وجهة نظر علم الحياة البحت، وفي ظروف معينة، أمر لا يمكن إنكاره. ويلفت الدكتور تيم (Timme) الانتباه إلى هذا الاحتمال كنتيجة لنوع معين من المجموعات الخلوية أو الأورام (tumors) التي نتج من تكاثر بعض الخلايا، ويسمى (أرهنينو بلاستوما) (من اليونانية = ذكر + نطفة (arrhenoblastoma: male+germ). وتوجد عرضا في حوض الأنثى أو الجزء السفلي من جسمها؛ وهذه الأورام قادرة على توليد نطف ذكورية. ومن الطبيعي أنه لو كانت هذه النطف الذكورية حية ونشطة، ثم لامست بويضة الأنثى، فمن الممكن أن يحدث الحمل الذاتي. وليس في هذه العملية ما يتعارض والمنطق، ويصرّح الدكتور تيم أن هناك عشرين حالة معتمدة جاءت في التقارير الطبية في أوروبا، والتي وجد فيها أن الأرهنينو بلاستوما قد أنتجت نطفًا ذكورية. والأرهنينو بلاستوما نوع من التجمعات الخلوية التي تحتوي على خلايا منتجة للنطف. وهذه الخلايا عبارة عن تكوينات خلّاقة قادرة على النمو في أي وقت. وكون هذه الأرهنينو بلاستوما المحتوية على خلايا جينية من الممكن لها أن تحدث نسيجا خصوصاً قادراً على إنتاج النطف الذكورية أمر غير مستحيل من الوجهة العلمية،

وإذا نتجت النطف الذكورية في جسم الأنثى من طريق الأرهينو بلاستوما فإنه لا يمكن إنكار احتمال حدوث الحمل الذاتي لهذه الأنثى حتى ولو كانت عذراء، أي أن جسمها يتصرف كما لو وصل إلى رحمها نطف ذكورية من رجل في اللقاء الجنسي الطبيعي أو في التلقيح الصناعي بتدخل من الطبيب (المجلة الطبية الأمريكية).

وهناك حالات مسجلة عن ولادة أطفال من دون آباء؛ فقد حملت فتاة شابة على درجة كبيرة من الطهر، وليس لديها أدنى فكرة عن سبب حملها، وهناك حالة فتاة نجحت في مقاومة إقحامها في علاقة جنسية غير شرعية، ومع ذلك أنجبت طفلة وُلدت كاملة الحلقة. (الشواذ والغرائب في الطب، بقلم جورج م. جولد)

(Anomalies and Curiosities In Medicine by George M. Gould, A.M, M.D., published by W.B. Saunders & Co., London.)

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٩﴾

التفسير:

تدل لفظة ﴿كِتَابَ﴾ على كل من الكتاب وفن الكتابة. وبالدلالة الأولى يكون المقصود هو التوراة، شريعة موسى ﷺ، ويكون قوله تعالى: ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ مفسراً لما قبله؛ فالتوراة هي الكتاب، والإنجيل هو الحكمة.

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ
بِنَبَأٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ
الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْبِ

الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا
تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

أَخْلَقُ: مشتق من خلق، يُقال خلقه أي: (١) قاسه أو حدّد مقياسه أو نسب أبعاده؛ فمثلاً يقولون: خلق الأديم، أي حدد الجلد بنظره ليقطعه. (٢) صمّمه أو شكّله أو خطّطه. (٣) صنعه طبقاً لمقياس أو تصميم معين. (٤) أوجده الله تعالى أو أنشأه من غير مثال سابق. (٥) اخترع قصة أو أكذوبة وغير ذلك. (٦) سوّاه ومهّده وهَيّأه (معجم لين ولسان العرب).

الطِّين: مشتقة من طان، أي أحسن الفعل أو العمل؛ أجاد تنفيذ فعله أو عمله. طانه الله على الخير: خلقه الله ذا ميل للخير، أي ذا استعداد فطري للخير. طانه: علّقه أو ختمه بالطين أو الطمي. طين: طمي؛ صلصال أو تراب، تربة. طينة: المادة التي يتكون منها الشيء؛ التركيب أو الاستعداد الطبيعي للشيء. يقولون ابن الطين للدلالة على آدم (معجم لين). وفي المجاز تدل لفظة «طين» على الأشخاص الذين يتّصفون بطبيعة سهلة التعليم والانقياد، بحيث يسهل تشكيلها في أي شكل حسن كما هو الحال في الصلصال اللين.

الطَّيْر: جمع طائر، وقد يستخدم للمفرد أيضاً. مشتق من طار، وتعني: (١) اندفع أو حلّق في الهواء بجناحيه؛ (٢) أسرع في العدو أو الهرب؛ (٣) طار عقله: ضاع. طارت الإبل: حبلت. طار لكل منهم سهمه: جاء إليه نصيبه. الطير أو طير كلاهما جمع طائر من طار. فالطير هي: (١) الكائنات التي تطير كالطيور والحشرات وغيرها. (٢) واحد من الطيور أو الحشرات، لأن الكلمة تدل أيضاً على المفرد. (٣) وتحمل اللفظة في صورة المصدر دلالات الفعل.

هَيْئَةٌ: مصدر هاء. يقال هاء الرجل: حَسُنَ مظهره وشكله أو صفات أخرى يعبر عنها بالهيئة. هاء إليه: رغبه واشتاق لرؤيته أو لقائه. هياءه: كساه وألبسه؛ أعدده ورتبه في حالة طيبة. تهيأ للأمر: استعد له. هيئة: شكل، مظهر؛ صورة؛ رداء أو كسوة؛ حالة؛ كيفية، صفة (أقرب الموارد ومعجم لين).

أَبْرئُ: من برئ أي خلص من الشيء. برئ من المرض: تخلص منه أي شفى. برئ من الدين: خلص منه. أبرأه: شفاه من مرض؛ أعلن خلوه مما اتهم به؛ أخرج عنه (أقرب الموارد ومعجم لين).

الْأَكْمَه: مشتق من كمه أي عَمِيَ، لا ترى عينه في الليل. كمه فلان: حُرِمَ من العقل أو الفهم. كمه النهار: أظلم، أي احتجبت الشمس بالسحب. أكمه: من لا يرى ليلاً؛ من أصابه العمى؛ المحروم من الفهم والعقل (أقرب الموارد ومفردات الراغب).

الْأَبْرَص: المصاب بمرض البرص. مشتقة من برص أي أصيب بمرض البرص، وهو بياض يصيب الجلد بسبب فساد في الصحة أو التكوين. ويطلق على القمر لقب الأبرص بسبب بياض لونه. أرض برصاء: هي التي ذهب بعض عشبها في أماكن متفرقة فتبدو جرداء في تلك المواضع (أقرب الموارد ومعجم لين). ويتميز البرص الذي كان بين بني إسرائيل ببقع ملساء لامعة، منخفضة على سطح الجلد، أو قشور بيضاء بها شعر أبيض، وتنعدم حساسية الجلد والأنسجة المجاورة لها. وهو يشبه مرض البرص المعروف في الوقت الحاضر (قاموس ويبستر).

تَأْكُلُونَ: من أكل، أي: طَعِم، التَّهْم، غِزَا، استهلك، أبلَى. أخضع. وَيُرَوَّى عن الرسول ﷺ أنه قال: «أمرت بقرية تأكل القُرَى»، يعني أنه أمر بالهجرة إلى بلدة (هي المدينة) سوف تخضع وتهزم غيرها من البلدان (معجم لين).

التفسير:

تبدأ هذه الآية في سرد رسالة عيسى عليه السلام كنبى من أنبياء الله تعالى، فبقوله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تكشف الآية الكريمة عن أن بعثة المسيح عليه السلام محصورة في بني إسرائيل، فهو لم يكن رسولاً عالمياً. والواقع أن الأنجيل نفسها تصرح بأنه أمر تلاميذه بالآلا يبلغوا دعوته إلا إلى بني إسرائيل وحدهم. يقول متى في إنجيله: «هؤُلاءِ الاثْنَا عَشَرَ أَرْسَلَهُمْ يَسُوعُ وَأَوْصَاهُمْ قَائِلًا: «إِلَىٰ طَرِيقِ أُمَمٍ لَا تَمْضُوا، وَإِلَىٰ مَدِينَةٍ لِّلسَّامِرِيِّينَ لَا تَدْخُلُوا. بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَىٰ خِرَافٍ بَيْنَ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ» (متى ١٠: ٥ و ٦). ولا يجوز الاحتجاج بأن هذا المنع كان مقصوراً على فترة حياة عيسى عليه السلام، ثم بعد وفاته أصبح التلاميذ أحراراً في الدعوة بين جميع أمم العالم، لأن الإنجيل نفسه ينكر هذه الدعوى. يقول متى في إنجيله ١٠: ٢٣ «وَمَتَّى طَرَدُوكُمْ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ فَاهْرُبُوا إِلَى الْأُخْرَى. فَإِنِّي الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا تَكْمَلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ابْنُ الْإِنْسَانِ». في هذه الفقرة من الإنجيل، نجد المسيح عليه السلام يأمر تلاميذه بحصر دعوتهم بين بني إسرائيل حتى وقت مجيئه الثاني. ونجد مثل هذا الأمر في إنجيل متى ١٥: ٢٤؛ ١٨: ١١ و ١٢؛ ٢٨: ١٩؛ وأعمال الرسل ٣: ٢٥ و ٢٦؛ ١٣: ٤٦؛ لوقا ١٩: ١٠؛ ١٥: ٤؛ ٢٢: ٢٩ إلى (٣٠).

وفي إنجيل متى ٢٨: ١٩ نجد بعض الغموض عن بعثة عيسى عليه السلام، ولكن النظرة الغامضة تكشف بوضوح أن قبائل بني إسرائيل الضالة هي المقصودة، وليس كل الأقوام والشعوب. ولقد فهم التلامذة الأولون تلك الكلمات بهذا المعنى أيضاً: «أَمَّا الَّذِينَ تَشْتَتُوا مِنْ جَرَاءِ الصَّيْقِ الَّذِي حَصَلَ بِسَبَبِ اسْتِفَانُوسَ فَاجْتَاؤُوا إِلَىٰ فِينِيقِيَّةٍ وَقُبْرُسَ وَأَنْطَاكِيَّةٍ، وَهُمْ لَا يُكَلِّمُونَ أَحَدًا بِالْكَلِمَةِ إِلَّا الْيَهُودَ فَقَطْ». (أَعْمَالُ الرُّسُلِ ١١: ١٩)

ولكي تفهم بقية الآية الكريمة فهماً واضحاً، يتعين علينا أن نتذكر أن عيسى عليه السلام كان من عادته التحدث بالأمثال. وقد تنبأت الأسفار السابقة بأن هذه الطريقة الرمزية تعتبر سمة تميز حديثه. يقول (إنجيل متى ١٣: ٣٤ و ٣٥): «هَذَا كُلُّهُ كَلَّمَ بِهِ يَسُوعُ الْجُمُوعَ

بِأَمْثَالٍ، وَيُدُونِ مَثَل لَمْ يَكُنْ يُكَلِّمُهُمْ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِاللَّيِّ الْقَائِلِ: «سَأَفْتَحُ بِأَمْثَالٍ قَمِي». ولقد أشار المؤرخون المتأخرون إلى هذه الخاصية التي تميز بها المسيح عليه السلام. تقول دائرة معارف الكتاب المقدس تحت لفظة يسوع ما يلي: «وفي مألوف حديثه استعمل يسوع أسلوب المثل بحرية. كان يتحدث بالمثل إلى كل الطبقات ومع العامة بصفة خاصة. ومن دون الأمثال ما كان يتحدث إليهم». وعلى ضوء هذه الحقيقة التاريخية لا تبقى أمامنا أية صعوبة في فهم أو بيان تلك الآيات التي تشير إليها الآية القرآنية الكريمة.

ولم يرد في الكتاب المقدس ذكر لمعجزة خلق الطير هذه التي اشتهر بين الناس أنه قام بها. ولو كان عيسى عليه السلام حقا قد خلق طيرا، فليس هناك ما يبرر حذفها من الكتاب المقدس، وعلى الأخص أن معجزة مثلها لم يقم بها أي نبي سابق. ويكون ذكرها دليلا على أفضليته على كل الأنبياء بالتأكيد وسندا في ادعائهم بلاهوتهم الذي خلعه عليه أتباعه المتأخرون. إن من بين معاني لفظة «خلق» القياس، والتحديد، والتصميم، والتشكيل، والصنع، والإيجاد، كما جاء في شرح الكلمات. وقد استعملت الكلمة في الآية بالمعنى الأول لها. فإن فعل الخلق بمعنى الإيجاد، لم ينسب في القرآن المجيد إلى أي كائن، إنما هو من شأن الله وحده دون شريك عليه السلام. والواقع أن القرآن المجيد قد أكد بشدة على أن صفة الخلق إنما هي صفة تفرد بها الله عليه السلام، وأعلن مرارا وتكرارا بأنه عليه السلام هو وحده الخالق لكل شيء، وكل من نُسب إليه الخلق ليس إلا مخلوقا لله، محروما من القدرة على خلق أي شيء. فمثلا، يقول تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد: ١٧)، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النحل: ٢١ و ٢٢)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (الحج: ٧٤)، ﴿وَإِخْذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤)، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (لقمان: ١١)، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا

خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٤١)، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ (الأحقاف: ٥). أما تلك الفكرة السخيفة التي يقال بمقتضاها إن صفة الخلق التي تفرد بها الله تعالى وحده يمكن أن يفوضها سبحانه إلى غيره مؤقتا، فإن القرآن المجيد يرفضها رفضا باتا؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَتَحَدَّوْنَ﴾ (النحل: ٧١ و٧٢)، ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر: ٣٩).

وعلى هدى ما سبق من بيان، وإذا تنبها إلى المعنى المجازي لكلمة (الطين) فإن قوله تعالى: ﴿وَأَخْلَقْ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني أنه إذا اتصل بالمسيح عليه السلام شخص عادي وضيع النشأة، ولكنه يمتلك القدرة الفطرية على النمو والارتقاء، وقبِلَ رسالته، فإن حياته تتحول تحولا كاملا، من رجل يتمرغ في الوحل، ولا يرى ما وراء اهتماماته الدنيوية وحاجاته المادية، فإذا به يتشكل طيرا محلقا في أجواء السماوات الروحانية. وهذا هو عين ما حدث. إن جماعة الصيادين في منطقة الجليل الذين كانوا محط الاحتقار لوضاعتهم، استحالوا إلى طيور محلقة، بفضل التأثير الكريم لتعاليم سيدهم، وأصبحوا هم أنفسهم معلمين ربانيين يرشدون بني إسرائيل، ويتحملون كل أنواع العذاب والأذى، ويقدمون التضحيات التي يزدان بها تاريخ أي أمة. يقول المسيح عليه السلام: «لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون. ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام. والجسد أفضل من اللباس. انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. أليس أنتم بالحرى أفضل منها» (متى ٦: ٢٥ و٢٦).

ويمكن أيضا فهم معجزة خلق الطير بشكل آخر. لقد كان القوم في عهد عيسى عليه السلام مغرمين بممارسة العلوم الغامضة الخفية كقوة التأثير في الناس وما أشبه. ومن المحتمل أن يكون الله تعالى قد أعطاه مثل هذه القدرة ليؤثر على الناس بما يجعلهم يصدّقون به ويؤمنون برسالته. وفي هذه الحالة تكون الآية أن عيسى عليه السلام صنع نماذج صغيرة من الطين على هيئة الطير، ثم أثر على الموجودين بالقدرة الخاصة التي وهبه الله تعالى إياها، بحيث بدت لهم تلك النماذج طيوراً تحلق في الجو. ولكنها لم تتحول إلى طير حقيقي، فما أن يضيع التأثير حتى تبدو كتلا من الطين مرة أخرى. وهذه المعجزة العيسوية تشبه معجزة العصا الموسوية، حيث بدت عصا موسى عليه السلام للحاضرين كأنها ثعبان حقيقي، ولكنها لم تكن كذلك في حقيقة الأمر. ومهما كانت دلالة الآية، فإن عيسى عليه السلام قد قام بها ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ولا يملك عيسى عليه السلام مقدرة على الخلق. (لمزيد من الإيضاح راجع كتاب إزالة الأوهام لسيدنا أحمد المسيح الموعود عليه السلام)

وبالنسبة إلى إبراء الأكمه والأبرص، فإنه يبدو من الكتاب المقدس أن من تصيبه بعض الأمراض كالبرص وغيره، كانوا يعتبرونه نجسا لا يُسمح له بمخالطة غيره من الناس. فإذا أخذنا كلمة ﴿أُثْبِرِي﴾ بمعنى «أعلن براءته وأطلق سراحه»، تكون دلالة العبارة إذن أن عيسى عليه السلام أزال ما كان يعانيه هؤلاء المرضى من ظلم التقاليد وإجحاف المجتمع. وإذا أخذت اللفظة بمعنى الشفاء من الأمراض المادية، فتكون دلالة الآية أن عيسى عليه السلام كان يشفي هؤلاء المرضى أيضاً. وكما أشير من قبل بأن عيسى عليه السلام كان يتكلم بالمجاز والأمثال، فكما أن الخلق كان خلقاً روحانياً، فإن المرض الذي كان يشفي منه مرض روحاني كذلك. إن رسل الله تعالى أطباء روحانيون. إنهم يمنحون البصر لمن فقدوا بصيرتهم، والسمع لمن صمّت أرواحهم، ويبعثون إلى الحياة من ماتت قلوبهم وضماؤهم. يقول (إنجيل متى ١٣: ١٦): «وَلَكِنْ طُوبَى لِعُيُونِكُمْ لِأَنَّهَا تُبْصِرُ، وَلَأَذَانُكُمْ لِأَنَّهَا تَسْمَعُ». فالأكمه هو الأعمى أو الذي لا يرى في الليل، وهذه الصفة ترمز إلى الشخص الذي يمتلك نور الإيمان ولكنه ضعيف لا يستطيع الصمود أمام الابتلاء؛ إنه يرى في النهار ما دامت شمس الإيمان مضيئة ولا يحجبها غمام الابتلاءات؛ أما عندما

يظلم الليل، وتنسدل عليه ستائر الامتحان، ويحتاج الأمر إلى التضحية والفداء، فإنه يفقد الرؤية الروحانية ويقف في مكانه لا يتحرك (قارن هذا بالآية ٢١ من سورة البقرة). وبالمثل فإن كلمة ﴿الأبرص﴾ تعني روحيا الشخص الناقص الإيمان، الذي يشوب جلده السليم بقع من الجلد المريض. وحتى إذا أخذنا الكلمة بمعناها المادي، فإن هذا لا يضيفي على عيسى عليه السلام مقدرة خاصة؛ فإن جميع الأنبياء لهم المقدرة على شفاء مختلف الأمراض والآلام بواسطة الدعاء. ويكون الأكمه في هذا المفهوم هو المريض بعدم الرؤية ليلا أو المصاب بضعف في النظر.

ولا يعني قوله ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أنه قد قام فعلا بإعادة الحياة إلى من توفاه الله. إن الذين يموتون موتا حقيقيا لا يمكن مطلقا أن يعودوا إلى الحياة في هذه الدنيا. إن مثل هذا الاعتقاد يتعارض تعارضا تاما وتعاليم القرآن المجيد، إذ يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٠ و ١٠١)، ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٦)، ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٥٩ و ٦٠). وانظر أيضا قوله تعالى في (البقرة: ٢٩، غافر: ١٢، الجاثية: ٢٧). وأحاديث الرسول ﷺ أيضا واضحة بينة في هذه المسألة، فقد روي مثلا أن أبا جابر الصحابي الجليل قُتل في معركة أحد فحزن جابر حزنا شديدا، وقد كان شابا عندئذ، فعزاه الرسول ﷺ وقال له: «يَا جَابِرُ أَلَا أَخْبَرْتُكَ مَا قَالَ اللَّهُ لِأَبِيكَ؟ وَقَالَ يَحْيَىٰ فِي حَدِيثِهِ: فَقَالَ يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَشْهَدَ أَبِي وَتَرَكْتُ عِيَالًا وَدَيْنًا قَالَ أَفَلَا أَبْشُرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟ قَالَ بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا فَقَالَ يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ قَالَ يَا رَبِّ تُحْيِيَنِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ قَالَ يَا رَبِّ فَأَنْلِغَ مِنْ وَرَائِي قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾». (رواه الترمذي وابن ماجة)

إن الذين اعتُبروا موتى وأقامهم عيسى عليه السلام لم يكونوا حقيقة أمواتا، ويتجلى هذا أيضا في الأناجيل. وتلقى الحادثة الواردة في إنجيل (متى ٩: ٢٣ إلى ٢٥) بعض الضوء على هذا الموضوع: «وَلَمَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ الرَّئِيسِ، وَنَظَرَ الْمُرْمَرِينَ وَالْجُمُعَ يَضْجُونَ، قَالَ لَهُمْ: «تَنَحَّوْا، فَإِنَّ الصَّبِيَّةَ لَمْ تَمُتْ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ». فَضَحِكُوا عَلَيْهِ. فَلَمَّا أُخْرِجَ الْجُمُعُ دَخَلَ وَأَمْسَكَ يَدَهَا، فَقَامَتِ الصَّبِيَّةُ». والواقع أن رسل الله تعالى ما بُعثوا إلا لإحياء الموتى من الناحية الروحية، أي موتى القلوب والضمائر والأخلاق. إن إبراهيم وموسى وعيسى عليه السلام، وغيرهم، وفوق الجميع محمد نبي الإسلام ﷺ أحدثوا تحولا كاملا في حياة أتباعهم. وهذا الفعل في لغة الدين هو إحياء الموتى. أما بالمفهوم الحرفي للعبارة، فإن كلمة «الموتى» لا تعني بالضرورة من مات فعلا موتا طبيعيا، فإنها تعني أيضا الذين ماتوا روحانيا أو أخلاقيا أو حضاريا أو أدبيا. والقرآن الكريم يعبر صراحة عن منح الحياة إلى موتى الروح بإحياء الموتى: ﴿أَوْمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٣)، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٣)، ﴿لِنُحْيِي بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ (الفرقان: ٥٠)، ﴿لِنُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (يس: ٧١). وفي الآية ٢٥ من سورة الأنفال، تحدث القرآن عن الرسول ﷺ بأنه يعطي الموتى الحياة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. والمقصود بالحياة هنا هي الحياة الروحية والفكرية، إذ إن المسلمين لا يعتقدون بأن النبي ﷺ قد أعطى الحياة المادية لشخص مات.

ولقد سردت الآية الكريمة معجزات عيسى عليه السلام بترتيبها الطبيعي. فأول الأمر ذكرت التغيير في مظهر وطريقة الحياة لدى الذين اتصلوا به ولزموه. لقد تحولوا من أهل دنيا إلى رجال ربانيين؛ وارتفعوا وسموا من التراب إلى أجواء الفضاء. ثم ذكرت الآية بعض العلل والأمراض الروحانية الشائعة التي شفاهم منها المسيح عليه السلام، إذ حصل العميان على البصيرة الروحية، وشفى ذوو الآفات الجلدية من دائهم. وأخيرا أعلنت الآية أن

الموتى اكتسبوا حياة روحية جديدة على يد عيسى عليه السلام. وهذا الذي سرده الآية ليس ترتيباً طبيعياً فحسب وإنما هو نوع من التدرج في الترقى؛ بلغ ذروته بالنسبة لإصلاح الفرد عندما تمت معجزة بعث الموتى إلى حياة روحية جديدة. ولكن إذا أخذت الآية بمدلولها الحرفي، فلن يبدو منها أي ترتيب في حدوث تلك المعجزات. فأين الترتيب في أحداث كخلق الطير من الطين، وشفاء الأعمى والأبرص، وإحياء الموتى؟

والذروة الحقيقية في آيات المسيح أو معجزاته تأتي في قوله: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾. يقول أبو البقاء إن لفظي «نبأ» و«أنبأ» استعملتا في القرآن الكريم لإعلان الأمور المتصفة بالأهمية البالغة (أي الكليات). ويتضح من هذا أن عيسى عليه السلام قد أعلن لأتباعه أموراً ذات أهمية عظيمة. والعبارة المستعملة من أسلوب التشبيه، فكلمة ﴿تَأْكُلُونَ﴾ أي تخضعون وتغزون. فالعبارة ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ تعني أخبركم بما سوف تخضعون وتغزون. أي أخبركم بالفتوحات المقدّر لكم أن تقوموا بها في المستقبل. وقوله: ﴿وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ تعني وسوف أطلعكم على الأعمال التي يجدر بكم أن تخلفوها لذريعتكم من بعدكم.

والعبارة بأكملها لها دلالة أخرى. فيمكن أن يكون عيسى عليه السلام قد أخبر تلامذته بما يجب عليهم تناوله من طعام؛ أي ما يلزمهم إنفاقه لحاجاتهم الجسدية. وما يجب عليهم ادخاره؛ أي ما يجب ادخاره لأنفسهم من كنوز سماوية. وعبارة أخرى، أخبرهم عيسى عليه السلام أن عليهم الاكتساب من طريق شرعي شريف، وأن عليهم إنفاق مدّخراتهم في سبيل الله تعالى وألا يكنزوا للغد، بل يتركوا ذلك مَفْوضاً لله تعالى (راجع إنجيل متى ٢٥: ٦ و٢٦ الواردة آنفاً).

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِإِحْلَ
لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ
بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٥١

التفسير:

لقد جاء عيسى عليه السلام مصداقا للنبوءات السابقة التي وردت في التوراة. ولكنه لم يأت بشريعة جديدة، إذ هو تابع لموسى عليه السلام في هذا الشأن. وقد كان عيسى عليه السلام مدركا لحدود سلطانه الروحي، إذ قال «لَا تَطْنُثُوا أَنِّي جِئْتُ لَأَنْقُضَ النَّامُوسَ وَالْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لَأَنْقُضَ بَلْ لَأُكَمِّلَ. فَإِنِّي الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَرْوَلَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ.» (إنجيل متى ١٧: ٥ و ١٨). ولا يعني بقوله: ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ إحداث تغيير أو تبديل في الشريعة الموسوية، وإنما يقصد بذلك تحليل ما حرّمه اليهود بأنفسهم على أنفسهم. يقول القرآن المجيد في موضع آخر: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٦١)، ويقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ (الزخرف: ٦٤). وتوضح هذه الآيات الكريمة أنّ خلافا كان قائما بين الفرق اليهودية بشأن بعض المسائل تحليلا وتحريما، وأنهم بسبب خلافاتهم وظلمهم وعدوانهم حرّموا أنفسهم من بركات ونعم إلهية معينة. وجاء عيسى عليه السلام ليحكم بينهم ويقرر لليهود أين حادوا عن طريق الحق، ويكشف لهم عن الأفضال الإلهية التي حرّموا منها، ويبقيها لهم إذا هم اتبعوه وأطاعوه.

ومن بين المراجع الإسلامية من كتب التفسير، نجد ما يدعم تأويلنا هذا، إذ جاء في (ابن كثير) تحت هذه الآية ما مضمونه: إن عيسى عليه السلام لم ينسخ أي جزء من التوراة، إنما أعادهم إلى الأصل وأحل لليهود بعض الأمور التي اختلفوا حولها بطريق الخطأ. وفي البحر المحيط نجد ما مضمونه: ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ تشير إلى الأشياء التي حرّمها أحبار اليهود من بعد موسى عليه السلام، فجعلوا لابتداعهم قوة الشريعة. فجاء عيسى عليه السلام لإعادة الوصايا الحقيقية الواردة في التوراة كما أوحاها الله. وجاء في كتاب فتح القدير ما مضمونه: وقد اتبع عيسى شريعة موسى عليه السلام وكان يحفظ السبت، ويتجه إلى المعبد، وكان يقول لليهود: أنا لا أعلمكم حرفا يخرج عن تعاليم

الشرعة الموسوية، إني أرفع عنكم فحسب ما ألقى على كاهلكم من أوزار بسبب ابتداءاتكم بعد موسى.

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٢﴾

التفسير:

تدحض الآية فكرة التثليث وبنوة عيسى عليه السلام التي نسبها المسيحيون المتأخرون إليه. إن عيسى عليه السلام يعتبر نفسه إنسانا وعبدًا لله مثل جميع البشر.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ
أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ
اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

الْخَوَارِيُّونَ: جمع حواري وهو التلميذ، مشتقة من حار: أي عاد، رجع أو ارتبك وتحير. حار الثوب: غسله وأعادته ناصعا. الحواري: (١) الغاسل الذي يبيض الثياب؛ (٢) الذي امتحن فتبين براءته من الرذيلة والخطيئة؛ (٣) النقي المبرأ من الخلال السيئة والصفات الرديئة؛ (٤) الذي ينصح ويشير ويعمل بصدق وإخلاص؛ (٥) الصديق المخلص والمعين؛ (٦) الصديق المختار أو المعين لأحد الأنبياء؛ (٧) ذو قربي. وقد أطلق اسم الحواريين على تلامذة المسيح عليه السلام لأنهم أعانوه في مهمته، أو لأنهم اتصفوا بالسرية النقية والقلب الأبيض، أو لأنهم جعلوا قلوب قومهم بيضاء نقية بفضل تعاليمهم النبيلة وأسوتهم الطيبة، أو حسب اعتقاد البعض.. لأن منهم من احترق

مهنة غسل الملابس (معجم لين وأقرب الموارد ومفردات الراغب). ولقد استعمل القرآن لفظة (الحواريين) بمعنى المُعِينِينَ كما يتضح ذلك من سياق الآية.

التفسير:

تعني لفظة (الحواري) المعين الصادق والتابع المخلص للنبي. وفي حديث عن الرسول ﷺ نجده قد استعمل الكلمة في وصف واحد من صحابته المخلصين البارزين وهو الزبير بن العوام رضي الله عنه، الذي خرج وحده بجراً بطولية في إحدى المناسبات الخطيرة، وتوجه إلى معسكر الأعداء في ليلة باردة حالكة ليستقصي أخبار العدو (البخاري).

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا
مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٤﴾

التفسير:

ولم يقتصر الحواريون على الإيمان الصادق والاستجابة القلبية لدعوة المسيح عليه السلام وإعانتته، وإنما شهدوا على صدقه بالقول والفعل، فكانوا أسوة طيبة في سلوكهم وفعلهم. وتوضح الآية كيف أن حواريي المسيح عليه السلام كانوا يعتبرونه رسولا لله، ولم ينسبوا إليه صفة اللاهوت.

وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٥﴾

شرح الكلمات:

مَكْرُوا وَمَكَرَ: أي دَبَّرَ ودَبَّرُوا. مكر أي: تآمر، ودبر، وخطط سراً ليخدع غيره؛ راوغ أو اتخذ وسيلة أو تدبيراً؛ مارس فناً أو دهاء أو مهارة في إدارة الأمور بتدبير وتبصر؛

حاول إيقاع الأذى سرًا. مكر الله: تعني أيضا: أبطل مكر الشخص أو القوم (معجم لين) راجع الآية ١٦ من سورة البقرة.

والمكر نوعان: مكر محمود يقصد به تدبير الخير؛ ومكر مذموم: يراد به هدف سيئ (مفردات الراغب). وعلى ضوء ما تقدم فإن لفظة ﴿مَكْرُوا﴾ عندما تُستخدم في حق أعداء المسيح ﷺ تعني التدبير الشرير والخطط الذميمة بقصد القضاء على مهمته والعمل على إهلاكه؛ أما لفظة ﴿مَكَرَ﴾ من جانب الله ﷻ فتعني إحباط الخطط الشريرة التي حاكها اليهود، وإنزال العقوبة فوق رؤوسهم.

التفسير:

لقد دبر اليهود أن يموت المسيح ﷺ على الصليب ميتة تصيبه باللعنة حسب التوراة التي تقول: «وَإِذَا كَانَ عَلَى إِنْسَانٍ حَاطِيَّةٌ حَقُّهَا الْمَوْتُ، فَقُتِلَ وَعَلَّقَتْهُ عَلَى خَشَبَةٍ، فَلَا تَبُتْ جُثَّتُهُ عَلَى الْخَشَبَةِ، بَلْ تَدْفِنُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِأَنَّ الْمُعْلَقَ مَلْعُونٌ مِنَ اللَّهِ» (تثنية ٢١: ٢٢ و ٢٣)، ولكن الله تعالى دبر أن ينجو المسيح ﷺ من هذه الميتة اللعينة. ولقد حبطت خطة اليهود، ولكن تدبير الله أفلح، لأن عيسى ﷺ لم يمت على الصليب، إذ أنزل منه حيًّا ليموت بعد ذلك ميتة طبيعية عندما استوفى أجله، في أرض كشمير بعيدا عن موقع الصلب.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ سَلَامٌ عَلَيْكَ
إِلَى وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

مُتَوَفِّيكَ: من وفى: أتم أو أنجز؛ صدق. توفى الله زيدا: قبض روحه أي أماته. وإذا كان الله فاعلا، والإنسان مفعولا فإن كلمة (توفى) لا تعني إلا قبض الروح، سواء أكان ذلك في النوم أو الموت، راجع تفسير الآية ٢٣٥ في سورة البقرة. ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: مميتك، وهكذا فسرهما ابن عباس رضي الله عنه الفقيه الجليل وابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم (البخاري). وبالمثل يقول الزمخشري، وهو من نخاة العرب المشهورين: «تعني عبارة ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: أني منجيك من القتل على يد هؤلاء القوم، ومُوفيك أجلك الكامل المقدر لك، ثم أميتك ميتة طبيعية وليس قتلا» (الكشاف). والحقيقة أن جميع اللغويين العرب متفقون على هذه المسألة بأن التوفي لا يمكن أن يحتمل معنى آخر خلاف ما سبق. وليس هناك مثال واحد في التراث الأدبي العربي يجعل للكلمة معنى آخر، ويرى هذا الرأي عظماء الفقهاء والمفسرين من أمثال ابن عباس والإمام مالك والإمام البخاري والإمام ابن حزم والإمام ابن القيم وقتادة ووهب وكثير غيرهم (راجع البخاري كتاب التفسير باب الخلق، ومجمع البحار؛ والمحلى طبعة القاهرة ج ١ ص ٢٣، وزاد المعاد؛ والدر المنثور ج ٢ وابن كثير).

وجاء في «فتح البيان» أن المفسرين الذين حاولوا وضع معانٍ أخرى للفظة (توفى) غير ما سبق بيانه، فعلوا ذلك بسبب اعتقادهم أن عيسى عليه السلام قد رفع إلى السماء حيا، ولولا ذلك فإن الكلمة لا تحتمل معنى خلاف قبض الروح. وقد وردت هذه العبارة في القرآن المجيد بما لا يقل عن خمس وعشرين مرة؛ كان معناها قبض الروح عند الموت في ثلاث وعشرين منها. وفي موضعين فقط كان المعنى قبض الروح عند النوم، وفي هاتين المرتين جاءت قرينة لتصرف معنى كلمة «توفى» من معناها الأصلي إلى معنى قبض الروح عند النوم، وهذه القرينة في إحدى الآيتين هي كلمة «الليل» وفي الآية الأخرى كانت كلمة «النوم». يقول تعالى في الآية الأولى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦١)، ويقول سبحانه في الآية الثانية: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ (الزمر: ٤٣).

رَافِعُكَ: «رافع» اسم الفاعل من رفع. يقولون رفعه أي علاه، شرفه، عظمه. والرفع يقابل الوضع أي خفض وأنزل. وفي الحديث الشريف: «إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع أقواماً» (ابن ماجه)، أي يسمو به قوم ويتضع به آخرون. وقال عليه الصلاة والسلام: «من تواضع لله رفعه الله إلى السماء السابعة» (كنز العمال، ج ٢، ص ٢٥)، أي من تواضع لله عظمه الله وسما به إلى أعلى منازل الرفعة الروحانية. ولقد وصف القرآن المجيد يوم القيامة بقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ (الواقعة: ٤)، أي يعلو فيها مقام البعض وينحط مقام البعض الآخر. ويقول تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ (النور: ٣٧)، أي تُعَظَّم وتُحترم. ويقول ﷺ: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١١)، أي يُعَلِّي قدره. وندعو في صلاتنا اليومية «اللهم ارفعني» أي اعلِ منزلي لديك. والواقع أن فعل (رفع) عندما يُقال عن كائن ما، ويكون الرفع إلى الله تعالى، فإن المقصود هو إعلاء المنزلة الروحية، ذلك لأن الله سبحانه ليس مادة أو محصوراً في مكان، فلا يمكن أن يصعد شيء إليه.

وقد أنكر المسيح ﷺ بنفسه إمكان صعوده الجسدي إلى السماء فقال ﷺ: «وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، ابْنُ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ» (يوحنا ٣: ١٣).

التفسير:

ارتبطت الآية الكريمة بما قبلها بكلمة ﴿إِذْ﴾، وهي ظرف زمان بمعنى حين، أي ﴿اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وظهر ذلك جلياً حين كان عيسى ﷺ ضحية لمكايد أعدائه الذين تأمروا على صلبه ليدلّوا على أنه لاقى نهاية لعينة (التثنية ٢١: ٢٢ و ٢٣). فكان الله تعالى يقول: «لا يا عيسى، لن يُسمح لأعدائك أن يقتلوك على الصليب ليخطوا من شأنك ومن مكانتك الروحية. وإنما على العكس، سأमितك ميتة طبيعية، وسأُعلي من قدرك في حضرتي». هذا هو المعنى الوحيد الممكن الذي يتفق مع نص الآية. وللأسف، فإن هذه الآية هي واحدة من الآيات التي تعرضت لسوء الفهم، ووضعت

لكلماتها من المعاني ما لا تستطيع احتماله. والواقع أنه بسبب الامتزاج الواسع بين المسلمين والمسيحيين، ودخول الآلاف من المسيحيين في الإسلام، شاعت بين المسلمين فكرة أن المسيح عليه السلام قد رُفِعَ إلى السماء حياً، وأيد هذه الفكرة سوء الفهم لنبوءة نزول المسيح عليه السلام.

لا سبيل إلى نقض حقيقة أن المسيح عليه السلام ميت، وأنه ليس حياً في السماء. لقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتّباعي» (ابن كثير). ولقد حدّد عليه الصلاة والسلام سن حياة عيسى عليه السلام بأنها مئة وعشرون عاماً (كُنْز العمال). ولقد فنّد القرآن الكريم هذا الاعتقاد السخيف في أكثر من ثلاثين آية، أي اعتقاد الصعود الجسدي للمسيح عليه السلام وحياته المزعومة في السماء. وترتيب الألفاظ في هذه الآية لا يدع مجالاً للشك في وفاة عيسى عليه السلام، أي موته. لقد وعده الله تعالى بأربعة أمور: (١) نجاته من الموت على الصليب والموت بالأسلوب الطبيعي. (٢) التعظيم في حضرة الله تعالى. (٣) البراءة من اتهامات أعدائه الكاذبة. (٤) سيادة أتباعه على أعدائه. ولقد تحققت الوعود الثلاثة الأخيرة. فلماذا لا يكون الأول قد تحقق؟ إنه لمن العبث حقا القول بالتقديم والتأخير (أي قراءة الوعد المذكور أولاً بعد الوعود الأخرى) دون مبرر. ومن العبث أيضاً الادّعاء بأن كلمة ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ تعني «منيمك». إن التعبير القرآني ينفي مثل هذه الفكرة، والواقع أن مثل هذا التأويل يكاد يجعل معنى الآية هراء.

إن الآية تسرد بطريقة جميلة موجزة كيف أحبط الله تعالى كيد اليهود الذي أشارت إليه الآية السابقة. لقد دبروا أربعة أشياء:

- (١) قتل عيسى عليه السلام على الصليب.
- (٢) يمكنهم بعد قتله هذه القتلة أن يصموه بأنه مدّع كاذب للنبوة، ولذلك مات ميتة ملعونة على الصليب حسب حكم التوراة (التثنية ٢١: ٢٢، ٢٣).

(٣) تحروا كذلك أن يلصقوا به تهمة باطلة، وعلى الخصوص تهمة المولد عن طريق السفاح.

(٤) ثم يمكنهم بعد ذلك القضاء التام على دعوته. ولقد فشلوا تماما في كل مكرهم. فلم يمت عيسى عليه السلام على الصليب، بل مات موتة عادية، مُبَجَّلًا مُكْرَمًا بين أتباعه. ولقد بُرِّئَ من جميع تهمهم الزائفة، ووضع الله تعالى إلى الأبد في الزمرة المقدسة من عظماء النبيين. وأخيرا، كان أتباعه لقرون طويلة يضعون مكذبيهم من اليهود تحت أقدامهم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ يشير إلى المسيحيين، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني اليهود، ولما جاء الإسلام بعد ذلك، أصبحت عبارة ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ تشمل المسلمين بالطبع، لأنهم يؤمنون بصدق رسالة عيسى عليه السلام. ويخبرنا التاريخ أن المسلمين والمسيحيين كليهما تسيّدا اليهود كلما وأينما حدث بينهم اتصال.

ولسوف تتحقق تلك النبوءة الخاصة بتفوق المؤمنين بالمسيح عليه السلام على المكذبين به أتم تحقق وأكماله في زمن بعثة المسيح الثانية، والتي تمت في شخص أحمد المسيح الموعود عليه السلام الذي تشمل بعثته كل أمم العالم. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يمكن إذن أن تنطبق الآن على اليهود والمسيحيين والمسلمين والهندوس والبوذيين وغيرهم ممن يرفضون الإيمان بالمسيح الثاني، بل ويكفرونه، رغم أنه جاء مصداقا لنبوءات المسيح عيسى ونبى الإسلام محمد عليهما الصلاة والسلام. ولا عجب إذن أن تكون مثل هذه الآية الكريمة بكلماتها من بين ما تفضل به الله ﷻ من وحي إلى أحمد المسيح الموعود عليه السلام (إزالة الأوهام ص ١٩٢).

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٧﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تشير هنا إلى اليهود، وقد عانوا شدائد عظيمة عبر القرون. إن قصة آلامهم واضطهادهم على يد «تيطس» بعد حوالي أربعين عاما من حادثة الصليب تبدو تافهة، إذا قورنت بما تعرضوا له في بعض البلاد الأوربية في عصرنا الحاضر.

وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

التفسير:

انظر الآيات: النساء: ١٧٤؛ فاطر: ٣١؛ الزمر: ١١، ٧٠.

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ
وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٩﴾

التفسير:

إن قصة عيسى عليه السلام كما يرويها القرآن المجيد ليست مجرد حكاية تاريخية؛ وإنما يقصد بها إلقاء الضوء على الأحداث التي قامت عليها عقائد قطاع كبير من البشر، ولتكون درساً نافعا للمستقبل، عند تدبر آياتها وتذكر حكمتها.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ
مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾

التفسير:

إن لفظة ﴿مَثَلٌ﴾ أي: حالة استعملت لتعبر عن المشابهة، وهي أنواع ودرجات مختلفة. فالشبهان قد يتساويان، وقد يفوق أولهما الثاني. فليس من اللازم أنه عندما يُشَبَّه شيء بآخر أن يساويه تماماً أو حتى يماثله من كل الوجوه. فلا داعي إذن للمبالغة في فهم المماثلة بين آدم وعيسى عليه السلام.

إن لفظة ﴿آدَمَ﴾ في الآية الكريمة ترمز أولاً للبشر، أي بني آدم. وهكذا تعلن الآية أن عيسى عليه السلام يماثل بني آدم الذين خلقوا من تراب ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ (غافر: ٦٨)، وعلى ذلك فليس فيه من الألوهية شيء. وإذا أُخِذت لفظة ﴿آدَمَ﴾ بمعنى أبو البشر، فتكون المشابهة بين آدم وعيسى عليه السلام أن كليهما جاء من غير وساطة والد. وفي هذه الحالة لا يؤثر وجود أم لعيسى عليه السلام في المشابهة بين الاثنين، وليس من الضروري أن تكون المشابهة كاملة من كل الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تبين أن الأمر الإلهي لا يشير إلى مولد عيسى عليه السلام، لأن الخلق قد تم فعلاً حسب قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وإنما يشير الأمر الإلهي إلى موضوع موته. ولا غرابة في استعمال لفظة ﴿كُنْ﴾ بالنسبة للموت. إن تعاليم الإسلام لا تجعل من الموت نهاية الحياة الإنسانية، وإنما هو مجرد تحوّل إلى بدء حياة جديدة. فمعنى الآية إذن أن الله تعالى خلق عيسى عليه السلام وأتم له عمره المقدّر له في الدنيا، ثم أماته وقبض روحه إلى الحياة الجديدة. وقوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يمكن أن يكون إشارة إلى خلق الروح لعيسى عليه السلام بعد أن كان مضغّة في رحم أمه. وقد تكون الإشارة في العبارة إلى البعث الروحاني، أي بعد أن خلقه الله تعالى في صورة بشرية دعاه سبحانه ليكون نبياً، فكان كما أمر الله؛ وهذه هي قمة تكوّنه الخلق. وأياً كان المعنى، فإن الآية دحض واضح للاعتقاد المسيحي في ألوهية المسيح عليه السلام على أساس مولده غير العادي.

أما موضوع الخلق ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾ فسنتناوله بالتفسير المناسب عندما نأتي إلى الآيات الخاصة بالخلق.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِّنَ الْمُفْتَرِينَ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

الْمُفْتَرِينَ: (١) الذين يساورهم الشك؛ (٢) المنازعين المعترضين، راجع أيضا الآية ١٤٨ من سورة البقرة. وكلا المعنيين منطبق في هذه الآية.

التفسير:

من معاني كلمة ﴿الْحَقُّ﴾ الحقيقة الواقعة الثابتة الصادقة، راجع الآية ١٤٨ من سورة البقرة، والآية ٤ من آل عمران. وتلمح الآية الكريمة إلى أن الحقيقة الصادقة قد ثبتت بغير شك ولا مجادلة بأن عيسى عليه السلام لا يختلف في شيء عن غيره من البشر الذين مآلهم إلى الموت، فليس هناك احتمال حقيقي للشك أو لنزاع في الرأي بصدد هذا الأمر.

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ
الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ
فَنَجْعَلْ لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

نَبَّهْلٌ: مشتق من بهل. يقال بهله: تركه لمشيئته؛ خلاه لنفسه؛ لعنه. ابتهل: دعا أو تضرع بتواضع وحرارة وحماس، بجهد وقوة. باهله: لاعنه، لعنة متبادلة. مباهلة: استئزال لعنة الله تعالى المتبادلة بين طرفين بقصد أن تصيب المجرم منهما (أقرب الموارد ومعجم لين).

أَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ: أنفس جمع نفس، وتعني: أرواحنا وأرواحكم؛ أو نحن وأنتم؛ أو قومنا وقومكم؛ أو أهل ملتنا وأهل ملتكم، راجع الآية ٥٥ من سورة البقرة، والآية ٢٩ من آل عمران. وفي هذه الآية تعني العبارة المعنى الأخير: أي أهل ملتنا وأهل ملتكم.

التفسير:

تختم الآية باب المناقشة في التعاليم المسيحية التي بدأت بها السورة. والإشارة هنا إلى وفد نصارى نجران الذي كان يضم ستين شخصا، وعلى رأسهم زعيم اسمه (عبد المسيح) المعروف بالعاقب. قابل الوفد رسول الله ﷺ في مسجده بالمدينة، وطال النقاش معهم في موضوع ألوهية عيسى عليه السلام. وعندما تم بحث الموضوع، وتبين إصرار الوفد على عقيدة تأليه عيسى الباطلة، قام الرسول ﷺ، حسب الأمر الإلهي الوارد في هذه الآية الكريمة، بدعوتهم إلى أن يشتركوا معه في رفع الدعاء المذكور إلى المولى ﷺ كحل أخير لحسم الموضوع. ويسمى هذا النوع من الدعاء «بالمباهلة». ولكن المسيحيين لم يكونوا على ما يبدو واثقين من سلامة الأساس الذين يقفون عليه، ولذلك رفضوا قبول التحدي، وفي هذا اعتراف غير مباشر من جانبهم ببطلان عقيدتهم (الزرقاني، وخميس، البيان، تفسير الآية ٣ من آل عمران). وفي هذه المناسبة أحضر النبي ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم (خميس والزرقاني) وأبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم (ابن عساكر) إلى ميدان المباهلة، ويروى عنه ﷺ أنه قال ما معناه: «لوقبلوا المباهلة لأنزل الله بهم عقابا يهلكهم قبل أن يمضي عام» (البخاري، مسلم، الترمذي).

وينبغي ملاحظة أن المقصود من المباهلة معرفة حكم الله تعالى في الخلافات العقائدية الأساسية. فعندما تفشل الوسائل الأخرى في حسم الخلاف، يتجه الفريقان إلى الله العليّ القويّ ليحكم بينهما طبقاً لسنة الأزلية في نصره الصالحين وإهلاك الأشرار. فالمباهلة ليست سباً متبادلاً، وإنما هي تضرع حار إلى المولى القدير ليحق الحق ويهلك الباطل، ليبرر العضو الفاسد إنقاذاً للجسد الصحيح، فالمباهلة إذن أمر خطير جداً، ولا يجب اللجوء إليها إلا في الحالات النادرة فقط، وعلى أساس من الشروط التالية المستنبطة من الآية الكريمة وأقوال الرسول ﷺ:

(١) أن يكون موضوع النزاع أمراً عقائدياً أساسياً بالغ الأهمية، قائماً على نصوص بيّنة معتمدة.

(٢) أن تُبحث المسألة موضوع النزاع وتُناقش حتى تُستوفى بين الطرفين.

(٣) أن تكون المباهلة بعد إصرار كل من الطرفين على رأيه، ويكون هذا إقراراً من كل فريق ببطلان عقيدة الفريق الآخر.

(٤) لإجراء المباهلة يجتمع الفريقان سوياً في مكان مناسب، يصحبهم أفراد أسرهما وعدد من أهل عقيدتهما، ثم يتضرعوا جميعاً إلى الله تعالى أن يُنزل لعنته على الفريق المصّر على الباطل.

ولا تُلقى الآية ضوءاً على الكيفية التي يحل بها عقاب الله تعالى بالفريق الذي يكون على الباطل، ولا بالزمن الذي يحل فيه ذلك العقاب، فالأمر كله بيد الله تعالى. ويمكن الاستنتاج من الحديث المذكور آنفاً، أنه إذا كانت هناك فترة زمنية محددة لنزول العقاب الإلهي، فإنها لا تقل عن عام كامل، ولكن طبيعة العقاب تبقى دائماً رهن مشيئة الله ﷻ. إن القاضي السماوي سبحانه ينفذ إرادته في كل حالة بمفردها كيفما يشاء. والنتيجة سوف تتحدث عن نفسها.

وتجدر أيضاً ملاحظة أن الرسول ﷺ، أثناء نقاشه مع وفد نجران المسيحي، قد سمح لهم أن يؤدوا صلاتهم الخاصة في المسجد، فاتجهوا إلى الشرق في الصلاة. ولعل في هذا تسامحاً دينياً لا مثيل له في تاريخ الديانات كلها (الزرقاني).

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصُّ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا
اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

الْقَصُّ: مصدر من قصّ. قصّ الشعر: جزّاه أو هدّبه، قصّ عليه الخبر، تلاه أو حكاه. قص أثره: تبعه أو اقتفاه. قَصَصُ: فعل التلاوة أو الرواية؛ ما يُروى أو يُتلى؛ الاقتفاء. قِصَص (بكسر القاف): جمع قِصَّة وهي الحكاية أو الرواية (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تكرر هذه الآية بصورة جزئية معنى الآية ٦١ السابقة. ذلك لتترك في ذهن القارئ انطبعا عن أن نكوص الوفد المسيحي عن قبول التحدي والدخول في المباحلة هو بمنزلة الختم على وثيقة انتصار الإسلام على المسيحية حقاً، وما من إله إلا الله الذي ليس بحاجة إلى ولد أو معين، لأنه سبحانه هو العزيز الحكيم.

وتقرر الآية أن الحقائق التي رُوِيَتْ في الآيات السابقة هي الرواية الصادقة الصحيحة عن عيسى عليه السلام، وليست تلك الترهات المستحيلة التي نسبها إليه أتباعه بسبب محبتهم الزائدة له، أو وصمه بها أعداؤه من فرط كراحتهم له.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٥﴾

التفسير:

ولكنهم إذا أعرضوا، فتذكر أن الله ﷻ يعلم جيداً شأن فاعلي الفساد. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ تتضمن إنذاراً خطيراً. إن الله تعالى يعلم كل صغيرة وكبيرة، خفية وبينة من أعمال المجرمين، وسيحاسبهم بمقتضاها.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا
وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن
تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٥﴾

شرح الكلمات:

أَرْبَابًا: جمع رب أي سيد معبود، راجع سورة الفاتحة. رب: تعني المعبود، المالك؛ الرئيس والحاكم المطاع؛ المربي، الحاضن، المطعم (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

اعتبر البعض، بطريق الخطأ، أن هذه الآية تعطي أساساً للمواءمة بين الإسلام من جانب والمسيحية واليهودية من جانب آخر. واحتجوا بأنه إذا اتحدت هذه الديانات في الإقرار بوحداية الله تعالى، فإن الآية تبيح أن نغض الطرف عن بقية التعاليم الإسلامية إذ أنها ثانوية في أهميتها. وليس هناك ما هو أبعد من الحقيقة من هذا الزعم. إن القرآن المجيد والأحاديث النبوية الشريفة ووقائع التاريخ تجمع كلها على تكذيب هذه الفرية الحمقاء. إن أي ديانة، تستحق أن تسمى ديانة، لا يمكن أن تُفَرِّط في مسائل العقيدة للمواءمة مع غيرها، وعلى الخصوص مع قوم أدينوا عقائدهم في الآيات السابقة بكل شدة، وتحذاهم القرآن المجيد بقوة أن يُقَدِّموا على دعاء المباهلة

لإنزال اللعنة على الكاذبين. وعندما كتب الرسول ﷺ رسالته ليبلغ دعوته إلى هرقل، اقتبس هذه الآية في كتابه الذي دعاه فيه بقوة إلى اعتناق الإسلام، وأنذره بعقاب الله تعالى إذا أعرض عن قبول دعوته (البخاري).

من هذا يتبين، بغير شك، أن مجرد الإيمان بوحداية الله لا يكفي في نظر الرسول ﷺ لنجاة هرقل من عذاب الله. ويعلن القرآن المجيد بقوة في موضع آخر: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ٢٠)، وأيضا يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٦). فهل هناك ما هو أوضح وأبين من ذلك؟.

الحقيقة أن المقصود من الآية هو اقتراح وسيلة سهلة بسيطة يستطيع اليهود والمسيحيون عن طريقها التوصل إلى قرار سليم بالنسبة لصدق الإسلام. إن المسيحيين رغم ادعائهم التوحيد، قدموا ولاء أعمى للكهنة والربانيين، وجعلوا منهم في الواقع أرباباً من دون الله، والآية الحالية تحثهم جميعاً أن يتوبوا ويعودوا إلى عقيدتهم الأصلية عن توحيد الله، ونبد عبادة الآلهة الباطلة التي تقف حائلاً دون الدخول في الإسلام. فليس الهدف إذن هو التوفيق بين الإسلام وتلك الديانات، وإنما الغرض هو دعوة المسيحيين واليهود إلى دين الإسلام، عن طريق لفت انتباههم إلى مبدأ وحدانية الله ﷻ، التي هي أساس مشترك ولو من ناحية الشكل، بين تلك الديانات وبين الإسلام، ويمكن أن تكون أساساً لالتقائهم ثم دنوهم من الإسلام فيما بعد.

وعلى نفس هذا الدرب سار المسيح الموعود أحمد ﷺ في دعوته (رسالة الإسلام) التي عرضها على الهندوس في الهند لعقد اتفاقية مع المسلمين، يحترم بمقتضاها الهندوس نبي الإسلام محمد ﷺ ويجلونه، ويعتبرونه رسولا من رسل الله، كما يؤمن المسلمون من أتباعه بأن راما وكرشنا من صفوة المختارين من الله تعالى.

ولقد أُكِّدت الآية تأكيداً خاصاً على وحدانية الله تعالى؛ وهو مبدأ أجمعت عليه من الناحية النظرية كل الديانات السماوية. أما من الناحية التفصيلية فلن تجد ديانتين متفقتين بخصوصه. إن معظم الأديان تزعم أنها توحيدية، وتحت هذه الستارة الظاهرية يكمن الشرك والوثنية في أحط صورها. إن الإسلام السمح وحده دين التوحيد الحق، الخالص من أي شائبة، والذي يُدين الشرك بالله في كل مظاهره، سواء كان شركاً في الذات أو الصفات أو الأفعال أو استحقاق العبادة. وللأسف الشديد، رغم أن الإسلام هو دين التوحيد النقي، فإن بعض مسلمي العصر الحديث قد انزلقوا إلى حمأة ليست إلا عبادة الأصنام بأوسع معانيها.

وجدير بالذكر في هذه المناسبة أن كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل الذي دعاه فيه إلى الإسلام قد اكتُشِفَ حديثاً، وتبين أنه يحتوي على نفس النص الذي رواه البخاري (مجلة مقارنة الأديان ج ٥ عدد ٨). وفي هذا دليل قوي على صحة كتاب البخاري كمرجع أساس، وتفوقه على غيره من كتب الحديث المعتمدة في هذا المجال.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ
وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾

التفسير:

قوله: ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أي في شأن ديانة إبراهيم عليه السلام. إنه لم يكن تابعا للتوراة أو الإنجيل، لأن الكتابين نزلا بعده بزمان طويل. ولا يزال أهل الكتاب يتنازعون فيما بينهم، يدّعي كل منهما أن إبراهيم عليه السلام كان على دينه.

هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ
تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

التفسير:

تقدم الآية توبيخاً إلى اليهود الذين أصبحت المنازعة والجدل الديني لديهم عادة وهواية. فتقول الآية في معرض التوبيخ: ألم تشعب شهيتكم الجدلية من النزاع والشجار حول المبادئ الخاصة بكتابكم التي تعرفون الجدل فيها، حتى تتطفلون على أمور لا تعلمون عنها شيئاً؟ والإشارة في قوله تعالى: ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ قد تكون إلى التعاليم القرآنية أو إلى ادعائهم عن إبراهيم عليه السلام الوارد في الآية السابقة.

مَا كَانَتْ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا
وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

حَنِيفًا: دائم الميل إلى الله تعالى. راجع الآية ١٣٦ من سورة البقرة.

التفسير:

لو أمكن القول بانتساب إبراهيم عليه السلام إلى أحد هذه الأديان لكان دين الإسلام، لأنه:

- (١) الإسلام اسم يحمل روح عقيدة الخضوع والطاعة لله.
- (٢) لأن إبراهيم عليه السلام استعمل كلمة «مسلم» في حق نفسه، وفي حق ابنه اسماعيل عليه السلام، الذي جاء سيدنا محمد ﷺ من ذريته (البقرة: ١٢٩).

(٣) لأنه دعا أن تكون من ذريته أمة مسلمة، ومن الواضح أنه لم يكن مسلماً بمعنى إنه اتبع شريعة الإسلام التي جاء بها الرسول محمد ﷺ بكل تفاصيلها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يُعْرَضُ باليهود والنصارى، الذين رغم ادعائهم التوحيد، فإنهم يمارسون الشرك فعلاً، ثم لا يترددون في الزعم بأن إبراهيم عليه السلام كان منهم.

إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا
النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

أولى: أقرب، أخرى. راجع الآية ١٣٦ من سورة النساء.

التفسير:

ولو أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، كما لم يكن من الناحية التاريخية مسلماً، لأنه عاش قبل هذه الديانات بقرون عديدة، إلا أنه لو أخذ في الاعتبار روح العقيدة، فإنه كان أشد قرباً وانتماءً إلى الإسلام ورسول الإسلام ﷺ. لذلك ليس من حق اليهود أو النصارى الانتساب إلى أبوة إبراهيم عليه السلام الروحية وهم يتخذون من العقائد والطقوس ما يناقض تعاليمه.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٠﴾

التفسير:

إن البساطة والاستقامة والكمال التي يتّصف بها الإسلام، كثيرا ما تخلق شعورا قويا بالتقدير والإجلال في قلوب أهل الكتاب، فيجدون أنفسهم مدفوعين بشعور لا يقاوم في الانجذاب نحو الإسلام. وبسبب عداوتهم وغيبتهم، يتخذ تقديرهم هذا صورة غريبة، وإن كانت مفهومة من الناحية السيكولوجية، فيتمنون لو أصبحوا مسلمين مثلهم.

ولو فهمنا معنى «الضلالة» بمعنى الدمار، راجع الآية ٢٧ من سورة البقرة، فإن قوله: ﴿يُضِلُّونَكُمْ﴾ يعني يقودونكم إلى الهلاك، ولكنهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي أنهم بمحاولتهم إلحاق الدمار بالمسلمين فإنهم يلحقون الهلاك بأنفسهم، لأن نهضة أحد تعني دمار عدوه.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧١﴾

التفسير:

إن رفض آيات الله تعالى إثم يشين مرتكبه، ولكنه يكون أشد قبحا وانحطاطا إذا كان الكافر شاهدا بنفسه على هذه الآيات الربانية.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾

التفسير:

إن بوسع أهل الكتاب أن يتبينوا بسهولة، من طريق الآيات المذكورة في أسفارهم وكتبهم، أن محمداً عليه صلوات الله وسلامه هو حقا النبي الموعود. ولكنهم بسبب البغضاء والحسد يتعامون عن معرفته، ويصرون على خلط الحق بالباطل بدلا من قبول الحق في صورته النقية الخالية من الشوائب.

وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا
بِاللَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ
وَأَكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٣﴾

التفسير:

تشير هذه الآية إلى إحدى محاولات اليهود تضليل المسلمين. ومحاولتهم هذه ترجع إلى حيلة ماكرة من جانبهم بقصد توجيه ضربة إلى قوة الإسلام الصاعدة. لقد كان العرب الوثنيون يحملون تقديرا واحتراما لليهود بسبب علومهم الدينية. ولقد أساء اليهود استغلال هذه الميزة وحاولوا عن طريقها صرف المسلمين عن دينهم. فدبروا التظاهر باعتناق الإسلام أول النهار والجحود في آخره. ويقصدون من تدبيرهم هذا أن يعتقد العرب الأميون بوجود عيب خطير في الإسلام. ولولا ذلك ما أسرع اليهود العالمون بالتخلي عنه. ولقد تعرضت كل الديانات لمثل هذه الحيل ولكنها لم تنجح قط.

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنَّهُ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ

مَا أَوْتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ
إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٤﴾

التفسير:

إن صياغة تركيب هذه الآية وإن بدت معقدة بعض الشيء، فقد قصد بها أن تحمل تفسيرات متعددة، وسنسوق هنا أوضحها:

(١) قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ استمرار لخاتمة الآية السابقة. ثم تأتي جملة اعتراضية، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوْتِيتُمْ﴾. ويأتي بعد ذلك قول اليهود ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾. وأخيرا تنتهي الآية بالأمر الإلهي ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وهذا الأسلوب من خصائص القرآن المجيد، والهدف منه أن يترك أثرا نفسيا طيبا.

إن الجملة الاعتراضية التي أمر المسلمون أن يقولوها ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى... مَا أُوْتِيتُمْ﴾ تناقض تماما قول اليهود: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾. إن اليهود يجعلون الرب معبودا قوميا لهم، ويحرمون كل من سواهم من فضله، ولكن المسلمين يؤمنون بأن الله تعالى رب العالمين، ومن كمال عظمتة أن يهب فضله بأي شكل يشاء، وإلى أي قوم يشاء، ويؤمنون أيضا بأن الإسلام دين الله الذي يحمل الهداية الربانية إلى العالم كله، وباب الدخول إليه مفتوح لجميع الشعوب. أما قول اليهود: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ فيعني أنه لو دخل اليهود أي دين آخر غير دينهم فإنهم بذلك يصبحون مذنبين أمام ربهم، لأنهم بذلك يقدمون اعتراضا ضمنيا بأن فضل الله تعالى متاح لغيرهم، ولهذا فهم معرضون لعقاب

الله تعالى برفضهم الإسلام. وتعني العبارة ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ بأن نعمة النبوة في يد الله ﷻ وحده يهبها لمن يستحقها.

(٢) والتفسير الثاني أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ يعني أن الهداية الحقيقية هي هداية الله تعالى، وهي جملة اعتراضية، وأن العبارة ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ جزء من قول اليهود. وفي هذه الحالة تعني الآية أن اليهود يقول بعضهم لبعض إن الهداية التي جاءت من طريق بني إسرائيل أو النعم التي وهبت لهم لا يمكن أن تمنح لقوم غيرهم؛ وأنها ميزة اختصت بها ذرية إسرائيل. (٣) والتفسير الثالث أن يُعتبر قول اليهود ينتهي عند عبارة ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾؛ وتُعتبر بقية الآية من قول الله ﷻ على لسان المسلمين. وفي هذه الحالة يكون معنى العبارة واضحاً إذا قدرنا وجود لفظة «فتقبلوه» قبل ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ أي فتقبلوه أو يحاجوكم أمام ربكم. وتكون دلالة الآية أن الهداية الحقة هي الهداية القرآنية، فإما قبلها اليهود وآمنوا بها، وإما قدم المسلمون واليهود قضيتهم أمام الله تعالى ليقضي فيها عن طريق المباهلة مثلاً، كتلك المباهلة التي أشير إليها في الآية ٦٢ السابقة.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٥﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿الْفَضْلُ﴾ إشارة هنا إلى نعمة الوحي الإلهي. وهذا اختبار لأهل الكتاب بأن الله ﷻ إذا شاء أن ينعم على قوم غيرهم، فليس لهم أن يتذمروا أو أن يضجوا بالشكوى. وقوله: ﴿الْعَظِيمُ﴾ أي الوافر، وصف يناسب أفضال الله تعالى ونعمه التي تنزل على كل الناس، مرة على هؤلاء ومرة على أولئك. ويلمح قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ إلى أن الوقت قد حان لنزول ديانة عالمية لكل بني البشر.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ
يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ
إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

التفسير:

إن عبارة ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّينَ سَبِيلٌ﴾ أي ليس علينا لوم في تصرفنا تجاه الأميين، تشير إلى فكرة سائدة بين اليهود في وقت الرسول ﷺ أنه ليس عليهم خطيئة إذا ما سرقوا ممتلكات أحد من وثنيي العرب، لأن هؤلاء يدينون بدين باطل. واعتقد اليهود بأنهم أحرار في فعل ما يشاؤون مع المسلمين، ولن يحاسبوا على فعلهم هذا. ويحتمل أنهم قد اتخذوا هذه العقيدة الغريبة على أساس من شريعة الربا اليهودية، التي تفرق تفرقة بغیضة بين اليهود وغير اليهود فيما يتعلق بالمعاملة الربوية؛ فهي تحرم الربا مع اليهود وتبيحه مع غيرهم، إذ تقول التوراة «لِلْأَجْنَبِيِّ تَقْرِضُ بِرَبًّا، وَلَكِنْ لِأَخِيكَ لَا تُقْرِضُ بِرَبًّا» (الخروج ٢٢: ٢٥؛ اللاويين ٣٦: ٢٥ و ٣٧؛ التثنية ٢٣: ٢٠ و ٢١).

ويمكن أن تُفهم الآية بمعنى آخر إذا أخذت الكلمات ﴿تَأْمَنَهُ﴾ و﴿قِنطَارٍ﴾ و﴿دينارٍ﴾ بمعناها المجازي. إن الكتاب المقدس لا يحوي نبوءات بشأن بعثة نبي الإسلام ﷺ فحسب، وإنما يحوي التعاليم الواضحة إلى أهل الكتاب ليؤمنوا به عند بعثته. كان هذا أمانة في ذمتهم، فلما جاء النبي الموعود ﷺ رفض أهل الكتاب أن يخضعوا للحق إلا قلة منهم. وإلى هؤلاء القلة تشير الآية بأنهم يردون القنطار أي الكنز الذي ائتمنوا عليه. أما الذين رفضوا الإدعان لما في كتبهم من نبوءات بشأن الرسول ﷺ وكفروا برسالته، فقد

شبّهتهم الآية كالذي يرفض أداء دينارائِثين عليه إلا ﴿مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي إلا إذا أكرهتهم على الاعتراف بالحق بالحجة والجدل.

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾

التفسير:

تحت الآية المؤمنين ألا يقتدوا بالمثل السيئ الذي يُقدّمه اليهود، وأن عليهم أن يتعاملوا بالعدل مع جميع الناس على السواء. فينبغي على المسلمين أن يُوفوا بعهودهم ومعاهداتهم والتزاماتهم بإخلاص، وأن ينفذوا مواعيقهم على الوجه اللائق والأكمل. وتدحض الآية فكرة اليهود بأنهم فوق غيرهم من الأمم. وتضع قاعدة ذهبية بأن الناس جميعا متساوون، وأن الميزات والصفات الشخصية هي التي تفرق بين الأفراد. والواقع أن المنافسة بين الشعوب وما يترتب عليها من توتر وحروب ما هي إلا حصاد تلك الفكرة المهلكة، بأن بعض الشعوب أسمى من غيرهم بسبب جنسهم أو نسبهم. وتلمح الآية، بمعناها المجازي، بأن أهل الكتاب لن يستمروا مستمتعين بحبة الله تعالى ما لم يقبلوا مخلصين ما لديهم من حجة تتعلق بالنبي ﷺ ويدخلوا في الدين الجديد. (راجع الآية السابقة)

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا
يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾

التفسير:

إن الذين ينقضون عهد الله، وينكرون الدليل الحق، إنما يفعلون ذلك من أجل اكتساب بعض المنافع الدنيوية، وهو ثمن حقير حقا.

ولفظه ﴿خلاق﴾، وتعني النصيب الوافر من الطبقات، (راجع الآية ١٠٢ من سورة البقرة)، قد استعملت هنا لتبين أن المكذبين لن ينالوا من الأعمال الطيبة نصيبا كافيا لنجاتهم وخلاصهم؛ وإلا فإن القرآن المجيد يُصرِّح حقا بأن عمل الإنسان لن يضيع، خيرا كان أم شرا: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٨ و ٩).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَكْلُمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني أن الله سبحانه لن يكلمهم بكلمات الشفقة، ولن ينظر إليهم نظرة الرحمة والحنان.

والواقع أن نظرة الله تعالى إلى المرء لا تعني إلا الإنعام عليه برحمته وفضله؛ ولسوف يحرم من مثل هذه النظرة الإلهية أولئك الذين ينقضون عهد الله وينصرفون عن برهانه الحق. وقوله: ﴿لَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يعني أن الله ﷻ لن يصدر حكمه في شأنهم بأنهم أبرار.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ
لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَلُؤُونَ آلَ سِنْتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ يشير إلى عادة شريرة مارسها اليهود في عهد النبي ﷺ إذ كانوا يتلون فقرات باللغة العبرية بطريقة توهم السامع أنهم يقرأون التوراة. ولفظة ﴿الْكِتَابِ﴾ وردت في الآية ثلاث مرات بمعنى «فقرة باللغة العبرية» في أولها، «والتوراة» في الأخيرتين. وسميت الفقرة بالكتاب لأن اليهود حاولوا جعلها تبدو كأنها من الكتاب.

مَا كَانَتْ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا
عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا
رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا
كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٨٠﴾

شرح الكلمات:

رَبَّانِيِّينَ: جمع رباني وهو اسم نسبة لـ «رب»... كما يُقال: لحَيَانِي (أي طويل اللحية) من لحية... وشعراني (طويل الشعر) من شعر. وبالتدبير في المعاني المختلفة لكلمة «رب» (راجع الآية الثانية من سورة الفاتحة والآية ٦٥ من سورة آل عمران)؛ فإن كلمة «رباني» تعني: الشخص الذي ينذر أو يوقف نفسه لخدمة الدين؛ الذي يتفانى في العبادة؛ العارف بالله تعالى؛ العالم بالأمور الدينية؛ الإنسان الصالح؛ العابد لله تعالى؛ المعلم الذي يمد المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها؛ وقيل هو العالم الذي لا يعمل فحسب بما يعلمه، بل ينصح الآخرين به؛ العالم الراسخ في العلم؛ السيد؛ المالك؛ القائد؛ المُصْلِح (قاموس لين - سيويه - المبرد).

مَا كَانَ لَهُ: يستخدم هذا التعبير في اللغة للإشارة إلى المعاني الثلاثة الآتية: (١) لا يليق به؛ كما جاء في الحديث الشريف: «مَا كَانَ لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (البخاري)... أي لا يليق أن يؤم أبو بكر رضي الله عنه الصلاة في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٢) من غير المعقول أن يفعل هذا أو أن يكون قد فعله. (٣) من المستحيل أن يفعل هذا. المعنى الثاني هو المعنى المستخدم في هذه الآية الكريمة التي نحن بصدددها. (راجع أيضاً الآية ٣٥ من سورة البقرة)

التفسير:

إنه لمن غير المعقول بتاتا أن يرسل الله تعالى رسولا، ويُنزّل عليه كتابا من السماء لهداية الناس، ثم يقول للناس أن يتخذوه إلها من دون الله ﷻ. إن مثل هذا الافتراض يُعتبر أمرا مشينا في حق الله تعالى نفسه، إذ إنه ينقض الصّرح الذي أقامه الله تعالى حيث إنه اختار رجلا وجعله رسولا، فخرّب ذات العمل الذي كان من المفروض أن يقوم به ويؤديه، وبدلا من أن يدعو الناس لعبادة الله تعالى، راح يدعوهم لكي يعبدوه هو من دون الله. إن هذا أمر مستحيل الوقوع، فإن النبي يظل دائما وأبدا يحضّ الناس على أن يكونوا مخلصين في عبادة الله تعالى وحده.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ يشير إلى أنه من واجب كل هؤلاء الذين آتاهم الله تعالى المعارف الروحية والدينية أن يبلغوها إلى الآخرين، ولا يتركوهم يتيهون في غياهب ظلمات الجهل.

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ
أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

التفسير:

إن من أشد الذنوب وأقبحها أن يتخذ الإنسان الملائكة أو النبيين أربابا من دون الله تعالى، أو أن يضعهم في مقام الله ﷻ، والنبي الصادق الحق لا يمكن له أن يرتكب مثل هذه الخطيئة. ولا شك أنها من ذروة المستحيلات تصديق أن شخصا كانت مهمته التي كلفه الله تعالى بها أن يجعل من الكافرين مؤمنين، وكان لا يتردد أبدا في تحدي العالم كله ليحقق غرضه الذي أرسله الله تعالى من أجله، ولينجح في الوصول إلى هدفه النبيل الذي حدده تعالى له، فيجعل من الناس عبادا مخلصين لله تعالى، ثم يتحول بعد ذلك ليطلب منهم أن يتخذوه هو إلها يعبدونه من دون الله.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ
كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ
لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ
وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ
فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

مِيثَاقُ النَّبِيِّينَ: بحسب استخدامات اللغة؛ فإن قوله تعالى: ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ يمكن أن يشير إلى ذلك العهد المأخوذ من النبيين مع الله تعالى؛ أو ذلك العهد الذي أخذه الله تعالى على الناس عن طريق الأنبياء. وفي هذه الآية الكريمة التي نحن بصدددها؛ فإن المعنى الأخير هو المراد. ويؤيد هذا ما ورد من قراءة أخرى لـ «ميثاق النبيين» عن طريق أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما حيث قرأ أبي، وعبد الله: ميثاق الذين أوتوا الكتاب، بدل: النبيين (تفسير البحر المحيط). وهذا المعنى يؤيده ما جاء بعده من كلمات؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ

لِمَا مَعَكُمْ... فإن رسول الله ﷺ قد جاء للناس وليس لأنبيائهم. كذلك يدعم هذا المعنى واقع الأمر؛ فإنه عند بعثة رسول الله ﷺ كان الأنبياء الآخرون قد ماتوا من قبل ولا يمكن لهم بطبيعة الحال أن يناصروه أو يعينوه. لذا فإنه بلا معنى أن يؤخذ منهم - عليهم السلام - أي ميثاق بهذا الشأن.

التفسير:

تختص هذه الآية الكريمة بالأنبياء بوجه عام، كما أنها تختص أيضا بالرسول ﷺ بوجه خاص. وتضع الآية قاعدة عامة، وهي أن كل نبي يأتي تحقيقا للنبوءات المعينة التي ذكرها النبي السابق له، والتي حض أتباعه فيها أن يقبلوا النبي القادم بعده حينما يبعثه الله تعالى إليهم. فإذا جاء النبي تحقيقا للنبوءات التي ذكرها الكتاب المقدس لقوم واحد من الأقوام، كما كان الحال بالنسبة للنبوءات عن مقدم المسيح ابن مريم ﷺ مثلاً وبقية أنبياء بني إسرائيل، فإن ذلك القوم وحده فقط هو الذي يتعين عليه أن يؤمن بذلك النبي وأن يقوم بتأييده في مهمته ومساعدته على الوصول إلى غرضه؛ أما إذا تحدثت الكتب المقدسة جميعها عن مقدم نبي، كما هو الحال بالنسبة للرسول ﷺ، حينئذ ينبغي على جميع الأقوام أن يؤمنوا بذلك النبي.

إن ظهور الرسول ﷺ لم يحقق فقط نبوءات أنبياء بني إسرائيل (أشعيا ٢١: ١٣ إلى ١٥؛ التثنية ١٨: ١٨؛ والتثنية ٣٣: ٢؛ إنجيل يوحنا ١٤: ٢٥ و٢٦؛ وأيضا إنجيل يوحنا ١٦: ٧ إلى ١٣)، وإنما حقق أيضا نبوءات العارفين الآريين والبوذيين، والحكماء الزرادشتيين. ونجد النبوة التالية في الصحف المقدسة لأهل فارس التي تسمى «دساتير»: «عندما يبدأ أهل إيران في ارتكاب هذه الأعمال (الشريرة)، سوف يظهر بين العرب رجل يقوم أتباعه بالقضاء على تاج وعرش ومملكة وديانة إيران، وسيضع الرؤساء الأقوياء. وسيأخذ بيت خالٍ من الأصنام مكان بيوت الأصنام ومعابد النار، وسوف يتوجه الناس إليه في الصلاة». (سافرانغ دساتير ص ١٨٨، مطبعة سراجي، دلهي). وتعتبر كلمات النبوة من الواضح بمكان حيث لا تحتاج إلى أي شرح أو تعليق آخر.

وهناك نبوءة أخرى مذكورة في كتاب «جاماسبي»، وهو من تأليف «جاماسب»، الخليفة الأول لزرادشت. (جاماسبي، المطبوع بواسطة «نظام المشايخ»، دلهي، ١٣٣ هـ).

وجاءت كلمات الآية ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هنا (انظر شرح معنى الكلمة تحت الآية ٤٢ من سورة البقرة) لتقدم معيارا يمكن به التفرقة بين النبي الصادق والمدعي الكاذب، ولكن إذا أخذنا الجملة بمعنى «مؤكدًا لصحة ما معكم» أو «شاهداً على صدق ما معكم»، كما يفسرها البعض أحياناً، فإن هذا التأكيد وتلك الشهادة لا يمكن أن يكونا معياراً على صدق النبي الصادق أو كذب المدعي المتقول، إذ باستطاعة المدعي الكذاب أن يشهد على صدق الكتب المقدسة السابقة. لذلك لا بد أن يكون معنى الآية ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هو «محقق للنبوءات التي تحتويها الصحف المقدسة التي بين أيديكم»، وبهذا فقط يستطيع النبي الصادق أن يثبت صدقه، فليس في وسع المدعي الكذاب أن يحقق في شخصه النبوءات التي جاءت الكتب السابقة.

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٣﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ التي جاءت في هذه الآية الكريمة يمكن أن تفهم أيضاً على أنها تعني العصاة، أو أولئك الذين لا يوفون بوعودهم، فكل المعنيين صحيح.

أَفْغَيْرَ دِينٍ اللَّهُ يَبْغُوتَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٤﴾

التفسير:

كما أنه ينبغي على الإنسان أن يخضع للقوانين الطبيعية في العالم المادي، طوعاً أو كرهاً، وهو يعلم أن خضوعه لتلك القوانين يحقق مصلحته، كذلك فإنه من العقل والمنطق في الأمور الروحية التي له فيها بعض الحرية في الاختيار، أن يطيع القوانين والأوامر الإلهية لكسب رضا الله تبارك وتعالى، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى تحقيق مصلحة الإنسان الشخصية.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ
لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٨٥﴾

التفسير:

لقد رفض اليهود أن يؤمنوا بالأنبياء من غير بني إسرائيل، كما تدل على ذلك كلمات الآية ٧٤ المذكورة فيما سبق ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾. وتخير الآية الحالية اليهود أنهم بينما رفضوا الإيمان بجميع الأنبياء إلا أنبياء بني إسرائيل، فإن الإسلام يطلب من أتباعه الإيمان بجميع أنبياء الله تعالى، بصرف النظر عن البلد الذي ظهروا فيه، أو العرق الذي جاءوا إليه، أو المجتمع الذي ينتمون إليه، أو الزمن الذي عاشوا فيه. كذلك فإن الإسلام لا يطلب منهم الإيمان بالأنبياء السابقين فحسب، بل ينبغي عليهم الإيمان بأي نبي يأتي في المستقبل. ولا شك أن هذا يعتبر فرقاً شاسعاً بين عالمية الإسلام وضيق أفق التعاليم اليهودية.

وينبغي ألا تفهم كلمات الآية ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ على أنها تعني أن الإسلام يسوي في الدرجة بين جميع الأنبياء، فإن هذا المفهوم يناقض قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٤)، مما يدل على أن لبعض الأنبياء مقامًا يعلو فوق البعض الآخر. وعلى هذا فإن الآية تعني عدم التفريق في ضرورة الإيمان بجميع الأنبياء.

وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ
وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٦﴾

التفسير:

يزعم اليهود والنصارى أنهم غير ملزمين بالإيمان بالإسلام، لأن القرآن المجيد هو الذي جاء يشهد على صدق التوراة والإنجيل، ولم يأت التوراة والإنجيل ليشهدا على صدق القرآن الكريم. وبصرف النظر عن أن القرآن المجيد لم يأت لكي «يشهد» على صدق التوراة والإنجيل بالمعنى الذي يريدون أن يفهموه، فإن الآية الحالية قد دمّرت إحساسهم الكاذب بالأمن الذي يشعرون به، حيث إنها أعلنت بكل وضوح أن الإسلام هو الدين الوحيد المقبول لدى الله تعالى. وحتى لو أخذنا كلمة «الإسلام» بمعناها العام الذي لا يعني «الدين الإسلامي» وإنما يعني «الخضوع لله تعالى»، فإن الآية الحالية تجعل من الواجب على أهل الكتاب أن يتبعوا الدين الإسلامي، حيث إنه وحده الآن يمثل الإرادة الربانية.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ
وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

التفسير:

من المؤكد أن القوم الذين آمنوا أول الأمر بصدق نبي من الأنبياء وأعلنوا على الملأ إيمانهم وصاروا شهودا على الآيات الربانية الخاصة به، ثم بعد ذلك رفضوا ذلك النبي خوفا من الناس أو لاعتبارات دنيوية أخرى، فإنهم يفقدون حقهم في الهداية مرة أخرى إلى طريق الحق. وتضع الآية قاعدة هامة، وهي أن الله تعالى لا يترك أحدا للضلال إلا إذا ترك مثل هذا الشخص نفسه نهبا للكفر والفساد، دون أن يحاول إصلاح نفسه.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَتَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٨﴾

التفسير:

رجاء مراجعة شرح الآية ١٦٢ من سورة البقرة لفهم قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا
هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٩﴾

التفسير:

انظر تفسير الآية ١٦٣ من سورة البقرة.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٠﴾

التفسير:

إن اللعنة والعقاب المذكورين في الآيات السابقة يتوقفان على الظروف، ويستمران ما دامت الظروف التي تسببت فيهما.

وتبين كلمة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أن مجرد التوبة والندم على ما بدر في الماضي لا يكفي في ذاته لضمان العفو الإلهي، فإن على الخطاة أن لا يعبروا فقط عن الندم الحقيقي الصادق عن كل أخطاء الماضي، وإنما عليهم أيضا أن يتعهدوا بالتخلي عن مسالك الفساد وارتكاب الشرور في المستقبل. لا، بل عليهم أن يفعلوا أكثر من ذلك أيضا، إذ عليهم أن يقوموا بإصلاح الآخرين كذلك، لأن كلمة ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لا تعني أنهم أصلحوا من أنفسهم فحسب، بل عليهم أيضا أن يقوموا بإصلاح غيرهم (انظر الآية ١٦١ من سورة البقرة). فإذا كان المرء مخلصا في توبته، ومقدرا قيمة الفضائل من الأعمال، فإنه لا يستطيع أن يتوقف عند فعل الأعمال الفاضلة بنفسه فحسب، وإنما عليه أيضا أن يحاول حث غيره على القيام بصالح الأعمال، ولو على سبيل العمل على حماية المجتمع الذي يعيش فيه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ
أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩١﴾

التفسير:

لا تعني الآية الكريمة أن توبة المرتدين لن تُقبل بتاتا، فإن هذا الفهم يتعارض مع الآية السابقة التي تنص على أن التوبة مقبولة في كل مرحلة، فالمقصود بقوله تعالى: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ هو أن أولئك الأشخاص فقط الذين يتلفظون بالتوبة دون أن يكونوا صادقين في توبتهم، وبدلا من تعزيز توبتهم بالتغيير العملي في سلوكهم وحياتهم،

فإنهم في واقع الأمر يزدادون كفرا بالله تعالى وبعدا عنه. والكلمات التي جاءت في نهاية الآية ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ تؤيد هذا المعنى، لأنها تبين أنه رغم التلطف بالتوبة التي يتلطف بها أولئك الأشخاص فإنهم لا يزالون يتبعون طريق الإثم والفساد. لذلك، فإن مثل هذه التوبة ليست صادقة ولا يمكن أن يقبلها الله تعالى.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩٢﴾

التفسير:

تزيد هذه الآية الكريمة من شرح المعنى الحقيقي للتوبة ومدلولاتها. فما دام الموت لم يصب المرء بعد، وما دامت فرصة عمل الصالحات لا تزال موجودة ومتاحة، فإن باب التوبة يظل مفتوحا أيضا. ولكن إذا اكتفى الذين كفروا بمجرد التلطف بالتوبة، فلا يمكن أن تُقبل توبتهم ولا صدقاتهم. فإن لم يغمر القلب الإيمان الصادق الحق، فإن مجرد الأعمال الظاهرة حتى ولو كانت طيبة، فإنها لا تكسب رضا الله تعالى، حتى ولو أنفق المرء مقدارا كبيرا من الذهب.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٣﴾

شرح الكلمات:

البر: تعني التوسع في فعل الخير (مفردات الراغب). ولقد فسر الرسول الكريم ﷺ «البر» بأنه حُسْنُ الخُلُق (مسلم ومسنَد أحمد). (راجع أيضاً سورة البقرة: الآية ٤٥ والآية ١٧٨). وكذلك؛ لما كان الإيمان الحق هو الأساس لكل خير؛ فإن كلمة «البر» يمكن أن تعني أيضاً الإيمان الحق.

التفسير:

لما كانت كلمة «البر» تعني الخير والصلاح أو التقوى الكاملة أو الامتياز العالي من الأخلاق السامية، فإن الآية الكريمة تبين أن الله تعالى يعلم تماماً كل ما ينفعه المرء في سبيل كسب رضاه، ويجازي كل عمل بما يستحق. غير أن المرء يستطيع أن ينال الجزء الأوفى من الله تعالى إذا أنفق مما يحبه ويحرص على اقتنائه أو إبقائه في حوزته، سواء كان ما ينفق منه شيئاً مادياً أو معنوياً. ومن الواضح أن السبب في ذلك هو أن إنفاق المرء لما يحبه ويحرص عليه يقتضي القيام بتضحية كبيرة من جانبه.

تقول الآية السابقة: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾، وقد يظن البعض أنه لا طائل من الإنفاق في سبيل الله وأنه لن يحقق شيئاً. ولإزالة سوء الفهم المحتمل هذا تبين الآية الحالية أن الإنفاق في سبيل الله تعالى عمل عظيم، وأن إنفاق المرء مما يحبه عمل ينال قبول الله تعالى ويكسب رضوانه. أما الآية السابقة فهي تختص فقط بالذين كفروا وماتوا وهم كفار.

ويمكن تفسير هذه الآية الكريمة بطرق ثلاث:

(١) إذا أخذنا كلمة «البر» لتعني الإيمان الحق، تعني الآية أن الكفار يشغلون أنفسهم بأمورهم الدنيوية أكثر من انشغالهم بالله تعالى، ولذلك فإنهم لا يدركون حقيقة الإسلام وصدقه. وعلى ذلك يكون مقصود الآية هو أنه للوصول إلى الإيمان الحق، الذي هو ذروة التقوى وسمام الصلاح، لا بد للمرء أن يكون على أتم الاستعداد للتضحية بكل عزيز لديه في سبيل الله تعالى.

(٢) إذا أخذنا كلمة «البر» لتعني التقوى والصلاح على أتم وجه، يكون مقصود الآية هو أنه رغم أن الإنفاق في سبيل الله تعالى هو من الأعمال الصالحة، إلا أن المرتبة العليا من الصلاح والتقوى لا يمكن الوصول إليها إلا بالإنفاق مما يحبه المرء وما يكون عزيزا على نفسه.

(٣) وإذا أخذنا كلمة «البر» لتعني الأخلاق العالية والشمائل السامية، فإن الآية تعني أن هذه الشمائل السامية والأخلاق العالية لا يمكن أن تكتسب إلا إذا اتصف المرء بروح التضحية الحقة وكان على استعداد لتقديم كل غال ونفيس في سبيل الله تعالى.

وقد سجل التاريخ كما جاء في كتب الحديث الشريف أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة، وقف أحد صحابة الرسول ﷺ، وكان اسمه أبو طلحة رضي الله عنه، وقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ (وكانت هذه الحديقة تقع في مقابل المسجد في المدينة) وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بَرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَعُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ» (البخاري، كتاب التفسير). وتبين هذه الواقعة كيف أن المسلمين الأوائل كانوا يبذلون جهدهم في ممارسة أجل وأسمى الأعمال الصالحة، كما أمرهم الله تعالى في القرآن المجيد.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا
مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾

شرح الكلمات:

كُلُّ: إنها من الكلمات الشهيرة في اللغة العربية؛ وتأني بمعنيين: (١) جميع أفراد المجموعة. (٢) جميع أجزاء الشيء الواحد. كذلك قد تستخدم كلمة «كل» للتكثير والمبالغة؛ ونادراً ما تستخدم بمعنى «بعض» أو «جزء من» (أقرب الموارد وتاج العروس).

التفسير:

كانت الآيات السابقة تؤكد أهمية الخضوع الكامل لله تعالى والتسليم المطلق لإرادته، فإن بلوغ أعلى الكمالات والصالحات لا يتحقق إلا من خلال التضحية بكل ما هو غال ونفيس، سواء كان على الصعيد الفردي للمرء أو القومي للأمة. وتقدم الآية الحالية مثالا عمليا على ذلك. فرغم أن «كل الطعام» كان حلالا لبني إسرائيل، إلا أنهم حرّموا على أنفسهم بعض الأطعمة، وذلك لأن يعقوب عليه السلام قد امتنع عن تناول بعض الأطعمة نظرا لبعض الاعتبارات الشخصية أو المرضية. ولكن، لما كانت كلمة «إسرائيل»، التي تعتبر اسما ثانيا ليعقوب عليه السلام، تُطلق أيضا على أبنائه وسلالته كلها، وجاء هذا الاستعمال أيضا في الكتاب المقدس، فإنه من الممكن أن ينطبق معنى الكلمة على الفقرة الثانية من الآية الكريمة.

ويقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يدحض القرآن المجيد اعتراضا لأهل الكتاب كان يُشكل عقبة أمام قبولهم الإسلام. فقد كانت هناك بعض أنواع الأطعمة التي امتنع اليهود عن تناولها، غير أن الإسلام اعتبر أكلها حلالا، وكان أحد هذه الأطعمة هو «النَّسَا» الذي جاءت الإشارة إليه في سفر التكوين ٣٢:٣٢. وكان يعقوب عليه السلام يعاني من مرض «عرق النَّسَا» ولذلك فقد امتنع عن أكل «النَّسَا» لأسباب صحية. كان هذا يختص بشخصه، ولكن أبنائه قلدوه في ذلك تقليدا أعمى، وجعلوا من ذلك قاعدة عامة لنسلهم بالامتناع عن أكل عصب عضلة الفخذ. لقد كان ذلك أمرا تطوعيا بحتا، إذ لم تحرّمه الشريعة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأحداث التي أدت إلى امتناع إسرائيل عن أكل «النساء» وبالتالى تحريم أولاده له، كانت قد وقعت من قبل أن تنزل التوراة بزمان طويل. والتوراة نفسها لم تحرم أكلها، ولكنها تذكر أن عدم أكلها كان تقليدا شائعا بين اليهود، الذين لم يكن من حقهم أن يعترضوا على المسلمين بسبب تناولهم إياها. ولو صح ذلك الاعتراض لكان يُوجّه أيضا لإبراهيم عليه السلام وكثير من الأنبياء الآخرين. وبالإضافة لهذا، كانت هناك بعض الأطعمة التي كان يتناولها إبراهيم عليه السلام ونسله ولكنها حُرِّمت في التوراة فيما بعد، ويُعد لحم الجمل أحد الأمثلة على ذلك. وعلى هذا، فإن مقصود الآية هو أنه إذا كانت بعض الأطعمة التي كانت مباحة للآباء، قد أبيحت أيضا لأقوام آخرين، فليس من حق اليهود أن يعترضوا على إباحتها.

ولعله من المفيد هنا بيان أن هناك فرقا بين التعبير «كل طعام» والتعبير ﴿كُلِّ الطَّعَامِ﴾ الذي جاء في هذه الآية. فالتعبير الأول يعني جميع أنواع الأطعمة، وأما التعبير الثاني فيعني كل ذلك النوع المعين من الطعام. ويبدو أن اليهود قد اعترضوا على أن المسلمين يأكلون كل اللحم دون استثناء حتى العروق.

فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٥﴾

التفسير:

تشير كلمة ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الجملة التي جاءت في الآية السابقة. فإن القول بأن الله تعالى قد حرّم كذا وكذا من الطعام دون أن يكون الله قد حرّمه بالفعل، أو حتى مداومة الامتناع عن تناول طعام معين أحله الله تعالى دون سبب معقول، يُعدّ عملا مساويا لافتراء الكذب على الله تعالى، الأمر الذي لا يرتكبه إلا الفاسدون الأشرار من الناس.

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٦﴾

التفسير:

بالتأكيد على أن إبراهيم عليه السلام كان خاضعا على الدوام لطاعة الله تعالى، فإن الآية الكريمة تومئ إلى أنه لم يحرم تناول أي جزء من اللحوم من تلقاء نفسه، كما فعل بنو إسرائيل. والإسلام لا يدعو إلى شيء يختلف عما اتبعه أنبياء الله السابقون، وخاصة إبراهيم عليه السلام.

وبتأكيد الآية الكريمة على أن إبراهيم عليه السلام لم يشرك مع الله أحدا في عبادته، فإنها تُذكر اليهود بأنهم هم أنفسهم الذين أشركوا في عبادة الله تعالى وخالفوا دين إبراهيم عليه السلام، الذي كانت إرادة الله عز وجل كل شيء بالنسبة له.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

شرح الكلمات:

بَكَّة: هو اسم لوادي «مكة». على الأرجح قد اشتقت كلمة «بَكَّة» من الفعل «بَكَ».

يُقال بَكَّة: زاحمه أي دفعه في مكان ضيق ومزدحم. بَكَ عنقه: دَقَّ عنقه. تباك القوم على شيء: ازدحموا عليه. بَكَّة: اسم بطن مكة؛ سُميت بذلك لازدحام الناس ويُقال سُميت لأنها كانت تَبْكُ أعناقَ الجبابرة (أقرب الموارد).

يرى البعض أن كلمة «بَكَّة» هي نفسها كلمة «مكة» حيث تغير حرف الميم إلى الباء. إن حرفي الميم والباء متبادلان؛ كما في كلمتي: لازم ولازب.

التفسير:

انظر شرح الآية ١٢٨ من سورة البقرة فيما يتعلق بتاريخ الكعبة المشرفة وقدمها. وفي هذه الآية الكريمة يلفت الله تعالى أنظار أهل الكتاب إلى قديم تاريخ الكعبة من أجل أن يبين لهم أن المركز الأصلي والحقيقي لدين الله تعالى هو الكعبة، وأن المراكز التي اتخذها اليهود والنصارى إنما تنتمي إلى أزمنة متأخرة. وكما أن بعض الأطعمة المعينة التي امتنع اليهود عن تناولها لم تكن في الأصل محرمة، ولكن جاء تحريمها فيما بعد، كذلك فإن قبلتهم لم تكن هي القبلة الأصلية، ولكنها اتخذت قبلة فيما بعد.

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ
كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ
أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾

التفسير:

بعد أن أشار القرآن المجيد إلى الدليل التاريخي المؤيد للكعبة، يذكر الكتاب العزيز أن العقل أيضا يفرض أن تكون الكعبة المشرفة هي القبلة. وتقدم الآية الكريمة أسبابا ثلاثة تبين أن الكعبة هي الأحق بأن تكون القبلة أو المركز لدين الله تعالى.

السبب الأول كما توهم الكلمات ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو أن إبراهيم عليه السلام قد جاء ودعا الله تعالى في ذلك المكان. إن اليهود والنصارى الذين يحملون الكثير من التقدير والإعزاز لإبراهيم عليه السلام لا بد لهم من الاعتراف بأنه قد زار هذا المكان، وعلى ذلك فلا يمكن إنكار أنه مكان مبارك.

والسبب الثاني تشير إليه كلمات الآية ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، وهو أن الكعبة لا تقدم مجرد وعد بأن من يدخلها يكون آمناً، ولكنها تقدم له الأمن والأمان فعلاً. ولقد تحقق هذا الوعد عملياً. فمن الناحية الدنيوية على مدى التاريخ، شملت عناية الله تعالى وحفظها سبحانه من الحروب والغزوات في كل من التاريخ القديم والعصور الحديثة. والأسلوب الذي تعامل به الله تعالى مع أبرهة حاكم اليمن وجيوشه التي جاءت لغزو الكعبة، وكيف أنه سبحانه قد دمر تلك الجيوش وقضى عليها تماماً، والقرار الذي قضى بأن تكون هذه المنطقة خارج نطاق مسرح العمليات العسكرية في الحرب السابقة (١٩١٤-١٩١٨) رغم أنها كانت ضمن المناطق الخاضعة لنفوذ تركيا، لتعتبر أمثلة رائعة عن الكيفية التي حفظ الله تعالى بها الكعبة. وعلى عكس ما حدث للأماكن المقدسة الأخرى التي تخص الآخرين من الناس والشعوب، فلم يحدث أبداً للكعبة المشرفة أن سقطت في أيدي أناس لا يحملون لها ما ينبغي من الاحترام والتقديس. وحتى في أيام الجاهلية، حين كانت القبائل العربية الوثنية في نزاع وحروب مستمرة مع بعضها، كانت المنطقة الحرام التي تقع فيها الكعبة تعتبر منطقة مقدسة، ولم يكن يُسمح فيها بأي قتال. ومن الناحية الروحية، هي مكان للأمن والأمان أيضاً لمن دخلها بالتعبير الروحي، أي من دخل في دين الإسلام، فإن هؤلاء يدخلون في كنف الله تعالى ويتلقون أفضله ويكونون في مأمن من غضبه وعقابه.

والسبب الثالث الذي يجعل الكعبة أحق بأن تكون هي القبلة، يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. وتتضمن هذه الكلمات نبوءة بأن الكعبة سوف تظل دائماً المركز الذي يؤم إليه الناس من مختلف البلاد ومن مختلف الأمم لأداء فريضة الحج. وتحقق هذه النبوءة هو برهان يدل على حقيقة أن الله تعالى قد اختار الكعبة لتكون هي القبلة لجميع الناس والأمم.

وعلى كل مسلم يجد في نفسه القدرة على أداء الحج إلى مكة، القيام بأداء هذه الفريضة مرة واحدة في حياته. فإذا أداها أكثر من مرة، يكون ذلك عبادة تطوعية من جانبه.

ويتضمن قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ثلاثة شروط: (١) أن تتوفر للحاج وسائل الانتقال اللازمة للقيام بالرحلة؛ (٢) أن يتوفر له المال اللازم لیتحمل النفقات المطلوبة؛ (٣) أن يتوفر الأمن والسلام في الطريق طوال الرحلة (أبو داود). فإذا كان المرء مريضاً فلا ينطبق عليه في تلك الحالة قول الله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وعلى ذلك يسقط عنه واجب أداء الفريضة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يبين أن من يرفض قبول الكعبة باعتبارها قبلة للناس، رغم جميع الدلائل التي جاءت في هذا الشأن، فعليه أن يتذكر جيداً أن هذه الأوامر الإلهية قد جاءت لخير الإنسان نفسه؛ وعلى هذا إن لم يلتزم بها المرء فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله تعالى؛ بشيء، فإن الله ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

إن الغرض من الحج هو أن يتعود الناس على أن يتركوا بيوتهم وبلادهم، وأن يفارقوا أصحابهم وأقاربهم، من أجل الله تعالى. والحج إلى مكة أيضاً يعتبر وسيلة للتعبير عن الاحترام والتبجيل للأماكن التي تجلت فيها إرادة الله تعالى بشكل خاص، ويذكر النفس بالوقائع والأحداث المتعلقة بتجلي هذه الإرادة. والحج يُذكر المرء بالطريق الطويل المحفوف بالأهوال والمخاطر الذي سار فيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى أن وصلا إلى الوادي الصحراوي لمكة، وكيف أن إبراهيم عليه السلام ترك ابنه إسماعيل في ذلك المكان القفر طاعة لله تعالى. ورحلة الحج تخبر الحجاج بأسلوب بليغ بغير كلام كيف أن أولئك الذين يُقدمون التضحيات في سبيل الله تعالى ينالون منه الأمن والعزة والشرف؛ فالحج يزيدهم من الإحساس بعظمة الله تعالى وقوته وقدرته. وأيضاً، فإن الحاج عندما يجد نفسه بالقرب من المكان الذي كان منذ بدء الخليقة مخصصاً لعبادة الله تعالى، فمن المؤكد أنه سوف تغمره مشاعر التوافق مع أولئك الذين قد ارتبطوا جميعاً برباط الود وحب ذكر الله ﷻ عبر الأجيال والقرون.

وبالإضافة إلى هذا، فإن للحج اعتبارات اجتماعية وسياسية على جانب كبير من الأهمية؛ فالمسلمون الذين يأتون من جميع أصقاع العالم ويلتقون هنا مرة واحدة في

العام، يمكن لهم أن يتبادلوا الرؤى والأفكار، ويجددوا غرى المحبة والأخوة، وتتاح لهم الفرصة للتعرف على المشاكل التي تجابه المسلمين في مختلف البلدان، والتأسي بالأمثلة الطيبة التي يجدونها في بعضهم بعضاً، والانتفاع من الخبرات المختلفة للآخرين والتعاون معهم. وإنه لما يثير الكثير من الأسف الشديد أن الكثير من هذه المنافع والفوائد لا يتم الانتفاع بها في الوقت الحاضر.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

شرح الكلمات:

شَهِيدٌ: (انظر أيضاً تفسير الآية ٢٤ من سورة البقرة). هذا هو الموضع الأول الذي تستخدم فيه كلمة «شَهِيد» مقترنة بالله تعالى. إن كلمة «شَهِيد» مشتقة من شَهِدَ التي تعني: أدى ما عنده من شهادة أو أخبر به خبراً قاطعاً؛ أعلن عما يعرف؛ قدّم ما عنده من بيّنة؛ رأى؛ عاين؛ اطّلع؛ حضر. و«الشَهِيد»: هو أيضاً القَتيل في سبيل الله. وإذا استعملت صفة «الشَهِيد» في حق الله تعالى؛ فإنها تعني: الشاهد؛ الأمين في شهادته؛ الذي لا يغيب عن علمه شيء (معجم لين).

لقد ورد في القرآن الكريم كلمات مشابهة لهذه الكلمة في حق الله تعالى مثل:

- (١) الوكيل: كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٤)
- (٢) الرقيب: كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ٢).

(٣) الحفيظ: كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ (هود: ٥٨) وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيزًا﴾ (النساء: ٨١). (انظر أيضاً الآية ٢٤ من سورة البقرة والآية الثانية من سورة النساء والآية ١٧٤ من سورة آل عمران والآية ٨١ من سورة النساء)

التفسير:

﴿لَمْ تَكْفُرُونَ﴾ يمكن أنها تعني «لم تنكروا» ويمكن أيضاً أن تعني «لم لا تقدّرون نعمة آيات الله التي أنعم بها عليكم».

إن شعيرة الحج وبقية الشعائر التي فرضها الإسلام إنما هي من أجل فائدة الإنسان ومصلحته، ولكن الإنسان بجهله يرفض الاعتراف بها، كما أنه لا يقدر تلك النعم فلا يشكر الله تعالى عليها.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾

التفسير:

يمكن أن يعني قوله تعالى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أنكم تريدونها أن تكون معوجة، أي أنكم تريدون أن يكون في الإسلام أمور معوجة؛ أو أنكم تريدون أن تحولوا حقائق هذا الدين عن مقاصدها للإضرار بأوامره ونواهيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠١﴾

التفسير:

يعود قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إلى ذلك الفريق من أهل الكتاب الذين يترصدون بالإسلام ويحملون له عداوة شديدة، وقد تحول فريق من هؤلاء إلى الإسلام وظل فريق آخر منهم لا يهتم بذلك. وقد حذر القرآن المجيد المسلمين من هذا الخطر في الآية ١١٠ من سورة البقرة.

وَكَيفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُثَلَّىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ
اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ
هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠٢﴾

التفسير:

لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ معنيان: (١) من يحفظ نفسه من ارتكاب الإثم ويعمل حسب أوامر الله تعالى؛ (٢) من يرتبط بالله تعالى ويتمسك به بشدة، فإنه بذلك يضمن لنفسه مصدرا أزليا للعزة والتقدم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا
تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٣﴾

التفسير:

لما كان التدهور الروحي لليهود يعود إلى قلة التقوى واضمحلال الخوف من الله تعالى، فإنه سبحانه يحذّر المسلمين لكي يكونوا رقباء على أنفسهم بهذا الخصوص. وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ يتضمن توجيهها قويا من أجل الحفاظ على التقوى والتمسك بها، ويعني أنه من ناحية ينبغي علينا أن نكون على اقتناع تام بأننا إذا تهاونا فإن الله تعالى سوف يقابل آثامنا بعقابه؛ ومن ناحية أخرى ينبغي علينا أيضا أن نؤمن يقينا برحمته ومغفرته. وهناك حديث رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنه يشرح معنى هذه الكلمات يقول إن علينا أن نطيع الله تعالى ولا نعصيه، وأن نشكر الله تعالى ولا نكفره، وأن نذكر الله تعالى ولا ننساه (ابن كثير). وتعني هذه الكلمات أيضا أن على المؤمن أن لا يخشى في الله تعالى لومة لائم عندما يلتزم جانب التقوى والعدالة حتى ولو اضطر إلى إيذاء نفسه أو والديه أو أبنائه أو أقاربه.

ويعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أنه ينبغي علينا أن نخضع دائما لإرادة الله تعالى وأن نكون مسلمين له، حتى إذا ما جاءنا الموت نجدنا مطيعين خاضعين لأمر الله ﷻ. ولما كانت ساعة الموت مجهولة لكل منا، فإن المرء يمكن أن يكون على ثقة بأنه سوف يموت وهو في حالة خضوع وتسليم لله تعالى إذا ما استمر دائما في تلك الحالة، وعلى ذلك فإن قوله تعالى هذا يعني أنه ينبغي على الإنسان أن يظل دائما وأبدا في حالة خضوع وتسليم وطاعة لأمر الله تعالى. ويمكن أن يعني أيضا أن حبنا لطاعة الله تعالى وحرصنا على اكتساب رضاه ينبغي أن يكون بشكل يستدر عطف الله تعالى بحيث يأبى أن يسمح للموت أن يأتينا في الوقت الذي لا نكون فيه في حالة كاملة وتامة من طاعته، تقديرًا منه لحسن علاقتنا به عز وجل.

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى
شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

شرح الكلمات:

حَبْلٌ: يُقَالُ حَبَلَهُ أَي شَدَّهُ بالحبل. وَحَبَلَ الصَّيْدَ: أَخَذَهُ بالحَبَالَةِ. حَبَلَتِ الْمَرْأَةُ: حَمَلَتْ.
الحبل: الرباط وكل ما يستخدم كوثاق؛ الوصال؛ العهد؛ الذمة؛ الأمان؛ الوريد أو
الشريان أو العصب في البدن (معجم لين). وتأتي أيضاً بمعنى الاتحاد والحلف والحماية
(أقرب الموارد).

التفسير:

أحد الأسباب الأخرى للتدهور الروحي لبني إسرائيل هو أنهم لم يظلوا متحدين،
بل انقسموا إلى فرق راحت كل منها بتصيد الأخطاء للآخرى. والآية الكريمة تحذر
المسلمين من هذا الخطر. وَيُرْوَى عن الرسول ﷺ أنه قال: «حبل الله المتين الذي
أمر أن يُعْتَصَمَ به: هذا القرآن» (ابن جرير ج ٤ ص ٣٠). وبوجه عام، هناك ثلاثة
أشياء يمكن أن يكون المقصود بها هو حبل الله الذي عندما يتمسك به المسلمون
يظلون في وحدة آمنين من الانقسام والتشتت: (١) القرآن المجيد؛ (٢) الرسول ﷺ؛
(٣) الخلافة الراشدة بعد رسول الله ﷺ.

ويمكن فهم هذا المثل بما يحدث في حياة البحر، فإن الناس يلقون بالحبال لإنقاذ
إنسان يشرف على الغرق. فعندما يسقط إنسان في البحر، أو عندما يتحطم مركب
في عاصفة، فإن ركاب المركب أو أولئك الذين يقفون على الشاطئ، يقذفون بالحبال
لهؤلاء الذين يصارعون الموج ويحاولون النجاة بحياتهم في البحر. وعلى هذا فإن هذا

المثال يدحض الاعتراض الذي يدّعي بأن القرآن المجيد لا يستخدم سوى الأمثال التي يعرفها قاطنو الصحراء العربية.

ومن الجدير بالذكر هنا أنه عندما يتحدث القرآن المجيد عن العداوة الظاهرة أو الخفية التي يكنّها أعداء الإسلام له، فإنه ينصح المسلمين بالثبات على الإيمان؛ ففي تلك الأحوال يمكن أن يصيب المرء ضعفً ينال من قوة عزمته. وعلى ذلك، بعد أن أشار القرآن المجيد إلى عداوة أهل الكتاب في الآيتين ١٠٠ و ١٠١ السابقتين، راح يحض المسلمين على: (١) أن يتّقوا الله تعالى حق تقاته (الآية ١٠٣)؛ (٢) أن يظلوا دائماً في حالة خضوع وطاعة لله تعالى فلا يموتن إلا وهم مسلمون (الآية ١٠٣)؛ (٣) أن يتمسكوا بحبل الله ويحفظوا أنفسهم من شر الفرقة والاختلاف (الآية ١٠٤).

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أنه لما كان المرء يدرك تماماً قيمة نعمة الله تعالى عندما يجرب المساوئ والأضرار التي تنشأ من عدم وجود تلك النعمة، فإن الله تعالى يذكّر المسلمين بالعداوة التي كانت بينهم قبل أن ينعم عليهم بالوحدة في الإسلام.

وبين قوله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أن الإسلام يندد بأن يحمل المرء في قلبه حقداً أو كرها للآخرين، كذلك فإنه لا يشجع على اتباع أسلوب في الحياة يتضمن الانعزال والبعد عن المجتمع، وأما ما يحض عليه الإسلام فهو أن يكون المرء إيجابياً في مشاعر الحب والمودة التي يحملها للآخرين، ويتعاطف معهم بأحاسيس الشفقة والمواساة، وحقيقة أن من يخلو من هذه المشاعر والأحاسيس، فإنه يخلو أيضاً من الإيمان الحق.

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿الْخَيْرِ﴾ هنا تعني الإسلام، لأن الخير بوجه عام تشمله كلمة ﴿الْمَعْرُوفِ﴾ التي تأتي بعدها مباشرة. وفي الحقيقة، إن الدين الحق، أي الإسلام، هو الخير الوحيد بكل معنى الكلمة. وما تريد الآية الكريمة أن تقول هو أنه كما أن الله تعالى قد أنقذكم من حفرة النار بأن هداكم إلى الدخول في دين الإسلام، كذلك ينبغي عليكم أيضا أن تحاولوا إنقاذ الآخرين من نار الكفر.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أن واجب الدعوة إلى الإسلام ينحصر في فريق من المسلمين فقط، بل ما تعنيه الآية هو أنه بينما ينبغي على الجميع أن يعملوا على تبليغ حقائق الإسلام، إلا أنه يجب أن يكون هناك فريق من بين المسلمين يكون مكرّساً كلية للقيام بهذا الواجب.

أما عن أسلوب الدعوة إلى الإسلام فإن القرآن المجيد يقول في موضع آخر: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ (أي الكفار) بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٦). ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» (مسلم).

وتقدم الآية الكريمة أيضا وسيلة يمكن باتباعها أن يحافظ المسلمون على وحدتهم وتماسكهم، فما دام المسلمون يركزون اهتمامهم في الدعوة إلى الإسلام وفعل الخيرات، فإنهم سوف يعيشون في أمان مع أنفسهم ومع بعضهم بعضاً، لأن الفرقة تتولد في أغلب الأحيان من الكسل والإحساس الكاذب بالأمان.

إن الآية لا توجب على كل مسلم أن يكرّس كل جهوده في الدعوة للإسلام، فلو كان الأمر كذلك لما استطاع أحد من المسلمين أن يكسب عيشه ولا أن يمارس أي نشاط من الأنشطة الضرورية الأخرى في الحياة. وعلى هذا، رغم أن على الجميع أن يشاركوا في واجب الدعوة بنصيب، إلا أنه ينبغي على فريق من المجتمع الإسلامي أن يكرّس حياته وكل مجهوداته خالصة من أجل أعمال الدعوة إلى الإسلام ومقتضياتها.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

التفسير:

إن القرآن المجيد لا يقدم تعاليم فلسفية أو توجيهات نظرية، ولكنه يذكر الحقائق التاريخية ليبين للمؤمنين أنواع المزالق التي سقطت فيها الأمم السابقة ويبين مدى خطورتها وما جرّته على تلك الأمم من هلاك. ولذلك كان من المناسب أن يشير القرآن المجيد هنا إلى التشتت والاختلاف والفرقة التي أصابت أهل الكتاب، ويحض المسلمين على تجنبها. ويقول الرسول ﷺ في هذا الشأن: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ» (أبو داود). ويقول أيضا: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى ضَلَالَةٍ وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَدَّ شَدًّا إِلَى النَّارِ» (الترمذي، كتاب الفتن).

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ
أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٧﴾

شرح الكلمات:

تَبْيَضُّ: مشتق من باض. يُقال باض فلاناً: غلبه في البياض. ابْيَضَّ: صار أبيض. والبياض ضد السواد (أقرب الموارد).

«ابيض وجهه»: صار وجهه أبيض؛ بمعنى أنه علت وجهه أمارات البهجة والسرور (معجم لين).

تَسْوَدُّ: من سادَ. يُقال ساد فلاناً: غلبه عند المغالبة في شرف ونحوه. وساود فلاناً: غلبه في السواد. والسواد: خلاف البياض (أقرب الموارد).

«اسودَّ وجهه»: صار وجهه أسود؛ بمعنى أنه غطت وجهه علامات الحزن والأسف (معجم لين).

تستخدم أحياناً كلمة «بياض» للدلالة على الأشياء الطيبة والسعادة؛ في حين تستخدم كلمة «سواد» للإشارة إلى الحالة السيئة والفشل والشقاء (أقرب الموارد تحت كلمة بياض).

التفسير:

إن القرآن المجيد نفسه يبين أن «البياض» و«السواد» تعبيران رمزيان عن «السعادة» و«الشقاء»، انظر الآية التالية، والآية ٥٩ من سورة النحل، وقارن أيضاً (٢٣:٧٥ و ٣٩:٨٠ و ٤٠). وبالمثل تقول العرب عن الشخص الذي أدى عملاً طيباً يستحق عليه الثناء: «ابيض وجه فلان» أو يقولون: «بيّض الله وجه فلان». وعلى العكس من ذلك، إذا ارتكب المرء عملاً يستحق عليه اللوم والمؤاخذة، يقولون «اسودَّ وجهه» أو «سودَّ الله وجهه». وعلى هذا يعني قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ عندما ينال البعض الثناء والتقدير لحسن فعالهم، وينال الآخرون الذم والتحقير لسوء فعالهم، أو يعني حينما ينال البعض السعادة وينال الآخرون الشقاء.

وتتحدث الآية الحالية عن الفرقة والاختلاف اللذين جاء ذكرهما في الآية السابقة، وتصفهما بالكفر؛ وذلك لأن أقصى ما ينتهي إليه التفرّق والاختلاف هو الكفر.

وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ
هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴿١٠٨﴾

التفسير:

انظر الآيات: يونس: ٢٧، ٢٨؛ الزمر: ٦١؛ عبس: ٣٩-٤٣.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾

شرح الكلمات:

بالْحَقِّ: إن كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ هنا تعني أن آيات الله تعالى تحتوي على الحق، والمقصود بذلك هو، أولاً: أن هذه الآيات أو كلمات الله تعالى مملوءة بالحقائق؛ ثانياً: أنها جاءت إليكم بالحق، أي أنه كان يحق لكم أن تنالوها؛ ثالثاً: أن ذلك الزمن كان الوقت المناسب لتلاوتها. انظر أيضاً الآية الرابعة من هذه السورة.

التفسير:

المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ هو أن الله تعالى بدعوته الناس جميعاً لقبول الرسول ﷺ، فإنه لا يبتغي أن يضع عليهم أي ظلم أو أذى، بل في واقع الأمر إنه لا يريد لهم سوى الرحمة والفضل. فإن خير الإنسانية في ذلك الوقت كان يقتضي أن يبعث الله تعالى رسولا من أجل هدايتهم.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٠﴾

التفسير:

لما كان كل ما في السماوات وما في الأرض هو لله تعالى، كان من المناسب أن يبعث الله تعالى في النهاية رسولا ذا مهمة عالمية لتشمل الناس جميعا، فإن النظام السابق الخاص بإرسال أنبياء متفرقين إلى أقوام معينين في أزمنة مختلفة كان من باب الإعداد فقط للنظام العالمي الجديد، وها قد جاء زمن الإله الواحد رب العالمين، ورسوله الواحد ﷺ الذي كان رحمة للعالمين.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا
لَّهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾

التفسير:

إن الآية الكريمة لا تقرر فقط أن المسلمين هم خير أمة أخرجت للناس، وهو بلا شك إقرار عظيم، بل إنها تقدم الأسباب لذلك أيضا، وهي كما يلي:

- (١) أن المسلمين أمة أخرجت من أجل خير الناس الآخرين.
- (٢) أن وجودهم ليس من أجل خير قوم معين أو بلد بعينه، وإنما هو من أجل خير العالمين جميعا.

(٣) أن من واجبهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله الواحد ﷻ.

ويشهد التاريخ بأن المسلمين قد قاموا بتحقيق هذه الأمور جميعها التي ذكرتها الآية الكريمة. فهم لم يكونوا فقط حاملي أنوار الإسلام إلى أركان العالم الأربعة، وإنما يُذكر لهم أنهم ساهموا في تحسين أحوال الآخرين بشكل كبير. إن عصر النهضة

في الغرب لم يكن ل يتم في مجمله، أو كلية، إلا على جهود المسلمين ومساهماتهم في جميع المجالات (انظر على سبيل المثال كتاب: «صنع الإنسانية» من تأليف روبرت بريفولت).

إن عظمة أي قوم تتناسب مع حجم ما حققوه من منجزات. ولما كان من المقدر للمسلمين أن يكونوا وسيلة لإبراز الخير الموجود في جميع الأمم، كان من المناسب أن يوصفوا بأنهم خير أمة أخرجت من أجل مصلحة الناس جميعا ولأجل منفعتهم. وفي الحقيقة، إن الغرض من وجود الأمة الإسلامية وحياتها هو أن تقدم الخير للإنسانية جمعاء. ولما كان الإسلام هو الخير المطلق، كان من واجب المسلمين تقديم رسالة الإسلام إلى العالم أجمع. كذلك فإن من واجبهم أن يأمرؤا بالمعروف وينهؤا عن المنكر. ولا شك أن هناك أقواما أخرى يأمرؤن بالمعروف وينهؤن عن المنكر، ولكن غرضهم من ذلك هو تحقيق مصلحتهم وقوتهم الذاتية وتحسين ظروف معيشة مجتمعاتهم وأحوالها. ويحذر القرآن المجيد المسلمين من أن تكون لهم مثل هذه الأغراض الأنانية المحدودة، وذلك بإضافة الكلمات ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، أي أن دعوتكم إلى الإسلام يجب أن تكون خالصة من أجل الله تعالى وحده الذي هو رب العالمين.

وتكليف المسلمين بهذه المهمة العظمى يقتضي ظهور مبعوثين ربانيين بينهم من وقت لآخر، لأنهم أكفأ من يقوم بهذه المهمة على أكمل وجه؛ ومن خلالهم فقط يمكن لنا أن ندرك حقيقة وأهمية هذه المسؤولية العظيمة.

ومما هو جدير بالذكر هنا حسب ما تنص عليه هذه الآية الكريمة، أن معيار عظمة الأمة الإسلامية يقاس بحسب تأديتها للمتطلبات المذكورة ويخضع لمدى تنفيذها لهذه المسؤوليات، أي أن مجرد دعوة العالم إلى الإسلام باللسان، والتلفظ فقط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يُعطي أي أمة الحق في نوال المجد أو العظمة.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُواكُمُ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١٢﴾

التفسير:

تعني كلمات الآية ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ أن اليهود، رغم عداوتهم الشديدة للإسلام، لن يستطيعوا أن يصيبوا المسلمين إلا ببعض الأذى، وهذا هو ما حدث في حقيقة الأمر.

ويتضمن قوله تعالى: ﴿يُؤْلُواكُمُ الْأَذْبَارُ﴾ نبوءة تحققت ثلاث مرات بهزيمة القبائل اليهودية المعادية في المدينة بعد أن تحالفت مع القبائل العربية ضد المسلمين. لقد كانوا مذنبين لخيانتهم العهود التي قطعوها مع المسلمين، وقد نالوا إزاء ذلك العقاب المناسب.

وتنطبق هذه الكلمات أيضا على أعداء الإسلام بوجه عام. إن تبليغ دعوة السماء قد يتسبب في بعض العنت مؤقتا للمسلمين، ولكنهم إذا واصلوا دعوتهم بصدق وصبر وإخلاص، فمن المؤكد أنهم سينجحون في نهاية الأمر في جميع جهودهم. ومن ناحية أخرى، إذا حمل أعداء الإسلام السلاح في وجه المسلمين بسبب دعوتهم السلمية إلى الإسلام، فإن الله تعالى سوف ينصرهم على أعدائهم ويحقق لهم فوزا عظيما.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ
مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا
بِغَضِبِ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٣﴾

شرح الكلمات:

حَبْلُ: أي حماية وحفاظة انظر شرح الآية ١٠٤ السابقة.

المَسْكَنَةُ: مشتقة من سكن أي: قَرَّ وانقطع عن الحركة. المسكنة: اسم من المسكين بمعنى الفقر والذل والضعف والقهر... إلخ (معجم لين). كذلك تعني: الخزي والبؤس (أقرب الموارد)، وفقد القدرة على الحركة (المفردات).

التفسير:

تحتوي هذه الآية الكريمة على نبوءة هامة ذات أثر بعيد بالنسبة لليهود، فقد قدّر الله تعالى عليهم الذلة، وغضب عليهم، فكتب عليهم أن يعيشوا خاضعين لغيرهم من الأمم. ويشهد تاريخ اليهود منذ زمن الرسول ﷺ إلى عصرنا الحاضر شهادة أليمة على حقيقة هذه النبوءة المفجعة. وخلال فترة الذل التي تعرضوا لها في جميع البلدان، وفي كل العصور، حتى في عصرنا الحديث عصر التنوير والتسامح الذي لم يستثن أحداً، تعرض اليهود لأبشع عمليات التعذيب والقهر، وقاسوا مختلف أنواع الذلة والمهانة، وقد جعلتهم عادة أخذ الربا من غيرهم، واستحلال أموالهم مكروهين من جميع الناس.

إن كلمة «حبل» تحمل الكثير من المعاني وتكاد تنطبق جميع معانيها هنا، ولأجل هذا يمكن مراجعة الآية ١٠٤ السابقة. وبوجه عام، فإن حبل الله تعالى، أو بمعنى آخر ﴿حَبْلُ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي «الحماية الربانية»، تعني الإسلام؛ أما قوله تعالى: ﴿وَحَبْلٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ فيعني الحماية التي توفرها القوى غير الإسلامية. وكمثال على هذه الحماية يمكن ذكر معاهدة «فرساي» التي وفرت لليهود بعض الحماية المؤقتة، بينما يمكنهم نوال الحماية الربانية عن طريق قبولهم الرسول ﷺ والانضواء تحت لوائه. وفي عصرنا الحديث، فإن المسيح الموعود ﷺ الذي بعثه الله تعالى لإنقاذ الإنسانية كلها، يمكن أن يكون أيضاً وسيلة لإنقاذ اليهود إذا هم قبلوه واتبعوه.

وتعني كلمة «مسكنة» أيضا الخزي والذل والحقارة وفقدان القدرة على الحركة. وقد كانت كل هذه من نصيب اليهود، فكثيرا ما طُردوا من بلاد عدّة، وحتى اليوم توجد بعض المناطق في روسيا لا يُسمح لهم بدخولها. وما يجري لهم حاليا من اضطهاد في ألمانيا وبعض الدول الأوروبية^٨ أمر معروف تماما ولا يحتاج إلى شرح أو تعليق.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لا يشير فقط إلى محاولات اليهود قتل المسيح ابن مريم عليه السلام، وإنما يشير أيضا إلى مؤامراتهم لقتل رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم.

وتقدم الآية تحذيرا للمسلمين، أنهم إذا رفضوا قبول المسيح الموعود عليه السلام الذي جاء بروح المسيح ابن مريم عليه السلام وقوته كما جاء أيضا بروح الرسول صلى الله عليه وسلم وقوته، والذي أناط الله تعالى به مهمة تبليغ الإسلام وتجديده، فسوف تصيبهم نفس الذلة التي كانت من نصيب اليهود قبلهم بسبب رفضهم قبول المسيح ابن مريم عليه السلام وكفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم.

لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ
قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٤﴾

شرح الكلمات:

أُمَّةٌ قَائِمَةٌ: يمكن أن تحمل العديد من المعاني بالإضافة إلى هذا المعنى، ومنها: (١) فريق من الناس أو جماعة تؤدي المهام المنوطة بها خير أداء؛ (٢) الناس الذين يقومون لصلاة التهجد في الثلث الأخير من الليل، وهو عمل عظيم من أعمال العبادة، أشاد به القرآن المجيد كما أشادت به أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

٨. أي في زمن كتابة هذا التفسير. (الناشر)

التفسير:

إن المقصود بقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ هم أولئك اليهود الذين دخلوا في الإسلام (انظر الآية التالية، وأيضا الآية ١٦٣ من سورة النساء). ويتأكد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ لأن السجود لم يكن ضمن أشكال العبادة لدى اليهود. وأما أمر الله تعالى إلى مريم بالسجود فكان أمرا استثنائيا خاصا بها فقط.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ
فِي الْخَيْرِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٥﴾

التفسير:

انظر الآيات: آل عمران: ١٠٥، ١١١؛ التوبة: ٧١؛ الأنبياء: ٩١؛ المؤمنون: ٦٢؛ فاطر: ٣٣.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٦﴾

التفسير:

تبين الآية الكريمة أن الإسلام ليس دينا قوميا لقبيلة من القبائل، وإنما من يدخل فيه، مهما كان انتماؤه إلى أي أمة من الأمم أو إلى أي فئة من الفئات، فإنه سوف يتلقى الجزاء نفسه الذي يتلقاه أتباع الإسلام، وذلك بالطبع إذا سار على الطريق المستقيم وعمل حسب مقتضيات التقوى. فليس في الإسلام تفضيل في المعاملة لأي فريق

من الناس ينتمون لأي أمة من الأمم. فاليهودي، وأي شخص آخر من أي فئة، يقفان على نفس المستوى مع الشخص العربي إذا دخلوا جميعا في الإسلام.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٧﴾

التفسير:

إذا استخدم الكفار أموالهم وأولادهم في معارضة الله تعالى، فلن يحميهم ذلك من عقاب الله ﷻ الذي لا بد أن يحل بهم. ولكن إذا استخدموا أموالهم وأولادهم من أجل الفوز برضا الله تعالى، فإن هذا سوف يؤدي في النهاية إلى نيلهم الهداية منه ﷻ. ويروى أن أحد الصحابة قال للرسول ﷺ مرة أنه في أيام الجاهلية، أي قبل أن يدخل الإسلام، أعطى مائة جمل على سبيل الصدقة لله تعالى، وسأل عما إذا كان سينال جزاءً من الله تعالى على هذه الصدقة، فأخبره الرسول ﷺ أن دخوله في الإسلام كان جزاء الله تعالى له على هذه الصدقة (البخاري، كتاب الزكاة).^٨

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ

٨. عَنْ هِشَامٍ أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حَزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَعْتَقَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِائَةَ رَقَبَةٍ وَحَمَلَ عَلَى مِائَةِ بَعِيرٍ فَلَمَّا أَسْلَمَ حَمَلَ عَلَى مِائَةِ بَعِيرٍ وَأَعْتَقَ مِائَةَ رَقَبَةٍ قَالَ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ كُنْتُ أَتَحَنَّنُ بِهَا بَعْضِي أَتَبَرَّرُ بِهَا قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ لَكَ مِنْ خَيْرٍ».

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ
وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

شرح الكلمات:

صِرٌّ: يُقال «صَرَ الباب» أي أحدث صوتاً. و«صَرَ الطائر»: أي أطلق الطائر (الصقر أو الباز) صيحته. صَرَ النبات: أصابه الصرُّ أي الريح الباردة. وصرَّ الرجل: أي طوقوا عنقه بطوق حديدي. لذا؛ فإن الصرُّ هو: (١) البرد الشديد (٢) البرد الذي يضرب الكلاً بقوة فيدمره (٣) الصوت أو الضجيج (٤) الريح شديدة الصوت (٥) النار (معجم لين ولسان العرب).

التفسير:

إن الفكرة التي وراء هذه الآية الكريمة هي أن مجهودات الكفار التي يبذلونها ضد الإسلام سوف تحيق بهم فقط، فكل ما يفعلونه أو ينفقونه من أجل القضاء على الإسلام أو الإساءة إليه سوف يسيء إلى الكفار أنفسهم. لقد بعث الله ﷺ الإسلام من أجل خير الناس ومصلحتهم، ولكنهم يرفضهم ومعارضتهم إياه إنما يعملون على هلاك أنفسهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ
لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ
مِنْ أَفْوَهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا
لَكُمْ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٩﴾

شرح الكلمات:

بَطَانَةٌ: من بَطَنَ أي اختفى. البطانة من الثوب: خلاف ظهارته. وبطانة الرجل: وليجته (صديقه الحميم) الذي يكشفه بأسراره ثقةً بمودته (أقرب الموارد).

خَبَالًا: مشتق من خَبَلَ يُقال خبله أي أفسده؛ وخبله الحزن: أفسد عقله. خبل الرجل عن كذا وكذا: عَقَلَهُ وحبسَه ومنعه. الخَبَال: الفساد يكون في الأفعال والأبدان والعقول؛ النقصان؛ الهلاك؛ السم القاتل (أقرب الموارد).

عَنِتُّمُ: من عَنِتَ يُقال عَنِتَ الشيء بمعنى فسد. عَنِتَ فلان: دخل عليه المشقة ووقع في أمر شاق. وَعَنِتَ زيد أي لقي الشدة وهلك. عَنِتَ العظم: وهن وانكسر وانهاض بعد الجبر. عَنِتَ الرجل: اكتسب مآثمًا (أقرب الموارد). (انظر أيضًا الآية ٢٢١ من سورة البقرة)

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا﴾ الذي يعني أنهم لن يكفوا عن محاولة إفسادكم، يمكن أن يعني أيضًا: (١) لن يألوا جهدا في العمل على هلاككم؛ (٢) لن يتركوا وسيلة ما للعمل على إفساد عملكم؛ (٣) سوف يبذلون كل جهد من أجل إفساد دينكم؛ (٤) إنهم دوما مشغولون بالإساءة إليكم.

وقوله تعالى: ﴿وَدُّوْا مَا عَنِتُّمُ﴾ الذي يعني أنهم يحبون أن يروكم في أزمة أو في عناء، يمكن في ضوء المعاني التي جاءت تحت شرح الكلمات أن يعني: (١) إنهم يحبون أن يروكم تقعون في مصيبة أو يصيبكم أذى؛ (٢) إنهم يحبون أن يروا هلاككم؛ (٣) إنهم يحبون أن يروكم ضعفاء منكسرين؛ (٤) إنهم يحبون أن يروكم خطاة مذنبين.

ومن الواضح أن هذه الآية تتعلق باجتئاب مثل هؤلاء من غير المسلمين الذين هم في حرب مع المسلمين أو أولئك الذين يبتغون الهلاك والدمار للإسلام والمسلمين بأي طريق آخر، ولكنها لا تتطلب ألا يكون للمسلمين أية علاقة على الإطلاق مع

غير المسلمين. إذ يقول القرآن المجيد في مكان آخر: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٩).

هَآأَنْتُمْ أَوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ
بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا
خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ أَلَا نَأْمِلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلَّ
مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٢٠﴾

التفسير:

كما يدل عليه السياق، يجب اعتبار أن هناك كلمات مقدّرة في النص وهي «وهم لا يؤمنون بالكتاب كله» بعد قوله تعالى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ مُوجَّه لأعداء الإسلام من بين اليهود الذين يعملون على القضاء عليه. والمقصود بهذه الكلمات هو الزجر والتعنيف، فبعد بذل كافة الجهود لمحاولة إصلاحهم ورفضهم تقبل كل محاولات الإصلاح، لا بد حينئذ أن يذوقوا نتائج عداوتهم العمياء.

إِنْ تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ
سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢١﴾

التفسير:

إن أعداء الإسلام، سواء كانوا في السر أو في العلن، يحزنهم أن يروا نجاح المؤمنين، فيحاولون الإقلال من شأنه، ولكن حين يعاني المسلمون من بعض الفشل، فإنهم يفرحون لذلك ويعملون على المبالغة من شأنه، وغرضهم من ذلك هو تثبيط المؤمنين وإلقاء اليأس والقنوط في قلوبهم.

وبعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أن الله تعالى سوف يُحبط جميع أعمالهم وسوف يهلكهم، وعلى ذلك فلا ينبغي للمسلمين أن يخشوهم. إن جميع تدابير أعداء الإسلام يعلمها الله تعالى وهو سبحانه الذي سوف يحبطها.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾

التفسير:

في الآيات السابقة، تعلم المسلمون دروس الصبر والعزيمة والمثابرة والتقوى، فإذا عملوا بمقتضاها فسوف ينالون النجاح والفلاح ولن يستطيع أعداؤهم أن يحققوا أهدافهم في القضاء عليهم. والآن يتعلمون نفس الدروس عن طريق مثال عملي من تاريخهم المعاصر.

تشير الآية إلى المعركة المهمة في أحد، التي وقعت في السنة الثالثة من الهجرة. فبعد أن عانى أهل مكة من هزيمة ساحقة في غزوة بدر، راحت قريش تقوم بالتجهيزات والاستعدادات المطلوبة من أجل شن هجوم آخر على الرسول ﷺ وأتباعه في المدينة. وعلى ذلك، سار في العام التالي جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل مجهز بالسلاح والعتاد، واتجه إلى المدينة تحت قيادة أبي سفيان. فلما سمع الرسول ﷺ بمقدم الجيش، استشار أصحابه عن أفضل الطرق لمقابلة الأعداء، فكان من رأي أغلب الصحابة

الكبار أن يبقوا في المدينة ويدافعوا عن أنفسهم. وكان عبد الله بن أبي بن سلول، زعيم المنافقين، من نفس الرأي. كذلك كان الرسول ﷺ يميل إلى هذا الرأي، خاصة وأنه قد رأى في الرؤيا أن جيش المسلمين قد عانى من خسائر رغم أنه أوقع الخسائر بجيش الأعداء أيضاً، لذلك كان يفضل أن يظل بالمدينة وينتظر جيش الأعداء. غير أن الأغلبية من أتباعه، وخاصة من صغار السن وبعض الكبار الذين لم ينالوا شرف الاشتراك في غزوة بدر، كانوا في شوق إلى الخروج من المدينة لمقابلة العدو في ساحة القتال. وقد احترم الرسول ﷺ رأي الأغلبية وقرر الخروج من المدينة. وفيما بعد، أعادت الأغلبية التفكير في الأمر، ورأت أن تعود لتأخذ برأي الرسول ﷺ. غير أنه رفض أن يغير رأيه قائلاً إنه لا يليق بنبي أن يخلع عدة الحرب بعد أن لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، وعلى هذا فقد خرج من المدينة على رأس جيش قوامه ألف رجل. وقد أراد فريق كبير من يهود المدينة الذين كانوا في تحالف معه أن يصحبوه للحرب، ولكنه لم يوافق على ذلك حسب شروط المعاهدة بينهما. لقد كانوا قوما غدارين، وكان الله تعالى قد حذّر منهم وقال عنهم إنهم: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤَا مَا عَيْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (الآية ١١٩).

وبعد أن ابتعد الرسول ﷺ مسافة عن المدينة، انسلك عبد الله بن أبي زعيم المنافقين من الجيش وعاد إلى المدينة بحجة أن رأيه بالبقاء في المدينة لم يؤخذ به، وأن التعزيزات التي أتت بها من اليهود لم يُسمح لها بمصاحبة الجيش. وقد اصطحب معه سبعمائة رجل من جيش المسلمين. وبسبب هذا الانسحاب المفاجئ لعبد الله بن أبي، بدت بوادر التخاذل تظهر على قبيلة من الخزرج تُسمى بني حارثة، وقبيلة من الأوس تُسمى بني سلمة، ورغم أنهما كانتا من المسلمين المخلصين، إلا أن فكرة الانسحاب قد راودتهما، ولكن الله تعالى أنقذهما من ذلك الانسحاب (انظر الآية التالية).

وحينما وصل جيش المسلمين إلى وادي أُحد، صفّ الرسول ﷺ رجاله استعداداً للقتال، وجعل ظهورهم ناحية جبل أُحد ووجوههم ناحية المدينة. وكإجراء إضافي

للقاية، جعل خمسين من الرماة فوق الجبل عند مؤخرة جيش المسلمين تحت قيادة عبد الله بن جُبَيْر رضي الله عنه، وأمرهم مشدداً ألا يتركوا موقعهم إلا بعد تسلم الأمر منه شخصياً، حتى ولو رأوا جيش مكة يلوذ بالهرب أمام المسلمين، أو حتى إذا رأوا أن المسلمين قد هزموا والطير تأكل من أجسادهم.

وكما كانت العادة في بلاد العرب، بدأت المعركة ببعض المنازلات الفردية التي أدت إلى مقتل العديد من الكفار وبعض المسلمين، ثم قام العدو بالهجوم الشامل الذي تكرر ثلاث مرات، وفي كل مرة كان صد وردع من المسلمين. واشتعل وطيس المعركة، ولكن في النهاية شعر العدو بالانكسار واضطر للهرب والمسلمون يطاردونهم، حتى إن بعض المسلمين بدأ في جمع غنائم الحرب.

وعندما رأت القوة الموجودة فوق الجبل عند مؤخرة المسلمين ما حدث، بدأوا يفكرون في ترك مراكزهم ظانين أنه ما دامت المعركة قد انتهت وتحقيق الغرض من أوامر الرسول ﷺ لهم، فإن بقاءهم فوق الجبل أصبح بغير فائدة. وقد اعترض قائدهم وراح يذكرهم بضرورة اتباع أوامر الرسول ﷺ وطاعتها بالبقاء في أماكنهم، ولكنهم لم يسمعوا لكلامه وغادروا المكان، بينما بقي فريق منهم معه على قمة الجبل. كان خالد بن الوليد رضي الله عنه في جيش المشركين ولم يكن قد دخل الإسلام بعد، وقد لمح الفرصة المتاحة أمامه، وبسرعة التف وهاجم بقوة معه الرجال القلائل الذين بقوا فوق الجبل فقتلوهم مع قائدهم، وهاجموا المسلمين من الخلف. ولما رأى الجيش المنسحب ما حدث، عادت إليه الجرأة وتحول إلى الهجوم، وخلال ما حدث من فوضى وارتباك صاح أحدهم بنحبه أن رسول الله ﷺ قد قُتِل، الأمر الذي جعل اليأس يداهم قلوب المسلمين، فهرب بعضهم إلى المدينة، وترك البعض الآخر أرض المعركة وقد غلبهم الحزن والأسى لمقتل حبيبهم وسيدهم رسول الله ﷺ. غير أن الكثيرين ممن لم يرغبوا في الحياة بعد مقتل النبي ﷺ اندفعوا إلى صفوف العدو فماتوا وهم يقاتلون ببأس وشجاعة.

كان الاضطراب قد عمّ، وانتشر الارتباك بين المسلمين بشكل تام، حتى إن الرسول ﷺ في بعض الأوقات لم يجد حوله سوى اثني عشر من صحابته، وفي أوقات أخرى لم يكن معه سوى اثنين فقط من المسلمين، حتى إنه من الناحية العملية صار وحيدا تماما. وطوال هذا الوقت كان هو مركز هجوم العدو، غير أن الحفنة القليلة من الصحابة التي وقفت حوله كانت بمنزلة الدرع الذي يحجبه، إذ ظلوا واقفين صامدين صمود الصخر، يتلقون عنه بأجسادهم كل السهام والضربات حتى أصبحت أجسادهم مثقوبة كالمناخل، ولكنهم لم يتحولوا من مكانهم عنه قيد أنملة حتى لا يتسبب ذلك في انكشاف جسد الرسول ﷺ أمام العدو. وحينما كان يسقط واحد منهم كان آخرملاً المكان الشاغر على الفور. ومع ذلك فقد جرح رسول الله ﷺ وكسرت إحدى أسنانه بسبب حجر أصاب وجهه الكريم، ودخلت إحدى حلقات الخوذة التي كان يرتديها في وجهه عندما تعرضت لضربة قوية. وعندما علم الصحابة الذين بقوا في ساحة المعركة أو في المؤخرة بأن مولاهم ﷺ لا يزال على قيد الحياة، تجمعوا حوله ليزودوا عنه هجمات العدو، وأخذوه ببطء إلى مكان آمن على جانب الجبل، ثم انسحب العدو بعد ذلك. وقد سقط في هذه المعركة أكثر من سبعين شهيدا من صحابة الرسول ﷺ، كان من بينهم حمزة رضي الله عنه الصنديد عم النبي ﷺ؛ وجرح الكثيرون. ولكن كما بينت الأحداث فيما بعد، لم تؤثر هذه الكارثة على تقدم الإسلام وازدهاره. وتصف الآيات التالية بقية أحداث المعركة.

إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ
وَلِيَّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

يَتَوَكَّلُ: من وكل. وكل إليه الأمر: سلّمه وتركه؛ فوضه إليه واكتفى به. وكلّه بكذا: جعله وكيلًا؛ ووكل فلانًا فلانًا: استكفاه أمره ثقةً بكفايته أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه.

تَوَكَّلْ بالأمر: ضمن القيام به. تَوَكَّلْ على الله: اعتمد عليه؛ وثق فيه؛ استسلم إليه. (التَوَكَّل) المصدر وتعني: الاعتماد على الله تعالى وحده والثقة بما عنده ﷻ واليأس مما في أيدي الناس (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

الطائفتان اللتان جاء ذكرهما في هذه الآية هما كما سبق ذكره هما بنو سلمة وبنو حارثة اللتان تنتميان إلى الأوس والخزرج على التوالي. ولم تكن فكرة عودتهما إلى المدينة نابعة من أي شك من جانبهما في صدق الإسلام وحقيقته، وإنما بسبب الضعف الذي أملته الظروف المحيطة. ولكن لما كانتا من المؤمنين المخلصين، فقد أنقذهما الله تعالى من ذلك الضعف الذي أصابهما. انظر شرح الآية السابقة.

ولا يعني قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أن المسلم ينبغي له أن يهمل الأسباب المادية ويحصر نفسه في الدعاء إلى الله تعالى وينتظر عونه، فإن هذا فهم معوج لمعنى التوكل الذي لا يجد ما يؤيده في تعاليم الإسلام. إن الإسلام يحض المؤمن الحق أن يأخذ بجميع الوسائل المتاحة من أجل تحقيق غرضه، غير أن عليه في نفس الوقت ألا يعتمد عليها كلية، بل يجب أن يضع ثقته في الله تعالى وحده، وينظر إلى الوسائل المادية باعتبار أنها تعمل تحت إرادة الله ﷻ. وقد حث الرسول ﷺ على ربط الناقة أولاً ثم التوكل على الله تعالى، وهو أمر شديد الصعوبة، غير أنه الطريق الصحيح لبيان الإيمان الصحيح بالله تعالى.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

شرح الكلمات:

بَدْر: البدر هو القمر المكتمل؛ والبدر اسمٌ مشتقٌّ من الفعل بَدَرَ أي سارع وعَجَلَ. بدر إلى الشيء: أسرع إليه. البدر: القمر الممتلئ؛ وسُمي بهذا الاسم لأنه يسارع إلى الظهور قبل غروب الشمس ويأفل قبل شروق الشمس. و«بدر» هو اسمٌ لبئرٍ على الطريق بين «مكة» و«المدينة»؛ وسُمي بهذا الاسم نسبةً إلى رجلٍ يملكه يُدعى «بدرًا». وغزوة بدر التي تشير إليها الآية الكريمة قد وقعت بالقرب من هذا المكان.

التفسير:

تتوجه كلمات هذه الآية الكريمة إلى المسلمين من خلال الرسول ﷺ الذي استخدمها بالفعل بعد معركة أُحُد، وهي تُذكّر المؤمنين بأن الله تعالى نصرهم في بدر وهم في موقف أشد ضعفا عما كانوا عليه في أُحُد، وذلك لأن مسلكهم كان يتسم بالطاعة والصبر والتقوى في تلك المناسبة. وعلى هذا فإن النكسة التي أصابتهم في أُحُد كانت بسبب ضعفهم وعصيانهم، رغم أنه لم يكن مقصودا، فقد تمسك الكثيرون منهم بأهداب الطاعة لمولاهم ﷺ. وتتضمن كلمات الآية الكريمة وعدا بالنصر في المستقبل، إذا تاب المسلمون عن أخطائهم وسلوكوا كما ينبغي أن يكون سلوك المؤمنين المخلصين.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ
أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ
الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٥﴾

التفسير:

تعني الآية أنه إذا كرر أهل مكة الهجوم على المسلمين في المستقبل بعد معركة أُحُد، فإن الله تعالى سوف يمد المسلمين بثلاثة آلاف من الملائكة. وإنه لمن الخطأ الظن بأن كلمات هذه الآية تتعلق بغزوة بدر التي جاء ذكرها عرضا في الآية السابقة

على سبيل بيان كيف أن الله تعالى ينصر عباده المؤمنين في وقت الشدة والخطر. وبالإضافة لذلك، فإن عدد الملائكة التي نزلت في بدر حسب الآية ١٠ من سورة الأنفال كان ألفاً ولم يكن ثلاثة آلاف، كما هو مذكور هنا. وتحقق الوعد المذكور في هذه الآية جاء ذكره في الآية ١٥٢ التالية.

بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّن
الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٦﴾

شرح الكلمات:

فَوْر: مشتق من قَارَ. فار الماء: نبع من الأرض وخرج وجرى. فارت القدر: جاشت وغلث وارتفع ما فيها. فورة الحر أو الغضب: شدته وحدته أو ما شابها. فورة النهار: أوله. فور: الحالة التي لا ببطء فيها؛ يُقال رجع من فوره: أي حالاً دون أن يستقر أو يلبث (أقرب الموارد).

مُسَوِّمِينَ: مشتق من سوم. سَوَّمَ الفرس: أعلمه بسومه (وضع علامة عليه بميسم النار). سَوَّمَ الخيل: أرسلها. سَوَّمَ على القوم: أغار عليهم فعاث فيهم (أقرب الموارد). وهذا المعنى الأخير هو المراد في الآية الكريمة التي نحن بصدددها.

التفسير:

تعني الآية الكريمة أنه إذا عاد المشركون على الفور للهجوم على المسلمين قبل أن تكون لديهم الفرصة في تنظيم أنفسهم، فإن الله تعالى سوف يمد المسلمين بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين. والفرق في عدد الملائكة، حيث ذكرت الآية السابقة ثلاثة آلاف، هو بسبب الفرق في ظروف المسلمين. لقد كانوا في ذلك الوقت منهكين

ومجروحين، ولذلك فقد كانوا في حاجة إلى عون أكبر عما كانوا يحتاجونه إذا ما تأخر هجوم العدو عليهم.

ولقد فكر العدو بالفعل في معاودة الهجوم، ولكن الله تعالى منعهم من ذلك. وباختصار، يمكن ذكر ما حدث. فعندما كانت قريش تعود أدراجها إلى مكة، سألهم بعض أفراد القبائل العربية التي تعيش بجوار المدينة عن نتيجة المعركة، فلما قالوا إنهم خرجوا منها منتصرين، أصابهم أولئك الرجال بالهزل عندما قالوا لهم: «إذا كنتم حقاً منتصرين، فأين غنائم الحرب، وماذا أحضرتُم من ميدان القتال؟». فلما لدعتهم هذه السخرية، قررت قريش أن تمسح عارها وتعاود الهجوم مرة أخرى على المدينة فوراً. وعندما علم الرسول ﷺ بذلك في اليوم التالي للمعركة، أعطى أوامره على الفور بالتقدم، وأمر أن يصحبه فقط أولئك نفر من صحابته الذين اشتركوا في معركة أُحُد. وقد وصل المسلمون إلى مكان يبعد عن المدينة حوالي ثمانية أميال يسمى «حراء الأسد». وقد أصاب جيش قريش الفزع بهذا الخروج الشجاع وغير المتوقع من الرسول ﷺ وصحابته، حتى إنهم قرروا أن ينسحبوا بسرعة ويعودوا إلى مكة. كان هذا بسبب الخوف والهلع الذي بثته الملائكة في قلوبهم، وإلا فما كان هناك من سبب يدعوهم إلى الهرب من أمام عدو استطاعوا أن يوقعوا به خسائر فادحة في اليوم السابق فقط، والذي كان، بالإضافة إلى تقلص أعدادهم وتناقصها، منهكاً تماماً ويعاني من الجروح الخطيرة التي أصابته في قتال اليوم السابق.

وقد فسر أحد المفسرين المتأخرين قوله تعالى: ﴿مِنْ قَوْرِهِمْ هَذَا﴾ على أنه يعني العجلة والرعونة، وطبقه على غزوة الأحزاب. غير أن هذا ليس بصحيح. فالحقيقة هي أن الآيتين ١٢٥ و ١٢٦، كما سبق بيانه، تتعلقان كلاهما بغزوة أُحُد والزمن الذي يليهما مباشرة. وكلمة ﴿بَلَى﴾ التي جاءت في أول الآية تؤيد أيضاً الارتباط بين الآيتين وتقدم الإجابة على السؤال المذكور في الآية ١٢٥، أي قوله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّكُمْ رَبُّكُمْ﴾. وعلى هذا، فإن كلمة ﴿بَلَى﴾ هنا تعني «نعم يكفينا هذا، وسوف يكفينا أن يمدنا الله بخمسة آلاف من الملائكة إذا عاود العدو الهجوم من فوره علينا».

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ
 قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
 الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٧﴾

التفسير:

جاءت هذه الآية لتحذر المسلمين من اعتبار الملائكة آلهة أو أنها وحدها تستطيع أن تهب النصر، فإن النصر يأتي من عند الله تعالى وحده؛ وليست الملائكة إلا خاضعين لله ﷻ ولا تقوم بأي عمل بإرادتهم إلا بمشيئته هو ﷻ. إنهم يأتون فقط بأمر الله تعالى ويفعلون ما يأمرهم به سبحانه. والأسلوب الذي تتبعه الملائكة لمد العون للمؤمنين في القتال هو أنها تربط على قلوبهم وتبث فيها الشجاعة والإقدام، بينما تبث الخوف والهلع في قلوب الكافرين. ولو شاء الله تعالى لكان ملاك واحد كافياً لمد العون للمسلمين، ولكنه سبحانه وعد أن يرسل إليهم خمسة آلاف من الملائكة من أجل أن يسعد قلوبهم، ولكي يومئ إلى أن عدداً كبيراً من قوى الطبيعة الخفية تعمل في صالحهم. ولشرح عمل وواجبات الملائكة، انظر شرح الآية ٣١ من سورة البقرة.

ولعله من الجدير بالذكر هنا أنه قد جاء في الروايات أن بعض المؤمنين، وحتى بعض غير المؤمنين، قد رأوا الملائكة بالفعل في غزوة بدر. (ابن جرير، ج ٤، ص ٤٧) وانظر أيضاً الآية ١١ من سورة الأنفال.

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ
 فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٨﴾

شرح الكلمات:

يَكُتِبُ: من كَبَتَ. يُقال كَبَتَهُ بمعنى: (١) صرعه وأخزاه (٢) أهانه وأذله (٣) ردّه بغيظه (٤) طرده (٥) أهلكه (أقرب الموارد).

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُتِبُهُمْ﴾ يعني أنه لو كان المشركون قد عاودوا الهجوم على المسلمين، لعاقبهم الله تعالى وقطع طرفا منهم فتعرضوا للقتل، وإن لم يهاجموا المسلمين وانسحبوا فسوف ينسحبون مكبوتين مخذولين يلطخهم العار والخجل. وما حدث هو أن أهون الشرين قد تحقق؛ إذ لما علم الرسول ﷺ بأن المشركين يفكرون في معاودة الهجوم على المدينة، خرج إليهم مع أتباعه، ففر أهل مكة مكبوتين مخذولين يلطخهم العار والخجل. (انظر أيضا شرح الآية ١٢٦).

تبين الآية أيضا أن الله تعالى يذكر أحيانا نبوءات مشروطة، أي أنه يذكر نبوءتين عن أحداث تتحقق إحداها فقط حسب ما تتطلبه الظروف. وفي الآية الحالية، يعلم الله تعالى أن النبوءة الثانية هي التي سوف تتحقق، ومع ذلك فإنه لم يصرح بها بشكل قاطع. والمقصود بـنزول الملائكة هو ضمان تحقيق العقاب للكافرين أو تحقيق خذلان العدو، حسب ما تكون الحالة.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٩﴾

التفسير:

هذه الآية تُفسر بشكل خاطئ على أنها تحتوي نصائح أو تحذيرات للنبي ﷺ لأنه دعا الله تعالى على أهل مكة. ولا يوجد هنا ذكر أي دعاء لله تعالى، كما لا توجد أية

مناسبة لمثل هذا الدعاء. وفي الحقيقة، فإن الأنبياء لا يدعون على قومهم بغير إذن من الله تعالى.

إن كلمات الآية تعني فقط تقديم إجابة لأولئك الذين أرجعوا ما أصاب المسلمين في أحد إلى ما أسموه الخطأ الناشئ عن مغادرتهم المدينة رغم نصيحة أصحاب الخبرة من الرجال. وتقول الآية الكريمة أن النتيجة قدّرها الله تعالى صاحب الأمر العظيم بحكمته، وأن الرسول ﷺ ليس له دخل في هذا الأمر. وقد كانت إحدى الفوائد التي نجمت عن غزوة أحد أن الكثيرين قد اهتمدوا ودخلوا في الإسلام، بعد أن رأوا كيف أن الله تعالى قد مد يد العون إلى الرسول ﷺ وحفظه وحماه بعد أن كان وحيدا في ميدان المعركة.

وتحمل الآية أيضا ردا على المنافقين، أي عبد الله بن أبي وأتباعه الذين تخلوا عن الرسول ﷺ في أحد، قائلين إنه لم يتبع نصيحتهم. فترد الآية عليهم قائلة إن الله تعالى أعان رسوله، وهو الذي بعد نكسة أحد وفي بوعده فيما يختص بالتقهقر المهين والانسحاب الشائن للمشركين المذكور في الآية السابقة.

وقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ الذي جاء في الآية السابقة، يتناظر عكسيا مع قوله تعالى في الآية الحالية: ﴿لِيَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾، بمعنى أن أولئك الذين كان من الممكن أن يقطع طرفا منهم بالقتل، هم الذين سيعذبهم الله، وأولئك الذين أصابهم الخزي والخذلان ورجعوا مكبوتين ملطخين بالخجل، فهم أولئك الذين كان من المقدّر لهم أن يتوب الله عليهم في نهاية الأمر. أي بعودتهم سالمين، رغم عدم نجاحهم في تحقيق مقصودهم، أصبحت أمامهم فرصة للتوبة. وعلى ذلك، فإننا نرى أن العديدين من أولئك الذين نجوا بحياتهم قد تحوّلوا فيما بعد إلى الإسلام، ومن بينهم كان رجال مثل خالد بن الوليد؛ وعكرمة بن أبي جهل؛ وعبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ؛ وآخرون كان لهم شأن في

الإسلام فخلدت أسماءهم. وكان أبو سفيان رضي الله عنه، قائد الجيش في أحد، أحد هؤلاء الذين تاب الله عليهم.

وتلقي الآية الكريمة أيضا الضوء على طبيعة النبوءات التي يخبر بها أنبياء الله تعالى. فغالبا ما يكون فيها أمر عرضي أو عنصر من عدم اليقين، وأحيانا يكون ذلك خفيا فيها أو ظاهرا، كما هو الحال في هذه الآية. فهنا قدمت الآية بوضوح نبوءتين بديلتين عن الرحمة أو العذاب تتحقق إحداها حسب مشيئة الله تعالى. والسبب في ذلك هو أن النبوءات لا تصدر عن مصدر آلي أو متجمد، إما أن يكون متعسفا أو متصلبا، ولكنها تأتي من الله تعالى، الذي يتصف بكل صفات الرحمة، والقدرة على إنزال العقاب، وهو سبحانه يحقق ما تراه مشيئته حسب الظروف التي يعلمها. وتبعا لذلك، فإن أنبياء الله يقدمون دائما الأمل بالنجاة، بشرط التوبة الصادقة والإنابة إلى الله تعالى، حتى حينما ينطقون بأغلظ الكلمات التي تنبئ عن هلاك أعدائهم.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٠﴾

التفسير:

باعتبار أن الله تعالى هو المولى وهو المالك لما في السماوات وما في الأرض، فإنه سبحانه يميل أكثر إلى جانب المغفرة والرحمة عنه إلى جانب العقاب والعذاب، رغم أنه أحيانا يستخدم العقاب أيضا من أجل مصلحة الإنسان ولخيره وفائدته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ
مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣١﴾

شرح الكلمات:

الرَّبَا: انظر شرح الآية ٢٧٦ من سورة البقرة.

أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً: أضعاف هي جمع ضِعْف بمعنى مثل الشيء؛ أما بمعناها الأعم فإنها تعني مثله في المقدار أو مثله وزيادة غير محصورة. وعليه فإن كلمة «أضعاف» تعني: متعدد، أو الزيادة الكبيرة أو الزيادة بلا حدود. أما كلمة «مضاعفة» فإنها صيغة المصدر من «ضاعف». يُقال ضاعفه: يعني جعله مثليّه أو ثلاثة أمثاله أو أكثر (أقرب الموارد وتاج العروس).

لذا فالتعبير «أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً» يعني: الزيادة المتعددة أو الزيادة بلا حدود. والجدير بالملاحظة هنا أن الكلمات «أضعافاً مضاعفة» لم تستخدم هنا كعبارة مقيدة بهدف الحد من الربا بجعله مقتصرًا على فائدة محددة فقط؛ إنما جاء هذا التعبير لكي يوضح طبيعة الربا وهي الزيادة المستمرة للفائدة بلا حدود.

التفسير:

إن أخذ الربا، رغم أنه مباح الآن عند الأمم المسيحية، فإن موسى ﷺ قد حرّمه (انظر الخروج ٢٢ و ٢٥؛ واللاويين ٢٥: ٣٦-٣٧؛ والثنية ٢٣: ١٩).

ولا تعني الآية أن الربا يكون حلالاً إذا كان سعر الفائدة معقولا، أو أن الربا بأسعار مضاعفة هو المحرّم. إن جميع أنواع الربا محرمة، سواء كانت بأسعار معقولة أو بأضعاف مضاعفة، وقد أضيفت الكلمات «أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً» لبيان الممارسات التي كانت شائعة في زمن الرسول ﷺ. وعلى هذا فإن الحد الأقصى الذي تذكره الآية إنما هو لمجرد بيان شناعة الربا، وإلا فإن جميع أنواع الربا محرمة كما جاء ذلك بوضوح في الآيات ٢٧٦ إلى ٢٨١ من سورة البقرة.

إن لذكر موضوع الربا أثناء معالجة موضوع الحرب دلالة الخاصة، إذ نجد أنه في سورة البقرة أيضا جاء ذكر الربا أثناء معالجة موضوع الحرب، وهذا يبين أن الربا

والحرب أمران متلازمان، وهي حقيقة يشهد بها تاريخ العصور الحديثة. وفي الواقع، إن الربا هو أحد العوامل التي تسبب الحرب أو المساعدة على إطالة أمدها، فلو لم تكن هناك إمكانية للإقراض أو الاقتراض بالربا، لما أمكن إطالة مدى الحروب. وإذا سُئِلَ كيف يمكن توفير نفقات الحرب في الإسلام إن لم يُسمح بالاقتراض الربوي، فالإجابة على ذلك هي أنه إذا حدث أن فُرضت الحرب على المسلمين لصد عدوان وقع عليهم، يكون من المتوقع منهم أن يقدموا مساهماتهم عن طيب خاطر للدفاع عن دينهم وأوطانهم. كذلك فإن الضرائب المناسبة تُعتبر أيضا وسيلة معقولة لمقابلة نفقات الحرب، والضرائب نفسها بمنزلة صمام أمان يمنع إطالة الحرب دون ما يدعو لذلك. انظر أيضا الآيات ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٩ و ٢٨٠ من سورة البقرة.

إن ذكر تحريم الربا فيما يتعلق بموضوع الحرب يبين أيضا أن آيات القرآن المجيد لم توضع معاً بترتيب عشوائي، وإنما ينظمها ترتيب حكيم ومتسلسل.

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٦﴾

التفسير:

في الآية ٢٧٦ من سورة البقرة أيضا جاء تحريم الربا متبوعا بتحذير من النار. مما يجعل المقصود بالنار هنا مبدئيا هي نار الحرب. وبالإضافة إلى أن كلمة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ هنا يمكن أن تؤخذ بمعناها العام، فمن الممكن أن تعني هنا أيضا أولئك الذين يعصون أمر الله تعالى فيما يختص بالربا.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٧﴾

التفسير:

انظر الآية: آل عمران: ٣٣.

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٤﴾

شرح الكلمات:

عَرَضُ: الفعل «عرض» له العديد من المعاني. يُقال «عرض الشيء عليه» أي أراه إياه. عرض له عارض: أصابه. أما كلمة «عَرَضُ» فتعني: (١) ثمن الشيء بغير الدراهم والدنانير؛ (٢) السَّعة؛ (٣) الضخامة؛ (٤) المتاع؛ (٥) الوادي؛ (٦) الجبل وقيل سفحه وقيل ناحيته (أقرب الموارد).

التفسير:

تُعتبر هذه الآية الكريمة ردًا على أولئك الذين يظنون، بحكم ظروف مجتمعاتهم الحالية، أن التجارة وباقي شؤون العالم لا يمكن أن تتم بغير الربا. غير أن الله تعالى يقول إنه باتباع تعاليم الإسلام يمكن للمسلمين أن ينالوا ويحققوا جميع أنواع المنافع. والآية تدعو لاتباع تعاليم الإسلام التي تذكر أنها تؤدي إلى ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ و﴿جَنَّةٍ﴾، والمغفرة تشير إلى التحرر من الآلام والمحن، والجنة تشير إلى النعيم المقيم. وكلمة «عرض» كما جاء في شرح الكلمات تعطي الكثير من المعاني، والمقصود أن نعيم الجنة وبركاتها لا حد له. فعندما يكون الإنسان في الجنة سوف يشعر بالسعادة حيثما كان. وعلى عكس الحال هنا في هذه الدنيا، قد يحدث أن يمتلك الإنسان جميع وسائل الراحة والتنعم في منزله، ولكنه عندما يسافر فإنه غالباً ما يتعرض لبعض المضايقات، ولكن في الجنة لن يكون الحال بهذا الشكل.

وتعني الآية أيضا أن المؤمنين سوف ينالون جنة تضم السماء والأرض، أي أن المؤمنين سيكونون في الجنة في الدنيا على هذه الأرض وفي الآخرة أيضًا. وهناك حديث يذكر أن أحد الصحابة سأل الرسول ﷺ: أرأيت قوله تعالى: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فأين النار؟ قال: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ لَبَسَ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَيُّ النَّهَارِ؟» (ابن كثير). وتلقي هذه الإجابة الضوء على طبيعة الجنة وجهم. وقد قال الرسول ﷺ ما معناه: إن أصغر جزاء لأهل الجنة سوف يكون هائلا قدر ما بين السماء والأرض.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾

شرح الكلمات:

الْعَافِينَ: مشتق من عفا بمعنى محأ أثر الشيء (أقرب الموارد).

انظر أيضًا الآية ١٨٨ من سورة البقرة.

يُقال عن الإنسان إنه يتخلق بِخُلُقٍ العفو إذا طمس أو محأ أو نسي تمامًا من نفسه ما ارتكبه الآخرون من إساءة في حقه. أما إذا كان العفو من الله تعالى فإنه لا يعني محو الذنوب فحسب؛ بل يعني أيضًا محو كل آثارها.

التفسير:

تصف الآية الكريمة ثلاث مراحل للمؤمنين في تعاملهم مع الآخرين. ففي المرحلة الأولى يكظم المؤمن غيظه ويتحكم بمشاعره وتصرفاته إذا أساء الناس إليه، ثم يتقدم خطوة أخرى إلى الأمام فيعفو عمن أساء إليه ويتجاوز عن إساءته، وفي المرحلة

الثالثة لا يكتفي بغفران الإساءة والعفو عن المسيء فقط، ولكنه يقوم نحوه بعمل طيب ويؤدي إليه معروفاً. وتتجلى هذه المراحل الثلاث في حياة «الحسن بن علي» سبط الرسول ﷺ. فقد حدث أن ارتكب عبداً له إساءة في حقه مما أغضب الحسن ﷺ غضبا عظيما فقرر أن ينزل به العقاب. وهنا تلا العبد الجزء الأول من هذه الآية ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ﴾، فلما سمع الحسن ﷺ هذه الكلمات تمالك نفسه ووقف في مكانه بعد أن كان قد رفع يده ليضرب بها العبد المسيء. ثم تلا العبد الجزء الثاني من الآية ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، فلما سمع الحسن ﷺ كلام الله تعالى انصاع له على الفور وقال لغلامه إنه قد عفا عنه. وهنا تلا العبد الجزء الأخير من الآية ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وطاعة لأمر الله تعالى حرّر الحسن ﷺ غلامه من رقة العبودية وقال له إنه حر ويمكنه أن يذهب حيث يشاء. (البيان، ج ١، ص ٣٦٦).

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾

التفسير:

تحتوي هذه الآية الكريمة على تفنيدي وردّ على عقيدة الكفارة المسيحية. وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ يبين أن المتقين إذا ارتكبوا إثماً، فسرعان ما يذكرون الله ﷻ. وفي الواقع، قد يحدث أحيانا أن يقع الصالحون في الإثم، إلا أن قلوبهم لا تموت بسبب الخطيئة، ويكونون على الفور مستعدين للتوبة. وبالتالي، إذا حدث أنهم ارتكبوا إثماً، فيكون ذلك نتيجة زلة أو ضعف مؤقت، لا بسبب حب الانغماس في الإثم. وعلى هذا، إذا «ذكر» الإنسان الله تعالى فور ارتكابه الإثم، وشعر بندم صادق على ما بدر

منه، وعلى الشر الذي ارتكبه، تكون لديه الفرصة للتوبة والرجوع إلى الله تعالى. أما إذا استمر المرء في ارتكاب الإثم إلى أن يفقد الإحساس بالذنب ولا يشعر بوخز في ضميره أو بأي ندم على ما اقترفه من شرور، فإنه يفقد بذلك القدرة على التوبة، ويكون مصيره الهلاك، إلا إذا أحدث الله تعالى فيه من فضله تغييرا.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ بمنزلة جملة اعتراضية، لتحث المؤمنين على التوبة. فالآية لا تدفعهم إلى التوبة بسبب الخوف، وإنما بتذكيرهم بمغفرة الله تعالى. فعندما يكون الله تعالى رحمانا وغفورا، فلم لا يتوب إليه الإنسان ويسأله المغفرة؟

وبعني قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أنه إذا حدث أن ارتكب الصالحون من الناس خطأ، فإنهم لا يحاولون تبرير سلوكهم الخاطئ، وإنما يعترفون صراحة بخطئهم، ويسعون لإصلاح أنفسهم. والآية لا تعني بالطبع أن يعترف الإنسان بأخطائه للآخرين، وإنما عليه أن يعترف بأخطائه أمام نفسه، أي أنه لا يحاول الدفاع عن مسلكه إذا لفت شخص آخر نظره إلى الخطأ الذي بدر منه، أو إذا أحس بوخز ضميره على ما ارتكب من خطأ، فإن الاتقياء من الناس لا يسعون أبدا لخداع أنفسهم.

أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ
أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٧﴾

التفسير:

عندما يرجع المرء إلى الله تعالى بإخلاص بعد ارتكابه الإثم ويتوب إليه بصدق، فإن الله تعالى يعفو عنه ويغفر له. وتبين الآية بوضوح أن المغفرة هي المرحلة الأولى فقط، فالله تبارك وتعالى يهدي التوابين إلى مدارج روحية أعلى ويعدهم بالجنة.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَمِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾

شرح الكلمات:

سُنَنٌ: جمع سُنَّة المشتقة من سَنَّ. يُقَال سَنَّ السَّكِينُ أَي أَحَدَهُ وَشَحَذَهُ وَ«هَذَا مَا يَسُنُّكَ عَلَى الطَّعَامِ»: أَي يَشَحِّذُكَ عَلَى أَكْلِهِ وَيُشْهِيهِ إِلَيْكَ. سَنَّ الْعَقْدَةَ: حَلَّهَا. سَنَّ الْأَمْرَ: بَيَّنَّهُ وَسَهَّلَهُ وَأَجْرَاهُ. سَنَّ الشَّيْءَ: صَوَّرَهُ. سَنَّ الطَّرِيقَةَ: سَارَ فِيهَا. سَنَّ عَلَيْهِمْ سُنَّةً: وَضَعَهَا. «سُنَّةٌ» تعني: (١) الوجه أو دائرته؛ (٢) الطريقة؛ (٣) السيرة؛ (٤) الطبيعة؛ (٥) الشريعة (أقرب الموارد وتاج العروس).

التفسير:

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يعني أنه قد كان قبلكم أناس اتبعوا طرقاً متنوعة أو كانت لهم صفات مختلفة؛ أو أنه كان من قبلكم أمم كثيرة وشعوب كانت تتبع نظماً أو قوانين مختلفة. فعليكم أن تسيروا في الأرض وتبحثوا عن نجا من الناس ومن هلك وفني، وماذا كانت عاقبة أولئك الذين استمروا في ارتكاب الإثم ونهايتهم.

هَذَا بَيَاتٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٩﴾

التفسير:

اسم الإشارة ﴿هَذَا﴾ في الآية يمكن أن يشير إلى: (١) القرآن المجيد، أو (٢) الآية السابقة مباشرة، أو (٣) موضوع التوبة الذي تم تناوله في الآيات السابقة.

وكلمة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هنا لا تنطبق بالضرورة حصرياً على المسلمين فقط، وإنما تشمل جميع الناس الذين يبتغون بجد وصدق أن يقوا أنفسهم من الأمور المفحمة بالخطر على سلامتهم الروحية، والذين يهتمون بالعمل على تقدمهم الروحي، ومثل أولئك فقط هم أكثر الناس احتمالاً لأن يستفيدوا من الموعظة والنصيحة.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾

شرح الكلمات:

إِنْ: من الكلمات العربية الشهيرة وتعطي العديد من المعاني؛ منها: (١) حرف شرط بمعنى إذا؛ (٢) حرف نفي بمعنى ليس؛ (٣) حرف تأكيد بمعنى حقاً أو يقيناً؛ (٤) للتفسير بمعنى أي؛ (٥) بمعنى متى؛ ... إلخ (معجم لين).

التفسير:

يحتوي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على مبدأ ذي جانب كبير من الأهمية لقوة الفرد أو لقوة المجتمع كله. فإن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ يتعلق بأخطار المستقبل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ يتعلق بالماضي وخطوبه. ولا تسقط الأُمم إلا عندما يصيبها الوهن بسبب عدم القيام بما عليها من مسؤوليات، أو عندما يجتاحها اليأس بسبب طول التفكير في الماضي. وتحذر الآية من كلا الخطرين.

ويعني قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أنه إذا اتبع المسلمون النصيحة السابقة، فمن المؤكد أنهم سوف يحققون النصر في النهاية. والفشل الذي يمكن أن يصيبهم في الطريق لا يُعد فشلاً ما دام النصر النهائي مؤكداً لهم. ومن الواضح أن المسلمين قد عانوا من نكسة في أحد، ولذلك يعظ الله تعالى المؤمنين ألا يسمحوا لأي شائبة من الوهن أن تتمكن منهم بسبب تلك النكسة، سواء كان ذلك في عملهم أو في إيمانهم.

وحسب الأسلوب العربي، يمكن أن يعني قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي «لأنكم مؤمنون» أو «بسبب أنكم مؤمنون»، وفي هذه الحال تحمل الآية تأكيداً أشد على الوعد بالنصر.

إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ
مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا
يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾

شرح الكلمات:

يعلم: مشتقة من عَلِمَ وتعني عادةً عَرَفَ؛ ولكن يمكن أن تأتي أيضاً بمعنى مَيَّزَ. قال ابن جرير في شرح الآية الكريمة أن التعبير: «لأعلم عبد الله من عمر» يعني: لأعرف هذا من هذا؛ أي لكي أُمَيِّزَ عبد الله من عمر. ولقد استعملت بهذا المعنى أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٤) وفي قوله تعالى: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢١).

في حقيقة الأمر؛ إن الله تعالى هو العليم؛ وهو سبحانه ليس بحاجة لمعرفة شيء فإن كل شيء في علمه ﷻ تماماً. إنما المقصود هو التمييز والتفريق بين شيئين فقط. وحتى إذا كان المقصود بكلمة «عَلِمَ» هنا معنى المعرفة؛ فإنه يمكن تفسيرها على ضوء أن المعرفة نوعان. النوع الأول من المعرفة هي معرفة الأشياء قبل أن تأتي إلى حيز

الوجود؛ والنوع الثاني هو معرفة الأشياء بعد وجودها. والنوع الأخير هو المعرفة المقصودة هنا.

التفسير:

في الآية ١٦٦ فيما بعد، يذكر القرآن المجيد أن المسلمين أصابوا المشركين بضعف ما أصابوهم به من الأذى ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾، ويشير هذا إلى غزوة بدر عندما قُتل سبعون من المشركين ووقع سبعون منهم في الأسر، فكان المجموع ١٤٠ من الضحايا. وفي غزوة أحد، قُتل سبعون من المسلمين، ولكن لم يقع أحد منهم أسيرا في يد المشركين. وعلى هذا يكون المسلمون قد أصابوا المشركين بضعف ما أصابهم به المشركون في غزوة بدر بالمقارنة مع ما أصاب المسلمين في غزوة أحد. وعند حساب عدد القتلى فقط في المعركتين، تذكر الآية الحالية أن خسائر المسلمين والمشركين متماثلة. ويمكن أن يكون المقصود من الآية هو طبيعة ونوع ما أصاب الطرفين في كلتا الحالتين. وفي هذه الحالة تتعلق الآية ١٦٦ بالكمية، بينما تتعلق الآية الحالية بالنوعية.

وكلمة ﴿الْأَيَّامُ﴾ تعني كلا من «أيام النصر» و«أيام الخطوب»، ويمكن هنا أن ينطبق أيّ من المعنيين، ولو أن المعنى الثاني أقرب للسياق.

ويعني قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أنه حتى المؤمنين يمكن أن يعانون من بعض النكسات، وإن لم يكن الأمر كذلك لما كان هناك من قيمة للمرء في أن يكون مؤمنا. إن رؤية الشمس لا تحتاج إلى جهد أو مشقة، وبالتالي فلا ثواب عليها. وعلى ذلك، يوجد دائما في الأمور الدينية عنصر الإبهام والخفاء فيما يختص ببعض الحقائق، ولا يمكن أن يرى الحق ويقبله إلا الذين هم مخلصون وصادقون وعازمون على معرفة الحق، وأولئك هم الذين يستحقون الثواب من الله تعالى. وتحتوي الآية أيضا على نبوءة بأن النكسة التي حدثت في أحد سوف يتبعها نصر قريب، وهذا هو ما حدث بالفعل.

وبين قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَنَّ الغرض من النكسات هو أن يظهر للجميع إيمان المؤمنين المخلصين. فعندما يتحمل المؤمنون المحن والابتلاءات بصبر وثبات، ولا يتزعزعون عن طريق الإيمان، يظهر صدقهم وإخلاصهم. فالمحن أيضا تساعد على التمييز بين المؤمنين الصادقين والمنافقين، ولو لم تكن هناك محن أو ابتلاءات لظل نفاق رجال مثل عبد الله بن أبيّ وأتباعه خفيا غير معروف.

وكلمة ﴿شُهَدَاءَ﴾ تعني شهود ولا تعني هنا القتل في سبيل الله ﷺ، فإن المسلم الحق يكون دائما شهيدا إذا قُتل في سبيل الله. وبالإضافة لذلك، لا معنى للقول بأن النكسة في أحد كانت بغرض أن يكون هناك قتلى من بين المسلمين في سبيل الله، وعلى هذا فالكلمة هنا تعني أولئك الذين يشهدون. فالمؤمنون يشهدون على صدق الإسلام بثباتهم وبالأمثلة النبيلة التي يقدمونها في الأوقات العصيبة، وهم بلا شك شهداء بلغاء على صدق الإسلام.

وكلمة ﴿الظَّالِمِينَ﴾ التي جاءت في نهاية الآية تعني أنه في ضوء الحقائق التي جاء ذكرها فيما سبق، يكون من الظلم أن يسيء المرء الحكم على الإسلام لمجرد حدوث نكسة للمؤمنين.

وَلْيَمْحَضِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾

التفسير:

إن النكسة التي حدثت في أحد طهرت المسلمين من ذنوبهم، إذ كانت بمثابة الكفارة التي يكفر بها المرء عن ذنوبه. كما جعلت معركة أحد بعض المشركين يرون أن الإسلام كان هو بالفعل دين الله تعالى، فنفس أولئك الزعماء من أهل مكة الذين

اشتركوا بدور قيادي في تلك المعركة ضد المسلمين انتهى بهم الأمر إلى الدخول في الإسلام. لقد استسلمت قلوبهم وتم القضاء على نوازع الكفر لديهم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٣﴾

التفسير:

إنها المحن والابتلاءات التي تبين قيمة المرء وتكشف عن معادن الناس، ولا يمكن أن يتحقق التقدم الروحي بدونها.

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٤﴾

شرح الكلمات:

تَنْظُرُونَ: من نظر وتعني: بصر. نظره أو نظر إليه: أبصره وتأمله بعينه؛ مدّ طرفه إليه رآه أو لم يره. نظره تعني أيضاً انتظره. ويقال داري تنظر داره أي: تقابلها (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

إن المقصود بكلمة ﴿الْمَوْتُ﴾ هنا هو الحرب، فالحرب كانت هي الموت وخاصة بالنسبة للمسلمين الذين كانوا في غاية الضعف في كل من العدد والعتاد بالمقارنة مع أعدائهم الأقوياء. ونقرأ في «الزرقاني» أنه عند الاستعداد لمعركة أحد، أراد الرسول ﷺ أن يبقى لمواجهة الأعداء في المدينة، غير أن بعض صحابته.. خاصة أولئك الذين لم يشتركوا في معركة بدر، قالوا: «أُخْرِجْ بَنَّا إِلَى أَعْدَائِنَا، لَا يَرَوْنَ أَنَّا

جَبْتًا عَنْهُمْ وَضَعْنَا؟» (الزرقاني ج ١، ص ٢٢). وتشير الآية إلى هذه الأمنيات التي كانت تراود المسلمين في الكلمات «وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ». كان ذلك التمني من جانب المسلمين يعني أنهم كانوا يريدون عمل شيء ما في سبيل الله تعالى، ولكنه سبحانه يلفت أنظارهم هنا إلى أنهم لا يستطيعون عمل شيء وحدهم. ولذلك فإن من تعاليم الإسلام ألا يتمنى المرء لقاء العدو أبداً، ولكن إذا حدث أن أدت الظروف إلى ملاقاته العدو، فعليه أن يكون شجاعاً في الحرب، متمسكاً بالصبر والثبات. يقول الرسول ﷺ: «لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» (مسلم، كتاب الجهاد)، أي أنكم إذا قُتلتم في سبيل الله تعالى، فمن المؤكد أنه سوف ينعم عليكم بالسعادة والنعيم في الحياة الآخرة.

إن ضمير «الهاء» في قوله تعالى: «فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ» يعود إلى الحرب والقتال، ويعني أنكم الآن بعد أن رأيتم القتال وعايَنتم الحرب، أدركتم أنكم بغير عون الله تعالى لا قوة لكم ولا قدرة لديكم على محاربة العدو، ولا تستطيعون أن تحققوا شيئاً. وقد جاءت نهاية الآية «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» للتسرية عن المسلمين، لأن النكسة قد جاءت بهم بما كانوا يتمنون.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
 أَفَاِئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
 وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا
 وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

التفسير:

كما سبق ذكره في الآية ١٢٢، لقد سرت إشاعة كاذبة بأن الرسول ﷺ قد قُتل، وتشير الآية إلى هذه المناسبة. وما تريد الآية تبينه هو برغم أن تلك الإشاعة عن مقتل الرسول ﷺ كانت كاذبة، فحتى لو كانت صحيحة، ينبغي ألا يؤدي ذلك بالمؤمنين إلى الشعور باليأس أو الضعف، ولا أن ينقلبوا على أعقابهم. إن محمداً ﷺ لم يكن سوى نبيٍّ ورسول، وكما أن الرسل من قبله قد ماتوا، فينبغي أن يموت هو أيضاً، فإن الله تعالى وحده الحي الذي لا يموت.

وقد ورد أنه بعد مرور سبع سنين بعد ذلك، عندما توفي الرسول ﷺ، وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسجد النبي ﷺ وقد شهر سيفه في يده وقال: «من قال إنَّ محمداً قد مات ضربته عنقه، إنه ذهب لملاقاة ربه كما ذهب موسى لملاقاة ربه، وسوف يعود ليعاقب المنافقين». لم يكن أبو بكر رضي الله عنه موجوداً في المدينة في هذه الأثناء عند وفاة الرسول ﷺ، ولكنه أسرع بالعودة عند بلوغه الخبر فذهب مباشرة إلى حجرة الرسول ﷺ، فلما رآه قد مات قبَّل جبينه، وقال: «طبت حيا وميتاً، ولن يجمع الله عليك موتين أبداً». ثم خرج إلى المسلمين في قوة وثبات، وأمر عمر رضي الله عنه بالجلوس ثم خاطب المسلمين الذين كانوا قد تجمعوا في المسجد، وتلا نفس هذه الآية الكريمة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، مما يعني أنه لم يكن غريباً في تلك الظروف أن يموت الرسول ﷺ أيضاً. فلما سمع عمر وبقية الصحابة رضي الله عنهم هذه الآية أدركوا أن حبيبهم رسول الله ﷺ قد مات، فغلبهم الحزن لذلك. وعلى هذا فإن الآية تبين ضمناً أن جميع الأنبياء والرسل الذين عاشوا قبل الرسول ﷺ قد ماتوا أيضاً؛ إذ لو كان أحدهم لا يزال على قيد الحياة، لما كانت الآية لتصلح أن تُقال في هذه المناسبة كبرهان على وفاة الرسول ﷺ. كذلك فإن الآية تنفي فكرة صعود أحد إلى السماء، فقد قرأها أبو بكر رضي الله عنه لتفنيد قول عمر رضي الله عنه بأن الرسول ﷺ لم يمت وإنما ذهب إلى السماء لملاقاة ربه. وعلى هذا،

فإن الآية تقدم دليلاً لا يرقى إليه الشك على أن عيسى عليه السلام أيضاً، الذي كان واحداً من الأنبياء الذين ظهرُوا قبل الرسول ﷺ، ليس على قيد الحياة بجسده العنصري في السماء، كما يؤمن بذلك خطأ بعض المسلمين في عصرنا الحديث، متبعين في ذلك العقائد المسيحية. فلا شك أنه قد مات، بحسب ما تؤكدُه هذه الآية الكريمة، وبحسب الإجماع الذي أجمع عليه الصحابة في مناسبة وفاة الرسول ﷺ.

وفي الواقع، إن الدين لا يعتمد على أحد من البشر بوجه خاص، بل إنه يخص الله تبارك وتعالى وحده. ولهذا فإن القرآن المجيد يؤكد أنه إذا مات الرسول ﷺ أو إذا قُتل، فلن يكون هذا سبباً في أن ينقلب المسلمون على أعقابهم؛ فليس النبي ﷺ سوى رسول من لدن الله تعالى. ونقرأ في مكان آخر من القرآن المجيد قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٨)، ولا تعارض بين هاتين الآيتين. فما يريد القرآن المجيد أن يؤكدَه في هذه الآية الكريمة هو حقيقة التعاليم الإسلامية. فقد رأى المسلمون بأعينهم وجربوا بأنفسهم مدى طهارة وصدق هذه التعاليم، فلا يمكن أن يتحوّل صدق هذه التعاليم إلى كذب أو تنقلب صحتها إلى خطأ إذا ما حدث أن قُتل النبي ﷺ. فمثلاً، إن التعليم الأساس الذي يقوم عليه الإسلام هو وحدانية الله تعالى، ولا يمكن أن تتحوّل هذه الحقيقة إلى غير حقيقة إذا ما قُتل الرسول ﷺ. ولكن، رغم إعلان هذه الحقيقة، فما كان الله تعالى ليدع أحداً يقتل رسول الله ﷺ، لأنه سبحانه قد وعد بعصمته من الناس.

ولا ينبغي أن يغيب عن البال أن العصمة والحفاظة من القتل التي وعد الله تعالى بها رسوله ﷺ لم يعتبرها القرآن المجيد المنهج الذي يستدل به على صدق النبي. إذ إنَّ الأمر يتطلب أن يقبل الناس الرسول أثناء حياته، وعلى ذلك فلا بد أن تتوفّر لهم الدلائل على صدقه أثناء حياته، وبرؤيتهم تلك الدلائل فإنهم يؤمنون به، وليس معقولاً أن ينتظروا إلى أن يموت حتى يقرروا ما إذا كان صادقاً في دعواه أم أنه كان كاذباً. وما دامت تلك الدلائل على صدق النبي قد تحققت بوضوح أثناء حياته، فإن دعواه تكون قد ثبتت صحتها، ولا يمكن أن تُنقض صحة هذه الدلائل بعد

ذلك أبدا. أما إذا كان النبي قد قُتل قبل أن يتحقق أي دليل من دلائل صدقه، فإننا نستطيع أن نقول إنه لا دليل على صحة دعواه وإنه كان كاذبا في دعوى النبوة. ولكن هذا لم يحدث أبدا للرسول ﷺ.

لقد فرح الأعداء عندما سرت الإشاعة بأن الرسول ﷺ قد قُتل، غير أن هذا الموت المظنون قد تحول ليكون سببا في حياة الإسلام، فقد حقق غرضا هاما، وهو أنه أعدّ المسلمين لتقبّل وفاة الرسول ﷺ عندما يحين أجله، ولولم تحدث هذه الواقعة، لتسببت وفاة الرسول ﷺ في صدمة شديدة للمسلمين. وفي الواقع إن هذه التجربة المريرة قد أتت للإسلام بالكثير من البركات الخفية. لقد تبين في غزوة أحد مدى إيمان المسلمين الذي لم يتزعزع، وعندما تُوفيّ الرسول ﷺ بالفعل، كانت هذه التجربة سببا في إنقاذ المسلمين من الانكسار والانقلاب على أعقابهم؛ والآن، حيث يبدو الإسلام قد مات من ناحية الظاهر، فإن تلك الحادثة تنفخ حياة جديدة فيه بإثبات أن المسيح الذي رفعه المسيحيون ﷺ إلى مرتبة الله تعالى، قد مات مثل بقية الأنبياء الذين جاؤوا وماتوا قبل مجيء الإسلام.

وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا
نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا
وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٦﴾

التفسير:

تحدثت الآية السابقة عن احتمال موت الرسول ﷺ، ولكن كان هذا من ناحية المبدأ فحسب، وإلا فكيف يمكن أن يموت النبي ﷺ إلا بإذن الله تعالى الذي وعد بأن يعصمه من القتل بأيدي الناس؟ حينما يأتي الموت، فإنه يأتي بإذن الله تعالى، ولكن

هذا الإذن لم يكن قد حان بعد بالنسبة للرسول ﷺ، فهناك موعد محدد لذلك وهو كتاب مؤجل، لن تستطيع مؤامرات الأعداء ومخططاتهم أن تنجح في التعجيل به.

وَكَايِّنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ
فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا
ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٧﴾

شرح الكلمات:

رِيشُونَ: جمع رِيٍّ المشتق من رَبٍّ (انظر الآية الثانية من سورة الفاتحة) رِيٍّ أي منسوب إلى «رِيَّة» وهي الجماعة الكثيرة. ريشون: الألوف من الناس (أقرب الموارد)؛ وتعني أيضاً: العلماء؛ الأتقياء؛ الحلماء (معجم لين).

اسْتَكَانُوا: من سَكَنَ أي قَرَّ؛ أو مشتقة من كان أي حدث أو خُلِقَ. استكان: خَضَعَ وذَلَّ (أقرب الموارد).

التفسير:

تحت الآية الكريمة المؤمنين على الانتفاع بالأمثلة الطيبة التي قدمها الأبرار من الأمم السابقة، الذين لم يُصْنَبْهم الوهن لما أصابهم في سبيل الله تعالى، ولم يَنْهَضْهم الضعف، ولا استولت عليهم الاستكانة، بل تمسكوا دائماً بأهداب الصبر والثبات.

وَمَا كَانَتْ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٨﴾

التفسير:

إن كل جزء من الدعاء المذكور في هذه الآية الكريمة يناظر الأمور التي جاء ذكرها في الآية السابقة، وفي الواقع إن النجاح يأتي بعون الله تعالى وفضله، أما المجهود البشري وحده فإنه لا يكفي.

غير أنه ينبغي ملاحظة أن نهاية الدعاء المذكور في هذه الآية وهو ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لا يناظر عملاً من الأعمال المذكورة في الآية السابقة، مما يدل على أن النصر النهائي والنجاح يأتي فقط بفضل الله تعالى وليس من نتيجة أعمال الإنسان.

فَتَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٩﴾

التفسير:

إن لثواب الآخرة درجات مختلفة، والمؤمنون الذين جاء ذكرهم فيما سبق سوف ينالون أحسن هذه الدرجات. إن كلمة ﴿حُسْنَ﴾ المذكورة في الآية لا تدل بالضرورة على أعلى الدرجات، ولكنها تستخدم للتعبير عن الإحسان الغزير والمطلق.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٥٠﴾

التفسير:

ينبغي أن نضع في الاعتبار هنا أن الآية الكريمة لا تحض المسلمين ألا يتعاملوا على الإطلاق مع غير المسلمين، وإنما هي تحذرهم فقط من الخضوع لأعداء الإسلام الذين هم في حرب معهم أو اتباع طرقهم، بل عليهم أن يكونوا على حذر تجاه هؤلاء، رغم

أنهم لا ينبغي أن يخشوهم، لأن الله تعالى في جانب المؤمنين، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة التالية: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥١﴾

التفسير:

انظر الآيات: الأنفال: ٤١؛ التوبة: ٥١؛ الحج: ٧٩.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ
النَّارُ وَبَشِّرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٢﴾

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ يعني أن من يشرك بالله لا يمكن أن يكون شجاعاً حقيقياً لأنه يفتقد الولاء لأحد، فإن الولاء الكامل وحده هو الذي يدفع المرء لتقديم التضحيات. ولما كان المؤمن بالله تعالى هو الذي لديه الولاء الكامل له، فإنه يكون دائماً على استعداد لتقديم كل غال ورخيص في سبيله تعالى.

وبالإضافة إلى ذلك، وبسبب افتقاد المثابرة، فإن عبّاد الأصنام ينتقلون من إله إلى آخر، فالمثابرة عنصر هام من عناصر الشجاعة والجرأة والإقدام، وحيثما انعدمت المثابرة انعدمت الشجاعة كذلك. وأيضاً، إن من يتخذ آلهة بجانب الله تعالى فإنه يكون متمرداً على وحدانيته ﷻ، وقلب الشخص المتمرد لا تملأه الطمأنينة أبداً؛ والقلب الذي يفتقد الطمأنينة لا يمكن أن يكون شجاعاً. وكذلك، إن الشرك بالله

تعالى ينبع من الخوف مما هو دون الله، والمرء الذي يستولي عليه مثل ذلك الخوف لا يمكن أن يكون شجاعا حقيقيا.

غير أنه ينبغي أن نضع في الاعتبار أن الشجاعة المذكورة هنا هي شجاعة نسبية، وإلا حتى بين الوثنيين وعباد الأصنام يوجد أيضا من يتصف بالشجاعة والإقدام، ولكن شجاعتهم أدنى من شجاعة الصادقين من المؤمنين الذين يضعون ثقتهم في الله الواحد الأحد، ويؤمنون بقدراته العظيمة كما يؤمنون بالحياة بعد الموت.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ
حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ
مَنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ
يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٣﴾

التفسير:

إن كلمة ﴿وَعْدَهُ﴾ التي جاءت في هذه الآية تشير إلى الوعد العام بتحقيق النصر والنجاح للمسلمين الذي كثيرا ما قطعه الله تعالى لهم.

ويشير قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ إلى الرماة الذين كان مركزهم في مؤخرة جيش المؤمنين لحمايتهم في أحد، ويعني أن هؤلاء قد فشلوا في مقاومة الإغراء للاشتراك في القتال وجمع الأسلاب والغنائم، وفشلهم هذا في التحكم في رغباتهم كان عملا يتسم بالجن من جانبهم. إنه فعل القلب الذي هو مركز الشجاعة والإقدام، ويقول الرسول ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»

(البخاري، كتاب الأدب). وكلمة ﴿الْأَمْر﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يمكن أن يشير إما إلى أمر الرسول ﷺ لفريق الرماة ألا يغادروا مكانهم إلا بإذن منه، وإما يشير إلى مقصود الأمر نفسه، أي ما إذا كان الرسول ﷺ قد قصد فعلا أن يظلوا في أماكنهم حتى بعد أن انتهى القتال وتحقق النصر للمسلمين، حيث قال البعض أن هذا كان مقصوده، بينما قال آخرون أنه لم يكن يقصد ذلك.

وبعني قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أنهم لم يأبھوا للأوامر التي أمرهم بها قائدهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، الذي أمرهم ألا يتركوا أماكنهم، رغم أن النصر كان وشيكاً. غير أنهم لم يستطيعوا أن يملكوا أنفسهم وبذلك تسببوا في وقوع الهزيمة للمسلمين.

ويشير قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ إلى الذين تركوا أماكنهم من فريق الرماة، ولما كانت «الدنيا» تعني الشيء القريب أيضاً، فيمكن أن تعني الجملة أن بعض الرماة رغبوا في نوال ما هو قريب منهم، أي الاشتراك في المعركة وجمع الغنائم، بينما الفريق الآخر من الرماة، أي عبد الله بن جبير رضي الله عنه ومن بقي معه في أماكنهم، رغبوا في الآخرة، ففكروا في عواقب عصيان أمر الرسول ﷺ. إن بعضهم كان قصير النظر، بينما كان البعض الآخر بعيد النظر.

وبين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أنه سبحانه قضى بحدوث تلك النكسة لتكون تلك الواقعة درساً للمستقبل.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ
لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ
وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٤﴾

شرح الكلمات:

تُصْعِدُونَ: من أٌصعد المشتق من صعد بمعنى: ارتقى أو تسلق مرتفعاً. أٌصعد في الأرض: ذهب من أرض إلى أعلى منها؛ سواء مادياً أو مجازياً. وتعني أيضاً العكس: أي انحدَر في الأرض. أٌصعد في العدو: اشتد عليه. أٌصعد: ذهب في أي اتجاه (معجم لين).

أَثَابَ: من نفس جذر الكلمات: ثواب ومثوبة ومثابة؛ وتعني كافأ أو عَوَّض أو جازى (أقرب الموارد). انظر أيضاً سورة البقرة: الآيات ١٠٤ و ١٢٦.

التفسير:

كلمات الآية ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾، أي عندما فررتم ولم تنظروا إلى أحد من ورائكم، تشير إلى ما حدث في أحد عندما هاجم المشركون المسلمين من المؤخرة ومن المقدمة، فانكسرت صفوفهم وفر الكثير منهم هرباً بحياتهم في كل اتجاه. ففي أول الأمر عندما سمع المسلمون أن العدو يهاجم من الخلف، استداروا لمواجهة، ولكن حدث أن كان فريق من المسلمين قادماً أيضاً من ناحية المؤخرة، وفي تلك الظروف من التشويش والارتباك أخطأ البعض في التعامل مع هؤلاء وهاجموهم، مما أدى إلى زيادة الرعب والهلع حتى إنهم لم يسمعو صوت الرسول ﷺ الذي كان يناديهم.

ويشير قوله تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ إلى الإشاعة التي انتشرت عن مقتل الرسول ﷺ في غزوة أحد. فالغم المذكور أولاً يتعلق بهذه الإشاعة التي وقعت ثانياً، وأما الغم الثاني الذي وقع أولاً فهو يشير إلى حزن الرسول ﷺ الذي سببه له بعض صحابته من الرماة الذين لم يلتزموا بالبقاء في أماكنهم ولم يتبعوا أوامره كما كان ينبغي عليهم. وقد جاء أحد الغمين جزاء على الغم الآخر. وقد سرت إشاعة مقتل الرسول ﷺ عندما قُتل أحد الصحابة، وهو مُصعب بن عمير رضي الله عنه، الذي كان يحمل راية المسلمين، وظن البعض خطأ أنه الرسول ﷺ. ومن الواضح أن الغم الثاني المذكور لا يشير إلى الجروح التي أصابت الرسول ﷺ، فهو لم يُصب بهذه الجروح إلا

بعد أن غادر الرماة أماكنهم، وبعد أن سرت بين المسلمين تلك الإشاعة الكاذبة عن مقتل الرسول ﷺ.

والغم الذي سببه للرسول ﷺ بعض المسلمين الذين لم يسمعو له عندما كان ينادي عليهم من المؤخرة أثناء الارتباك الذي وقع، لم يذهب دون جزاء أيضا. فلما لم يسمع المسلمون لصوت الرسول ﷺ وهو ينادي عليهم، تركهم الله تعالى يظنون لبعض الوقت أن الرسول ﷺ قد قُتل، وكان ذلك عقابا لهم على ما بدر منهم. فإن لم يسمعو لصوت النبي ﷺ الذي بعثه الله تعالى فما الفائدة لهم من بقاءه في هذه الدنيا؟ وعلى ذلك، عندما سمعوا إشاعة مقتل الرسول ﷺ فكروا على الفور في قيمة البركات والنعم العظمى التي تلقوها من خلاله، وأدركوا في الحال، ليس فقط عظيم مكانته وعلو شأنه، بل أدركوا أيضا قدر خطئهم.

إن الكلمتين ﴿غَمًّا يَغَمُّ﴾ اللتين تعنيان «حزنًا جزاء لحزن» يمكن أن تعنيا أيضا «حزن بالإضافة إلى حزن»، أي حزن يتلوّه حزن. وفي هذه الحالة يعني هذا التعبير أن الله تعالى شاء أن يأتي الحزن الذي غمر قلوب المسلمين بسبب تلك الإشاعة الكاذبة عن مقتل الرسول ﷺ بعد الحزن الذي نالهم بسبب النكسة التي أصيبوا بها، وذلك حتى إذا ما تبين كذب تلك الإشاعة وعلموا أن الرسول ﷺ الحبيب لا يزال على قيد الحياة، فإن الفرح الذي ملأ قلوبهم سوف يعمل على إزالة آثار الحزن الذي أصابهم بسبب الهزيمة.

ويشير قوله: ﴿مَا فَاتَكُمْ﴾ إلى النصر الذي ضاع منهم بعد أن حققوه وكادوا أن يظفروا به. ولقد كان سرور المسلمين عظيما وفرحهم بحياة الرسول ﷺ بالغًا بغير حدود، حتى إنهم نسوا تماما الحزن الذي شعروا به على النصر الذي ضاع منهم. كذلك فإن قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكُمْ﴾ يشير إلى ما أصاب المسلمين في تلك المعركة، حيث فقد المسلمون سبعين رجلا بينما فقد المشركون من أهل مكة حوالي عشرين

رجلا فقط. كذلك يمكن أن يشير قوله تعالى إلى ما أصاب المسلمين من جروح في تلك المعركة.

ويمكن أن يعني أيضا قوله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَحْزَنُوا﴾ أنه لما كان ما أصاب المسلمين نوعاً من العقاب المباشر على ما بدر منهم في تلك المعركة، فلهم أن يأمنوا من عقاب الله تعالى في الآخرة.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا
يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ
هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ
كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ
يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا
هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ
كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ
اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي
قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٥﴾

شرح الكلمات:

أمر: تعني: (١) طلب إحداث شيء؛ (٢) الحال؛ (٣) الشأن؛ (٤) السلطة أو الحكم أو الإدارة. أولو الأمر: العلماء والرؤساء (أقرب الموارد).

قَتَلَ: صيغة المصدر وتعني كلاً من: أن تُقتل، أو أن تُقتل. وهناك قراءة أخرى لكلمة «قَتَلَ» هنا وهي «قتال» (المحيط الجزء الثالث ص ٩٠ والكشاف) وهذا يبين أن كلمة «قَتَلَ» هنا بمعنى الحرب وليس القتل. ولقد استخدمت هذه الكلمة في مواضع أخرى أيضاً من القرآن الكريم بمعنى الحرب (انظر سورة البقرة الآية ١٩٢). انظر أيضاً تفسير ابن جرير للآية ١٥٥ من سورة آل عمران.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ يتعلق بحادثة وقعت في غزوة أُحُد. يقول أبو طلحة رضي الله عنه «رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يمد تحت حافته من النعاس»، وقد روى الترمذي والنسائي وغيرهم هذه الواقعة (انظر ابن كثير، ج ٢، ص ٣٠٣). ولما كان النوم أو النعاس رمزا لحالة الأمن التي سرت في المسلمين، وكانت دليلاً على الطمأنينة التي ملأت قلوبهم، فإن الله تعالى يشير إلى تلك الحالة باعتبارها نعمة منه سبحانه. ومن الواضح أن هذه الحادثة قد وقعت بعد أن انتهت المعركة، وعاد المسلمون إلى منطقة عالية مجاورة.

وأما الكلمات ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فتعود إلى المنافقين الذين كانوا في المدينة ولم يشتركوا في القتال. فعندما سمعوا بالهزيمة التي أصابت المسلمين، وخبر مقتل الرسول ﷺ، فرغم أنهم قد فرحوا بما أصاب المسلمين، إلا أنهم أصيبوا بالقلق والخوف على حياتهم وما يمكن أن يحدث لهم إذا ما جاء أهل مكة للهجوم على المدينة. وبالطبع لا يمكن أن تتعلق هذه الكلمات من الآية بفريق المسلمين الذين اشتركوا في المعركة، والذين قال الله تعالى عنهم في الآية ١٥٣: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ السابقة.

والجملة التي جاءت على لسان المنافقين ﴿هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تعني «إن أحدا لا يسمع لرأينا في إدارة الأمور وتنظيمها؛ فقد نصحنا المسلمين بعدم الخروج من المدينة للقتال، ولكنهم تجاهلوا النصيحة، مما نتج عنه أنهم هُزموا». ويمكن أن تعني هذه

الجملة أيضا: «الآن، (أي بعد وقوع هذه النكسة) فإن الأمر والقوة أصبحت في أيدي المشركين، ولم يعد لنا من الأمر شيء».

وبعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أن تقرير كل شيء هو بيد الله تعالى؛ أو أن الله تعالى هو الذي قرر كل ما يحدث في الفترة الفاصلة وأنه قدر أن يهب الأمر والحكم للمسلمين الذين سوف يكون لهم الأمر في الأرض.

وتعني الكلمات: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ «لو كان لنا صوت مسموع في تصريف الأمور، ولو استمع أحد لنصيحتنا بعدم الخروج، لما قُتل أخواننا في المعركة»، ويلمح كلامهم هذا إلى أنهم هم من كانوا يتصفون بالتعقل والحكمة، بينما كان المسلمون يتصفون بالحمق والغباء. ويمكن فهم الجملة أيضا على أنها تعني «لو كان الأمر بيدنا (كما وعد بذلك الرسول) لما هُزمنّا في المعركة». ويقولهم هذا يومئ المنافقون إلى أن ما تنبأ به الرسول ﷺ من أن السلطة والحكم ستكون بيد المسلمين، قد ثبت خطؤه وعدم تحقيقه.

ومن الجدير بالذكر هنا أن قول المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ لا يعني أنهم هم أنفسهم ما كانوا قُتلوا، وإنما يعني أن إخوانهم أو زملاءهم الذين قُتلوا ما كانوا قد تعرضوا للقتل. وهذا يبين أنه أحيانا لا يكون المقصود بـ «قتل النفس» هو الانتحار أو قتل النفس حقيقة، وإنما المقصود بذلك قتل الإخوة أو الزملاء. وهذا يوضح معنى قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٥٥)، وقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ١٦). انظر أيضا شرح الآية ٥٥ من سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ موجه إلى المنافقين، بينما يعود قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ إلى المؤمنين. وقد جاء الأمر بالقتال في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩١).

وكلمة «مضاجع» في قوله تعالى: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ تشير إلى جبن المنافقين من ناحية، كما تشير إلى ثبات وإخلاص المؤمنين الصادقين

من ناحية أخرى. فهي تُذكر المنافقين بأنهم بينما هم عادوا إلى المدينة، ظانين أن القتال في مثل هذه الظروف يُعد موتاً مؤكداً، فإن الإيمان الصادق للمؤمنين المخلصين كان بادياً في ثبات وبقين راسخ، بحيث إنه حتى لو كان المنافقون قد امتنعوا عن الخروج كلية من أول الأمر، لخرج أولئك المؤمنون الصادقون إلى ميدان المعركة وهم مستبشرون بالموت في سبيل الله تعالى. لقد حدث كل هذا من أجل أن يُظهر الله تعالى قلوب المؤمنين ويعظم قدرهم ويرفع شأنهم.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آلتَقَى الْجَمْعَانِ
إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ
عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾

التفسير:

إن «الزلل» الذي تذكره هذه الآية يشير إلى معصية البعض من فريق الرماة الذين لم يبقوا في أماكنهم في مؤخرة جيش المسلمين، ويمكن أن يشير أيضاً إلى فرار بعض المسلمين من أرض المعركة عند وقوع الارتباك في صفوف الجيش. غير أن الله تعالى، بخالص رحمته الواسعة، أخذ في الاعتبار جميع ظروف وملابسات ما حدث، قد غفر لهم جميعاً.

ويتضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ مدحاً للمسلمين. فهؤلاء الرجال الذين استزلهم الشيطان لم يكونوا فاسدين بل كانوا بحق رجالاً أتقياء، وإنما «بعض» أعمالهم فقط لم تكن سوية، مما تسبب لهم مؤقتاً في ذلك الخزي. غير أن كل أعمالهم لم تكن سيئة، وإنما بعضها فقط. وتتضمن الآية تحذيراً بأن على المؤمن المخلص أن لا يخلد إلى الاطمئنان حتى لو كانت معظم أعماله طيبة سوية، فهو لا

يسلم من الخطر أبداً إلا إذا كانت جميع أعماله تقية نقية. غير أنه يمكن أن يأمل في غفران الله تعالى إذا استطاع أن يجعل معظم أعماله طيبة خالصة لوجهه سبحانه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا
غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ
اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٧﴾

التفسير:

تعني الكلمات ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إذا سافروا في الأرض في سبيل الله تعالى، فهذا المعنى يؤيده السياق أيضاً.

والمعنى الذي يحتويه قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هو أنه لما رفض المسلمون قبول نصيحة المنافقين بعدم القتال، وخرجوا في أعداد كبيرة في سبيل الله تعالى، كان من الطبيعي أن يشعر المنافقون بالحسرة في قلوبهم لأنهم لم يستطيعوا أن يكسبوا المسلمين إلى صفوفهم ليأخذوا برأيهم.

ويختلف معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ باختلاف معاني كلمتي «الموت» و«الحياة» المذكورتين فيه. فإذا أخذنا كلمة الموت بمعنى «الهلاك»، فتعني الآية أن هلاك عدد قليل من المسلمين، لن يؤدي إلى القضاء على الإسلام. لقد قدر الله تعالى أن يهيب المسلمين النصر، وموت عدد من المقاتلين المسلمين في الجيش الذي كتب الله تعالى له النصر في النهاية، لا يمكن أن يكون سبباً في هلاكه. أما إذا كان المقصود بكلمة الموت هنا «الحزب»، فتعني الآية أن أنصار الله تعالى وعباده المخلصين لا يمكن

أن ينالوا الخزي أو العار، لأن الله العزّة على كل عزّة، وهو الذي يمنح العزّة لمن يشاء من عباده المخلصين. وإن من يقاتل في سبيل الله تعالى ويقدم حياته من أجل الحق، لا يمكن أن يعتبر من الأموات، لأن مثل هذا الشخص قد أعطى حياته لمن بيده كل أمور الموت والحياة. إن مثل هذا المرء لا يمكن أن يموت؛ رغم أنه قد يموت من الناحية الجسدية، إلا أنه يعيش إلى الأبد من الناحية الروحية. وفي هذا الخصوص انظر أيضا شرح الآية ١٥٥ من سورة البقرة.

وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٨﴾

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أن المنافقين يخشون الموت بسبب المال والممتلكات التي سوف يتركونها وراءهم؛ بينما إذا قُتل المؤمنون في سبيل الله تعالى، فإنهم سوف ينالون منه ما يفوق وما لا يمكن مقارنته بما يجمعه أولئك المنافقون، أو بما يجمعه المسلمون أنفسهم من أموال أو من أمور مادية. وعلى ذلك، فلا معنى ولا داعي للمؤمنين المخلصين أن يخشوا الموت في سبيل الله.

وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٩﴾

التفسير:

إن ضمير الجمع هنا يشمل كلا من المؤمنين والمنافقين، فليسوف يعود الجميع إلى الله تعالى من أجل نوال الثواب أو العقاب كما يقتضي الأمر.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ
فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ
فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٦٠﴾

شرح الكلمات:

شَاوَرَ: من شار، يُقال شار العسل أي: استخرجه من الوقبة واجتناه. شار الدابة: راضها؛ وقيل ركبها عند العرض على مشترئها؛ وقيل اختبرها ينظر ما عندها أو قلبها. أشار إليه: أوماً. أشار عليه: أمره وارتآه له ويّين له وجه المصلحة ودلّه على الصواب. شاوره: طلب منه المشورة. المشورة: النصيحة. الشورى: التشاور (أقرب الموارد). **فَتَوَكَّلَ:** أي ضع ثقتك. لمراجعة معنى كلمة توكل؛ انظر الآية ١٢٣ من نفس السورة.

التفسير:

تعطي الآية الكريمة رؤية جميلة لشخصية الرسول ﷺ وتكشف عن أهم ما كان يتميز به من صفات وهي الرحمة الواسعة الشاملة. لقد كان ﷺ مفعماً بركة القلب والشفقة الإنسانية، ولم يكن عطوفاً فقط على صحابته وأتباعه، وإنما كان رحيماً أيضاً بأعدائه الذين كانوا يترصدون به الدوائر. وقد سجل التاريخ أنه لم يتخذ أي إجراء عقابي تجاه أولئك المنافقين الخونة الذين تخلوا عنه في غزوة أحد، بل إنه كان يستشيرهم حتى في تصريف أمور الدولة.

وتشكل الآية أيضاً رداً بليغاً على الدعوى التي ادّعى بها المنافقون وهي أن الرسول ﷺ لم يلق بالاً إلى نصيحتهم وفعل ما بدا له. ويرد القرآن المجيد على هذه الدعوى

فيقول إنه لولا أن الرسول ﷺ كان رحيمًا لَبَيَّنَا عَطُوفًا بِهِمْ، لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ مِنْذُ زَمَنْ طَوِيلٍ، وَعَلَى هَذَا فَإِنْ حَقِيقَةُ بَقَائِهِمْ مَعَهُ تَدُلُّ عَلَى زَيْفِ ادِّعَائِهِمْ وَتَبْرَهْنِ عَلَى أَنْ مَعَامَلَةَ الرَّسُولِ ﷺ لَهُمْ كَانَتْ طَيِّبَةً كَرِيمَةً، وَأَنَّهَا كَانَتْ تَتَّفَقُ مَعَ التَّوْجِيهِ الْإِلَهِيِّ (انظر أيضًا الآية ٣٩ من سورة الشورى)، فَقَدْ كَانَ يَسْتَشِيرُهُمْ فِي تَسْيِيرِ أُمُورِ الدَّوْلَةِ، وَكَانَ مِنْ نَتِيجَةِ ذَلِكَ أَنَّ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ قَدْ تَابُوا وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَصْبَحُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمَخْلُصِينَ. وَرَغْمَ أَنَّ التَّوْجِيهِ الْخَاصَّ بِالشُّورَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَهُ طَبِيعَةٌ عَامَّةٌ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُوجَّهًا بِشَكْلِ خَاصٍّ لِلْمَنَافِقِينَ فِي الْمَدِينَةِ.

ومما هو جدير بالذكر أن الإسلام يقف وحيداً بين الأديان جميعاً في جعله مبدأ الشورى من مبادئه الأساسية. فقد وضع قاعدة للرسول ﷺ وخلفائه من بعده أنه، حين يستدعي الأمر، ينبغي عليهم أن يستشيروا أتباعهم في الأمور الخاصة بشؤون الدولة. إن الدين الذي يعلن أنه عالمي لا بد أن يحتوي على مثل هذا التعليم. لقد استمر الكثير من الناس من جميع مشارب الحياة ومن مختلف الأجناس ومن طبقات عديدة يدخلون الإسلام، وإذا تمت استشارة هؤلاء في الأمور المهمة، فمن المتوقع ألا يضيف هذا إلى معارفهم ويزيد من خبراتهم فحسب، وإنما يزيد أيضاً من اهتمامهم بشؤون الدولة ويحفظ حياتها. ولهذا كان الرسول ﷺ يستشير أتباعه دائماً في الأمور المهمة، كما فعل قبل غزوة بدر وأحد والأحزاب، وأيضاً في حديث الإفك الذي اتهمت به زوجته عائشة رضي الله عنها. يذكر البيهقي: لما نزلت ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أما إن الله ورسوله لغنيان عنها (أي الشورى)، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي، فمن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومن تركها لم يعدم غيًّا». ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً من الناس أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ» (الدر المنثور، ج ٢، ص ٩).

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الخليفة الثاني للرسول ﷺ أنه قال: «لا خلافة إلا بالمشورة» (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء). وعلى هذا فإن مبدأ الشورى في الأمور الهامة من المبادئ الجوهرية في الإسلام، وهو ينطبق على كل من القيادة الروحية

والمدينة، رغم أن القيادة غير ملزمة بقبول تلك الاستشارة، وذلك كما تبينه كلمات الآية ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. إن على الخليفة أن يستشير أصحاب الرأي من المسلمين، ولكن القرار الأخير يظل مسؤوليته، وهو ليس ملزماً بأن يقبل كل ما تقدمه إليه الأغلبية من النصائح أو بعضها. ولقد عمل المسلمون بهذا على مدى القرون، وهناك من القرائن والدلائل ما يؤيدها في أقوال الرسول ﷺ وفي أفعاله وأفعال الخلفاء الراشدين من بعده.

إن الاعتراض الذي مؤداه: إذا كان الخليفة غير ملزم بالأخذ برأي الأغلبية، فما هي الفائدة من طلب الشورى، وما الذي يدعو الآخرين لتقديمها؟ هو اعتراض غير حكيم. إن الآية تعطي الخليفة الحق في رفض المشورة إذا ما كان على قناعة بأن ذلك الرفض هو في مصلحة الدين أو الجماعة. وهو في العادة يحترم رأي الأغلبية ويأخذ به في أغلب الأحيان، ولكن الشورى أو المشاورة ليست برلماناً بالمعنى الذي تُفهم به الكلمة بوجه عام في الغرب. إن الإسلام يحض على الشورى ولكنه لا يأمر بأخذ القرار عن طريق الاقتراع، وهما أمران مختلفان. الشورى معناها مساعدة الخليفة على التعرف على آراء أتباعه وتمكينه من احترامها بقدر الإمكان، ولكن ليس الغرض منها تقييد يديه. وقد ورد أن الرسول ﷺ رفض نصيحة الأغلبية من أتباعه، وفي بعض الأحيان رفض قبول الرأي الذي أجمع عليه الجميع. فمثلاً، عن معاملة الأسرى، نجد أنه أخذ برأي أبي بكر ورفض رأي عمر وعبد الله بن رواحة وسعد بن معاذ رضي الله عنهم (مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ٢٨٣). وفي الحديبية، وقّع المعاهدة رغم المعارضة الواضحة لصحابته (البخاري، كتاب الشورى). وبالمثل، لم يأخذ أبو بكر رضي الله عنه بالرأي الذي كاد أن يجمع عليه المسلمون فيما قيل عن عدم بعث جيش أسامة إلى الشام على إثر وفاة الرسول ﷺ (ابن الأثير، ج ٢، ص ١٣٩). وعلى النقيض من هذا، ذكر التاريخ أيضاً أنه في بعض الأحيان نزل الرسول ﷺ عن رأيه أمام رأي الأغلبية، كما فعل عند الخروج من المدينة لغزوة أُحُد.

إن سياق الآية يبين أن الأمر بالشورى وترويج ضرورة الالتزام بها كان قول المنافقين، ولا يستطيع أحد بالطبع القول بأن على الرسول ﷺ أن يلتزم بالأخذ برأي المنافقين. ومن فوائد الشورى ما يلي:

- (١) أن الخليفة أو الأمير يستطيع أن يتعرف على آراء أتباعه.
- (٢) إعانته على الوصول إلى القرار الصحيح.
- (٣) تتيح الفرصة لممثلي المسلمين للتفكير في شؤون المجتمع والاهتمام بها، وبذلك يتلقون تدريباً على جانب كبير من الأهمية في شؤون الإدارة.
- (٤) يتمكن الخليفة من تقييم القدرات الإدارية والذهنية للأفراد، مما يساعده على وضع الشخص المناسب في المكان المناسب.
- (٥) تمكن الخليفة من التعرف على الكفاءات بين مختلف أعضاء جماعته وتطلعاتهم وميولهم، وأيضاً معرفة أحوالهم الأخلاقية والروحية، وبذلك يستطيع أن يعمل على إجراء التحسينات اللازمة في أتباعه.

وفي العادة فإنه يُساء فهم بعض الألفاظ الخاصة بالتوكل، غير أن «التوكل» في أسلوب القرآن المجيد لا يعني عدم الأخذ بالوسائل المادية عند القيام بعمل ما. وعلى العكس، إن التوكل الذي يقول به الإسلام يعني أن على المرء أن يستخدم كل ما هو متاح له من وسائل مادية أولاً، ثم يضع ثقته في الله تعالى ويدعوه أن يبارك مجهوداته بالنجاح فيما يتبغى تحقيقه، مع إيمانه المستمر بأنه لا يمكن أن ينال النجاح إلا إذا شاء الله تعالى ذلك، وأن السبب الحقيقي وراء كل نجاح هو الله تعالى وحده.

ويشير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ إلى أن الرسول، والخليفة من بعده، ليس ملزماً بقبول مشورة أتباعه، فإن ذلك يكون مغايراً ومعاكساً لروح التوكل على الله تعالى. وفي الواقع إن الشخص الذي يكون ملزماً بالعمل حسب رأي شخص آخر لا يمكن أن يقال إنه يتوكل على الله ﷻ فيما يخص العمل بنصيحة الشخص الآخر.

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ
يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٦﴾

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني «غير الله تعالى» أو «من يخالف الله تعالى». وتلقي الآية مزيداً من الضوء على موضوع «التوكل على الله». فبالرغم من الأخذ بجميع الوسائل المتاحة، فإن المؤمن الصادق يضع ثقته في الله تعالى وحده.

وَمَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ وَمَنْ يُغْلَبُ يَأْتِ
بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوفِّي كُلُّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾

التفسير:

يمكن تفسير هذه الآية بطريقتين. فالرماة الذين وضعهم الرسول ﷺ على جبل أحد لحماية جيش المسلمين، تركوا مواقعهم بعد أن رأوا جيش المسلمين وقد حقق النصر على العدو وراح يطارده. ولعلمهم ظنوا أنهم بتركهم الجبل في تلك المرحلة من الحرب، لن يكونوا مخالفين لروح أوامر النبي ﷺ التي كانت تنص على عدم مغادرتهم مواقعهم تحت أي ظرف من الظروف. ولما كانت العادة لدى العرب، أن للجندي الحق في امتلاك ما يقع في يديه من غنائم الحرب خلال القتال، فقد ظنوا أنهم ربما يُحرمون من نصيبهم في الغنائم إذا ظلوا في أماكنهم دون الاشتراك في القتال. وقد أدّى هذا بهم إلى تصوّر أن الرسول ﷺ قد يعمطهم حقهم في الغنائم فيغلب ما يستحقونه، أي

يتصرف نحو حقهم بغير أمانة. وهذا التصور الخاطئ هو الذي تدينه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي أنه من المستحيل على أي نبي أن يكون غير أمين فيما يختص بحقوق الناس. وليس هناك أي اتهام من الله تعالى للرسول ﷺ بأنه كان غير أمين. فالآية لا تقول سوى أَنَّ الرسول ﷺ لم يكن ليغبط حق هؤلاء الذين أمرهم هو بنفسه أن يلتزموا أمانتهم.

ويمكن أن تُفهم الآية أيضا على أنها تؤنب المنافقين الذين تخلوا عن الرسول ﷺ في غزوة أحد. وفي هذه الحالة، تقول الآية إنه بينما أثبت المنافقون أنهم غير أمناء في حق الرسول ﷺ بتخليهم عنه في أخرج الأوقات ورفضهم القتال معه، فإن الرسول ﷺ لن يكون غير أمين في حق الله تعالى ولن يرفض القتال في سبيله تعالى، حتى ولو كان ضعيفا أو مهجورا. ويؤيد السياق هذا المعنى أيضا.

أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ
مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦١﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ إلى الرسول ﷺ وأتباعه الذين لم يهتروا لانسحاب المنافقين من معركة أحد، الأمر الذي أضعف صفوفهم، ومع ذلك تقدموا لقتال أعداء الإسلام. أما المنافقون، فإنهم بانسحابهم من المعركة استنزلوا على أنفسهم سخط الله تعالى. لقد تجنبوا نار الحرب، ولكن هناك نار أشد وطأة تنتظرهم في جهنم. لقد انسحبوا من المعركة طلبا للسلامة والأمان، ولكن هذا الانسحاب فتح لهم باب جهنم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني كمن جر على نفسه سخط الله، أو كمن عاد بسخط من الله. والمعنى الثاني يساعد أكثر على فهم التعبير المذكور أعلاه.

هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٤﴾

التفسير:

والكلمات ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعني حرفيا أنهم درجات، ولكن المقصود أن لهم درجات من فضل الله تعالى. فكلمة «أولو» مقدرة قبل كلمة «درجات»، وقد أسقطت كلمة «أولو» للتشديد على مدلول الدرجات، كما لو أنهم قد تحولوا إلى درجات من فضل الله تعالى.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ
رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ
قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٥﴾

التفسير:

الغرض من قوله تعالى: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ هو إيقاظ الرغبة في قلوب المسلمين لاتباع أسوة الرسول ﷺ الذي كان واحدا مثلهم ومن بينهم. إنه لم يكن رجلا مثلهم فقط، بل كان واحدا منهم. وإذا استطاع أن يسمو إلى الدرجات العلى من الروحية، فلم لا يستطيعون هم؟

إن جميع الأنبياء جاؤوا من بين البشر، ولهم نفس الصفات البشرية ونفس القدرات الإنسانية، ونفس الدوافع الآدمية والرغبات والتطلعات التي لدى بقية الناس، وعلى هذا فإنهم يصلحون لأن يكونوا نماذج وأمثلة حقيقية لبني جلدتهم من البشر. ولكن

ما يُسمى «ابن الله» ليس له نفس الرغبات والدوافع والقدرات البشرية، وعلى هذا فلا يصلح أن يكون مثالا لنا. فإن النموذج الذي يصلح لنا يجب أن يكون من نفس نوعنا الإنساني. أما من يكون ذا طبيعة إلهية، فإنه يكون خالياً من العواطف البشرية والضعف الإنساني، ولا يمكن أن يكون لنا مثالا نحتذي به.

تشير الآية أيضاً إلى تحقق دعاء إبراهيم عليه السلام المذكور في الآية ١٣٠ من سورة البقرة، ليبعث الله تعالى رسولا له العديد من المهام كما هو مذكور هنا في هذه الآية.

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ
أَنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ إلى غزوة بدر حيث قُتل سبعون من أهل مكة ووقع منهم سبعون في الأسر. وفي غزوة أُحُد قُتل سبعون من المسلمين، ولكن لم يقع أحد منهم في الأسر. وعلى هذا فقد أوقع المسلمون بالمشركين ضعف ما أوقعوا هم بالمسلمين.

وحقيقة أنه لم يقع أحد من المسلمين في الأسر في أُحُد تدل على إحساسهم السامي بالكرامة والشرف، فقد فَضَّلُوا أن يضْحُوا بحياتهم ولا أن يقعوا في أسر المشركين، وقد رأوا أنه من الأفضل لهم أن يتخلوا عن الحياة كلها دون أن يتخلوا عن سلاحهم ويستسلموا للمشركين. وقد وُجد بعضهم مقتولا في أرض المعركة وقد أصابته ثمانين طعنة، فكيف يمكن لرجال كهؤلاء أن يسمحوا لأنفسهم بالاستسلام لأعدائهم؟ ولعله من الأهمية بمكان ملاحظة أنه في جميع المعارك التي خاضها المسلمون إلى زمن

عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي كثيرة العدد اشترك فيها مئات الألوف من المقاتلين، فإن جميع من وقع في الأسر من المسلمين لم يتجاوز بضع مئات.

ويبدو للوهلة الأولى أن قوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ يتعارض مع ما جاء في الآية التالية حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ اللَّهَ﴾، وأيضاً مع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩ و ٨٠). وعند التفكير في الأمر بعمق يتبين أنه لا وجود للتناقض أو التعارض، فإن ما يبدو أنه أقوال متناقضة قد ذكر من وجهات نظر مختلفة. فمن ناحية السبب الحقيقي في أعمال الإنسان، فإن كلا من الأعمال الطيبة والأعمال السيئة تنبثق من الإنسان نفسه، لأنه هو الفاعل لتلك الأعمال. ولكن لما كان الله تعالى، بصفته صاحب الكلمة الأخيرة، فإنه يحقق النتائج المترتبة على أعمال الإنسان، الطيب منها والسيئ، ولذلك يمكن القول أيضاً إنها تنبثق من الله تعالى. وبهذا المعنى، فإن كلا من أعمال الإنسان الطيبة والسيئة تُنسب إلى الله تعالى. ومن ناحية أخرى، لما كان الله تعالى قد خلق كل شيء لمصلحة الإنسان، وبسبب سوء استخدام الإنسان لما خلقه الله تعالى فإنه يعاني لذلك، يكون من الصحيح القول بأن ما يصيب الإنسان من سوء إنما هو بسبب سوء عمله. ولكن حين يزول السوء بالاستخدام الصحيح لما خلق الله تعالى لنا، فإن ذلك الفضل ينبغي أن يُنسب إلى الله تعالى، لأنه هو الذي جعل في الأشياء الصفات التي بحسن استخدامها يمكن أن نستفيد منها. ومن هذه الوجهة فإن النتائج الطيبة تُنسب إلى الله تعالى بينما تُنسب الأعمال السيئة إلى الإنسان. وبهذا تكون كل الأقوال الثلاثة صحيحة رغم أنها قد تبدو متناقضة.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ أَتَقَى الْجُمُعَاتِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ
وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٧﴾

التفسير:

إن «التقاء الجمعين» المذكور في هذه الآية يتعلق بغزوة أحد التي هي الموضوع الذي يُعالج في هذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني «ليميّز المؤمنين»، ولا يعني «لأنه يريد أن يعرف المؤمنين». فحسب التعابير القرآنية يعني هذا التعبير ببساطة «لكي يميّز المؤمنين، أو لكي يجعل المؤمنين معروفين، أو لكي يفرّق بين المؤمنين والكافرين». انظر أيضاً شرح الآية ١٤١ من هذه السورة.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا
لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمٌ أَقْرَبُ مِنْهُمْ
لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٨﴾

التفسير:

إن الابتلاءات تأتي للتمييز بين المؤمنين الصادقين وأولئك الذين هم ضعاف الإيمان أو الذين يفتقدون الإخلاص. وبهذا فإن ما عانى منه المسلمون في أحد كان في الحقيقة نعمةً وفضلاً من الله تعالى في شكل هذه المعاناة. لقد عملت على التمييز بين المؤمنين المخلصين والمنافقين الذين ظلوا حتى ذلك الحين مختلطين مع الصادقين من المؤمنين.

فبينما كانوا يزعمون بأفواههم أنهم مسلمون مخلصون، فإنهم في أعماق قلوبهم كانوا أعداء للإسلام، وظهورهم بمظهر المسلمين كان يضر بمصالح المجتمع المسلم. وقد ظل المسلمون يجهلون التدابير الخفية التي كان يحكيها المنافقون للإضرار بالإسلام وأهدافه. لذلك كان من مصلحة المسلمين أن يسقط القناع من على وجوه المنافقين حتى يعرفهم المسلمون ويكونوا على حذر منهم. ومن ناحية أخرى، كما أن انكشاف أمر المنافقين كان نافعا ومفيدا للمؤمنين، كذلك فإن ظهور إخلاص المؤمنين وولائهم حقق غرضا على جانب كبير من الأهمية. فهو لم يسبب فقط خيبة أمل أعداء الإسلام الذين أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يحرزوا أي تقدم ضد الإسلام مع وجود مثل هؤلاء الرجال المخلصين، بل إنه فتح أيضا أعينهم على حقيقته؛ فقد أصبح من الواضح لهم أن الدين الذي يثير في أتباعه هذه الروح العالية من التضحية بالنفس، وهذا الثبات العجيب والإخلاص الفريد، لا يمكن إلا أن يكون على حق.

إن حرف ﴿أو﴾ قد استخدم بمعنى العطف في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾، أي «قاتلوا وادفعوا»، ويمكن أن يعني أيضا «قاتلوا أو بمعنى آخر ادفعوا». وقد استخدمت هنا: (١) لشرح معنى الجملة السابقة، أي قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وعلى هذا يكون معنى الآية كما يلي: «وقيل للمنافقين تعالوا قاتلوا في سبيل الله، أو بمعنى آخر ادفعوا هجمات الأعداء وعدوانهم». ويبين هذا المعنى أن صحابة الرسول ﷺ لم يشنوا حربا عدوانية أبدا، ولم يكن كل قتالهم سوى دفاع عن النفس. (٢) لبيان أن حرف «أو» قد استخدم هنا بمعنى «على الأقل»، وعلى هذا يكون معنى الآية هو: «قاتلوا في سبيل الله تعالى؛ فإن لم تستطيعوا أن تقاتلوا في سبيل الله، فعلى الأقل عليكم أن تقاتلوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن بيوتكم ومساكنكم»، أي أن مصلحتكم تقتضي منكم أن تدفعوا عن المدينة ضد هجمات الأعداء. (٣) أن حرف «أو» جاء بمعنى «واو العطف»، وهنا يكون المعنى «قاتلوا في سبيل الله تعالى وادفعوا هجمات الأعداء».

ويمكن أن يحمل قوله تعالى: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾ ثلاثة معان:

(١) «لو كنا نعلم أنه سيكون قتال»، أي أننا كنا نظن أنه لن يقع القتال. وقد قصد المنافقون بهذا التعبير أنهم بعد أن رأوا قوة العدو، ظنوا أن المسلمين سوف يهربون على الفور ولن يكون هناك قتال.

(٢) «لو كنا نعلمها قتالا»، أي لو كنا نعلم أن الاشتباك مع العدو سيكون قتالا، بل إنه سيكون هلاكا وانتحارا نظرا للظروف المروعة التي سيتم فيها هذا الاشتباك، والفرق الشاسع بين العدد والعتاد لدى الفريقين المتحاربين.

(٣) «لو كنا نعلم كيف نقاتل»، وفي هذه الحالة يكون قولهم هذا على سبيل السخرية أو الاستخفاف، أي أننا لا نعرف فن الحرب، ولو كنا نعلم كيف نقاتل لقاتلنا معكم.

من الواضح أن الإيماء في الآية يعود إلى انسحاب ٣٠٠ من المنافقين من ميدان المعركة في أحد تحت قيادة زعيمهم عبد الله بن أبي الذي تخلى عن المسلمين في اللحظات الحرجة وعاد مع أتباعه إلى المدينة قائلا: «إنه (أي النبي ﷺ) تجهل نصيحتي وأخذ بنصيحة الصغار من الناس». وحينئذ ذهب إليه عبد الله بن عمرو، والد جابر بن عبد الله، وطلب إليه ألا يتخلى عن الرسول ﷺ بهذا الأسلوب، فأجابه عبد الله بن أبي بالكلمات التي ذكرها القرآن المجيد: «لو نعلم قتالا لاتبعناكم»، فرد عليه عبد الله بن عمرو قائلا: «لعنكم الله، إنه سبحانه سوف يعين رسوله يقينا» (ابن جرير الطبري، ج ٣، ص ١٠٤).

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا
قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٩﴾

التفسير:

كلمة «إخوانهم» التي جاءت في هذه الآية يمكن أن تشير إلى المسلمين وإلى المنافقين. فإذا اعتبرنا أنها تشير إلى المسلمين، فإن قوله تعالى: ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يمكن أن يحمل معنيين: «قالوا عن إخوانهم المسلمين»، أو أنه يعني «قالوا لإخوانهم المسلمين». أما إذا اعتبرنا أن كلمة «إخوانهم» تشير إلى المنافقين، فإن قوله تعالى: ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يعني أن المنافقين قالوا لإخوانهم من المنافقين، أي أنهم تحدثوا فيما بينهم.

ويحتوي قوله تعالى: ﴿فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ نبوءة عن القضاء على المنافقين، وعلى هذا فإن قوله تعالى هذا يعني: «إنكم رضيتم بالقعود في بيوتكم لتنقذوا أنفسكم، والآن قد حان الأوان للقضاء عليكم، فأنقذوا أنفسكم إن استطعتم».

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا
بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٧٠﴾

شرح الكلمات:

أَمْوَاتٌ: جمع مَيِّتٌ، التي بالإضافة إلى أنها تعني الشخص الميت، فهي أيضا تعني: (١) من قُتل ولم ينتقم أحد لدمه بعد؛ (٢) من لم يترك من ورائه ذرية يخلفونه؛ (٣) من أصابه الحزن والأسف. انظر أيضا الآية ٢٩ من سورة البقرة.

التفسير:

حسب المعاني الثلاثة المذكورة لكلمة ﴿أَمْوَاتًا﴾ المذكورة تحت شرح الكلمات، تعني الآية الكريمة: (١) من المؤكد أنه سوف يتم الانتقام لدم الشهداء المسلمين؛ (٢) سوف يحل مكانهم آخرون لا يقلون عنهم حماسا وإقداما؛ (٣) رغم أنه يبدو أن هؤلاء الشهداء قد ماتوا، إلا أنهم يستمتعون بحياة سعيدة بالقرب من مولاهم ﷺ.

ولما كان الشهداء يقدمون حياتهم في سبيل الله تعالى، لذلك فإنه سبحانه يهب لهم في العالم الآخر نوعا خاصا من الحياة يفوق ويعلو عن الحياة التي ينالها المؤمنون العاديون.

فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ
بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾

شرح الكلمات:

فَرَحِينَ: جمع فَرَحَ.. نعت من الفعل فَرَحَ بمعنى: ابتهج؛ سُرَّ؛ تهلل؛ انشرح صدره؛ فخور. لذا فكلمة «فرحين» تعني: (١) مبتهجين وفخورين؛ (٢) مسرورين ومنشرجي الصدر راضين (معجم لين وأقرب الموارد). ولقد استخدمت بالمعنى الثاني هنا.

يَسْتَبْشِرُونَ: من بشر، استبشر تعني: (١) ابتهج أو سر بتلقيه أخبار مفرحة أو طيبة؛ (٢) بشر المستمعين وأدخل البهجة عليهم بأخبار سارة مفرحة (أقرب الموارد ومعجم لين). انظر أيضاً الآية ٢٦ من سورة البقرة.

التفسير:

عندما نأخذ كلمة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بالمعنى الأول المذكور لهذه الكلمة تحت شرح الكلمات، يكون معنى الآية أن الشهداء فرحون أن إخوانهم الذين تركوهم وراءهم في الدنيا والذين سوف يلحقون بهم فيما بعد، سوف يكونون قريبا من الفائزين وسوف ينتصرون على أعدائهم، أي أنه بعد الموت أزيلت الحجب، وأصبح الشهداء على علم بالانتصارات التي تنتظر المسلمين. وحسب المعنى الثاني للكلمة ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فإن الآية تعني أن الشهداء يحملون البشرى للمؤمنين وذلك عن طريق الرؤى. ويمكن أن

تعني الآية أيضا أن الشهداء يتلقون البشرى عن إخوانهم من المؤمنين، أي أن ملائكة الله تعالى تقدمهم بأخبار النجاح والانتصارات التي يحققها الإسلام.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾

التفسير:

يعني قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن أعمال المؤمنين لن تضيع عبثا، بل إنها حتما سوف تأتي بأثمارها وحسن نتائجها.

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٣﴾

التفسير:

تتعلق هذه الآية والتي تليها بالحملة التي قادها الرسول ﷺ لملاقاة أهل مكة نتيجة لغزوة أحد. وكانت الحملة الأولى في اليوم التالي مباشرة لمعركة أحد. فعندما انسحب أهل مكة من أحد واتخذوا طريقهم عائدين إلى مكة، حدث كما جاء ذكره فيما سبق أن بعض القبائل العربية في الطريق راحت تسخر منهم لأنهم لم يأتوا معهم بأي غنائم من الحرب ولم يستطيعوا القبض على أي أسير في معركة يزعمون أنهم حققوا فيها انتصارا عظيما. وحينئذ فكر أهل مكة في العودة إلى المدينة من أجل معاودة الهجوم على المسلمين وإتمام نصرهم المفقود. غير أن الرسول ﷺ الذي كان يتوقع معاودة الهجوم على المدينة، دعا على الفور صحابته أن يصحبوه للتصدي

للعُدو، وبحكمة دعا فقط أولئك القادرين من بين الذين اشتركوا في القتال بمعركة أحد. وعلى هذا، خرج الرسول ﷺ في اليوم التالي في صحبة ٢٥٠ رجلاً، فلما سمع أهل مكة بخروج المسلمين لملاقاتهم أصابهم الرُوع وهربوا. ووصل الرسول ﷺ إلى المنطقة المسماة باسم «حمراء الأسد»، وهي على مسافة تبعد ثمانية أميال من المدينة في الطريق إلى مكة، ولما رأى أن جيش مكة قد هرب وعاد أدراجه، عاد هو الآخر إلى المدينة.

والحملة الثانية وقعت بعد عام. فقبل أن يترك أبو سفيان، قائد جيش مكة، أرض المعركة، وعد المسلمين بنزال آخر بعد عام في بدر. ولكن، لما كان العام التالي عام مجاعة، لم يستطع أن يفي بوعدِهِ، فأرسل نُعَيْم بن مسعود إلى المدينة لتخويف المسلمين وإرهابهم بإذاعة بعض الشائعات الكاذبة عن أن أهل مكة قاموا بتجهيز الاستعدادات الضخمة، ولكن هذه الحيلة الخرقاء أخفقت في إخافة المسلمين الذين خرجوا إلى بدر في الموعد المعين، ولكنهم لم يجدوا أثراً لأهل مكة. وقد استفاد المسلمون من الفرصة التي أتاحتها لهم هذه الحملة، إذ استطاعوا أن يشتركوا في أعمال التجارة في سوق التجارة الكبير الذي يُعقد هناك مرة كل عام، ورجعوا إلى المدينة فائزين وراحين. وتُعرف هذه الحملة في التاريخ باسم «غزوة بدر الصغرى» لتمييزها عن غزوة بدر الكبرى التي وقعت في نفس المكان قبل عامين تقريباً.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا
لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾

شرح الكلمات:

الْوَكِيلُ: من وَكَّلَ، يُقال «وكل إليه الأمر»: سلَّمه وتركه وفوضه إليه واكتفى به. «كلني إلى كذا»: دعني أقوم به. وكيل: من يُعتمد عليه في تدبير أمر؛ أو يُفوض إليه أمر عاجز؛ الحافظ؛ النائب. والوكيل: اسمٌ من أسماء الله الحسنى بمعنى الحفيظ؛ الرازق؛ والكافي (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

تشير الآية هنا إلى تلك الشائعات الكاذبة التي رَوَّجها نَعِمْ بن مسعود عن أن أهل مكة قد جمعوا جيوشا وعتادا واستعدوا للهجوم على المسلمين. انظر أيضا الآية السابقة.

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ
يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ
ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٥﴾

التفسير:

كما سبق ذكره، عاد المسلمون من غزوة بدر الصغرى وقد حققوا أرباحا كثيرة من التجارة في السوق التجاري الذي عقد هناك، وهذا ما تومئ إليه الآية بكلمة ﴿فَضْلٍ﴾. ويعني قوله تعالى: ﴿لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾ أن المسلمين عادوا سالمين ولم يقع أي قتال، إذ لم يستطع أهل مكة أن يأتوا كما قالوا.

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا
تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنِّ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٦﴾

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ يعني:

- (١) أن الشيطان يحاول أن يُخَوِّفَ المؤمنين من الكافرين الذين هم أولياؤه.
 (٢) أنه يُخَوِّفُ الكافرين أنفسهم، أي أنه يكون سببا لخوف الكافرين، لأن أولياء الشيطان لا يمكن أن يتصفوا بالشجاعة والإقدام، وفي هذه الحالة يعود الضمير «هم» في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ إلى «الناس» المذكورة في الآية ١٧٤ السابقة.

وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٧﴾

التفسير:

يشير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى المنافقين وضعاف الإيمان الذين يدفعهم أقل ابتلاء إلى العودة للكفر. والمقصود من قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ هو ألا يكون لهم نصيب كبير من رحمة الله تعالى.

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

التفسير:

كما هو الحال في الآية السابقة، قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ يعني أنهم لن يستطيعوا أن يضرروا حُطَّةَ الله تعالى أو يعرقلوها، أو أنهم لن يستطيعوا أن يضرروا

الرسول ﷺ والمؤمنين، فمن الواضح أن الله تعالى أعلى وأسمى من أن يناله أي ضرر. وإنما جاء ذلك التعبير لبيان أن أولئك الذين يحاولون الإضرار بالإسلام أو إيذاء الرسول ﷺ وأتباعه، فإنهم في الحقيقة يحاولون الإضرار بالله تعالى نفسه، إذ من الواضح أن غرض الرسول ﷺ هو غرض الله تعالى نفسه.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ
خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٩﴾

شرح الكلمات:

حرف «ل» في قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا﴾ هنا لا يعني الغرض من الفعل ولكن يعني ما يترتب على الفعل أو نتائجه، كما جاء في الشعر العربي المعروف:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابٍ

وعلى هذا تعني الآية أن الله تعالى أملى لهم ومنحهم الفرصة لكي يصلحوا من أنفسهم، ولكن كانت النتيجة أنهم ازدادوا في ارتكاب الإثم. ويُعرف حرف «اللام» هذا باسم «لام العاقبة» في اللغة العربية.

ويمكن أن يكون حرف «اللام» يفيد السبب، كما يمكن أن يقول العربي: «خرجت من البلد لمخافة شر»، وبهذا المعنى يكون معنى قوله تعالى أن الله تعالى منحهم فرصة لأنهم ازدادوا في ارتكاب الإثم، أي أن ازديادهم في ارتكاب الإثم كان سببا في إعطائهم فرصة أطول كي يصلحوا من أنفسهم ويغيروا من أساليب حياتهم.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
 حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ
 اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي
 مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ
 تَوَلَّيْتُمْ فَتَقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٠﴾

شرح الكلمات:

لِيُظْلِعَكُمْ: يُظْلِعُ مشتقة من طَلَعَ بمعنى: ظهر؛ بدا؛ صعد. أطلعه عليه: كشفه له؛ أظهره له؛ جعله على علم به. والتعبير ﴿لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ يعني: يجعلكم ترتقون أو تصعدون حتى يظهر لكم ما في الغيب؛ بمعنى أن تنالوا السيادة أو السيطرة على ما في الغيب؛ أو بمعنى آخر ينكشف عليكم بكثرة أسرار الغيب. لقد جاء في موضع آخر من القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ أي أن الله لا يكشف غيبه على أحد بكثرة (الجن: ٢٧). فكلمة ﴿يُظْهِرُ﴾ هنا أيضاً استخدمت بمعنى السيادة أو السيطرة على شيء أو حدوثه بكثرة.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني أن المحن والابتلاءات التي عانى منها المسلمون حتى ذلك الحين لن تنتهي قريباً، ولكنها سوف تستمر إلى أن يتم التمييز بين المؤمنين المخلصين وبين المنافقين وضعاف الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ لا يعني أن الله تعالى يجتبي بعض رسله ولا يجتبي البعض الآخر، ولكنه يعني أنه من بين أولئك الأشخاص الذين قدر الله ﷻ أن يبعثهم رسلاً إلى الناس، فإنه يختار من بينهم من يصلح للعصر الذي يبعثه فيه. أو أن حرف ﴿مَنْ﴾ يفيد التأكيد دون قصر التأكيد على فريق من الناس، وفي هذه

الحالة يكون قوله تعالى يعني أن الله تعالى يختار من يشاء ليكونوا رسلاً. ولا يغبين عن البال أن اختيار الرسل يتم بتقدير خاص من الله تعالى.

وعندما قيل إن الله تعالى سوف يميّز بين الخبيث والطيب عن طريق إظهار إرادته لمن يختار من رسله، فإن السؤال الذي أثاره الكفار هو: لماذا لا يبين الله إرادته لهم؟ وللإجابة على هذا السؤال يقول الله تعالى إنه لا يتجلى بإرادته إلا على رسله ومن يشاء من المختارين، فليس جميع الناس على مقام من الطهر والتقوى ولا على قدر رفيع بما يكفي لاستقبال وحي الله ﷻ.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨١﴾

شرح الكلمات:

مِيرَاثُ: من ورث، ورث أباه أو ورث مال أبيه: انتقلت إليه ثروة أبيه بعد وفاته. ورث مجده: صار مجده إليه. ورث عن أبيه أو ورث من أبيه: انتقلت إليه ثروة أو جزء من ثروة أبيه. أورثه الشيء: جعله له ميراثاً. أورثه المرض ضعفاً: أكسبه المرض الضعف كنتيجة. ورث وإرث وتراث وميراث: ما يخلفه الميت لورثته أي تركته سواء الثروة أو المنزلة السامية أو الصفات الطيبة أو الشرف.. إلخ. وارث أي الوريث؛ و«الوارث» صفة لله تعالى بمعنى: الذي يبقى بعد فناء كل الخلق (معجم لين). الورثة: تعني انتقال الثروة وغيرها من شخص لآخر لا بالبيع ولا على سبيل الهبة. تقول العرب «ورثت علماً من فلان» بمعنى اكتسبت المعرفة من فلان (مفردات الراغب).

التفسير:

كانت العقبة الرئيسة أمام المنافقين لقبول الإسلام هي تلك الدعوات المتتالية للمسلمين من أجل الإنفاق في سبيل الله تعالى وتقديم الكثير من التضحيات من أجله. وتخبرهم هذه الآية الكريمة أن امتناعهم عن الإنفاق في سبيل الله تعالى لن يؤدي إلى خيرهم ونفعهم، ولن يحفظ أموالهم من الضياع والدمار.

ومن الواضح أن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يعني أن الله تعالى سوف يتسلم السماوات والأرض كإرث يؤول إليه من شخص آخر، فإن كلمة ﴿مِيرَاثُ﴾ تعني الملكية أيضاً، كما تعني الكلمة أيضاً تخصيص جزء من شيء لشخص ما، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ (المؤمنون: ١٢). فالفردوس ليس ملكية خاصة لأحد، وإنما يخص الله تعالى جزءاً منه لكل مؤمن.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ
وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٢﴾

التفسير:

يعبر الله تعالى عن تعنيفه وتحذيره بقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ مما يعني أنه سبحانه ليس غافلاً عن هذه الأقوال الصفيقة، وأن قائلها لا بد أن يحاسبوا عليها أمام الله تعالى.

وكان اليهود قد قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وذلك نيابة عن المنافقين وتعبيراً عن تفكيرهم عندما دُعوا إلى إنفاق أموالهم في سبيل الله ﷻ فبخلوا بها كما جاء في الآية ١٨١ السابقة. وتعبّر هذه الكلمات عن فكر أولئك البخلاء وضعاف الإيمان الذين يقبلون ديناً جديداً ولكنهم يجدون أنه من الصعب عليهم مواجهة المطالب

المالية المتزايدة، وأحيانا يصيحون وقد نفد صبرهم: «هل أصبح الله فقيرا حتى يُطلب منا أن ننفق أموالنا التي حصلنا عليها بالتعب والعناء؟ وفي الحقيقة، إن أحد الأسباب الرئيسة لمعارضة أي حركة دينية جديدة هو تردد الناس في التضحية بأموالهم وراحتهم كما يتطلب الدين الجديد.

وقوله تعالى: ﴿سَكَتُوبُ مَا قَالُوا﴾ يعني أن الله تعالى لن يترك مثل هذه الأقوال الفاسدة دون عقاب، مما يتضمن أن ما يغفره الله تعالى لا يُكتب.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٣﴾

التفسير:

يرد قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ويفند الدعوى التي تضمنها قول الكافرين المذكور في الآية السابقة. وكأنهم يقولون إنه لو كان الإسلام دينا صحيحا لكان الله تعالى نفسه قد أعانه وأيده، ولما اضطر إلى أن يطالب الآخرين بتقديم أموالهم لمساعدته. وقد جاءت الإجابة على هذا الاعتراض بأنه لو كان الرسول ﷺ مدّعيًا كاذبًا وأعانه الله تعالى على التقدم والازدهار، فإن ذلك يعني أن الله ﷻ (تعالى عن ذلك) يخطئ خطأ كبيرا تجاه الناس بمساعدته لمدّع كذاب وبذلك يعمل على إضلال الناس. ولكن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون الإسلام دينا غير صحيح؛ لأنه ينال العون من الله تعالى.

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ
لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ
قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي

بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٤﴾

التفسير:

إن أعداء الحق لا يعترفون أبدا بأخطائهم، فإنهم يعملون دوما على إيجاد حجج جديدة من أجل عدم قبول الحق. فعندما قيل لليهود أنهم عارضوا أنبياء الله تعالى من خلال حسدهم وجشعهم كما جاء ذكر ذلك في الآيتين ١٨١ و ١٨٢ راحوا يقولون أنهم لا يعارضون المسلمين حسدا من عند أنفسهم، وإنما لأن المسلمين يأكلون حتى الحيوانات التي يقدمونها قربانا لله تعالى بدلا من حرقها بالنار كما يفعل اليهود حسب شريعة التوراة (انظر سفر اللاويين ١: ١١-١٧)، وعلى هذا، ليس هم الذين يتصفون بالحسد والجشع، وإنما عملا بما تأمرهم به شريعتهم، لا يمكنهم قبول الرسول ﷺ الذي لم يحترم قوانين هذه الشريعة.

ويجب القرآن المجيد على هذا الاعتراض بقوله إن اتباع الشريعة في إحراق القرايين ليس معيارا لمعرفة صدق النبي، لأن ذلك يمكن أن يفعله شخص مدّع كذاب. وإنما أن يأتي النبي ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هو ما يدل على صدقه. ومع ذلك حتى ولو كان المعيار الذي يدل على صدق النبي هو أتباعه أمر التوراة بإحراق القرايين، فلا حق لليهود أن يقدموا أي اعتراض، إذ يكون السؤال الذي يُوجّه لهم هو: لماذا رفضوا الإيمان بالأنبياء الذين اتبعوا هذه الشريعة أتباعا كاملا؟ وحقيقة أن مطلب اليهود المشار إليه في قوله تعالى: ﴿بِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ قد جاء ذكره في الآية منفصلا عن قوله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يبين أن ما كان يقصده اليهود لم يكن طلبا لمعجزة، وإنما كانوا يشيرون فقط إلى قانون الشريعة فيما يختص بالقرايين، وليس إلى معجزة نزول نار من السماء لتأكل ذبائح القرايين، كما هو شائع بطريق الخطأ.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٥﴾

شرح الكلمات:

الزُّبُرُ: جمع زبور المشتق من زَرَّ. يُقال زَرَّ البئر أي طواها أو بَطَّنَها بالحجارة. زَرَّ البناء: رفعه بوضع الحجارة بعضها على بعض. زَرَّ الكتاب: كتبه. زَرَّ السائل: انتهره أو ونخه. زبور: كتاب؛ شيء مكتوب: كتاب الحكمة أو الفكر الذي لا يحتوي على أوامر أو أحكام شرعية. وبناءً على المعنى الحرفي للكلمة؛ يكون معنى كلمة «الزبور»: الكتاب الذي يصون ويُجَمِّل مصدر المعرفة كما يقوم الإطار أو البطانة بصيانة وتجميل البئر؛ أو الكتاب الذي يحتوي على التحذيرات. ولقد غلب استخدام كلمة «الزبور» على مزامير داود عليه السلام. و«زبور» أيضاً جمع «زبر» بالكسر وتعني الكتاب؛ وتعني أيضاً: الحكمة أو العقل (أقرب الموارد ومعجم لين).

التفسير:

من الجدير بالذكر أن هذه الآية على عكس الآية السابقة لم تذكر أي إشارة إلى إحراق القرابين بعد ورود كلمة «البيّنات»، مما يبين أن إحراقها لا يشكل أي دليل على صدق من يأتي بدعوى النبوة.

كذلك يجدر ملاحظة أنه بينما جاءت كلمتا «الْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ» في صيغة الجمع، فإن كلمة «الْكِتَابِ الْمُنِيرِ» جاءت في صيغة المفرد، والسبب في ذلك أن جميع أنبياء بني إسرائيل اتبعوا كتاباً واحداً فقط هو التوراة الذي جاء به موسى عليه السلام، بينما جاء كل منهم بالعديد من البيّنات الواضحة وكتب منفصلة أو وحي يحتوي على الكثير من الحكمة والتبشير والإنذار.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ
أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ
وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٦﴾

التفسير:

لعل الموت هو أكثر الظواهر الأكيدة في الطبيعة، ومع ذلك فإن موقف الإنسان حياله هو الإهمال وعدم المبالاة. وقد وُصفت الحياة الدنيا هنا بأنها ليست ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، أي أنها باطل خداع، لأنها من حيث الظاهر تبدو جذابة وحلوة، ولكن حين ينغمس المرء في محاولة الحصول على مُتَعَهَا ومَتَاعِهَا، فإنه يجدها مرة وخادعة.

تَبَلَّوْا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعَنَّ
مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٧﴾

التفسير:

إن المحن والابتلاءات ضرورية وهامة، وتخدم أغراضاً أربعة:

- (١) أنها تميز بين المترددين والمتذبذبين وضعاف الإيمان، وبين المؤمنين المخلصين الذين يثبتون على إيمانهم القوي الذي لا يتزعزع.
- (٢) أنها تكون وسيلة للرقى الروحي لأولئك المؤمنين الصادقين.

(٣) أن من يتعرضون للمحن والابتلاءات يعلمون مدى قوة أو ضعف إيمانهم، وبالتالي تُتاح لهم الفرصة لتشكيل سلوكهم حسب ما يرون.
 (٤) تبين المحن والبلايا أيضا الحق في نوال الجزاء لمن يثبت استحقاقه.
 وفي الحقيقة، لم يحدث أبدا أن جاء نبي، ولم يُضطر هو وأتباعه إلى التمسك بالصبر حيال ما أصابهم من مصاعب ومشاق.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ
 وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
 فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٨﴾

التفسير:

الميثاق المذكور في هذه الآية لا يشير إلى ميثاق معين، ولكنه يشير إلى الميثاق العام الذي يأخذه الله تعالى من أتباع كل نبي بأنهم سوف يقومون بنشر الرسالة التي آمنوا بها ويعيشوا حياتهم حسب أوامرهم. ويعود ضمير «الهاء» في قوله ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ إما إلى الكتاب أو إلى الميثاق.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ
 أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ
 مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٩﴾

شرح الكلمات:

مَفَازَةٌ: من فاز أي: ظفر بما يريد. فاز منه: نجا منه (مكروه وما شابه). «مفازة»: المنجاة أو المفلة (أقرب الموارد).

التفسير:

إن قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ الذي جاء مرتين في الآية لا يجعلها أكثر وضوحاً فحسب، بل يضيف إليها جمالا وقوة. إن مثل هؤلاء الناس الذين يفرحون بما يقتربون من السيئات والذنوب، ولا يصيبهم القلق لذلك، ولا يرغبون ولا يأبهون بمصالحهم الروحية، وإنما يكتفون فقط بنوال الحمد والثناء الزائف من الناس، يجب ألا يظنوا بأنهم آمنين من العقاب الإلهي.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩٠﴾

التفسير:

بعد أن تناول القرآن المجيد بشيء من التفصيل الأحداث المتعلقة بغزوة أحد، والمشاق التي تحملها المسلمون، والنتائج التي ترتبت على ذلك، يسري الله تعالى عن المؤمنين بإعلانه أن تلك المشاق لم تكن سوى مرحلة عابرة فقط، وأن النصر النهائي سوف يكون من نصيبهم، فإن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقد قدر بفضله أن يهب المسلمين كلا من البركات الروحية والدنيوية.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩١﴾

التفسير:

إن الدرس الذي يتضمنه خلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار هو أن الإنسان قد خلق من أجل تحقيق الرقي الروحي والديني، وأنه إذا عمل بحسب مقتضيات التقوى، فإن مرحلة الظلام والمحن لا بد أن تعقبها مرحلة النور والسعادة. لمزيد من شرح هذه الآية انظر شرح الآية التالية.

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ
فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٦﴾

شرح الكلمات:

بَاطِلًا: مشتق من بَطَلَ أي: فسد؛ سقط حكمه؛ ذهب ضياعًا وخسرًا وهدرًا. ذهب دمه باطلاً: أي هدرًا. بطل في حديثه: أي هَزَلَ. باطل: زائف؛ عبث؛ بلا هدف؛ فارغ؛ بلا قيمة (معجم لين).

التفسير:

إن مثل هذا النظام العظيم الذي جاءت الإشارة إليه في الآية السابقة، لا يمكن أن يكون قد خُلق بغير هدف أو غرض. إن ظاهرة الليل والنهار المذكورة في الآية السابقة تبين كيف يمكن تحقيق ذلك الهدف. فبظهور الشمس يتم إنارة الدنيا كلها ويبدأ الناس في العمل، ثم يرخي الليل سدوله، ويختفي عنا ضوء الشمس، ويخلد الناس إلى النوم. ولكن حتى في ذلك الوقت، تظل بعض الأجرام السماوية تقوم بتأدية عملها. وعلى هذا فإنه خلال كل من الليل والنهار، تقوم الأجرام السماوية

بتأدية المهام المكلفة بها، وتخدم الإنسان بولاء تام. ولما كان الكون كله مُسَخَّرًا لخدمة الإنسان، فلا بد أن خلق الإنسان كان أيضا لتحقيق هدف عظيم. فمن بين الناس من يكون مثل الشمس، يشع بنور وضاء، والبعض من الناس ليس له نور في ذاته، ولكنه يتلقى النور من غيره. ومثل هؤلاء إذا وضعوا أنفسهم تجاه الشمس الروحانية فإنهم ينيرون بضوئها، وأما أولئك الذين يحجبون أنفسهم عنها يظلون دائما في الظلام.

وعندما يتفكر الإنسان في النظام الروحي المقابل للنظام المادي لخلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار والنظام الكامل الذي يشمل الكون كله، فإنه يتأثر بعمق لمدى عظمة وحكمة الخالق، ومن أعماق قلبه يهتف قائلا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾، ثم يغشاه التخوف من أن يُحرَم من نور الشمس الروحية فيصبح قائلا: ﴿سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، التي ليست سوى التخبط في سواد الظلام الروحي والانحطاط الأخلاقي.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٣﴾

التفسير:

إن المؤمن الصادق لا يخشى شيئا أكثر من سخط الله تعالى الذي هو كالنار التي تحرق وتبيد أثر كل الأعمال الطيبة، وهذه النار نصيب الخطاة وميراثهم، والذين لا يمكن أن ينقذهم أحد من عذاب الله تعالى.

رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٤﴾

شرح الكلمات:

ذُنُوبٌ: والتي هي أقل درجة، تشير بصفة عامة إلى الضعف الفطري والأخطاء العادية؛ كما يمكن أن تشير إلى تلك الأعماق الدفينة في نفوسنا والتي لا يصلها ضياء الشمس كما يجب. أما (السيئات) والتي هي أشد وطأة؛ فإنها تعني سحب الغبار التي تحجب ضوء الشمس عن أنظارنا. انظر أيضاً البقرة: ٨١ وآل عمران: ١٧.

التفسير:

في الآية ١٩١ السابقة نجد أن كلمة ﴿النَّهَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ قد جاءت بعد كلمة ﴿اللَّيْلِ﴾ مما يشير إلى أن السالك في الطريق إلى الله تعالى، بعد أن يمر بعد ليل الابتلاءات والذنوب، فإنه في النهاية يستدق ويصطلي بنور الشمس الروحية وذلك بقبول داعي الله الذي ينادي للإيمان. ولكن كما تشير الآية الحالية، يغمره الخوف من أن يعرقل ضعفه وسقطاته طريق تقدمه، أو أن غبار ذنوبه وسحب سيئاته سوف تخفي عنه نور ودفع الشمس الروحانية، لذلك فإنه يدعو بتواضع ومذلة لله تعالى أن يزيل عنه غبار الذنوب ويبدد عنه سحب السيئات التي اقترفها.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي عدنا يا رب عند الموت مع الأبرار، والمقصود هو «توفنا أبراراً» أو «لا تميتنا إلا ونحن أبراراً أتقياء».

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٥﴾

التفسير:

انظر تفسير الآيات: إبراهيم: ٤٨؛ المؤمن: ٥٢.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ
 عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ
 مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّزِيتُ الْهَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِّنْ
 دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقَتِلُوا
 لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
 وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٦﴾

التفسير:

لما كانت هذه السورة تتناول العقائد المسيحية ومثالياتها وأسلوب الحياة فيها، ولما كانت المسيحية، رغم ادعائها بعكس ذلك، تضع المرأة في مكانة أقل من الرجل، كان من المناسب هنا التركيز على أهمية المساواة بين المرأة والرجل في المجالات الروحية. وقد أكد القرآن المجيد في أماكن عدة على هذه المساواة وخاطب المؤمنين والمؤمنات على قدم المساواة وبنفس الأسلوب، وجعل كلا من الفريقين خاضعا لنفس الأوامر الإلهية وله نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات. وباختصار، فإن الإسلام يعترف بالمساواة بين المرأة والرجل في الحقوق الاجتماعية والدينية. والغرض من قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ هو تأكيد ما نصت عليه الآية من المساواة بين الرجل والمرأة.

وتقدم الآية أيضاً دحضاً قوياً لاتهامات الشيعة لصحابة النبي ﷺ الذين غفر الله لهم كل زلاتهم وهفواتهم - إن وجدت - لقاء الأعمال الصالحة التي قاموا بها في سبيله تعالى.

لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٧﴾

التفسير:

بالإضافة إلى أن الآية الكريمة تتعلق بزمان الرسول ﷺ، فإنها ترتبط أيضا بعصرنا الحاضر وما تم فيه من التقدم المادي الرائع للأمم المسيحية في جميع مناحي الحياة. كما أنها تحذر المسلمين أيضا ألا ينخدعوا بسحر هذه الحضارة الزائلة ولا يغتروا بفتنتها العابرة.

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٨﴾

التفسير:

إن ازدهار الحضارة المسيحية وتقدمها أمر مؤقت. وتوحي الآية الكريمة إلى العقاب المرعب الذي ينتظرهم والذي بدأ يحل بهم الآن^{١٠}.

لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٩﴾

شرح الكلمات:

نُزُلًا: المصدر من نزل: أي حطَّ من علٍّ إلى سُفْلٍ؛ انحدَر؛ حلَّ بالمكان أو أتى المكان. نُزُل: الضيوف؛ ما هيئ للضيف أن ينزل عليه؛ الطعام المُعد للضيف؛ الطعام ذو البركة (معجم لين وأقرب الموارد).

١٠. أي أهوال الحرب العالمية الثانية التي كانت تضطرم أثناء كتابة هذا التفسير. (الناشر)

الأبرار: جمع البار (الشخص الصالح). لقد تُرجمت الكلمة هنا بمعنى (الصالح) بغرض الإيجاز؛ ولكن في حقيقة الأمر فإنها تعني «الأشخاص الذين هم على درجة عالية من الصلاح». انظر أيضاً سورة البقرة: الآية ٤٥ و ١٧٨.

التفسير:

إن المتقين والأبرار سيكونون بمنزلة الضيوف المكرمين لدى الله تعالى، يسكنهم عنده ويطعمهم طعاماً مباركاً. وسوف يكون هذا، كما تذكره الآية ﴿تُزَلَّ مُنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ولكن في واقع الأمر يظل ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾، أي أنه خير من ذلك «النَّزْل». ويجدر ملاحظة أن الآية الكريمة ذكرت فئتين من الناس: (١) ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ أي أولئك الذين يخشون أن يفقدوا حب الله تعالى فيحرصوا على عمل كل ما فيه رضاه، وهم الأتقياء العاديين من الناس؛ (٢) ﴿الْأَبْرَارِ﴾ الذين هم على درجة عالية من التقوى. والكلمات التي عبّرت عن الجزء المعد للفئة الأولى هي ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، بينما عبر سبحانه عن الجزء المعد للفئة الثانية بقوله تعالى: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي أن الأبرار سوف يعيشون مع الله تبارك وتعالى نفسه ويتمتعون بصحبته.

وَاتَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ
لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٠﴾

التفسير:

تتضمن الآية الكريمة نبوءة بأن عدداً كبيراً من النصارى واليهود سوف يقبلون الإسلام في النهاية.

والكلمات التي جاءت في الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ عندما تأتي في حق الكافرين فإنها تعني أن الله تعالى سريع الحساب وإنزال العقاب، وإذا جاءت في حق المؤمنين فإنها تعني أن الله تعالى سريع الحساب ومنح الثواب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠١﴾

شرح الكلمات:

صَابِرُوا: من صبر بمعنى تجلّد أو ثبت؛ أو كبح جماح نفسه؛ أو تحمل الصعاب بالحلم والأناة. صابره: غالبه في الصبر؛ غالبه في تحمل الصعاب؛ نafسه في التجلّد والثبات (معجم لين وأقرب الموارد).

رَابِطُوا: مشتق من ربط: أي أوثقه وشده؛ أوثق الحيوان بحبل حتى لا يهرب ويظل في مكانه. ربط جأشه: اشتد قلبه. ربط الله على قلبه: قوّاه وصبره. رابط الأمر: واطب عليه. رابط الفريقان: ربط كل فريق منهم خيله استعداداً للفريق الآخر. رابطوا: واطبوا على محاربة أعدائكم؛ أوثقوا خيولكم استعداداً للمواجهة على الحدود؛ كونوا مستعدين لأعدائكم عند الحدود؛ قدموا أنفسكم دائماً وطوعاً في خدمة دينكم؛ حافظوا على الصلاة في أوقاتها (معجم لين وأقرب الموارد).

التفسير:

هذه الآية الأخيرة من السورة مهمة جداً، وتذكر الوسائل الضرورية اللازمة لتحقيق الأهداف القومية. وعندما نأخذها بالمعنى المادي فإنها تعني أنه لكي يحقق المسلمون أهدافهم، ينبغي عليهم ألا يتحلوا فقط بالصبر والثبات والإقدام على بذل التضحيات أكثر من معارضيتهم وأعدائهم، ولكن عليهم أيضاً أن يكونوا على حذر وأن يهتموا بوجه الخصوص بالعمل على تقوية حدودهم. وعندما نأخذها بالمعنى الروحي، فإن

الأوامر التي تحتويها الآية الكريمة تعني أنه ينبغي على المسلمين ألا يتمسكوا فقط بتعاليم دينهم والعمل بمقتضاها بصدق وإخلاص، وإنما عليهم أيضا أن يحملوا رسالة الإسلام ويبلغوها بحماس إلى غير المسلمين، وأن يقيموا مراكز للدعوة في بلادهم، وفي نفس الوقت يهتموا أيضا بحماية أنفسهم من جميع حملاتهم وهجماتهم. والآية تشير بوجه خاص إلى المسيحيين الذين ثبت أنهم من أكثر الناس عداوة للإسلام. إن الضرورات الخمس التي يجب توفرها لتحقيق النجاح المذكور في هذه الآية الكريمة هي:

- (١) التحلي بالصبر والثبات المطلق.
 - (٢) أن يفوق الصبر والثبات لدى المسلمين ما لدى عدوهم.
 - (٣) الانخراط دائما بمثابرة واجتهاد في خدمة الدين والمجتمع.
 - (٤) المحافظة على المراقبة اليقظة للحدود من أجل الدفاع ورد هجمات العدو.
 - (٥) المداومة على حياة التقوى والخوف من فقدان حب الله تعالى.
- آه! ما أعظمه من دواء لعلاج كافة علل المسلمين، ولكن للأسف ما أشد ما ناله من إهمال!

